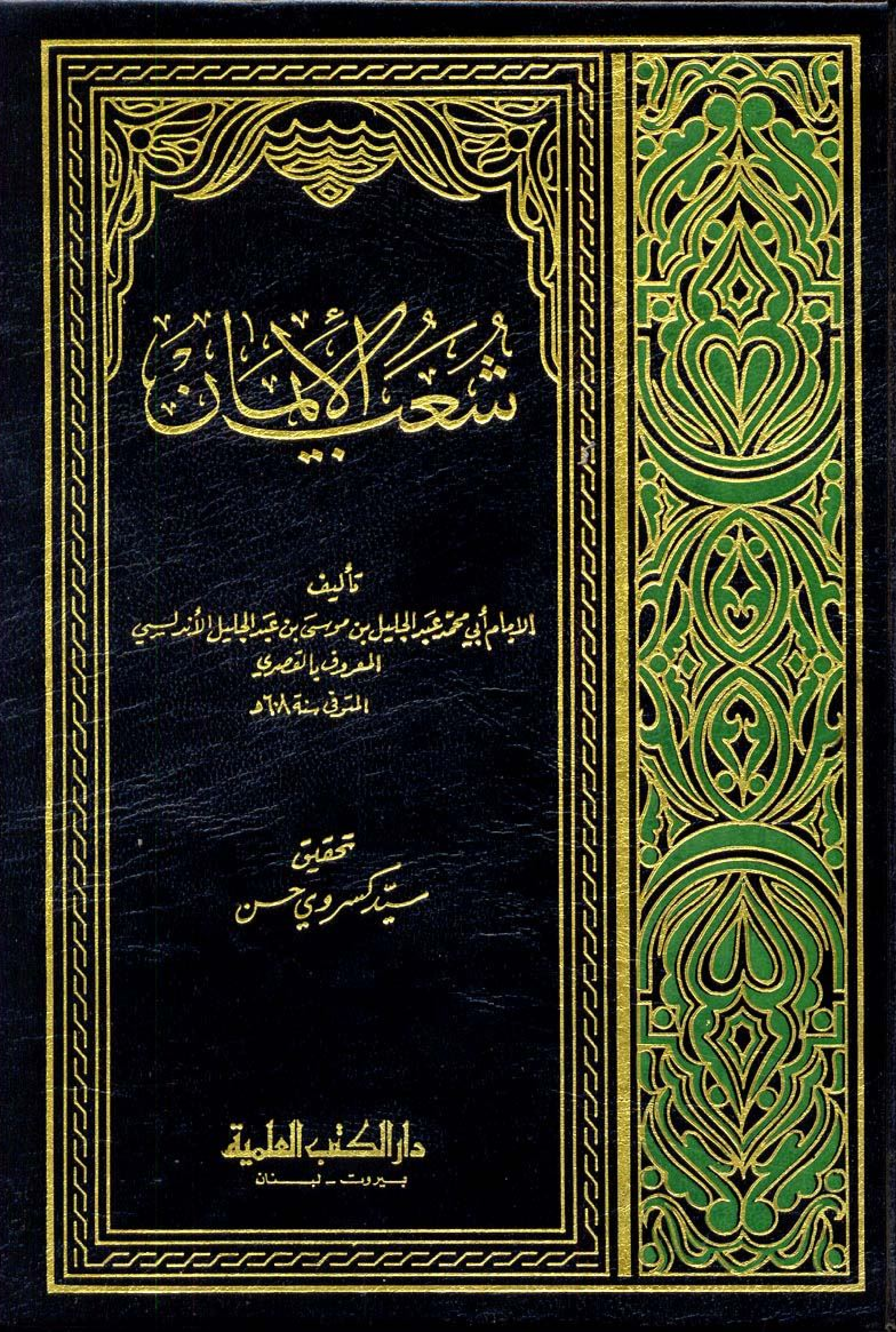

شعب الإيمان
تأليف
الإمام أبي محمد عبد الجليل بن موسى بن عبد الجليل الأندلسي
المعروف بالقصري
المتوفى سنة ٦٠٨ هـ
تحقيق
سيد كسروي حسن
دار الكتب العلمية
بيروت - لبنان



تأليف

الإمام أبي محمد عبد الجليل بن موسى بن عبد الجليل الأندلسي
المعروف بالقصري
المتوفى سنة ٦٠٨هـ

تحقيق

سيد كسروي حسن

دار الكتب العلمية
بيروت - لبنان

الطبعة الأولى
١٤١٦هـ - ١٩٩٥م.

دار الكتب العلمية بيروت - لبنان
ص.ب: ١١/٩٤٢٤ - تلكس: Nasher 41245 Le
هاتف: ٣٦٦١٣٥ - ٦٠٢١٣٣ - ٨٦٨٠٥١ - ٨١٥٥٧٣
فاكس: ٠٠/٩٦١١/٦٠٢١٣٣

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

إهــداء

- إلى: الخاشعين المتبتلين في سكنات الليل.
- إلى: السالكين دروب الخير والدالين إليه.
- إلى: الطالبين من الإيمان أوفاه وأكمله.
- إلى: الصامتين المتفكرين في آي رب العالمين.
- إلى: المتأملين في عبادة سيد المرسلين.

أقدم هذا الكتاب

أبو إسلام
سيد كسروي حسن

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة المحقق وتشتمل على

- خطبة الكتاب.
- التعريف بالكتاب.
- ترجمة المؤلف.
- منهج التحقيق.
- وصف المخطوط.
- صور المخطوط.



بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة المحقق

الحمد لله.. ثم الحمد لله.. ثم الحمد لله وسّع أبواب الطاعات وأكثر في شعبها، وضيق أبواب المعاصي وحدّ من دروبها فقال: ﴿وَمَا تَفْعَلُواْ مِنْ خَيْرٍ يَعْلَمْهُ ٱللَّهُ وَتَزَوَّدُواْ فَإِنَّ خَيْرَ ٱلزَّادِ ٱلتَّقْوَىٰ﴾[1] وقال: ﴿إِنَّ رَبَّكَ وَاسِعُ ٱلْمَغْفِرَةِ﴾[2] وأنعم عليهم بالهداية فقالوا: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِي هَدَانَا لِهَٰذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِيَ لَوْلاَ أَنْ هَدَانَا ٱللَّهُ﴾[3] وأنعم عليهم بالطاعة فقال: ﴿وَإِن تَعُدُّواْ نِعْمَةَ ٱللَّهِ لاَ تُحْصُوهَآ﴾[4].

وعدّد المعاصي فقال: ﴿قُلْ تَعَالَوْاْ أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ أَلاَّ تُشْرِكُواْ بِهِ شَيْئاً وَبِٱلْوَالِدَيْنِ إِحْسَاناً وَلاَ تَقْتُلُواْ أَوْلاَدَكُمْ مِّنْ إمْلاَقٍ نَّحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ وَلاَ تَقْرَبُواْ ٱلْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَلاَ تَقْتُلُواْ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِي حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلاَّ بِٱلْحَقِّ ذَٰلِكُمْ وَصَّاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ * وَلاَ تَقْرَبُواْ مَالَ ٱلْيَتِيمِ إِلاَّ بِٱلَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُ وَأَوْفُواْ ٱلْكَيْلَ وَٱلْمِيزَانَ بِٱلْقِسْطِ لاَ نُكَلِّفُ نَفْساً إِلاَّ وُسْعَهَا وَإِذَا قُلْتُمْ فَٱعْدِلُواْ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ وَبِعَهْدِ ٱللَّهِ أَوْفُواْ ذَٰلِكُمْ وَصَّاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ * وَأَنَّ هَٰذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيماً فَٱتَّبِعُوهُ وَلاَ تَتَّبِعُواْ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِ ذَٰلِكُمْ وَصَّاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾[5].

وفتح أبواب التوبة على مصراعيه فقال: ﴿قُلْ يَا عِبَادِيَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُواْ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ لاَ تَقْنَطُواْ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعاً إِنَّهُ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ﴾[6].

---

(١) سورة البقرة (الآية: ١٩٧).

(٢) سورة النجم (الآية: ٣٢).

(٣) سورة الأعراف (الآية: ٤٣).

(٤) سورة إبراهيم (الآية: ٣٤).

(٥) سورة الأنعام (الآيات: ١٥١، ١٥٢، ١٥٣).

(٦) سورة الزمر (الآية: ٥٣).

وبيّن حبيبه المصطفى ونبيه المجتبى أن الله يغفر للعبد ما لم يغرغر، وما لم تطلع الشمس من مغربها.

وأشهد أن لا إله إلا الله يسر على الناس أمر الإقبال إليه وعسّر أمر الإدبار عنه وجبل الخلق على الطاعة وحببها إليهم وكرههم في المعصية وبغضهم فيها وجعل أهل الطاعة إلى الناس محبوبين وبين العباد مقبولين وأهل المعصية مبغضين وعنهم معزولين.

وأشهد أن سيدنا ونبينا محمد ﷺ أول السابقين إلى طاعة رب العالمين، الذي عبده بكل ما آتاه الله من علم وقوة يقين، وبيّن أن الله عند حسن ظن عبده به فقال حاكياً عن ربه: «أنا عند ظن عبدي بي وأنا معه حين يذكرني فإن ذكرني في نفسه ذكرته في نفسي وإن ذكرني في ملأٍ ذكرته في ملأٍ خير منهم وإن تقرب مني شبراً تقربت إليه ذراعاً وإن تقرب إليّ ذراعاً تقربت منه باعاً وإن أتاني يمشي أتيته هرولة»(١).

أما بعد:

فإنه مما ينبغي على كل مسلم معرفته والسعي فيه أن يقلب في كتاب ربه وبارئه ليعرف ما يقربه إليه ويرضيه ويجنبه من النار والشقاء وينجيه.

وقد مَنَّ الله سبحانه وتعالى على عباده بمن قصر عليهم طرق البحث والعناء والجهد والاستقراء فوضعوا مؤلفاتهم لتكون خير زاد ليوم المعاد وأيضاً تعين على فهم الدين وتكون نماذج للاستقراآت والاستنباطات لفهم الأحاديث والآيات لبلوغ الغايات والمقصود من العبادات فكان من بينها هذا المؤلّف الفريد والذي يستفيد منه القارىء والمريد.

وقد بدأ مؤلفه بمقدمة مفيدة في أمر التوحيد فأجاد فيها وأفاد ثم عرج إلى مقصوده فذكر الحديث الذي هو موضوع الكتاب بشرح واف مفيد وإسهاب.

فجال ببصيرته في أحاديث النبي ﷺ وآي الكتاب فاستنبط من شعبه أربعاً وسبعين وكان له في شرحها نكات وفوائد صال في شرحها وجال فوفق في أغلب الأحوال وكبى جواده وزل قلمه في بعض الأحيان كما هي عادة كل فارس وعالم وإنسان، فغطت صولاته وجولاته على كبواته وزلاته.

وقد شهد له كثير من العلماء بالعلم والإقدام وإن كان من بينهم من غمزه بغير ذلك من

---

(١) أخرجه مسلم في كتاب الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار، وأحمد في المسند (٢/ ٣١٥)، وابن حجر في الفتح (٣/ ٣٨٤).

شديد الكلام وقد وقفت على مقصودهم فجعلني ألتمس العذر لهم كما وقفت على أجاويده وفوائده واستنباطاته التي دفعتني إلى أن أخرج هذا الكتاب لكل مسلم بصير يميز الغث من الثمين ويتغاضى عن زلات العلماء والمسلمين ليتزود ليوم المعاد بخير زاد من فهم وتدبير وعمل بآيات رب العباد.

وعلى العموم سوف تقف أخي القارىء الكريم على ما لم تقف عليه من قبل وتتعلم منه كيفية تقليب النظر والفكر فيما ترى وتسمع وتحس وتدرك.

وستجد نفسك أثناء قراءته في روضات طيبات تقطف وتجني أحلى الثمرات وفي أحيان قليلة تجد نفسك في مفازات فالتمس من ربك الفوز والثبات وقد أشرت إلى ذلك في حينه ليكون لك دليلاً ورفيقاً في الوصول إلى صواب الطريق لتستأنف متعتك في تلك الروضات وليس هناك ورد بلا شوك ولا حلوى بغير نار.

فهو كتاب ثماره من أنضج وأحلى الثمار يأخذ بيدك إلى العزيز الغفار في هدوء ويسار.

فلنا وللمؤلف ولك ولوالدينا ولسائر المسلمين نسأل الله التمسك بسائر شعب هذا الدين وأن يرزقنا وإياكم ووالدينا حسن الختام بالموت على دين الإسلام.

وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه أجمعين وسلم وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين. آمين. آمين. آمين.

أبو إسلام

سيد كسروي حسن

القاهرة. المطرية.



التعريف بالكتاب

هذا الكتاب الذي بين أيدينا يعد من كتب علم الكلام غير أن أسلوبه في الرقائق والأحكام وطيّب وليّن الكلام وقد كان مؤلفه من أئمة الصوفية المشهورين وعلمائها البارزين وعلماء العربية المقدمين وولي القضاء وألف الكتب فكان من ثمار علمه هذا الكتاب الذي هو نوع من أنواع الوعظ الفياض والتبصير بالتفكير والتدبير وتعليم الطالب كيفية النظر والاعتبار فيما في الكون من الآيات والشواهد الدالة على وجوب طاعة الله سبحانه وتعالى وبيان أن كل جزء من أجزاء الكون دليل في ذاته على وحدانية الله سبحانه وتعالى، وأن الكون في إجماله دليل أيضاً على ذلك.

من خصائص أسلوب المؤلف:

استخدم المؤلف أسلوباً سهلاً يسيراً مقرّعاً للنفس وآخذاً بها ولائماً لها على تقصيرها وتضييعها للأوقات وإهمالها في الطاعات وهي ما خلقت إلا لذلك وما خلق ما حولها إلا خدمة مقابل ذلك.

فإذا ضيعت وجهلت وظيفتها فقد صارت في أسفل سافلين ومن أرذل المخلوقين.

واستعمل الكاتب أسلوب التبسيط الشديد والاستنباط العميق وأحياناً البعيد وكان حريصاً على التوحيد ويحذر العبد من أن يقترف من الشرك شيئاً.

كما تميز بكثرة استشهاده بالآيات والأحاديث على منهج أهل السنة في الاستشهاد والاستنباط والتأليف فعصم كتابه في كثير من مواضعه من التناقضات.

فالله لنا وله نسأل الفوز والقبول ونيل أعلى الدرجات برحمته آمين.

ترجمة المؤلف

لم أظفر بترجمة شاملة شافية تليق بهذا العالم الجهبذ المبرز في عدة فنون تحدد لنا مولده ونشأته وتلقيه العلم وتقلبه في البلدان، على الرغم من كثرة المصادر التي وقفت عليها وذكرت ترجمة له إلاّ أنها نقلت عن بعضها البعض فكل ما توصلت إليه من ترجمته ما يلي:

اسمه وكنيته ونسبه:

هو: عبد الجليل بن موسى بن عبد الجليل(*). .

أبو محمد، الأوسي، الأنصاري، الأندلسي، القرطبي، العلامة، الإمام، شيخ الإسلام، العابد، العارف، الصوفي، الزاهد، القاضي، القصري، المالكي.

الشهرة: القصري.

وهي نسبة لنزوله بقصر عبد الكريم وهو قصر كُتَامَة وهي مدينة بالجزيرة الخضراء من أرض الأندلس.

من شيوخه:

روى عن أبي الحسن بن حنين «الموطأ» وهو صاحب ابن الطَّلاع، وروى عن فتح بن محمد المقرىء.

(*) انظر ترجمته في:

سير أعلام النبلاء للذهبي (٢١/ ٤٢٠)، (٢٢/ ١١)، بغية الوعاة للسيوطي (٢/ ٧٣ ت ١٤٦٨)، طبقات المفسرين للسيوطي أيضاً (ت ٤٨ ص ٤٩)، طبقات المفسرين للداودي (١/ ٢٥٩)، التكملة لابن الأبار (٦٥٣)، ذيل الابتهاج لابن التنبكتي (١٨٤)، إيضاح المكنون للبغدادي (٢/ ٤٩)، معجم المؤلفين لكحالة (٥/ ٨٣).

وقرأ على السهيلي، وأبي سليمان السعدي.

وصحب بالقصر أبا الحسن بن غالب الزاهد ولازمه.

وروى أيضاً عن ابن بشكوال، وابن الفخار.

من تلاميذه:

حدث عنه: أبو الحسن الغافقي.

وأبو الربيع بن سالم.

وأبو عبد الله الأزدي، وغيرهم.

وأجاز لأبي محمد بن حوط الله سنة إحدى وستمائة.

ثناء العلماء عليه:

● قال الذهبي في سير أعلام النبلاء:

«كلامه في الحقائق بديع منوط بالأثر في أكثر أموره، وربما قال أشياء باجتهاده وذوقه والله يغفر له».

●وقال أبو جعفر بن الزبير:

كلامه في طريقة التصوف سهل، محرر، مضبوط بظاهر الكتاب والسنة، وله مشاركة في علوم وتصرف في العربية، ختم به التصوف بالمغرب، ورزق من الصيت والذكر الجميل ما لم يرزق كبير أحد .

● وقال ابن الأبار:

كان متقدماً في علم الكلام مشاركاً في فنون. . وكان صاحب زهد وتبتل.

● وقال السيوطي في طبقات المفسرين:

شيخ الإسلام كان مقدماً في الكلام، مشاركاً في فنون، رأساً في العلم والعمل، منقطع القرين، متصوفاً، ورعاً عن الدنيا.

وكان له من الصيت والذكر الجميل ما ليس لغيره، وختم به التصوف بالمغرب على طريقة أهل السنة.

● وقال السيوطي أيضاً في بغية الوعاة:

قال ابن عبد الملك: كان متقدماً في صناعة العربية، وله مسائل تدل على بصيرة بها، وتبرزه في معرفتها.

أقرأ بوادي آش القرآن، والعربية.

ثم تحول إلى مراكش، وولي قضاء الجزيرة الخضراء ودكَّالة.

من مؤلفاته:

١ ـ شعب الإيمان. (وهو كتابنا هذا).
٢ ـ تفسير القرآن.
٣ ـ شرح الأسماء الحسنى.
٤ ـ المسائل والأجوبة.
٥ ـ تنبيه الأفهام إلى مشكل أحاديثه عليه الصلاة والسلام.

وفاته:

كذا تدرك المنية كل حي ونحن نطلب الأيام والأماني والمنية تطلبنا إلى أن تصلنا والله نسأل أن تدركنا على عمل صالح مقبول، وذنب مغفور، وختام حسن، آمين.

وقد توفي شيخنا القصري في حدود سنة ثمان وستمائة.

فنسأل الله أن يتغمده وموتانا وسائر موتى المسلمين بوافر رحمته.

ويجول بذهني الآن قول الشاعر:

كَيْفَ السَّبِيلُ وَقَدْ شَطَّت بِنَا الدَّارُ
أَمْ كَيْفَ أَصْبِرُ وَالأَحْبَابُ قَدْ سَارُوا
وَمَنْزِلُ الأُنْس أَضْحَى بَعْدَ سَاكِنِهِ
مُسْتَوْحِشاً حِينَ غَابَتْ عَنْهُ أَقْمَارُ
مَا كَانَ أَحْسَنَنَا وَالدَّارُ تَجْمَعُنَا
وَالْعَيْشُ مُتَّصِلٌ وَالْوَصْلُ مِدْرَارُ
يَا سَاكِنِينَ قَلْبِي أَيْنَمَا رَحَلُوا
وَرَاحِلِينَ بِقَلْبِي أَيْنَمَا سَارُوا
غِبْتُمْ فَأَظْلَمَتِ الدُّنْيَا لِغَيْبَتِكُمْ
وَضَاقَ مِنْ بَعْدِكُمْ رَحْبٌ وَأَقْطَارُ

لَيْـتَ الْغُـرَابَ الَّـذِي نَـادَى بِفُـرْقَتِكُـمْ
عَـارٍ مِـنَ الـرِّيـشِ لا تَحْمِيـهِ أَوْكَـارُ
بَعْـدَ النَّعِيـمِ بَعُـدْنـا عَـنْ مَنَـازِلِنَـا
وَبَعْـدَ أَحْبَـابِنَـا شَطَّـتْ بِنَـا الـدَّارُ

فنسأل الله أن تشط عنا الدنيا بزخرفها وقد صرنا إلى خير منها في مقعد صدق عند مليك مقتدر وحور وقصور وأحباب هناك وخلان من أول المصطفى إلى سائر من أحب الإسلام من بني الإنسان.

ونسأل الله حسن الختام لنا ولوالدينا وأزواجنا وأبنائنا وإخواننا وسائر المسلمين. آمين. آمين. آمين، وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

أبو إسلام
سيد كسروي حسن
المطرية. القاهرة في يوم
الخميس: ١٥/١٢/١٩٩٤م
١٢/ ٧/ ١٤١٥هـ

منهج التحقيق

- قمت بنسخ المخطوط ومقابلته.
- خرجت الآيات الواردة بالكتاب وكذا الأحاديث التي استشهد بها وإن كان في كثير منها ضعف إلاّ أني سكت عنها فلم أتعرض للحكم على الأحاديث إلاّ في القليل النادر.
- علقت على بعض ما ورد فيه من هنات زل فيها قلم المؤلف والله يغفر لنا وله.
- فسرت بعض ما غمض من مفردات الكتاب من لسان العرب لابن منظور.
- ترجمت للأعلام الواردين في الكتاب.
- قسمت ورقة المخطوط إلى صفحتين رمزت للصفحة الأولى بالرمز (أ)، وللثانية بالرمز (ب) مع الاحتفاظ برقم الورقة كما هو بالمخطوط وأثبت ذلك بالهوامش الجانبية للكتاب.
- قدمت للكتاب بمقدمة مختصرة ووضعت فهرساً لشعبه وموضوعاته.
- ترجمت للبلدان والمواضع الواردة في الكتاب.
- صوبت بعض الكلمات التي حرفت نظراً لسهو الناسخ.

والله سبحانه وتعالى من وراء القصد وهو حسبي ونعم الوكيل.

وصف المخطوط

عنوان المخطوط : كتاب شعب الإيمان.
اسم المؤلف : عبد الجليل بن موسى بن عبد الجليل.
مكان المخطوط : دار الكتب القومية بمصر.
رقم المخطوط : ١١٠ توحيد.
الفن : علم الكلام.
عدد الأجزاء : ٢ جزء.
عدد الأوراق : ٤١٧ ورقة.
عدد أسطر كل صفحة: ٢١ سطراً في الجزء الأول،
١٦ سطراً في الجزء الثاني.
عدد الكلمات في كل سطر: من ١١ : ١٣ في الجزء الأول،
من ١٠ : ١٢ في الجزء الثاني.
مقاس الصفحة : ١٧ × ١٠,٥ سم.
نوع الخط : خط نسخ منقوط في الغالب ومشكول في كثير من مواضعه.

ملاحظة: فقدت الورقة الأخيرة من المخطوط والتي من المحتمل أن يكون قد أثبت بها اسم ناسخ المخطوط وسنة نسخه والتي وقفت عليها في قول إسماعيل باشا البغدادي في كتابه كشف الظنون حيث قال في صفحة (٤٩) من الجزء الثاني:

شعب الإيمان للشيخ عبد الجليل بن موسى بن عبد الجليل القصري، الأندلسي، المالكي المتوفى سنة (...) ملكته في مجلدين وتاريخ كتابته سنة (٦٧٢) اثنان وسبعون وستمائة. اهـ.

وقد جاء بآخر الجزء الأول عبارة نصّها: «كتبه العبد الفقير الحقير المعترف بالذنب الكثير». اهـ.

فلا أدري أذكر اسمه وسقط من التصوير أم اكتفى بذلك.

جاء بهامش المخطوط في الجزء الأول عبارة: «بلغ مقابلة» في مواضع وتعليقات في مواضع أخرى وهو ما يفيد مقابلة المخطوط على الأصل المنسوخ عنه وقد أثبت ذلك في حينه بالهامش.



صورة صفحة غلاف المخطوط بها العنوان وبها اسم المؤلف

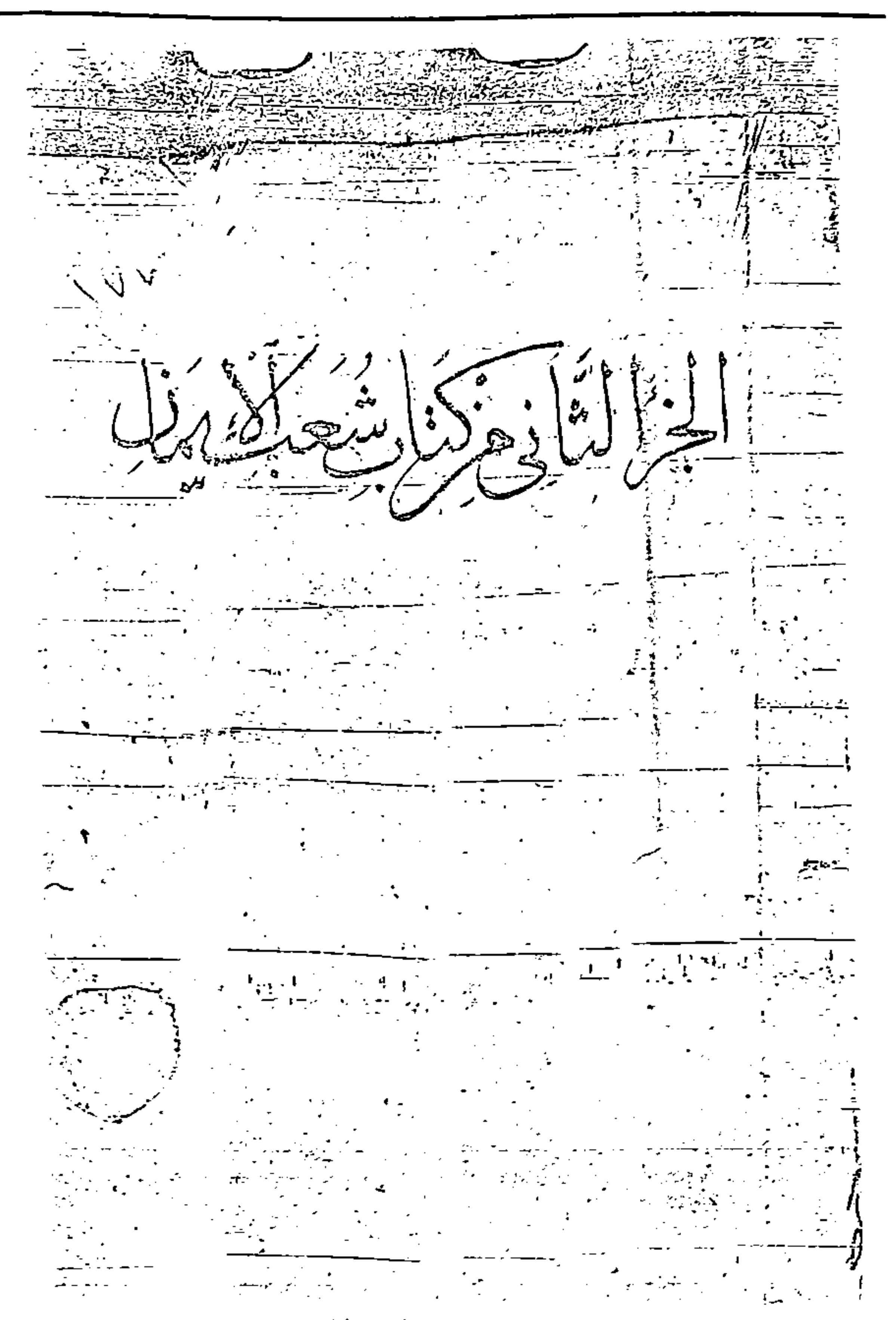
صورة الصفحة الأولى وبها البسملة وابتداء الكتاب

في عثمن بن عفان رضي الله عنه أمن هو قانت آناء الليل ساجدا وقائما
يحذر الآخرة ويرجو رحمة ربه فأخبر عن سره وأنه لا يرجو إلا رحمة
ربه منفردا حين صفا سره عن الركون إلى العمل وقطع اليأس من النجاة
إلا بالله وبذلك أمر الله نبيه عليه السلام أيضا في قوله ولله غيب السموات
والأرض وإليه يرجع الأمر كله فاعبده وتوكل عليه لا على عبادتك
فإن النفس إن طالعت إخلاصها كثر عندها عملها وذلك شرك خفي
منها لأنها أضافت لها فعلا وهو كذبة فإن الله خالق كل شيء ولن ينال العبد
هذه المرتبة في الإخلاص حتى يرى القلب بالمشاهدة كثرة عمال الله
وتفرده في ملكه وملكوته على ممر الدهور والأزمان وأنهم لم يفتروا
طرفة عين عن عبادته ويرى مقدار ما يقع عبادته عن عبادة العابدين
ويستقل حسن ما يتبع لما ذكره في عبادة العابدين فيستحي العبد من أن ينظر
حينئذ إلى إخلاصه ويبقى متفردا مع الفرد الحق لا يرجو الأمور ولا ينظر
إليها ولا يتوكل إلا عليه ويبصر العمل واحدا من الخلق لا يركن إليه
كما لا يركن إلى شخص من أشخاص الخلق والله خلقكم وما تعملون بعد [illegible]
مقام الإحسان الروحاني والإيماني بلغنا الله إياها وتاب علينا من جميع
الآفات جليها وخفيها آمين آمين وصلى الله على [illegible] وآله وسلم

انتهى النصف الأول من كتاب الشعب بعون الله
يتلوه في أول النصف الثاني باب التوبة إن شاء الله

كتبه العبد الفقير الحقير المعترف بالذنوب الكثيرة

صورة الصفحة الأخيرة من المجلد الأول وبها نهايته



صورة صفحة الغلاف من الجزء الثاني


بسم الله الرحمن الرحيم
وصلى الله على سيدنا محمد وعلى اله وصحبه وسلم تسليما
[illegible]
ما كونها من الايمان فبين واضح لا تحتاج الى الاستشهاد عليه
من اجل ان التوبة رجوع من شي الى شي فهي رجوع من جميع اضداد

صورة الصفحة الأولى من الجزء الثاني وبها بدايته

من حبله ... من ذلك من جميع الوجهات لان القلب قد تفرغ
لله واستعبد له واستوفاه الملك الحق واخلق مأمور وكلام هذا
فاذا لم تحل بقلبك شك فغلبك التوبه ولهذا استغفار ولا باطه
والتفرغ بالقلب من الدنيا واشتغاله بالحكم والذكر والفكر
والمجاهده كان ذلك الاماطه الكبرى والتطهير الاكبر لهما موضع
نظر الله وهو القلب وفي ترك التطهير للقلب والاماطه للوذات
عنه وفي سكن الحب للدنيا في القلب وترك التفرغ له ويكونهما من القلب
سر عظيم من اسرار الاخره لا تحمل كتبه في الاوراق وهو معنى قوله
عليه السلام انما هي اعمالكم ترد عليكم وقول الله عز وجل ووجدوا
ما عملوا حاضرا وما عملت من سوء تود لو ان بينها وبينه امدا بعيدا
والى قوله عز وجل ما هذه التماثيل التي انتم لها عاكفون
وافهم معنى التماثيل فعليك بالاماطه والتطهير واستعن بالله تجد ذلك
في الحياة عنك وترى منه ما لم يخطر لك على بال حين تموت وتبعث
ان كنت صادقا وقد انتهى بنا الكلام الى حد [illegible] وفي اقل
[illegible] اربعه وسبعين شعبه وقد يقع في الابواب
ما يكون في الباب الواحد شعبتان واكثر كما تقدم في الزكاه والشكر من

صورة الصفحة الأخيرة من المخطوط وبها ما يفيد نهاية الكتاب وقرب نهاية الكلام والختام

[١/ أ]

/ الجزء الأول[١] من شعب الإيمان

للفقيه الأجود أبي محمد عبد الجليل بن موسى المعروف بالقصري
نفعه الله بتأليفه كما وفقه لجمعه وتصنيفه ونفع قارئه وكاتبه
ومستمعه بفضله ولطفه وصلى الله على محمد نبيه وعلى آله
وسلم تسليماً كثيراً[١].

---

(١) جاء بأعلى صفحة الغلاف فوق العنوان بغير قلم الناسخ عبارة: «جزآن كاملان».
ثم في محاذاة العنوان خاتم مستدير كتب وسطه بخط ثلث كبير كلمة: محمد.
ثم جاء بعد العنوان كلام بخط قلم دقيق تبين بعد استخدام المكبرة أنه فهرس بأسماء شعب الكتاب غير أن دقة القلم مع عوامل الزمن أدت إلى تلاشي كثير من الحروف والكلمات.



بسم الله الرحمن الرحيم

وبه نستعين

الحمد لله بحقائق حمده وتمجيده، كما يجب له على كريم جوده[1]، حمداً يحيط بمعاني الثناء من جميع وجوهه، ونشكره على قدر ما يعلم ربنا من النعم التي أنعم بها على جميع عبيده. وصلى الله على النبي الأمي التقي النقي السيد القريب[2] الولي الحبيب محمد بن عبد الله بن عبد المطلب، صلاة تحيط بأنواع الآلاء والإنعام، وتدوم عليه دوام ذي الجلال والإكرام، وعلى من استظل تحت لوائه ودخل في دين الله من بابه من النبيين والمرسلين، والملائكة المكرمين، والأزواج المطهرات أمهات المؤمنين والأصحاب وجميع التابعين والطائعين وسلم تسليماً.

فصل

اعلم أن أول شيء يجب على العبد معرفة صانعه، وكيف كان صنعه.

ثم التعبد له، وكيف يعبده.

وبهذين الفصلين مع التوفيق القديم ينال السعادة ويرقى في معارج زلف الكرامة.

وبضد هذين الفصلين وهو الجهل والعصيان مع الخذلان القديم تنال الشقاوة وينحط إلى محل الخزي والإهانة.

قال الله جل جلاله وتقدست أسماؤه: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِي خَلَقَ سَبۡعَ سَمَٰوَٰتٖ وَمِنَ ٱلۡأَرۡضِ مِثۡلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ ٱلۡأَمۡرُ بَيۡنَهُنَّ لِتَعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ وَأَنَّ ٱللَّهَ قَدۡ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيۡءٍ عِلۡمَۢا﴾[3].

وقال عز وجل: ﴿وَمَا خَلَقۡتُ ٱلۡجِنَّ وَٱلۡإِنسَ إِلَّا لِيَعۡبُدُونِ﴾[4].

---

(١) في الأصل: وجوده.

(٢) في الأصل: الغريب.

(٣) سورة الطلاق (الآية: ١٢).

(٤) سورة الذاريات (الآية: ٥٦).

وقال: ﴿يَا أَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعْبُدُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِي خَلَقَكُمْ﴾[(١)].

فهذا أفضل التعبد له.

فعلى هذين الفصلين اللذين هما: العلم والتعبد، مدار الأمر كله في جميع مخلوقات الله تعالى. وهما علة على الأشياء كلها لأن الله تعالى ما خلق الأشياء إلا بحكمة كما قال: / [٢/ ب] ﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَاوَاتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَاعِبِينَ﴾[(٢)].

والله يتعالى أن يخلق شيئاً لغير حكمة وأن يخلق شيئاً هملاً سدًى. لأن الهمل فعل العبث واللعب.

فإذا تبين هذا فإنما خلق ما خلق ليُعلم ويُعبد. لأنه لو لم يخلق شيئاً كما كان في أزليته لم يعرفه أحد سواه لأنه كيف يعرفه من ليس بموجود ولا له وجود فامتن على خليقته بأن أوجدهم بفضله ودلهم بكرمه على نفسه.

فأما طريق العلم به فمن وجهين:

أحدهما: طريق السمع منه ومن سفير بينه وبين خلقه.

والوجه الثاني: طريق الدليل والنظر الذي يحصل منه البرهان العقلي.

وأما التعبد:

فمأخوذ من وجهة السمع وعلى العقل التسليم والانقياد حتى يظهر له وجه الحكمة في الاستعباد والاستخدام.

فصل مما تقدم

أما العلم فهو متقدم الوجود على التعبد لا بد أن يحصل العلم أولاً ثم بعد ذلك يقع التعبد بالعلم لأن الجهل لا يوجب شيئاً من العمل.

فأما طريق العلم به سبحانه من جهة السمع فهو قبول ما أخبر به سبحانه عن نفسه أو رسوله عليه [الصلاة][(٣)] والسلام مما نطقت به كتبه أو أخبرت به رسله عليهم السلام من

---

(١) سورة البقرة (الآية: ٢١).

(٢) سورة الدخان (الآية: ٣٨).

(٣) اعتاد المؤلف في ذكر الصلاة على النبي ﷺ أن يقول عليه السلام إلاّ في القليل النادر فأثبت الصلاة والسلام عليه دون بيان لذلك في مواضعها لكثرة ذلك وفعلت ذلك لقول الله تبارك وتعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ صَلُّواْ عَلَيْهِ وَسَلِّمُواْ تَسْلِيمًا﴾ (الأحزاب: ٥٦).

صفاته وأسمائه بالتصديق، وإمرار أخبار الصفات كما وردت.

وأما طريق العلم به من جهة النظر العقلي والدليل البرهاني فبالبحث في المخلوقات والاعتبار بالمصنوعات والتدبر في الأخبار والآيات وتفهم الحكم والأحاديث المسندات.

ومثال ذلك في الطريق الأول الذي هو السمع:

أن تصدق بأن الله موجد أزلي أول بنفسه لم يوجده أحد ولم يوجد نفسه.

باق أبداً وأنه ليس بجوهر ولا جسم ولا عرض.

وأنه ليس في جهة من الجهات. وأنه غير مستقر على مكان. وأنه يُرى/ بالقلوب والأبصار[١]. [٣/ أ]

وأنه واحد فرد صمد لا ثاني معه ولا شيء مثله، فهذا هو العلم بذاته.

وأما العلم بصفاته. بأن تصدق بأنه حي عليم بنفسه وبجميع خلقه، قدير على ما يشاء لا يمتنع عنه شيء، مريد لما يشاء، ولا مكره له، متكلم، آمر، ناهٍ، زاجر، موعد متواعد، وأنه كامل الإدراك لكل شيء من الطعوم والروائح وجميع الإدراكات على ما يليق به سبحانه. وأنه منزه عن حلول الحوادث به وطرئانها عليه وأنه قديم[٢] الصفات.

فهذه الأسماء والصفات المتقدمة لا بد من اعتقادها والإقرار بها وذلك الوجود والقدم والبقاء والوحدانية والحياة والعلم والقدرة والإرادة والسمع والبصر والكلام وجميع ما وصف به نفسه.

واجمع إلى هذه الصفات من التنزيه والتقديس والإجلال والتعظيم إلى سائر أسمائه وصفاته ما علم منها وما لم يعلم فتصدق بجميع ذلك تصديقاً جزماً وتقطع به قطعاً حتماً فتكون من المؤمنين المصدقين.

ثم بعد ذلك يقع النظر في المخلوقات والاعتبار بالمصنوعات فيشاهد العقل ما صدق به القلب ويقوى تصديق القلب بشهادة العقل فيتزايد الإيمان وتعظم المعرفة بحصول اليقين.

---

(١) أي في الآخرة ذلك إن شاء الله.

(٢) كذا قال. وقد تكلم بعض العلماء في صفة القدم وقالوا: قولك القديم يقابله الحديث. فالأولى أن يقال: الأول أو أن تقول: أزلي. وقد كرر المؤلف ذلك في كافة ما يناسب ذكره مما يفيد أنه لا يرى بذلك بأساً وقد علقت في بعض المواضع في القليل النادر للتذكير فقط والله سبحانه أعلم بأيهما أولى.

فصـــل

فأول ما ينظر العقل في صنعة نفسه وتركيبه ثم في جميع المخلوقات والمبدعات فيستدل بذلك على خالقها ومبدعها لأن في الصنعة دلائل على الصانع، وفي الصورة المحكمة آية على الفاعل الحكيم بأن الأشياء كلها موجودة به ومنه.

قال ابن عباس رضي الله عنه في تفسير قوله عز وجل: ﴿وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي ٱلسَّمَاوَاتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ جَمِيعاً مِّنْهُ﴾[١]. أي الكل منه.

وقال: في كل شيء اسم من أسمائه، واسم كل شيء من اسمه.

[٣/ب] فإنما أنت بين أسمائه وصفاته وأفعاله باطناً بقدرته، وظاهراً/ بحكمته ظهر بصفاته وبطن بذاته حجب الذات بالصفات، وحجب الصفات بالأفعال، وكشف العلم بالإرادة، وأظهر الإرادة بالحكمة بالحركات، وأخفى الصنع بالصنعة، وأظهر الصنعة بالأدوات هو باطن في غيبه وظاهر بحكمته وقدرته: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾[٢].

فقد أظهر رضي الله عنه سر المعرفة وحقيقة العلم في قوله: في كل شيء اسم من أسمائه، واسم كل شيء من اسمه.

ومعنى ذلك أن وجود جميع الأشياء فائض عن وجود العليّ وأن صفات كل شيء مبتدعة عن صفاته الحسنى لأن الباري سبحانه ليس هو إلاّ ذات وصفات لا غير أخذ ذلك من طريق السمع [و][٣]العقل وكذلك الأشياء كلها ليست إلاّ ذوات وصفات وهو الذي عُبِّرَ عنه بالجوهر والأعراض، روحانيات كانت أو جسمانيات لا يوجد غير ذلك.

فأكسبها فيضه الكريم وجوده العظيم هذا المعنى فيها أثره وتبين للعقول مشاهدته.

ولمّا كان الباري سبحانه لا حدَّ له ولا نهاية ولا غاية لوصفه وعظمته اقتضى أن تكون الأشياء لا نهاية لها ولا غاية إذ هي فائضة عن معاني أوصافه كما قال: ﴿وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾[٤].

---

(١) سورة الجاثية (الآية: ١٣).

(٢) سورة الشورى (الآية: ١١).

(٣) ما بين المعقوفين يتطلبه السياق.

(٤) سورة النحل (الآية: ٨).

فصـــل في النظر والاستدلال في مصنوعات ذي الجلال

اعلم أن أول الدلائل نفس الإنسان فأول ما ينظر الإنسان نفسه فيجده موجوداً فلا يشك في أنه موجود فيطلب كيف كان سبب وجوده فيعلم أنه قبل وجوده كان عدماً وأنه لم يوجد نفسه إذ لم يكن له بنفسه علم في حال عدمه ولا بكيفية إيجاده فيعلم بالضرورة أن غيره أوجده فيطلب ذلك الغير فيجد والديه فينظر فيهما فيجدهما مثله في الخلقة في كيفية الإيجاد فلا يجد إلاّ أنهما/ من أبوين آخرين إلى أبوين أولين يقف عندهما لأن التسلسل إلى غير [٤/ أ] نهاية محال في العقل.

ثم ينظر في أصل خلقة الأبوين الأولين فيجدهما معدومين مثل الآباء كلهم.

فينظر إلى السبب الذي خلق الكل منه وإلى سبب بقائه مدة ما، فلا يجد إلاّ المادة التي مدَّت أجساد الكل إلى حين العدم وهو الغذاء من التراب والماء والهواء والنار فيجد الكل مخلوقاً من هذه الأربع وهي مادة وجوده وسبب بقائه.

ثم ينظر إلى كل مخلوق من هذه الأربعة فيجده مخلوقاً محدثاً مثله ومادة الكل من هذه الأربع مثل الحيوانات والنباتات وجواهر الأرض كلها ومعادنها فلا يجد صانعه في شيء من ذلك.

فيرجع نظره إلى العالم الأكبر لمَّا وجد الجزئيات كلها مثله يلزمها ما يلزمه فيجد تركيبه وتركيب الحيوان والنبات والمعادن من العالم الأكبر وهو جزء من أجزائه فيعلم بالضرورة أنه منه إذ الجزء بعض الكل وأن هذه الأربع التي هي: الأرض والماء والهواء والنار منها يستمد كل مخلوق.

فمن الأرض يأكل ومن الماء يشرب ومن الهواء يتنفس ومن النار يتحرك حركة الطبع الغريزي.

فيجد العقل هذه الكليات الأربع مثله ومثل جميع الجزئيات المتركبات منها فلا يجد موجده في شيء منها لأنها تجتمع وتفترق عند التركيب والتحليل ويستحيل بعضها إلى بعض كاستحالة أجزاء أجساد الجزئيات فلا فرق بينها وبين الجزئيات إذ ما جاز على الجزء جاز على الكل فيرتقي عنها إلى طلب موجده في غيرها.

فيجد عالم السماوات والأفلاك والنجوم فيجد أجساماً عظاماً ذات أجزاء وجواهر لا تحصى وجماعات كواكب صغاراً وكباراً وحمراً وبيضاً وإلى الصفرة والزرقة مختلفة/ في [٤/ ب] الصغر والكبر، وحركات كثيرة ودورات مختلفة، ويجد أجساماً قد انضم كل جزءٍ منها إلى

صاحبه واجتمعت كلها فصارت شيئاً واحداً وجسماً واحداً (. . . . ، . . .)[١] وأرجاؤها واسعة الأطراف والآفاق.

فيعلم العقل بالضرورة أن اجتماع أجزائها وجواهرها كان عن افتراق قبل الاجتماع ثم اجتمعت بعد افتراق ثم تماسكت بعضها إلى بعض والتأمت فصارت شيئاً واحداً لأن الجسم يقسمه العقل إلى أجزاء لا تتجزأ ثم ينظر إلى اجتماع الكواكب فيها فيجد الكواكب فيها معتمدة على أماكنها التي وضعت فيها لولا تلك الأماكن التي أمسكتها لانتقضت وتلفت ولم توجد.

فعلم أن كل كوكب في السماوات وأن السماوات والأفلاك حاملة لها ومحركة لجماعتها وبها كان اجتماعها ولولا جمعها لها لافترقت فهي معتمدة عليها.

وكذلك كل جزء من جسم السماوات مؤتلف إلى غيره معتمد بعضه على بعض قد شمل كل جزء منها الافتقار إلى غيره فلولا ذلك لانحلت أجزاء السماء وتلاشت أعضاؤها.

فإذاً قد شمل الكل افتقار بعضه إلى بعض وظهر فيها أثر الصنعة وشهد العقل شهادة ضرورية أن تماسك أجسام السماوات والأفلاك والنجوم بغيرها لا بنفسها وهو الجامع لها بعد الافتراق والماسك لها عن الانحلال والتلاشي لأن التلاشي والافتراق تنتهي حقيقته إلى العدم، والعدم لا يكون موجوداً بعد عدمه إلاّ بغيره.

فقد ظهر وجود السماوات وجميع الأجسام بلا مرية لا من شيء فافتقرت افتقاراً ضرورياً إلى موجد لها بعد العدم.

وحكم العقل على كل جسم في جميع المخلوقات حيث كان بهذه القضية وهذا الحكم لأن الجسم/ في حكم اللغة هو المؤتلف من الأجزاء وهو الطويل العريض العميق. [٥/ أ]

فطلب العقل موجده في عالم الجسوم فلم يجده لأنه لم ير في الأجسام شيئاً يصلح لذلك ولا من تليق به الربوبية إذ قد شمل الأجسام كلها صفة التأليف والصنعة والإحداث ولأن كل عضو من أعضاء العالم قد خصّ بعد اشتراك الكل في التأليف بما لم يخص به غيره من الأعضاء وأُلزم عملاً لم يلزم غيره كالسماوات والأرض والأفلاك والهواء والنار والماء والشمس والقمر والنجوم والأنوار والظلمات وغير ذلك.

كل واحد من المخلوقات على عمل لا يتعداه قد قيد به وحصر وعجز العضو الآخر عما قيد به غيره، ثم مع اختلاف الكل واختصاص هذا العالم بما لم يخص هذا قد ضم بعضه

(١) موضع النقط كلمتان ممحوتان من أصل المخطوط.

إلى بعض وزم زماً ضرورياً حتى صار ملكاً واحداً كجسم واحد لو عجز منه جزء أو عضو واحد انخرم النظام وبطل العالم فوجب في ضرورة العقل جامع لهذه الجملة قاهر لها ومحرك ومصرف لها في أعمالها ليس من جنسها ولا هو واحد منها. فلم يبق إلاّ النظر في صفات الموجد الصانع لهذه الصنعة.

فصــــل

ثم يرجع العقل يطلب صانعه خارج الأجسام كلها إذ شاهد جميع الأجسام لا يليق بها إلا التأليف والصنعة والعبودية والحدوث فنظر إلى الأعراض والأفعال مثل الحركات والسكنات والاجتماع والافتراق والعدم والوجود والإيجاد والطلوع والاستواء والميل والغروب وغير ذلك مما لا يحصى من الأعراض والأفعال فرآها حادثة مع كل نفس وطرفة فشاهد شيئاً عظيماً وأمراً مهولاً واختلافاً كثيراً فعلم أنه لا يقدر على تدبير هذه الأمور العظام والأفعال الكثيرة الجسام إلاّ ما هو أعظم منها وأجل قدراً وأن ذلك العظيم لا يكون إلا إذا علم/ عظيم قدرة عظيمة فحصل له تعظيم الصانع. [٥/ ب]

فطلبه فرأى جميع الأجسام لا تنفعل بنفسها ولا تتحرك ولا تسكن بذواتها إذ الأفعال لا تصدر عن الأجسام بل هي كالآلات بيد الفاعل المحرك المسكن لها فاستحال عنده أن يكون الفاعل جسماً إذ لو كان جسماً لبطل الفعل منه لأن الجسم لا يفعل شيئاً.

فارتقى لطلب موجده عن عالم الأجساد فنظر إلى جسده ونفسه محركة لجسده وروحه قائمة بجسده فعلم أن الأرواح والأنفس بها تتحرك الأجسام وتسكن فطلب معرفة النفس فوجد جسده آلة مصرفة بيد روحه وكذلك أعضاء جسد العالم كله بأيدي أرواح العالم كله وأرواح الملائكة وأجسادهم كذلك لا يتحرك ولا يسكن متحرك أو ساكن إلاّ بتحريك محرك روحاني ولا يسكن إلاّ بضبطه وتسكينه من الذرة والخردلة إلى أعظم المخلوقات.

فرأى الأفعال كلها والأعراض أجمعها صادرة عن الأرواح بلا شك ولا امتراء إذ لا يكون الفعل إلاّ عن إرادة ولا تكون الإرادة إلاّ عن علم ولا يكون العلم إلاّ لحي ولا تكون الحياة إلاّ ومعها الإدراك الكامل. والأجسام عن هذا كله بمعزل.

فصــــل

فعند ذلك علم العقل أن المخلوقات تنقسم قسمين: جسمانياً وروحانياً.

وأن الجسماني ينقسم إلى: أشخاص والأشخاص إلى جواهر وأعراض والأعراض لا تحصى كثرتها.

وأن الروحاني ينقسم إلى: قسمين أيضاً جواهر وأعراض.

والجواهر تنقسم إلى أعراض وأنواع كثيرة.

أرواح الملائكة والأنبياء والآدميين والجن والشياطين وكل ذي روح في السماوات والأرض غير أن الأرواح قسمتها غير قسمة الأجسام لأن الأجسام تتجزأ بالقسمة والأرواح [٦/ أ] خلقت/ مفردة لا تقبل الانقسام إلاّ أنها من حيث تناكرت واختلفت وائتلفت، وأدرك روح هذا ما لم تدركه روح هذا انقسمت أيضاً فتكثرت إلى ما لا يحصى.

والأعراض الروحانية كذلك أيضاً في الكثرة والقسمة مثل العلوم والإدراكات كلها من القدرة والإرادات والكلام والسمع والبصر والرحمة والغلظة والصبر والجزع والخوف والرجاء والشكر والرضا والود والبغض وغير ذلك مما لا يتناهى مثل الخضوع والذلة والتواضع والكبر والأنفة والفكر والذكر والهيبة والأمن. وجميع الأخلاق الحسن منها والقبيح وهذا كله قد شمل جميع الروحانيات كلها وعمها. فوجد العقل العرض عاماً لجميع المخلوقات كلها جسمانياً وروحانياً وكل جوهر روحاني أو جسماني لا يوجد إلا بعرض فيه ويحل ذاته بعد أن لم يكن حالاً بها.

والعرض لا يوجد إلاّ في جوهر أصلاً ولا يوجد منفرداً بنفسه ولا يسبق واحد منهما صاحبه في الحدوث وهو والجوهر مقترنان لا يوجد واحد منهما إلاّ مع صاحبه أصلاً.

والعرض حادث بالضرورة وما لا يسبق الحادث فهو حادث.

مثال ذلك: حركات جميع أجسام السماوات والأرض وما بينهما وألوانهما لا توجد حركة ولا سكون إلاّ في جسم.

فشهد العقل على جميع الأجسام ما غاب عنه وما حضر وما آمن به وصدق وعلى جميع الروحانيات ما علم منها وما لم يعلم أن الكل حادث موجود مخلوق مربوب من ملك أو إنسٍ أو جن أو عرش أو كرسي أو حجاب أو سماء أو فلك أو طبيعة أو أرض أو نجم أو جزء أو كل أو ما غاب أو ما حضر وعلى نفسه مع الكل.

[٦/ ب] فبان ذلك/ كله له بأنه لا يليق به شيء من الربوبية شهادة ضرورية لا بد منها حين رأى الأفعال والتأثيرات والأعراض الحادثات ثابتة ولجميع المخلوقات من غير قصد منه بل من خارج ذاته ثم تحدث في ذاته وذات غيره.

فعلم أن لهذه الصنعة صانعاً عظيماً ليس بجوهر ولا عرض ولا يشبه شيئاً من المخلوقات إذ لو كان يشبهها لحلت به الحادثات مع الأنفاس والخطرات ويدرك بحدوثها فيه ما لم يدركه قبل حدوثها فيكمل بعد النقصان أو ينقص بعد الكمال كما يجري لجميع الحدثان.

فوجب في النظر البرهاني أن يكون الفاعل لها مخالفاً لها من جميع الجهات.

فمعرفة العقل من جهة التنزيه والتقديس والبراءة من جميع ما يليق بالمخلوقات من النقائص والعجز والآفات والحدث كله وأنه قديم بذاته والنظر في القدم من وجه أنه ينظر في العالم فيجده محدثاً مفعولاً ضرورة كما تقدم مفتقراً إلى موجد محدث فيقول أوجده غيره، وذلك الغير ما هو أوجده غيره أم لا؟ فلو أوجده غيره اضطرّ ذلك الغير إلى غير وتسلسل إلى ما لا نهاية حتى ينتهي بالضرورة إلى موجدٍ لا موجد له أصلاً بل هو موجود بنفسه لم يزل كذلك لا يقال: أوجده غيره ولا أوجد نفسه إذ لو أوجد نفسه لكان قبل الوجود عدماً والعدم ليس بشيء فكيف يوجد نفسه أو يوجد غيره.

فثبت بالضرورة قدمه ثم وجدت منه الأفعال فثبت بالضرورة قوته على الإيجاد وإذا ثبتت قوته تثبت حياته وقدرته إذ الميت لا قوة له ولا إدراك له والعاجز لا يحدث فعلاً. وثبت علمه بوجود الصنعة منه إذ الجهل لا يوجب عملاً.

وثبتت حكمته/ بوجود الإتقان في الصنعة إذ القاصر لا يتقن ولا يحكم ما يحكم البالغ الحكيم. [٧/]

وثبت بصره بتصرفه في أفعاله إذ الأعمى لا يبصر رشده ولا يتصرف في ملكه بالإيجاد والتصريف.

وثبتت إرادته بالتقديم والتأخير والرفع والخفض والتخصيص، إذْ من لا قصد له في فعله لا يوجد شيئاً ولا يرتب الأشياء على حكم اختياره ولا يترك الإيجاد إذا أراد تركه بل هو بصفة الإهمال.

وثبت كلامه بمخاطبته أفعاله بكلامه أي: كن على ما أريد منك وطاعة كلامه وانقادت بالإيجاد والتعبد على حسب ما أمر به.

وثبت سمعه وإدراكه للأصوات لأن من به آفة الصمم وعدم الإدراك دخلت عليه الآفات من حيث لا يدري في فعله وفي نفسه.

وإذا دخلت الآفة انخرم عليه النظام وبطل هو في نفسه فثبتت بالضرورة أن المؤن[١] الناقص لا توجد منه الأفعال الكاملة ولا يدفع عن نفسه وغيره الآفات.

فثبت كماله وإدراكه لجميع المدركات لكن على شرط: لا يفهم من ذلك ما يفهم من

(١) في لسان العرب: مون مانه يمونه موناً إذا احتمل مؤنته وقام بكفايته.

صفات البشر بل ينبغي أن تعلم أن الله تبارك وتعالى لا يسمع بعد أن سمع أو بعد أن لم يسمع ولا يعلم ما لم يعلم لا يتجدد له سمع ولا بصر ولا قدرة ولا إرادة بل الإدراك القديم في الأزل هو إدراكه الآن وفي الأبد.

وكذلك ثبت للعقول عزه لذل جميع الأشياء له على كثرتها وعظمها إذ لا تذل إلا لعزيز قاهر. وكذلك كبرياؤه لتصاغر الأشياء له. وجلاله لتضائلها لجلاله إذ من يزدرى لا يعبأ به.

[٧/ ب] وثبت للعقول فيض جوده وكرمه لعموم فضله وعطائه على جميع/ بريته إذِ البخيل لا يخرج من يده شيء.

وثبت للعقول حلمه لإمهاله وقلة معاجلته بالعقوبات على كثرة العصيان في جميع الأوقات وجعل الصاحبة والولد والشريك وهو مع ذلك يحلم ويرحم ويقبل من تاب ورجع لأن العجول يتغير ويعجّل بالعقوبة.

وثبت لطفه ورحمته ليهنىء[1] العيش والدعة في ملكه.

وثبت حسن جميع أوصافه[2] ما علم منها وما لم يعلم بحسن أياديه وتجاوزه عن مخالفيه وإحسانه إليهم وإكرامه من أطاعه وغير ذلك مما لا يحصيه أحد من حسن أوصافه[2] وكريم أفضاله.

فلم تطق العقول وصفه بما هو عليه من الكمال والجمال والعز والجلال وصفاته العلى فأقرت بالعجز عن حقيقة وصفه فامتن على العقول بأن وصف لهم نفسه في كتبه بما هو له أهل من الثناء والتحامد فعلمهم أسماءَه الحسنى الدالة على صفاته العلى.

ثم نظرت العقول في مخلوقاته فظهرت لهم دلائل صفاته فتعبدت له وأحبته واشتاقت إليه وتسابقت في ميدان القرب والتقرب منه وإليه للذي كاشفهم[3] به جماله وأظهر لهم محاسن جلاله وكماله.

فصـــل في النظر في المخلوقات على وجه الحكمة وإتقان الصنعة

وكل ما تقدم في النظر إنما هو في إثبات الدليل على وجود الفاعل سبحانه.

وهذا الفصل نذكر فيه الآن الدليل على صفات الفاعل الحكيم.

---

(١) في الأصل. لتمتص. وما أثبته من هامش الأصل.

(٢) في الأصل: أخلاقه. فاستبدلتها بما يليق بجلاله سبحانه.

(٣) يقصد بالمكاشفة هنا والله أعلم تبصير البصائر بالخير والصلاح وهدايتها لعمل الصالحات والأخذ بها من موارد الهلاك إلى بحبوحة النجاة وحبور الجنة وطريقها.

أما جسم العالم الأكبر فلو قدرته جميع العقول على غير ما هو عليه من الوضع والتركيب لانخرم نظامه.

مثال ذلك: أن الأرض خلقت/ كثيفة ولم تخلق سيّالة مثل الماء لتستقر عليها الخليقة [٨/ أ] لأن الله تعالى جعلها قراراً للمخلوقات.

ولم يخلقها أيضاً صلبة شديدة مثل الحجارة لأنها لو كانت كذلك لم تصح فيها الحراثة والغراسة فكان يبطل العيش وتخرب الدار.

والحكمة لو كانت كالماء أو الحجارة أو على غير ما هي عليه ولم يخلق صورتها مستطيلة قائمة إلى فوق أو إلى أسفل فلا يثبت على وجهها أحد ولا يتهنأ بوعورتها عيش لو كانت كذلك بل جعلت وطئة ممهدة فحسن وطاب عيش الخليقة بهذا وجعل فيها بعض التسنيد والتكوير لتجري المياه على وجهها إلى نواحي الأرض في الأودية والسهول[1] ولا يستقر الماء على وجهها لأنها لو كانت وطئة جداً مضطجعة بخط الاستواء واستقرت المياه على وجهها لغرقت الأرض وعادت مستنقعة كلها ولم يصح فيها نبات ولا عيش.

ثم نصبت الجبال عليها وفيها لتضم أجزاء تراب الأرض كله بعضه إلى بعض كي لا يتحرك ويمتد فتنشق وتندثر لأن فيها بعض التخلخل ولو تحركت لانفصلت أجزاؤها بعضها من بعض لأن الأرض في الماء كالسفينة في البحر والماء محيط بها من جميع الجهات.

والماء متحرك بطبعه فكان يحرك الأرض فتميد كما قال تعالى: ﴿وَأَلْقَىٰ فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيَ أَنْ تَمِيدَ بِكُمْ﴾[2].

فجعلت الجبال في غاية الصلابة التي لا تفصل الحركة أجزاءها بعضها من بعض وجعلت في غاية العظم ونصبت في وسط الأرض وفي أطرافها وفي جميع نواحيها وفي باطن الأرض وظاهرها كالعظام في جسد الإنسان فضمت أجزاء التراب وزمته وثبتت الأرض على ما هي عليه في مكانها اللائق بها، ولو قدر أن تكون الجبال على غير ما هي عليه لانفسد

---

(١) في الأصل: السيول وهو تحريف. وبالمناسبة فقد اجتاحت السيول أثناء تحقيق هذا الكتاب صعيد مصر فهلك آلاف من الناس والبيوت وشب في أثناء هذه السيول حريق عظيم أهلك قرية «درنكا» وزروعها ونفقت مواشيها فنسأل الله حسن الختام وقد أصاب أول هذا السيل مخطوط هذا الكتاب وبعض أوراقه إذ كنت أقوم بنسخه فوق سطح منزلي ونزلت لاستقبال بعض الضيوف فما أن صعدت حتى وجدت أن أوراق المخطوط والنسوخ قد ابتلت بما كنت لا أظن أنه سيكون سيلاً يدمر البلاد والعباد فنسأل الله العافية في الدين والدنيا والآخرة آمين.

(٢) سورة النحل (الآية: ١٥).

[٨/ ب] النظام وجعلت الجبال أيضاً مرتفعة أسنمتها والكُدَا/ والروابي[١] وكذلك لأن ترد البحار عن وجه الأرض كي لا تحيط بها من جميع الجهات.

وجعل بين الجبال أوطئة وطرقاً وأخواراً لتسيل فيها خلجان البحار والأنهار ليصل الناس بحوائجهم فيها بالسفن وتصل الحيتان إلى نواحي الأقطار لدخولها في تلك الخلجان ولإخراج الأصداف والجواهر منها ولولا ذلك لكان البحر منحازاً في ناحية من الأرض ولم تصل منافعه إلى الخليقة.

وجعلت الجبال أيضاً مخازن للمياه العذبة فتتفجر منها العيون والأنهار إلى البلدان وجعل البحر ملاصقاً للأرض وممازجاً لها العذب والمالح لتمتزج رطوبة الماء بيبوسة الأرض فتختلط رطوبة الماء بيبوسة الأرض فيصلح من ذلك الخلق والتصوير من النبات والحيوان وسائر المخلوقات لأن اليابس لا يتصور منه الصور والسائل كذلك لا يطبع منه التصوير فخلق الماء سائلاً لهذه الحكمة ولتسري أيضاً فيه السفن بالجري ولولا دلك لما صحّ جريها ولا صح تصرف حيوانه فيه.

وخلق البحر أيضاً متحركاً على الدوام لئلا يجمد فيصير أرضاً بالسكون فتبطل الحكمة لأن البرد طبع الماء والبرد يجمد ويبرد وييبس فكسرت كثرة حركته برودته وسُلطت عليه رياح الهواء من كل جهة لئلا يسكن.

ألا ترى الماء كيف ينعقد حجارة وثلجاً إذا اشتد عليه البرد.

وكذلك أيضاً يتحرك بتحرك حيوانه الساكن في جوفه فدواب البحر تحرك من باطنه بحركتها أبداً فيه فبحركتهم حركته وحركته سبب حياة حيوانه. فافهم.

وخلق البحر مالحاً لئلا يتتن ويتغير بطول المكث فيهلك حيوانه برائحته وكان الهواء يحمل بتحرك الرياح عفونة رائحته فيلقيها على وجه الأرض فيهلك ما عليها بعفونته فخلق [٩/ أ] مالحاً لهذه الحكمة/ ولتكون ملوحته دباغاً لأهوية العالم العفنة المضرَّة الكائنة من العفونات في نواحي الأرض والبلدان فتحمل الرياح أهوية البحار فتمتزج بأهوية البلدان فتقطع الأهوية العفنة وتدبغها.

فاستقام العيش بحكمة الصانع الحكيم فله الحمد.

---

(١) الكُدا: جمع كُدْية: وهي المكان المرتفع من الأرض وقيل: هي شيء صلب من الحجارة والطين. والرّوابي: ما أشرف من الرمل مثل: الدَّكْدَاكَةِ غير أنها أشد منها إشرافاً وهي أسهل من الدكداكة، والدكداكة أشد اكتنازاً منها وأغلظ. والرابية فيها خُثُورة وإشراف تنبت أجود البقل الذي في الرمال وأكثره ينزلها الناس ـ (لسان العرب).

وخلق البحر الآخر حلواً ليصح بعذوبته العيش لجميع المخلوقات ولو كان مالحاً أو مرًا لأهلك الخليقة ولانفسد نظام المملكة.

ألا ترى البحر كيف لا ينبت إلى سواحله نبات ولا شجر.

ثم خلق الهواء محيطاً بالبحر والأرض وجعله ألطف منهما لتصح الحركة فيه والقيام والقعود والتنفس وذلك كله أسباب البقاء ولو كان مثلهما كثيفاً أو سيالاً مثل الماء لم تصح به الحكمة.

ثم خلق متخلخلاً جداً متحركاً في جميع الجهات ليسوق السحاب إلى البلاد فينزل بها المطر وينتفع الناس بإخراج الحبوب من الزروعات ويروح عنهم شدة الحرارات المفرطة ويذهب عنهم حرارة باطن الأجسام فتتغذى برطوبته في التنفس المخلوقات وغير ذلك من الحكمة.

ثم خلق لونه على هذه الرقة المحكمة لتنفذ فيه الأبصار إلى منافعها فتقبل الصور والألوان فيوصل بذلك إلى جميع المنافع.

ثم جعل يتحرك في وقت دون وقت لأنه لو كان متحركاً أبداً لانتثرت منه الحبوب ولأثار الغبار الدائم وطمست به العيون وتكسرت أغصان الأشجار وتهدمت منه المباني ولم يصح معه عيش فجعل ساكناً في وقت ومتحركاً في وقت لتصح بحركته وسكونه الحكمة.

لأن الهواء: ريح ساكنة. والريح: أهوية متحركة.

ثم خلقت النار ألطف من الكل كي لا تظهر ولو ظهرت صورتها وكانت مثل الأرض والهواء لأضرت بأبصار الخلائق/ مثل البرق والندى لو دام لهلك الناس به. [٩/ ب]

ثم خلقها تظهر في الأجسام للمنافع في التسخين ولأن يستضاء بها في وقت الحاجة إليها.

وخلقت حارة في غاية الحرارة للتسخين والنضج ولأن تسيل الجامدات ويختلط بغليانها الماء والأرض والهواء فتلتئم الخلقة من الجميع، ولولاها ما صح شيء من ذلك.

ثم انظر إلى السماء وخلقتها فإنها جسم معتدل في غاية الاعتدال كثيف جداً فيقع إلى أسفل من الأرض ولا سيال مثل الماء فتسيل أجزاؤه فتبطل ولا متخلخل مثل الهواء فتنحل أركانه وتنتثر كواكبه وتنسد أرجاؤه فتخرب الهيئة ولا خفي مثل النار فيحتاج إلى مادة ليظهر وجودها لأن النار ملتهبة أكل بعضها بعضاً.

ولو كانت مثل النار لأكلت السماء بعضها بعضاً وانخرم نظامها مع كل لحظة وانعدمت مع كل طرفة.

ولم تخلق أيضاً أجف وألطف مما هي عليه فتصعد عن مقامها لخفتها فتذهب وتزول عن مكانها بل خلقت في غاية من الاعتدال لا كثيفة جداً ولا لطيفة جداً بل معتدلة بين ذلك فوقعت بين ذلك بلا عمد نرى بل بتعديل خالقها الذي خلقها في غاية الإتقان.

وهكذا كل سماء في نفسها ومقامها على غاية الاعتدال لا يحتمل الصعود إلى ما فوقها ولا السفول إلى ما تحتها.

ثم انظر إلى حركة الأفلاك لا سريعة جداً ولا بطيئة جداً ولا واقفة طرفة عين.

فلو كانت سريعة جداً في الحركة أسرع مما هي عليه لكان الليل في طول نفس النهار وكذلك الشهور والسنة[1] من ساعة ويوم فلم يكن للأبصار ثبات بل كان يرقب الليل والنهار كما يرقب البرق فيجيء النهار قبل الليل كمجيء البرق ويجيء الليل بعد/ النهار كذهاب البرق فلم يكن يبصر أحد رشده وكانت تبطل فصول السنة من الربيع والصيف والخريف والشتاء ولم تصح خلقة الأشياء على ما هي عليه. [١/ أ]

ولم تخلق أيضاً بطيئة جداً فيكون النفس الواحد من شهر والساعة من سنة فيسأم الناس بالحركة الدائمة والسكون الدائم فيهلك الخلق والنبات وكل شيء، ولم تكن أيضاً واقفة أبداً فتكون الدنيا إما ليلاً دائماً فلا يبصر أحد رشداً ويهلك بالبرد الدائم والسكون الدائم، وإما نهاراً دائماً فيهلك بالحر الدائم كل ما على وجه الأرض بالحركة الدائمة بل خلقت معتدلة الحركة في غاية الحكمة لا يجوز أن تكون إلاّ كما هي.

ثم انظر إلى لَوْنِها كيف جعلها الله أحسن الألوان للأبصار ولونها إلى الخضرة وهو أحسن شيء وأنفعه للأبصار ولو كانت سوداء مظلمة لأهلكت الخليقة بشدة خلقتها ووحشتها ولأخذ الخلق الهول والفزع من منظرها لعظم جرمها فكانت طباعهم تفسد من الرعب لأن الشيء المظلم مرعب مفزع.

ألا ترى وحشة الليل مع قلة ثباته وامتزاجه بأنوار الكواكب ولون السماء.

وكذلك لو خلقت حمراء أو بيضاء فلو كانت نورانية لأطمست الأبصار بالنظر إليها من أول مرة ينظر إليها.

ألا ترى إلى الشمس لا يقدر أحد أن يتبين جرمها مع صغرها.

وكذلك لو كانت حمراء مع عظم جرمها أو في لون غير هذا الذي هي به لأَضَـرَّ ذلك بالخليقة فلا يليق بها إلا ما هي عليه من تدبير الحكيم العليم.

---

(١) عبارة: وكذلك الشهور والسنة. مكررة بالأصل فحذفت التكرار.

ثم زينها بالكواكب فجاءت في غاية الحسن والجمال بكواكبها فاهتدى الخلق بها في ظلمات البر والبحر إلى جميع المقاصد وعلموا مقدار الزمان والساعات ولو لم تكن الكواكب لم يهتد إلى شيء ولا عرف ذلك.

وأما حكمة الشمس/ والقمر والخنس وجميع كواكب السماء فكل واحد منها موضوع [١٠/ ب] على عمل وحكمة ليست لغيره لا تكمل المملكة إلاّ بذلك العمل.

فالقمر: لمعرفة الشهور والحساب والترطيب والتبريد في جميع العالم.

وكذلك الشمس للضياء والحساب والتسخين، وكذلك البروج لفصول السنة الربيع والخريف والصيف والشتاء ولحصول الجوار الكنس فيها صاعدة وهابطة إذا حلت الشمس أو القمر أو أي كوكب كان في أي بُرج كان أحدث الله في أمره من هذا العالم ما شاكل البرج والكوكب والوقت والفصل.

وكذلك كل كوكب في السماء يحدث الله بطلوعها وغروبها على الأرض كل يوم وليلة بل في كل ساعة ونفس في هذا العالم جميع ما ينزل من أمور الدين والدنيا من خير وشر لأن الله ما خلق السماوات والأرض وما بينهما باطلاً وهو أن يخلق شيئاً لغير معنًى أو لغير حكمة بل لا يحدث الله في هذا العالم موتاً ولا حياة ولا فقراً ولا غنى ولا نوماً ولا يقظة ولا ضحكاً ولا بكاءً ولا شيئاً من الأشياء إلا في زمان ووقت.

والزمان هو حركة الفلك بما فيه فبحركته التي هي الطلوع طلعت في هذا العالم المحدثات كلها بالإيجاد وبغروبِهِ غربه عن هذا العالم الموجودات بالإعدام والنفاذ والطلوع والغروب للفلك مع كل نفس.

وكذلك المحدثات طالعة وغاربة في هذا العالم مع كل نفس وإنما تتحرك الأفلاك بالأمر النازل والصاعد.

ألا ترى إلى قول الله تعالى بعد ذكر السماوات: ﴿يَتَنَزَّلُ ٱلْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ﴾[1]. [وقال][*]: ﴿يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ إِلَى ٱلْأَرْضِ ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ﴾[2]. فقوله: ﴿يَتَنَزَّلُ ٱلْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ﴾[1]. هو حدوث/ ما يحدث في هذا العالم من الأمور السماوية ﴿ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ﴾[2] هو [١١/ أ] ذهاب ما في هذا العالم ورجوعه وليس عند السماء من الكواكب إلا ما جعل فيها مع كل حركة.

---

(١) سورة الطلاق (الآية: ١٢).

(*) ما بين المعقوفين زيادة للفصل بين الآيات.

(٢) سورة السجدة (الآية: ٥).

والمقدورات جارية على العباد إلى حين وقوف الفلك عن الدوران وهو الوقت الموعود بالقيامة العامة لجميع الخلق.

فدل هذا التدبير المحكم والصنعة المتقنة التي هي غاية الحكمة على صانع حكيم عالم قدير ليس كمثله شيء وهو السميع العليم البصير.

واعلم أن انتباه قلبك لتعظيم الصانع عند فهم الحكمة الدالة على الصانع هو تجلي صفات الصانع لقلبك فافهم ذلك وتفطن له واستزد منه جهدك.

فصـــل في النظر في الأجساد الجزئية المركبة من العوالم الكلية

اعلم أن كل ما في هذا العالم من الأجساد الجزئية التي هي الحيوان والنبات وجميع معادن الأرض أنها تركبت كلها من أربعة أشياء من: الأرض والماء والهواء والنار.

فالمعادن خلقها الله تعالى للمنافع والزينة والبيع والشراء أو لدفع المضار من القتال للاحتراز وغيره لجلب المنافع العامة.

وذلك مثل الذهب والفضة والجواهر والحديد والصفر والرصاص التي ينتفع بها لاَ قَوام للعالم[1] إلاّ بها.

ومنافعها كثيرة لا تحصى ولا تخفى حتى لو عجز الملح الذي هو أحد المعادن لفسد العالم بعدمه لأنها كانت تفسد الأمزجة وتتعطل الفوائد التي خلق لها وفي ذلك فساد العالم.

فكيف بسائرها من الحديد وغيره؟

فارجع بصرك في مخلوقات[2] الباري تعالى لعل الله أن يفتح بصيرتك فتشاهد الحق على ما هو عليه.

[١١/ ب] وخلق الله المعادن/ على صفات مختلفة من الشدة واللين والكثرة والقلة وما بين ذلك ليتخذ منها الآلات والزينة المحبوبة التي هي سبب عمارة الدنيا. لأن الزينة سبب المحبة والمحبة سبب العمارة ومنافعها أكثر من أن تحصى.

لكن نبهنا العقول بنبذة منها لعل الله أن يمن بالفتح المبين من عنده.

وأما النبات: فإنه مخلوق لغذاء الحيوان كله ولمنافعه حتى لو عجزت آلة الحرث المتخذة من الخشب لفسد العالم.

---

(١) في الأصل: العالم وهو تحريف.

(٢) كذا في الأصل وبالهامش: مصنوعات، وكلاهما جائز لقوله: ﴿هُوَ ٱلَّذِي خَلَقَ لَكُم مَّا فِي ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا﴾ (البقرة: ٢٩) وقوله سبحانه أيضاً: ﴿صُنْعَ ٱللَّهِ ٱلَّذِيٓ أَتْقَنَ كُلَّ شَيْءٍ﴾ (النمل: ٨٨).

وكذلك الحيوان أيضاً خلقه الله تعالى وسخر بعضه على بعض وجعل بعضه طعماً لبعض. كل ذلك لقوام العالم وكماله.

وأما ترتيب خلقة هذه الأشياء كلها ووجه الحكمة في خلقها على هيئاتها التي هي عليها فهو بحر واسع الأطراف لا يتم أبداً وسنذكر من ذلك طرفاً في كيفية خلقة الإنسان ليكون تنبيهاً على غيره إن شاء الله ونذكر منه هنا وجهاً واحداً مختصراً على وجه الإجمال وذلك أن تعلم أن كل جزء من جميع المخلوقات بمنزلة عضو من أعضائك لو نقص من أعضائك أو كان على غير هيئته التي ركب عليها مثل الفرج أو اليد أو القلب انفسد نظام الجسد.

وكذلك لو أن الحديد كان على غير هيئته انبطل الحرث الذي هو سبب العيش وانبطلت الغراسة والحفر والقتال وفسد العالم. وكذلك سائر المعادن والنبات والحيوان.

ويكفيك النظر في تركيب جسدك لتستدل[1] بذلك على ترتيب الحكمة في الحيوان والنبات والمعادن وجميع المخلوقات إن شاء الله.

فصـــل

اعلم أن جسد الإنسان مركب من الأصول الأربعة التي تقدم ذكرها.

تفصلت هذه الأربع/ إلى العظم والمخ والعصب والعروق والدم واللحم والجلد [١٢/ أ] والظفر والشعر وهذه جملة الجسد وضع كل نوع منها لحكمة لولاها لم يكن الجسد.

فالعظام منها تركيب هيئة الجسد على ما هو عليه بضم بعضها إلى بعض ولم يجعل عظماً واحداً لأنه كان يكون مثل الحجر لا يتحرك بل هي عدد معلوم لكل جزء من الجسد عدد من العظام لو نقص منها واحدٌ أو زاد فيها واحد تعطلت بنية الجسد وكانت وبالاً عليه.

فانظر إلى الذي جعلها عظاماً متعددة ولم يجعلها واحداً وخصها بهذا العدد، ما أحكمه وأعلمه.

ثم لمَّا كانت عظاماً كثيرة لأجل الحركة لم يكن ينتظم بعضها إلى حين صور منها الجسد إلاّ بإلصاق بعضها إلى بعض، فلم يكن بُدٌّ من رابط لها فجعل العضلات والعصب وربط العظام بها بعضها إلى بعض.

ولو كان العصب أقوى مما هو أو ألين مما هو لم تصح حركة الجسم ولا تصرفت الأعضاء في منافعها.

---

(١) في الأصل: لتبتدل. والتصويب من الهامش.

ثم خلق المخ في العظام في غاية الرطوبة ليرطب يبس العظام وشدتها ولتقوى العظام برطوبته ولولا ذلك لضعفت قوتها وانخرم نظام الجسد بضعفها.

ثم خلق اللحم وعبأه على هيئة العظام وسد به خلل الجسم كله فصار مستوياً لحمة واحدة واعتدلت هيئة الجسد به واستوت ولو كان أيبس مما هو لم تلتئم أو سيالاً لم تلتصق.

فلا يجوز أن يكون إلاّ على صورته التي خلق فيها.

ثم خلق العروق في جميع الجسد جداول لجريان الغذاء فيها إلى أركان الجسد كله لكل موضع من الجسد عدد معلوم من العروق صغاراً وكباراً ليأخذ الصغير من الغذاء حاجته والكبير حاجته ولو كانت أكثر مما هي أو أنقص أو على غير ما هي عليه من/ الترتيب ما صح من الجسد شيء. [١٢/ ب]

ثم أجرى الدم في العروق سيالاً[١] حاراً ولو كان يابساً أو أكثف مما هو عليه لم تتغذى به الأعضاء ثم كسى اللحم بالجلد ليستره كله كالوعاء عليه ولولا الجلد لكان قشراً أحمر وفي ذلك هلاكه.

ثم كساه الشعر وقاية للجلد وما لم يكن فيه شعر جعل له اللباس عوضاً منه وجعل أصوله مغروزة في اللحم ولين أصوله ولو كانت يابسة مثل الإبر لم يهنأه بذلك عيش وجعل الأشفَار وقاية للعينين ولولا ذلك لأهلكهما الغبار والسقط وجعل الأشفار عدداً معلوماً لينظر من خللها ولم يجعلها طبقة واحدة فكانت تمنع النظر.

وخلق الأسنان بعد هذا كله وبعد رضاعه مدة طويلة ليعتاد الرضاع ويتعلمه ولم يخلق الأسنان له مع خلقته كلها كيلا يضر بأمه في حال رضاعه بالعض فالصبية حال الرضاع لا يصلح له الغذاء فإذا ترعرع واشتد وصلح للغذاء خلق له الأسنان وجعلها نوعين بعضها محدود الأسنان وهي التي للقطع يقطع بها المأكول وبعضها مبسوطة وهي التي للطحن ولولا ذلك ما صح من الجسد شيء.

فسبحان الله ما أكثر الآيات الدالة عليه ولكنّا لا نبصر إلاّ بتوفيق الله تعالى.

ثم لمّا كان الغذاء والمأكول شديداً كثيفاً ولم يكن ليجري في الفم إلى الحلق وهو كذلك أنبع الله تعالى في الفم عيناً نباعة على الدوام أحلى من كل شيء حلو وأعذب من كل شيء عذب فيحرك اللسان الغذاء ويمزجه بذلك الماء فيعود زلقاً فينحدر في الحلق بلا مؤنة وإذا عدمت تلك العين بالجفوف من المرض لم يمض على الحلق شيء/ ولمّا كانت الحرارة [١٣/ أ]

---

(١) في الأصل: سقالة. والتصويب من هامش الأصل.

تخرج من الجوف كسرت تلك العين عادية تلك الحرارة على الدوام.

وهكذا كل عظم وعرق وقليل أو كثير من الجسد على هذه الحكمة وأكثر ولو تتبعت ذلك لطال بها الكلام لكن بالقليل يتوصل إلى الكثير إن شاء الله.

ثم خلق الأظفار لتشد أطراف الجسد لئلا تنكسر الأطراف وليحك بها في موضع الحاجة.

فانظر هذا الترتيب الغريب ما أعجبه حتى أن الشعر والظفر لمّا كان يطول فيحتاج إلى جزه كيف كان يكون الحال لو كان يُحسُّ بجزّه كسائر الأعضاء.

وعلى مثل هذا الترتيب تركبت أجسام الحيوان والنبات كله وكل ما يتركب من جميع المخلوقات في غاية الحكمة الدالة على الصانع الحكيم.

ثم خلق في باطن الجسد أعضاء رئيسية جعل كل عضو منها على عمل مخصوص وجعل في كل عضو قوى فعالة بادئة لا قَوام للجسد إلاّ بها مثل المعدة والكبد والطحال والمرار والرئة والقلب والدماغ وجعل فيها القوى الجاذبة والماسكة والهاضمة والغاذية والنامية والدافعة والمصورة وفي وضع هذه القوى في هذه الأعضاء وتخصيص كل عضو منها بقوة غير ما خصّ غيره حكمة عظيمة دالة على الصانع فتفطن لها من ذلك أعانك الله.

ولو تعطل من هذه الأعضاء والقوى واحداً تعطلت البنية كلها.

ثم خلق الحواس في مواضعها الخاصة بها اللائقة لجعل اللمس في اليد والسمع في الأذن[1] والبصر في العين والذوق في الفم والشم في الأنف، ليدرك بكل واحد منها ما ينفعه وما يضره بها.

وجعل الجوارح كالآلات ولو تعطل شيء من الجوارح والحواس لانخرم نظام الكل.

وهكذا كل شيء في غاية الإتقان/ لا يجوز تحويله عما هو عليه ولو كان على غير ما [١٣/ ب] هو عليه لانخرم نظام العالم كله.

فقد دلت الأخبار على صانع قديم مدبر حكيم عالم متصف بكل وصف[2] كريم.

ثم انظر إلى أعجب من هذا كله وأغرب وذلك أن هذا الترتيب العظيم والنظم المحكم الجسيم الذي رتبت الأجساد عليها إذا زال الروح القائم بها المصرف لها كيف تفسد جملتها

---

(١) في الأصل: الأذان. والتصحيح من هامش الأصل.

(٢) في الأصل: خلق. فاستبدلت اللفظ بما يليق بالباري سبحانه وتعالى.

وينخرم نظامها فلا قيام للأجساد إلاّ بالأرواح.

وفي معرفة الأرواح هو الشأن كله والخير أجمعه وفيها الدلالة الكبرى على الباري سبحانه كما قال عليه الصلاة والسلام: «من عرف نفسه عرف ربه»[١].

والنفس تسمى رُوحاً والروح تسمى نفساً.

وقد تكلم الناس في معرفة النفس والروح فقال قوم: الروح هي النفس والنفس هي الروح، وإنما هما اسمان بمعنى واحد. واحتجوا بقول النبي عليه الصلاة والسلام: «إن الله قبض أرواحنا»[٢]. وبقول بلال للنبي عليه الصلاة والسلام: أخذ بنفسي الذي أخذ بنفسك.

وهذا ليس فيه حجة قطعية على أنها شيء واحد. فإن الحديث الواحد[٣]: أخبر فيه عن الروح، والحديث الآخر أخبر فيه عن النفس لأن النفس والروح يتامان ويتوفيان في النوم وفي الموت.

وقالت طائفة: الروح غير النفس.

وهذا هو الحق فإن أخلاق النفس غير أخلاق الروح وأخلاق الروح غير أخلاق النفس فطبع النفس الهوى والشهوة والأمر بالسوء والجهل.

وطبع الروح العقل والعلم والتدبر والفهم ومتى لم يمنع النفس من طبعها لم ترجع عنه (. . .)[٤] إلاّ الرواح. فإن قلت: إن الكفار والفجار لا علم لهم ولا تدبر؟ فاعلم أن لهم علماً وفهماً وتدبيراً في أمور دنياهم ومعايشهم ومذاهبهم.

/ فصل في معرفة النفس والروح [١٤/أ]

أما الجوهر الروحاني النفيس العالي فتعرف ذاته من جهة مخالفتها لذوات الأجساد.

فاعلم أن الروح مخالفة للجسم في التركيب لأن الجسم مؤلف من أجزاء كثيرة لا تحصى كان أصلها الافتراق والتلاشي، والروح ليس بأجزاء متآلفة بعضها إلى بعض مثل الجسد بل هي شيء واحد غير مركب ـ أعني تركيب الجسد الذي ركب من أربعة أشياء:

---

(١) ليس هذا بحديث ولكنه قول مأثور.

(٢) انظر أطراف الحديث عند ابن عبد البر في الاستذكار (١/١٠٨، ١١٨)، والقاضي عياض في الشفا (٢/٣٤٩).

(٣) أي الأول.

(٤) موضع النقط كلمة مطموسة المداد. فلم أتبين قراءتها.

تراب وماء وهواء ونار ـ فافهم وحدانية الروح فإنه ليس شيئين ولا ثلاثة ولا أكثر إنما هو جوهر فرد روحاني في غاية اللطافة.

وهكذا كل روح في نفسه فرد والروح مخالف أيضاً للجسم في التقييد[1] بالحدود لأن الجسم محدود بجهات إذا أقبل على جهة انحاز عن أخرى والروح مطلق غير مقيد ـ أعني قيود الجسد الحاصرة له عن التصرف في كل جهة ـ فإنه ليس جهة أولى به من جهة.

وإنما قيود الجهل والمخالفات والظلمات.

والروح مخالف للجسد في الكثافة لأن الجسم ثقيل كثيف، والروح في غاية البسط الروحاني واللطافة الروحانية وإنما ثقلهُ الأوزار الثقال وكثافته ركونه إلى الأشياء وشغفه باتباع الهوى وقصوره عن الإدراكات.

والروح مخالف للجسم في التقاحم والمزاحمة لأن الجسم يردّ بعضه بعضاً ويزاحم بعضه بعضاً والروح ليس كذلك لو اجتمع مائة ألف ألف روح لا يزاحم بعضها بعضاً.

وإنما مزاحمة الأرواح بالعداوة والغضب وسوء الأخلاق والتناكر وغير ذلك مما يقع به التباين والاختلاف.

والروح أيضاً مخالف للجسم في التمكن واحتياج الجسم إلى المكان ضروري واحتياج الروح إليه جائز وهو حامل الجسد ومحركه ومسكنه والقائم/ به ويبطل بزوال الروح عنه ولا [١٤/ ب] يبطل الروح بزوال الجسد عنه فبينهما بون كبير في الاحتياج إلى المكان فإن الجسم يحتاج إلى مكان يعتمد عليه ويستقر فيه ولو زال عنه هوى وتدكدك.

والروح غير محتاج إلى مكان ـ أعني حاجة الجسد ـ بل هو المكان للجسم والجسم موضوع عليه وله. وإنما مكان الروح المكانة أو ضدها، والروح مخالف الجسم في الاتصال والانفصال لأن الجسم إذا اتصل بشيء انفصل عن موضعه ولم يبق فيه منه شيء، والروح ليس كذلك ليس هو متصل بالجسد ولا هو منفصل عنه انفصالاً يتركه بالكلية لانفصاله عنه، ولا داخل فيه دخولاً يحصره ويضمه فيه كالوعاء المحتوي على الشيء فيحجبه عن غيره ولا خارج عنه وإنما اتصاله به الوصال خروجاً لا بقاء منه بالكلية فيه أثر، والوصلة التي وقعت بينه وبين الجسد في المشاكلة عند النفخ لأن كل جسد لا يقبل إلا ما شاكله من الأرواح فالعلاقة وقعت بين الجسد والروح من هذا الباب ولم تزل تلك العلاقة تنشأ وتنمو حتى كثر الوصال والود فلا يزال الروح يجري في مرضاة الجسد لأنه قد اتحد به من كثرة المحبة وله

---

(١) في الأصل: التغيير. والتصويب من هامش الأصل.

يجمع ويدخر إلى غير ذلك مما لو ذكرته لطال به الكلام.

وإذا فهمت هذا السر انكشف لك سر الموت وشدته ولينه في حق قوم دون قوم، وأشرفت على بحر عظيم من أمر الموت وعذاب القبر ونعيمه وانفصاله أيضاً عنه من هذا النوع.

فاستعن بالله على الفهم يُعِنْكَ، وإنما هذا ذكرٌ وتذكير والله الموفق.

والروح مخالف للجسد في الإدراك لأن الجسم لا يدرك الشيء إلا بالمماسة له والحس والروح ليس كذلك يدرك الأشياء من غير/ مماسة والقريب والبعيد عنده سواء وإنما [١٠/ أ] إدراكاته المعارف والعلوم والدلائل والبراهين وإدراك الغائب بالشاهد إلى غير ذلك.

فصـــل

ومن أعون شيء على معرفة الروح وأقربه أن تعلم أن وجود الشيء كلما عَلَا وقرب من بارئه لطف جوهر ذاته وتروحن وانبسط ورقّ وصَفَا وكلما بعد عن الموجد كثف وعظم وغلظ وظهرت عليه عوارض الجسم وقيود الحدود المانعة من البسط فيه، ومثال ذلك بالمشاهدة:

أن الأرض التي نحن مخلوقون منها لمّا كانت في أسفل العالم كانت أكثف الموجودات وأشدها إظلاماً حتى أن الليل الأسود إنما هو ظلها.

وذلك الماء لما كان فوقها في علو الرتبة والمكان كان أصفى منها وألطف وأبسط فتراه يطلب الانبساط بوجوده أبداً.

وذلك الهواء فوقه فجسمه أغرب لطافة وصفاءً وانبساطاً.

وذلك النار الذي هو الأثير فوق الهواء ألطف وأرق وأبسط منه وهو جسم تحت جسم الفلك.

والفلك فوقه وهو أغرب من كل ما تحته وأصفى جوهراً. وكل فلك وسماء أغرب وأصفى من الذي تحته وأعظم لطافة.

وهكذا كلما علت جواهر الموجودات وذواتها وقربت من الأمر كانت ذواتها ألطف جوهراً وأبسط وجوداً وأكثر تروحاً.

وإذا فهمت هذا لم يشكل عليك قول في معرفة الروح وبسطه ولطافته وتروحنه، وبسطه يقرب من لطائف صورة المعلوم المتصورة في نفس العالم بها.

فذاتك وما هي عليه من الكثافة في عالم الدنيا الجسمانية وأغرب وجوداً وهي والتعبد بها في عالم الروح والعرش روحانية ألطف منها في النفسانية/ وأغرب وهي متصورة في [١٥/ ب] العلم القديم صورة علمية معلومة نورانية فكلما سفل الوجود وبعد من العلو كثف وأظلم، وكلما قرب لطف وتروحن.

على هذه الصورة خلقت الأشياء وفطرت وتمام هذا كله وكماله في الكثافة واللطافة والقرب والبعد [من][1] الشرعة ـ ومعنى الشرعة: أن الله عز وجل لما خلق الأشياء وفطرها على ما فطرها عليه شرع لها الشرعة ونهج المنهاج وأمر بالإقبال عليه والارتقاء في الدرجات المقربة إليه ونهى عن البعد منه والإعراض عنه ـ فمن ارتقى إلى مولاه كما أمره صفت ذواته البواطن والظواهر من الأثقال والأوزار الثقال على حسب ما قسم لهم الكبير المتعال.

وبهذه الخفة التي ذكرنا والتروحن الذي وصفنا مشوا على الماء وطاروا في الهواء وخرقت لهم العوائد ونشرت على قلوبهم الفوائد فسمعوا الوحي والإلهام وكانوا آية للأنام[2] لأن أرواحهم وعقولهم جذبت منهم النفوس والأجسام إلى حضرة ذي الجلال والإكرام فازدادوا تروحناً بروح القدس ووجدوا حلاوة المحبة والأنس: ﴿أُوْلَـٰٓئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ ٱلْإِيمَـٰنَ﴾[3].

وبضد هذا الوصف من انتكس مات قلبه واتبع هواه.

قال سهل بن عبد الله[4]: أول من مات من الخلق إبليس.

---

(١) ما بين المعقوفين يتطلبه السياق.

(٢) مثل هذا الكلام جعلني أتوقف وأتردد عن تحقيق هذا المخطوط غير أن مطالعتي للكتاب جعلتني أتشجع على تحقيقه لما وجدت فيه من فوائد عظيمة يندر الوقوف عليها أو استنباطها من غير المؤلف فاستعنت الله على تحقيقه وخوض عبابه ودفع بعض زغبه والاستفادة بلآلئه وتبصير الواقف عليه بأنه ليس هناك كتاب له العصمة سوى كتابه سبحانه وليس لأحد قول مع حبيبه. ومثل هذا القول لا تخلو منه كتب وعقائد المتصوفة فنسأل الله السلامة وحسن الختام.

(٣) سورة المجادلة (الآية: ٢٢).

(٤) هو أبو محمد سهل بن عبد الله بن يونس بن عيسى بن عبد الله بن رافع التستري الزاهد الصوفي، البغدادي المشهور. ولد سنة (٢٠٣) وقيل: سنة (٢٠٠) وتوفي سنة (٢٨٣) وقيل سنة (٢٧٣).

قال صاحب طبقات الأولياء: صاحب كرامات لقي ذا النون وكان له اجتهاد ورياضات وهو ورع سكن البصرة زماناً وعبدان مدة وكان سبب سلوكه خاله محمد بن سوار. . ثم حكى من قوله أنه قال له رجل: أريد أن أصاحبك. فقال سهل: فإن مات أحدنا فمن يصاحب الثاني؟ قال: يرجع إلى الله تعالى. قال فلنفعل الآن.
=

وبين هذين الصنفين من الخلق طبقات من القرب والبعد والخفة والثقل.

أما المشي على الماء وفي الهواء فإن الجسد يهوي بطبعه إلى الأرض لا يستقر على الماء ولا في الهواء فهذه فطرته وطبيعته فإذا ملكه الروح وصرفه على غرضه ولم يملك من نفسه شيئاً ولا حركة واحدة حتى يكون تابعاً لا متبوعاً كأجساد الأولياء مع أزواجهم أمشاه الروح على غرضه على/ الماء وفي الهواء لأنه لا يتصرف بحكم طبعه بل بحكم غيره فقد رده عن حكم طبعه إلى إرادته فأوقفه على الماء فلا يغرق لأن حركة طبعه لا حكم لها عند الروح إلا باختياره وأكثر أجساد الخلق متبوعة لا تابعة والأرواح تابعة لها هي التي تتصرف والأرواح تتصرف بتصرفها مما كسبتها الأجساد معاني الثقل وتصرف الأجساد. فافهم.

فصـــل

فأما وحدانية الروح: فإن الجسد إذا قام العرض أو الإدراك بجزء منه مثل سواد العين وإدراكه، أو لمس اليد وبياضه، أو ذوق الفم ولونه، لا يقوم جزء آخر من الجسد مثل بياض الظفر الذي لا يكون في الوجه فافهم هذا جيداً.

والروح ليس كذلك إذا حل به العرض حل بكلية ذاته وأحاط بالذات إحاطة عامة غير خاصة مثل العلم والحياة والنور والظلمة من الجهل وغيره من الصفات الحسنى.

وجميع الأعراض الحالة به لا يقوم عرض من الأعراض ببعض الروح دون بعض، وإنما ذكرنا البعض مجازاً لأن الروح ليس يتبعض خلقه الباري على هذه الصورة آية له ودليلاً عليه.

وفي الحديث: «إن الله خلق آدم على صورة الرحمٰن»[1]. وفي حديث آخر: «على صورته».

وكلف هذا الجوهر أمراً عظيماً، الاتصاف بأوصاف بارئه والتعبد بها والتخلق

= قلت: وله كتب منها: تفسير القرآن الكريم، وقصص الأنبياء، ورقائق المحبين، وجوابات أهل اليقين، مواعظ العارفين، زايرجة، الغاية لأهل النهاية.

ومن مصادر ترجمته: ديوان الإسلام بتحقيقي (١١١٦)، الاعلام (٣/ ١٤٣)، طبقات الأولياء (٢٣٢)، سير أعلام النبلاء (١٣/ ٣٣٠)، المنتظم (٥/ ١٦٢)، حلية الأولياء (١٠/ ١٨٩)، شذرات الذهب (٢/ ١٨٢)، وغير ذلك كثير من الكتب.

(١) أطراف هذا الحديث عند: مسلم في الصحيح (البر والصلة ١١٥، الجنة ٢٨)، أحمد في المسند (٢/ ٢٤٤، وغير ذلك)، الحميدي في المسند (١١٢٠، ١١٢١)، ابن أبي عاصم في السنة (١/ ٢٣٨)، ابن حجر في الفتح (١١/ ٣).

بصفاته[1] على قدر طاقته ولا يكلف الله نفساً إلا وسعها.

ولهذه العلة جعل الله خليفة، والخليفة بدل من المستخلف كما ورد في أنفس الجواهر وأعلى الخلفاء: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾[2]. قيل في التفسير: على أخلاق الربوبية.

وقالت عائشة رضي الله عنها: كان خلقه القرآن.

فهو الجوهر الكريم في/ غاية الصفاء والنور والنفاسة والشرف والجلالة. [١٦/ ب]

وضد ذلك وما بينهما وأوصاف هذا الجوهر خلفة عليه من جود الإله الجواد الكامل المجيب الذي لا يقبل من أحد بل هو البعيد النزيه عن القبول من شيء وكلف هذا الجوهر من الأفعال وضع الأشياء مواضعها على حسب ما يقتضيه أمر الآمر السيد الكريم، ولذلك قال: ﴿مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ ٱللَّهَ﴾[3]. [وقال][4]: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ ٱللَّهَ﴾[5]. لأنه جعله بدلاً منه في مجاز القول هو: كنت سمعه، وبصره، ورجله، ومثل هذا كثير.

ومن فهم سِرّ الروح فهم حقيقة سِرّ المحبة والمعرفة إن شاء الله.

وأما أصل حقيقة الروح فمن الأمر.

اختلف الناس في معرفة الأرواح فقالت طائفة: الروح لا تُعلم أصلاً، واحتجوا بقول الله تعالى: ﴿قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي﴾[6].

ومن يطلق هذا القول من العلماء إنما عنى لا يُعرَف ويحاط بمقداره. ولأن الله تعالى قد جعله أثراً من آثاره وآية عليه من آياته.

وأما إنكار معرفته أصلاً من كل الوجوه فذلك جهل عظيم من قائله.

فإن أول درجة في المعرفة بالشيء إثبات وجود ذلك الشيء والإقرار أنه موجود فإذا عرف الروح أنه موجود وثبت بالضرورة النظرية العقلية فقد علم وجوده وإن كان لا يحاط به فهو آية وجوده.

وورد عن النبي ﷺ: «من عرف نفسه عرف ربه، وأعرفكم بنفسه أعرفكم بربه»[7].

---

(١) في الأصل: بأخلاقه. فاستبدلتها بما يليق بالمعنى.

(٢) سورة القلم (الآية: ٤).

(٣) سورة النساء (الآية: ٨٠).

(٤) زيادة للفصل بين الآيات.

(٥) سورة الفتح (الآية: ١٠).

(٦) سورة الإسراء (الآية: ٨٥).

(٧) سبق الإشارة إلى أن هذا ليس بحديث ولكنه قول مأثور. وقد جاء تعليق بهامش المخطوط تعليقاً عليه=

[١٧/ أ] فقد أطلق النبي ﷺ القول بمعرفته، والروح لا يقدر أحد على إنكاره لظهور دلائله/ وآثاره.

فصـــل

اعلم أن الله جل جلاله جعل معرفته أعسر المعارف لأنه لا مثل له، وقد فرض الله على الخلق معرفة ذاته وأسمائه وصفاته ومدح العارفين به وذم الجاهلين به والمنكرين له. فمعرفته سبحانه إثبات وجوده وتقديسه وتنزيهه عما لا يليق به ووصفه على ما هو عليه وما وصف به نفسه وأمر بالبحث والنظر والاستدلال عليه فهو معروف وإن لم يكيف ولا يحاط به.

فكذلك أكسب الروح معنى من هذه المعرفة ليستدل به عليه لأنه أقرب الموجودات إليه. فافهم.

فصـــل

فأما من احتج بالآية: ﴿قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي﴾[1] على أنه لا يُعلم، فإن الآية حجة عليه فإن الجواب بقوله: ﴿قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي﴾[1] على حسب السؤال عن الروح بقولهم: ما الروح؟

وذلك أن المطالب المسؤول بها عن المعلومات أربعة: هل، وما. وكيف، ولِمَ.

فأما «هل»: فيُسأل بها عن حقيقة الشيء ووجوده هل هو موجود أو معدوم؟ فيقال: نعم أو لا.

وسؤالهم عن الروح لم يكن من هذا المطلب لأنهم كانوا مقرين بوجوده عارفين بأنه موجود.

وأما المطلب الثاني الذي هو «ما»: فهو بحث عن جوهرية الشيء وطبيعته ومما هو ومن أي جنس هو وقد تجعل «أي» بدلاً من «كيف» في السؤال لأنها بدل منها وهما معنًى واحد.

وأما المطلب الثالث الذي هو «كيف»: فإنها بحث عن أحوال الشيء وخواصه ولواحقه اللازمة له على أي صفة حال منها.

= هذا نصه: قوله من عرف نفسه.. الخ. ألف الجلال السيوطي في هذا الحديث مؤلفاً حاصل ما ذكر فيه أنه ليس بثابت ولكن معناه صحيح وذكر في معناه عشرة أوجه، وما ذكر المؤلف هنا قريب من ذلك فتأمل. اهـ.

(١) سورة الإسراء (الآية: ٨٥).

وأما المطلب الرابع الذي هو «لِمَ»: فإنه بحث عن علة الشيء التمامية الموجبة لكونه على ما هو عليه أي لِمَ كان هكذا ولم يكن على كذا وكذا؟

وسؤالهم في الآية/ عن الروح إنما كان عن مطلب «ما» أي ما هو الروح؟ ومن أي شيء هو؟ فلذلك كان الجواب عن حقيقة المسؤول عنه ومما هو؟ يدل عليه من الآية حرف الجر في قوله: ﴿مِنْ أَمْرِ رَبِّي﴾[1]. [١٧/ ب]

ومصداق ذلك ما ثبت في الصحيح من حديث عبد الله بن مسعود قال: بينما أنا أمشي مع رسول الله ﷺ في خرب المدينة وهو يتوكأ على عسيب فمرّ بنفر من يهود فقال بعضهم لبعض: سلوه عن الروح. فقال رجل منهم: يا أبا القاسم ما الروح؟ فسكت فقلت: إنه يوحى إليه. فلما انجلى عنه قال: ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ﴾[2] الآية.

فقد تبين أن سؤالهم إنما كان بـ: «ما» فأجابهم عن قوله: ﴿الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي﴾[1].

ولم يسألوه عن وجوده فيقول: نعم، أو لا. كيف هو كالأجسام؟ أو هو على صفة كذا وكذا؟ ولو كان لأجابهم بأنه على صفة كذا وكذا كما أجاب عن ربه حين سألوه فنزلت: ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾[3].

ولو كان سؤالهم أيضاً عن علة كونه على ما هو عليه دون أن يكون على غيرها لأجابهم بأنه كان على حالة كذا وكذا لأجل كذا وكذا.

وحرف الجر يدل على أنه لم يكن سؤالهم عن المطالب الثلاثة وإنما سألوه بـ «ما» فكان الجواب عن حقيقة ما سألوه عنه. أي مما هو؟ وما هو؟ فقال: ﴿قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي﴾[4].

وهو تفسير السؤال الأول عن الروح فأجاب بهذا الجواب.

وقالت طائفة: الروح هو الدم. وتسمية الروح دماً مجاز، وإنما هو سبب من أسباب الحياة في بعض الحيوان، ومن الحيوان من ليس له دم.

ويوصف/ بالروح والملائكة الروحانيون لا دم لهم. [١٨/ أ]

وقالت طائفة: الروح هو النفس الداخل والخارج. وهذا أيضاً مجاز، وإنما أطلقوه لما رأوه لا يستغنى عنه، وإنما التنفس سبب من أسباب الحياة وقد يوجد من الحيوان ما لا

---

(١) سورة الإسراء (الآية: ٨٥).
(٢) سورة الإسراء (الآية: ٨٥).
(٣) سورة الإخلاص (الآية: ١).
(٤) سورة الإسراء (الآية: ٨٥).

يتنفس وإذا تنفس مات كالحوت وما أشبهه.

وقالت طائفة: الروح هو الحياة. وهذا القول أيضاً إنما وصف صفة من صفات الروح لا ذاته لأن الحياة عرض من الأعراض وقد صح وثبت أن الأرواح تقبض وتتوفى وتموت وتعذب وتنعم وهذه صفة الجواهر والذوات لا صفات الأعراض.

وقالت طائفة: الروح جسم لطيف. وهذا القول أقرب الأقوال إلى الحق لأن وصفهم له باللطافة يدل على أنه ليس كالأجسام الكثيفة.

وقالت طائفة: الروح لطيفة مودعة في الأشباح. وهذا القول يشارك الذي قبله في اللطافة وهو قول حسن متحذر قائله من كثافة الجسم.

وقالت طائفة: الروح جوهر روحاني منبسط. وهذا القول قريب من القولين الذين قبله وهذا القول أعدل الأقوال لأنه قال فيه جوهر روحاني بسيط أي جوهرية ذاته روحانية منبسطة.

والروحاني في اللغة التي نزل القرآن بها: من خلقه الله روحاً بلا جسد.

ويقال: رَوِحَ الرَّجُلُ رَوَحاً إذا كان أحد قدميه منبسطاً. ويقال أيضاً: قصعة رَوْحاءُ: قريبة القَعْر أي منبسطة متوسعة[1]. هذا يدل على بسط الروح فإنه ليس كالجسم الكثيف وإلا فلأي شيء انفرد بتسمية الروح من الأجساد وانفرد الجسم عنه باسمه دون الروحانية.

[١٨/ ب] وقالت طائفة: الأرواح/ نور من نور الله عز وجل وحياة من حياته. وهذا القول صواب حسن وأراد قائله أنه نور من أنواره المحدثة عن معنى اسمه النور القديم وحياة محدثة عن معنى حياته القديمة. وهو مثل قول ذي النون: الروح شعاع الحقيقة على إضافة الملك.

وقال قوم: روح القدس من ذات الله. وهذا القول أيضاً على إضافة الملك أي ذات روح القدس المحدثة من معاني ذاته القدسية القديمة.

وقالت طائفة: الروح أمر من أمر الله غير مخلوق. وإنما أراد بهذا القول روح الوحي والقرآن وهو أولى باسم الروح لأنه به حييت الأرواح والوجود كله، وقال الله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحاً مِّنْ أَمْرِنَا﴾[2].

---

(١) قاله الليث في لسان العرب لابن منظور (١٧٧١) ط. الشعب وهو بنحو مما هنا.

(٢) سورة الشورى (الآية: ٥٢).

فصــل

الأمر هو الروح والروح هو الأمر وهو على ضربين: قديم ومحدث.

فالقديم: كلام الله وصفته.

والمحدث: أرواح الموجودات التي حدثت عن معنى أمره.

وروح الوحي القديم كما أوجد عن معنى اسمه العليم العلوم كلها، وعن معنى اسمه المؤمن إيمان العالمين أجمعين.

فكذلك في جميع الأسماء والصفات وهذا أصل عظيم يزيل الإشكال كله.

وأما من اعتقد في صفات الخلق وأرواحهم أنها غير مخلوقة فقد ضل ضلالاً بعيداً وهو من أهل الجهل وليس من أهل العلم في شيء.

قال الله عز وجل: ﴿إِنَّمَا ٱلْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ ٱللَّهِ وَكَلِمَتُهُۥٓ أَلْقَاهَآ إِلَىٰ مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِّنْهُ﴾[1]. وقال فيه: ﴿وَلِنَجْعَلَهُۥٓ ءَايَةً لِّلنَّاسِ وَرَحْمَةً مِّنَّا وَكَانَ أَمْرًا مَّقْضِيًّا﴾[2].

فهو أمر من أمر الله وروح منه كما قال: ﴿قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّى﴾[3]. [وقال][4]: ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ ٱللَّهِ كَمَثَلِ ءَادَمَ﴾[5] الآية.

فمن أطلق من العلماء الموثوق/ بهم على الروح أنه ليس مخلوقاً فإنما أراد القديم، [١٩/ أ] وأمر الله القديم ووحيه وهو روح الوجود بالحقيقة وحياته.

ومن أطلق عليه الخلق فإنما أراد أرواح الموجودات وجواهر ذواتهم الباطنة.

وكذلك من أطلق منهم على الإيمان أنه ليس بمخلوق إنما يعني صفة المؤمن العلي جل جلاله وإيمانه الذي يصدق به نفسه وأفعاله.

ومن أطلق على الإيمان الخلق فإنما يعني إيمان الخليقة الموجود في البواطن والقلوب.

والحلول دخول في الشيء، وصفة الجليل جل جلاله لا تحل أبداً في شيء ومن أحل جهل الدخول وأحل الحلول بهذه المعاني وقعوا فيما وقعوا فيه من الكفر والضلال.

---

(١) سورة النساء (الآية: ١٧١).
(٢) سورة مريم (الآية: ٢١).
(٣) سورة الإسراء (الآية: ٨٥).
(٤) زيادة للفصل بين الآيات.
(٥) سورة آل عمران (الآية: ٥٩).

فصـــل

فالأرواح كلها مخلوق أمر من أمر الله بان الله منها وبانت منه وهي غير متناسبة ولا متناسخة ولا تخرج من جسم وتبعث في غيره، تذوق الموت وتتنعم بتنعم البدن وتعذب بعذابه هذا هو الشرع الذي جاءت به الكتب ونطقت به الرسل وما سواه باطل.

فالروح أمر من أمر الله كما قال الله عز وجل: ﴿قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي﴾(١).

وهو تفسير على حسب ما سئل عنه، وليس بعد بيان الله في هذا الجواب بيان.

والأمر هو: كن. الصادر عن الإرادة، والقول القائم بالنفس كما قال: ﴿إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَا أَرَدْنَاهُ أَن نَّقُولَ لَهُ كُن﴾(٢).

أي كن على صورة ما أردت منك أن تكون بلا تأخير.

فالروح أراد منه أن يكون على هذه الصورة فهو كلمة الله تعالى: ﴿وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَىٰ مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِّنْهُ﴾(٣). [وقال](٤): ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ﴾(٥) إلى قوله: ﴿كُن﴾(٥).

فإذا فهمت سر الروح وماهية خلقته أشرفت على سر القدر العام لجميع الخلائق كائناً ما كانوا وكيف تنفخ الروح/ في المخلوقات عند استعدادها لقبول الأرواح بالسعادة أو بالشقاوة وما بين ذلك وأجله ورزقه وصناعته وجميع ما يكون من كل من يمشي على بطنه أو على أربع أو على رجلين أو ملك أو شيطان أو من وصف بصفة كل قد قبل من وجود الله ما يليق به ولا يجوز أن تقبل أكثر من الذي قبل لأن ذلك القبول في حقه هو الكمال وإن كان أنقص من غيره لأنه يقوم في مقامه قياماً لا يقوم فيه غيره ممن هو فوقه أو دونه لتكمل حكمة الله في خليقته التي هي في نهاية الحكمة وفي غاية الجمال. [١٩/ ب]

والقدر سر الله في خليقته والله: ﴿أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلَقَهُ﴾(٦).

وإذا فهمت أيضاً سر الروح أشرفت على معنى قول الرسول ﷺ: «من عرف نفسه عرف ربه»(٧). وقد قال الله تعالى: ﴿وَفِي أَنفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾(٨).

---

(١) سورة الإسراء (الآية: ٨٥).
(٢) سورة النحل (الآية: ٤٠).
(٣) سورة النساء (الآية: ١٧١).
(٤) زيادة للفصل بين الآيات.
(٥) سورة آل عمران (الآية: ٥٩).
(٦) سورة السجدة (الآية: ٧).
(٧) سبق التعليق على هذا القول وبيَّنتُ في أكثر من موضع على عدم صحة نسبته إلى النبي ﷺ وكذا علق ناسخه أو مراجعه عليه بهامش المخطوط ونقلت تعليقه في موضعه.
(٨) سورة الذاريات (الآية: ٢١).

فهمنا الله وإياك الفهم المقرب منه الموصل إليه إنه على كل شيء قدير.

وصلى الله على محمد [وآله وسلم تسليماً].

فصـــل

قال الله عز وجل: ﴿فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي﴾[(1)]. وقال: ﴿ثُمَّ سَوَّاهُ وَنَفَخَ فِيهِ مِن رُّوحِهِ﴾[(2)].

فبعد التسوية كان النفخ، وذلك عند اعتدال خلقة الجسد واستوائه تجلت إليه صورة الروح المنفوخ فيه كما يتجلى شعاع الشمس من وجود الشمس على جميع العالم فيستنير بها ظاهر وجود العالم كله أعني العالم الظاهر وتنتشر الحركات في جميعها فتجلي شعاع الشمس فيه ـ أعني العالم ـ فلو قدرت أن تكون الأرض كلها مصقولة في صفاء المرآة لظهرت صورة الشمس في جميع الأرض كما تظهر في المرآة وكما تظهر في وجود البحر والماء الذي/ هو أصفى من الأرض وجوداً وأشد صقالاً. [٢٠]

وهكذا لو قدرت جميع أجزاء الموجودات في غاية الصفاء رالصقال لتجلت أشعة الشمس في كل جزء منها صورة كاملة وبهذا المعنى ظهرت جميع الأشياء الظاهرة للأبصار، فالذي نرى على وجود الأشياء إنما هو نور الشمس المتجلي منها.

واعلم أنه ليس لهذا الشعاع المذكور المتجلي على وجود الأشياء وجود بذاته بل أصل وجوده مستمد من وجود الشمس على الدوام مع كل نفس وطرفة وفيضات التجلي دائمة مستمرة بدوام وجود الشمس.

ومما ينبغي أن تفهم أن تجلي الشعاع المذكور ليس هو بمعنى انفصال النور من نور الشمس كانفصال جزءٍ من جزءٍ حتى يقال إنه زال عن قرص الشمس جزء من نورها ثم تجلى في هذا العالم.

ليس الأمر كذلك إنما هو بمعنى أنه حدث عن طلوع الشمس في هذا العالم ذلك الشعاع المذكور وقرص الشمس لم يتغير عن حاله ولم ينفصل منه شيء، وإما وجود الشمس سبب لحدوث الشعاع مع الدوام والشعاع مناسب للنور الذي في قرص الشمس نسبة نورانية لكنه ليس مثله، والشعاع ينظر إليه وتبين صورته على الموجودات ووجود الشمس لا يقدر أحد أن يتبينه إلاّ الخطرة أو اللحظة مع بُعدها عن الأبصار وامتزاج العالم بظلمات الأجسام.

---

(١) سورة ص (الآية: ٧٢).

(٢) سورة السجدة (الآية: ٩).

فتعلق الأرواح بالأجساد كتعلق الشعاع بالموجودات قال ابن عطاء[1] وغيره من المشايخ: الروح شعاع الحقيقة فبالروح استنار الجسد وظهرت الحركات والحياة.

[٢٠/ ب] وقال ذو النون[2]: بنية الإنسان راية/ كل مسمى رؤية للحقيقة.. إلى قوله: لأنها منبسطة على الأشياء كانبساط نور الشمس على كل شيء.

والشعاع قد ملك كل وجود العالم كله قبل وجود الروح، وأغرب من وجود الشعاع لكن في الأمثلة تنبيه للعقول.

فالروح بينه وبين بارئه مناسبة من جهة النورانية المذكورة فليس له حياة إلاّ بتجلي الحق سبحانه له على الدوام.

واعلم أن الباري سبحانه متجلي ظاهر أبداً لا يوصف بالغيبوبة والأُفُولِ تعالى عن ذلك.

وإنما الأشياء هي التي حجبت بعضها بعضاً بالغفلات والظلمات ولو قدرت غيوب الشمس ولم يكن لها ظهور بشعاعها على الموجودات والكواكب والأفلاك لانطمست الأشياء

---

(١) هو أبو العباس أحمد بن محمد بن سهل بن عطاء الآدمي البغدادي الزاهد العابد المتأله المتوفى في ذي القعدة سنة (٣٠٩). قال الذهبي في سير الأعلام (١٤/ ٢٥٥): راج عليه حال الحلاج وصحَّحَه فقال السُّلمي: امتحن بسبب الحلاج وطلبه حامد الوزير وقال: ما الذي تقول في الحلاج؟ فقال: ما لَك ولذلك؟ عليك بما ندبت له من أخذ الأموال وسفك الدماء. فأمر به ففكت أسنانه، فصاح: قطع الله يديك ورجليك. ومات بعد أربعة عشر يوماً. ولكن أُجيب دعاؤه فقطعت أربعة حامد. قال السلمي: سمعت عمرو بن حمدان يذكر هذا. قال الذهبي: قيل إن ابن عطاء فقد عقله ثمانية عشر عاماً ثم ثاب إليه عقله.

ثبت الله علينا عقولنا وإيماننا فمن تسبب في زوال عقله بجوع ورياضه صعبة وخلوة فقد عصى وأثم وضاهى من أزال عقله بعض يوم بسُكر، فما أحسن التقيد بمتابعة السنن والعلم.

وانظر ترجمته في: حلية الأولياء (١٠/ ٣٠٢)، تاريخ بغداد (٥/ ٢٦)، طبقات الأولياء (٩ ـ ٦١)، شذرات الذهب (٢/ ٢٥٧)، طبقات الصوفية (٢٦٥).

(٢) هو أبو الفيض ثوبان بن إبراهيم، وقيل: فيض بن أحمد، وقيل: فيض بن إبراهيم أبو الفيض وقيل أبو الفياض الأخميمي ذو النون المصري، شيخ الديار المصرية. ولد في أواخر أيام المنصور وتوفي سنة (٢٤٥)، قيل (٢٤٦)، وقيل (٢٤٨) وهو نوبي الأصل من الموالي وكانت له فصاحة وحكمة وشعر وهو أول من تكلم بمصر في ترتيب الأحوال ومقامات أهل الولاية فأنكر عليه عبد الله بن الحكم، واتهمه المتوكل العباسي بالزندقة فاستحضره إليه وسمع كلامه ثم أطلقه فعاد إلى مصر وتوفي بها ودفن بقرافتها. (الأعلام ٢/ ١٠٢)، ديوان الإسلام (٩٦٦) الحلية (٩/ ٣٣١)، تاريخ بغداد (٨/ ٣٩٣)، سير أعلام النبلاء (١١/ ٥٣٢).

ولم يظهر وجودها كذلك لو قدرت غيبة الباري سبحانه لم يظهر شيء دونه ولا كان للأشياء وجود البتة بحال.

فبالحقيقة ليس الظاهر على الأشياء إلاّ نور الشمس الذي هو الشعاع ولولا وجود قرص الشمس لم يكن للشعاع وجود.

فبالحقيقة إنما ظهرت الأشياء بظهور قرص الشمس فالشمس هي الظاهرة المرئية.

وكذلك بالحقيقة ليس الظاهر إلاّ الله وحده:

ألاَ كل شيءٍ ما خلا الله باطل

والشمس في نفسها والأشعة المتجلية متعددة بتعدد ذوات العالم وجواهره القابلة لشعَاع الشمس فتنجلي في كل عين شمس وفي كل مرآة صقيلة شمس وفي كل موضع من البحر والأرض والهواء شمس فلو كانت جواهر الأرض كلها صقيلة صافية كالهواء والبحر لظهر في كل جزء شمس كما تظهر الصور في المرائي وأنشد الشاعر في هذا المعنى/ وهو [٢١/] عباس بن مرداس:

كَانُوا أمَامَ ٱلْمُؤْمِنِينَ درية وَٱلشَّمْسُ يَوْمَئِذٍ عَلَيْهِم أَشْمَسُ

يريد لمعان الشمس وشعاعها وصورتها المتجلية منها في كل بيضة وآلة مصقولة شمس. والدرية: الحلقة.

وكذلك تتجلى الأرواح من أمر موجدها في ذات كل روح من جميع الخلق صورة كاملة وذات مصورة ولذلك كانت ألطف الموجودات وأغربها وجوداً. فافهم فهمنا الله وإياك.

ولما كان الروح بهذه الصورة وتعلق بالجسد فمن أراد الله به خيراً أبقاه على حالة الصفاء والنورية فزاده فاشتاق إلى منبعه وتعلق قلبه بالوطن الذي وجد منه فهو يطلب الخروج من هذا العالم الجسماني غريب عن وطنه ومعدنه فلما لم يكن بد من تعلقه بالبدن لتكمل له العبودية الروحانية والعبادة الجسمانية صار الجسم له أخاً وقريباً وصاحباً فاحتال الروح على جذب الجسد إلى وطنه ومعدنه بالعلوم الروحانية والطاعات الرضوانية فمن التوفيق وصل بعون الله إلى ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر ومن كان بضد هذا الوصف تراكمت عليه الظلمات وخاض بحر المخالفات وكان بضد ما تقدم لأن ذلك من المفتونين وهذا من المبعدين، وذلك من النورانيين، وهذا من الظلمانيين، وما بين هذين طبقات لا تحصى على حسب الصفاء وامتزاج الظلمات والنور.

[٢١/ ب] واعلم أن تعلق الروح بالجسد هو سبب/ السعادة الكبرى أو ضدها لأنه لمّا تعلق بالجسد ينظر إلى هذا العالم الظاهر عالم الملك على ثقبٍ خمس وهي مواضع الحواس الخمس فيميز بين الألوان والهيئات على ثقب العين بحاسة[١] البصر، وبالشم بين الروائح وأجناسها على ثقب الأنف، وبالذوق بين المطعومات على ثقب الفم، وبالسمع بين أجناس الأصوات على ثقب الأذن، وباللمس بين أنواع الملموسات على ثقب اللمس.

فحصل الفرق بين الحسن والقبيح من جميع معلومات العالم بواسطة تحسين الشرع وتقبيحه واستدل بمعلوماته على صانعها ومبدعها وبالدنيا على الآخرة فرفع همته إلى بارئه وإلى عالم الآخرة فاستقامت بنيته عند ذلك فكان قائماً مستوياً على صراط مستقيم وفي أحسن تقويم. ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ﴾[٢].

فهو يطلب الخروج من هذا العالم إلى منبعه ووطنه فطلب طريقاً يخرج عليه منه فلم يجد إلاّ العلم النافع والعمل الصالح، والعلم النافع ما انتفع العبد به في الدنيا بأن يدله على الله والدار الآخرة، والعمل الصالح ما كان للّه فيه رضاً فالتزم هذين الأصلين فلم ينشب أن عجل له أذواق الروح والنعيم المخصوصة بعباد الله المقربين لأن العلم بالله تعالى والمعرفة به لا نعيم أنعم منه، وكذلك العمل له لا جنة تشبهه فالتزم الروح والجسد العلم والعمل إلى حين الأجل.

وإن اقتصر الروح على ما أدرك من معلوماته على أثقب حواس الجسد وشغف بها وعكف عليها صار مكباً عليها فانتكص أعلاه وكان بضد ما تقدم: ﴿أَفَمَن يَمْشِي مُكِبّاً عَلَىٰ وَجْهِهِ﴾[٣]. إلى العالم الأرضي، قال الله تعالى: ﴿ثُمَّ رَدَدْنَاهُ أَسْفَلَ سَافِلِينَ﴾[٤] [وقال][٥]: ﴿إِنْ هُمْ إِلاَّ كَٱلْأَنْعَامِ﴾[٦].

[٢٢/ أ] وبين هذين الصنفين/ طبقات مرة يكبو العبد ومرة يستقيم. فافهم فهمك الله.

فهكذا شاهده[٧] أهل البصائر بلا مرية في ذلك.

فصل

واعلم أنه إنما ضل الخلق كلهم كافرهم ومبتدعهم وفاسقهم من أجل التباس صفات

---

(١) في الأصل: فحاسة. وهو تحريف.
(٢) سورة التين (الآية: ٤).
(٣) سورة الملك (الآية: ٢٢).
(٤) سورة التين (الآية: ٥).
(٥) زيادة للفصل بين الآيات.
(٦) سورة الفرقان (الآية: ٤٤).
(٧) شهادة معنى هذا ما أظن أنه يقصده فإن أراد غير ذلك فلا إلاّ في الآخرة إن شاء الله تعالى.

الخلق عليهم بصفات الخالق ومن أجل غيبة الآخرة وحضور الدنيا لأنه لمّا نظر الروح على ثقب الحواس إلى معلوماته المحسوسات في هذا العالم رسخت صورها في خياله وتنقشت منطبعة في ذاته فإذا ذكر له مذكور من صفات الباري حمله على ما عهد لأنه لم يعهد إلاّ ذلك مثل اليد إذا ذكر له حمله على الجارحة أو البصر أو الوجوه أو أي مذكور ذكر له من علم أو غيره حمله على ما عهد. فلا بد من تميز صفات الخالق من صفات خلقه.

وكذلك الآخرة لمّا كانت غائبة والدنيا حاضرة سبق الحاضر إلى نظر الخلق فاشتغلوا به عن الغائب.

وأهل العقل نظروا بعكس هذين النظرين في أمور الباري وأمور الآخرة.

فأما النظر في أمور الباري تعالى فعلى أصلين: النظر في الواحد، والنظر في صفات الواحد.

فمن أصول النظر في الواحد سبحانه: أن تعلم أن الشيء الواحد بالحقيقة هو الشيء الذي ليس لوجوده نهاية ينتهي إليها لأن النهاية غاية الموجود وحدّ له لا يتعداه.

فإذا اتخذ بالنهاية أخذته القسمة لأن وراء تلك النهاية شيء آخر من جنسه أو من غير جنسه.

فإن قلت: كيف لم تزاحمه الأشياء وهو لا نهاية له[1]. فهو الوجود وحده فقط ولا وجود لشيء معه البتةَ لأنه لو كان معه شيء لحدَّه، ونحن نجد الأشياء موجودة؟

فالجواب: أن البينونة وقعت بين القديم والمحدث فقد باين المخلوقات/ بقدمه كما [٢٢/ باينوه بحدوثهم. وكذلك باينهم بجميع أوصافه كما باينوه بجميع صفاتهم. فافهم.

والأشياء أيضاً لا وجود لها معه إلا بإيجاد في كل طرفة.

والواحد من وجه آخر أيضاً: هو الذي لا مثال له ولا نظير ولا شبيه من جميع الموجودات. كما يقال: فلان واحد عصره؛ أي لا قرين له.

فإذا لم يكن له مثل أو شبيه فهو واحدٌ فرد لا يشبهه شيء لا في وجوده ولا في صفاته.

ومن هذا الفصل تفهم وحدانية الصفات فإن بصره محيط بجميع الموجودات كلها على كثرتها ومحيط بذاته وعلمه مدرك لذاته ولجميع المعلومات على كثرتها. وهكذا جميع صفاته.

(١) هذه العبارة مكررة في الأصل. أقصد عبارة: لا نهاية له.

فصــــل

واعلم أن الله عز وجل كان قديماً أولياً بلا بداية ولم يكن معه شيء من الأشياء بوجه ولم يكن للأشياء معه في أوليته وجود البتة لأنها لو كانت موجودة لم تخل إما أن تكون محدثة أو قديمة.

فإن كانت محدثة فقد وجدت بعد أن لم تكن فلم تكن معه في الأزل.

وإن كانت قديمة فلا يجوز أن يقال فيها محدثة لأن القديم ما لم يحدثه غيره.

وقد وجد بالضرورة حدثها لأنها قد ظهر فيها أثر الصنعة والحدوث فبطل القدم لها وصح الحدث.

ومن أثبت القدم للموجودات ألزمه أن يطلق أن الله تعالى لم يخلق شيئاً ولا أبدعه وكانت الأشياء موجودة بذواتها على قوله.

وهذا هو المحال لأنه قد ظهر وجودها بغيرها فإن جعل الموجودات معه كالظل مع الشخص والعلة مع المعلول فقد ضل.

فإن جعله مثل فعله مساوية له لأن العلة مساوية للمعلول في الضرورة لأن المعلول يصدر عن العلة لضرورة في العلة لا تمتنع العلة بتلك الضرورة/ عن وجود المعلول عنها. [٢٣/ أ]

فالعلة مضطرة لوجود المعلول عنها، والظل موجود عن الشخص وجوداً ضرورياً لا يمتنع عن ذلك.

والإلّه ليس بمضطر لأنه إذا كان مضطراً فقد اضطره غيره.

فإذاً لم يبق إلاّ إثبات الاختيار للّه تعالى يوجد متى شاء وكيف شاء ويترك إيجاد ما شاء ومتى شاء على ما سبق به علمه وإرادته من الترتيب والتقديم والتأخير وترك الإيجاد ووجود الإيجاد وهذه صفة الإلّه، وما سوى ذلك مضطر.

وقد كانت الأشياء عدماً محضاً وكان الله ولا شيء معه في أحديته ولا ثاني في أزله وكان الله مدركاً لجميع معلوماته في حال عدمها كما يدركها الآن في حال وجودها استوى في حقه الوجود والعدم فلا زيادة في إدراكه في حال وجودها ولا نقصان في إدراكه في حال عدمها ولم ينبغ هذا الإدراك إلاّ للإله لأن المخلوق لا يدرك الشيء وهو عدم.

وبهذا الإدراك باين جميع خليقته ولم يكن مثلها لأن المحدث كما تقدم لا يدرك الشيء حتى يكون موجوداً معه وما دام معدوماً عنه لا يدركه فإن العالِم من الخلق لا يكون

عالِماً حتى يتعلم العلم بمعلومه فيضطر إلى المعلوم أن يكون سابقاً على علمه ولا يبصر الشيء حتى يحضر بين يديه بعد أن كان غائباً ولا يقدر على الشيء حتى يكون فاعلاً له ولا يكلم الشيء حتى يحضر ولا يسمعه حتى يتكلم بين يديه لأن صفاته حادثة مع مدركاتها فلا تدرك إلاّ في حال حدوثها وحدوث المدركات معها.

وكذلك إذا زالت عنه مبصراته ومدركاته لم يدركها لأن صفاته أعراض غير باقية إلاّ بحكم التجديد فإن أحدث له مدرك أحدث له إدراك آخر.

/ والباري سبحانه بخلاف ذلك كان في الأول ولا شيء معه مدركاً لذاته ولجميع [٢٣/] مخلوقاته قبل وجودها لأن صفاته لم تحدث له وهو الآن حين وجودها يدركها ذلك الإدراك لم يتجدد له إدراك بتجدد المدركات ولا زاد بها حين وجدت بياناً فيكمل إدراكه بعد نقصانه.

فإن أعدم الموجودات وصيرها كما كانت أول مرة بقي كما كان مدركاً حين وجودها لأن صفاته ليست أعراضاً فتزيد أو تنقص باختلاف المحدثات تعالى الله علواً كبيراً فقد استوى عنده وجودها وعدمها والعدم ضد الوجود لأنه سبحانه في الأول لا شيء معه وليس في ذاته سوى ذاته لا يجوز أن يقال إن للأشياء في ذاته أثر أو تكون منطبعة أو مصورة في الذات بل إدراكه غير المدرك والعلم غير المعلوم والبصر غير المبصر والقدرة غير المقدور، وليس هذه الصفة ـ الإدراك ـ إلاّ له ولا يعرف بها(*) إلاّ إياه ألا تراه يقول: ﴿إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَآ أَرَدْنَاهُ أَن نَّقُولَ لَهُ كُن فَيَكُونُ﴾(١).

فلا قول له إلاّ بمدرك معلوم ولا يقول كن إلاّ لمعدوم غير كائن فلو كان موجوداً لكان كن بلا فائدة ولو لم يكن مدركاً لم يقل له كن. فافهم.

والله تعالى يقول: ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ لَغَنِيٌّ عَنِ ٱلْعَالَمِينَ﴾(٢). لا يشغله وجودهم كالعلة مع المعلول ولا يزيده إدراكاً ولا يعجزه عدمهم ولا يفقده إدراكاً ألا تراه يقول: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلَّامُ ٱلْغُيُوبِ﴾(٣). فهو المنفرد بإدراك الغيب لأن الغيب ضد الحضور: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُطْلِعَكُمْ عَلَى ٱلْغَيْبِ﴾(٤). لأنه ليس في طاقة المخلوق ذلك الإدراك فإذا أطلعه على ما غاب عنه أوجده له فلم يكن غائباً وذلك قوله: ﴿وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَجْتَبِي مِن رُّسُلِهِ مَن يَشَآءُ﴾(١).

(*) في الأصل: به. وهو تحريف.

(١) سورة النحل (الآية: ٤٠).

(٢) سورة آل عمران (الآية: ٩٧).

(٣) سورة التوبة (الآية: ٧٨).

(٤) سورة آل عمران (الآية: ١٧٩).

[٢٤/ أ] وما/ دام لم يدركه فهو غيب عنه والله تعالى بخلاف ذلك ليس عنده غيب بوجه ولا حال لا في حال عدم الأشياء ولا في حال وجودها ألا تراه كيف يقول: ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ﴾[1] أي في أزله ﴿بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيماً﴾[1].

[ويقول][2]: ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ سَمِيعاً بَصِيراً﴾[3] [ويقول][4]: ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيراً﴾[5] [ويقول][2]: ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ مُحِيطاً﴾[6]. إلى غير ذلك من الآيات الواردة في هذا المعنى.

ومن شأن علم الباري تعالى إدراك الموجودات وهي معدومة وهو لا يُقَدِّر إلاّ على ما علم ولا يبصر إلاّ ما علم ولا يريد إلاّ ما علم ولا يخاطب بكلامه إلاّ ما علم ولا يخلق إلاّ ما علم فقد استوى في حقه وجود الأشياء وعدمها.

ولنفرض سؤالاً على من يقول بقدم العالم من الفلاسفة وغيرهم ونُبَين أولاً مذهبهم.

فالذي يقوله الفلاسفة أن العالم قديم وأن الله يعلم الكليات ولا يعلم الجزئيات وأن بعث الأجساد محال ويحملون البعث على بعث الأرواح فيقال لهم في وجود الأشياء عنه سبحانه:

إن قلتم: إنه أبدعها بلا زمان بل كوجود الظل مع الشخص فقد أقررتم أنه أبدعها والمبدع هو المخترع المحدث.

وإن قلتم: إنها لم تزل كما هي فقد أطلقتم أنه لم يبدع شيئاً ولا أوجد موجوداً وأن الأشياء قائمة بنفسها.

فإن قالوا: إنما إيجادها فيضاً وجوداً عن وجوده لأنهُ ينبوع[7] الوجود وهذا من ألفاظهم.

قيل لهم: ذلك الفيض الذي أطلقتموه عن وجوده فاض بمعنى انفصال شيء من شيء

---

(١) سورة الأحزاب (الآية: ٤٠).
(٢) زيادة للفصل بين الآيات.
(٣) سورة النساء (الآية: ١٣٤).
(٤) زيادة للفصل بين الآيات.
(٥) سورة الأحزاب (الآية: ٢٧).
(٦) سورة النساء (الآية: ١٢٦).
(٧) أرى أن مثل هذا اللفظ لا يليق أن يوصف به الباري سبحانه وتعالى وكان أولى منه أن يقول مثلاً: لأنه سبحانه هو موجد الوجود. ولنا وله نسأل المغفرة. آمين.

أم أوجده من العدم المحض بعد أن لم يكن؟

فإن قالوا: عن وجوده بمعنى انفصال شيء عن شيء.

فكفى به كفراً وجهلاً فلا بد إذاً من الرجوع إلى إيجاده من العدم الذي هو ضد الوجود بالضرورة/ العقلية التي لا محيص عنها. [٢٤/ ب]

فإن قالوا: العدم اسم لا يقع على مسمى موجود.

قيل لهم: فالعدم إذاً موجود فلم يوجده الباري ولا اخترع موجوداً.

وكم من اسم يطلق على غير مسمى موجود مثل قولهم لا داخل العالم ولا خارجه شيء وهذا من جملة الأسماء المعلومات، ومثل قولهم اجتماع الضدين وكون الجسم في مكانين محال وهذه مسميات لمعلومات غير موجودات، ومثل قول الله عز وجل: ﴿وَلَوْ رُدُّواْ لَعَادُواْ لِمَا نُهُواْ عَنْهُ﴾[1].

فهذا من علمه بما لم يكن أن لو كان كيف كان يكون فكذلك علمه بالأشياء قبل وجودها يعلم كيف تكون إذا كانت، وليس لها قبل كونها وجود.

فالعدم إذاً من الأسماء المطلقة على ما لا وجود له فلا بد من الرجوع إلى ذلك لأن الباري تعالى لم يخلق من ذاته شيئاً ولا كان معه شيء.

فإن قالوا: أوجد الوجود من العدم اختراعاً بلا زمان كالظل مع الشخص، وهذا من إطلاق الأكابر منهم.

قيل لهم: قد أثبتم إيجادها لا من شيء والعقل يدرك بالضرورة أنها كانت بعد أن لم تكن إذ قد فرق العقل بين حالتي العدم والوجود.

فقد ثبت حدثها وانتفى القدم عنها وبقي الكلام معهم في قولهم: أوجدها بلا زمان.

فنقول لهم: أخبرونا عن المخترع المبدع سبحانه هل قامت بذاته صفة ضرورية أكرهته على الإيجاد والإبداع للأشياء بلا زمان أو قامت بذاته مقام المشيئة والاختيار لإيجاد الأشياء بلا زمان؟

---

(١) سورة الأنعام (الآية: ٢٨).

فإن قالوا بالصفة الأولى الضرورية وهي حقيقة مذهبهم لأنهم يسمونه علة والعلة مساوية للمعلول في الضرورة، فكفى بذلك جهلاً وكفراً.

وإن قالوا بالصفة التي توجب للباري العز والجلال وهي المشيئة والاختيار وينفي عنه الضرورة.

[٢٥/ أ] قيل لهم: من أين/ أطلقتم إيجاده إياه كالظل مع الشخص معاً بلا زمان، وحكم المشيء والمختار أن لا يترجح أحد الوصفين في حقه وهو الإيجاد أو ترك الإيجاد بل هما في حق المريد والمختار سواء لا يترجح هذا على هذا ولا هذا على هذا فيوجد إذا شاء ويترك الإيجاد متى[1] شاء.

هذا حكم المريد المختار والمشيء، وما سوى هذا فهو المضطر المجبور كاضطرار العلة مع المعلول التي تنافي حكم الإلهية.

فإن قالوا: سبق في علمه وإرادته أن يوجد الأشياء هكذا كالظل مع الشخص بلا زمان.

قيل لهم: وسبق في علمه وإرادته أن يوجد متى شاء ويترك الأشياء متى شاء مع أن دعواهم أنه سبق في علمه وجودها كذلك محال لأنه لم يرد به الشرع ولا شهد له العقل.

فإن القديم بالحقيقة خلاف المحدث من جميع الجهات فالقديم هو الذي لم يزل بنفسه موجوداً، والمحدث هو الذي لم يزل معدوماً حتى أوجده المريد لإيجاده والموجود مخالف لفعله من كل جهةٍ.

فإن القديم لا يتطرق إليه الفساد ولا البطلان بل لا يزال أبداً كما لم يزل أزلاً.

والمحدث تتطرق إليه الصنعة والتغيير والبطلان من حالة إلى حالة أبداً وهو العدم لأنه لا قوام له بنفسه فالوجود له عارية ومجاز ومستعار، ولو كان الوجود له حقيقة لأشبه الوجود الحق سبحانه.

أَلا كُل شَيءٍ مَا خَلاَ اللَّه بَاطِلُ

و ﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إلاَّ وَجْهَهُ﴾[2].

---

(١) في الأصل: ما. وأحسبه تحريف.

(٢) سورة القصص (الآية: ٨٨).

فبهذا[١] تفهم أنه لا ينبغي مع وجوده شيء لأن البطلان يتطرق إلى الأشياء أبداً مع الخطرات فما أوجده الموجد الحق من الباطل لو أمسك تجديد الإيجاد عنه طرفة عين لانعدم بلا زمان في أسرع من طرفة عين، وذلك أن لا يريد بقاءه سواء كان الموجود روحانيا/ أو جسمانياً فكما أن القديم سبحانه لا يطرأ على وجوده عرض ولا يبطل في الآزال [٢٥/ ب] والآباد كذلك يطرأ على المحدث العرض أبد الآباد وآثار الصنعة مخالفة بأن الحق موجود بنفسه لا يطرأ عليه شيء وهذا موجود بغيره يطرأ عليه كل شيء.

فإن استدلوا على وجود الأشياء عنه فيضاً وجوداً كوجود شعاع الشمس عن الشمس وفيض نور عنها على كل موجود وقالوا: لم تزل فيضات الخيرات والفضائل فائضة عن وجوده كما لم يزل النور فائضاً عن وجود الشمس.

قلنا: أخطأتم من وجه وأصبتم من وجه.

أصبتم من وجه استدلالكم بفيض الوجود عنه كفيض نور الشمس عن وجود الشمس.

وأخطأتم من وجه آخر حيث قلتم: لم تزل كذلك فائضة. فإنه لو قدّر للشمس إرادة لأن يقبض النور عنها على الموجودات حتى تفيض في وقت إرادتها للفيض ولا تفيض حين لا تريد الفيض لكان الاستدلال به حقاً. وكذلك الظل مع الشخص، ولو قدر للجسم إرادة لأن لا يكون عنه ظل في وقت إرادته لذلك وأن يكون عنه ظل في وقت إرادته لكان الاستدلال به حقاً.

وإنما هربوا من أن يكون الوجود محدثاً لأنهم قالوا: هي معلوماته.

فلو زالت عنه في وقت أو حين لطرأ على صفاته في تلك الحال خلاف ما هو عليه في حال وجودها معه، وهو الجهل والعجز وعدم الإدراك في زعمهم وهذا هو التنزيه عندهم وقد وقعوا في أشر ما هربوا عنه وهو رؤية القدم للمحدثات وافتقار الباري إلى الموجودات أن تكون معه كافتقارها هي إليه فصار لا يكمل إلا بها وبوجودها معه فصارت هي المكملة له والمضطرة له وكفى بهذا جهلاً وكفراً.

/ ونحن بحمد الله نقول بما انعقد عليه إجماع العقول الراجحة وهم الرسل وأتباعهم [٢٦/ أ] وبما نطق به القرآن والسنن وهو: أن الأشياء لم تكن أزلاً معه وهو يدركها في حال عدمها كما يدركها حين أوجدها الحالتان عنده سواء.

ولا نهرب كما هربوا من أن تكون معدومة خيفة دخول النقص عليه فإن النقص إنما

---

(١) في الأصل: فهذا. وهو تحريف.

يلزم لمن يقول بأنه لا يدرك الشيء إلاّ إذا كان موجوداً وهذه صفة المخلوق[١]. فلو أفقدناه الإدراك في حال عدمها وأوجدناه الإدراك في حال وجودها لزمنا ذلك.

وإنما نقول: إنه يدرك في الحالة الواحدة ما يدرك في الحالة الأخرى من غير زيادة ولا نقصان.

ودليلنا على إدراكه إياها وهي معدومة قوله عز وجل: ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيماً﴾[٢]. أي في أزله. [وقوله عز وجل][٣]: ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيراً﴾[٤] [وقوله][٣]: ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ سَمِيعاً بَصِيراً﴾[٥]. [وقوله][٦]: ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ مُحِيطاً﴾[٧].

ولا نُجَوِّزُ أن يقال في كل هذا: كان، يكون، كوناً. ولذلك قال أهل العلم: كان هو الله عز وجل. وقال النبي عليه الصلاة والسلام في الحديث المشهور: «أول ما خلق الله القلم فقال له اكتب..»[٨] الحديث فأثبت للأشياء أولية وإن كان القلم سابق للأشياء في الحقيقة وأن القلم مخلوق.

وفي حديث آخر: «أول ما خلق الله تعالى العقل..» الحديث إلى قوله: «ما خلقت خلقاً أحب إليَّ منك»[٩]. وقوله عليه الصلاة والسلام: «كان الله ولا شيء معه»[١٠]. وقوله [عز وجل][١١]: ﴿وَقَدْ خَلَقْتُكَ مِن قَبْلُ وَلَمْ تَكُ شَيْئاً﴾[١٢]. [وقوله

---

(١) في مقابلتها بالهامش كلمة. «بلغ» يريد إلى هنا بلغ مقابلة المخطوط على المنسوخ عنه أو بلغ قراءته على شيخه.

(٢) سورة الأحزاب (الآية: ٤٠).

(٣) زيادة للفصل بين الآيات.

(٤) سورة الأحزاب (الآية: ٢٧).

(٥) سورة النساء (الآية: ١٣٤).

(٦) زيادة للفصل بين الآيات.

(٧) سورة النساء (الآية: ١٢٦).

(٨) أخرجه ابن أبي عاصم في السنة (١/ ٤٨).

(٩) جاء بهامش المخطوط تعليق على الحديث هذا نصه:

قوله: أول ما خلق الله العقل.. الخ. قال السخاوي في المقاصد الحسنة: قال ابن تيمية واتبعه غيره: إنه كذب موضوع بالاتفاق. اهـ.

(١٠) أخرجه البخاري في الصحيح (٤/ ١٢٩)، (٩/ ١٥٢)، الزبيدي في الإتحاف (٢/ ١٠٥)، بنحوه البيهقي في السنن الكبرى (٩/ ٣)، الطبراني في المعجم الكبير (١٨/ ٢٠٥)، الحاكم في المستدرك (٢/ ٣٤١)، العجلوني في كشف الخفا (٢/ ١٨٩)، الطبري في التفسير (١٢/ ٤).

(١١) زيادة توضيحية للفصل بين الحديث والآية، وزيادة للفصل بين الآيتين.

(١٢) سورة مريم (الآية: ٩).

تعالى]: ﴿هَلْ أَتَى عَلَى ٱلْإِنسَانِ حِينٌ مِّنَ ٱلدَّهْرِ لَمْ يَكُن شَيْـًٔا مَّذْكُورًا﴾[1].

في التفسير معنى أنه قد أتى.

وقوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا۟ كَيْفَ يُبْدِئُ ٱللَّهُ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥٓ﴾[2]. فأثبت للخلق بدأة، ومثل هذا كثير.

والإجماع أيضاً قد انعقد على ذلك من الصحابة والتابعين والمحدثين وغيرهم/ من [٢٦/ ب] العلماء والعوام.

وقال أبو بكر الصديق رضي الله عنه في دعائه[3]: اللهم إنك بدأت الخلق من غير حاجة بك إليهم.

فانظر إلى هذه المعرفة الكاملة من الصديق رضي الله عنه في قوله: بدأت الخلق. فجعل للخلق بداية.

ثم قال: من غير حاجة بك إليهم. أي من غير حاجة بك إلى إيجادهم لأنك الغني عنهم في حال عدمهم ووجودهم.

وكذلك قال علي رضي الله عنه حين ذكر بدء الخلق: وخلقت نور محمد عليه الصلاة والسلام[4].

وكذلك العلماء اتفقوا على البداءة، وأن للوجود افتتاحاً لم يكن قبل ذلك إلا للباري وحده.

قال الجنيد[5]: التوحيد إفراد القدم من الحدث وعلمك وإقرارك بأن الله فرد في أزليته لا ثاني معه.

---

(١) سورة الإنسان (الآية: ١).

(٢) سورة العنكبوت (الآية: ١٩).

(٣) جاء بعدها كلمة: فقال. وهي زائدة على السياق فحذفتها.

(٤) اعتقاد عند الصوفية مبني على حديث ضعيف وهو: «نور نبيك يا جابر».

(٥) هو أبو القاسم الجنيد بن محمد بن الجنيد القواريري، الخزاز، البغدادي، الشافعي، إمام الصوفية. ولد سنة نيف وعشرين ومائتين وتوفي سنة (٢٩٨) وقيل (٢٩٧) قال الذهبي في سير أعلام النبلاء (١٤/ ٦٦): شيخ الصوفية.. تفقه على أبي ثور وسمع من السري السقطي وصحبه ومن الحسن بن عرفة وصحب أيضاً الحارث المحاسبي وأبا حمزة البغدادي وأتقن العلم ثم أقبل على شأنه وتأله وتعبد ونطق بالحكمة وقل ما روى. انظر ترجمته في ديوان الإسلام (٦٤٢)، تاريخ بغداد (٧/ ٢٤١)، صفة الصفوة (٢/ ٤١٦)، الرسالة القشيرية (١٨).

وقال الشِّبلي[1]: جل الواحد المعروف قبل الحدود وقبل الحروف.

ولو تتبعنا كلام أهل العلم في ذلك لطال الكلام.

وقد أخرج الله علم العدد والحساب وجعله أعظم آية على وحدانيته. فالعدد كله ينشأُ من الواحد وليس الواحد عدداً في نفسه فإذا أردت أن تعد عدداً ما قلت: واحد فتبتدىء بالواحد، فإذا ذكرت الواحد لم يكن للاثنين مع الواحد وجود ولا ذكر وكان الواحد موجوداً فقط ولا يجوز أن يقال فيه عدد أي يسمى باسم الاثنين ولا الثلاثة ولا الأربعة ولا باسم شيء من العدد الذي يعد ذلك وإنما يقال فيه واحد فقط لا يشاركه في الاسم أيضاً ما جاء بعده من العدد حتى ينتهي إلى آخر العشرة فإن زدت عدداً آخر وقلت: أحد عشر. فإنما تبتدىء بتسمية عشرة أخرى ويكون الحادي عشر مثل الواحد من العشرة لأنه هو/ وهكذا واحد وعشرون إنما هو تكثير العشرات فليس يشارك الواحد شيئاً من العدد لا في الاسم ولا في المعنى فهو في نفسه ليس بعددٍ. ٢/ أ]

فإذا قلت: واحد، وسكت لم يكن معه شيء فهو بمنزلة قول النبي عليه الصلاة والسلام: «كان الله ولا شيء معه»[2]. فرد في أزليته قبل وجود جميع الأشياء كما هو الواحد فرد إذا ذكرته قبل ذكر الأعداد فإذا أردت ذكر عدد قلت: اثنين، ثلاثة، أربعة، خمسة، ستة، سبعة، إلى عشرة إلى مائة إلى ألف عشرة آلاف، إلى مائة ألف، إلى ألف ألف، إلى ما لا نهاية له ولا آخر لأن العدد لا آخر له ولا نهاية.

كذلك أمر الباري عز وجل كان واحداً قبل وجود الأشياء ثم خلق القلم واللوح والمخلوقات وأخرج الأشياء شيئاً بعد شيء بالإيجاد والإبداع إلى ما لا نهاية له ولا آخر أبد الآباد.

فإن مقدورات الباري لا نهاية لها ولا غاية لأن كل موجود أوجده يطرأ عليه من الأعراض ما لا نهاية له كما لا نهاية للعدد وكما أن الواحد أول العشرة فيزيد واحداً بعد واحد

---

(١) هو أبو بكر دلف بن جحدر بن يونس. وقيل: جعفر بن يونس. وقيل جعفر بن دلف البغدادي. الشِّبليّ. شيخ الطائفة. ولد سنة (٢٤٧) وتوفي سنة (٣٣٤)، قال الغزي في ديوان الإسلام: العارف الزاهد صاحب الأحوال والمقامات الشيخ أبو بكر الصوفي البغدادي الفقيه المالكي صاحب الجنيد. وقال الذهبي في سير أعلام النبلاء: كان فقيهاً عارفاً بمذهب مالك وكتب الحديث عن طائفة وقال الشعر وله ألفاظ وحكم وحال وتمكن لكن كان يحصل له جفاف دماغ وسُكْر فيقول أشياء يعتذر عنه فيها باءٌ لا تكون قدوة [باء: الكِبَر]. راجع ديوان الإسلام بتحقيقي (١٢٧٣)، سير الذهبي (١٥/ ٣٦٧).

(٢) حديث صحيح أخرجه البخاري وسبق تخريج مصادره قبل قليل.

إلى تسعة فيكمل العدد في التسعة لأنه وترٌ من ثلاثة ثلاثة وكل واحد من الثلاثة وتر وتر، كل واحد صاحبه من حيث هو كل وتر واحد في نفسه. فافهم.

وكذلك الباري جل جلاله يوجد الشفع وهو الوتر يوترها بنفسه فإذا عددت ثلاثة وزدت العدد إلى تسعة صارت ثلاثة، وثلاثة، وثلاثة، وكل ثلاثة وتر في نفسها للاثنين فأوتر كل واحد من العدد الثلاثة العددين كما أوتر كل واحد من الثلاثة لغيره من الاثنين فإذا زدت عاشراً على التسعة أيضاً رجع العدد كله واحداً فقلت عشرة وصارت العشرة بالإضافة إلى/ [٢٧/ ب] العشرين إلى الثلاثين إلى الأربعين إلى التسعين بمنزلة الواحد من العشرة فالعشرة واحد في نفسها والعشرين بمنزلة الاثنين من العشرة والثلاثون بمنزلة الثلاثة والأربعون بمنزلة الأربعة فإذا وصلت إلى التسعين صارت بمنزلة التسعة، ثلاثون، وثلاثون، وثلاثون. فكانت تسعون كما كانت ثلاثة، وثلاثة، وثلاثة تسعة فأوتر كل واحد من الثلاثين الاثنين من الثلاثين فإذا زدت عشرة عادت المائة شيئاً واحداً بمنزلة العشرة للعشرات وبمنزلة الواحد للعشرة الواحدة فقلت مائة عدد واحد فإن زدت مائة أخرى كانت بمنزلة الاثنين للواحد من العشرة وبمنزلة العشرين للعشرات حتى ينتهي إلى التسعمائة فتكون كل ثلاثمائة وتر كما يكون كل واحد من ثلاثة ثلاثة وتر في عدد التسعة وكل واحد من الثلاثين وتر الاثنين من الثلاثين ثلاثين فإن زدت مائة صارت ألفاً شيئاً واحداً بمنزلة الواحد من العشرة والمائة من الألف فيمشي هكذا إلى عشرة آلاف مائة ألف إلى آلاف الآلاف إلى ما لا آخر له.

والواحد أبداً مع الجملة منه ينشأ العدد وإليه يرجع حقيقة ومعنى.

كذلك الباري عز وجل منه ابتدأت الأشياء وبه تنشأ وهو معها وإليه ترجع فكما أنه لولا الواحد الذي يزاد أبداً فينشأ منه العدد شيئاً بعد شيء لم يوجد عدد فكذلك لولا الله عز وجل الذي هو أول الأشياء وهو ينشىء الأشياء شيئاً بعد شيء وإليه يرجع كل شيء لم يوجد شيئاً من الأشياء: ﴿هُوَ ٱلْأَوَّلُ وَٱلْآخِرُ وَٱلظَّاهِرُ وَٱلْبَاطِنُ﴾[1].

كما هو الواحد أول العدد وآخره وأوسطه الذي هو ظاهره ومعناه الذي هو باطنه. فافهم فهمنا الله وإياك.

/ فإذا أسقطت العدد من آخره ورجعت إلى أوليته أسقطت العدد ألفاً ألفاً، ومائة [٢٨/ أ] مائة، وعشرة عشرة، وواحداً واحداً فيذهب العدد كله حتى ينتهي إلى الواحد فلا يبقى عدد ولا معه معدود فيبقى الواحد فلا تقدر أن تجزئه في نفسه فتسقطه لأنه ليس اثنين ولا ثلاثة، وإنما هو واحدٌ لا يتجزأ ليس بعدد ولا يبقى إلاّ الواحد، فلو قدرت إسقاط الواحد بعينه حين

(١) سورة الحديد (الآية: ٣).

لم تقدر على تجزئته أو تبعيضه لم يوجد عدد ولا معدود بوجه ولا حال.

فكذلك لو قدرت إعدام الموجودات من الكثرة شيئاً بعد شيء حتى ينتهي إلى الواحد جل وعز لانعدمت الأشياء كما انعدم العدد به بِحَلِّكَ لأجزائه حتى انتهيت إلى الواحد ولم يبق إلاّ الله فلا تقدر على أن تسميه باسم الاثنين ولا غيره ولا أن تجزئه.

فلو قدّرت عدم الإلّه جل جلاله لم يوجد شيءٌ معه من الأشياء وذلك محال لأن الأشياء قد وجدت به.

فافهم فهمك الله فإنه قد جاز أن يسقط العدد كله بالتحليل بعد التركيب حتى ينتهي إلى الواحد ولا يكون معه شيء من العدد ولم يجز أن يسقط الواحد لأنه لا ينحل ما ليس بمركب.

فكذلك الباري عز وجل كان وحده ولا بد من وجوده فهو واجب وجوده لا محالة كما وجود الواحد شرط واجب في وجود الأعداد وليست الأعداد شرطاً في وجود الواحد فقد ثبتت الأولية لواحد العدد وثبتت التبعية للعدد بعده كما ثبتت الأولية للواحد الباري جل جلاله وثبت الحدوث بعد أوليته لجميع المخلوقات، ولله الحمد والمنة على الهداية.

[٢٨/ ب] فإن اعترضك قلة الفهم وقلت: لا أفهم القسمة التي/ ذكرت في العدد وكل واحد في نفسه من العدد لا يتجزأ فزدني بياناً.

فاعلم أنك إذا أردت قسمة المائة قلت: نصفها خمسون وربعها خمسة وعشرون وثلثها ثلاثة وثلاثون ويبقى واحد من المائة زائد على الثلاثة أثلاث فلا تقدر على قسمته.

قلت: كل واحد ثلاثة ثلاثة وكل واحد في نفسه لا يتجزأ.

وكذلك العشرة نصفها خمسة وثلثها ثلاثة ويبقى واحد من العشرة فلا تقدر على قسمته لأنه واحد في نفسه لا يتجزأ فإن زدت عليه اثنين قسمته فقلت: كل واحد ثلث الثلاثة وكل واحد في نفسه لا يتجزأ.

فالعدد كله ينقسم على العشر والتسع والثمن والسبع والسدس والخمس والربع والثلث.

والواحد في نفسه لا ينقسم أبداً كذلك المخلوقات كلها تألفت من الأفراد التي هي الجواهر فضم جوهر إلى جوهر فكانت أعداد المخلوقات لا تتناهى كما ضم أفراد العدد بعضها إلى بعض فكان العدد لا يتناهى، فإفراد العدد بمنزلة الجواهر التي تألفت منها المخلوقات وكل جوهر في نفسه فرد لا يتجزأ دلالة على الواحد جل جلاله.

ولو أخذت جسماً واحداً من المخلوقات مثل جسد الإنسان وجدت [أنه][1] يتألف من أعداد لا تحصى من الجواهر ضم بعضها إلى بعض حتى صار جسماً واحداً فسمي باسم واحد وهو في نفسه أعداد كثيرة.

كما أن اسم الواحد واقع على الألف والألف في نفسه عدد كثير فكما أن الواحد ضم العدد الألف بعضه إلى بعض فصار به واحداً؛ كذلك الله جل جلاله هو أول الأشياء واحداً وضم أجزاء المخلوقات بعضها إلى بعض وألفها حتى صارت شيئاً واحداً حتى أن ملكه كله إنما هو شيء واحد وملك واحد لرب واحد لا يقال/ له ملكان ولا ثلاثة ولا أربعة إنما ملكه [٢٩/ أ] سبحانه ملك واحد لملك واحد وإن كثرت العوالم إلى ما لا يحصى فيضم عالم إلى آخر إلى مائة ألف عالم أو أكثر أو أنقص فيرجع الكل إلى واحد معتمد على ملك واحد متعبد لواحد كما كانت أجزاء الجسد كله جواهر لا تحصى وضمها الجسم فكانت به واحداً.

فسبحان الله ما أكثر دلائله وما أبين وحدانيته وألوهيته.

ولو كان غير ما ذكرت لك لم يجز بوجه ولا حال وهو حقيقة معنى قوله عز وجل: ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَا﴾[2]. لمن فهمه الله ذلك.

فانظر بهذا النظر في جميع المخلوقات من الذرة إلى ما فوقها لولا الوحدانية لما وجدت بوجه، فإن جسم الذرة من أعداد لا تحصى ومعنى الوحدانية ضمها حتى صارت موجودة.

ولو قدرت افتراق أجزائها بعضها من بعض لتلاشت وانعدمت ولم توجد كذلك لو قدرت افتراق جميع العوالم بعضها من بعض وافتراق جواهرها بعضها من بعض وزال عنها اسم الوحدانية التي تمسكها لفسدت ولم توجد.

مثال ذلك أن تقدر طرح أجزاء جسدك فتحلله من تركيبه وهو واحد في نفسه فتسقط اليد من الذراع والأصابع من اليد والرأس من العنق والأعضاء بعضها من بعض فتكثرت وتفصلت بعضها من بعض ثم تفصل كل عضو بعضه عن بعض فيتلاشى الجسد ولا يوجد.

فصل

فإن أردت التركيب بالتقدير كما كان أول مرة عاد واحداً وظهر وجوده واستقام فلم يظهر وجوده ولا استقام أمره حتى صار واحداً.

---

(١) ما بين المعقوفين زيادة يتطلبها السياق.

(٢) سورة الأنبياء (الآية: ٢٢).

[٢٩/ ب] وهكذا أجزاء الأرض انضمت بعضها إلى بعض فصارت واحداً/ ولو قدرت انفصال أجزائها بعضها من بعض لتلاشت.

وهكذا جسم البحر لو فصلته خلجاناً ونقطة نقطة لتلاشى وإذا قدرت ضم أجزائه بعضها إلى بعض ظهر وجوده واستقام أمره.

وهكذا الهواء والأفلاك والسماوات وجميع المخلوقات كائناً ما كان.

وهكذا الأرواح كل روح واحد في نفسه وبضم بعضها إلى بعض صارت عالماً واحداً ويضمها إلى الأجسام فصارت مع الأجسام كشيء واحد استقام أمرها.

ومن هذا تفهم قوله عليه الصلاة والسلام: «الجماعة رحمة والفرقة عذاب»[١].

فإن هذه هي الرحم الواشجة المتعلقة بعضها ببعض المؤتلفة بعضها إلى بعض فصارت شيئاً واحداً وملكاً واحداً لملك واحد رحيم راحم.

[وقال ﷺ][٢]: «من فارق الجماعة قيد شبر فقد خلع ربقة الإسلام من عنقه»[٣].

[وقال تعالى][٢]: ﴿وَلَهُ أَسْلَمَ مَنْ فِي ٱلسَّمَاوَاتِ وَٱلْأَرْضِ كُلٌّ لَّهُ قَانِتُونَ﴾[٤].

وتَفهم هذا جداً تَفْهم منه معنى جهنم في الوجود وكيف كان سبب العذاب والفساد ولأيّ شيء خلقت جهنم على صورتها المذكورة في القرآن والأخبار والفزع الأكبر والأصغر.

وتفهم منه صورة النعيم ودار النعيم لأهل الحق.

وتفهم من ذلك لأيّ شيء وقع القتال والعذاب في دار الدنيا وفي دار الآخرة.

وتفهم منه فساد هذا العالم عند قيام الساعة واقرأ قوله عز وجل: ﴿وَإِن كَانَ مَكْرُهُمْ لِتَزُولَ مِنْهُ ٱلْجِبَالُ﴾[٥].

وتَفَهم واستعن بالله يُعِنْكَ وليس يمكن أكثر من هذا التفهم بالعلم، والله أعلم.

فإذا فهمت ما تقدم تبين أنه ليس في العالم فراغ بوجه ولا حال والفراغ الذي يتوهمه

---

(١) حديث حسن لغيره وهو في المسند لأحمد (٤/ ٢٧٨)، مجمع الزوائد (٥/ ٢١٧)، السنة لابن أبي عاصم (١/ ٤٤).

(٢) زيادات توضيحية للفصل بين الأحاديث والآيات.

(٣) أطراف هذا الحديث عند البخاري في الصحيح (٩/ ٩)، مسلم في الصحيح (الإمارة ٥٥)، البيهقي في السنن الكبرى (٨/ ١٥٧)، الحاكم في المستدرك (١/ ١١٧)، أبي داود في السنن (٤٧٥٨).

(٤) سورة الروم (الآية: ٢٦).

(٥) سورة إبراهيم (الآية: ٤٦).

الناس إنما هو الهواء وكيف يكون الهواء فراغاً/ وهو أعظم خلقة من الأرض والماء وإنما هو [٣٠/ أ] جسم يأخذه الطول والعرض والعمق فليس في العالم إذاً فراغ فاتصلت الموجودات بعضها ببعض كل جوهر إلى الذي يليه وكل جسم إلى الذي يليه وانزمت زماً منضغطاً حتى لا يمكن انفصال بعضها من بعض فإن انفصل جوهر من جوهر أو جسم من جسم حصل الهواء بينهما فلم يكن ثم فراغ بوجه.

فحقٌ أقول إن العالم قد اتحد وصار جسماً واحداً ولو قدرت من العوالم مائة ألف ألف عالم لا بد لها من هذا التوجيه يتصل عالم بعالم فيكون الكل عالماً واحداً.

وكذلك عالم الأرواح تألفت أيضاً واتصل بعضها ببعض كل جنس إلى جنس فإن تناكرت وانفصل بعضها من بعض فالتناكر أيضاً خلق موجود بينهما بمنزلة الهواء للأجسام وإنما كانت هذه الصورة للموجودات حتى صارت كالماء في الإناء إذا امتلأ به لا فراغ فيه لأن وجود الواحد الحق الذي لا نهاية له قد أكثف مخلوقاته وزمها فهو الذي صيرها شيئاً واحداً لأنها من موجدها بمنزلة المعلوم في نفس العالم به المحيط.

فلو كان في الملك آلهة إلا الله لذهب كل إله بملكه وانحاز في ناحية عن غيره وانفصلت الأشياء بعضها من بعض وأدّى ذلك إلى التلاشي المذكور فيما تقدم في تقسيم الجواهر وتحليلها ولم يكن إله ولا مألوه.

فالحق إذاً هي الوحدانية والباطل هي الكثرة كما قال تعالى: ﴿**ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ هُوَ ٱلْبَٰطِلُ**﴾[١].

والباطل هو العدم الذي لا يجوز أن يكون موجوداً، والحق هو الوجود الذي لا يجوز أن يكون معدوماً، والحق هو الشيء الواضح الظاهر البين، والباطل هو الشيء الخفي الذي لا وجود له.

فلما أن كان الباري عز وجل هو الوجود الحق كانت أفعاله كلها حقاً فتحقق/ الشيء [٣٠/ ب] الخفي الذي لا وجود له.

فلما أن كان الباري عز وجل هو الوجود الحق كانت أفعاله كلها حقاً فتحقق وجودها به وبقي وجودها بموجدها الباقي الحق.

ولما كان الباطل لا وجود له كان كل من ادعى إلهاً باطلاً بضد ذلك فبطل وجود من

(١) سورة الحج (الآية: ٦٢).

ادعى ذلك وكان يعرض البطلان والفساد أبد الآباد.

ولذلك كانت جهنم دار فساد، قال الله عز وجل: ﴿سَيَجْزِيهِمْ وَصْفَهُمْ﴾[1]. وقال: ﴿مَأْوَاكُمُ ٱلنَّارُ هِيَ مَوْلَاكُمْ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ﴾[2].

ولما كان إلاههم الذي ادّعوه لا وجود له إلا في أوهامهم وظنونهم الكاذبة كانت النار جزاؤهم ومولاهم على ذلك المعنى.

لأن النار لا ظهور لها إلا في جسم تأكله وتفنيه فلو انعدم الكفر والعصيان من الوجود لم يكن للنار وجود.

ولما كان العدم الذي هو الباطل لا شيء أظلم منه ولا أخفى كانت جهنم سوداء مظلمة، [وقد قال الله عز وجل][3]: ﴿إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾[4]. [وقال النبي عليه الصلاة والسلام][3]: «الظلم ظلمات»[5].

وعلى هذا المعنى استقر جميعه في صفات جهنم وما ورد فيها وفي أهلها وتعذيبهم تجدها موافقة لعقائدهم وبأعمالهم. وبالضد من ذلك دار النعيم.

ولما كانت دار الدنيا ممتزجة من العالمين وكان فيها الخير والشر ومن كل العالمين أعني الجنة والنار زوجين اثنين كانت دار بون وفساد فإذا فصلت من الامتزاج بالقيامة عند غلبة الشر على الخير فسدت الدنيا وميز الخبيث من الطيب وعاد كل واحد إلى عنصره ولم يكن بعد الدنيا دار إلا الجنة أو النار.

فصل

[٣/ أ] واعلم أن العوالم كلها هي أفعال الله ومخلوقاته فليس في الوجود إلا الله/ وأفعاله وجميع ما خلق من العوالم ملك واحد كما تقدم بمنزلة جسد واحد وعلمه وصفاته محيطة بجزئيات المخلوقات وكلياتها.

وإذا أردت أن تفهم ذلك فهماً شافياً ويتبين لك بطلان مذهب من يقول: إنه يعلم

(١) سورة الأنعام (الآية: ١٣٩).
(٢) سورة الحديد (الآية: ١٥).
(٣) زيادات توضيحية للفصل بين الآيات والأحاديث.
(٤) سورة لقمان (الآية: ١٣).
(٥) أطراف هذا الحديث عند البخاري في الصحيح (٣/ ١٦٩)، الترمذي في الجامع الصحيح (٢٠٣٠)، أحمد في المسند (٢/ ١٣٧)، البيهقي في السنن الكبرى (٦/ ٩٣)، البغوي في شرح السنة (١٤/ ٥٣٦).

الكليات ولا يعلم الجزئيات، وبطلان أيضاً من يقول بإضافة أفعال المخلوقات إلى نفسها، وأنه ليس في الوجود فاعل إلاّ الله وحده فانظر إلى قول الله جل جلاله: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ﴾[١].

فذكر الإنسان بجملته مجملاً ولم يذكر أجزاءه ولا أفعاله ثم إذا أراد أن يبين إحاطة علمه وقدرته بجميع أجزائه وأفعاله ذكره عضواً عضواً وجزءاً جزءاً، فذكر أصل خلقته وأولها فقال: ﴿أَفَرَأَيْتُم مَّا تُمْنُونَ أَأَنتُمْ تَخْلُقُونَهُ أَمْ نَحْنُ ٱلْخَالِقُونَ﴾[٢].

ولا يذكر الذاكر بكلامه ولا يصف إلا ما يعلم بعلمه ويراه ببصره ويحيط به إحاطة كاملة.

ثم ذكر أنه خلقه من سلالة ثم من نطفة ثم من علقة إلى أن قال: ﴿ثُمَّ أَنشَأْنَاهُ خَلْقاً آخَرَ﴾[٣].

فوصف أطوار خلقته على ما هي عليه إلى حين خروجه طفلاً ثم إذا أراد ذكر أجزائه وصف وجهه فيقول: ﴿مُكِبّاً عَلَىٰ وَجْهِهِ﴾[٤]. [ويقول][٥]: ﴿تَعْرِفُ فِي وُجُوهِهِمْ﴾[٦] [ويقول][٧]: ﴿ٱبْيَضَّتْ وُجُوهُهُمْ﴾[٨]. [ويقول][٧]: ﴿وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ﴾[٩]. وإذا ذكر البصر قال: ﴿وَأَبْصَارَكُمْ﴾[١٠]. وإذا ذكر الأذن قال: ﴿فِي أُذُنَيْهِ وَقْراً﴾[١١]. [وقال][٧]: ﴿أَلَمْ نَجْعَل لَّهُ عَيْنَيْنِ وَلِسَاناً وَشَفَتَيْنِ﴾[١٢]. وقال: ﴿فِيۤ أَعْنَاقِهِمْ﴾[١٣]. [وقال][١٤]: ﴿فَاضْرِبُوا فَوْقَ ٱلْأَعْنَاقِ﴾[١٥]. [وقال][١٤]: ﴿ٱلسِّنَّ بِٱلسِّنِّ وَٱلْعَيْنَ بِٱلْعَيْنِ وَٱلْأَنفَ بِٱلْأَنفِ وَٱلْأُذُنَ بِٱلْأُذُنِ﴾[١٦]. [وقال][١٤]: ﴿مِن بَيْنِ ٱلصُّلْبِ وَٱلتَّرَآئِبِ﴾[١٧]. [وقال][١٤]: ﴿وَحُصِّلَ مَا فِي ٱلصُّدُورِ﴾[١٨]. [وقال][١٤]: ﴿فِي بُطُونِهِمْ﴾[١٩]. [وقال][١٤]: ﴿أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ﴾[٢٠].

---

(١) سورة التين (الآية: ٤).
(٢) سورة الواقعة (الآية: ٥٨، ٥٩).
(٣) سورة المؤمنون (الآية: ١٤).
(٤) سورة الملك (الآية: ٢٢).
(٥) زيادة للفصل بين الآيات.
(٦) سورة المطففين (الآية: ٢٤).
(٧) زيادة للفصل بين الآيات.
(٨) سورة آل عمران (الآية: ١٠٧).
(٩) سورة غافر (الآية: ٦٤).
(١٠) سورة الأنعام (الآية: ٤٦).
(١١) سورة لقمان (الآية: ٧).
(١٢) سورة البلد (الآية: ٨، ٩).
(١٣) سورة يس (الآية: ٨).
(١٤) زيادة للفصل بين الآيات.
(١٥) سورة الأنفال (الآية: ١٢).
(١٦) سورة المائدة (الآية: ٤٥).
(١٧) سورة الطارق (الآية: ٧).
(١٨) سورة العاديات (الآية: ١٠).
(١٩) سورة البقرة (الآية: ١٧٤).
(٢٠) سورة المائدة (الآية: ٣٣).

[وقال][1]: ﴿إِلَى ٱلْمَرَافِقِ﴾[2]. [وقال][1]: ﴿وَيَحْفَظُواْ فُرُوجَهُمْ﴾[3]. [وقال][1]: ﴿خَتَمَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ﴾[4]. [وقال][1]: ﴿لِمَن كَانَ لَهُ قَلْبٌ﴾[5]. [وقال][1]: ﴿ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ ٱلْوَتِينَ﴾[6]. [وقال][1]: ﴿حَبْلِ/ ٱلْوَرِيدِ﴾[7]. [٣١/ ب] فيصف الجسد عضواً عضواً إذا أراد ذكر أجزائه. فإذا وصفه بجملته قال: ﴿الإِنسَانِ﴾[8]. فإذا أراد وصف أفعاله قال: ﴿يَعْلَمُ خَائِنَةَ ٱلْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِي ٱلصُّدُورُ﴾[9]. [وقال][1]: ﴿وَأَسِرُّوا قَوْلَكُمْ أَوِ ٱجْهَرُوا بِهِ﴾[10] الآية. [وقال][11]: ﴿كُلُواْ وَٱشْرَبُواْ﴾[12]. [وقال][11]: ﴿يَأْكُلُواْ وَيَتَمَتَّعُواْ﴾[13]. [وقال][11]: ﴿إِن فِي صُدُورِهِمْ إِلَّا كِبْرٌ﴾[14]. [وقال][11]: ﴿وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِي لَحْنِ ٱلْقَوْلِ﴾[15][وقال][11]: ﴿ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ﴾[16]. [وقال][11]: ﴿ٱلزَّانِيَةُ وَٱلزَّانِي﴾[17]. [وقال][11]: ﴿ٱلسَّارِقُ وَٱلسَّارِقَةُ﴾[18]. فيصف أوصاف بنيته وأوصاف أفعاله ظاهراً وباطناً. كذلك الملك كله إذا ذكره بجملته قال: ﴿خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ﴾[19]. [وقال][20]: ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيماً﴾[21]. [وقال][20]: ﴿ٱللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾[22]، و ﴿بَصِيرٌ﴾[23]. [وقال][20]: ﴿عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾[24]. فإذا أراد ذكر أجزاء الملك كله عَالماً عَالماً وجنساً جنساً وشخصاً شخصاً ذكره بما هو عليه فيقول: ﴿رَفَعَ ٱلسَّمَٰوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ﴾[25]. فتجد ذلك كما ذكره لا زيادة ولا نقصان. [وقال][26]: ﴿وَٱلْأَرْضَ وَضَعَهَا لِلْأَنَامِ﴾[27]. [وقال][26]: ﴿ٱلشَّمْسَ سِرَاجاً﴾[28].

---

(١) زيادة للفصل بين الآيات.
(٢) سورة المائدة (الآية: ٦).
(٣) سورة النور (الآية: ٣٠).
(٤) سورة البقرة (الآية: ٧).
(٥) سورة ق (الآية: ٣٧).
(٦) سورة الحاقة (الآية: ٤٦).
(٧) سورة ق (الآية: ١٦).
(٨) سورة الإنسان (الآية: ١).
(٩) سورة غافر (الآية: ١٩).
(١٠) سورة الملك (الآية: ١٣).
(١١) زيادة للفصل بين الآيات.
(١٢) سورة البقرة (الآية: ٦٠).
(١٣) سورة الحجر (الآية: ٣).
(١٤) سورة غافر (الآية: ٥٦).
(١٥) سورة محمد (الآية: ٣٠).
(١٦) سورة الأنفال (الآية: ٢).
(١٧) سورة النور (الآية: ٢).
(١٨) سورة المائدة (الآية: ٣٨).
(١٩) سورة الرعد (الآية: ١٦).
(٢٠) زيادة للفصل بين الآيات.
(٢١) سورة الأحزاب (الآية: ٤٠).
(٢٢) سورة البقرة (الآية: ٢٣١).
(٢٣) سورة الملك (الآية: ١٩).
(٢٤) سورة البقرة (الآية: ٢٠).
(٢٥) سورة الرعد (الآية: ٢).
(٢٦) زيادة للفصل بين الآيات.
(٢٧) سورة الرحمٰن (الآية: ١٠).
(٢٨) سورة نوح (الآية: ١٦).

[وقال]: ﴿وَٱلْقَمَرَ نُوراً﴾(١). [وقال]: ﴿ٱلْجَوَارِ ٱلْكُنَّسِ﴾(٢). [وقال]: ﴿وَٱلنُّجُومَ مُسَخَّرَاتٍ﴾(٣). [وقال]: ﴿بِمَوَاقِعِ ٱلنُّجُومِ﴾(٤). [وقال]: ﴿ٱلرِّيَاحَ مُبَشِّرَاتٍ﴾(٥). [وقال](٦): ﴿رِيحاً صَرْصَراً﴾(٧). [وقال](٦): ﴿وَيُنْشِىءُ ٱلسَّحَابَ ٱلثِّقَالَ﴾(٨). [وقال](٦): ﴿أَنزَلْنَا مِنَ ٱلْمُعْصِرَاتِ مَآءً ثَجَّاجاً﴾(٩). [وقال](٦): ﴿يُرِيكُمُ ٱلْبَرْقَ﴾(١٠). [وقال](٦): ﴿يُسَبِّحُ ٱلرَّعْدُ بِحَمْدِهِ﴾(١٠). [وقال](٦): ﴿يُرْسِلُ ٱلصَّوَاعِقَ﴾(١٢). [وقال](٦): ﴿سَخَّرَ ٱلْبَحْرَ﴾(١٣). [وقال](١٤): ﴿ٱلْجَوَارِ فِي ٱلْبَحْرِ كَٱلأَعْلَامِ﴾(١٥). [وقال](١٤): ﴿لِتَأْكُلُواْ مِنْهُ لَحْماً طَرِيّاً﴾(١٦). [وقال](١٤): ﴿الخَيْلَ والبِغَالَ والحَمِيرَ﴾(١٧) [وقال](١٤): ﴿ٱلإِبِلِ﴾(١٨). [وقال](١٤): ﴿ٱلْبَقَرِ ٱثْنَيْنِ﴾(١٩). [وقال](١٤): ﴿ٱلْمَعْزِ ٱثْنَيْنِ﴾(٢٠). [وقال](١٤): ﴿مَّن يَمْشِي عَلَىٰ بَطْنِهِ﴾(٢١). [وقال](٢٢): ﴿عَلَىٰ رِجْلَيْنِ﴾(٢٣). [وقال](٢٢): ﴿عَلَىٰ أَرْبَعٍ﴾(٢٤). [وقال](٢٢): ﴿طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ﴾(٢٥). [وقال](٢٢): ﴿ٱلْجَنَّةَ﴾(٢٦)، ﴿ٱلنَّارَ﴾(٢٧). [وقال](٢٢): ﴿ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ﴾(٢٨). [وقال](٢٢): ﴿وَسِعَ كُرْسِيُّهُ ٱلسَّمَاوَاتِ وَٱلأَرْضَ﴾(٢٩). [وقال](٢٢): ﴿ٱلتِّينِ وَٱلزَّيْتُونِ﴾(٣٠). [وقال](٣١): ﴿ٱلْبَلَدِ ٱلأَمِينِ﴾(٣٢). [وقال](٣١): ﴿مِن طُورِ سَيْنَآءَ﴾(٣٣). [وقال](٣١): ﴿شَجَرَةً تَخْرُجُ﴾(٣٤)

---

(١) سورة يونس (الآية: ٥).
(٢) سورة التكوير (الآية: ١٦).
(٣) سورة الأعراف (الآية: ٥٤).
(٤) سورة الواقعة (الآية: ٧٥).
(٥) سورة الروم (الآية: ٤٦).
(٦) زيادة للفصل بين الآيات.
(٧) سورة فصلت (الآية: ١٦)، سورة القمر (الآية: ١٩).
(٨) سورة الرعد (الآية: ١٢).
(٩) سورة النبأ (الآية: ١٤).
(١٠) سورة الرعد (الآية: ١٢).
(١١) سورة الرعد (الآية: ١٣).
(١٢) سورة الرعد (الآية: ١٣).
(١٣) سورة النحل (الآية: ١٤).
(١٤) زيادة للفصل بين الآيات.
(١٥) سورة الشورى (الآية: ٣٣).
(١٦) سورة النحل (الآية: ١٤).
(١٧) سورة النحل (الآية: ٨).
(١٨) سورة الأنعام (الآية: ١٤٤).
(١٩) سورة الأنعام (الآية: ١٤٤).
(٢٠) سورة الأنعام (الآية: ١٤٣).
(٢١) سورة النور (الآية: ٤٥).
(٢٢) زيادة للفصل بين الآيات.
(٢٣) سورة النور (الآية: ٤٥).
(٢٤) سورة النور (الآية: ٤٥).
(٢٥) سورة الأنعام (الآية: ٣٨).
(٢٦) سورة البقرة (الآية: ٣٥).
(٢٧) سورة البقرة (الآية: ٢٤).
(٢٨) سورة التوبة (الآية: ١٢٩).
(٢٩) سورة البقرة (الآية: ٢٥٥).
(٣٠) سورة التين (الآية: ١).
(٣١) زيادة للفصل بين الآيات.
(٣٢) سورة التين (الآية: ٣).
(٣٣) سورة المؤمنون (الآية: ٢٠).
(٣٤) سورة المؤمنون (الآية: ٢٠).

[وقال][١]: ﴿هَٰذَا ٱلْبَلَدَ آمِناً﴾[٢]. [وقال][١]: ﴿ٱللَّيْلِ إِذَا يَغْشَىٰ وَٱلنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّىٰ﴾[٣]. [وقال][١]: ﴿ٱلسَّقْفُ﴾[٤]. [وقال][١]: ﴿ٱلصُّبْحِ إِذَا تَنَفَّسَ﴾[٥]. [وقال][١]:/ [٣٢/ أ] ﴿وَٱلْفَجْرِ﴾[٦]. [وقال][١]: ﴿قَوْمِ نُوحٍ﴾[٧]. [وقال][١]: ﴿قَوْمِ مُوسَىٰ﴾[٨]. [وقال][١]: ﴿عَادٍ﴾[٩]. [وقال][١]: ﴿ثَمُودَ﴾[١٠]. [وقال][١]: ﴿قَوْمِ إِبْرَاهِيمَ﴾[١١]. [وقال][١]: ﴿قَوْمِ لُوطٍ﴾[١٢]. [وقال][١٣]: ﴿فِرْعَوْنَ﴾[١٤]. [وقال][١٣]: ﴿آلِ فِرْعَوْنَ﴾[١٥]. [وقال][١٣]: ﴿هَامَانَ﴾[١٦]. [وقال][١٣]: ﴿قَارُونَ﴾[١٧]. [وقال][١٣]: ﴿أَبِي لَهَبٍ﴾[١٨]. [وقال][١٣]: ﴿ٱمْرَأَتُهُ حَمَّالَةَ ٱلْحَطَبِ﴾[١٩]. [وقال][١٣]: ﴿بَنِي آدَمَ﴾[٢٠]. [وقال][٢١]: ﴿ٱلْجِنِّ﴾[٢٢]. [وقال][٢١]: ﴿ٱلْإِنسِ﴾[٢٣]. [وقال][٢١]: ﴿ٱلْمَلَائِكَةِ﴾[٢٤]. [وقال][٢١]: ﴿ٱلصِّرَاطَ﴾[٢٥]. [وقال][٢١]: ﴿ٱلْمَوَازِينَ﴾[٢٦]. [وقال][٢١]: ﴿حُورٌ مَّقْصُورَاتٌ﴾[٢٧]. [وقال][٢١]: ﴿سِدْرٍ مَّخْضُودٍ﴾[٢٨]. [وقال][٢٩]: ﴿شَجَرَةُ ٱلزَّقُّومِ﴾[٣٠]. [وقال][٢٩]: ﴿ٱلدَّرْكِ ٱلْأَسْفَلِ﴾[٣١]. [وقال][٢٩]: ﴿ٱلدَّرَجَاتُ ٱلْعُلَىٰ﴾[٣٢]. [وقال][٢٩]: ﴿وَٱلنَّخْلَ وَٱلزَّرْعَ مُخْتَلِفاً أُكُلُهُ﴾[٣٣]. [وقال][٢٩]:

---

(١) زيادة للفصل بين الآيات.
(٢) سورة إبراهيم (الآية: ٣٥).
(٣) سورة الليل (الآية: ١، ٢).
(٤) سورة النحل (الآية: ٢٦).
(٥) سورة التكوير (الآية: ١٨).
(٦) سورة الفجر (الآية: ١).
(٧) سورة الأعراف (الآية: ٦٩).
(٨) سورة القصص (الآية: ٧٦).
(٩) سورة التوبة (الآية: ٧٠).
(١٠) سورة التوبة (الآية: ٧٠).
(١١) سورة التوبة (الآية: ٧٠).
(١٢) سورة هود (الآية: ٧٠).
(١٣) زيادة للفصل بين الآيات.
(١٤) سورة الأعراف (الآية: ١٠٣).
(١٥) سورة البقرة (الآية: ٤٩).
(١٦) سورة القصص (الآية: ٦).
(١٧) سورة القصص (الآية: ٧٦).
(١٨) سورة المسد (الآية: ١).
(١٩) سورة المسد (الآية: ٥).
(٢٠) سورة الأعراف (الآية: ٣١).
(٢١) زيادة للفصل بين الآيات.
(٢٢) سورة الأنعام (الآية: ١٢٨).
(٢٣) سورة الأنعام (الآية: ١٢٨).
(٢٤) سورة البقرة (الآية: ٣٠).
(٢٥) سورة الفاتحة (الآية: ٦).
(٢٦) سورة الأنبياء (الآية: ٤٧).
(٢٧) سورة الرحمٰن (الآية: ٧٢).
(٢٨) سورة الواقعة (الآية: ٢٨).
(٢٩) زيادة للفصل بين الآيات.
(٣٠) سورة الصافات (الآية: ٦٢).
(٣١) سورة النساء (الآية: ١٤٥).
(٣٢) سورة طه (الآية: ٧٥).
(٣٣) سورة الأنعام (الآية: ١٤١).

﴿الزَّيْتُونَ﴾[١]. [وقال][٢]: ﴿الرُّمَّانَ﴾[٣]. [وقال][٢]: ﴿مِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ﴾[٤]. [وقال][٢]: ﴿الْمَشْرِقَيْنِ﴾[٥]. [وقال][٢]: ﴿الْمَغْرِبَيْنِ﴾[٦]. [وقال][٢]: ﴿الْمَشَارِقِ﴾[٧]. [وقال][٢]: ﴿الْمَغَارِبِ﴾[٨]. [وقال][٢]: ﴿وَيَخْلُقُ مَا لاَ تَعْلَمُونَ﴾[٩].

وعلى الجملة فلا أقدر على وصف بعض ما ذكر الله تعالى بكلامه ووصفه لأجزاء المخلوقات حتى الذرة والخردلة فقد قال: ﴿إِنَّ اللَّهَ لاَ يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ﴾[١٠].

[وقال][١١]: ﴿وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ﴾[١٢]. [وقال][١١]: ﴿وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ﴾[١٣]. [وقال][١١]: ﴿وَلاَ رَطْبٍ وَلاَ يَابِسٍ﴾[١٤]. حتى قوله عز وجل: ﴿أَوْ جَاءَ أَحَدٌ مِّنكُم مِّنَ الْغَائِطِ﴾[١٥].

فهو يصف الوجود كله ظاهراً وباطناً وأفعاله وحركاته وأجزاءه وأجزاء أجزائه ولا يصف الواصف ولا يذكر الذاكر إلاّ ما يرى ويشاهد ويعلم.

فتباً للقائلين: إنه يعلم الكليات ولا يعلم الجزئيات.

وتباً لمن يقول: إن أحداً يفعل فعلاً في الوجود كله والله يقول: ﴿فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ قَتَلَهُمْ وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ﴾[١٦] الآية.

ويعم ذلك قوله عز وجل: ﴿وَسَخَّرَ لَكُمْ مَّا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ جَمِيعاً مِّنْهُ﴾[١٧].

وقوله: ﴿وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ﴾[١٨]. [وقال][١٩]: ﴿يُضِلُّ مَن يَشَاءُ وَيَهْدِي مَن يَشَاءُ﴾[٢٠].

---

(١) سورة الأنعام (الآية: ١٤١).
(٢) زيادة للفصل بين الآيات.
(٣) سورة الأنعام (الآية: ١٤١).
(٤) سورة البقرة (الآية: ٢٦٦).
(٥) سورة الرحمٰن (الآية: ١٧).
(٦) سورة الرحمٰن (الآية: ١٧).
(٧) سورة المعارج (الآية: ٤٠).
(٨) سورة المعارج (الآية: ٤٠).
(٩) سورة النحل (الآية: ٨).
(١٠) سورة النساء (الآية: ٤٠).
(١١) زيادة للفصل بين الآيات.
(١٢) سورة الأنبياء (الآية: ٤٧).
(١٣) سورة الأنعام (الآية: ٥٩).
(١٤) سورة الأنعام (الآية: ٥٩).
(١٥) سورة النساء (الآية: ٤٣).
(١٦) سورة الأنفال (الآية: ١٧).
(١٧) سورة الجاثية (الآية: ١٣).
(١٨) سورة الصافات (الآية: ٩٦).
(١٩) زيادة للفصل بين الآيات.
(٢٠) سورة النحل (الآية: ٩٣).

وأما النظر في ذلك من جهة العقل فإن الأجساد إنما هي جمادات لا حراك لها ولا إدراك، أي جسم كان من المخلوقات.

وإنما الأفعال والإدراك للأرواح هي تصرف الأجساد فهي لها كالآلات للأرواح والإدراك/ العلمي وغيره إنما هي للأرواح أيضاً فهي كلها أعراض كائنة ومخلوقات في الأرواح بعد أن لم تكن فيها فالإرادات والقدر والعلوم والفكر والآلام واللذات والنوم واليقظة والحركة والسكون والموت والحياة والصّبر والفرح والجزع والمحبة والبغضاء. وبالجملة كل صفة أو عرض قائم بالأرواح إنما هو مخلوق في الأرواح بمعنى الجبر والاختيار. [ب]

فإذا كان الفعل اختيارياً خلق له الاختيار في ذلك الوقت في الأرواح وتحركت الأجساد.

وإذا كان جبراً خلق فيه جبراً فكان الجبر على الروح والجسد سواء لا ينفك عنه واحد منهما.

ولو كان الأمر للأرواح تفعل ما تريد لكانت أرواح جميع المخلوقات كل واحد منها يفعل ما يريد ويحب ويجانب ما يكره ولاتَّبع كل واحد مراده وهواه. ﴿وَلَوِ ٱتَّبَعَ ٱلْحَقُّ أَهْوَآءَهُمْ لَفَسَدَتِ ٱلسَّمَاوَاتُ وَٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ﴾[1]. فافهم فهمك الله.

من أعجب شيء وأغربه في هذا المعنى أن أرواح الملائكة المقربين[2] والحملة لما كانوا في محل القرب والمشاهدة والسماع للوحي كانت أفعالهم وحركاتهم منهم وكانت تنفعل انفعالاً.

ذلك أن الإنسان إذا شاهد ملكاً عظيماً ذا هيبة وسطوة دخلت ذاته منه هيبة ورهبة مع وذلة واستكانة وطاعة.

فإن أمره بشيء لم يمتنع من الاستجابة للطاعة.

فكيف بملك الملوك الذي لا يسمع كلامه الأسمعة الذي وسع ذاته ولا يحمل نظره وقدرته شيء غيره.

وكذلك ورد أنه ينظر إلى العرش فيتسع أضعاف ما هو/ عليه ويثقل على الحملة. أو كما ورد. [٣٢/ أ]

---

(١) سورة المؤمنون (الآية: ٧١).

(٢) في الأصل: الملائكة والمقربين. فحذفت الواو لزيادتها.

قال جبريل عليه السلام: «وكيف لو رأيت إسرافيل إن العرش لعلى كاهله وإنه ليتضاءل لعظمة الله حتى يعود كالوَصْع»(١).

[وقال سبحانه](٢): ﴿يُسَبِّحُونَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ لَا يَفْتُرُونَ﴾(٣).

ولذلك كانت دورات الأفلاك والنجوم لا تفتر طرفة عين ولا أقل ولا أكثر قائمة من المشرق إلى قرب الاستواء ثم مستوية في قيامها في حال الاستواء، ثم راكعة بعد الزوال، وساجدة في حال الاستواء، ثم راكعة بعد الزوال، وساجدة في حال الغروب، ثم دائرة طائفة حول الأرض أبداً لا تستطيع العصيان ولا المخالفة فصارت الطاعة والانقياد لها طبعاً مطبوعاً.

ثم كلما بعدت الأشياء عن مشاهدة الحضرة العلية شاهدت نفسها وذواتها وذهلت عن مشاهدة مالكها وبارئها فتوهمت أنها فاعلة إلى غير ذلك مما دخل عليها من فسائد العقائد والأفعال فمن هنا دخلت عليها الآفات.

ومن أضاف حركة واحدة إلى شيء من المخلوقات فقد أشرك فلا بد لك من توحيد الأفعال ولا يتم التوحيد إلاّ به.

فصـــل

واعلم أن التوحيد في نفسه ثلاث مراتب:

توحيد الأفعال.

وتوحيد صفات الفاعل.

وتوحيد وجود ذات الفاعل.

المرتبة الأولى ـ توحيد الأفعال: وهو إضافة الأفعال والمفعولات كلها إلى الله وأنه خالق الذرة وأفعالها، والفيل وأفعاله، والعرش وأفعاله.

وخالق أعيان الموجودات كلها وأفعالها على كثرتها واختلافها فسبحان من لا يشغله شأن عن شأن لأن الفعل من فاعلين م ں في العقل والله يقول: ﴿وَٱللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا

---

(١) الوَضْعُ، والوَضَعُ، والوَضِيعُ: الصغير من العصافير وقيل: الصغير من أولاد العصافير، وقيل هو طائر كالعصفور، وقيل يشبه العصفور الصغير في صغر جسمه، وقيل أصغر من العصفور. ثم أورد ابن منظور الحديث الذي هنا استشهاداً. (لسان العرب).

(٢) زيادة للفصل والتوضيح.

(٣) سورة الأنبياء (الآية: ٢٠).

تَعْمَلُونَ﴾[١]. [وقال][٢]: ﴿وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَكِنَّ ٱللَّهَ رَمَىٰ﴾[٣]. [وقال][٢]: ﴿قُلْ كُلٌّ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ﴾[٤].

[٣٣/ ب] ولو كانت أفعال/ العباد وحركاتهم في ظواهرهم وبواطنهم من أفعالهم لأدّى ذلك إلى أن العاجز قادر والقادر عاجز وهذا محال لأن الحركات لو كانت للعباد لكانت باختيارهم والاختيار والقدرة ليس للعبد بهما علم قبل حدوثها فيه ولا قبل الفعل ولا يقدر أيضاً على ردها بعد أن حدثت فيه ولا بعد الفعل فإذا لم يكن له بها علم قبل الفعل ولا قبل حدوثها فيه ولا قدرة له على ردها بعد الفعل ولم يبقَ إلاّ أنها محدثة فيه في حين الفعل ثم تزول بزوال الفعل فإن أريد منه فعل آخر أخذت له اختيار آخر وقدرة أخرى.

وإنما الأشياء كلها كما قال تعالى في بعض الكتب: «كنت سمعه وبصره» الحديث.

وكما ورد: «فبي يسمع، وبي يبصر».

أي هو يحرك سمعه وبصره وكل شيء منه ومن العالم لكن للولي بحكم الولاية وللعدو بحكم اللعنة: ﴿وَأَنَّهُۥ هُوَ أَضْحَكَ وَأَبْكَىٰ﴾[٥].

فتوحيد الأفعال رؤية الأشياء وجميع حركات الأشياء من عند الله وأن الأشياء بيد القدرة كالآلة بيد الصانع.

ولقد أخرج الله صنعة الخيال آية عظيمة على توحيده فلا تظنن أن الخيال أو شيئاً من المخلوقات من حيث فعلها هو سبحانه إن هو لعب ولهو بل يشاهدها كل أحد من مقامه.

وذلك أن الصور التي يتكلم صاحب الخيال فيها يظن الظان أن تلك الحركات للخيال وليس هي إلاّ للمتكلم في الخيال والمحرك للصور الخيالية.

فكذلك كل جزء من المخلوقات ظاهراً أو باطناً ينفعل عن كلام الله تعالى وعن صفاته القائمة بكل شيء الذي هو أقرب إلى كل شيء من كل شيء. ويظن الظان أن الحركات/ [أ] بياناً.

فاعلم أن الإنسان قد يكلم إنساناً بكلام يرضيه فيظهر البشر والرضى على بشرة المخاطب، ويكلمه بكلام يؤذيه فيتغير بجملته ظاهراً وباطناً، ويكلمه بكلام يغضبه فيغضب

(١) سورة الصافات (الآية: ٩٦).
(٢) زيادة للفصل بين الآيات.
(٣) سورة الأنفال (الآية: ١٧).
(٤) سورة النساء (الآية: ٧٨).
(٥) سورة النجم (الآية: ٤٣).

ويظهر في ظاهره الغضب، وبكلام يضحكه فيضحك، وبكلام يبكيه أو خبر يحزنه فيحزن ويبكي إلى غير ذلك مما يكثر تعداده.

حتى أن الكلمة بين الخلق لتوقع بينهم العداوة والبغضاء حتى يؤدّي ذلك إلى الحروب والقتل والشرور العظيمة. والمتكلم بها إما تكلم بكلمة أو بكلمات والله تعالى يقول: ﴿إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَآ أَرَدْنَاهُ أَنْ نَّقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾[1].

والذات متكلم بالكلام الذي وسع وجود الذات وبكلامه قد ذكر كل شيء كما قال تعالى: ﴿إِنْ هُوَ إِلاَّ ذِكْرٌ لِّلْعَالَمِينَ﴾[2].

فالوجود كلّه قد ذكره بكلامه، فهو يتكون عن كلامه القيام بنفسه ويتصرف في جميع حركاته وسكونه.

وقد قال رسول الله ﷺ لبعض أصحابه: «ما له ضرب الله عنقه أليس هذا خير؟!» فقال الرجل: في سبيل الله يا رسول الله؟ قال: نعم[3]. فضرب عنقه في سبيل الله. فكيف بكلام رب العالمين؟ فاتل كتاب الله وانظر أي مذكور ذكره تجد صورة المذكور في الوجود كما ذكر بلا زيادة ولا نقصان: ﴿إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَا أَرَدْنَاهُ أَنْ نَّقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾[4].

والذي حدث عن كلامه في باطن الوجود هي الروحانيات لأن الروح نفخة في الجسد والجسد متحرك وساكن بالروح وليس له حركة بنفسه إنما هو جماد، ولا للمنفوخ الذي هو الروح حركة بنفسه ولا وجود/ إلاّ بإدامة النفخ من النافخ. [٣٤/]

فالجسد يتحرك بالنفخة والنفخة صادرة عن النافخ بالضرورة.

فالمخلوقات كلها على هذا لم تملك من ظواهرها ولا من بواطنها قليلاً ولا كثيراً.

والنفخ من الباري على ما يليق به سبحانه، فالذرة والبعوضة إذا رفعت رجلها أو جناحها أو وضعته فالله يرفعه ويضعه والعين إذا فتحها الناظر بها أو غضها فالله يفتحه ويغضه، والرجل هو محركها ومسكنها، والله يقبض الوجود كله ويبسطه: ﴿وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ ٱلأَمْرُ كُلُّهُ﴾[5].

فإذا فهمت ما تقدم من أن الوجود كله يتكون عن سماع الكلام فسأضرب لك في ذلك

(١) سورة النحل (الآية: ٤٠).
(٢) سورة ص (الآية: ٨٧).
(٣) طرفه عند: مالك في الموطأ (٩١١).
(٤) سورة النحل (الآية: ٤٠).
(٥) سورة هود (الآية: ١٢٣).

مثلاً لعل الله أن يفتح بصيرتك لفهم الفائدة فيه بمنّه:

وذلك أن تقدر نفسك من حملة القرآن العظيم وقد حصل القرآن كله محفوظاً عندك وقائماً بقلبك ثم تريد أن تقرأه، فقدر أن لو قدرت أن تقرأه جملة واحدة في حالٍ واحدة فتخرج كلمات القرآن من أوله إلى آخره خروجاً واحداً في حالٍ واحدة ولا يمكنك ذلك إلا بأن تقدر أن تجعل ذاتك كلها ووجودك متكلماً بجميع أعضائك ومفاصلك وعورتك ويكون كل عضو متكلماً بآية وحروف على حياله فيقول لسانك: ﴿بِسْمِ ٱللَّهِ﴾[1]. ويقول العضو الذي يليه: ﴿ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾[1]. والذي يليه: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَالَمِينَ﴾[1]. والذي يليه: ﴿ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾[1]. وهكذا إلى قوله: ﴿مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ﴾[2].

وقدر أن يتأثر بكلامك كل مذكور ذكر به في حالة واحدة حتى تكون قراءتك وتلاوتك مثل قول إبراهيم بن أدهم للجبل: تحرك. فتحرك الجبل بقوله: تحرك[3].

وهذا المثل وإن لم يكن في حقك حقيقة لعجزك عن الكلام بالقرآن كله جملة واحدة فإنه في حق الباري تعالى/ حقيقة لأن الله تعالى ليس كلامه حرفاً بعد حرف ولا كلمة بعد كلمة بترتيب، وإنما الباري جل جلاله متكلم بالكلام الذي وسع وجود الذات وهو المعنى القائم بالقول الذي في النفس فيصدر عن المعاني القائمة بذات الباري تعالى ما شاكل تلك المعاني جملة واحدة في جميع العالمين ما حضر منها وما غاب كما قال: ﴿وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾[4]. [٣٥/ أ]

فصدر عن هذه الآية من العوالم ما لم يُعلم وهي موجودة في ملك الله والكلمة قائمة بها ومكونة لوجودها.

وكذلك كل مذكور في القرآن كما قال تعالى: ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ﴾[5].

---

(١) سورة الفاتحة (الآية: ١، ٢، ٣).

(٢) سورة الناس (الآية: ٦).

(٣) إبراهيم بن أدهم: إمام حبر زاهد عابد ولي محدث ثقة شهير عارف كبير صاحب أحوال وحكم وفقه وورع غير أن كثيراً مما هو منسوب إليه لا يصح ومن ذلك هذا القول البيّن العوار. إذ لو حرك تقي جبل وآخر الشمس وغيره الكواكب وغيره المخلوقات لفسد نظام الكون لا محالة وما الفائدة من تحريك الجبل والذي أعجب منه أنه كيف فات الشيخ مثل هذا فالله لنا وله نسأل العفو والعافية في الدين والدنيا والآخرة من الله بكرمه آمين.

(٤) سورة النحل (الآية: ٨).

(٥) سورة ص (الآية: ٨٧).

ومن هذا المعنى يفهم معنى سبق المقادير وقول النبي ﷺ: «كتب في الذكر كل شيء».

[وقوله سبحانه](١): ﴿وَكُلَّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَاهُ فِي إِمَامٍ مُّبِينٍ﴾(٢).

فبقوله: ﴿تَبَّتْ يَدَآ أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ﴾(٣) في الأزل كان أبو لهب في أصلاب الآباء وفي وجود الدنيا وفي الآخرة وفي أبد الأبد لأن الكلمة قائمة به ومتكوّنة به وبصفاته فلا محيص له عنها لا في الأزل ولا في وجود الدنيا ولا في الأبد.

وكذلك لو لم يتكلم بقوله: ﴿يَآ أَيُّهَا ٱلَّذِينَ آمَنُوٓاْ آمِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾(٤).

لم يكن مؤمن ولا إيمان، ولو لم يذكر الزاني والزانية لم يكن زنا ولا زاني ولا زانية ولو لم يذكر المصلين والخاشعين لم يكن شيء من ذلك.

وكذلك استَقْرِ كل مذكور لعلك تشرف على معنى قول النبي ﷺ: «إن ما أصابك لم يكن ليخطئك وما أخطأك لم يكن ليصيبك»(٥).

فإن الكلام قديم لم يزل قائماً بذات الباري تعالى ولا يزال: ﴿لاَ تَبْدِيلَ لِكَلِمَاتِ ٱللَّهِ﴾(٦).

والكلام الأزلي هو الكلام الأبدي لم يتغير ولا يتغير ولا يتجدد عليه كلام فيتكلم بما لم/ يتكلم، وهكذا جميع صفات الباري تعالى. [٣٥/ ب]

فإن قلت: قد نجد كافراً ذكره بالكفر فكان كافراً وعاصياً ثم كان بعد ذلك مؤمناً طائعاً أو تائباً بعد العصيان.

فاعلم أن هذا لا يتناقض فارجع نظرك إلى القرآن تجده قد ذكره بالكفر ثم بالإيمان أو بالمعصية ثم بالتوبة: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ آمَنُواْ ثُمَّ كَفَرُواْ ثُمَّ آمَنُواْ﴾(٧).

[وقوله سبحانه](٨): ﴿يَآ أَيُّهَا ٱلَّذِينَ آمَنُواْ تُوبُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ تَوْبَةً نَّصُوحاً﴾(٩).

فلم يكن له محيص عن المعنيين جميعاً وعن ألف معنى إن ذكره بها.

---

(١) زيادة للفصل بين الآيات والأحاديث.
(٢) سورة يس (الآية: ١٢).
(٣) سورة المسد (الآية: ١).
(٤) سورة النساء (الآية: ١٣٦).
(٥) أخرجه أحمد في المسند بنحوه (٥/ ١٨٥، ١٨٩).
(٦) سورة يونس (الآية: ٦٤).
(٧) سورة النساء (الآية: ١٣٧).
(٨) زيادة للفصل بين الآيات.
(٩) سورة التحريم (الآية: ٨).

ومن هذا المعنى يفهم أن علم القرآن هو البحر الذي لا ساحل له فإنه وصف الله على ما هو به ووصف أفعاله على ما هي عليه، فيحق أن يقول علي رضي الله عنه: لو شئت لأوقرتُ سبعين بعيراً من تفسير فاتحة الكتاب.

فانظر إلى قوله عز وجل: ﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ وَٱلنُّجُومُ مُسَخَّرَاتٌ بِأَمْرِهِ﴾[١].

هل رأيت هذه الموجودات كلها إلاّ مستمرة في تسخيرها لم تقف طرفة عين.

هذا لأن الآية قائمة بها، وهكذا كل مذكور.

فلو أمسك عن المتكلم سبحانه لم يكن لهذه المذكورَات وجود وقامت القيامة وانخرم هذا العالم وانتثرت النجوم وزال حكم الليل والنهار بقوله: ﴿إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنشَقَّتْ﴾[٢].

وعلقها بإذا انشقّت في المستقبل لا بد ولا محالة بقوله: ﴿رَفَعَ ٱلسَّمَاوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا﴾[٣].

ارتفعت لا بد ولا محالة إلى أجل مسمى كما قال أيضاً: ﴿إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾[٤].

فافهم فهمك الله فإن البلادة وقلة الفهم من أوصاف من لا يبالي الله به باله، ولولا قول الله تعالى لنبيه عليه الصلاة السلام: ﴿لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ﴾[٥] ما بيّن لهم حرفاً واحداً ولا قدر على ذلك، ولولا قول الله للعلماء في بواطن ذواتهم: ﴿لَتُبَيِّنُنَّهُ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُ﴾[٦]/ لم يكن عالم يبين حرفاً، ولولا قوله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْتُمُونَ﴾[٧] لم يكن كاتم ولا مكتوم لأن القرآن قائم بجميع بواطن المخلوقات كما تقدم يسمعه من قامت به هذه الآية: ﴿وَٱسْمَعُواْ وَأَطِيعُواْ﴾[٨].

ولا يسمعه من قال له: ﴿فِي أُذُنَيْهِ وَقْراً﴾[٩].

ولا حول ولا قوة إلا بالله فالجسد والأجساد كلها لا حركة لها ولا سكون إلا بالأرواح ولا قوام للأرواح ولا وجود إلاّ بإدامة المتكلم التكلم لأن الروح من المتكلم بمنزلة المصدر

(١) سورة النحل (الآية: ١٢).
(٢) سورة الانشقاق (الآية: ١).
(٣) سورة الرعد (الآية: ٢).
(٤) سورة لقمان (الآية: ٢٩).
(٥) سورة النحل (الآية: ٤٤).
(٦) سورة آل عمران (الآية: ١٨٧).
(٧) سورة البقرة (الآية: ١٥٩).
(٨) سورة التغابن (الآية: ١٦).
(٩) سورة لقمان (الآية: ٧).

الصادر عن المتكلم ما دام متكلماً ظهرت الكلمات عنده فلو أمسك عن التكلم طرفة عين لم يكن للأرواح وجود وكانت تنعدم بلا زمان كما ينعدم مصدر الكلام الصادر عن المتكلم إذا لم يرد المتكلم وبقي المتكلم قائماً بكلامه القائم بنفسه الدائر في خلده الذي لم يزل قائماً به.

فصـــل: المرتبة الثانية من مراتب التوحيد وهي توحيد الصفات

اعلم رحمك الله أن هذا المقام من التوحيد قل ما تبينه العبارة وإنما هو من علم القلوب ومن ظن أن حقيقة علمه مستوفى في الكتب والصحف فليس له من مقام المعرفة إلاّ مقام كل ناقص.

وكيف يكون ذلك وسيد المرسلين وإمام جميع العاملين قد أظهر العجز فيه وقال: «لا أحصي ثناءاً عليك أنت كما أثنيت على نفسك»[١].

وإنما ألقى العلماء منه تنبيهات لتنتبه العقول إلى ذلك فتكون سابحة عاكفة هنالك.

ولولا أن الله تبارك وتعالى امتن على عباده بأن أوجد لهم في الوجود عن كل معنى من أسمائه وصفاته صفات كثيرة خلقهم بها وأمرهم بالتخلق بها لَمَا فهموا أبداً معاني/ صفات [٣٦] الخالق سبحانه لأن أمر الله تعالى أمر عظيم لا تناله الألسن.

فأوجد البصر والعلم والسمع والحياة والقدرة والإرادة والكلام والرحمة والرأفة والكرم والجود والسيادة والملك والعزة والقدرة[٢] والعفو والإحسان والطهارة والقدس.

وبالجملة جميع الصفات أوجد على معناها في الوجود معاني يستدل بها عليه إلا اسم الله تعالى وحده وصفة الألوهية فإنه لم يوجد في الوجود كله من تسمى الله لأنه لم يخلق في الوجود صفة الألوهية وغاية ما وصل إليه فرعون أن يقال: ﴿مَا عَلِمْتُ لَكُمْ مِّنْ إِلَـٰهٍ غَيْرِي﴾[٣].

على لفظ النكرة ولم يقل: أنا الله. وقال أيضاً: ﴿أَنَا رَبُّكُمُ ٱلْأَعْلَىٰ﴾[٤].

هذا من أجل أن معاني الأسماء كلها قد ظهرت في الوجود كله.

فأوجد العلم المحدث عن علمه والحياة عن حياته والقدرة عن قدرته والإرادة عن

---

(١) أخرجه أحمد في المسند (٦/ ٥٨)، الزبيدي في إتحاف السادة المتقين (٢/ ٧١).

(٢) سبق أن ذكر هذه الصفة قبلها بتليل.

(٣) سورة القصص (الآية: ٣٨).

(٤) سورة النازعات (الآية: ٢٤).

إرادته والسمع كله والأبصار عن سمعه وبصره والكرم عن وجوده والرحمة والعزة عن رحمته وقوته.

هكذا إلى جميع ما اتصف به. ومع هذا كله، وإن أوجد تلك المعاني ليتنزل بها على صفاتها بأنها كلها مرتبطة ليستدل بأضدادها.

فلذلك كانت صفات الله آحاداً لا يشبهها شيء ومثال ذلك أن المخلوق يكون عالماً فيسمى بذلك لاتصافه بصفة العلم، ولكن قد ارتبط علمه بضده من الجهل.

فإنه ومن حيث أدرك علمه ما أدرك من المعلوم فقد غاب عن علمه أكثر مما علم فمن حيث عجز علمه عن من غاب عنه فقد عاد جهلاً من وجه.

وكذلك بصره من حيث أدرك مبصرات ما غاب عن بصره أكثر مما أدرك فقد عمي بصره عن ذلك، وقدرته، وحياته، وكرمه، وسيادته/ وجميع صفات العباد. [٣١/ أ]

كذلك كل صفة مقرونة مرتبطة بضدها أبد الآبدين ودهر الداهرين.

وصفات الباري سبحانه ليست كذلك لأن صفات العلم من الله مدركة لذات الباري تعالى ولجميع المخلوقات فلم يخف عليه من علمه بذاته ولا من علمه بمخلوقاته ما أوجده وما لم يوجده شيء فليس له ضد يرتبط به وكذلك قدرته لأنه لا يقدر إلاّ على ما علم: ﴿وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾[١].

وكذلك لا يوجد إلاّ ما علم وكذلك جلاله وكبرياؤه غير مرتبط بضد، وكبر المخلوق المحمود والمذموم وعزه المحمود والمذموم مرتبط بضده فإنه وإن كان عزيزاً وكبير القدر وجليلاً بالله (. . .)[٢] للّه وصغير حقير بين يديه وهكذا جميع الصفات وقد نبهتك لبعضها لتفطن لسائرها إن شاء الله فإنما يشرح هذا العلم في الصدور لا في السطور ألا ترى لقول الخضر لموسى عليهما السلام: ما علمي وعلمك وعلم جميع الخلائق في علم الله إلاّ كما أخذ منقار العصفور من البحر. أو كما قال. فنبَّه الخضر عليه السلام لأنه من العلماء بالله إلى أمرٍ عظيم لا ساحل له ولا آخر.

وأضرب لك في هذا مثلاً ممَّا ورد في الشرع ليكون لك أصلاً في جميع الصفات: ورد عن النبي ﷺ أنه قال لجبريل حين سأله عن زوال الشمس فقال: «لا ـ نعم».

---

(١) سورة البقرة (الآية: ٢٩).

(٢) موضع النقط قدر كلمة واحدة ممحوة.

إن الشمس جرت بين لا ـ نعم مسيرة خمس مائة عام فكيف تمشي الشمس من لا ـ نعم من أول النهار إلى الليل، ومن أول الليل إلى آخر الليل؟

فقدر في نفسك عظيم وجود السماء والتي فوقها أعظم منها والتي فوق أعظم من التي تليها هكذا إلى الكرسي والأرضون.

وكذلك/ اعلم أن هذه الأرض أصغر الأرضين كما أن سماء الدنيا أصغر السماوات. [٣٧/ ب]

وانظر إلى قوله عليه السلام في الكرسي وسع السماوات والأرض: «ما السماوات السبع والأرضون السبع في الكرسي إلا كحلقة ملقاة في فلاة من الأرض قيل إنها كحلقة من حلق الدرع ألقيت في فلاة من الأرض»(١).

فانظر نسبة السماوات والأرضين على عظمها من الكرسي.

ثم نبّه القلوب فقال: «ما الكرسي بما فيه في العرش إلاّ كحلقة ملقاة في أرض فلاة».

فنبه النبي عليه الصلاة والسلام القلوب على صفة العظمة تنبيهاً ليتذكر أولو الألباب، وقال الله عز وجل: ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ﴾(٢).

فوصف العرش بالعظمة وليس شيء أعظم مما عظم الله تعالى. وإذا تفهمت حديث الحلقة وجدت الكرسي محيطاً بالسماوات والأرض علواً وسفلاً والعرش قد أحاط بالكل من جميع الجهات وقد روى أنس بن مالك في وصف عظمة العرش قال: سألت النبي ﷺ عن عرش رب العزة فقال: «يا أبا حمزة لقد سألتني عن أمر عظيم إن رب العزة له ثلاثمائة وستون قائمة كطباق الدنيا ستون ألف مرة بين كل قائمة وقائمة ألف صحراء كل صحراء مثل الدنيا ستون ألف مرة في كل صحراء ستون ألف عالم كل عالم مثل الثقلين الإنس والجن ستون ألف مرة لا يعلمون هل خلق الله آدم ولا إبليس ألهمهم الله يستغفرون لمحبي أبي بكر وعمر «رحمهما الله ورضي الله عنهما» وبين المشرق والمغرب ستون ألف عالم مثل الجن والإنس ستون ألف مرة ألهمهم الله أن يلعنوا مبغضي أبي بكر، وعمر «رحمة الله ورضوانه/ [٣٨/ أ] عليهما».

وهذا الحديث وإن لم يرد في الصحيح فالأمر أعظم من ذلك وأعظم وقول الله تعالى:

(١) أطرافه عند: أبي نعيم في تاريخ أصبهان (٢/ ٢٠٥)، ابن الجوزي في زاد المسير (١/ ٣٠٤)، مسند الربيع (٩٤)، الزبيدي في الإتحاف (٩/ ٥٨٩)، السيوطي في الدر المنثور (٣/ ٢٩٨)، ابن كثير في البداية والنهاية (١/ ١٣).

(٢) سورة النمل (الآية: ٢٦).

﴿وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾[(١)] مصداق ذلك. وقوله: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَالَمِينَ﴾[(٢)] أيضاً مصداق لذلك.

وروى أبو إسحاق في كتاب المصابيح عن رسول الله ﷺ: «إن لله تعالى ثمانية عشر ألف عالم، الدنيا منها عالم واحد».

وقال عليه الصلاة والسلام: «إن بهذا المغرب أرضاً بيضاء نورها بياضها وبياضها نورها، مسيرة الشمس فيها أربعون يوماً. .»[(٣)] الحديث.

وغير ذلك مما ورد في حديث القدرة.

وإنما خفيت هذه العوالم بعضها عن بعض من أجل أنه إنما يشاهد أهل كل عالم ما يليه من عالمه والمراد من هذا كله في توحيد الصفات: أن العرش على عظمته بما حوى من جميع المخلوقات والعوالم ما علم وما لم يعلم بالنسبة إلى عظمة وجود الباري سبحانه أقل من الجزء الذي لا يتجزأ بل لا حسّ له في وجوده ولا مس في شهوده وكما أن من في أسفل سافلين يقول ويقرّ أن الباري تعالى أقرب إليه من نفسه لنفسه ويقرّ أن الباري سبحانه أقرب للعرش من نفس العرش كذلك يقول العرش ويقرّ أن قرب الباري منه كقربه من الذي في تخوم أسفل سافلين.

ومن في المشرق يقول كذلك ومن في المغرب يقول كذلك.

وإدراكه لجريان الغذاء في عروق النملة الصغيرة وإدراكه لسمعها وبصرها وصوتها ومعرفتها كإدراكه لجميع عوالم العرش وبعده عن أوصاف العرش على عظمته كبعده على أوصاف الذرة على حقارتها ولولا أن الله تبارك وتعالى تجلى إلى العرش بصفة الرحمة كما قال: / ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ﴾[(٤)] لَمَا ثبت العرش ولانهدّ وجوده ولكن بلطفه ورحمته صح منه وجود الخلق سبحانه، ولم يظهر أيضاً للعرش من صفة الرحمة إلاّ ما يليق به ويحمله وجود العرش. [ب]

فإن الرحمة صفة الذات واسم[(٥)] من أسماء الذات فالرحمة على سعة العظمة والجلال على سعة الكبرياء.

---

(١) سورة النحل (الآية: ٨). (٢) سورة الفاتحة (الآية: ٢).

(٣) أورده ابن كثير في التفسير (٨/ ١٨٤)، الزبيدي في إتحاف السادة المتقين (١٠/ ١٦٢).

(٤) سورة طه (الآية: ٥).

(٥) في الأصل: خلق. فاستبدلتُ الكلمة بما يليق بالخالق سبحانه.

كما أن الحياة وسعت ما وسع العلم، والعلم على سعة البصر، والحلم كذلك.

وبالجملة كل صفة قد وسعت ما وسعت العظمة وما وسعت كل صفة لا يجوز أن يترجح وصف من أوصاف الذات على وصف تعالى وصفه عن الزيادة والنقصان.

فتفهم هذا، فَقَلّ ما تجده إلا إشارة يسيرة في أقوال العارفين قَلّ من يحكيها.

ولولا خشية الإنكار من أجل قلة فهم السامع لذكرت من علم الصفات ما لم يخطر قط على بال من ليس من أهل هذا الشأن ولكن: ﴿فَعَسَى ٱللَّهُ أَن يَأْتِيَ بِٱلْفَتْحِ أَوْ أَمْرٍ مِّنْ عِندِهِۦ﴾[1].

ولو أنه تبارك وتعالى أظهر من صفة جماله وجلاله للعرش وجميع المخلوقات أكثر مما تجلى لها وظهر لذابت المخلوقات وتلاشت شوقاً وكمداً وتلفت الأرواح وانغمدت الأشباح.

لكن أظهر للكل بمقدار ما يحتمله وجودهم ويستقيم به نشؤهم وإيجادهم.

فإذا ألف العرش وجميع المخلوقات ذلك المعنى ونشأوا عليها إلى حدّ يحتملون معه أكثر من ذلك الذي تجلى لهم أعطاهم أيضاً من التجلي زيادة على ما تقدم بمقدار ما يحتملون والتجلي دائم بدوام وجوده أبد الآباد يدركون في النفس الواحد ما لم يدركوه في النفس الذي قبله ويسمعون من الكلام ما لم يسمعوا: ﴿قُل لَّوْ كَانَ ٱلْبَحْرُ مِدَاداً لِّكَلِمَاتِ رَبِّي لَنَفِدَ ٱلْبَحْرُ قَبْلَ أَنْ تَنْفَدَ كَلِمَاتُ رَبِّي﴾[2]. [وقال الله تعالى][3]: ﴿وَلَوْ أَنَّ/ مَا فِي ٱلْأَرْضِ مِن شَجَرَةٍ أَقْلَامٌ وَٱلْبَحْرُ يَمُدُّهُ مِنۢ بَعْدِهِۦ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَّا نَفِدَتْ كَلِمَاتُ ٱللَّهِ﴾[4]. [٣٩/ أ]

ولولا أن جهنم كلها حجاب صرف لَمَا كان لها ثبات ولا وقف.

ولولا أن الدنيا كلها غفلة لتلاشى وجودها في لحظة مع أن الله لم ينظر إليها منذ خلقها.

ولولا أن الجنة كلها رحمة لانعدم وجودها من نظره.

فافهم يا تائهاً في بحار الأوهام واسلك طريق أهل الفهم والإلهام فبحق أقول: ليس في الوجود من يستحق الوصف بالعظمة إلاّ الله، ولا من يستحق الوصف بالعلم إلاّ الله، ولا بالقدرة، ولا بالحياة، ولا بالحكمة، ولا بجميع الصفات حقيقة ومعنى إلاّ الله.

---

(١) سورة المائدة (الآية: ٥٢).
(٢) سورة الكهف (الآية: ١٠٩).
(٣) زيادة للفصل بين الآيات.
(٤) سورة لقمان (الآية: ٢٧).

فهو الواحد الصفات، لا إله إلا هو رب الأرضين والسماوات.

واعلم أن علم الصفات لا يوجد عند العارفين بالله فإن أهل الحديث إنما نقلوا الأحاديث كما جاءت ولم يطلبوا فقه معانيها ولكنهم على الطريقة الحسنى حتى يظهر لهم في الآخرة المعنى الذي اعتقدوه.

وكذلك كل من سلك هذه الطريقة من الفقهاء والعوام هي الطريقة السائلة والسنة المستقيمة وتكلف تأويل ذلك وقسم على رأيه وفهمه فتارة يخطىء وتارة يصيب.

ومن هاهنا دخل ما دخل على أهل البدع الناظرين بآرائهم.

والعارفون الموقنون الذين اختصهم الله به هم الذين شاهدوا الأمر على ما هو عليه فتجلى سبحانه لقلوبهم في الدنيا كما يتجلى[1] لهم في الآخرة بالأبصار.

جعلنا الله وإياكم منهم برحمته آمين.

وقد قال ابن مسعود لما مات عمر بن الخطاب رضي الله عنهما قال: إني لأحسب هذا الرجل ذهب بتسعة أعشار/ العلم. [٣٩/ ب]

فقيل له تقول هذا وأصحاب رسول الله ﷺ كثير. أو كما قال.

فقال: لست أعني العلم الذي تذهبون إليه إنما أعني العلم بالله.

ولولا طول الكلام لذكرت من ذلك أكثر مما ذكرنا ولكن قد قلت لك: إنما هو من علم القلوب.

فاستعن بالله يُعِنْكَ. والسلام.

المرتبة الثالثة من مراتب التوحيد: وهو توحيد الذات

اعلم أن هذا المقام من التوحيد قليل وجوده لا يوجد إلا عند الآحاد إلاّ أنه من ترقى من توحيد الأفعال إلى توحيد الصفات يرجى له وقوع العلم إن شاء الله.

ومن تكلف طلبه من غير هذا الطريق وقع في التشبيه والإلحاد.

ولذلك قال النبي ﷺ: «تفكروا في خلق الله ولا تتفكروا في ذات الله»[2].

---

(١) في الأصل: تجلى. وهو تحريف.

(٢) أطرافه عند: الزبيدي في إتحاف السادة المتقين (١/ ١٦٢)، العجلوني في كشف الخفا (١/ ٢٧١)، ابن كثير في التفسير (٧/ ٤٤٢)، الألباني في الصحيحة (١٧٨٨)، القرطبي في التفسير (٤/ ٣١٢).

وإنما الطريق إلى هذا المقام بالتفكر في الأفعال والنظر والاستدلال.

فإذا أحكموا النظر في الأفعال دلتهم الأفعال على الصفات فتتجلى لهم معاني الصفات القائمة بالذات لأن الأفعال صادرة عن الصفات؛ وفي الخبر: «ما تجلى الله لشيء إلاّ خشع له».

[وقال تعالى][1]: ﴿لَوْ أَنزَلْنَا هَذَا ٱلْقُرْآنَ عَلَىٰ جَبَلٍ لرَأَيْتَهُ خَاشِعاً مُتَصَدِّعاً مِّنْ خَشْيَةِ ٱللَّهِ﴾[2].

وقال النبي عليه الصلاة والسلام: «الإحسان أن تعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك»[3].

وقال الله تعالى: ﴿شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُ لاَ إِلَـٰهَ إِلاَّ هُوَ﴾[4]. فهذا هو علمه بنفسه: ﴿وَٱلْمَلاَئِكَةُ وَأُوْلُواْ ٱلْعِلْمِ قَآئِماً بِٱلْقِسْطِ﴾[4]. أي شهدته الملائكة وأولو العلم قائماً بالقسط وشهدت قيامه بالملك كله يعطي كل شيء من الملك قسطه وحظه من كل شيء.

فهذا مقام منها هذه الصفات قائمة بالأفعال وموجدة لها على الدوام.

والأفعال حجب/ الصفات كما قال ابن عباس: حجب الذات بالصفات، وحجب الصفات بالأفعال. [٠]

وكما أنه لا يتجلى لشيء إلاّ خشع له كذلك لا يتجلى لقلب عبد مختص إلاّ أحبه ذلك العبد ضرورة لا يقدر على الامتناع من حبه على قدر الإحسان إليه بالتجلي يكون الحب وعلى قدر الحب يكون الاستغراق في مشاهدة الموصوف بالأسماء الحسنى الصادر عنها كل حسن وجمال والموصوف هو الذات والحقيقة.

فصـــل

اعلم أن الخلق على سبع مقامات في مشاهدة التوحيد: العامة في أول تلك المقامات وأدناها، والخاصة في أعلاها، والناس فيما بين ذلك على قدر قربهم وكل أحد من الخلق إذا تفهم هذه المقامات المذكورة ميز مقامه منها وحيث هو من جملتها.

---

(١) زيادة للفصل بين الآيات والأحاديث.

(٢) سورة الحشر (الآية: ٢١).

(٣) أطرافه عند: البخاري في الصحيح (٦/ ١٤٤)، البيهقي في السنن الكبرى (١٠/ ٢٠٣)، ابن خزيمة في الجامع الصحيح (٢٢٤٤)، ابن حجر في الفتح (٨/ ٥١٣).

(٤) سورة آل عمران (الآية: ١٨).

فأصحاب المقام الأول: هم الذين عقدوا قُلوبَهُم على التوحيد ولم ينشغلوا بالبحث وصدقوا بما قد سمعوا وهم الجم الغفير وجلهم وخوفهم على قدر ما سمعوا من أسمائه وذكر لهم من وعده ووعيده.

وأصحاب المقام الثاني: هم الذين سمعوا مثل ما سمع أهل المقام الأول وصدقوا بما صدقوا به وزادوا عليهم بالبحث والنظر في المخلوقات واستدلوا بالموجودات على الموجد وأكثر أهل علم الكلام في هذا المقام ومثلهم مثل قول القائل: ما رأيت شيئاً إلاّ رأيت الله بعده.

أي رأى الشيء فاستدل به على مو-حده.

وأصحاب المقام الثالث: ترقوا عن رؤية الموجودات إلى رؤية الإيجاد وعن مشاهدة المصنوع إلى مشاهدة الصنع فإن الأشياء كلها لَمَّا خلقها الباري عز وجل وكملت صورة الموجودات/ [٤٠/ ب] لم يكن لها قيام بأنفسها فهي مفتقرة إلى دوام الإيجاد على الدوام، ولو تخلى عنها الإيجاد طرفة عين لتلاشى: ﴿وَتَرَى ٱلْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ ٱلسَّحَابِ صُنْعَ ٱللَّهِ ٱلَّذِيٓ أَتْقَنَ كُلَّ شَيْءٍ﴾[1].

فنبّه على الإيجاد القائم بالموجودات بقوله: ﴿صُنْعَ ٱللَّهِ﴾[1].

ولم يقل مصنوع الله وأكثر الناس يدعي فهم الإيجاد وهم عن فهمه بمعزل.

فكيف بما فوقه من المقامات؟ وهؤلاء هم أهل المراقبة ومثل أهل هذا المقام مثل قول القائل: ما رأيت شيئاً إلاّ رأيت الله معه. ﴿وَهُوَ مَعَكُمْ﴾[2] بالإيجاد ﴿أَيْنَمَا كُنتُمْ﴾[2] لأنه لا يحرك في الوجود حركة إلاّ وهو يحركها.

وأصحاب المقام الرابع: هم الذين ازدادت مراقبتهم وقويت مشاهدتهم فرأوا الأشياء الله ونظروا به إليها ومثلهم مثل قول القائل: ما رأيت شيئاً إلاّ رأيت الله قبله.

وفيهم قال بعض العارفين: أثبت الله للعامة المخلوق فأثبتوا به الخالق.

وأثبت للخاصّة نفسه فأثبتوا به المخلوق.

وهم أهل الجمع جمع الحق هممهم فشاهدوا الملك كله فعلاً واحداً قام به الواحد

---

(١) سورة النمل (الآية: ٨٨).

(٢) سورة الحديد (الآية: ٤).

فرأوا الحادثات كلها بالله. وهؤلاء كلهم ـ أعني أهل المقامات الأربعة ـ وإن اختلفت أحوالهم فهم مع الأفعال يشاهدها كل واحد منهم على ما قُسم له من العطاء.

وأما أهل المقام الخامس، والسادس، والسابع: فغائبون عن الفعل كله وعندهم يوجد مقام التوحيد الذي ذكرت لك في أول هذا الباب ولا يكون ذلك إلا بعد مقام المحبة والاستغراق في ذلك المحبوب.

والطريق إلى ذلك تصفية/ القلب من المحبوبات سواه، وجلاله بالذكر الدائم والإقبال [٤١/] اللازم حتى يعود كالمرآة شافية من الصدأ فعند ذلك يتجلى المحبوب إلى قلب المحب: «لم تسعني أرضي ولا سمائي ووسعني قلب عبدي المؤمن»[١].

فيشاهد محبوبه على ما هو عليه فمنهم من لا يطيقه فيطلب الرجوع إلى الأفعال ليسكن عنه عظيم ما ورد عليه وهذا التوحيد هو توحيد الرب نفسه بنفسه عن عبده بإشهاد العبد، لذلك أشهده أن الرب ينوب عنه منابه في توحيده لأن هذا لا يُنال إلا بحكم الفضل لكن بقي من العبد فضلة فلذلك لم يطق حمله.

ومن هذا المقام قوله عليه الصلاة والسلام: «حركيني يا عائشة».

وقول الله تعالى: ﴿وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَا مُوسَىٰ﴾[٢].

شغله بذكر العصا لئلا ينقطع عنه شهادة عظيم ما ورد عليه.

وقال بعضهم: دخلت على الشِّبلي[٣] وهو ينتف اللحم من حاجبيه بمنقاش فسألته فقال: الحقيقة بادية إليّ ولا أطيقه فهو ذا أدخل الألم على نفسي فلعلي أحس به فيستتر عني فلست أجد الألم وليس يستتر عني وليس لي به طاقة[٤].

---

(١) أورده ابن الجوزي في تذكرة الموضوعات (٣٠). (٢) سورة طه (الآية: ١٧).

(٣) سبق ترجمة الشِّبلي وهو دلف بن جعفر.

(٤) سبق أن بيّنا في ترجمة الشِّبلي أن الذهبي قال في سير أعلام النبلاء (١٥/ ٣٦٧) بعد أن أثنى عليه: لكن كان يحصل له جفاف دماغ وسُكْر فيقول أشياء يعتذر عنه فيها باء لا تكون قدوة [والباء هو: الكِبَر] قلت: أحسب أن مثل هذا الفعل منها أيضاً فلا يصح أن يستدل بهذا على الصلاح أو فعل الخير والصواب، وفي ما ورد في الآيات والأحاديث الصحيحة غُنية عن مثل هذه الأقوال والأفعال التي لا توافق الشرع أو العقل حيث إن أجسامنا وأعراضنا وأبشارنا علينا حرام أن نؤذيها بمثل ما لا يليق أن يكون قربى لله سبحانه وقد قال لنا في كتابه: ﴿مَا يَفْعَلُ ٱللَّهُ بِعَذَابِكُمْ إِن شَكَرْتُمْ وَآمَنتُمْ﴾ (النساء: ١٤٧) فالله نسأل لنا ولسائر المسلمين حسن الاتباع والبعد عن الابتداع كما نسأله سبحانه وتعالى حسن الختام بالموت على دين الإسلام. آمين. آمين.

وهذه الحالة وإن علت فإنه مع نفسه وإنما كان هذا القلق من أجل ما بقي عليه من مشاهدة نفسه لأن الحق سبحانه لا يطيقه شيء ولا يقوم له فإن سلب الحق هذا العبد عن مشاهدة نفسه زال عنه الإحساس بنفسه وحصل في المقام السادس ولم يشاهد إلا الحق سبحانه وزال عنه ثقل ما كان يجد في المقام الخامس لأنه فيه محمول.

[٤١/ ب] وقد ذكر النبي ﷺ هذا المقام في بعض مقام الإسراء حيث قال: «لم أر عند رؤية/ ربي أحداً من خلقه ووقع الطربُ والاستبشار فيّ وجعلت أنتفض وأميل كما يميل القنديل فمكثت عنده ما شاء الله». ثم ذكر كلاماً كثيراً اختصرته حتى ردّه على جبريل عليه السلام.

وفي هذا المقام قال الصديق رضي الله عنه: من ذاق شيئاً من خالص محبة الله ألهاه ذلك عما سواه.

وهذا توحيد الرب بنفسه عن عبده لكن حمله الباري في ذلك حملاً وغيبه عن مشاهدة نفسه فلذلك زال القلق الذي كان في المقام الأول الذي قبل هذا ولم يبق إلاّ المشاهدة للباري فقط فإن سلبه الرب سبحانه عن مشاهدته لربه وعن مشاهدته لمشاهدته لم يكن للعبد ولا للمشاهدة أثر ولا خبر وبقي الرب سبحانه كما لم يزل وهذا توحيد الرب نفسه بنفسه لنفسه بغيبه عنه وعن نفسه ما شاء ثم يرده بالأحوال السنية والمقامات العلية ويفهمه بعد ذلك معنى توحيد هذا المقام.

وقد أشار المشايخ من أهل المعرفة إلى هذا المقام في عبارات كثيرة.

فقال ابن عطاء: حقيقة التوحيد نسيان التوحيد وهو أن يكون القائم به واحداً.

وقال الشّبلي: ما شم الرائحة للتوحيد من تصور عنده التوحيد.

وسُئل الجنيد[1] رحمه الله عن التوحيد فقال: معنى تضحمل فيه الرسوم وتندرج فيه العلوم ويكون الله كما لم يزل.

وقال أبو سعيد الخراز[2]: المقام الذي لا بعده مقام إلا الزيادة منه إن شاء الله.

(١) سبق أن ترجمت للجنيد بن محمد بن الجنيد.

(٢) هو أبو سعيد أحمد بن عيسى البغدادي الخرّاز شيخ الصوفية المتوفى سنة (٢٨٦). قال الذهبي في سير الأعلام (١٣/ ٤١٩): قال السلمي: هو إمام القوم في كل فن من علومهم له في مبادىء أمر عجائب وكرامات وهو أحسن القوم كلاماً خلا الجنيد فإنه الإمام. قال القشيري: صحب ذا النون والسَّري والنّباجي وبشراً الحافي. قال: ومن كلامه: كل باطن يخالفه ظاهر فهو باطل. وانظر ترجمته في: تاريخ بغداد (٤/ ٢٧٦)، طبقات الصوفية (٢٢٨)، حلية الأولياء (١٠/ ٢٤٦)، البداية والنهاية (١١/ ٥٨)، طبقات الأولياء (٤٠)، شذرات الذهب (٢/ ١٩٢).

نسيان العبد حظه من الله ونسيان حاجته إليه اقتطعه قرب الله عن الله بلا وجود كينونة مع امتلاءٍ مما وجد من الله فلم يجد مدخلاً/ بينه وبين الله فاستلبه الهجوم على الله عن وجود الله فسقط وبقي الله كما لم يزل. [٤٢/ أ]

وهذا المعنى في قوله عليه الصلاة والسلام: «حجابه النور لو كشفه لأحرقت سبحات وجهه ما أدركه بصره من خلقه»[١].

فعلى قدر كشف الحجاب يكون احتراق المحب بنيران محبة تجلي المحبوب الذي ليس كمثله شيء.

وأهل هذه المقامات الثلاثة مختصون ومقربون ومنهم من تعتريه هذه الأحوال مرة في العمر أو مرة في الشهر أو مرة في السنة، ومرة في الشهور، ومرة في الجمعة، ومرة في اليوم أو أقل أو أكثر على قدر تقريب الله له وهم الذين: ﴿لَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ﴾[٢]. قال سهل: ﴿لَا تَعْلَمُ نَفْسٌ﴾ من غير نفوسهم المرحومة[٣] ﴿مَا أُخْفِيَ لَهُمْ مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ﴾[٢] هداهم في الدنيا[٣] فـ ﴿طُوبَىٰ لَهُمْ وَحُسْنُ مَـَٔابٍ﴾[٤].

نفعنا الله بذكرهم ورزقنا مما رزقهم بمنّه وفضله إنه على كل شيء قدير.

فإن قلت: كيف لم تظهر هذه الأحوال على الصحابة رضي الله عنهم؟

فاعلم أنك غافل أعمى عن أحوال الصحابة رضي الله عنهم.

بل أحوال الصحابة ومقاماتهم أعظم وكلّ ما ذكر عندهم موجود لكنهم أقوى من غيرهم وأمكن في الأحوال[٥]. ألا ترى إلى قول أبي بكر رضي الله عنه: من ذاق شيئاً من خالص محبة الله تعالى ألهاه ذلك عما سواه.

---

(١) أطرافه عند: أبي عوانة في المسند (١/ ١٤٦)، ابن حجر في الفتح (١٣/ ٣٧٤)، ابن الجوزي في تذكرة الموضوعات (١٢)، الزبيدي في إتحاف السادة المتقين (٢/ ٧٢).

(٢) سورة السجدة (الآية: ١٧).

(٣) هذا تخصيص بغير دليل وفي غير محله.

(٤) سورة الرعد (الآية: ٢٩).

(٥) المسلمون مطالبون بأن يشهدوا بما علموا لقوله تعالى: ﴿وَمَا شَهِدْنَآ إِلَّا بِمَا عَلِمْنَا﴾ [يوسف: ٨١] وما علمنا عن أحد منهم غير ما وصل إلينا من أخبارهم الصحيحة ولا يصلح حال هذه الأمة إلاّ بما صلح به أولها، ونسأل الله الهداية وحسن الختام.

فتأمل هذه الكلمة من الصديق تجد المقامات المتقدمة كلها فيه.

وكذلك إذا تأملت بذلهم نفوسهم واطراحها بين يدي الله في الحروب وقتالهم القريب والبعيد في الله تعالى يدلك ذلك على امتلاء بواطنهم بحب الله ومشاهدته.

[٤٢/ ب] وكذلك بذل أموالهم وخروجهم من ديارهم وصبرهم على الجهد الذي لا/ يقدر غيرهم عليه.

ليس ذلك إلاّ عن أمر عظيم ملكوا البواطن وصرفوها على حكم محبة الله.

وانظر كيف يخبر الله عن أسرارهم في كتابه فإن القرآن إنما نزل بالثناء عليهم.

فانظر إلى وصفه لباطن علي رضي الله عنه وزوجته فاطمة وابنيه الحسن والحسين على جميعهم السلام وإخباره عن سرائرهم في: ﴿هَلْ أَتَى عَلَى ٱلْإِنْسَانِ﴾[١]: ﴿وَيُطْعِمُونَ ٱلطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ مِسْكِيناً وَيَتِيماً وَأَسِيراً * إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ ٱللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنكُمْ جَزَآءً وَلَا شُكُوراً﴾[١].

وإن تفهمت هذه الآية حقيقة الفهم علمت ما ذكرت لك وأن بواطنهم مملوءة مشحونة بالذخائر النفيسة والهمم العالية الزكية وأن مرادهم النظر الذي هو قرة العين.

وكذلك انظر كيف أخبر عن سر أبي بكر رضي الله عنه في سورة ﴿ٱللَّيْلِ إِذَا يَغْشَىٰ﴾[٢] حيث قال: ﴿وَسَيُجَنَّبُهَا ٱلْأَتْقَى * ٱلَّذِي يُؤْتِي مَالَهُۥ يَتَزَكَّىٰ * وَمَا لِأَحَدٍ عِندَهُۥ مِن نِّعْمَةٍ تُجْزَىٰٓ * إِلَّا ٱبْتِغَآءَ وَجْهِ رَبِّهِ ٱلْأَعْلَىٰ﴾[٢].

وارتفاع همته إلى الغاية القصوى.

وكذلك آيات القرآن كلها إنما نزلت في أوصاف الصحابة فمن تفهمها بحقيقة الفهم أشرف في الآيات على ما ذكرناه.

وكذلك ألفاظهم تدل على ذلك إلاّ أنهم كانوا أقوى من غيرهم ملكوا الأحوال ولم تملكهم الأحوال، وغيرهم ملكتهم الأحوال[٣] لضعفهم عن أحوال الصحابة فظهرت عليهم

---

(١) سورة الإنسان (الآية: ١، ٨، ٩) وفي هذه الآيات ردّ عليه لو تدبر رحمنا الله وإياه إذ لم يظهر منها شيء مخالف للعادة.

(٢) سورة الليل (الآية: ١، ١٧ ـ ٢٠).

(٣) ليس ثَمَّ دليل.

الأحوال لأن قوتهم رضي الله عنهم من قوة النبي عليه الصلاة والسلام، الذي هو أقوى الأقوياء لأنه مثل من يصحب الإنسان يكون.

وكذلك نبينا عليه الصلاة والسلام كلّ ما شاهده ليلة الإسراء من عجائب أمر الله ومن حقائق/ كلها متعلقة بالله ومراده كله للّه. [٤٣/ أ]

وهؤلاء خصوص جميع عباد الله وهم المقربون من الله وأهل محبة الله والشوق إليه والأنس به والرضى به وعنه إلى غير ذلك من مقامات اليقين وثمرات الإيمان والإسلام.

وقد ذكر الله هذه المقامات الثلاثة في آية من كتابه فقال: ﴿لَيْسَ عَلَى ٱلَّذِينَ آمَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّالِحَاتِ جُنَاحٌ فِيمَا طَعِمُوٓا۟ إِذَا مَا ٱتَّقَوا۟ وَّآمَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّالِحَاتِ﴾[1].

وهذا هو المقام الأول، ذكر فيه الأعمال التي هي للجسد: ﴿ثُمَّ ٱتَّقَوا۟ وَّآمَنُوا۟﴾[1].

وهذا هو المقام الثاني لم يذكر فيه الأعمال: ﴿ثُمَّ ٱتَّقَوا۟ وَّأَحْسَنُوا۟﴾[1].

هذا هو المقام الثالث ذكر فيه الإحسان: ﴿وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾[1].

فهؤلاء هم المحبون وأولياؤه المقربون.

ونص الحديث الجامع لهذه المقامات المذكورة هو ما رويناه في صحيح الحديث مسنداً عن عبد الله بن عمر عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال: بينما نحن عند رسول الله ﷺ ذات يوم إذ طلع علينا رجل شديد بياض الثياب شديد سواد الشعر لا يرى عليه أثر السفر ولا يعرفه منا أحد حتى جلس إلى النبي ﷺ فأسند ركبته إلى ركبته ووضع كفه على فخذه فقال: يا محمد أخبرني عن الإسلام؟ فقال رسول الله ﷺ: «الإسلام أن تشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله، وتقيم الصلاة، وتؤتي الزكاة، وتصوم رمضان، وتحج البيت إن استطعت إليه سبيلاً».

قال: صدقت. فعجبنا له يسأله ويصدقه. قال: فأخبرني عن الإيمان؟ قال: «أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله/ واليوم الآخر، وتؤمن بالقدر خيره وشره». [٤٣/ ب]

قال: صدقت. قال: فأخبرني عن الإحسان؟ قال: «أن تعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك».

قال: فأخبرني عن الساعة؟ قال: «ما المسؤول عنها بأعلم من السائل».

---

(١) سورة المائدة (الآية: ٩٣).

قال: فأخبرني عن أماراتها؟ قال: «أن تلد الأمة ربتها، وأن ترى الحفاة العراة رعاة الشاة يتطاولون في البنيان».

قال: ثم انطلق فلبث ملياً ثم قال رسول الله ﷺ: «يا عمر أتدري من السائل؟».

قال: قلت: الله ورسوله أعلم. قال: «فإنه جبريل أتاكم يعلمكم أمر دينكم».

ففي هذا الحديث معاني الدين كلها مجملة قال فيه: «يعلمكم أمر دينكم»[1].

وأمور الدين لا تخرج عن هذه المقامات الثلاثة المذكورة في الحديث.

وقد بيّن النبي عليه الصلاة والسلام ما أجمل في هذا الحديث بحديث آخر في قوله: «الإيمان بضع وسبعون شعبة»[2].

وكل شعبة من شعبه تشتمل على أبواب وفصول من العلم لا نهاية لها ولا غاية لأنه عليه الصلاة والسلام أوتي جوامع الكلم واختصرت له الحكمة اختصاراً.

وأنا أبين إن شاء الله معاني هذه الشعب على قدر ما يسر الله ونسأل الله أن يعصمنا جميعاً من الزلل في جميع الأمور آمين وصلى الله على محمد وعلى آله وسلم تسليماً.

---

(١) أطرافه عند: مسلم في الصحيح (الإيمان: ١)، أبي داود في السنن (٤٦٩٥)، البيهقي في السنن الكبرى (٤/ ٣٢٥)، ابن خزيمة في الصحيح (١/ ٣٠٦٥)، الدارقطني في السنن (١/ ٩٥)، الزبيدي في الإتحاف (١٠/ ٩٥)، السيوطي في الدر المنثور (١٠/ ٢١٠).

(٢) أطرافه عند: مسلم في الصحيح (الإيمان ٥٨)، البخاري في التاريخ (٥/ ١٨١)، الترمذي في الجامع (٢٦١٤)، أحمد في المسند (٢/ ٤١٤)، أبي نعيم في الحلية (٦/ ١٤٧)، الألباني في الصحيحة (١٧٦٩)، الخطيب في التاريخ (٤/ ١١٥).

فصـــل

أول ذلك مقام الإسلام وهو مقام عظيم وحال شريف من تحقق به في الدنيا فحاله حال أهل الجنة في العقبى ومعناه الانقياد للأوامر وترك الاستعصاء لها والإمساك عن إذاية من دخل الإسلام ونفع أهل الإسلام في جميع المخلوقات وهو دار السلام سبحانه من دخله من جميع المخلوقات فقد سلم/ من الإذاية كلها. [٤٥/ أ]

وهذه الدار قد سكنها كل من دخل في ملك الله سبحانه. قال الله تعالى: ﴿وَلَهُۥٓ أَسْلَمَ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾[(١)].

وهو موجود عن معنى اسمه السلام وما في معناه من أسمائه تعالى.

وبناء هذه الدار على الإقرار بالشهادة والصلاة والزكاة والصوم والحج.

هذه دعائمه التي قام بناؤه عليها كما قال عليه الصلاة والسلام: «بني الإسلام على خمس»[(٢)].

وما بقي من شعب الإيمان يجري مجرى تحسين البناء وتكميله. مصداق ما تقدم الحديث المشهور عن جابر قال: خرج علينا رسول الله ﷺ يوماً فقال: «إني رأيت في المنام كأن جبريل عند رأسي وميكائيل عند رجلي يقول أحدهما لصاحبه اضرب له مثلاً. فقال: اسمع سمع أذنك واعقل عقل قلبك إنما مثلك ومثل أمتك كمثل ملك اتخذ داراً ثم بنى فيها بيتاً ثم جعل فيها مائدة ثم بعث رسولاً يدعو الناس إلى طعامه فمنهم من أجاب الرسول

---

(١) سورة آل عمران (الآية: ٨٣).

(٢) أطرافه عند: البخاري في الصحيح (١/ ٩)، مسلم في الصحيح (الإيمان ٢، ٢٠)، الترمذي في الجامع (٢٦٠٩)، أحمد في المسند (٢/ ٢٦)، البيهقي في السنن الكبرى (١/ ٣٥٨)، ابن خزيمة في الصحيح (٣٠٨، ٣٠٩).

ومنهم من عصاه، فالله هو الملك، والدار الإسلام، وأنت يا محمد رسول الملك من أجابك دخل الإسلام ومن دخل الإسلام دخل الجنة ومن دخل الجنة أكل ما فيها»[(١)].

وكل من أسلم فقد سلم في نفسه وسلم منه غيره من كل من دخل دين الإسلام وسكن دار السلام وأحبه جميع الخلق من المسلمين.

ومن كان بضد هذا الوصف فقد آذى نفسه وآذى الخلق أجمع بقدر كفره وعصيانه فوجبت إذايته وطرده: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ لَعَنَهُمُ ٱللَّهُ﴾[(٢)].

إلى آخر المعنى.

[٤٥/ ب] فهذا المقام الأول من المقامات الثلاثة ظاهر لأنه عبادة الأجسام الظاهرة/ وشعبه مفترقة على جوارح الجسد والكل متعاون بعضه مع بعض فمن شعبه ما فرض على اللسان مثل الإقرار والتلاوة والذكر والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وغير ذلك من طاعات اللسان، وترك ضد الطاعات التي نهى اللسان عنها من شهادة الزور وغير ذلك من معاصيه.

وهكذا اليد والعين والرجل وجميع الجوارح كلها وجميع أعضاء الجسد.

---

(١) أطرافه عند: الترمذي في الجامع (٢٨٦٠)، الحاكم في المستدرك (٤/ ٣٩٣)، ابن حجر في الفتح (١٣/ ٢٥٥)، ابن كثير في التفسير (٤/ ١٩٨)، البيهقي في دلائل النبوة (١/ ٣٧٠)، الطبري في التفسير (١١/ ٧٣)، السيوطي في الدر المنثور (٢/ ٣٠٤).

(٢) سورة الأحزاب (الآية: ٥٧).

فصـــل
الشعبة الأولى: شهادة أن لا إلّه إلاّ الله

فأول شعب الإيمان ظاهرة قول: لا إله إلا الله محمد رسول الله، ودليل ذلك الحديث الذي رواه أبو داود بإسناده، وذُكر أيضاً في الصحيح عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «الإيمان بضع وسبعون شعبة أفضلها قول لا إله إلاّ الله، وأدناها إماطة الأذى من الطريق»(١).

وقوله: «أُمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا لا إله إلاّ الله محمد رسول الله»(٢).

فمن قالها بلسانه فقد سلم من السيف والقتل وكانت حرمة الإسلام والمسلمين ظاهراً في مقام الإسلام.

فإن أسلم قلبه كما أسلم لسانه فقد سلم من عذاب الآخرة كما سلم من عذاب الدنيا وهو على ثلاثة مقامات:

المقام الأول: إقرار اللسان بالشهادة ظاهراً وانقياد الجسد لأمور الإسلام والمسلمين.

والمقام الثاني: انقياد النفس لقبول الإسلام وترك النفور والإباءة عنه باطناً وإلاّ كان صاحب النطق به منافقاً وباطناً بخلاف ما ينطق به لسانه.

والمقام الثالث: استسلام الروح والقلب للذي فطر السماوات والأرض كما قال: ﴿وَمَن يُسْلِمْ وَجْهَهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَقَدِ ٱسْتَمْسَكَ/ بِٱلْعُرْوَةِ ٱلْوُثْقَىٰ﴾(٣). [٤٦/ أ]

---

(١) سبق تخريج الحديث قبل قليل وعليه مدار الكتاب وهو في صحيح مسلم (كتاب الإيمان ص ٥٨).

(٢) أطرافه عند: البخاري في الصحيح (١/ ١٣)، (٩/ ١٣٨)، مسلم في الصحيح (الإيمان ٣٤)، النسائي في المجتبى (٥/ ١٤)، الترمذي في الجامع (٢٦٠)، ابن ماجه في السنن (٧١)، أحمد في المسند (٢/ ٣٤٥)، الدارمي في السنن (٢/ ٢١٨)، البيهقي في السنن الكبرى (١/ ٨٤).

(٣) سورة لقمان (الآية: ٢٢).

فيكون إسلامه طوعاً ولا يكون كرهاً كما قال تعالى: ﴿وَلَهُ أَسْلَمَ مَنْ فِي ٱلسَّمَاوَاتِ وَٱلأَرْضِ طَوْعاً وَكَرْهاً﴾(١).

وهو تفويض الجملة إلى الله وإسلام الأمور إليه والتبري عن الدعوى والحول والقوة في شيء من الأشياء إلى الله جل جلاله ورؤية الملك كله بجميع حركاته وسكناته لله فيكون شاهداً معنى لا إله إلا الله على الحقيقة ويؤدي الشهادة فيكون شاهداً من الشهداء كما قال: ﴿وَٱشْهَدْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾(٢).

ويشهد بلسانه وقلبه وسره ويؤدّي الشهادة عند جميع المخلوقات بلا إله إلاّ الله فيكون من الذين قال الله فيهم: ﴿شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُ لاَ إِلَـٰهَ إِلاَّ هُوَ وَٱلْمَلاَئِكَةُ وَأُوْلُواْ ٱلْعِلْمِ﴾(٣).

وهذه الشعبة قد تقدم الكلام عليها فيما تقدم من الكلام في معنى الوحدانية لكن ظاهر معناها الذي يلزم الخلق كلهم في فرض التوحيد العلم به في هذا الموضع ينقسم قسمين.

القسم الأول: أن تعلم أن الملك كله ليس له إلاّ الله وحده وملك واحد ليس باثنين ولا ثلاثة ولا أكثر.

والقسم الثاني: أن تعلم أنه ليس من مخلوقاته وممالكه إلّهٌ ولا ولد ولا من يستحق الإلّهية.

فأما القسم الأول: وهو امتناع الإلـٰهين أو أكثر فبرهانه من القرآن قوله: ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَآ آلِهَةٌ إِلاَّ ٱللَّهُ لَفَسَدَتَا﴾(٤).

فإن «لو» حرف يدل على امتناع وجود الشيء لامتناع وجود غيره فالفساد إذاً يمتنع وجوده في الملك لامتناع وجود الاثنين أو أكثر لأنه لو كان إلـٰهين لعلم بالضرورة أنهما غيران وإذا كانا غيرين فقد انحاز كل واحد من صاحبه وامتاز منه وصار في حيز غير حيز الآخر، وإذا انحاز فقد اتخذا بجهتين/ بالضرورة ودليله من القرآن ﴿وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَـٰهٍ إِذاً لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَـٰهٍ بِمَا خَلَقَ﴾(٥). [٤٦/ ب]

معنى «ذَهَبَ كُلُّ إِلَـٰهٍ بِمَا خَلَقَ»(١) أي انحاز كل واحد بملكه وصار في جهة وفي ذلك هلاك الإلـٰهين أو الآلهة وهلاك الملكين أو المماليك لأنه قد صار كل واحد في محل يحله وصار المحل حاملاً له وكان معتمداً على المحل مفتقراً لأن يحمل وجوده لأن الجهة أوجبت

(١) سورة آل عمران (الآية: ٨٣).
(٢) سورة آل عمران (الآية: ٥٢).
(٣) آل عمران (الآية: ١٨).
(٤) سورة الأنبياء (الآية: ٢٢).
(٥) سورة المؤمنون (الآية: ٩١).

له ذلك وكذلك المحل الحامل له مفتقر وجوده أيضاً إلى حامل آخر لأنه في جهة هكذا يتسلسل فإن لم يوجد حامل في غير جهة تدكدك الكل وانعدم لأن المحل الذي ينقطع فيه التسلسل ليس بعده إلاّ الفراغ من المحل وذلك الفراغ هو عدم الكل المحل والحامل فإذا عدم الحامل فسد الكل في دفعة واحدة.

وهذا يلزم الإله الثاني والثالث ولو كانوا مائة ألف أو أكثر لأن الجهات محيطة بكل محدود والواحد بالحقيقة هو الذي لا يحويه حيز ولا يحمله محل لأنه إذا لزم الجهة أخذته القسمة وإذا أخذته القسمة ظهر فيه التأليف وإذا ظهر فيه التأليف فليس بواحد ولزمه الفساد والتلاشي كما تقدم ولو كان ذلك لم يوجد فعل ولا فاعل وقد ظهرت الأفعال ووجدت بالضرورة.

فقد تبين أن الإله واحد لا يحويه مكان وأنه لا إله غيره.

وأما القسم الثاني: اللازم فرضه لجميع الخلق أيضاً وهو أن يعلم أنه ليس من مخلوقاته وممالكه إله ولا ولد ولا من يستحق شيئاً من الربوبية والإلاهية ففي الجهل هلك أكثر الخلق فإن المخلوقات كلها قد عبدت من دون الله.

أول ذلك الأرض وهي أقرب/ الموجودات إلينا فإن طائفة قد هلكت في اتخاذ الأصنام من الأحجار وتعظيم البيوت المبنية من التراب لشغفهم بها وتعظيمهم إياها. [٤٧/ أ]

وآخرون عبدوا النبات وهو عالم أرفع من الأرض حتى قد قالت طائفة لمحمد عليه الصلاة والسلام: اجعل لنا ذات أنواط. في مسيره إلى حنين.

وطائفة اتخذت من الأشجار الأصنام فعبدتها.

وطائفة عبدت الحيوان وهو أشرف من النبات مثل البقر والخيل وكل حيوان جميل.

وطائفة عبدت بني آدم واتخذوهم آلهة من دون الله.

وذلك كله قد نطق به القرآن والأحاديث.

وطائفة ارتقت عن هذه الجزئيات إلى العناصر الأربعة وهي: الأرض، والماء، والهواء، والنار.

فهلكوا فيها، وأصنافهم يطول الكلام بذكرهم.

وطائفة ارتقوا إلى الأفلاك فهلكوا بها.

وآخرون بالنجوم والنور والظلمات.

وآخرون ارتقوا عن المحسوسات إلى الملائكة والشياطين فهلكوا في عبادتهم.

وآخرون ارتقوا إلى عالم النفوس والنفس الكلية، ووقف هاهنا قوم من الدهرية فهلكوا.

وطائفة ارتقوا إلى عالم العقل فرأوه أشرف وأعلى من الكل هاهنا فهلكوا.

وآخرون بالخيال والوهم في التخيلات والمتوهمات.

ومطلب الكل الإله والمعبود لأنه قد حصل وثبت بالفطرة أنه لا بد من صانع فقد أجمعوا على الربوبية وإنما اختلفوا في الإله ما هو وأي شيء هو: ﴿وَلَوِ ٱتَّبَعَ ٱلْحَقُّ أَهْوَآءَهُمْ لَفَسَدَتِ ٱلسَّمَاوَاتُ وَٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ﴾(١).

لأنه لو كان شيء مما توهمت هذه الطوائف كلها لم تصح أن تنفذ أوامر الله تعالى في جميع ملكه ولا صح استواؤه/ [٤٧/ ب] على عرشه الجامع لمخلوقاته ولا استيلاؤه عليه لأنه كان يكون كل أحدٍ وجزءٍ قائم بنفسه غني عن غيره وذلك هلاك الكل كما تقدم لأنه إذا قام بنفسه فقد انحاز وامتنع وذلك يؤدي إلى أن العاجز قادر والقادر عاجز وهو محال فلم يبق إلاّ أن يكون الكل مصنوعاً وعبداً لصانعٍ واحدٍ وملكٍ واحدٍ تنفذ أوامره من أعلى وجود العرش إلى تخوم الأرض وعروق النبات والنمل وأقل المخلوقات في جميع الجهات وحينئذ يصح استواؤه على عرشه واستيلاؤه على ملكه فتكون الممالك كلها عبيداً له وداخلة في ربق العبودية ساجدة خاضعة تحت درجة السيادة والملك والربوبية فهي تحت بالذلة والعبودية والملك وهو فوقها بالعلو عليها وبدرجات الملك والسيادة والرفعة وجلالة القدر وعظيم القدرة، وغير ذلك من صفات الكمال والجلال الواجبة للواحد الملك.

وإذا فهمت هذا وقع لك العلم بمعنى الاستواء وفهمت معناه وقد نبّه عليه سبحانه بقوله: ﴿رَفِيعُ ٱلدَّرَجَاتِ ذُو ٱلْعَرْشِ﴾(٢).

فقوله: ﴿رَفِيعُ ٱلدَّرَجَاتِ﴾(٢) هي درجات السيادة والربوبية وجلالة القدر وصفات الكمال التي انفرد بها.

وقوله: ﴿ذُو ٱلْعَرْشِ﴾(٢) أي مالك العرش فالعرش بما فيه مملوك والكل عارف بقدره ساجد تحت الدرجات المتقدمة الذكر التي ليست تشبه فوقية المسافة والجهة.

فإذا خضع الكل له بالعبودية والذلة فقد علا على الكل بالحقيقة والمجاز لأن الباري

---

(١) سورة المؤمنون (الآية: ٧١).
(٢) سورة غافر (الآية: ١٥).

تعالى يوصف بالعلو ولا يوصف بالسفل حقيقة ولا مجازاً، والحقيقة هي فوقية العلو والمجاز فوقية الرتبة ورفعة القدر ولا يوصف/ الباري بالتحت حقيقة ولا مجازاً لأن التحت [٤٨/ أ] الذي هو حقيقة هو تحتية السفل، والتحت الذي هو المجاز هي مواضع القدر وذلة المنزلة.

فإذا فهمت هذا فانف عنه العلو الذي هو حقيقة التمكن والاستقرار والمماسة تكن مصيباً موافقاً للكتاب والسنة وعلى ذلك ورد حديث السوداء حين قال لها: «أين الله»[(١)]؟

قالت: في السماء. فشهد لها بالإيمان.

ولم ترد الاستقرار والارتقاء والتمكن في المكان، وإنما أرادت أنه في العلو وكل ما علا في اللغة فهو سماء والسمو هو العلو والارتفاع وأعلى المخلوقات وأرفعها العرش فقد علا الباري تعالى عليه حقيقة ومجازاً برفعة الدرجات المتقدمة وهو الاستواء كما يقال: استوت الشمس إذا علت في كبد السماء ولم تمل إلى إحدى الجهتين الذي هو الانحطاط عن العلو لأنها إذا زالت عن الاستواء فقد انحطت ساجدة هابطة إلى الغروب، والانحطاط خضوع. وكذلك إذا كانت صاعدة إلى الاستواء فهي أيضاً في سفل عن الاستواء فلم تعل على الكل إلاّ إذا استوت فإذا استوت فقد علت وعلا نورها على جميع بسيط الأرض كلها واستولى على الجميع، فافهم هذه؛ فإنه لا يبقى شيء من الإشكال في معنى الاستواء إن شاء الله.

والحمد لله على التوفيق له.

وإذا فهمت معنى الاستواء وأنه فوق الكل بالمعنى المتقدم فاستواؤه على عرشه إنما هو لتنفيذ أوامره في جميع أجزاء العالم كله وتدبير أمور الملك كله.

وقد نبّه على هذا المعنى بقوله: ﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ﴾[(٢)].

يعني أمر العرش/ والأمر كله ما دق منه وما جل وما ظهر وما بطن فلا يتحرك قليل [٤٨/ ب] ولا كثير ولا يسكن صغير ولا كبير إلاّ هو محركه ومسكنه يشهد بذلك أهل العلم به سبحانه من عروق النمل إلى أعلى وجود العرش متصلة بيد القدرة الأزلية ويؤمن به المؤمنون.

ومن أضاف شيئاً من الأفعال إلى الموجودات لم يفهم الاستواء وظهر له الاعوجاج

---

(١) أطرافه عند: مسلم في الصحيح (المساجد ٣٣)، مالك في الموطأ (٧٧٧)، أبي داود في السنن (٣٢٨٤)، أحمد في المسند (٢/ ٢٩١)، ابن أبي شيبة في المصنف (١١/ ٢٠)، عبد الرزاق في المصنف (١٦٨٥١)، البغوي في شرح السنة (٣/ ٢٣٩)، أبي عوانة في السنة (١/ ١٤٢).

(٢) سورة يونس (الآية: ٣).

والميل في الاستواء وصار معبوده الذي يعبده متوهماً مستحيلاً ومشبهاً ممثلاً.

ولو كان ما توهمه حقاً لتدكدك الكل ولم يوجد إله ولا مألوه كما تقدم لأنه من قال: إن شيئاً تحرك بنفسه دون الله فإن تلك الحركة خارجة عن قدرة الله قد انحازت عنه وإذا كان ذلك فقد حددته وإذا حددته لزمه المكان والجهة وأخذته القسمة وهذا يلزم لكل من يزعم أن الله في جهة أو يعلم الكليات ولا يعلم الجزئيات، أو يتوهمه أو يتخيله على غير ما هو سبحانه عليه.

وقد نبّه النبي ﷺ على نفي ما يستحيل على الله تعالى من نقص المتوهمات والمتخيلات والمحسوسات وما يليق به سبحانه في قوله عليه الصلاة والسلام في بعض الأحاديث: «مهما شككتم في شيء فلا تشكوا بأن ربكم ليس بأعور».

فيه تنبيه على الدجّال وأمر بإثبات صفات الكمال للّه ونفي النقائص عنه فإن العور هو النقص هذا هو الفرض اللازم في التوحيد لكل مخلوق فإنه لا بد من تمييز صفات الخالق من صفات المخلوق.

ونسأل الله العظيم توفيقه وتثبيته في جميع الأحوال إنه ولي التوفيق لا رب غيره ولا معبود سواه.

فصل

/ الشعبة الثانية: الإقرار بأن محمداً رسول الله

[٤٩/ أ]

اعلم أن تمام هذه الشعبة المتقدمة قولك: محمد رسول الله وهو إثبات النبوة والرسالة له لا يتم توحيد عبد إلاّ بها لأنها لا تفترق.

وكل من زعم أن الرسالة يستغنى عنها بالتوحيد فهو كافر حقاً.

قال الله تعالى: ﴿وَيُرِيدُونَ أَن يُفَرِّقُواْ بَيْنَ ٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَيَقُولُونَ نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ وَيُرِيدُونَ أَنْ يَتَّخِذُواْ بَيْنَ ذَٰلِكَ سَبِيلاً * أُوْلَٰئِكَ هُمُ ٱلْكَافِرُونَ حَقّاً﴾(١).

وقد قص الله صورة إبليس في صدر سورة البقرة وأخبر عن كفره وهلاكه الهلاك المؤبد من أجل كفره بخصوصية آدم ونبوته ولم يذكر عنه أنه كفر بالله وإنما كفر بنبوة آدم التي اختص بها.

وهو معنى إبائته عن السجود كما سجدت الملائكة أي خضعت وتواضعت له من أجل علم الأسماء الذي علمه الله وأنبأهم به.

(١) سورة النساء (الآية: ١٥٠، ١٥١).

فسجودهم إنما هو ائتمام به عليه السلام لأنه خليفة الله ولم يكن سجود عبادة: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَأْمُرُ بِٱلْفَحْشَآءِ﴾(١).

وقد نبّه رسول الله ﷺ على هذا المعنى في قوله: «لو جاز أن يسجد أحد لأحد لأمرت المرأة أن تسجد لزوجها»(٢).

فأخبر أنه لا يجوز ذلك.

وكذلك توقير أصحاب الأنبياء والأمم للأنبياء وائتمامهم بهم وتعزيزهم إياهم هو من ذلك السجود كتواضع المتعلم للمعلم.

فالرسالة ركن من أركان التوحيد لا يوجد التوحيد ولا يقبل إلا به قد أوجب الله ذلك على نفسه فالرسول هو باب الله الأعظم لا يُدخل عليه إلاّ منه ولا يوصل إلى الله إلاّ به(٣).

ومن نظر ذلك بحقيقة النظر علم أن الرسالة من التوحيد لا/ يوجد هذا إلاّ منها كما [٤٩/ قال تعالى: ﴿وَإِن تُطِيعُوهُ تَهْتَدُوا۟﴾(٤).

فإن النبي [ﷺ] لم يكن نبياً بنفسه بل بِسِرٍّ أُسرّ إليه دون غيره وذلك السر هو الغيب الذي أُطلعوا عليه وخصوا به دون الغير وعجز غير النبي عن الإتيان به(٥).

والأنبياء بشر مثلنا فلما أتوا بما ليس في طاقة البشر الإتيان به عُلم أنهم خصوا بزيادة خارجة عن مقدور البشر فعلم أنها من الله وحده فوجب الإيمان بهم.

وقد نبهت الأنبياء عليهم السلام على هذا لأممهم حين قالوا لهم: ﴿إِنْ أَنتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا﴾(٦).

فأجابت الرسل بأن قالت: ﴿إِن نَّحْنُ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ وَلَـٰكِنَّ ٱللَّهَ يَمُنُّ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ﴾(٧).

---

(١) سورة الأعراف (الآية: ٢٨).

(٢) بنحو هذا الطرف عند: ابن ماجة في السنن (١٨٥٢)، الحاكم في المستدرك (٤/ ١٧٢)، البغوي في شرح السنة (٩/ ١٥٨).

(٣) بشرط أن لا يتخذ وثناً يعبد كما أمر هو بعدم المبالغة في إطرائه مع أنه لا إيمان بغير الإيمان برسالته ولا طاعة في غير طاعته صلى الله عليه وعلى آله وسلم.

(٤) سورة النور (الآية: ٥٤).

(٥) إن كان يقصد بذلك السر الوحي فنعم.

(٦) سورة إبراهيم (الآية: ١٠).

(٧) سورة إبراهيم (الآية: ١١).

فالمعجزات تثبت النبوات لكل ذي عقل ومن أنكر النبوة فهو منخلع عن غريزة العقل، ولذلك يقولون في الآخرة: ﴿لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ﴾[1] الآية.

فإن النبي إذا جاء وتحدى بالنبوة وهو مثلنا في خلقتنا وطالبناه بالبرهان على ما ادّعاه فأتى بما أعجز الأمة كلها علم أن ذلك بمنزلة خلق السماء والأرض وجميع الأفعال والجواهر التي عجز الخلق عنها.

فإنه لو كلف الخلق أن يخلقوا أرضاً أو ماءاً أو بحراً أو شخصاً أو جوهراً من أعيان الموجودات لعجز الجميع عن ذلك وأقروا أنه لا يقدر على ذلك إلاّ الله وإذا أتى النبي وهو بشر مثلهم بشيء عجز الكل عنه كعجزهم عن خلق أعيان الموجودات علم أن النبوة من الله لا من غيره.

إلاّ لمن كانت غريزته الحمق.

والحمد لله على المنَّة بأنبيائه فإنه لولا الأنبياء لهلكت بواطن الخلق بزلازل الشكوك وعذاب الحيرات، فبهم ثبت اليقين/ [٥٠/ أ] واستراحت البواطن والقلوب عما حلّ بقلب كل مبعود محجوب.

فمن فهم الرسالة والمعجزات أيقن بجميع ما أخبرت به الرسل وتبرهن له ذلك عياناً والحمد لله وصلواته وسلامه على جميع أنبياء الله.

والمُعجز الذي أتت به الأنبياء ينقسم على ضربين:

الضرب الواحد: هو الوحي المنزل عليهم بواسطة الملائكة.

والضرب الثاني: هو خرق العوائد، والآيات، مثل انقلاب العصا حَيّة، وانفلاق البحر، وإحياء الموتى، وتحريك الجبل، وجري الماء من الأصابع، وانشقاق القمر، والإسراء، وغير ذلك مما ليس في طاقة البشر الإتيان به.

وأفضل الناس بعد الأنبياء من ورث منهم الأمرين جميعاً لأن العلماء ورثة الأنبياء فورثوا في مقابلة الوحي، فهم الوحي والإلهام والعلوم وتبيين ما جاءت به الأنبياء من الكتب بما آتاهم الله تبارك وتعالى من تعلم العلم وبما جعل في قلوبهم من الإلهام والفرقان كما قال تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تَتَّقُواْ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّكُمْ فُرْقَانًا﴾[2].

وورثوا في مقابلة المعجزات والآيات الكرامات وخروق العوائد.

---

(١) سورة الملك (الآية: ١١).
(٢) سورة الأنفال (الآية: ٢٩).

فمن ورث هذين المعنيين فهو بمنزلة وارث المال كله وبذلك سموا أبدال[1] النبيين لأنهم بدل منهم.

وغيرهم من العلماء والأمم بمنزلة غير وارث المال كله من الورثة كل يرث بقدر ما قسم له والكل من أفعال الله لا ينال إلا بفضله ومن الباب الذي أمر أن تؤتى منه فلذلك رسمناها في باب التوحيد.

واعلم أن الإيمان بالنبوة على ثلاثة أضرب:

الضرب الأول في مقام الإسلام: وهو الإقرار/ باللسان بتصديقهم والانقياد لهم [٥٠/ ب] بالجوارح واتباعهم على منهاجهم في أمور الشرائع التي شرعوها وأمروا بها.

والضرب الثاني في مقام الإيمان: التصديق بالقلب خالصاً وإلاّ كان الظاهر نفاقاً والاقتداء بأحوالهم ومقامات قلوبهم وبواطنهم لما استطاع العبد.

والضرب الثالث في مقام الإحسان: التعزير: وهو أن ينظر العبد ببصيرة العقل إلى تخصيص الله لهم بوحيه وكلامه وقدرته الصادرة عن صفاته فيرى أنه قد فضلهم على سائر خلقه واختصهم بالقرب منه وجعلهم أمناء على سرائره وغيبه[2] الذي لم يطلع عليه سواهم فيرى أن الله قد رفع أقدارهم وأعلى مراتبهم فوق كل قدرٍ ورتبة فيعزرهم ويوقرهم كما أمر الله تعالى وينظر إليهم كما ينظر إلى الشمس في السماء وأرفع.

قال الله تعالى: ﴿فَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِهِۦ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ﴾[3] الآية. [وقال تعالى][4]: ﴿لِّتُؤْمِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتُعَزِّرُوهُ وَتُوَقِّرُوهُ﴾[5]. [وقال تعالى][4]: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ وَمَلَٰٓئِكَتَهُۥ يُصَلُّونَ عَلَى ٱلنَّبِيِّ﴾[6].

فمن صلى الله عليه وملائكته فقد عظم قدره فوق الغايات ورفع ذكره أرفع الدرجات فوجب أن يلحظ بعين التعظيم كما أمر الله تعالى.

وصلى الله على محمد وعلى آله وسلم تسليماً.

---

(١) يأتي التعليق على موضوع الأبدال في بابه إن شاء الله تعالى.

(٢) بالوحي فقط وكذا الخضر عليه السلام وتلك خصوصية للأنبياء والرسل فقط دون سواهم، مهما علا قدر العبد وارتفعت درجة تقواه.

(٣) سورة الأعراف (الآية: ١٥٧).

(٤) زيادة للفصل بين الآيات.

(٥) سورة الفتح (الآية: ٩).

(٦) سورة الأحزاب (الآية: ٥٦).

الشعبة الثالثة: الغسل من الجنابة

لأن في حديث جبريل في حديث يحيى بن يعمر: ما الإسلام؟ قال: «إقام الصلاة، وإيتاء الزكاة، وصوم رمضان، والاغتسال من الجنابة»[1].

فجعله من الإسلام.

فأما صفة الغسل فمذكورة في كتب الفقه بأكمل ما يحتاج إليه.

[٥١/ أ] وصفته أن يبدأ المغتسل فيزيل/ ما أصابه من الأذى ثم يتوضأ وضوءاً كاملاً أو يترك كغسل رجليه من الوضوء حتى يغتسل إن شاء أو يقتصر على الغسل من الجنابة دون الوضوء إن شاء ثم يبدأ فيسمي الله وينوي رفع الجنابة عنه ويتمضمض ويستنشق ويخلل شعر رأسه ولحيته إن كان، ثم يفيض على رأسه ثلاث غرفات ويغسل الشعر حتى يبل جلد رأسه، ثم يغسل شقه الأيمن ويتدلك مع الماء إلى قدمه اليمنى، ثم يغسل شقه الأيسر إلى قدمه اليسرى، ثم يعم جميع جسده بالماء والتدلك.

وهذا أكمل ما ورد فيه دون أن يسرف في الماء فإن الإسراف من قلة فقه الرجل.

وأما وجه الحكمة فيه فإن الجنابة بُعد وتنحي عن القرب من الطاهر الطيب جل جلاله من قولك للرجل: سر إلى جانب أي إلى ناحية.

وهو فعل حدث تنزه الباري تعالى عنه وسبح نفسه عن قول من نسب ذلك إليه لأنه فعل زوجين لا يقوم إلا باجتماعهما في اليقظة أو النوم.

والرب هو الرب المنفرد الذي لا قرين له فأمر العبد بغسل جميع الجسد وتطهيره ليخف القلب ويطهر من ثقل الجنابة التي هي في نهاية البعد عن أوصاف الواحد الفرد ولا تليق إلاّ بالبشر فإذا تطهر صلح للدخول على الواحد الحق وأن يتلو كلامه ويذكره.

فتطهير الجسد ظاهراً يُطهر القلب من استغراق الشهوة التي غلبته واستغرق فيها وغاب بها عن ذكر الله تعالى.

ومثاله مثال من كان في حضرة ملك من الملوك يذاكره وينظر إليه ويسارع في قضاء حوائج الملك ثم غاب عنه في أغراض/ نفسه فلما أراد العود والدخول عليه فإنه يتأهب [٥١/ ب] للدخول عليه ويتطهر بأكمل ما يقدر عليه من المعاني الأدبية.

---

(١) أطرافه عند: أبي داود في السنن (٤٦٧٧)، أحمد في المسند (١/ ٥٢)، مسند الربيع بن حبيب (٣/ ٥)، السيوطي في الدر المنثور (٢/ ٢٣٧)، جامع مسانيد أبي حنيفة (١/ ١٧٤)، مسند أبي حنيفة (٢).

وكذلك المغتسل ينبغي أن يتذكر مع غسل أعضاء جسده جميع ما وقع فيه مما يبعد عن الله وينوي الاغتسال منها والتنظيف لدخوله على ملك الملوك وجبار الجبابرة فهو أولى.

ألا ترى الجنب كيف منع من قراءة القرآن[1] كما قال تعالى: ﴿لَّا يَمَسُّهُۥٓ إِلَّا ٱلْمُطَهَّرُونَ﴾[2].

وفي الحديث: «الطهور شطر الإيمان»[3].

ولا يكون شطره إلا بأن تفهم حقيقة المعنى فإن الإيمان معنيان:

معنى يقرب من الله ويدخل عليه.

ومعنى يزيل ويطهر ما قطع عن الله أو حجب عنه.

فالطهور من هذا المعنى شطر الإيمان فإذا غسل المغتسل يديه فلينوِ مع غسل يديه بتطهيرهما عن تناول ما أبعده عن الله وتفض يديه عن الأشغال المشغلة عن ربه.

وكذا إذا تمضمض ينو تطهير الفم وتنظيفه من تلويث اللسان بالأقوال الخبيثة ليصلح أن يجري على لسانه وفمه ذكر الله الطاهر المنزه الرفيع الجليل.

وبالاستنشاق والاستنثار إخراج استرواحه روائح محبوباته بالشوق إليها فإن العشاق والمحبين يستروحون روائح محبوباتهم من جهة أفق المحبوب.

وبتخليل شعر الرأس واللحية حلها من أيدي ما يملكها وينكسها من أعلى عليين بالكون مع الله إلى أسفل سافلين، وما يقودها إلى غير الله فإن الناس يقادون إلى جهنم بالنواصي واللحى كما ورد في القرآن والحديث: ﴿يُعْرَفُ ٱلْمُجْرِمُونَ بِسِيمَاهُمْ فَيُؤْخَذُ بِٱلنَّوَاصِي وَٱلْأَقْدَامِ﴾[4].

وفي الحديث في سَوق الناس إلى النار: أما النساء فبالذوائب وأما الرجال/ فباللحى. [٥٢/ أ]

وكذلك الشيطان: يعقد في كل ليلة [illegible] قافية كل عبد يثبطه عن الطاعات ويقوده إلى

---

(١) هناك آراء في مس المصحف على غير وضوء [illegible] جنابة أرجحها جواز ذلك.

(٢) سورة الواقعة (الآية: ٧٩).

(٣) أطرافه عند: مسلم في الصحيح (الطهارة ١)، أحمد في المسند (٥/ ٣٤٢)، الدارمي في السنن (١/ ١٦٧)، البيهقي في السنن الكبرى (١/ ١٠)، أبي عوانة في المسند (١/ ٢٢٣)، البغوي في شرح السنة (١/ ٣١٩).

(٤) سورة الرحمٰن (الآية: ٤١).

المخالفات والهوى والشهوات المرديات وفي ليل الغفلة المنومة في الحياة الدنيا عن التيقظ والانتباه بذكر الموت وذكر الحياة الآخرة.

وينوي عند غسل رأسه زوال الترؤس والرئاسة الموجبة للكِبر الذي لا يليق إلا بالكبير المتعال.

[وينوي عند غسل][(١)] وجهه بغسل تطهيره من التوجه إلى اتباع الهوى وتطهيره من طلب الجاه المذموم وتخشعه لغير الله.

وفيه الأنف إذا مرّ عليه يطهره من الأنفة وترك الانقياد لغير الله.

وكذلك العين من النظر والتطلع إلى المكروهات ومن النظر إلى غير الله بنفع أو ضرّ.

وعند غسل العنق والرقبة فكها من ربقة التعبد للشيطان والهوى أو الشيء دون الله حتى يتحرّر من رق الأشياء كما ورد.

واعلم أنك لا تكون عبداً للّه حقاً حتى تكون مما سوى الله حُرّاً.

وعند غسل جنبه تطهير اتكائه وتوكله على غير الله.

وبغسل وجهه إزالة استعباده لغير الله وظهوره وتطاوله بغير حق.

وبغسل صدره إزالة طلب التصدر في المجالس للهوى ونشر الصيت والذكر بغير حق وإزالة الغل منه والغش.

وبغسل البطن تطهيره من أكل الحرام والشبهة وإزالة الران المتركب على القلب وما اختفى في باطنه من المهلكات.

وبغسل المقعد والفخذين تطهير قعوده وتخلفه عن النهوض إلى ما لا يرضي الله.

وبغسل الساقين والقدمين تطهيرهما إلى المسارعة في ميادين الطاعة المبلغة إلى الفوز.

[٥٢/ ب] وهكذا/ كل عضو في الإنسان فيه معانٍ كثيرة يجب تطهيرها ليصلح الجسد للوقوف بين يدي الطاهر المقدس جل جلاله.

فمن تطهر طهارة حقيقية طهر باطنه بظاهره[(٢)] ووجد طعم الإيمان في حال طهوره في

---

(١) زيادة لاقتضاء السياق لذلك.

(٢) جاءت هذه الكلمة بالأصل مكررة فحذفت التكرار.

مقام الإيمان وحلاوة المغفرة بخروج الذنوب من الجوارح حين الطهارة فيصير باطنه كالمرآة المجلوة بإحسان الله لباطنه فيطرب الروح لتجلي المحسن الحق له في مقام الإحسان.

وهكذا كل طاعة إذا عمل ما ينبغي وجد فيها بركات الإسلام والإحسان.

فقد اندرجت المقامات الثلاثة كلها فيما تقدم من الكلام من هذا الباب إذا تفهمتها فإن طهارة الجسد بالماء إسلام، واعتقاد تطهير القلب والنفس بما يشاكل العضو إيمان، ورؤية التأهب بالطهارة والدخول بها في الصلاة والذكر إحسان لأنه لقاء الطاهر القدوس النزيه الأوصاف البعيد عن الأزواج والحاجات التي توجب الجنابة وغيرها [ولا يكمل التطهير باطناً وظاهراً بغير التوبة والله أعلم](١) فافهم فهمنا الله وإياك.

وصلى الله على محمد وآله وسلم.

الشعبة الرابعة: الوضـوء

هو الطهارة الصغرى من الحدث؛ والغسل المتقدم الذكـر الطهارة الكبرى لأن طهارة الوضوء إنما هي في جوارح الجسد وأطرافه من كل ناحية وذلك تخفيف من الله تعالى وتيسير والحمد لله. فلو كلف العبد الغسـل كلما أحدث لكان تكليف ما لا يطيق إلاّ أن في تطهير أعضاء الجوارح من كل ناحية تطهير جميعه من الحدث الخارج عنه فإنه إذا قدّرته بيديه ورجليه ورأسه كانَ كالدائرة المحيطة.

وفي تطهير خارج الدائرة من كل ناحية تطهير جميعها.فلو ألقيت ضابطاً في وسط بطن الإنسان بعد أن يمد يديه ورجليه وعنقه ثم أدرت الضابط/ وجدته دائرة كما ذكرت لك. [٥٣/ أ]

ومن هذهِ الجوارح المحيطة بالجسد تدخل الذنوب والمخالفات والحدث عن جميع الجسد.

فأما كون الوضوء من شعب الإيمان فقد روى مسلم بن الحجاج بإسناده عن أبي مالك الأشعري قال: قال رسول الله ﷺ: «الطهور شطر الإيمان»(٢). يعني الوضوء.

وفي حديث آخر: «لا تقبل صلاة بغير طهور، ولا صدقة من غلول»(٣).

---

(١) ما بين المعقوفين عبارة من هامش المخطوط ولم يشر سهم إلى مكانها فرأيت أن ذلك هو موضعها وربما كان تعليقاً من الناسخ. والله أعلم.

(٢) سبق تخريج الحديث قبل قليل.

(٣) أطرافه عند: الترمذي في الجامع (١)، أحمد في المسند (٢/ ٣٩)، البيهقي في السنن الكبرى (٢/ ٢٥٥)، ابن أبي شيبة في المصنف (١/ ٥)، الدارقطني في السنن (١/ ٣٥٥)، ابن خزيمة في الصحيح (٩).

وأحسن ما روي في صفته حديث رواه حمران عن عثمان بن عفان رضي الله عنه:

أنه رآه فدعا بإناء فأفرغ على كفيه ثلاثاً فغسلهما ثم أدخل يمينه في الإناء فمضمض واستنشق واستنثر ثم غسل وجهه ثلاثاً ويديه إلى المرفقين ثلاثاً ثم مسح برأسه ثم أذنيه ثم غسل رجليه مراراً إلى الكعبين ثم قال: قال رسول الله ﷺ: «من توضأ نحو وضوئي هذا ثم صلى ركعتين لا يحدث فيهما نفسه غفر له ما تقدم من ذنبه»[١].

فالوضوء الذي هو غسل الجوارح كلها مقام الإسلام، وطهارة الباطن على معنى التوبة من اكتساب الجوارح إيمان وبه يكمل الوضوء.

وأما معنى الوضوء الكامل فأن يكون كما تقدم في الغسل وهو بيّن في الحديث المروي في خروج الخطايا مع قطر الماء في كل عضو، وقد تقدم الكلام عليه في الغسل ونعني من ذلك الحديث الذي نورده إن شاء الله.

روى أبو صالح عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «إذا توضأ العبد المؤمن ـ أو [٥٣/ ب] المسلم ـ فغسل وجهه خرج من وجهه كل خطيئة نظر إليها بعينيه مع الماء ـ/ أو مع آخر قطر الماء ـ فإذا غسل يديه خرجت من يديه كل خطيئة بطشتها يداه مع الماء ـ أو مع آخر قطر الماء ـ فإذا مسح رأسه خرجت الخطايا من أذنيه مع الماء ـ أو مع آخر قطر الماء ـ فإذا غسل رجليه خرجت كل خطيئة مشتها رجلاه مع الماء ـ أو مع آخر قطر الماء ـ حتى يخرج نقياً من الذنوب»[٢].

وورد في الأخبار أن أصل الوضوء من أجل أكل الشجرة التي أكل أبونا آدم عليه السلام[٣].

وأصل الحديث الذي يوجب الوضوء إنما سببه الأكل وما تولد من شهوة الأكل فبقي الأمر على أصله فمتى أحدث الإنسان وجب عليه الوضوء والطهارة من كل ما تولد في

---

(١) أطراف الحديث عند: البخاري في الصحيح (١/ ٥١)، مسلم في الصحيح (الطهارة ٣، ٤)، الدارقطني في السنن (١/ ٨٣)، ابن خزيمة في الصحيح (٣)، النسائي في المجتبى (الطهارة ب ٦٧، ٩٣)، أحمد في المسند (١/ ٥٩)، البيهقي في السنن الكبرى (١/ ٤٨)، الطبراني في الصغير (١/ ٢٦٧)، ابن حجر في الفتح (١/ ٢٥٩)، الزبيدي في إتحاف السادة المتقين (٣/ ٤٨٢).

(٢) أطراف الحديث عند: مسلم في الصحيح (الطهارة ٣٢)، الترمذي في السنن (٣٢)، ابن خزيمة في الصحيح (٤)، البيهقي في السنن الكبرى (١/ ٨١)، أحمد في المسند (٢/ ٣٠٣)، مالك في الموطأ (٣٢).

(٣) هذه زلّة شديدة من الشيخ إذ إن هذا القول يشبه عقيدة النصارى في سيدنا عيسى عليه السلام وما أحسبه إلا غفلة منه عن غير قصد سابق فنسأل الله لنا وله المغفرة برحمته آمين.

الجوارح من المنهيات التي توجب الحساب والعقاب في عالم الإيمان والغيب التي هي الآخرة، فهذا مقام الإيمان.

أما مقام الإحسان والنظر بالعقل الروحاني إلى أوصاف الطاهر الطيب جل جلاله في حين الوضوء فيتذكر حين الوضوء بين يدي من يقف فيتطهر للوقوف بين يديه ويتصف بأوصاف الطاهر النزيه عن الأكل الموجب للحدث الذي كان سبب الوضوء ليصلح للوقوف بين يدي الله نقياً طاهراً فإن سبب أكل الشجرة إنما كان إبليس اللعين.

فوجب تطهير كل ما سرت فيه تلك الأكلة التي كان سببها إبليس لأنه قد تولد من إغوائه القذر النجس[١].

وذكر الله الطيب الطاهر والوقوف بين يديه لا يكون إلا في موضع طاهر وبدن طاهر وثوب طاهر.

كذلك السواك في الفم إنما هو لهذا المعنى لزوال القلح وما في معناه كي يتنظف لذكر الله.

وكل ما أمر العبد به من الاستحداد وتقليم الأظافر وغيره لأن ذلك كله مواطن القذر ومقاعد الشيطان فوجب تطهيرهما وتنظيفهما والدين/ مبني على النظافة. [٥٤]

فإذا فهمت هذه المعاني الظاهرة والباطنة تبين لك كيف يكون الطهور شطر الإيمان إن شاء الله فإن حقيقة الطهارة، الطهارة من الأحداث والأوساخ ظاهراً والمخالفات باطناً حتى يكون متنزهاً عن ضدّ الطهارة فيشابه بعباد السماوات والأرض وغير ذلك من المخلوقات فإنها كلها طاهرة متنزهة عن المخالفات عابدة بتلك الطهارة لبارئها دائماً سرمداً ما دام وجودها باقياً، والحمد لله.

الشعبة الخامسة: الصــلاة

وهي أكبر شعب الإسلام بعد الشهادة للّه وللرسول.

فأما كونها من شعب الإسلام فبيّن في حديث جبريل وغيره من الأحاديث؛ كيف وقد روى جابر عن رسول الله ﷺ أنه قال: «العهد الذي بيننا وبينهم الصلاة فمن تركها فقد كفر»[٢].

---

(١) لا أدري ماذا أقول في مثل هذا القول غير سؤال الله العفو والغفران من هذا القول ومثله فهو تأويل يشبه مع الفارق اعتقاد النصارى.

(٢) أطرافه عند: الترمذي في الجامع الصحيح (٢٦٢١)، ابن ماجة في السنن (١٠٧٩)، البيهقي في السنن =

وصفتها وما تحتاج إليه من أمور كل ذلك مكتوب في كتب الفقه وأقل ما يجزي العبد في فعلها ما رواه أبو هريرة وجماعة من الرواة: أن رسول الله ﷺ دخل المسجد فدخل رجل فصلى ثم جاء فسلم على النبي ﷺ فرد عليه فقال: «ارجع فصل فإنك لم تصل». فصلى ثم جاء فسلم فردّ عليه فقال: «ارجع فصل فإنك لم تصل». فصلى ثم جاء فسلم فردّ عليه فقال: «ارجع فصل فإنك لم تصل». فقال: والذي بعثك بالحق ما أحسن غيره فعلمني. فقال: «إذا قمت إلى الصلاة فكبر ثم اقرأ ما تيسر معك من القرآن ثم اركع حتى تطمئن راكعاً ثم ارفع حتى تعتدل قائماً ثم اسجد حتى تطمئن ساجداً/ ثم ارفع حتى تطمئن جالساً ثم [٥٤/ ب] اسجد حتى تطمئن ساجداً ثم افعل ذلك في صلاتك كلها»[١].

وفي بعض الروايات: «فإذا صنعت ذلك فقد قضيت صلاتك وما نقصت من ذلك فإنما تنقصه من صلاتك»[١].

ومنها فرائض كالصلوات الخمس، وصلاة الجنائز، وفي الآثار: أن اتباع الجنائز من الإيمان.

فهي شعبة من الإيمان ـ أعني اتباع الجنائز ـ لأنها تذكر بالآخرة والوقوف بين يديه والجزاء والثواب[٢] والعقاب لكنّا اختصرنا ذكرها لأنها من جملة الصلوات فلم نفرد لها باباً.

ومنها سنن كصلاة العيدين والاستسقاء والكسوف والوتر وركعتي الفجر.

ومنها فضائل كسائر النوافل.

وتأدية الصلاة وإقامة ركوعها وسجودها وتلاوتها ظاهراً إسلام.

فأما روح الصلاة وفهم معانيها في مقام الإيمان ومقام الإحسان، فإن أولها بعد التطهير والنظافة والدخول على الملك، الانتهاض إلى موضع الصلاة وهي البقعة المقدسة من مسجد

= الكبرى (٣/ ٣٦٦)، أحمد في المسند (٥/ ٣٤٦)، الحاكم في المستدرك (١/ ٦، ٧)، الدارقطني في السنن (٢/ ٥٢)، ابن أبي شيبة في المصنف (١١/ ٣٤)، العجلوني في كشف الخفا (٢/ ٣٣٠).

(١) أطراف الحديث عند: البخاري في الصحيح (١/ ١٩٢)، مسلم في الصحيح (صلاة: ٤٥)، أبي داود في السنن (استفتاح الصلاة ب ٣٣)، الترمذي في الجامع الصحيح (٣٠٣)، النسائي في المجتبى (٣/ ٥٩)، ابن ماجة في السنن (١٠٦٠)، أحمد في المسند (٢/ ٤٣٧)، البيهقي في السنن الكبرى (٢/ ١٥)، الدارقطني في السنن (١/ ٩٦).

(٢) جاء بالهامش تعليق على ذلك هذا نصه: قوله إن اتباع الجنائز من الإيمان فهي شعبة من الإيمان، وبهذا الاعتبار تكون شعبة سادسة. اهـ.

مبني وغير مبني فالمراد بالانتهاض والمشي انتهاض القلب والباطن وسيره ودخوله إلى عالم الملكوت وخروجه عن عالم الدنيا حتى يدخل إلى متعبد الملائكة الذي وجب الإيمان بهم في العالم المقدس الذي ليس فيه ما يشغل عن الصلاة.

ثم القيام إلى الصلاة والمراد قيام القلب إلى أعلى عليين بين يدي الله تعالى.

ثم رفع اليدين والمراد به التخلي من جميع الأشياء بالفقر والفاقة إلى الله تعالى.

ثم إحضار النية، والمراد بها التقرب إلى الله بالصلاة وإخراج ما في القلب سوى من أقبل عليه وذلك إشراف على من توجه إليه وغيبه عن غيره فإذا/ أشرف على المطلوب برفع [٥٥/ أ] الحجب الشاغلة عن القلب وقع له تعظيم المتجلى له وخالطته حرمته واحترامه فحينئذ يحرم بتكبيرة الإحرام لأنه في موضع الاحترام والحرمة فيحرم عليه النظر إلى غيره والاشتغال بسواه فيقول: الله أكبر من أن يقبل على غيره أو يلتفت له من أجل ما عرف من جلالة القدر وعظيم الخطر أخذ في الثناء على الله بالفاتحة فيقول: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ﴾[1] الذي هو على ما هو عليه ﴿رَبِّ ٱلْعَالَمِينَ﴾[1] أي سيد العالمين فتتجلى له صفة السيادة للّه التي استعبد بها العالمين على كثرتهم ويثني عليه بصفاته ويناجيه بكلامه فيفهم من كلامه ومحادثته مع الله بفاتحة الكتاب والسورة ما يوجب له الخضوع بين يديه فيركع لزيادة التعظيم بشهادة أوصاف المتكلم معه، فيقول: الله أكبر منحطاً للركوع أي أكبر مما وقع في نفسي من تعظيمه.

والمراد من ركوع الجسد خضوع النفس والروح في مقام الإيمان والإحسان بين يدي كبرياء الجليل العظيم.

ولذلك أُمر أن يقول في ركوعه: «سبحان ربي العظيم» لما شاهد من معنى التعظيم الذي خضع له فيرفعه الله تعالى بكرمه إلى حالته الأولى التي هرب منها إلى الركوع لأن من تواضع للّه أي لأجل عظمة الله رفعه الله إليه فإذا رفعه إليه شاهد العبد نعمة الله عليه في رفعه فيبتدىء بالحمد والثناء فيقول: «سمع الله لمن حمده ربنا ولك الحمد حمداً كثيراً طيباً مباركاً» فيجد في وقوفه طمأنينة حلاوة المزيد والنعمة التي رفعه الله بها وهي استدعاؤه إلى القيام فخر ساجداً شاكراً/ لما أولاه فيضع وجهه على الأرض ظاهراً ونفسه وروحه تحت [٥٥/ ب] الثرى الذي ليس وراءه في السفل منتهى إلاّ نفوس العارفين والأولياء لأنهم لما هو عليه من الأسماء الحسنى والصفات العُلى شهداء فيضع نفسه تحت كل تحت ولذلك ليس وراء السجود منتهى في التواضع والتكبير مستصحب له ومعناه أي الله أكبر مما شاهدت ووقع في نفسي من تعظيمه وأعلى.

---

(١) سورة الفاتحة (الآية: ٢).

فإذا وضع في السجود نفسه أسفل من كل سفل بالمعنى الذي هو الذل شاهد من سفله علاء ربه فقال: «سبحان ربي الأعلى» فاستدعاه ربه للرفوع والقرب من البعد والمنزل الذي أنزل نفسه في سجوده.

ومعنى التسبيح في الركوع والسجود تنزيه المركوع له والمسجود له من حالة الركوع والسجود أي سبحان من هو بخلاف حالة الركوع والسجود.

فلما استدعاه للرفوع قعد بالعجز بين يديه لأنه لم يطق القيام لما شاهد في السجود من الإجلال والإعظام فقعد بين يديه بالسكينة والعجز وأقر بالعجز له أن يقوم بشيء من حق قدر ربّه ولذلك أمر أن يقول في قعوده بين السجدتين: «رب اغفر وارحم وتجاوز عما تعلم وأنت الأعز الأكرم».

فيجد رحمة الله قد غشيته والمغفرة قد غمرته لأنه تجلى له بوصف زائد على الوصف الأول من أجل أن الرحمة مقرونة بالضعف ومسرعة إلى الاستكانة فزاد سجوداً آخر بحكم وصف آخر فعاد بالتواضع الذي هو المراد من السجود حتى لو وجد أن يضع نفسه في أسفل مما وضعها فيه لوضعها وقد وجد الله مع كل رفع وخفض فإن الواجب على كل عبد أن يضع نفسه من التواضع في خلاف ما هو الله عليه من/ الجلال والعظمة وذلك لا يمكن أبداً إلاّ مع [٥٦/ أ] التجلي وزيادة التعظيم فكلما زاد تجلي الصفات زاد التواضع بقدر ذلك أبداً.

وكذلك لما زاد الإكرام زاد الشكر والثناء والتجلي دائماً أبد الآبدين.

وكذلك التواضع دائم أبد الآبدين والشكر والثناء وجميع ما يليق بتجلي أوصاف الباري، والحمد لله على ما هو عليه.

ثم يدعوه ربه إلى الاقتراب منه وهو معنى القيام إلى الركعة الثانية فيجري له ما جرى له في الأول لكن بحكم الزيادة لأن الصلاة إنما هي ركعة واحدة فيها تمت معاني الصلاة وغير ذلك من الركعات تكرير فلا يزال ذلك دأبه مع مولاه من فهم خطابه وشهود أوصافه في قيامه وانحطاطه ورفوعه وأذكاره وسجوده وجلوسه إلى آخر صلاته حتى يمتلىء ظاهره وباطنه نوراً وبركة ورحمة وسروراً وتواضعاً وحياءً وغير ذلك مما لا يحصى من أحوال المصلين العارفين الخاشعين فعند ذلك يقعد في آخر صلاته فيأخذ في التشهد والشهادة للّه بما هو له أهل والثناء كما يجب وتفرد التحية والملك له والتزكية والتنزيه والمدح لبارئه بقوله: «التحيات للّه الزاكيات للّه الطيبات»[1].

(١) أطرافه عند: البخاري في الصحيح (١/ ٢١١)، مسلم في الصحيح (الصلاة ٥٥)، الترمذي في الجامع الصحيح (٢٨٩)، أبي داود في السنن (٩٧١)، ابن ماجة في السنن (٨٩٩).

وتفرد العبودية له بقوله: «الصلوات لله» ويسلم على أكرم الوسطاء الذي هداه الله به إلى ما هو فيه محمد عليه الصلاة والسلام ثم يقر بكل ما جاء به من عند الله ويصلي عليه.

فإذا فرغ من الإقرار والشهادة بكل ما جاء به محمد عليه الصلاة والسلام من الإيمان من الغيوب والدعاء والسؤال فعند ذلك تمت له النعم بتمام الصلاة وكمالها ووجب التحلل منها بتمامها فأمر بالخروج إلى عالم الحس والملك فعند/ ذلك قال: «السلام عليكم» لأنه [٥٦/ ب] كان في الحضرة العلية خارجاً عن عالم الحس مودعاً له كما قال محمد عليه الصلاة والسلام: «صل صلاة مودع»[1].

أي لأنه خارج عن هذا العالم إلى الحضرة العلية فإذا قدم على هذا العالم وشاهد من حوله من الأملاك والإنس قال: «السلام عليكم» فيسلم على من على يمينه وشماله وحل له ما حرم عليه قبل ذلك، ولذلك قال عليه الصلاة والسلام: «تحريمها التكبير وتحليلها التسليم»[2].

فمن صحت له مثل هذه الصلاة وجبت له الكرامة عليها، ومن اعترضه الوسواس فليجاهد يكتب له أجر المجاهد إذا فاتته معية الإحسان ومن اقتطعته الغفلات أمثالنا وعُدم النصيب الأوفر ومشاهدة المذكور الأكبر كتب له ما عقل وذلك فضل عظيم من الله لأن صلاته كانت في موجب الأدب أسرع إلى العقوبة منها أن يكتب له ما عقل إذ لا يدري بين يدي من هو حتى يعرض إلى غيره بقلبه وهو واقف راكع ساجد بجسده.

فعليه أن يكثر التنفل ليجبر ذلك النقص فإنه مطالب به كما ورد: أن النوافل جبر الفرائض.

لأنه لم يؤدها على الوجه الذي يجب والمعنى الذي أمر به ولم يكلف الله الخلق من العبادة إلا ما يطيقون لكن شغلهم بغير ذكر الله حرمهم واقتطعهم عما افترض عليهم.

ونسأل الله الكريم أن يتغمدنا برحمته ويتجاوز عن ذنوبنا وتقصيرنا برحمته، فلو لم تكن لنا ذنوب إلا التقصير في أداء الفرائض لكان كافياً.

فهذا هو روح الصلاة من حيث المعنى.

---

(١) أطرافه عند: الهيثمي في مجمع الزوائد (١٠/ ٢٢٩)، الزبيدي في إتحاف السادة المتقين (٣/ ١٦١)، المنذري في الترغيب والترهيب (٤/ ٢٤٧)، الألباني في الصحيحة (١٩١٤).

(٢) أورده الزيلعي في نصب الراية (١/ ٣٠٧)، ابن عبد البر في التمهيد (٩/ ١٨٢)، القرطبي في التفسير (١٩/ ٦٢)، الهيثمي في مجمع الزوائد (٢/ ١٠٤).

وقد انتظم فيما تقدم من الكلام المقامات الثلاثة من الإسلام والإيمان والإحسان. فافهم.

[٥٧/ أ] وأما فهم الصلاة من جهة تركيبها/ وتفاصيل أعضائها وهيئاتها فإنها على صورة عبادة العالم الكلي وعلى هيئة صلاة العابدين فيه.

فالقيام إلى الصلاة ليكون مع الذين يعرجون إلى الله تعرج الملائكة والروح إليه والوقوف ليكون مع القائمين المشاهدين.

والذكر ليكون مع الذاكرين والهبوط ليكون مع المتنزلين والركوع ليكون مع الراكعين الخاضعين والرفوع ليكون مع الصاغرين والسجود ليكون مع الساجدين والفكر والجولان بالفهم والعقل ليكون مع السائحين السابحين الدائرين والحضور ليكون مع الحاضرين الروحانيين ووجود الراحة والنعيم بها ليكون مع الملائكة المقربين المشتاقين المحبين والخشوع ليكون مع الخائفين والمكروبين. والمجاهدة بالأذكار ليكون راجماً للشياطين كالفلكيين وإلقاء السمع مع المراقبين ورمز المعاني في دعاء الفهم ليكون مع الحافظين الكاتبين.

ومع هذا كله فلا يقوم بشيء من حق الله عز وجل لعظيم ما هو الله عليه من جلال القدر وعظيم الخطر لكن يجد الراحة في شهود المنة إذ هو ربه على ما هو عليه من أوصافه ومع ذلك استدعاه إلى أن يكون من عباده المؤمنين فيستشعر في نفسه ذلك ويقول: كيف ذكرني هذا الملك العظيم في نفسه حتى ينزل من جلال كبريائه إلى صفات جناته ورحمته حتى كلمني بكلامه واستدعاني لأن أكون من جملة المصلين من عباده فينوي ويتمنى ويود في نفسه أن لو كان تقرب إليه بعبادة الخلق أجمعين على غاية الصفاء لو قدر على ذلك، فبهذا تفهم قوله: «نية المؤمن خير من عمله»[1].

[٥٧/ ب] ثم يشهد/ عجزه وتقصيره عن ذلك فيرجع إلى رؤية التقصير والاستغفار من قلة القيام ببعض الواجب ولذلك كان رسول الله ﷺ يستغفر بعد كل صلاة مراتٍ وورد ذلك في الصحيح فيتوب من الحسنات كما يتوب العاصي من السيئات لأن: حسنات الأبرار سيئات المقربين[2].

---

(١) أطرافه عند: الخطيب في تاريخ بغداد (٩/ ٢٣٧)، أبي نعيم في الحلية (٣/ ٢٥٥)، الطبراني في الكبير (٦/ ٢٢٨)، الشوكاني في الفوائد المجموعة (٢٥٠)، الزبيدي في إتحاف السادة المتقين (١٠/ ١٥)، العجلوني في كشف الخفا (٢/ ٤٣٨).

(٢) عبارة شهيرة من عبارات الصوفية يظن البعض أنها حديث وليس كذلك.

ولذلك تقول الملائكة يوم القيامة: سبحانك ما عبدناك حق عبادتك.

على صفاء عبادتها من شوب الكدورات، وهذا المعنى الذي تقوله الملائكة هو الذي قاله النبي عليه الصلاة والسلام في قوله: «لا يدخل أحد منكم الجنة بعمله».

قالوا: ولا أنت يا رسول الله؟ قال: «ولا أنا إلاّ أن يتغمدني الله برحمة منه وفضل»[1].

مع اجتهاده وصفات أحواله. وليس معناه أن العمل ليس ينفع فيكون قوله محرضاً على ترك العمل بل قوله هذا مرغب في الاجتهاد لجميع ما يقرب إلى الله تعالى فنبه عليه الصلاة والسلام على عظيم حق الله تعالى الموجب لرؤية التقصير.

فالعبادات كلها لها وجهان تنظر منهما مرة بنظر من مقام العبودية ومشاهدة الربوبية وهو من هذا الوجه الذي ذكرناه فتعرف مقدار المعبود وما تقع عبادتك في حقه وجلالة قدره فتكون عبادة الخلق أجمعين في ذلك أقل من غرز إبرةٍ في بحرٍ لجيّ فيولد هذا النظر الإجهاد والانكسار والخضوع والذلة والفقر إلى الله وجميع صفات العبودية الحسنى التي ساعة واحدة منها خير من عبادة ستين سنة. ومرة ينظر من مقام المنة، وكيف ذكر الملك الأكبر الذي استعبد العرش بما حوى/ في نفسه لهذا العبد الذي لا يدري من هو في كثرة عباد الله [٥٨/ أ] ومماليكه، وكيف ارتضاه للإيمان به واستدعاه لعبادته ومناجاته وللقرب منه حتى يجعله من جلسائه كما قال: أنا جليس من ذكرني.

فيتولد من هذا النظر أيضاً أحوال كريمة لا يعلم حقيقتها إلاّ العارفون مثل الحياء الكائن عن الحضور والشكر الحادث عن رؤية المنة، والمحبة المتولدة عن إحسان الله.

إلى غير ذلك مما يشرحه الله في قلوب المختصين بهذا المقام وهو معنى قول الله تعالى: ﴿وَلَذِكْرُ ٱللَّهِ أَكْبَرُ﴾[2]. أي ذكر الله للعبد في نفسه أكبر من كل ما يتقرب به إليه.

فعلى هذين[3] الوجهين من النظر درج العارفون في علومهم وأعمالهم وبهما تزكو الأعمال عند الله.

نسأل الله الكريم أن يَمُنَّ علينا بما مَنَّ عليهم في الدنيا والآخرة إنه ولي ذلك والقادر عليه.

---

(١) أطرافه عند: مسلم في الصحيح (صفات المنافقين ب ١٧ رقم ٧٧)، أحمد في المسند (٢/ ٥٠٩)، ابن حجر في الفتح (١١/ ٢٩٥)، التبريزي في مشكاة المصابيح (٢٣٧٢)، المتقي في الكنز (١٠٣٨٤).

(٢) سورة العنكبوت (الآية: ٤٥).

(٣) في الأصل: هذا. وهو تحريف.

[فصـــل]

واعلم أن الوجود كله بأجزائه مُصلٍ للّه بدوام وجود الوجود لا ينفك عن الصلاة فإنه في مقام العبودية للّه.

فمن أدام النظر رأى الوجود كله ظاهراً وباطناً مصلياً.

ومن ترك الصلاة فقد خالف الخليقة كلها ولذلك يحشر مع فرعون وهامان كما ورد في بعض الأخبار: أن تارك الصلاة يحشر مع فرعون وهامان.

لأنه تأبى من العبودية والتواضع للّه كما فعل فرعون. فافهم.

فإن الذي لا يخضع لأحد هو الله وحده، فمن صلى بجسده وفعل أركان الصلوات كما أمر ظاهراً وأنزل نفسه مع كل ركن منها ومعنى من معانيها الباطنة وفهم روحه وعقله تلك المعاني وشهد المراد بكل ركن منها ومعنى من معانيها/ فقد صلى بجسد وفعل أركان [٥٨/ ب] الصلوات كما أمر بظاهره وباطنه وجملته في عالم الحس ومقام الإسلام وفي عالم الغيب ومقام الإيمان وفي غيب الغيب ومقام الإحسان ووجد طعم المعاني الثلاث.

مَنَّ الله علينا وعليكم بالكمال في كل شيء. آمين بِمَنِّه ورحمته وصلى الله على محمد وآله وسلم[1].

الشعبة السادسة: الزكـاة

أما كونها من شعب الإيمان فمذكور في حديث جبريل وهي على نوعين: فريضة، ونافلة.

فأما الفريضة فأربعة أنواع: زكاة العين، وزكاة الماشية، وزكاة الحرث، وزكاة الفطر ـ فرضها رسول الله ﷺ ـ أعني زكاة الفطر ـ.

وأما النافلة: فعامة في كل شيء من وجوه البر.

فأما زكاة العين: فهو الذهب والفضة وما اتخذ منهما من الحلية إلاّ ما كان منها للقنية الجائزة.

---

(١) جاء بالهامش كلمة: بلغ. يريد بلغ إلى هنا مقابلة على النسخة المنسوخ عنها أو بلغ إلى هنا قراءة على شيخه أو على المؤلف فالله أعلم.

وما لا يجوز اقتناؤه ففيه الزكاة إذا كان ذلك كله نصاباً فما فوقه وحال عليه حول عند المالك له وكان ملكه له صحيحاً.

فأما نصاب الذهب فعشرون دينار كباراً ومفروض الزكاة فيها نصف دينار أو قيمته من الورق وما زاد فبحساب ذلك.

وأما نصاب الفضة فخمس أواق والأوقية أربعون درهماً، ومفروض الزكاة فيها خمسة دراهم منها أو قيمتها من الذهب وما زاد على الخمس أواق فبحساب ذلك.

وكذلك معدن الفضة والذهب يجري هذا المجرى إذا بلغ النصاب فما فوقه ليس فيه إلاّ الزكاة ولا ينتظر به الحول ولا يسقط زكاته الدَّين كزكاة العين.

وجميع ما ذكرنا/ في زكاة العين مذكور فيما رواه علي بن أبي طالب عن النبي ﷺ. [٥٩/ أ]

روى عنه عليه السلام أنه قال: إذا كانت لك مائتا درهم وحال عليها الحول ففيها خمسة دراهم، وليس عليك شيء في الذهب حتى يكون لك عشرون ديناراً ويحول عليها الحول ففيها نصف دينار، وما زاد فبحساب ذلك.

وقال رسول الله ﷺ: «قد عفوت عن الخيل والرقيق..»[1]. وذكر باقي الحديث.

فصـــل

وأما زكاة الماشية: فتجب في أربعة أنواع وهي التي ذكرها الله في سورة الأنعام وهي: الغنم، والمعز، والإبل، والبقر.

فأما الغنم والمعز: واحدٌ في الزكاة إذا بلغت أربعين بصغارها وكبارها فمفروض الزكاة فيها شاة واحدة حتى تبلغ مائة وعشرين شاة ليس فيها إلا شاة فإن زادت على المائة وعشرين واحدةً فزكاتها شاتان حتى تبلغ مائتي شاة ليس فيها إلاّ شاتان، فإن زادت واحدة على المائتين ففيها ثلاث شياه إلى ثلاثمائة وما زاد على ذلك ففي كل مائة شاةٍ شاةٌ وما لم يبلغ مائة فليس فيه شيء حتى تكمل المائة.

وأما البقر: فإذا بلغت ثلاثين بصغارها وكبارها فمفروض الزكاة فيها تبيع وهو ابن سنتين حتى تبلغ تسعاً وثلاثين ليس فيها غير ذلك فإذا زادت واحدة وكملت أربعين ففيها بقرة مسنة وهي بنت أربع سنين إلى أن تبلغ تسعاً وخمسين ليس فيها غير ذلك فإذا زادت واحدة

(١) أطرافه عند: أبي داود في السنن (١٥٧٤)، الترمذي في الجامع الصحيح (٦٢٠)، النسائي في المجتبى (٣٧/٥)، ابن خزيمة في الصحيح (٢٢٨٤)، البغوي في شرح السنة (٤٧/٦)، الطبراني في الصغير (٢٣٢/١)، أبي نعيم في الحلية (١٧٦/٤).

وكمل منها ستون فمفروض الزكاة فيها تبيعان حتى تبلغ تسعاً وستين ليس فيها غير ذلك فإذا زادت واحدة وكمل منها سبعون ففيها بقرة مسنة وتَبِيعٌ حتى/ [٥٩/ ب] تبلغ تسعاً وسبعين ليس فيها غير ذلك فإذا زادت واحدة وكمل منها ثمانون ففيها بقرتان مسنتان. وهكذا اعتبارها أبداً في كل ثلاثين تبيع وفي كل أربعين بقرة مسنة.

أما زكاة الإبل: فمن كان عنده خمس من الإبل فمفروض زكاتها شاة واحدة من الغنم إلى تسع ليس فيها غير ذلك فإذا كمل منها عشر ففيها شاتان إلى أربع عشرة ليس فيها غير ذلك فإذا كمل فيها عشرون ففيها أربع شياه ليس فيها غير ذلك إلى أربع وعشرين ليس فيها غير ذلك وتدريجها إلى هذا الحد خمس، خمس، خمس مرات. فإذا كانت خمساً وعشرين أخذ من الإبل نفسها ومفروضها بنت مخاض أنثى وهي التي أمها حامل بغيرها إن وجدت وإن لم توجد أخذ ابن لبون ذكر وهو الذي أمه ترضع غيره، إلى خمس وثلاثين ليس فيها غير ذلك فإذا زادت واحدة ففيها بنت لبون أنثى وهي بنت سنتين إلى خمس وأربعين ليس فيها غير ذلك فإذا زادت واحدة ففيها حقة وهي بنت ثلاث سنين وتدريجها إلى هذا الحد عشرة عشرة مرتين ليس فيها غير ذلك حتى تبلغ ستين فإذا زادت واحدة ففيها جذعة وهي بنت أربع سنين إلى خمس وسبعين ليس فيها غير ذلك فإذا زادت واحدة ففيها ابنتا لبون إلى تسعين ليس فيها غير ذلك فإذا زادت واحدة ففيها حقتان.

وتدريجها إلى هذا الحد خمس عشرة، خمس عشرة، خمس عشرة ثلاث مرات إلى عشرين ومائة ليس غير ذلك، وتدريجها إلى هذا الحد ثلاثين، ثلاثين فإذا زادت واحدة ففيها ثلاث بنات لبون في كل أربعين/ [٦٠/ أ] بنت لبون وقيل حقتان والأولى أقيس إلى تسع وعشرين ليس فيها غير ذلك فإذا زادت واحدة فيكون فيها حقة في الخمسين منها وابنتا لبون في الثمانين وهكذا اعتبارها بعد هذا الحد في كل أربعين بنت لبون وفي كل خمسين حقة.

فصـــل

وأما زكاة الحرث: فعلى نوعين: زكاة الحب، وزكاة الثمار.

فالثمار ثلاثة أنواع: تمر، وزبيب، وزيتون، واختلف في التين، هذه كلها أصناف مختلفة لا يضم بعضها إلى بعض.

أما الحبوب فعلى ثلاثة أضرب منها يضم بعضه إلى بعض فيكون صنفاً واحداً وهو: القمح، والشعير، والسلت من الحبوب المأكولة مثل الدخن والذُّرة وما أشبه ذلك لا يضم شيء من ذلك إلى بعض.

والضرب الثالث القطابي مثل: الحمص، والباقلا، والعدس، والترمس، وما أشبه

ذلك من القطاني، هذا كله نوع واحد ـ أعني القطابي ـ يضم بعضها إلى بعض في الزكاة وتعتبر كلها بسقيها فيما يسقى منها بغير مشقة من السماء والأنهار والعيون ففيه العشر إذا بلغ نصاباً وما يسقى بتعب مثل السواقي وغير ذلك ففيه نصف العشر.

والنصاب في زكاة الحرث خمسة أوسق والوسق ستون صاعاً بصاع النبي ﷺ والصاع أربعة أمدد والمد رطل وثلث والرطل اثنا عشر أوقية ولا ينتظر بزكاة الحرث الحول بل تؤدى وقْت أخذ الحبوب لقول الله تعالى: ﴿وَآتُوا حَقَّهُ يَوْمَ حَصَادِهِ﴾[1].

والنوع الرابع من الزكاة المفروضة/ زكاة الفطر: وهي على كل من فضل له على قوت [٦٠/ ب] يوم الفطر مقدار صاع إن كان وحده أو فضل له على عدد من يلزمه إخراجها عنه صاع، صاع بالصاع المدني الذي ذكرناه في الزكاة.

فهذه جملة الزكاة المفروضة وفروعها مستقصاة في كتب الفقه.

ويلحق بهذا الباب: الخمس[2] وهو من شعب الإسلام في الحديث الصحيح الذي رواه ابن عباس في قصة وفد عبد القيس فقال لهم: «هل تدرون ما الإيمان بالله؟ شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة وصوم رمضان وأن تؤدوا خمس ما غنمتم..»[3]. وذكر الحديث إلى آخره.

فجعله من سهام الإسلام فهو شعبة من شعب الإيمان بنص الحديث ولم نفرد له باباً لأن الكلام على الزكاة يغني عنه إذ هو مما يليق ببابها.

والخمس على نوعين: خمس المغنم، وخمس الركاز.

وهو يلتحق بخمس المغنم لأنه من دفن الجاهلية وأداء الخمس من المغنم والركاز فرض واجب وليس نفل وقد ورد من الوعيد في الغلول كما ورد في الزكاة إذا منعت أو أشد إلاّ أن مواضع الخمس ومواضع الزكاة التي توضع فيها تختلف.

فمواضع الزكاة في الأصناف التي ذكر الله تعالى في براءة: ﴿إِنَّمَا ٱلصَّدَقَاتُ لِلْفُقَرَآءِ وَٱلْمَسَاكِينِ وَٱلْعَامِلِينَ عَلَيْهَا..﴾[4] إلى آخر الآية.

---

(١) سورة الأنعام (الآية: ١٤١).

(٢) جاء بهامش المخطوط تعليق على ذلك نصه: قوله يلحق بهذا الباب الخُمس فبهذا الاعتبار يكون الخُمس شعبة ثامنة.

(٣) أطرافه عند: مسلم في الصحيح (الإيمان ٣٤)، ابن أبي شيبة في المصنف (١١/ ٦)، ابن حجر في الفتح (١/ ١٨٣)، ابن كثير في التفسير (٤/ ٨)، القرطبي في التفسير (٤/ ٤٤).

(٤) سورة التوبة (الآية: ٦٠).

ومواضع الخمس في قوله: ﴿وَاعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُم مِّن شَيْءٍ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ﴾[١] إلى آخر الآية.

فهذا وجه التعبد بهذه الشعبة في مقام الإسلام لأن كل ما تقدم إسلام.

فأما سر الحكمة التي ظهرت للناظرين في معاني الزكاة واستعباد عباده بها فعلى وجوه منها: أن الله/ جعل الزكاة طهراً للأموال والأبدان وتزكية وتنزيهاً للنفوس والأزواج وصفات الإحسان في مقام الإسلام والإيمان والإحسان. [٦١/ أ]

فأما كونها طهوراً للأموال فقد ورد في الصحيح عن ابن عمر: «من كنز كنزاً لم يؤد زكاته فويل له».

إنما كان هذا قبل أن تنزل الزكاة فلما نزلت جعلها الله طهراً للأموال، والتطهر إنما يكون من النجاسة والخبث.

وقد ورد في الصحيح أيضاً: أنها أوساخ الناس. وذلك أن الله خلق الخلق بحكمته وأفقر بعضهم لبعض وجعل منهم الأغنياء والفقراء وذوي الحاجات المختلفة ليستقيم إيجاد الخليقة. فلو خلقهم كلهم أغنياء لبطل الوجود، وكذلك لو خلقهم فقراء كلهم كما قال: ﴿وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِيَتَّخِذَ بَعْضُهُم بَعْضاً سُخْرِيًّا﴾[٢].

فجعل للفقراء ذوي الحاجات حقوقاً في أموال الأغنياء وهي مفروضة لهم ليس لأصحاب الأموال فيها شيء ولو كانت لهم لما وقع الوعيد به على من لم يُصل لله تعالى في قوله: ﴿فَوَيْلٌ لِّلْمُصَلِّينَ * الَّذِينَ هُمْ عَنْ صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ * الَّذِينَ هُمْ يُرَاؤُونَ * وَيَمْنَعُونَ الْمَاعُونَ﴾[٣].

وهي الزكاة، فالزكاة مفروضة لأهلها هي حق لهم على الأغنياء.

كما أن الصلاة مفروضة لله تعالى هي حق لله على عباده.

كذلك تجدها حيث جاءت في كتاب الله مقرونة مع الصلاة: ﴿وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ﴾[٤].

---

(١) سورة الأنفال (الآية: ٤١).
(٢) سورة الزخرف (الآية: ٣٢).
(٣) سورة الماعون (الآية: ٤ ـ ٧).
(٤) سورة البقرة (الآية: ٤٣).

تقدير الكلام: أقيموا الصلاة لي وأتوا الزكاة للفقراء وأهل الحاجة إليها، وكفى بهذا شرفاً وفخراً للفقراء حيث قرن حقهم بحقه فلهم في الأموال حق فرضه الله لأن المال مال الله والخلق خلق الله يعطي من يشاء المقدار الذي يشاء، فهذا المقدار الذي هو حقوق/ الغير قد [٦١/ ب] علم الله بلطيف علمه وخفي نظره أن ربع العشر من الورق والذهب، والعشر ونصف العشر من الطعام، والعشر من أربعين شاة، وغير ذلك من نصاب الزكاة أنها قائمة لأهل الحاجة الذين فرض لهم ذلك ويبقى النصاب بأيدي مالكيه إلى وقت حاجة أخرى.

وعلم الله سبحانه أن المال لا يطهر ويطيب لمالكيه حتى يخرج ذلك القدر.

فممسك الزكاة إنما يأكل أوساخ الفقراء بل دماءهم، وكذلك آخذها بغير حقها وواضعها في غير حقها لأنه أكل حقوق الغير وهم محتاجون إلى حقوقهم.

وكذلك رآهم رسول الله ﷺ ليلة الإسراء حيث قال: «رأيت أقواماً على أقبالهم رقاع وعلى أدبارهم رقاع وهم يسرحون إلى الضريع والزقوم فقلت: من هؤلاء يا جبريل؟ قال: هؤلاء الذين لا يؤدون صدقات أموالهم».

وأداء الزكاة أقل درجات الطهارة في الأموال.

فأما كونها أيضاً طهارة الأبدان والنفوس والأرواح فإن الله تعالى يقول: ﴿خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا﴾[١].

وفي الصحيح: «على كل سلامى من الناس صدقة»[٢].

وأوجبت تلك الصدقات المفروضة فمتى لم تُؤَدَّ المفروضة لم تطهر الأعضاء بالنوافل من الصدقات المذكورة في الحديث.

ولذلك يبطح مانع الزكاة من الماشية يوم القيامة للماشية فتمشي عليه بقوائمها وتنطحه بقرونها، لأن أعضاء ماشية جسده التي يتصرف بها في المال كما أمر ويوصل الحقوق بها إلى أربابها لم تنبسط لإعطائها إلى أهلها بل تقبضت عن ذلك وانضمت بعضها إلى بعض بالبخل الشديد الذي لا بخل أكبر منه لأن منع الزكاة أعظم درجات/ البخل وأداؤها أقل [٦٢/ أ] درجات السخاء والجود الذي هو البسط في الأيدي والأعضاء فلم يجد في المال حركة ولا موضعاً ينبسط فيه بالمشي لأن الحركات والسكنات في الآخرة إنما هي على معنى الديات لا

---

(١) سورة التوبة (الآية: ١٠٣).

(٢) أطرافه عند: البيهقي في السنن الكبرى (١٠/ ٩٤)، الطبراني في الصغير (١/ ٢٢٩)، الهيثمي في مجمع الزوائد (٣/ ١٠٤)، الألباني في الصحيحة (٢/ ١١٦).

يجد العبد إلاّ ما قدم ولا يتصرف إلا فيما كان فيه، والمال له علاقة بقلب مالكه فهو يملكه ويشده ويضمه إليه فتلك العلاقة والمال طائع له وتابع له حيث ما تصرف بالعلاقة التي تجذبه بها إلى ملكه وبطاعة المال له فالذي لا يؤدي الزكاة قد أحب المال الحب الكلي ومال به المال إليه وباستغراق الحب فيه تَعبّده المال وصار ذليلاً لمحبوبه كما ورد في الحديث: «تعس عبد الدينار. .»[١] إلى آخر الحديث.

والتذلل هو التعبد، فالعبد الذي مال به المال يبطحه من قيامه في المال في مقام الإيمان والغيب يوم القيامة وتذلل استعباده له يصير بين أرجله وبعلاقته الذي ملك المال بها وزمه إليه وجذبه تمشي الماشية عليه في كل ناحية: ﴿فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ﴾[٢] فافهم.

ولو تصرفت ماشية جسده في الدنيا بإعطاء الحق لمن وجب له لانبسطت أعضاء جسده من قبض البخل فوجد هناك متحركاً ومتصرفاً.

ولو انقطعت علاقة الحق الذي أخرجه من قلبه لامتسكت تلك العلاقة المنقطعة الماشية عن المشي عليه لأنها حصلت في يد الله وأيدي أهلها كالزمام المانع للماشية عن المشي لأن المال كشخص واحد ومفروض الزكاة فيه عقاله كما سماه أبو بكر الصديق رضي الله عنه عقالاً في قوله: لو منعوني عقالاً.

[٦١/ ب] أراد بعيراً وإنما سمي عقالاً لأنه/ يعقل الماشية عن المشي على مانع الزكاة.

ولو أخرجه عن ملكه إلى مستحقه لزال ذلك له وتعبده بالاستغراق فيه لأن المحبوب هو المعبود[٣] ولم يبطح له يوم القيامة وبقيت الماشية موقوفة عن المشي محبوسة للسؤال من أين جمعت ولماذا وفي ماذا؟ فافهم فهمك الله.

وهكذا الحكمة أيضاً في كي الجباه والجنوب والظهور بالعين الذي هو الذهب والفضة قال الله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَلَا يُنفِقُونَهَا﴾[٤] إلى قوله: ﴿يَوْمَ يُحْمَىٰ عَلَيْهَا فِي نَارِ جَهَنَّمَ فَتُكْوَىٰ بِهَا جِبَاهُهُمْ وَجُنُوبُهُمْ وَظُهُورُهُمْ﴾[٤].

---

(١) أطرافه عند: البخاري في الصحيح (٤/ ٤١)، (٨: ١١٥)، ابن ماجة في السنن (٤١٣٥)، البيهقي في السنن الكبرى (٩/ ١٥٩)، الهيثمي في مجمع الزوائد (١٠/ ٢٤٨)، ابن حجر في الفتح (١١/ ٢٥٣).

(٢) سورة المعارج (الآية: ٤).

(٣) جاءت العبارة في الأصل على هذا النحو: المعبود هو المحبوب. ووضع فوق كلمة: المحبوب حرف (م)، وفوق كلمة المعبود (م) مما يفيد استبدال كل منهما مكان الأخرى. فأثبت ما يريد على الصواب.

(٤) سورة التوبة (الآية: ٣٤، ٣٥).

وحقيقة معنى الكنز الدفن والإخفاء والستر الذي هو ضد الكشف والإظهار كما قال تبارك وتعالى: ﴿وَكَانَ تَحْتَهُ كَنزٌ لَهُمَا﴾[١]. أي تحت الجدار.

وقال في قارون: ﴿وَآتَيْنَاهُ مِنَ الْكُنُوزِ﴾[٢] وهي ما أخفى من خزائن أمواله.

فالذهب والفضة لما كانت جميع حوائج هذه الدار لا تنقضي إلاّ بهما وعاين الناس ذلك منهما أحبوهما الحب البالغ فجذبتهما القلوب إليها جذباً شديداً بالعلاقة التي ذكرناها قبل هذا حتى خامرت سويداء القلوب.

ومن أحب شيئاً حباً كثيراً أدخله في سويداء عينه إن أمكنه وضمه إليه وألحقه بخلده إن ظفر به.

ولذلك ترى الذهب والفضة لا يظهر منهما شيء كسائر الأموال إلاّ ما يتصرّف المالكون فيه بالمباشرة لهما بالأيدي.

فمن ملك ديناراً ربطه وأخفاه وحرسه بالنظر إليه والإشراف عليه بجبينه الذي هو جبهته لأنها موضع الحراسة التي فيها العينان فحيث ما كان المالك له فهو ناظر إليه خائف عليه لا يبرح منه/ ومتكىء عليه بجنبيه وظهره بمعنى الاستناد عليه والاعتماد والتوكل عليه [٦٣/ أ] لذلك خصت هذه الأعضاء بذكر الكي لأنها أعظم أعضاء الجسد وموافقة لمعاني الفتنة بالذهب والفضة لأنه متقلب عليها بالإسناد والاعتماد والتوكؤ والإشراف.

فإذا لم تؤد الزكاة منه فقد اختفى الخفاء الكلي عن عين المالك والتصق به بالحب الشديد حتى صار كصفة من صفاته أو عضو من أعضائه لأن حقيقة الحب طلب الاتحاد بالمحبوب فجاء به إلى المآل وهو ملتصق به صفائح محمية بنار جهنم لأنه لم يرد به الله ولم يعط منه حق الله وما لم يرد به الله ولا أعطى منه حق الله فمبعود عن الله وعن دار كرامته إلى دار البعد وهي النار لأن المراد به هوى النفس والدنيا ولذلك يقول الله يوم القيامة: ميزوا ما كان لي منها وألقوا سائرها في النار. ﴿لِيَمِيزَ اللَّهُ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ وَيَجْعَلَ الْخَبِيثَ بَعْضَهُ عَلَىٰ بَعْضٍ فَيَرْكُمَهُ جَمِيعاً فَيَجْعَلَهُ فِي جَهَنَّمَ﴾[٣].

فبهذا المعنى يفهم معنى كون تلك الصفائح ناراً وكذلك هي هنا محمية بنار الحرص والحمية في شدة طلبه وإخفائه وكنزه ولو أخرج زكاته كما أمره الله لانقطع من علاقته عن قلبه بقدر ذلك المخرج وصار في أيدي مستحقيه وظهر للملائكة وقبله الله وإذا فعل ذلك فقد

---

(١) سورة الكهف (الآية: ٨٢).

(٢) سورة القصص (الآية: ٧٦).

(٣) سورة الأنفال (الآية: ٣٧).

طهر المال كله ولم يك كنزاً لأنه قد عُلِمَ قدر المال بإخراج الزكاة منه وإذا عُلِمَ فقد ظهر وانكشف وزحزح عن المال والمال عنه بعض التزحزح كما تقدم أيضاً في عقال الماشية وبقي عليه المحاسبة على جملته هل قام بحقوقه أم لا وهكذا/ زكاة الأقوات أيضاً إذا منعت عذابها [٦٣/ ب] من نوعها أكل الضريع والزقوم كما ورد في حديث الإسراء وثقل الظهر والأجساد عن النهوض كما ورد في الحديث: «إن بين يديك عقبة كؤُوداً لا يجوزها إلا المخفُّون».

وسأله الراوي عن المخفين والمثقلين فقال: «إن كان لك قوت ثلاثة أيام فأنت من المثقلين».

لكن الثقل يتخالف ثقل دون ثقل، وإنما الثقل الكلي فيمن منع الزكاة كما تقدم والخفة من جميع أنواع العذاب فيمن لم يقتصر على الفرائض وتصرف في جميع وجوه الصدقات بالنوافل حتى أكمل له بها الفرائض لأن الفرائض قد داخلها أنواع المخالفات والتقصير كما ورد في الخبر: النوافل جبر للفرائض.

لا سيما في الأموال التي قد خالطها أنواع الحرام والشبهات والباري تعالى لا يقبل إلا الطيب.

فهذا معنى الزكاة ومشاهدته في عالم الغيب ومقام الإيمان.

وأما مقام الإحسان بالنظر إلى الزكي سبحانه الذي خلق السخاء والكرم وأفاض عطاءه وفضله على جميع المخلوقات في كل الأوقات فيتزكى بأن يتصف بوصف من أوصاف الزكي الحق على قدر ما يطيق وأقل ذلك الزكاة فيها تزكو الأرواح وتطهر الأسرار فيصلح لمجاورة الزكي الحق والقرب منه في مقام الإحسان.

وأما كونها تزكية للأرواح فموجود ذلك في قوله: ﴿خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِمْ بِهَا﴾[1].

والتزكية من صفات الأرواح لأنها وصف من صفات الزكي سبحانه وهو تنزيه المتصف بها عن رذالة البخل ووصفه بصفة الجود والسخاء؛ لكن المقتصر على أداء الزكاة في أقل درجاتها.

[٦٤/ أ] / وإنما التزكية فيمن بذل المال في وجوه البرّ كما قال فيمن وصف بذلك: ﴿وَسَيُجَنَّبُهَا الْأَتْقَى * الَّذِي يُؤْتِي مَالَهُ يَتَزَكَّىٰ﴾[2] نزلت في أبي بكر الصديق وإنفاقه ماله في ذات الله.

---

(١) سورة التوبة (الآية: ١٠٣). (٢) سورة الليل (الآية: ١٨).

وكذلك قوله: ﴿إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُ وَٱلَّذِينَ آمَنُوا ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَاةَ وَهُمْ رَاكِعُونَ﴾(١). نزلت في علي بن أبي طالب رضي الله عنه تصدق بخاتمه وهو راكع في الصلاة.

وهذا المعنى سنذكره في باب الزهد إن شاء الله.

واعلم أن الوجود كله إذا نظرته وجدته متعبداً للّه تعالى بالزكاة كما هو متعبد بجميع شرائع الإسلام لأن الدين عند الله الإسلام ﴿وَلَهُ أَسْلَمَ مَن فِي ٱلسَّمَاوَاتِ وَٱلْأَرْضِ طَوْعاً وَكَرْهاً﴾(٢).

وإن نظرت إلى الأرض التي هي أقرب الأشياء إليك وجدتها تعطي أقرب الخلق إليها وهم الذين على ظهرها جميع بركاتها لا تبخل عليهم بشيء مما عندها في فصول العام كلها.

وكذلك النبات يعطي ما عنده وجميع أنواع الأشجار وكذلك الحيوان وكذلك البحر والسماوات والأفلاك والشمس والقمر والنجوم، الكل متعاون بعضه مع بعض لا يدخر شيئاً من قوته وما عنده في طاعة الله لأن الوجود كله فقير بعضه إلى بعض قد لزمه الفقر وشملته الحاجة فعكوف بعضه على بعض وتعاونه في طاعة الله وإعطاء ما عنده هي زكاته دائماً بدوام وجوده.

فمانع الزكاة قد خالف أهل السماوات والأرض وجميع الموجودات ولذلك وجب قتاله وقهره، فافهم.

فهكذا شاهد الموقنون جميع ما دعت إليه الرسل بيناً واضحاً في كل شيء وعاماً في جميع/ الموجودات ولذلك سماهم الله موقنين كما قال في إبراهيم عليه السلام: ﴿وَكَذَٰلِكَ نُرِيَ إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ ٱلسَّمَاوَاتِ وَٱلْأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ ٱلْمُوقِنِينَ﴾(٣). [٦٤/ ب]

الشعبة السابعة: صوم رمضان

أما كونه من شعب الإسلام فدليله ما تقدم في حديث جبريل عليه السلام، وروى طلحة بن عبيد الله: أن أعرابيًا جاء إلى النبي ﷺ من أهل نجد ثائر الرأس يسمع دوي صوته ولا يُفقه ما يقول حتى دنا من رسول الله ﷺ فإذا هو يسأل عن الإسلام فقال: يا رسول الله أخبرني ماذا فرض الله عليّ من الصلاة؟ قال رسول الله ﷺ: «خمس صلوات إلاّ أن تطوع

(١) سورة المائدة (الآية: ٥٥).
(٢) سورة آل عمران (الآية: ٨٣).
(٣) سورة الأنعام (الآية: ٧٥).

شيئاً». قال: فأخبرني ماذا فرض الله عليّ من الصيام؟ فقال: «شهر رمضان إلاّ أن تطوع شيئاً». قال: فأخبرني ماذا فرض الله عليّ من الزكاة؟ قال: فأخبره رسول الله ﷺ شرائع الإسلام. قال: والذي بعثك بالحق لا أتطوع شيئاً ولا أنقص مما فرض الله عليّ شيئاً. فقال رسول الله ﷺ: «أفلح وأبيه إن صدق» ـ أو «دخل الجنة وأبيه إن صدق»(١).

وفي الخبر أيضاً: إذا سَلِمَ رمضان سلمت السنة كلها.

والتعبد به في مقام الإسلام إمساك الجسد عن ما يضاد الصوم من أول الفجر إلى غروب الشمس وفروضه وسننه بينة ومشروحة في كتب الفقه.

وأما وجه الحكمة فيه ومعنى التعبد به في مقام الإيمان والإحسان اللذين هما مقام النفس والروح بالنية والحسبة/ لأجره على الله. [٦٥/ أ]

والصوم عن المنهيات الموجبة للعذاب في عالم الإيمان فيتذكر الآخرة ويصوم عن ما يوجب العذاب في الدار الذي أمر به(٢).

فصــــل

وأما النعيم به في مقام الإحسان الروحاني العقلي بأن يتذكر أن الحق هو الذي يطعم ولا يطعم فيتصف به من ذلك المعنى على قدر طاقته لأن الصوم معناه الإمساك عن الاسترسال فيما حُظِرَ على العبد وهو حفظ الجوارح وزمها وإمساكها في أيام الصوم دون لياليه لأن الصوم لا يكون إلا بالنهار فإذا دخل الليل وغابت الشمس أُرسلت الجوارح فيما حُظر عليها من المباح إلى أن يلوح الفجر.

وكذلك يصام لرؤية الهلال في أول الشهر أيضاً ويفطر لرؤيته في أول الشهر الثاني، والمراد بهذا الشهر العظيم أن الليل غيبةٌ والنهار حضور فالنهار آية وجود الباري ومشاهدته، والليل آية على وجود الأغيار دونه كما قال النبي ﷺ: «إن الله خلق الخلق في ظلمة ثم أفاض عليهم من نوره، فمن أصابه من ذلك النور اهتدى ومن أخطأه ضل. . »(٣) إلى آخره.

---

(١) أطرافه عند: البخاري في الصحيح (١/ ١٨)، مسلم في الصحيح (الإيمان ب ٢ رقم ٨)، النسائي في المجتبى (١/ ٢٢٧)، أبي دلود في السنن (٣٩١)، البيهقي في السنن الكبرى (١/ ٣٦١)، الشافعي في المسند (٢٤، ٢٣٤)، البغوي في شرح السنة (٤/ ١٠٣)، ابن خزيمة في الصحيح (١٠٦٦)، ابن حجر في فتح الباري (١/ ١٠٦)، مالك في الموطأ (١٧٥).

(٢) جاء بالهامش لفظ: بلغ مقابلة وهو يفيد مقابلة المخطوط على الأصل المنسوخ عنه.

(٣) أطرافه عند: أحمد في المسند (٢/ ١٧٦)، الحاكم في المستدرك (١/ ٣٠)، ابن أبي عاصم في السنة (١٠٧، ١٠٨)، الهيثمي في مجمع الزوائد (٧/ ١٩٣)، الألباني في الصحيحة (١٠٧٦).

والصوم وصف من أوصاف الربوبية لا يتصف به على الكمال إلاّ الله كما قال: ﴿وَهُوَ يُطْعِمُ وَلاَ يُطْعَمُ﴾(١). وكما ورد في الحديث: «الصوم لي وأنا أجزي به»(٢).

فإضافة الصوم إلى نفسه أي لا يتصف به أحد إلا الله لأنه الغني عن الكل أبد الآبدين ودهر الداهرين والمنزه عن جميع الأعراض والشهوات أزلاً وأبداً ولا يتصف بهذا إلاّ الله ومن سواه لا بد له من أكل وعرض ملكاً كان أو غيره فالملائكة ومن أشبههم من المخلوقات طعامهم التسبيح والأذكار وشرابهم/ المحبة الخالصة والمعارف والعلوم الصافية من الأكدار [٦٥/ ب] في كل دار وقد دعاهم الباري إلى الاتصاف بأوصافه وتَعبدهم بها على قدر طاقتهم ووسعهم والصوم من أوصافه ومن أصعب الأشياء على النفوس لأنه خلاف ما جبلوا عليه فإن وجودهم لا يقوم إلا بمادة بخلاف وجود الباري تعالى الغني عن كل شيء.

ففرض الله الصوم على عباده لكسر شهوات النفوس وقطعاً لأسباب الاسترقاق والتعبد للأشياء فإنهم لو داموا على أغراضهم لاسترقّتهم الأشياء واستعبدتهم وقطعتهم عن الله كل القطع.

فالصوم يقطع أسباب التعبد لغير الله ويورث الحرية من الرق للشهوات والشبهات لأن المراد من الإنسان أن يكون مالكاً للأشياء وخليفة فيها لا أن تكون مالكة له لأنه خليفة لله في ملكه فإذا استغرق في أغراضه وملكته فقد أقلب الحكمة وصير الفاعل مفعولاً والأعلى أسفل كما قال تعالى: ﴿أَغَيْرَ ٱللَّهِ أَبْغِيكُمْ إِلَـٰهاً وَهُوَ فَضَّـلَكُمْ عَلَى ٱلْعَالَمِينَ﴾(٣).

والهوى إله معبود به استعبدت الأشياء للخلق فالصوم يورث قطع أسباب التعبد لغير الله وقد علم الله تعالى أن رمضان يغني في قطع ذلك إذا صامه الصائمون كما يجب ولذلك ورد في الخبر: إذا سلم رمضان سلمت السنة كلها.

ومن زاد زادت حريته ما لم يخرج إلى ضرر بالنفس والعقل بل الكمال المحض في حق الإنسان أن يملك الأشياء ولا تملكه ويسترقها بالخلافة ولا تسترقه فيتناول الشهوات في أوقاتها ويضعها/ في أماكنها وهذا هو وصف الربوبية يتصرف في ملكه بالتدبير ولا يشغله بل [٦٦/ أ] يملكه كل الملك ويقهره كل القهر.

---

(١) سورة الأنعام (الآية: ١٤).

(٢) أطرافه عند: أحمد في المسند (٢/ ٢٣٤)، البيهقي في السنن الكبرى (٤/ ٢٣٥)، الطبراني في الكبير (١٠/ ١٢٠)، الطحاوي في مشكل الآثار (٤/ ١١٦).

(٣) سورة الأعراف (الآية: ١٤٠).

والمراد بالصوم الاتصاف بتلك الصفة[1] على قدر طاقة الإنسان وهو الوقوف عن تناول أغراض النفوس ليستغني عنها بنفسه كما ورد في: «ليس الغنى عن كثر العرض إنما الغنى غنى النفس»[2].

وما لم يكن له ذلك على الكمال كما هو الباري لم يكن له بد من تناول ما يحتاج إليه فشهود الأشياء بغيبه منشئها واحتجابه في غيب غيبه ليل وتناولها فطر لأنه سكون إليها كما قال تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِي جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيۡلَ لِتَسۡكُنُواْ فِيهِ﴾[3].

وظهوره للأشياء والأكوان بما يلوح من أنوار تجليه نهار، والوقوف معه والإمساك صوم ما دام النهار، فإذا ردهم إليهم وعليهم فقد غيبهم عنه رحمة منه بهم لأنه لا يطيق الدوام على تلك الحال إلاّ هو الغني الصمد الذي لم يلد ولم يولد فهكذا دأبهم في كل سنة مع ما في أوقات الصلوات من الخروج عن الأشياء أيضاً إليه والحج وغيره من المفروضات إذا أُديت على الكمال أورثه الحرية الكاملة.

ولو لم يكن ذلك لما فرضه الله لأن رضاه في فرائضه وإنما التقصير في الفرائض هو الذي ملك النفوس ونكس الرؤوس ألا ترى أن الخصوص قالوا: إنما الصوم الحقيقي إمساك الجوارح عن النهي.

وقال أبو الدرداء: يا حبذا صوم[4] الأكياس وفطرهم كيف يغبنون صوم الحمقى.

وكذلك ورد في الخبر: إن الغيبة والكذب يفسد الصوم والنظر بشهوة، إلى غير ذلك مما ورد في الأخبار.

ب] فلو أن الفرائض أُتي بها على حسب الأمر لكان/ فيها رضى الله عز وجل وغاية الدرجات ولذلك استحبت كثرة النوافل لأنها جبر لنقصان الفرائض كما ورد في الأخبار.

وإذا فهمت هذا علمت أن فطام النفس عن الدنيا والمنهيات هو الصوم الحقيقي لمن لاحت له أنوار الاستهلال من اليقين بالله والدار الآخرة فصام لرؤية ذلك مدة الحياة الدنيا وأفطر عند الله لرؤيته وذلك يوم عيده لاستهلال آخر عند خروجه من الدنيا إلى الآخرة وهكذا

---

(١) في الأصل: بذلك الخُلق. فاستبدلت العبارة بما يليق بالباري سبحانه وتعالى.

(٢) أطراف هذا الحديث عند: البخاري في الصحيح (٨/ ١١٨)، مسلم في الصحيح (الزكاة ب ٤٠ رقم ١٢٠)، الترمذي في الجامع (٢٣٧٣)، ابن ماجة في السنن (٤١٣٧)، أحمد في المسند (٢/ ٢٤٣)، مسند الحميدي (١٠٦٣)، ابن حجر في الفتح (١١/ ٢٧١).

(٣) سورة يونس (الآية: ٦٧).

(٤) في الأصل: نوم. وهو تحريف.

دأبهم في الجنة جزاء على ما استعبدوا عليه في الدنيا إذا كانوا مع الله بالمشاهدة وقفوا بأغراضهم شبيهاً بأيام رمضان وأداء الفرائض.

وإذا أشهدهم الجنان كانوا مع الحور العين والأكل وغير ذلك شبيهاً بلياليه وبخروجهم من الفرائض إلى المباحات وتنقّلهم أيضاً من درجة إلى درجة أخرى فطر في تلك الدرجة لأنهم لم يذوقوها بعد هكذا يصومون لرؤيته ويفطرون لرؤيته.

مَنَّ الله علينا بالحرية الكاملة والكرامة الدائمة بمنّه وفضله. آمين.

[فصـــل]

واعلم أن اعتبار الصوم في الوجود كله عام قد شمل الموجودات كلها إذ الصوم هو الإمساك والتقيد عن الخروج من وظيفة ما قيد به كل موجود وهذا إذا نظرت إلى الموجودات كلها وجدت كل واحد قد لزم ما قيد به وأمر به فنرى الثقيل قد امتسك في مقامه ولا ينتقل والخفيف لا يصعد عن مقامه وكل شيء مزموم بزمام الأمر وممسوك بإمساك الذي يمسك السماوات والأرض أن تزولا.

وكذلك كل صيام في حق كل موجود: ﴿وَلَهُ أَسْلَمَ مَن فِي ٱلسَّمَاوَاتِ وَٱلأَرْضِ﴾[1]. [وقال][2]: ﴿إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلإِسْلاَمُ﴾[3]. [وقال][2]:/ ﴿وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلإِسْلاَمِ دِيناً فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ﴾[4]. لأنه دين الله الذي افترضه على جميع خليقته. [٦٧/

فصوم العَالم ضبطه نفسه وإمساكه ذاته على الانحياز إلى بارئه وتقبضه عن أن يسترقه شيء غير الله وهذا إذا نظرته بحقيقة النظر وجدته عاماً في جميع جواهر العالم كله كوناً وشرعاً وحالاً ومقالاً إلا الثقلين فإنهم خالفوه شرعاً لا كوناً، ولهذا المعنى ورد في الأخبار: «إن لله في كل ليلة من رمضان عتقاء من النار»[5].

لانقطاع أسباب الهوى التي استرقت الخلق إلا ما شاء الله.

---

(١) سورة آل عمران (الآية: ٨٣).

(٢) زيادة للفصل بين الايات.

(٣) سورة آل عمران (الآية: ١٩).

(٤) سورة آل عمران (الآية: ٨٥).

(٥) أورده ابن الجوزي في الموضوعات (٢/ ١٩١)، وفي العلل المتناهية (٢/ ٤٢).

الشعبة الثامنة: الحـج

فأمَّا كونها من شعب الإسلام فما تقدم من حديث جبريل عليه السلام دليل عليه وغيره من الأحاديث، وقوله [ﷺ]: «من مات ولم يحج ولم يحدث نفسه بحج فليمت إن شاء يهودياً أو نصرانياً»[(١)].

وفرضه مرة واحدة في العمر مع وجود الاستطاعة، وله فرائض وسنن وأسرار كثيرة لأنه ركن عظيم من أركان الدين ولا بد من وصف كيفية العمل فيه ظاهراً ونبه على أسراره في كل عمل من أعماله وموقف من مواقفه عند ذكر أعماله الظاهرة ليرتبط الظاهر الذي هو مقام الإسلام بالباطن الذي هو مقام الإيمان وبالحج الباطن الذي هو مقام الإحسان، والنفس والروح بالباطن إن شاء الله. فأوَّل ما يجب أن تفهم أن البيت مكة أعزها الله ببطن وادٍ كما وصفه الله ﴿بِبَطْنِ مَكَّةَ مِنْ بَعْدِ أَنْ أَظْفَرَكُمْ عَلَيْهِمْ﴾[(٢)]. [وقوله][(٣)]: ﴿بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ﴾[(٤)].

[/ ب] والبطن مما يخفى فلا يظهر وكذلك الوادي: ما انخفض/ من الأرض والبلاد محيطة به في جميع النواحي من المشرق والمغرب والجنوب والشمال، وله أربعة أركان الركن اليماني منه يلي جهة اليمن والقطب اليماني والركن الشمالي يلي جهة الشام والعراقي يلي المشرق من طلوع الفلك، والركن الرابع يلي جهة المغرب حيث تغرب الفلك، وأعلاه يلي البيت المعمور في السماوات.

وكذلك القلب في باطن الإنسان في خفية شبيهة بمكة التي هي بواد وببطن مكة يمينه يلي جهة ملائكة اليمين التي هي الجنة وبواطن اليُمن والبركة وشماله يلي جهة ملائكة الشمال الغلاظ الشداد الذين هم خدمة قبضة الشمال وهي النار والركن الآخر يلي جهة الدنيا شبيهاً بالركن العراقي من جهة المشرق كما قال النبي ﷺ: «الفتنة هاهنا»[(٥)] وأشار إلى جهة المشرق.

---

(١) أطرافه عند: الزيلعي في نصب الراية (٤/ ٤١٢)، ابن عدي في الكامل (٤/ ١٦٢٠)، السيوطي في الدر المنثور (٢/ ٥٦)، ابن الجوزي في الموضوعات (٢/ ٢٠٩)، السيوطي في اللآلىء المصنوعة (٢/ ٦٦).

(٢) سورة الفتح (الآية: ٢٤).

(٣) زيادة للفصل بين الآيات.

(٤) سورة إبراهيم (الآية: ٣٧).

(٥) أطرافه عند: البخاري في الصحيح (٧/ ٦٦)، مسلم في الصحيح (الفتن ٤٦)، أحمد في المسند (٢/ ١٨)، ابن حجر في الفتح (١٣/ ٤٥)، ابن كثير في البداية (٧/ ٣٠٣).

وباب الكعبة ناحية العراق وكذلك باب القلب مما يلي الدنيا من جوارحه لأن من جهة الدنيا تظهر الظواهر كلها وتطلع بالإيجاد في عالم الدنيا.

والركن الرابع مما يلي الأقدار السابقة واللوح المحفوظ والقضايا الواردة عليه من الأزل القديم لأن ما يرد عليه من هذه الجهة مغيب عنه شبيهاً بالمغرب التي تغرب فيه الأفلاك وجميع الحركات، وأعلى القلب يلي جهة العرش وهو موضع نظر الله تعالى ومثل الحرم الدائر المحيط بالبيت مثل ما أحاط بالقلب من تجويف الجسد ومثل تحريم الحرم حول البيت أن لا يقطع شجره ولا ينفر صيده مثل تحريم دمه وعرضه وكل شيء منه من أجل قلبه الذي هو محل الإيمان.

وكذلك حرم مكة إنما حرم وعظم من أجل/ بيت الله وكما أن الحرم لا يأوي صاحب [٦٨/ أ] فرية بل تقام فيه الحدود كذلك لا حرمة لمن أمر الشرع بأخذ الحقوق منه بأي وجه كانت.

ومَثَلُ إحاطة آفاق السماوات كلها من جميع الجهات بالبيت مثل إحاطة عالم الملكوت بالقلب في الغيب ومثل ارتفاع الجبال على مكة في نواحيه كلها مثل الجِبِلّات والغرائز الحسية التي جبله الله عليها.

وفيه بئر زمزم يستخرج ماؤه بالدلاء وهو ماء مختزن في محله لا ينال إلا بالاستقاء والأسباب.

وهو مثال علم الشرع الظاهر لا ينال إلا بأسباب الطلب وفي ظاهره شبه زُعاق[1] وهو مثل بصعوبة العلم على النفوس.

وماء زمزم لما شرب له وكذلك العلم لما نوى طالبه به، وزمزم العلم في خزانة الحفظ عند حامليه والوعي شبيه بحفظ ماء زمزم بأيدي أهل السقاية الذين يسقون الحجاج.

وفي جدار البيت الحجر الأسود مبني فيه مثاله سويداء القلب وفيه يكون الوجد والمواجيد التي تظهر بتأثير يدي القدرة الأزلية والوجد عبارة عن تقبيل اليد، ومثل مواطن الحج ومواقفه مثل منازل ومقامات تحلها النفوس والأرواح والعقول والأسرار والخواطر والإرادات والحواس وهم الطائفون في الملكوت المحيط بالقلب.

والكعبة بيت الله في الأرض، وكذلك القلب بيت الله على الحقيقة لأن بيت مكة لا يسعه: «لم تسعني أرضي ولا سمائي ووسعني قلب عبدي المؤمن»[2]

(١) ماءٌ زُعاقٌ: مُرٌّ غَلِيظٌ لا يطاق شربه من أُجُوجَتِهِ (لسان العرب).

(٢) أورده ابن الجوزي في تذكرة الموضوعات (٣٠)، الزبيدي في إتحاف السادة المتقين (٧/ ٢٣٤). وعلق =

ودعى الله الناس إلى الحج وفرضه عليهم بشرط الاستطاعة.

ومعنى الحج في اللغة القصد إلى المحجوج له والزيارة له في مواطنه كما قيل: كانت العرب تحج إلى/ النعمان وهو ملكها أي تقصده بقضاء حوائجها. [٦٨/ ب]

وهو مشتق من المحجة التي يقطعها الحاج في طريق زيارته وقصده إلى بيت الله الحرام وكذلك جملة أسرار الإنسان نوديت بالقصد إلى الله في القلب وفيها يوجد كما ورد: «اطلبني عند المنكسرة قلوبهم من أجلي».

وأمر إبراهيم عليه السلام بتطهيره للطائفين والعاكفين.

وكذلك فعل نبينا عليه السلام حين دخله عنوة على المشركين طهره من الأوثان والأصنام وأرجاس الجاهلية عام الفتح حين فتح الله عليه مكة، كذلك فتح الله على الإنسان قلبه بالنصر على إبليس وصفات الجهل ودقائق الشرك طهره من التماثيل التي تمثلت في القلوب وعكفت عليها النفوس التي توهمت أنها تضر وتنفع.

وقيل إن الحجر الأسود اسْوَدَّ من أيدي المشركين وكذلك سويداء القلب بخواطر الشرك والجهل ونزغات الشيطان. ومثل كون الناس في أمصار البلاد وغيبتهم عن البيت مثل غيبة أسرار العبد وتصرفها في عالم الدنيا، والمباح مثل ترك الأوطان والقصد إلى مكة للحج مثل خروج أسرار العبد من الدنيا إلى الله وهو الحج الأكبر على الحقيقة لمن أعطيه.

فأول أمور الحج قطع الطريق إلى البيت ومثله قطع منازل السلوك إلى الله وما يلقى في الطريق من المخاوف والأهوال والتيسر مثل ما يلقى في طريق الله من الوساوس والمكابدة وضد ذلك لمن سهل عليه الطريق إلى الوصول إليه.

ومثل وصوله الميقات وتركه الأوطان وراء ظهره مثل وصول أسرار العبد إلى الإشراف على استنشاق روائح الملكوت/ فيرمي أمور الدنيا وراء ظهره بترك المبالاة بها. [٦٩/ أ]

وأول ما يعمل الحاج في الميقات التجرد من ثياب المخيط وكذلك مثاله في الأسرار التجرد من الالتباس بما يشغل عن الدخول في طريق أهل السير إلى الله في منازل السلوك ثم بعد ذلك الغسل للإحرام ومثاله التطهر من أوساخ العلل الملوثة له في دار الدنيا ليتأهب للوصول بمطهر السير ثم بعد ذلك لبس أثواب الإحرام وهو مثال للابس الأسرار لأسباب الزهد، ثم صلى ركعتين وهو مثال التزام الذل والتواضع في طريق الله لمن دخلها وترك الكبر

= عليه الناسخ بالهامش بقوله: لم يسنعني.. الخ. قال السخاوي في المقاصد الحسنة: ذكره الغزالي في الإحياء وقال: (...) موضع النقط ساقط من التصوير ثم ظهرت كلمة (فتأمل) وهي آخر ما علق به. قلت: وهو حديث باطل لا أصل له.

لأنه لا يليق بطريق الله، ثم بعد ذلك عقد الإحرام والدخول فيه بالنية ومثاله للأسرار الالتزام للازم طريق الله لأن من دخل طريقاً التزم أموره بالعزم والحزم ثم بعد ذلك التلبية ومعناه أن الله تعالى دعا الخلق إليه والإعراض عن غيره فأجابته لبيك اللهم لبيك إجابة لدعوة الله.

ومعنى رفع الصوت بها لأن العبد في محل الغيبة لم يصل بعد إلى الله.

رفع الصوت بالتلبية والاستجابة له: ﴿يَآ أَيُّهَا ٱلَّذِينَ آمَنُواْ ٱسْتَجِيبُواْ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ﴾(١) الآية.

ومعنى رفع الصوت بها إشغالاً للقواطع الشاغلة كي لا تصده في طريق الله تعالى فإن الله ليس بأصم ولا غائب.

ثم ترك الصيد وقتله ترك الحيل في أخذ الدنيا وصيدها بالدين ولذلك أمر بزاد في الحج ﴿وَتَزَوَّدُواْ فَإِنَّ خَيْرَ ٱلزَّادِ ٱلتَّقْوَىٰ﴾(٢) ثم ترك التطيب والرفاهة وهو مثال ترك الإسراف والانحلال من لوازم طريق الله والركون إلى خدع النفوس بركوب المحظور/ المحرم ومن [٦٩/ ب] واقع شيئاً من ذلك في الحج لزمه الفدية والجزاء ومثاله في طريق الله معاقبة النفوس بالتوبة ورد الظلامة والإقلاع ولا يزال كذلك سالكاً طريقه حتى يدخل مكة فيغتسل اغتسالاً آخر لدخول مكة وهو مستحب وهو مثال لأخذ الأهبة من أجل الإحساس بقرب المرور.

فإذا دخل مكة دخل من موضع يقال له كُدًا ومعناه الكدَاء عند مشاهدة المواطن الملكوتية.

فإذا دخل مكة أمسك عن التلبية لأنه استشعر السر المحضور حين حل بساحة الملك إذ ليس من الأدب رفع الصوت مع الكبراء بحضرتهم ولأن حضوره يقطع عنه الشواغل التي توجب له رفع الصوت في محل الغلبة.

ثم بعد ذلك يمشي إلى البيت ويبدأ بالحجر الأسود يقبله، ومثاله أن من دخل على ملك من الملوك أول ما يسرع إلى تقبيل يده وهذا في سويداء القلب أنين لأنه بين أصبعين من أصابع الرحمٰن وفيه تبدو أيادي المواهب وآثار يد القدرة الأزلية في محل أسرار الغيب ثم يطوف الجسد بالبيت ومثاله في القلب جولان الأسرار في عالم الملكوت حول العرش.

ويبدأ الطائف بالحجر ثم يعود إليه أبداً ومن الصحابة وكثير من العلماء من يستلم الركن اليماني وغيره وقد استلم رسول الله ﷺ الركن اليماني أيضاً، فمن استلم الأركان ولم

---

(١) سورة الأنفال (الآية: ٢٤).

(٢) سورة البقرة (الآية: ١٩٧).

يقتصر على الحجر أشار إلى أنه يتملق ويركن إليه بسره في كل شيء ينبسط بالإقبال والهش إليه، ومن اقتصر على الركن كأن السر أشار إليه إلى التعزيز والتوقير كما يصنع من/ يقبل يد [٧٠/ أ] الملك إذا دخل عليه ثم يحف به ويطوف حوله ولا يقربه تعزيزاً وتوقيراً وإجلالاً حتى يعود إليه مرة أخرى.

وصفة الطواف ثلاثة خبباً وأربعة مشياً، مثاله في السر إذا شاهد من صافح بيمينه استفرغ الجهد بوقار في الحب به لما خالطه من الوله ثم مضى يستأنس بتسكين الله بما يوجده من السكينة واللطف والطمأنينة والرحمة فيثقل بما يرد عليه من الرحمة. ورد في الخبر أن الطائف بالبيت يخوض في الرحمة. ثم يتنحى إلى مقام إبراهيم فيصلي فيه ركعتين مثله أن السر حين صافح سبحات اليد تخللت مودته أسراره ويرى همه بتوصيله إلى مقام من الخلة فتواضع وسجد وذل شكراً له على إنزاله تلك المنزلة وتوصله إليها، ثم يرجع إلى الحجر الأسود فيقبله كذلك السر يرجع إلى اليد فيقبله تقبيل رؤية المنة التي أنزلته منزلة الخلة واليقين.

ومن رأى المنة وقبلها فقد رأى اليد الذي امتن عليه وقبله.

ثم يرجع إلى الصفا والدعاء، كذلك السر إذا نزل المقام المتقدم وشاهد المنة بتقبيل اليد خرج من ذلك إلى ربه بتركه الدعاء وبالفقر من جميع الأحوال فيصفي قلبه من دقائق الشرك الخفي وإضافة الأشياء إلى نفسه، ثم يسرع في المسير إلى المروة فيقف عليها، مثاله أن السر صعد عن الأشياء بخروجه منها وارتقى بترقيه على الصفاء منها هرب أيضاً من صفاء سره أن يراه لنفسه مقاماً أو يرى أنه وصل إليه بصفائه فيفر إلى المروة إذ ليس من المُروءة أن يرى شيئاً من الأشياء/ باستحقاق أو بدعاء بحضرة مالكه وواهبه بل ذلك قبيح فيفر حين يرى [/ ب] ذلك قبيحاً إلى السروة ثم يفر أيضاً من مروته إلى الصفا فيصفي سره منها ذاهباً وراجعاً يفر من نعوت رسومه وصفاء أحواله حتى يخرج منها.

فإن كان معتمراً حلق أو قصر وإن كان حاجاً بقي على إحرامه.

وسيأتي الحلق في مواضعه إن شاء الله.

وعند ذلك تمت وظائف القدوم ويسمى هذا طواف القدوم لقدوم الخلق على البيت وقدوم السر على القديم الذي تقدم إليه بنعمه وسكن في جواره حتى خرج من الأشياء إليه.

ويسمى أهل مكة جيران الله لأنهم سكنوا بيته.

كذلك الأسرار إذا قدمت عليه وتمت وظائف قدومها لم تسكن لأحد إلاّ إلى الله كما

قال القائل: طلبت لنفسي موضعاً في الملكوت فلم أجد، فضربت خيمتي بإزاء العرش.

فهذا مثال النزول بمكة حتى يخرج منها إلى عرفات ثم يخرجون من مكة إلى عرفات.

كذلك الأسرار إذا حلت بجوار الله استدعاها للعرض عليه لتعريف ما لها وعليها فتذكرت ما سلف لها فبتذكره خرجت عن قرب الجوار إلى مشاهدة ما سلف لها وعرفت أعظم مواقف الحج لأنه عرض على الله ووقوف بين يديه.

وينزلون في طريقهم بموضع يقال له خيف بني كنانة في منى حيث نزل رسول الله ﷺ وهو قبل عرفة، مثاله أن الأسرار إذا تهيأت للعرض على الله اعترضها في الطريق الخوف منه لا بد ولا محالة لكن الخيف محله في منى، كذلك الأسرار إذا خافت لم تقنت وتمنت على الله بحسن الظن عظيم المغفرة والوسائل.

ثم يدخلون إلى عرفة كذلك الأسرار إذا حلت بمقام الخوف وحسن النطق بالتمني/ [٧١/ أ] عليه والرجاء فيه لاح له معرفة الله بما هو له أهل فلا يزال متوجهاً حتى ينزل بها فينزلون بعرفة وينتظرون زوال الشمس للوقوف شبيهاً بانتظار الأسرار حين حلّت بمعرفة الله بالخوف والرجاء بما يرد عليها منه.

فإذا زالت الشمس أخذ الإمام في الخطبة، ومثاله في السر الإنذار لمجيء تجلي الديان ليتهيأوا لقدومه عليهم ويعلمهم الأدب بين يديه وكيف يقفون له بالإجلال والتعظيم.

ثم يأخذون في الصلاة بعد الخطبة، وكذلك السر إذا تجلى له ظهور الملك خضع وسجد لجلاله وهي صلاة تحية لتجليه ألاَ ترى أنها مفروضة لأنه لم يظهر لهم لأنهم في وقت فريضة الواجب له عليهم لأنه موطن عرض ومحاسبة فلا يقدم أحد على الهدية التي هي النافلة لهيئة العرض والحساب ويقدمون العصر إلى الظهر ويجمعونهما لأن من قدم بين يدي الله للمحاسبة والعرض لا ينسب نفسه في المحاسبة وطلب الخلاص ثم يقطعه بين يدي ملك الملوك فلم تكن الحكمة إلا في جمع الصلاتين لهذه العلة.

فإذا تمت الصلاة أخذوا في الوقوف والدعاء والإقرار بالذنوب إلى غروب الشمس كذلك الأسرار إذا عرفها الله في مقام مشاهدة تجلى ما لها وما عليها وما عمل في حقه وما واقع العبد في عمره كله حتى لا يبقى شيء من مخبآته إلاّ تذكرها السر في ذلك المقام فيقربها لبارئه فلا يزال يدعو ويتضرع حتى يجد آثار سمع الباري تعالى وكريم صفحه وكثيف ستره فيجد آثار معنى ما أوحى الله إلى ملائكته في يوم عرفة.

وورد: أنه يشرف على أهل عرفة فينظر إليهم فيقول لملائكته انظروا/ إلى عبيدي شعثاً [٧١/ ب] غبراً.. الحديث إلى آخره.

فإذا غابت الشمس نفروا إلى مزدلفة، وذلك إشارة في السر إلى غيبة حرارة المحاسبة والعرض عن الأسرار والأرواح والنفوس ووجد الفرح بغيبه ضوء كشف العورات فيه ومخبئات النفوس فإذا سبل الليل عليهم لبسته ألبست الأسرار أردية الستر الكثيف للقبائح وتعرفت بمغافر المغفرة فيتوجهون إلى مزدلفة ويصلون المغرب والعشاء بعد مغيب الشفق لأنه حينئذ يتم ضوء الشمس بالكلية ويذهب حرُّها، وكذلك بكمال التباس الستر الكثيف ووجود برد العفو يصل العبد إلى منازل الزُّلف والزلفى من الله، وكذلك الحاج يصل إلى مزدلفة بعد ذهاب الشفق فإذا وصلوا مزدلفة جمعوا بين الصلاتين لأنهم حينئذ كمل تطهرهم عن المخالفات بزوال جميع حرارة تعب الكدّ والتعب من ثقل المحاسبة فكانت السُّنة تأخير صلاة المغرب وجمعها مع العشاء لهذه اللطيفة لتكون الصلاة بعد كمال الطهارة وفراغ السرِّ من الكدِّ والتعب الذي تقدم ذكره، ولذلك يغتسل الحاج بالمزدلفة وهو من الأغسال المستحبة في الحجّ، وهذا الغسل تأهب لنزول منزلة الزُلفى والزلفى منزلة رفيعة من القرب: ﴿وَمَآ أَمْوَٰلُكُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُكُم بِٱلَّتِي تُقَرِّبُكُمْ عِندَنَا زُلْفَىٰٓ﴾[1].

ثم يبيتون بالمزدلفة طول ليلتهم، فإذا لاح الفجر صلوا الصبح ثم يقفون بالمشعر الحرام إلى قرب طلوع الشمس، كذلك الأسرار إذا ظهرت ونزلت محل القرب ووجدت برد العفو والتبست به أردية الستر نظرت شزراً بشعورها إلى محارم الله وذكرته/ عند أمره ونهيه. [٧٢/ أ]

وهذا الذكر من أفضل الأذكار ـ أعني ذكر الله عند أمره ونهيه ـ إذا ذكرت الأسرار أمره ونهيه شعرت بالمحارم والنواهي فهو ذكر في محل شعورها كي لا تتدنس بعد التطهير فلهذا كان الوقوف بالمشعر الحرام بعد المزدلفة.

ثم يدفع الحاج إلى منى ويسرع ببطن محسر، ومثاله أن الأسرار إذا تذكرت بالمشعر الحرام أمر الله ونهيه في محل شعورها نفرت عن ذلك وهربت عن أن تقع فيها أعني الحرمات شبيهاً ببطن محسر الذي يسرع الحاج المشي فيه لأن السر بتذكر المحارم فينفر عنها ويتحسَّر على ما واقع منها ثم يرمي الحاج جمرة العقبة من أسفلها لأن موضع الحسرات في السر سفل.

وأما رميه جمرة العقبة بعد هروبه من المشعر وخروجه من بطن محسر فمثاله أن السر إذا شعر بذكر المحارم منها وتحسر عليها تذكر الذي أوقعه في المخالفات فرآه بسره وهو إبليس لأنه مع المحارم لا يفارقها أعني إبليس.

---

(١) سورة سبأ (الآية: ٣٧).

وعند رؤية السر إبليس يوسوس إبليس إليه ويذكره الرجوع إليها فيرجمه رجماً بالغيب يرد وساوسه عليه التي هي جمرات من جمرات جهنم فيحرقه بردها عليه في السرّ ويغضب عليه الله والغضب جمرة تتوقد ولذلك سميت جمرات.

ثم يذبح إن كان معه هَدْيٌ ومثاله إن كان معه هدي أنه إذا رمى وجه إبليس بجمراته تذكر بنفسه من يقبل وحي الشيطان فإذا هي الصفات البهيمية التي لا تدري ما يراد بها فيخدعها الشيطان ببلادتها فيذكيها بالنحر والذبح كي يحصل لها الذكاء والفطنة بذكاتها.

ثم يحلق رأسه أو يقصر منه، ومثاله في السر أن الدماء النفسية البهيمية إذا أهريقت/ [٧٢/ ب] في الله لتضيق مجاري العدو فيها قطع العلائق عنه التي يتعلق العدو بها وهي النواحي التي يعقد عليها في كل ليلة الغفلة ونوم الحياة الدنيا عليك ليل طويل أي تعيش كثيراً فارقد وأَخْلِدْ إلى أغراضك فإذا قطع العلائق من سره فقد تحرز من إبليس بجزّ ناصية الرق له.

فلم يبق له من الحج إلاّ طواف الإفاضة بالبيت العتيق فيتوجه الحاج إلى طواف الإفاضة كذلك السر إذا تحلل من العلائق توجه حراً إلى سيده فيطوف به ثم يرجع الحاج إلى منًى فيقيم بها ثلاثة أيام أو يومين ليتم رمي الجمار والنحر والذبح أيام التشريق، ومثاله في السر أن الأسرار إذا طافت طواف الإفاضة بعد حريتها استشعرت بالرجوع إلى مناجاتها فترجع إلى منًى فتستقصي تمام رمي الجمار لأن النفوس إذا رجعت إلى المباحات من الحج لا بد تتمنى الرجوع إلى المحرمات فيستقصي ذبحاً ويشرق بمنًى بحرمها ويرمي بقية الجمار مرّة بعد مرة تأكيداً لحبس النفوس بزمام الثقات إذا رجعت إلى أوطان المباحات.

فإذا تمت أيام التشريق فقد تم حجه فيطوف طواف الوداع ويرجع إلى بلاده، ومثاله أن السر إذا تمت وظائف حجه ولم يكن للبشرية بد من الرجوع إلى أغراضها ومباحاتها طاف بربه طواف المحب إذا ودع محبوبه وترك سرّه عنده فهذا الطواف طواف المحب يذكره بالرجوع إليه إن كان في ظاهره أنه وداع وفرقة فإنه أعظم للحرمة وأشد في تأكيد المحبة كما قال عليه الصلاة والسلام: «زُرْ غِبّاً تزد حُبّاً»[1].

ولأن كثرة الجلوس عند المحبوب يـ[illegible]ـب كثرة الأنس والإدلال ويخاف عليه أن يقع في مخالفته بكثرة الإدلال ولأن النفوس ذ[illegible]ـك/ أغراضها فإن لم ترجع وواقعت محظوراً [٧٣/ أ] بحضرة الملك المحبوب في جواره وجب [illegible]ـردها عز جواره لأن الذنب يضاعف بحضرة

(١) أطرافه عند: أبي نعيم في الحلية (٣/ ٣٢٢)، الحاكم في المستدرك (٣/ ٣٤٧) الطبراني في الكبير (٤/ ٢٦)، الصغير (١/ ١٠٧)، الشوكاني في الفوائد (٢٦٠) ابن [illegible] في الكامل (٢/ ٤٤٨)، ابن الجوزي في تذكرة الموضوعات (٣٠٤). قلت: هو حديث حسن لغيره.

الملك العظيم بقدر حرمته، وكذلك ورد في الخبر: أن الذنوب تضاعف بمكة كما تضاعف الحسنات، لهذه العلة التي ذكرتك بها. فافهم.

ولذلك ورد في الآثار: رُبَّ رجل بخراسان أو ببلد غير خراسان أقرب إلى هذا البيت ممن هو ساكن فيه. أو كما ورد.

[فصـــل]

اعلم أن الحج على ثلاثة أضرب:

إفراد بالحج، وقران بالحج والعمرة معاً، وتمتع بالعمرة إلى أيام الحج ثم الحج.

والحج بالإفراد أقواها وأصعبها، والتمتع والقران أيسر.

وقد اختلف في الكل أيها أفضل وقد ذكر الله الثلاثة أنواع فقال في القِرَانِ: ﴿وَأَتِمُّوا۟ ٱلْحَجَّ وَٱلْعُمْرَةَ لِلَّهِ﴾[1]. وقال في التمتع: ﴿فَمَنْ تَمَتَّعَ بِٱلْعُمْرَةِ إِلَى ٱلْحَجِّ﴾[1]. وقال في الحج: ﴿وَلِلَّهِ عَلَى ٱلنَّاسِ حِجُّ ٱلْبَيْتِ﴾[2]. لأنه الفرض.

فمثال الحج مفرداً في أسرار الحج الخروج من أمور الدنيا بالكليّة بالقصد إلى الله دون تعريج على شيء من الأشياء دونه والتضييق الكلي على النفس طول مدة الحياة الدنيا وهذا لا يطيقه إلاّ الأفراد لأنه إفراد لا فرد وهو أشبه شيء بالموت وما وراءه من أمور القيامة والآخرة.

والعمرة: مأخوذة من الزيارة في لفظها معنى من العمر وهي إلقاء رمق الحياة على النفس لأنه لولاها لم تعمر الدنيا ولذلك قال: ﴿فَمَن تَمَتَّعَ بِٱلْعُمْرَةِ﴾[1].

والتمتع هو الاستمتاع بالمباحات الشرعية إلى أيام الحج كما قال: ﴿وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي ٱلدِّينِ مِنْ حَرَجٍ﴾[3]. ثم يعود إلى المباحات.

وكذلك القِران الإشارة فيه إلى اقتران الرفق مع الشدة كما قيل: الإيمان شدة في لين وسماحة في يقين.

[٧٣/ ب] / وورد في الخبر: «إن الله يحب أن تؤتى رخصه كما يحب أن تؤتى عزائمه»[4].

---

(١) سورة البقرة (الآية: ١٩٦).

(٢) سورة آل عمران (الآية: ٩٧).

(٣) سورة الحج (الآية: ٧٨).

(٤) أطرافه عند: أحمد في المسند (٢/١٠٨)، البيهقي في السنن الكبرى (٣/١٤٠)، ابن خزيمة في الصحيح (٩٥٠).

وقد قال رسول الله ﷺ في الصحيح في حجته: «لو استقبلت من أمري ما استدبرت لم أسق الهدي ولجعلتها عمرة فمن كان منكم ليس معه هدي فليحل وليجعلها عمرة»[١]. فقيل له: ألعامنا هذا أم للأبد؟ فشبك رسول الله ﷺ أصابعه وقال: «دخلت العمرة في الحج هكذا» ثم قال: «لا بل لأبد آبد»[٢].

وكان عليه الصلاة والسلام أفرد الحج هو وعلي بن أبي طالب لأنه أقوى الأقوياء وقد أهل رسول الله ﷺ بالحج والعمرة كما روى أنس: قام رسول الله ﷺ بذي الحليفة وبات بها حتى أصبح ثم ركب حتى إذا استوت راحلته على البيداء حمد الله وسبح وكبّر ثم أهل بحج وعمرة، وأهل الناس بهما.

وهذا كله إبقاء على النفوس ورحمة وسماحة والحمد لله رب العالمين لكن بشرط ترك الحرام وترك الخروج إلى الإسراف الذي لا يحبه الله ولذلك استحبت الزيارة بعد الحج إلى قبر النبي ﷺ لأن السرّ إذا طاف طواف الوداع كما تقدم ورجع أوطان مباحاته يكون رجوعه إلى مباحاته بالسنة لا باتباع الهوى لأن النبي عليه الصلاة والسلام هو رأس السُّنة ومنه انفرعت بل هو السُّنة كلها.

فلهذا استحبت زيارته بعد قضاء الحج ليكون رجوعه إلى سنته كما تقدم.

فهذه أسرار الحكمة في الحج مبينة ظاهراً وباطناً في المقامات الثلاثة: الإسلام، والإيمان، والإحسان.

نسأل الله الكريم أن لا يجعلها حجة علينا وأن يكتب لنا في كل خير حظاً ونصيباً بمنه وفضله.

وصلى الله على محمد وآله [وسلم][٣].

---

(١) أطرافه عند: البخاري في الصحيح (٢/١٩٦)، مسلم في الصحيح (الحج ب ١٧ رقم ١٤١)، أبي داود في السنن (١٧٨٤)، النسائي في المجتبى (٥/١٤٣)، أحمد في المسند (١/٢٥٣)، البيهقي في السنن الكبرى (٤/٣٠٨)، ابن خزيمة في الصحيح (٢٦٠٦).

(٢) أطرافه عند: مسلم في الصحيح (الحج ب ١٩ رقم ١٤٧)، أبي داود في السنن (المناسك ب ٢٣)، النسائي في المجتبى (الحج ب ٧٦)، الترمذي في الجامع (٩٣٢)، ابن ماجة في السنن (٣٠٧٤)، الدارمي في السنن (٢/٤٧)، البيهقي في السنن الكبرى (٤/٣٥٢).

(٣) جاء بالهامش كلمة: بلغ. أي بلغ مقابلة المخطوط على المنسوخ منه.

الشعبة التاسعة: الجهاد

[٧٤/ أ] / أما كونه من شعب الإسلام والإيمان فلا يخفى وقد ورد في الحديث: «من لقي الله بغير أثر جهاد لقي الله وفي إيمانه ثلمة»(١).

إشارة إلى نقصان هذه الشعبة وهو في حديث عليّ الطويل دعامة من دعائم الإيمان حيث قال: بني الإسلام على أربعة دعائم: على الصبر، واليقين، والعدل، والجهاد. فجعله دعامة من دعائمه.

وغير ذلك من الشواهد والإجماع منعقد عليه أنه فرض من الفروض إلا أنهم قالوا على الكفاية يحمله بعض عن بعض.

وهذا الأصل لا يخرجه عن كونه معلقاً على الكل فإنه لو غشي العدو الأرض كلها لكان فرضاً معيناً على جميع أهل الأرض.

والجهاد نصر الإسلام به أعزه الله وإذا ترك ذل أهل الإسلام بتركه.

فصل

واعلم أن الجهاد على ضربين: ظاهر وباطن، والباطن على ضربين:

جهاد النفس والعدو في مقام الإيمان.

وجهاد الباطن الروح والعقل في مكابدة الطريق والفكر اقتباس العلم في مقامات الإحسان. فالظاهر جهاد الكفار والمنافقين والفجار في أقطار الأرض ظاهراً، والباطن جهاد الشيطان والنفوس القاطعة عن الله تعالى وهو الجهاد الأكبر كما ورد في الخبر: «جئتم من الجهاد الأصغر إلى الجهاد الأكبر»(٢).

وهذا الجهاد فرض عين على كل خلق كما قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلشَّيْطَانَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَٱتَّخِذُوهُ عَدُوًّا﴾(٣). وقال: ﴿فَقَاتِلْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ لَا تُكَلَّفُ إِلَّا نَفْسَكَ﴾(٤).

---

(١) أطرافه عند: الترمذي في الجامع الصحيح (١٦٦٦)، الحاكم في المستدرك (٢/ ٢٩)، المنذري في الترغيب والترهيب (٢/ ٣٣١)، التبريزي في مشكاة المصابيح (٣٨٣٥)، السيوطي في الدر المنثور (١/ ٢٤٩)، المتقي الهندي في كنز العمال (١٠٤٩٥).

(٢) بنحو هذا الطرف عند: ابن الجوزي في تذكرة الموضوعات (١٩١)، العجلوني في كشف الخفا (١/ ٥١١)، الزبيدي في إتحاف السادة المتقين (٦/ ٣٧٩).

(٣) سورة فاطر (الآية: ٦).

(٤) سورة النساء (الآية: ٨٤) وقد صحفت الكلمة الأولى إلى: مقاتل. فضبط التصحيف.

والمقام الإحساني في قوله: ﴿وَٱلَّذِينَ جَاهَدُواْ فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا﴾[(١)].

وغير ذلك مما يطول ذكره فمن فروض الجهاد: حسن النية فيه وذلك أن تكون كلمة الله هي العليا.

وأن تكون في المجاهدة قوة على القتال/ قال الله تعالى: ﴿وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا ٱسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ ٱلْخَيْلِ﴾[(٢)]. [٧٤/ ب]

وأخذ العدة وهو السلاح، والثبات عند اللقاء، والإمام، وترك الغلول، إلى غير ذلك من واجباته.

فأول أمور الجهاد بعد التوجه إلى العدو: أن يدعوا إلى الإسلام فإن قبلوه وإلاّ قوتلوا إلا أن يكونوا ممن قد بلغتهم الدعوة إلى الإسلام أو تعجلوا بالقتال فيقاتلوا.

ومثال ذلك في جهاد الباطن أن النفس الأمّارة بالسوء تدعى أولاً إلى طاعة الله فإن أبت وجب قتالها وصدها عن ارتكاب المنهيّ.

وأما الشيطان فإنه قد بلغته الدعوة من أول الدنيا إلى آخرها وقد يئس الكل من إيمانه فلا سبيل إلى دعوته بل معاجلته بالجهاد حيث وجد.

ولفظ الجهاد مشتق من الجهد وهو المشقة والتعب.

فأما احتمال المشقة فيه ظاهراً فلا يخفى بأنه سفر من الوطن و: «السفر قطعة من العذاب»[(٣)].

ولقاء العدو والمخاطرة بالنفس في مقاتلته فلذلك عظمت درجة المجاهد في سبيل الله لعظيم ما يلقى وكثرت حسناته كما ورد في الحديث: إن أعمال البر كلها في الجهاد في سبيل الله كنفثة في بحر لجي.

أو كما ورد لأنه يقاتل عن كل من وراءه من المسلمين ولولا الجهاد لوصل العدو إلى من وراءه من المسلمين فكأنه ناب مناب الكل.

---

(١) سورة العنكبوت (الآية: ٦٩).

(٢) سورة الأنفال (الآية: ٦٠).

(٣) أطرافه عند: البخاري في الصحيح (٣/ ١٠)، مسلم في الصحيح (الإمارة ١٧٩)، ابن ماجة في السنن (٢٨٨٢)، أحمد في المسند (٢/ ٢٣٦)، الدارمي في السنن (٢/ ٢٨٦)، مالك في الموطأ (٩٨٠)، البغوي في شرح السنة (١١/ ٣٧).

[فصـــل]

واعلم أن المراد من الجهاد ما ذكره الله تعالى في قوله: ﴿وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لاَ تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ ٱلدِّينُ كُلُّهُ لِلَّهِ﴾[1] ظاهراً وباطناً: أي حتى لا يبقى تدين لسواه فإن الرب رب واحد والملك كله ملكه فوجب أن لا يكون دين إلا له، وأن يكون الخلق كلهم على قلب واحد، ومذهب واحد.

[٧٥/ أ] هذا هو الواجب/ على جميع المخلوقات فمن خالف هذا ظاهراً وباطناً فقد انحاز وافترق وإذا انحاز فقد ظهر الحد بينه وبين من انحاز عنه من أهل الإسلام وأهل الكفر فوجب قتالهم حتى يرجعوا كلهم على مذهب واحد ويعطوا الجزية عن يد وهم صاغرون ويقنع منهم بذلك لأنه ليس بقاؤهم على دينهم مع إعطاء الجزية إلاّ خزي بهم إذ لم يكن لهم في معبوداتهم من يعزهم بدينهم ضحكة بهم فكأنه لم يعبد في الوجود إلاّ الله فلهذه العلة قنع من الكفار بالجزية؛ وإن لم يرجعوا إلى الإسلام ولا أعطوا الجزية قوتلوا وقتلوا حتى يظهر فيهم ملك الله ولا يبقى لهم أثر إذ ليس بمعبوداتهم التي ادعوها وجود ولا أثر.

ولما لم يكن للآلهة التي ادعوها حقيقة ولا وجود حرم الفرار من الزحف لأنهم ليس لهم في باطنهم من ينصرهم والمؤمنون إلـٰهُهُم الحق معهم حيثما توجهوا وجدوا ربهم معهم فهو ناصرهم فلا غالب لهم إلاّ إذا فعلوا أفعال الكفرة والفجار دخل معهم صفات العدو فى بواطنهم فداخلهم الرعب الذي في بواطن الكفرة من وحشة الجحد، وبقدر فساد المسلمين يجد العدو لهم سبيلاً ومدخلاً.

ألا ترى إلى يوم حنين حيث وصف الله تعالى حال العجب منهم بالكثرة فقال: ﴿وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنكُمْ شَيْئًا﴾[2].

فلولا العجب لما أصيبوا ولما كان النبي عليه الصلاة والسلام بريئاً منه ومن شاء الله ممن كان حوله ذلك اليوم وأنزل الله سكينته ونصره عليه فهزم الله المشركين.

[٧٥/ ب] وكذلك يوم أحد لما عصوا الرسول فيما أمرهم/ به وجد العدو مدخلاً بذلك العصيان فكان ما كان فما سلط على أهل الإسلام في كل وقت ما سلط إلاّ بفساد أحوالهم.

فالذي يجب أن يكون حال المسلمين مع الكافرين ثلاثة أشياء: قتالهم حتى يرجعوا إلى الدين. أو قتالهم حتى يعطوا الجزية. أو قتلهم وسباءهم.

---

(١) سورة الأنفال (الآية: ٣٩).

(٢) سورة التوبة (الآية: ٢٥) وجاءت كلمة: «فلم» بالأصل: «فلن». وهو تصحيف فضبطه.

واقل من ذلك كله ان يكون الجهاد قائماً دائماً بيننا وبينهم بسد الثغور وتثقيف الحصون، وإن احتيج إلى صلح من أجل الضعف فعل لأجل الخدعة بهم في المستقبل: و «الحرب خدعة»[1]. لأن الكفر والإيمان ضدّان مثل الليل والنهار فكما لا يقوم الليل لوجود النهار كذلك الكفر لا يقوم لوجود الإيمان إذا التقيا إلاّ إذا غابت أنوار الإيمان أو ضعفت ظهر سلطان الليل بقدر غيبته وضعفه.

فمثال ذلك في ظواهر الأمر أن قبل مبعث النبي عليه الصلاة والسلام كانت الأرض كلها ظلمة مطبقة وأنوار الإيمان غائبة عن الأرض موجودة عند الملائكة وأهل الآخرة في الغيب فلما أظهر الله رسوله بمكة طلعت بظهوره شمس الإيمان بمكة فاستنار به من قبل من نوره بالإيمان به فلم يزل الدين يظهر شيئاً شيئاً ولكن بحكم الضعف لأنه طلع في سحاب متراكم بعضه عل بعض كما قال الله: ﴿أَوْ كَظُلُمَاتٍ فِي بَحْرٍ لُّجِّيٍّ يَغْشَاهُ مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِ مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِ سَحَابٌ ظُلُمَاتٌ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ﴾[2].

فإظهار النبي عليه الصلاة والسلام الإيمان بمكة ودعوة الناس إليه بمنزلة ظهور نور الشمس ورد الكفار عليه واستجابتهم له ولأصحابه بمنزلة حجب السحاب المتراكم المظلم لنور الشمس في اليوم الشديد السحاب المظلم فلم يزل كذاك مرة يظهر ويخفى/ حتى هاجر [٧٦/ أ] من هاجر من أصحابه وهاجر هو عليه الصلاة والسلام وبقي المستضعفون بمكة حتى ظهر النبي عليه الصلاة والسلام بالمدينة وافتتح الأقطار شيئاً بعد شيء حتى فتح مكة واتصل النور والفتح حتى توفي وبقي الفتح ظاهراً حتى عمر الأرض بوجود نوره عند خلفائه والقائمين به من بعد.

فلما ضعف الإيمان الذي هو النور بقبضه عن الحق لمخالفاتهم ظهر سلطان الليل حتى يأتي وعد الله.

وهذا المثل المضروب للنبي عليه الصلاة والسلام بالشمس موجود في قول الله تبارك وتعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِداً وَمُبَشِّراً وَنَذِيراً وَدَاعِياً إِلَى اللَّهِ بِإِذْنِهِ وَسِرَاجاً مُّنِيراً﴾[3]. فسماه ﴿سِرَاجاً مُّنِيراً﴾ والسراج هو الشمس كما قال: ﴿وَجَعَلَ الشَّمْسَ سِرَاجاً﴾[4].

---

(١) أطرافه عند: مسلم في الصحيح (١٣٦١، ١٣٦٢)، أبي داود في السنن (٢٦٣٦)، الترمذي في الجامع (١٦٧٥)، ابن ماجة في السنن (٢٨٣٣)، البيهقي في السنن الكبرى (٧/ ٤٠)، أحمد في المسند (١/ ٩٠)، الحميدي في المسند (١٢٣٧)، ابن الجارود في المنتقى (١٠٥١).

(٢) سورة النور (الآية: ٤٠).

(٣) سورة الأحزاب (الآية: ٤٥، ٤٦).

(٤) سورة نوح (الآية: ١٦).

وجهاد العدو ظاهراً بالسيف والرمح والرمي مفهوم وشروطه موجودة في كتب الفقه من طلبها وجدها وذلك إسلام.

وجهاد الشيطان والنفوس المتصفة بأخلاق الشياطين والكفرة والمنافقين هو الذي خفي لبطونه على الخلق وضعف على الجم الغفير فغار عليهم العدو لتسيب ثغوره وأسرهم وأوثقهم بحبال غروره فلا بد من تبيين معانيه إن شاء الله.

فالعدو الباطن هم الشياطين وأخلاق النفوس وصفاتها وأسلحتهم الوساوس وإلى هذا الجهاد الإشارة بقول النبي عليه الصلاة والسلام: «المجاهد من جاهد نفسه في طاعة الله»[١].

والكلام في هذا الباب يستدعي بيان أحكام الخواطر الخاطرة على القلب فإنها هي الأسلحة وقد قال النبي عليه الصلاة والسلام: «النظرة سهم من سهام إبليس»[٢].

[٧٦/ ب] وإنما رمى الناظر بها حين وسوس له فقال انظر فرماه وإلاّ بالخطرة فقبلها فنفذت/ مقاتله حتى وصلت إلى عينه فنظر فقتلت صفات الصيانة والعفاف من العبد، فأول ما يجب أن تفهم أن جسد الإنسان خلق للنفس وصفاتها بمنزلة الوطن والمدينة وهي باطنة فيه والدنيا محل الجسد وهي وطنه والنفس تتطلع إلى الدنيا على طريق الحواس والجوارح، والروح باطنها في غيب النفس مما يلي الآخرة التي هي محل الملائكة عليهم السلام. والشياطين غيب في وجود الدنيا.

فقد حصل الإنسان بجملته بين الدنيا والآخرة والملائكة والشياطين بين الدنيا والآخرة، والله محيط بالجميع.

والخواطر تأتيه من جميع جهاته ظاهراً وباطناً تدعوه إلى الخير والشر والجنود متصادمة فيه ومتقاتلة لا تفتر طرفة عين: ﴿وَٱللَّهُ يُؤَيِّدُ بِنَصْرِهِۦ مَن يَشَآءُ﴾[٣].

والخواطر هي الكلام، فالدنيا تتزين للنفس بزينتها وتدعو الخلق إليها وإلى الرغبة فيها

---

(١) أطرافه عند: الترمذي في الجامع الصحيح (١٦٢١)، أحمد في المسند (٦/ ٢١)، الطبراني في الكبير (١٨/ ٣٠٩)، البغوي في شرح السنة (١٠/ ٣٥٣)، الزبيدي في إتحاف السادة المتقين (٦/ ٢٥٤)، السيوطي في الدر المنثور (٤/ ٣٧).

(٢) أطرافه عند: الحاكم في المستدرك (٤/ ٣١٤)، الهيثمي في مجمع الزوائد (٨/ ٦٣)، المنذري في الترغيب والترهيب (٣/ ٣٤)، السيوطي في الدر المنثور (٥/ ٤١)، العجلوني في كشف الخفا (٢/ ٤٣٨).

(٣) سورة آل عمران (الآية: ١٣).

وعمارتها والشغل بها وكذلك الآخرة في مقابلتها تدعو الخلق إليها والإقبال عليها والإعراض عن الدنيا، والشيطان يدعو إلى ما هو عليه من المخالفات والعصيان، والملك يدعو إلى ما هو عليه من الطاعات وصفات الإيمان، والروح الذي صفته العقل يدعو وينظر إلى ما ظهر له مما استحسنه واختاره، والنفس تدعو وتأمر بما فيه غرضها وإرادتها.

والباري سبحانه يحرك الكل ومنه يأتي كل خاطر وقول وهذه كلها وسائط.

وللباري تعالى خاطر من علم واسطة وهو التوفيق لكنه يقوى في حق قوم ويضعف في حق قوم آخرين على حسب إرادته تعالى وقوته وضعفه.

فقد صارت الخواطر سبعة لا ثامن لها.

أما الخاطر الأول وهو خاطر الدنيا: / فإنه من نوع لسان الحال بل هو أنطق من لسان [٧٧/ أ] المقال فإن الإيمان يذكره بالآخرة ويرغب فيها وينسى الدنيا فهما ضدان بمنزلة ضرتين إن أرضيت إحداهما أسخطت الأخرى إلاّ أن يكون ما تأخذه من الدنيا ركاباً للآخرة فإنه يعود آخرة فإن الركاب ما يوصل إلى المنزل كما قال الله: ﴿فَمَا أَوْجَفْتُمْ عَلَيْهِ مِنْ خَيْلٍ وَلَا رِكَابٍ﴾[1] وهي الإبل المركوبة والسفن المركوبة أيضاً ركاب وكل ما ركب ليوصل إلى غرض الراكب فهو ركاب.

والمراد بهذا أن كل ما يخطر من أمور الدنيا ينظر فإن كان معيناً للآخرة قبل وركب وإن كان منسياً للآخرة مشغلاً عنها طرد ولم يقبل وهذا الخاطر الدنياوي خطر في ثلاثة أقسام:

القسم الأول: التذكير بما مضى وفاته من أمور الدنيا التي لا درك لها لأنه عرض قد زال.

فالقائل لهذا الخاطر والمستمع له من الناس لأنه يولد الحزن على الفائتات والأسف على الماضيات التي لا مرجع لها أبداً.

والقسم الثاني: التذكير بما يأتي من أمور الدنيا التي لا يدري الإنسان هل يصلها أم لا يصلها.

والقائل لهذا الخاطر والمستمع له داخل في التدبير للدهور وباسط للأمل الكاذب الغرور والمستغرق فيه أيضاً أحمق لأنه طالب لما لا يدرك وإن أدرك بعضه فهو تارك لما أدركه.

---

(١) سورة الحشر (الآية: ٦).

والقسم الثالث: التذكير بأمور الدنيا الحاضرة وأخذها والدخول في العمل لها ومن هذا الخاطر يتولد الحرص وهو سبب عمارة الحياة الدنيا المنسي للحياة الآخرة.

والوجه في الخلاص من غرور هذه الخواطر أن تنظر وتعرض على معيار العلم النافع الأُخرَوي فيقبل منها ما يحتاج إليه لله وللآخرة وغير ذلك لغوٌ يطرح ولا ينظر إليه فيكون عند ذلك مجاهداً في/ سبيل الله غانماً من فضل الله. [٧٧/ ب]

وأما الخاطر الثاني: الذي هو الإيمان الأُخرَوي فإنه مذكر بالمؤمنات القانتات على اختلاف أنواعها وينقسم على ثلاثة أقسام:

القسم الأول: خاطر إيماني مذكر بما مضى على العبد في الآزال الماضية وكتب له في الأقدار السالفة من أمور الدنيا والآخرة وهو خاطر محمود فما ذكر بأمور الدنيا وما سبق للعبد منها وكذا العلم فإن العبد لا يقدر أن يزيد فيها ولا ينقص منها فيستفيد من هذا الخاطر الرضى والزهد والتوكل وغير ذلك من الأحوال المحمودة وما ذكره بأمور ما سبق له من أمور الآخرة وكذا حال الخوف بما سبق أو جمع الهم لله وغير ذلك مما لا ينحصر من أحوال الناظرين للسابقة.

القسم الثاني: من الخواطر الإيمانية يذكر العبد في المآل وما في المعاد من الخيرات والأهوال فيولد الفكر فيما بعد الموت من أمور البرزخ والحشر والميزان والصراط والجنة والنار والحساب والغبن والخسران والفوز والرجحان.

فحصل من هذه الخواطر العلم النافع واليقين والإخلاص في العلوم والأعمال والنية المحمودة وغير ذلك من أحوال الصالحين المشغولين بما يلقون أمامهم من أمور الدار الآخرة.

القسم الثالث: من الخواطر الإيمانية يذكر العبد بما هو ملابس له من أمور الإيمان وهل هو بصفة المؤمنين حقاً أم لا؟ وهل يرضى أن يفجأه الموت على ما هو عليه أم لا؟ فيولد هذا الخاطر التفتيش والبحث على ما هو عليه العبد وترك ما لا ينبغي وأخذ ما ينبغي والاستعداد للموت قبل نزوله بكل محمود من العلم والأعمال والصفات والأحوال.

[٧٨/ أ] فهذا الخاطر الإيماني منقسم/ على ثلاثة لا رابع لها، والخاطر الدنياوي منقسم على ثلاثة لا رابع لها.

وكل واحد مضاد لصاحبه ومقاتل له إذا تأملتهما وجدتهما جُنْدَيْن متقاتلين على الدوام

﴿وَٱللَّهُ يُؤَيِّدُ بِنَصْرِهِ مَن يَشَآءُ﴾(١).

الخاطر الثالث من الخواطر السبعة: خاطر العدو إبليس لعنه الله فإنه على ثلاثة أنواع:

الواحد: أنه ينهى عن فعل الخير كله من جميع جهاته وهو معنى قوله: ﴿لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ ٱلْمُسْتَقِيمَ﴾(٢).

الوجه، ناه عن المعروف في العقائد والتكذيب والتشكيكات وفي الأعمال بالصد عنها: ﴿وَيَصُدَّكُمْ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ وَعَنِ ٱلصَّلَوٰةِ﴾(٣).

الثاني: الأمر بالمنكر والفحشاء وجميع أنواع الشر فإن قبل منه النوعان وإلاّ أخذ في الخاطر:

الثالث: وهو الاحتيال في إفساد معاني الخير وفتح أبواب الشر والإعانة والتحاض على خاطر الدنيا والتثبيط والكسل في خاطر الإيمان، وغير ذلك من الخواطر المحمودة.

فخواطره لا تخلو من ثلاثة أقسام: أمر بالمنكر، ونهي عن المعروف، والحيلة في إفساد الخير ليوقع في الشر.

فهو شر كله لا يدعو إلا إليه.

الخاطر الرابع من الخواطر السبعة: خاطر الملك: وهو ضد خاطر الشيطان لأن الملك ضد الشيطان وهو أيضاً على ثلاثة أنواع:

النوع الواحد: أمر بالمعروف كله.

والنوع الثاني: نهي عن المنكر كله.

فإن قبل منه فهو مراده وإلاّ أخذ في إبطال الشر والتثبت في حفظ معاني الخير ألاّ تبطل والحض عليها وعلى تقوية خاطر الإيمان والخواطر المحمودة غيره وحل أضدادها فإن الملك خير كله صفته العفية، والشيطان شر كله صفته الجرأة.

فكل منهما على/ ضد صاحبه ما يعمل هذا يتركه هذا وما يترك هذا يعمله هذا وما [٧٨/ ب] يصلحه هذا يفسده هذا وما يفسده هذا يصلحه هذا وما يحرض عليه هذا يكسل عليه هذا، هكذا دأبهما أبداً إلى الوقت المعلوم.

---

(١) سورة آل عمران (الآية: ١٣).

(٢) سورة الأعراف (الآية: ١٦).

(٣) سورة المائدة (الآية: ٩١).

والخاطر الخامس من الخواطر السبعة: خاطر النفس: وهو على ثلاثة أنواع أيضاً وذلك أن النفس لها طبيعتان عجنتا في خلقتهما:

الطبيعة الواحدة: طبيعة شهوانية.

والأخرى: طبيعة ملكية سلطانية.

فبالصفة الشهوانية تدعو أبداً إلى تناول أغراضها والاتساع فيها إلى غير حدّ إن لم يكن لها مانع يضبطها ديني أو غير ديني من مرض أو غيره.

فهذا خاطرها الأول محله القوة الشهوانية، وبالصفة الأخرى تدعو إلى العلو والظهور والقهر والاستعلاء والتزين وطلب المدح والثناء وما في المعنى.

فهذا خاطرها الثاني محله القوة المتملكة السلطانية. وقد انتهى هذا الخاطر بأقوام إلى أن ادعوا الربوبية واستعبدوا غيرهم وقد انتهى الخاطر الآخر الشهواني بأقوام إلى أن عبدوا غيرهم من المتشبهات المستحسنات.

وأما الخاطر الثالث: فإنه منقلب مع جميع الخواطر التي تأتيها من غير هذين الصفتين فمرة تكون مع خاطر الدنيا بالتمني لما تلقي إليها من غرورها وتارة مع الشيطان بتسويلها الطلب بتقيد ما يأمرها به وتارة مع خاطر الإيمان بالكراهية والدعوة إلى التثاقل في أمور المعاد كله وتارة مع خاطر الملك بقولها: سوف، سوف.

وهكذا مع كل خاطر يرد عليها جبانة في الخير وشجاعة في الشر فإن حملت على الشرع وخولفت على طاعة وأذعنت فمن أجل غيرها لا من أجلها فلذلك/ [٨/أ] قيل: النفس لا تصدق.

وجعلوا إخلاصها كذباً وتبريها دعوى وجميع ما تحمل عليه وإن كانت مطمئنة، ولوامة، ومرحومة، لا ينسب شيء إليها لأنها مجبولة عليه لو تركت لعادت إلى طبعها.

الخاطر السادس: هو خاطر الروح العقلي: وهو خاطر التدبير لأمر هذه المملكة والنظر في جميع الخواطر الواردة عليه من جميع الجهات وفي الخبر: «لا عقل كالتدبير»[1].

وفيه توجد الفهوم والعلوم الربانية؛ هذا الشخص هو الملك وإليه يجب أن ترجع أمور

---

(١) أطراف الحديث عند: ابن ماجة في السنن (٤٢١٨)، أبي نعيم في حلية الأولياء (٦/ ٣٤٣)، ابن عدي في الكامل (٤/ ١٤١٣)، الهيثمي في مجمع الزوائد (١٠/ ٢٨٣)، المنذري في الترغيب (٣/ ١٨٩).

المملكة كلها فيختار ما أمره الشرع أن يختار ويترك ما أمره الشرع ويستحسن ما أمره الشرع أن يستحسن ويستقبح ما أمره الشرع أن يستقبح.

وصفة خاطر هذا الملك التثبت والنظر في جميع ما يرد عليه من الخواطر فينفذ منها ما يجب تنفيذه ويرد ما يجب رده.

وخواطر هذا الجوهر الشريف وإن كثرت لا تخلو أيضاً من ثلاثة أنواع:

النوع الأول: الأمر بالتنزه عن دنيء الأخلاق والأعمال وسفسافها ظاهراً وباطناً.

النوع الثاني: الأمر بالاتصاف بمحاسن الأخلاق والأعمال والأحوال وأعيانها ظاهراً وباطناً.

الخاطر الثالث: الأمر بإعطاء جميع مملكته حقوقهم وتنفيذ الأحكام الشرعية فيهم.

فصـــل

فأما الخاطر السابع: وبه تمت الخواطر فهو خاطر الباري تعالى وهو على ضربين:

الضرب الواحد: يأتي بواسطة وهو جميع ما تقدم من الخواطر كلها فإنها مضافة إلى غيره مجازاً وإليه حقيقة إلاّ أن هذا الخاطر يأتي من الله بواسطة ملك أو روح أو نفس أو شيطان أو دنيا أو أخرى ولذلك لم يكن فيه خير وبه قامت الحجة على الخلق لأنه جار على الاختيار.

والضرب الثاني/ من خاطر الحق: هو ما ورد على سر العبد بحكم الجبر فلا يمكن [٧٩/ الانفكاك عنه وفيه توجد الفراسات لأهل المعرفة وفيه يوجد الحياء والانكسار والذل للباري سبحانه.

فإن الباري تعالى ما تجلى لشيء إلا خشع له، وخشوع وتقوى في حق قوم وضعف في حق آخرين.

فهذه جملة الخواطر ترد على قلب العبد مع كل خطرةٍ ما في نوع منها قوى وغلب حكم على العبد وملك القلب بقدر قوته وغلبته.

وهذا الجهاد قد عمّ المقامات كلها مقام الإسلام والإيمان والإحسان وعمّ النفس والروح والجسد.

وهو فرض واجب على الأعيان ما دام الإنسان في الدنيا إلا أنه إذا غلب حزب الله على حزب الشيطان وملك الروح وانقادت النفس انحاز العدو عن القلب ولم يكن له في بنية

الإنسان مسكن ولا مأوى وكان خارجاً عن مملكة الروح ولم يكن له فيها سلطان ولا حكم فغاية ما يقدر عليه بعد هذه الحالة أن يغير على أطراف مملكة الروح وتغير الجوارح بكتائب وساوسه وتعريضاته.

فينبغي إدراك سد تلك الثغور بعضها (. . .)[١] وحراستها وغلقها بالمراقبة متى لاحت غارة للعدو وكرت عليها جنود الكراهة وفي مثل هذا العبد ورد في الخبر: «خير الناس رجل آخذ بعنان فرسه في سبيل الله. .»[٢] إلى آخر الحديث.

وقال في حديث آخر في هذا المعنى: «مثل المؤمن مثل الفرس يحول في أَخِيَّتَهُ ثم يرجع»[٣].

والأَخِيَّةُ: هي الحبل[٤] الذي يربط في رجل الفرس فيرعى من كل جانب فإذا أراد أن يخرج من الحد الذي ربطته فيه الأخية جذبه الحبل فرده.

[٨٠/ أ] وهكذا المؤمن إذا ركب الروح النفس والجسد وكان مركوباً/ بمعنى أنه حاكم له كان مقيداً تحت حكمه فإذا أرسله في المباحات سرح فإذا أشرف على الخروج جذبته الأخية فرجع إلى حكمه.

وفي مثل هذا الفرس قال عليه الصلاة والسلام: «من خير معاش الناس لهم رجل ممسك بعنان فرسه في سبيل الله يطير على متنه كلما سمع هيعة أو فزعة طار على متنه يبتغي القتل والموت. . .»[٥] الحديث.

وكذلك في الأخبار: «إن الخيل ثلاثة: فرس للرحمٰن، وفرس للإنسان، وفرس للشيطان»[٦].

---

(١) موضع النقط بياض بالأصل قدره كلمة واحدة.

(٢) أطراف الحديث عند: الحاكم في المستدرك (٤/ ٤٤٦، ٤٦٤)، الزبيدي في إتحاف السادة المتقين (٦/ ٣٤٠)، المتقي الهندي في كنز العمال (٣٠٨٢٣).

(٣) بنحو هذا الطرف عند أبي نعيم في الحلية (٨: ١٧٩)، المتقي الهندي في كنز العمال (١٣٣١، ١٣٣٢)، أحمد في المسند (٣/ ٣٨).

(٤) في الأصل: الطبل. وهو تحريف. والصواب الحبل كما هو في لسان العرب.

(٥) أطرافه عند: ابن ماجة في السنن (٣٩٧٧)، ابن حجر في الفتح (١٣/ ٤٣)، السيوطي في الدر المنثور (٤/ ١٠٩).

(٦) أطرافه عند: أحمد في المسند (١/ ٣٩٥)، الطبراني في الكبير (٤/ ٩٣)، الهيثمي في مجمع الزوائد (٥/ ٢٦٠)، السيوطي في الدر المنثور (٣/ ١٩٦)، المتقي الهندي في كنز العمال (٣٥٢٥٠).

وورد أيضاً: «الخيل ثلاثة: لرجل أجر، ولرجل ستر، ولرجل وزر»[1].

وهكذا كل ما ورد في الجهاد من المعنى وهيئة ظاهراً فله حقيقة في الجهاد الأكبر في مقام الإيمان والإحسان.

وإنما نبهتك على هذا لتتفطن بمعانيه الباقية إن شاء الله.

ومن حقائق الجهاد في مقام الإحسان ما تحتمله الأرواح من الجهد وتجلي الحقيقة من مكابدة الفكر الذي ساعة منه خير من عبادة سنة وغير ذلك من الأحوال التي لا يطيقها إلاّ الأفراد وفرعها الجم الغفير في مكابدة سلوك طريق الحق. فافهم.

وإنما يصل الإنسان إلى هذه الدرجة إذا فتح الله قلبه عنوة كما فتح الله على محمد عليه الصلاة والسلام مكة.

ولا يصل إلى هذه الدرجة إلاّ بالهجرة وهي شعبة من شعب الإيمان.

فإن الإنسان لمّا خلق وربّي على عادته وجبلاته وأخلاقه ومع شياطينه الموكلة به فكان غرر الجبلات فيه وأخلاق الجهل والشياطين فيه مثل لسكنى المشركين بمكة.

فإذا ظهر وقت التكليف الشرعي فيه كان بمنزلة ظهور الشارع محمد عليه الصلاة والسلام بمكة فيظهر الإيمان شيئاً شيئاً وتظهر عليه صفات الجهل والأخلاق والصفات والوساوس الشيطانية/ فلا يبرئه منها إلاّ الهجرة فيهجر السوء ويفرّ إلى مواطن الديانة التي [٨٠/ ب] هي بمنزلة المدينة التي هاجر إليها النبي عليه الصلاة والسلام وأصحابه فيؤيده الله بصفات النصر والعون والقوة التي هي في معنى الأنصار واسم المدينة يثرب.

والتثريب هو: التحريج والتعيير والتوبيخ.

فيفر العبد عن الكون إلاّ من هاجر عنه من حزب الشيطان إلى مواطن الدين من جوارحه ولا يزال يهاجر إليه كل ناصر للّه ويأوي كل من هاجر إليه من خاطر أو صفة أو عمل ويثرب على نفسه وأخلاقه ويضيق عليها بالجهاد والغارات مرة بعد مرة حتى يهلك الله صفة الجهل التي هي في اعتبار أبي جهل.

ومن تابع الجهل من صفات الإنسان الذين هم مثل أتباع أبي جهل في مواطن المبادرة

---

(١) أطراف الحديث عند: مسلم في الصحيح (الزكاة ب ٦ رقم ٢٤)، المنذري في الترغيب (١/ ٥٣٦)، الخطيب في تاريخ بغداد (٦/ ٢٦١)، العجلوني في كشف الخفا (١/ ٤٧٨)، المتقي الهندي في كنز العمال (٣٥٢٥٢)، ابن ماجة في السنن (٣٧٨٨)، البيهقي في السنن الكبرى (٤/ ٨١).

للجهاد الذي هو في اعتبار بدر ثم لا يزال يقوى بجنود أنصار الله على من بقي حتى يدخل الشرع قلبه عنوة أي بالقهر والاستيلاء كما دخل الشارع مكة.

وحينئذ تتم الهجرة ويبقى الجهاد في نواحي البلاد كما قال عليه الصلاة والسلام: «لا هجرة بعد الفتح ولكن جهاد ونية»[١].

وإن لم يصل الإنسان إلى هذه الدرجة في الدنيا بالجهاد والرباط وإلاّ بقي مستضعفاً حتى يقاسي شدائد الأهوال في مواطن المال حتى يصفي منه كل خلق مذموم ولا يدخل الجنة إلاّ وهو طاهر نقي من صفات الشيطان والفجار والمنافقين «لا يدخل الجنة من في قلبه مثقال ذرة من كبر والفخر والخيلاء في النار»[٢].

وغير ذلك مما ورد في الأحاديث من صفات العجب وأهل قبضة الشمال التي هي من حزب الشيطان لا بد من زوالها وتطهيرها وقلعها إما بالمجاهدة في الحال، وإما بالجهد/ [٨١/ أ] والمشقة في المآل.

ونسأل الله تعالى النصر العزيز من لدنه والتيسير لجميع أمورنا بمَنِّه وفضله إنه على ما يشاء قدير.

واعتبر الجهاد من نفسك وجميع شرائع الإسلام في جميع العالم تجد ذلك بيناً واضحاً إن شاء الله واقرأ: ﴿وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ فِينَا لَنَهۡدِيَنَّهُمۡ سُبُلَنَاۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَمَعَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾[٣].

ذكر العاشرة من الشعب وهي: الهجرة

وقد تقدم الكلام عليها في الجهاد لأنها والجهاد مرتبطان لا ينفك أحدهما عن صاحبه فإن الإنسا لا يجاهد إلاّ من هَجَرَهُ وإذا أحبه ولم يهجره لم يجاهده.

واعلم أن الهجرة على ضربين: ظاهر وباطن، والباطن منها على ضربين: ضرب في مقام الإيمان، وضرب في مقام الإحسان.

فالظاهر منها هو الفرار بالجسد من مواطن الفتن لقول النبي ﷺ: «أنا بريء من أهل

---

(١) أطراف الحديث عند: البخاري في الصحيح (١٨/٣)، مسلم في الصحيح (الإمارة ب ٢٠ رقم ٨٥)، الترمذي في الجامع (١٥٩٠)، أبي داود في السنن (الجهاد ب ٢)، أحمد في المسند (١/ ٢٢٦).

(٢) أطراف الحديث عند: مسلم في الصحيح (الإيمان ب ٣٩ رقم ١٤٧)، الترمذي في الجامع (١٩٩٨)، أبي داود في السنن (٤٠٩١)، ابن ماجة في السنن (٥٩)، الهيثمي في المجمع (١/ ٩٨).

(٣) سورة العنكبوت (الآية: ٦٩).

ملتين لا تراءى ناراهما»[١]. فتبرأ النبي ﷺ منهم لعدم هذه الشعبة فيهم وهي الهجرة.

فهي إذاً من أعظم شعب الإيمان ولقول النبي عليه الصلاة والسلام وقد ذكر الفتن فقال: «لا يسلم لذي دين دينه إلاّ من فرّ من شاهقٍ إلى شاهقٍ».

وقال الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَفَّاهُمُ ٱلْمَلَائِكَةُ ظَالِمِيٓ أَنفُسِهِمْ قَالُواْ فِيمَ كُنتُمْ قَالُواْ كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِي ٱلْأَرْضِ قَالُوٓاْ أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ ٱللَّهِ وَاسِعَةً فَتُهَاجِرُواْ فِيهَا﴾[٢] الآية.

وفي البخاري: والفرار من الفتن من الإيمان.

فما كان من الإيمان فهو شعبة بلا شك، وقال الله تعالى: ﴿لاَّ يَتَّخِذِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلْكَافِرِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَلَيْسَ مِنَ ٱللَّهِ فِي شَيْءٍ﴾[٣]. وقال في آية أخرى: / ﴿يَآ أَيُّهَا ٱلَّذِينَ آمَنُواْ لاَ تَتَّخِذُواْ ٱلْيَهُودَ وَٱلنَّصَارَىٰ أَوْلِيَآءَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ﴾[٤]. [٨١/ ب]

فالفرار ظاهراً من بين ظهراني المشركين واجب على كل مسلم، وكذلك كل موضع يخاف فيه الفتنة في الدين من ظهور بدعة أو ما يجر إلى الكفر في أي بلد كان من بلاد المسلمين فالهجرة منه واجبة إلى أرض الله الواسعة، والله أعلم بحكم من حبسته ضرورة في مواطن الفتنة، فهذه هجرة ظاهرة بالأبدان في مقام الإسلام.

وأما باطنها في مقام الإيمان فقد تقدم الكلام عليه في الباب الذي قبل هذا في آخر الجهاد ومعناه الفرار مما تدعو إليه النفس الأمّارة بالسوء.

والشيطان إذا كان مستضعفاً مغلوباً بصفاته وأعدائه وإن لم يفرّ ويركن ويرضى ويتابع فقد اتخاذ الشيطان ولياً فيخاف التمادي حتى يخرج عن صفة عباد الله الذين قال لهم: ﴿إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ﴾[٥].

---

(١) أطراف الحديث بنحوه عند: النسائي في المجتبى (القسامة ب ٢٧)، الترمذي في الجامع (١٦٠٤)، أبي داود في السنن (٢٦٤٥)، البيهقي في السنن الكبرى (٨/ ١٣١)، البغوي في شرح السنة (١٠/ ٢٤٤).

(٢) سورة النساء (الآية: ٩٧).

(٣) جاء خطأ في تركيب الآية حيث ذكر في أولها زيادة: ﴿يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا الكافرين أولياء﴾ وهو أول آية النساء (١٤٤)، فضبط الآية على آية آل عمران (٢٨) حيث إن آخرها يوضح مراد المؤلف رحمنا الله وإياه.

(٤) سورة المائدة (الآية: ٥١).

(٥) سورة الحجر (الآية: ٤٢).

وكما قيل: المعاصي بريد الكفر كما الطاعات بريد الإيمان.

وفي هذا المعنى قال النبي عليه الصلاة والسلام: «المهاجر من هجر السوء»[(١)].

وحقيقة الهجرة في مقام الإحسان الذي هو مقام الروح: الفرار إلى الله من كل شيء كما قال الله: ﴿فَفِرُّوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ﴾[(٢)]. أي من الأزواج ومن رسوم النفوس وغير ذلك.

وروي عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «لا تنقطع الهجرة حتى تنقطع التوبة ولا تنقطع التوبة حتى تطلع الشمس من مغربها»[(٣)]. ذكره أبو داود في السنن.

فالهجرة التي كانت في أول الإسلام كانت فراراً إلى الله ورسوله وهي الآن كذلك إلى كتاب الله وسنّة رسوله: ﴿وَمَن يَخْرُجْ مِنۢ بَيْتِهِۦ مُهَاجِرًا إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾[(٤)] على المعاني/ [٨٢/ أ] الثلاثة ﴿فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِ﴾[(٤)] وإذا نظرت الموجودات أيضاً كلها ـ أعني العالم الكلي ـ وجدته منافراً للقبيح كله وذلك حقيقة الهجرة لأن من هجر شيئاً يفر منه ولم يواقعه ﴿فَفِرُّوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ إِنِّى لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾[(٢)].

مَنَّ الله علينا وعليكم بعصمته ولا جعلنا ممن فتنه وعرضه للمحن برحمته.

وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وسلم.

الشعبة الحادية عشر: الاستقامة

أما كونها من شعب الإسلام فدليله قول النبي عليه الصلاة والسلام: «عليكم بسنّتي وسنّة الخلفاء الراشدين المهديين بعدي تمسكوا بها وعضّوا عليها بالنواجذ وإياكم ومحدثات الأمور فإن كل محدثة بدعة وكل بدعة ضلالة»[(٥)].

---

(١) أطرافه عند: أحمد في المسند (٢/ ٢٠٦)، الحميدي في المسند (٥٩٥)، الخطيب في تاريخ بغداد (٥/ ١٣٩)، الهيثمي في مجمع الزوائد (١/ ٥٤)، الزبيدي في إتحاف السادة المتقين (٦/ ٢٥٤).

(٢) سورة الذاريات (الآية: ٥٠).

(٣) أطراف الحديث عند: أبي داود في السنن (٢٤٧٩)، أحمد في المسند (١/ ١٩٢)، الدارمي في السنن (٢/ ٢٤٠)، الهيثمي في مجمع الزوائد (٥/ ٢٥١)، الطبراني في الكبير (١٩/ ٣٨٧)، البغوي في شرح السنة (١٠/ ٣٧١)، التبريزي في مشكاة المصابيح (٢٣٤٦)، الطحاوي في مشكل الآثار (٣/ ٢٠٨)، السيوطي في الدر المنثور (٣/ ٥٩).

(٤) سورة النساء (الآية: ١٠٠).

(٥) أطراف الحديث عند: أبي داود في السنن (السنة ب ٥)، الترمذي في الجامع (٢٦٧٦)، ابن ماجة في السنن (٤٢)، أحمد في المسند (٤/ ١٢٦)، البيهقي في السنن الكبرى (١٠/ ١١٤)، ابن أبي عاصم في السنة (١/ ٢٩)، الزيلعي في نصب الراية (١/ ١٢٦).

وما كان ضلالاً فهو ضد الهدى والهدى من الإسلام لقوله تعالى: ﴿وَمَن يَعْتَصِم بِٱللَّهِ فَقَدْ هُدِيَ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾(١).

وهي على ضربين: ظاهر، وباطن.

والظاهر: ترك ما خالف السنة وهي البدع في الأعمال والأقوال واستقامة اللسان والجوارح عن الميل إلى الأعمال القبيحة المخالفة للسنة، واتباع الدنيا المذمومة.

والباطن على ضربين: ضرب في مقام الإيمان للنفس: وهو استقامة النفس عن الميل إلى الأغراض الذميمة والمذاهب المعوجة غير المستقيمة، وترك الإكباب على الدنيا ومنعها وكبحها عما ينكسها وينفرها من النجاة الأخروية.

وضرب في مقام الإحسان للروح والعقل والقلب؛ وبكمال استقامة القلب والروح والعقل في مقام الإحسان تكمل استقامة الجوارح في مقام الإسلام، وتكمل/ إستقامة النفس [٨٢/ ب] في مقام الإيمان فتقبل الجملة على الله تبارك وتعالى ويترك الميل إلى سواه إلاّ بأمره ولا يقدر عليه إلاّ الروحانيون المقربون.

فالاستقامة في الباطن ترك اعتقاد كل بدعة وهذه المعاني كلها ظاهراً وباطناً موجودة في قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَامُواْ﴾(٢).

قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه في تفسير قوله: ﴿ثُمَّ ٱسْتَقَامُواْ﴾(٢): أي لم يروغوا روغان الثعالب. والثعلب بخبثه إنما يطلب بنيات الطرق، فالاستقامة ترك بنيات الطرق ظاهراً وباطناً.

ومثلها في الاعتبار من مشى في طريق مسلوك فعرض له يميناً وشمالاً طريق غير مسلوك ولا واضح فأخذ عليه، فأفضى به ذلك الطريق إلى مخدع وذلك المخدع إلى مخدع حتى يتلف ولا يجد مخرجاً إلى قصده إلاّ أن يرجع إلى الطريق الأول فحينئذٍ يصل إلى مقصوده الذي خرج له.

فحقيقة الاستقامة مأخوذة من قولك قومت الشيء إذا عدلته وهو زوال الاعوجاج والميل فمن لم يعوج ولم يمل ظاهراً في مقام الإسلام عن السنة، ولا باطناً عن العقيدة، ولا حقيقة عن الميل لغير الله فقد استقام. ومن الاستقامة فريضة، وفضيلة.

---

(١) سورة آل عمران (الآية: ١٠١).

(٢) سورة فصلت (الآية: ٣٠).

فأما الفرض منها في الظاهر: فأن لا يدخل في مذاهب المجدعين وهي مثال لبنيات الطرق.

والفرض منها في الباطن: ألاَّ يزيغ قلبه في مذاهب الزائغين وهم الذين عنى رسول الله ﷺ في الحديث الذي رواه معاوية بن أبي سفيان رضي الله عنه قال معاوية: ألاّ إن رسول الله ﷺ قام فينا فقال: «ألاّ إن من قبلكم من أهل الكتاب افترقوا على اثنين وسبعين ملة/ [٨٣/ أ] وإن هذه الملة ستفترق على ثلاث وسبعين اثنتان وسبعون في النار وواحدة إلى الجنة»[١].

فمثال الاستقامة بين تلك الفرق كلها مثل الحنيفية دين إبراهيم عليه السلام بين جميع الأديان الخارجة عن دين الإسلام. الحنيف في اللغة هو المستقيم والمائل من جانب إلى جانب فإبراهيم [عليه السلام] مَيَّلَهُ واستقام عليه.

وكذلك تارك الأهواء إذا مال عن بنيات الطريق وركب المحجة البيضاء استقام.

وذلك ترك جميع البدع في دين الإسلام قولاً وعملاً وترك عقود أهل الزيغ باطناً.

ومذاهبهم كثيرة والتفتيش عليها يطول به الكلام لكن يتبين لك ذلك بمعرفة الفرقة الواحدة إذا عرفتها والتزمتها عرفت أن ما سواها باطل معوج، فهذا فرض الاستقامة.

وأما فضيلتها وحقيقتها في المقامات الثلاثة: فهو تقويم الظواهر وتهذيبها بأداء الشرع حتى تستقيم الجوارح واللسان فتميل عن المخالفات والعصيان وتقويم البواطن برياضة النفوس وحملها على الاستقامة بترك الميل إلى هذا الخسيس الفاني والميل عنه إلى الإقبال على الدائم الباقي وحينئذ يكون العبد كما وصفه الله تعالى: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَانَ فِيٓ أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ﴾[٢].

وإنما يكون العبد في صفة الإنسانية التي فارق بها غيره من الحيوان والنبات والجمادات بارتقائه عن صفاتها إلى صفات الملائكة الكرام فحينئذ ارتفعت همته إلى العالم الرضواني واشتاق إلى الملأ الروحاني فكان ماشياً على صراط مستقيم.

وقد أثنى الله على نبيه بحقيقة الاستقامة فقال: ﴿مَا زَاغَ ٱلْبَصَرُ وَمَا طَغَىٰ﴾[٣]. أي ما

---

(١) أطراف الحديث عند: أبي داود في السنن (السنة ب ١)، الدارمي في السنن (٢/ ٢٤١)، المنذري في الترغيب والترهيب (١/ ٨٤)، الزبيدي في إتحاف السادة المتقين (٨/ ١٤٠)، القرطبي في التفسير (٢/ ٩).

(٢) سورة التين (الآية: ٤).

(٣) سورة النجم (الآية: ١٧).

مال إلى النظر إلى سواه ﴿وَمَا طَغَىٰ﴾[١] لم يتجاوز حد الأدب في نظره.

فإذا/ نظرت الموجودات كلها وجدتها مستقيمة جارية على ما حولها غير زائغة لا [٨٣/ ب] تميل إلى الاعوجاج إلى غير الله هذا شامل لجميع أجزاء الموجودات ليس منها شيء مال إلى غير الله سوى الثقلين الجن والإنس.

مَنَّ الله علينا بما مَنّ به على أحبابه وأصفيائه. آمين.

وصلى الله على محمد وآله وسلم.

الشعبة الثانية عشر: وهي الجماعة

وهي: الألفة، فأما كونها من شعب الإيمان فدليله قول النبي ﷺ: «من فارق الجماعة شبراً فقد خلع ربقة الإسلام من عنقه»[٢].

فإنما بخلع ربقة الإسلام زواله فهو إذاً من أعظم شعب الإسلام، وقال الله تعالى في الكون مع الجماعة: ﴿وَمَن يُشَاقِقِ ٱلرَّسُولَ مِنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ ٱلْهُدَىٰ وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ ٱلْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِۦ مَا تَوَلَّىٰ وَنُصْلِهِۦ جَهَنَّمَ وَسَآءَتْ مَصِيراً﴾[٣].

وغير ذلك من الشواهد التي يطول ذكرها وإنما غرضنا الاختصار.

فالجماعة هم الذين عنى النبي ﷺ في الحديث الذي أوردناه في باب الاستقامة حيث قال: «وإن هذه الأمة ستفترق على ثلاث وسبعين اثنتان وسبعون في النار وواحدة في الجنة»[٤] وهي الجماعة.

وسُئل النبي عليه الصلاة والسلام عن تلك الواحدة فقال: «من كان على ما أنا عليه وأصحابي».

---

(١) سورة النجم (الآية: ١٧).

(٢) أطراف الحديث عند: البيهقي في السنن الكبرى (١٥٧/٨)، الحاكم في المستدرك (١١٧/١)، الخطيب في تاريخ بغداد (١٣١/٧)، الهيثمي في مجمع الزوائد (٢٢٤/٥)، أبي داود في السنن (٤٧٥٨)، التبريزي في مشكاة المصابيح (٢٨٥).

(٣) سورة النساء (الآية: ١١٥).

(٤) أطرافه عند: ابن أبي عاصم في السنة (٧/١، ٣٥)، الطبراني في الكبير (٣٧٧/١٩)، ابن كثير في التفسير (٧٦/٢)، الزبيدي في إتحاف السادة المتقين (١٤٠/٨).

فالأمة افترقت على هذا العدد وأصل هذا الافتراق ينحصر في أربع طوائف.

الطائفة الواحدة القدرية: وهم المعتزلة افترقوا على اعتزالهم على ثماني عشرة فرقة.

والطائفة الثانية المرجئة: افترقوا في إرجائهم أيضاً على ثماني عشرة/ فرقة. [٨٤/ أ]

الطائفة الثالثة الرافضة: افترقوا في تشيعهم على ثماني عشرة فرقة.

الطائفة الرابعة الخوارج: افترقوا في خروجهم على ثماني عشرة فرقة.

فهذه اثنتان وسبعون فرقة والثالثة وسبعون هم الناجية وهم أهل السنة والعلم وهم الذين عنى الله عز وجل بقوله: ﴿وَٱعْتَصِمُواْ بِحَبْلِ ٱللَّهِ جَمِيعاً وَلاَ تَفَرَّقُواْ﴾[١]. وحبل الله هو القرآن الذي هدى به رسوله عليه الصلاة والسلام وأصحابه.

والفرق المذكورة هم الذين عنى الله بقوله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ فَرَّقُواْ دِينَهُمْ وَكَانُواْ شِيَعاً لَّسْتَ مِنْهُمْ فِي شَيْءٍ﴾[٢].

يعني رسوله عليه الصلاة والسلام، ولمّا كان الصحابة رضوان الله عليهم مشاهدين للرسول ومتبعين له مقتدين به كانوا أيضاً ليسوا من الفرق المفترقة في شيء فلذلك قال عليه الصلاة والسلام في تفسير الفرقة الناجية: «من كان على ما أنا عليه وأصحابي»[٣].

ولذلك قال أيضاً: «أصحابي كالنجوم بأيهم اقتديتم اهتديتم»[٤].

فالجماعة: هم النبي عليه الصلاة والسلام وأصحابه ومن تبعهم على منهاجهم وهم أهل السُّنة.

ولما كانت النجوم منها الكبير الجرم الكثير الضياء، والصغير الجرم القليل الضياء، والوسط فيما بين ذلك وشبه أصحابه بالنجوم كان أصحابه أيضاً كذلك منهم القوي الكثير الضياء مثل الخلفاء والعلماء منهم والذين ظهروا في الدين للاقتداء بهم ومنهم القليل الضياء والوسط ليكونوا كلهم أئمة يقتدى بهم في القوة والضعف وجميع الأحوال إلاّ أنهم كلهم أهل

---

(١) سورة آل عمران (الآية: ١٠٣).

(٢) سورة الأنعام (الآية: ١٥٩).

(٣) أورده الطبراني في المعجم الكبير (٨/ ١٧٩)، الهيثمي في مجمع الزوائد (١/ ١٥٦)، الزبيدي في الإتحاف (١/ ٢٦٥).

(٤) أطرافه عند: الذهبي في الميزان (١٥١١)، ابن حجر في لسان الميزان (٢/ ٤٨٨)، العجلوني في كشف الخفا (١/ ١٤٧).

علم والنجوم كلها مضيئة وفي كلها اقتداء إلاّ أن بعضها أقوى من بعض.

وكذلك أيضاً تابعوهم إلى يوم القيامة فمن عمل عملاً صالحاً ظاهراً أو باطناً أصله في كتاب/ الله أو سنة رسول الله ﷺ أو عمل الصحابة فهو من أهل السنة والجماعة. [٨٤/ ب]

فالجماعة ضدها الفرقة ولذلك افترقت الفرق على ثنتين وسبعين ولم تفترق الفرقة الواحدة فقال النبي ﷺ فيها: «وواحدة في الجنة».

فوصفها في قوله: «وواحدة في الجنة» بالوحدة وهي الألفة على مذهب واحد وبالاقتداء بنبي واحد ويسوقهم إلى ملك واحد.

واختلاف أهل السنة في الفتوى والمذاهب إنما هو بمعنى الاتساع وترك الضيق والحرج لا بمعنى الاختلاف الذي هو الشتات والفرقة فإن النبي عليه الصلاة هو إمام الصحابة وأخذ الكل منهم علمه من رسول الله ﷺ ثم افترقوا في الأمصار في حياته وبعد وفاته وأخذ الناس منهم في جميع الأقطار وأخذ الخلف عن السلف إلى أن انتشرت المذاهب والفتاوى في الأمصار فالكل منهم على صواب لأن الإمام واحد وإليه يرجع الكل.

وقد رأيت في حديث غريب في كتاب فيه ذكر فضائل الصحابة أن رسول الله ﷺ قال: «أنا مدينة التقوى وأبو بكر بابها وأنا مدينة الإيمان وعمر بابها وأنا مدينة الحياء وعثمان بابها وأنا مدينة العلم وعليّ بابها وأنا مدينة الحلم ومعاوية بابها»[١].

وهذا الخبر وإن لم يرد في الصحاح فإن الحال تصدقه وتعضده فإنه عليه الصلاة والسلام المدينة الجامعة لمعاني الديانات كلها ولا بد للمدينة من أبواب وعلى كل باب طريق.

ولو كلف الكل أن يدخلوا على باب واحد لكان الحرج والضيق بل هو عليه الصلاة والسلام مدينة جميع الخيرات والصحابة أبوابها والطرق منفصلة من الأبواب/ فمن أخذ طريقهم دخل مدينة الدِّين ومن خالف طريقهم فقد خلع ربقة الإسلام من عنقه فإن المذاهب كلها التي[٢] فارقت الجماعة إذا اعتبرتها ونظرتها لم تجد لها عند الصحابة ولا حديث الرسول [ﷺ] ولا كتاب الله أصلاً فلذلك سموا فرقاً لأنهم فارقوا الإجماع. [٨٥/ أ]

---

(١) أطراف نحو هذا الحديث عند: الحاكم في المستدرك (٣/١٢٦)، ابن الجوزي في تذكرة الموضوعات (١٩٥)، الذهبي في الميزان (٤٢٩، ١٥٢٥)، ابن حجر في لسان الميزان (١/٥١٣)، الشوكاني في الفوائد المجموعة (٣٤٨).

(٢) في الأصل: الذي. وهو تحريف.

مثال ذلك أن القدري الذي يقول: إن أفعاله يخلقها هو بزعمه.

أو الذي يقول منهم: الخير من الله خلقه والشر من العباد خلقهم.

والرافضي الذي يسب أبا بكر وعمر أو عائشة أو علياً أو عثمان أو أحداً من الصحابة.

والخارجي الذي يقول بمذهب الخوارج أو المرجىء الذي يقول بمذهب الإرجاء، والذي يقول إن العالم قديم وإن الله لا يعلم بأفعال العباد أو يرى من الآراء الذي لا يعتقده ولا يعمل به أهل السنة لا تجد له أصلاً في كتاب الله ولا في حديث رسول الله ولا في أقوال الصحابة ولو كان لنقل كما نقلت أمور الديانات كلها ولما لم يكن لذلك منقولاً لم يبق إلا أنهم أحدثوا تلك المذاهب بآرائهم أو أخذوها من رأي من خالف الأنبياء قبل مبعث النبي عليه الصلاة والسلام، فمثلهم في ذلك ما رواه مالك رضي الله عنه عن عبد الله قال: خط لنا رسول الله ﷺ يوماً خطاً فقال: «هذه سبيل الله» ـ ثم خط عن يمين ذلك الخط وعن شماله خطوطاً فقال: ـ «هذه سُبل على كل سبيل منها شيطان يدعو إليها» ـ ثم قرأ: ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيماً فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِ﴾[1].

فتلك الطرق هي طرق أهل الفرق، وسبيل الله هو طريق أهل السنة لأنهم تابعون لمحمد عليه الصلاة والسلام وهو يهدي إلى صراط/ مستقيم فالتمسك على ذلك الطريق هو الجماعة وهو التآلف مع السالكين عليه والاعوجاج عن ذلك الطريق هو الخروج والافتراق عن الجماعة. [ب]

فلذلك كانت هذه الشعبة التي هي الإجماع والشعبة التي هي الاستقامة مرتبطتان كشيء واحد. فإن الاستقامة هي: ترك الاعوجاج ظاهراً وباطناً في الأعمال والعقود كما تقدم. والجماعة هي: التمسك والتآلف على السنة التي هي الطريق ظاهراً في الأعمال وباطناً في القلوب.

والإجماع أيضاً على نوعين: ظاهر وباطن.

والباطن على ضربين: ضرب في مقام الإيمان والنفس وهو ما أجمعوا عليه في العقود وأصول الديانات فهو فرض على القلوب اعتقاده.

وضرب في مقام الإحسان: وهو مشاهدة الروح والعقل إجماع الخليقة كلها مما حوى

---

(١) أورده أبو نعيم الأصبهاني في تاريخ أصبهان (٢/ ٦٦). وبنحوه أخرجه الدارمي في السنن (١/ ٦٧)، والآية من سورة الأنعام (رقم: ١٥٣).

العرش كله من المخلوقات على التعبد لملك واحد وائتلاف الكل على إيثاره وألوهيته ما خلا المخالفين من الجن والإنس.

فيفر السر من الفرقة إلى الإجماع على توحيد الله سبحانه وتعالى.

والظاهر: ما أجمعوا عليه في الأعمال ونوازل الأحكام فهو فرض على الأجساد القول به والعمل وما أجمعوا عليه واستحسنوه في كل زمان فهو إجماع ـ أعني أهل السنة ـ لأن النبي ﷺ قال: «أمتي لا تجتمع على ضلالة»(١).

وإنما عنى أهل السُنة وأصنافهم بحمد الله معلومة في كل زمان وهم أهل الحديث والفقه والمتصوفة كـ: مالك وأشياخه وأتباعه، وأبي حنيفة وشيوخه وأتباعه، والشافعي وأشياخه وأتباعه، وأحمد بن حنبل، والبخاري، وسفيان، والأوزاعي وشيوخهم وأتباعهم، وإبراهيم بن أدهم وسهل والعارفون/ بالله وأشياخهم وأتباعهم، والعامة في العقود أيضاً [٨٦/ أ] لأنهم تابعون لأهل العلم. ومن سوى هؤلاء ممن ليس على طريقهم زائغ.

فالجماعة هي: التآلف على طاعة الله كما أمر وذلك دين الموجودات كلها.

فإنك إذا نظرت إلى الوجود كله وجدته متآلفاً بعضه مع بعض كجسد واحد جمع أعضاء كثيرة تعاونت كلها على طاعة المؤلف فإذا الجماعة عام من فارقها خالف جميع الموجودات وأحدث ديناً مبتدعاً بنفسه.

ونسأل الله الثبات في دين الله في العقود والأفعال، والموت على ما يرضاه الله ورسوله والمؤمنون إنه على كل شيء قدير.

[وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وسلم تسليماً](٢).

الشعبة الثالثة عشر: النصيحة

فأما كونها من شعب الإيمان فبين واضح في الأحاديث المشهورة عن جرير وتميم الداري وأبو هريرة.

قال جرير: أتيت النبي ﷺ، فقلت: أتيت أبايعك على الإسلام فشرط عليّ: «والنصح

(١) أورد نحوه العجلوني في كشف الخفا (٢/٤٨٨)، البغوي في شرح السنة (٨٦)، السيوطي في الدرر المنتثرة (١٨٠).

(٢) نهاية اعتادها المؤلف في معظم نهايات الشُعب ونسيها في هذا الموضوع وربما سقطت من النساخ فأثبتها طلباً للأجر.

لكل مسلم»(١). فما يشترط لصحة الإسلام فهو منه.

وروى تميم الداري وأبو هريرة أن النبي ﷺ قال: «الدين النصيحة، الدين النصيحة». ثلاثاً. في حديث أبي هريرة: قالوا: لمن يا رسول الله؟ قال: «للّه ولرسوله ولكتابه ولأئمة المسلمين وعامتهم»(٢). فوصف النصيحة بأنها معظم الدين كما يقال: «الحج عرفة»(٣). أي معظم أركانه عرفة لا أنه ليس للحج ركن غير عرفة.

وكذلك النصيحة ليس معنى الحديث أن الدين كله هو النصيحة وإنما وصفها بوصف العموم فعمت معاني الديانات كلها لأنه قال: «للّه ولكتابه ولرسوله ولأئمة المسلمين وعامتهم»(٤). فعظم قدر النصيحة لذلك.

[٨٦/ ب] / ومعنى النصيحة إفراغ الجهد بتصحيح النيات والأقوال والأعمال.

والنصح يتبين بضده وهو الغش والتلبيس وستر العيب وكتمان الحق.

ومعناها مأخوذ من النصاح وهو الخيط لأنه لا يتعلق به شيء.

فكذلك النصح في العقود والأقوال والأعمال لا يتعلق بها شيء من الغش والتدليس بل تكون صحيحة بنية سليمة مما يفسدها ويعيبها ودليله: أن النبي عليه الصلاة والسلام مرّ برجل يبيع الطعام فأوحي إليه أن أدخل يدك فيه فإذا هو مبلول فقال رسول الله ﷺ: «ليس منّا من غشّ»(٥).

فالنصيحة عامة في كل شيء ومتعبد بها الأنبياء والأملاك فمن دونهم، قال الله تعالى في جبريل: ﴿وَمَا هُوَ عَلَى ٱلْغَيْبِ بِضَنِينٍ﴾(٦). أي بمتهم بالغش والدّلسة في التبليغ.

(١) طرفه عند أحمد في المسند (٤/ ٣٥٨، ٣٦٦)، المتقي الهندي في كنز العمال (١٥٠٩).

(٢) أطرافه عند: البخاري في الصحيح (١/ ٢٢)، مسلم في الصحيح (الإيمان ب ٢٣ رقم ٩٥)، الترمذي في الجامع (١٩٢٦)، أحمد في المسند (٢/ ٢٩٧)، الدارمي في السنن (٢/ ٣١١)، النسائي في المجتبى (٧/ ١٥٧)، البغوي في شرح السنة (١٣/ ٩٣)، الشافعي في المسند (٢٣٣).

(٣) أطرافه عند: أبي داود في السنن (المناسك ب ٦٩)، الترمذي في الجامع (٨٨٩)، النسائي في المجتبى (٥/ ٢٥٦)، ابن ماجة في السنن (٣٠١٥)، الحاكم في المستدرك (٥/ ٢٦٤)، ابن خزيمة في الصحيح (٢٨٢٢)، الدارقطني في السنن (٢/ ٢٤١).

(٤) سبق تخريج الحديث قبل قليل.

(٥) أطرافه عند: أبي داود في السنن (البيوع ب ٥٢)، ابن ماجة في السنن (٢٢٢٤)، أحمد في المسند (٢/ ٢٤٢)، البيهقي في السنن الكبرى (٥/ ٣٢٠)، الحميدي في المسند (١٠٣٣)، الهيثمي في مجمع الزوائد (٤/ ٨)، البغوي في شرح السنة (٨/ ١٦٧).

(٦) سورة التكوير (الآية: ٢٤) وجاءت الكلمة الأخيرة منها: ظنين. فضبط التصحيف.

وقال عليه الصلاة والسلام في نفسه: «ليس منّا من غش».

وقال الأنبياء صلوات الله عليهم: ﴿وَأَنَا لَكُمْ نَاصِحٌ أَمِينٌ﴾[(١)]. [وقال][(٢)]: ﴿وَأَنصَحُ لَكُمْ﴾[(٣)]. [وقال][(٢)]: ﴿وَنَصَحْتُ لَكُمْ﴾[(٤)]. أي نصحوا لله ونصحوا أنفسهم ونصحوا العباد.

فالنصيحة لها مراتب كما ذكر في الحديث: «لله ولرسوله ولكتابه ولأئمة المسلمين وعامتهم».

فقد عمت المقامات الثلاثة: مقام الإسلام والإيمان والإحسان.

فأما النصيحة لله جل وعز بأن لا تدخل في صفاته ما ليس منها أو تنسب إليه ما ليس له برأيك فتعبده على غير ما هو عليه فإن ذلك غش كما قال تبارك وتعالى فيما رواه أبو هريرة عن النبي ﷺ: «قال الله عز وجل: كذبني ابن آدم ولم يكن له ذلك، وشتمني ولم يكن له ذلك، فأما تكذيبه إياي فقوله: لن يعيدني كما بدأني، وأما شتمه إياي فقوله: اتخذ الله ولداً وأنا الأحد الصمد لم ألِد ولم أُولَد ولم يكن لي كفواً/ أحد»[(٥)]. [٨٧/ ب]

فهذا رمى الله بالكذب لأن الله قد أخبر بإعادته، والكذاب غاش مدّلس في القول لأنه ملبس.

ورماه أيضاً بالعجز في قدرته وقوته إذ ينفي القدرة عنه في إعادته.

وكذلك رماه بالفقر إلى اتخاذ الصاحبة والولد وهو الغني.

فأدخل في صفاته ما ليس منها وذلك غش وتلبيس يعود ضرره على معتقده وقائله والله بريء عن ذلك.

فكل من اعتقد الله على ما وصف به نفسه وشاهده على ما هو عليه ونزهه عن ما لا يليق به وبلغ ذلك غيره من عباد الله ليعتقدوه على ما هو عليه فقد نصح لله ونصح الله في نفسه وفي عباده وهذا مقام الروح والعقل في مقام الإحسان.

---

(١) سورة الأعراف (الآية: ٦٨).

(٢) زيادة للفصل بين الآيات.

(٣) سورة الأعراف (الآية: ٦٢).

(٤) سورة الأعراف (الآية: ٧٩، ٩٣).

(٥) أطرافه عند: أحمد في المسند (٢/٣١٧)، البغوي في شرح السنة (١/٨١)، ابن حجر في الفتح (٨/١٦٨)، التبريزي في المشكاة (٢٠)، القرطبي في التفسير (٢/٨٥).

وكل من وصف الله بغير ما وصف به نفسه ونسب إليه ما لم ينسب لنفسه وأمر بذلك غيره أو لم يأمر فقد ترك النصيحة للّه ولم ينصح ربه ولا نفسه ولا عباده.

وبهذا الوصف أخبر الله عن إبليس حيث قال لآدم عليه السلام: ﴿مَا نَهَاكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَذِهِ ٱلشَّجَرَةِ إِلاَّ أَنْ تَكُونَا مَلَكَيْنِ﴾[1].

فرمى الله بالغش والكذب عليه لعنة الله.

وكذلك هو مع ذرية آدم من أول الدنيا إلى آخرها يوسوس إليهم بالغش وزخرف القول ليعتقدوا الله على ما ليس هو عليه ليس يفتر طرفة عين هو وجنوده عن رمي الله بالبهتان ووصفه بما لا يليق به ليضل عباد الله وعلى وصفه هو[2] وأتباعه من الأنس الضالون المضلون وإن أظهروا الإسلام أو لم يظهروه ويصدهم الناصحون.

مَنَّ الله علينا بالنصيحة وجعلنا من أهلها برحمته. آمين.

[فصـــل]

[٨٧/ ب] والذي يجمع هذه المعاني في حق الباري ومخلوقاته أن الأشياء كلها/ خلاف الباري تعالى لأنها محدثة وهو قديم وجاهلة وهو عليم وعاجزة وهو قدير وعبيد وهو ربّ وفقراء وهو غني ومحتاجة إلى مكان وهو غير محتاج.

وهكذا لو استقرأت أنت وجميع المخلوقات صفات الموجودات كلها أبد الآبدين ودهر الداهرين لَمَا انقضى وصفها لمعاني الحدث أبداً، كما أنه لو وصف الباري جميع العالمين مما يليق به من الكمال لما وصفوا عشر معشار ذرة مما هو عليه من الكمال والجلال.

فكل من أضاف إلى الباري شيئاً من أوصاف المخلوقات أو شبهه بشيء منها فقد أدخل الغش في صفاته ولم ينصح.

وكل من أضاف إلى المخلوقات شيئاً مما هو عليه فقد أدخل الغش في المخلوقات ولم ينصحها وهي تتبرأ منه ومن غشه.

وهذا أصل جامع كافٍ في هذا المعنى إن شاء الله لأن الله برأ نفسه أن يكون فيه شيء من سمات المحدثات وبرأ مخلوقاته أن يكون فيها شيء من معاني أوصافه، وذلك فخرها

---

(١) سورة الأعراف (الآية: ٢٠).

(٢) في الأصل: هم. وهو تحريف.

وعزها لأن: «المتشبع بما لا يملك كلابس ثوبي زور»[1]. لأنه مدلس حين تشبع بما ليس له.

وأما النصيحة للإنسان في نفسه فإنها عامة في كل شيء يظن في مقام الإحسان والإيمان وظهر في مقام الإسلام لأن العبد مأمور بأن ينصح نفسه وغيره فيكون من أفضل أهل مقام الإسلام على قدر طاقته.

وأُمر أن ينصح نفسه في مقام الإيمان وعالم الآخرة على قدر طاقته.

وأُمر أن ينصح نفسه في مقام الإحسان والروح فيكون من أفضل أهل الإيثار لله عز وجل والإقبال عليه والفكر فيه ولا يغش نفسه في شيء على قدر طاقته. فقد عمت النصيحة كل المقامات.

وأما النصيحة لرسوله عليه الصلاة والسلام فهو على ضربين: ضرب في حق الحاضرين[2] معه في وقت مبعثه وهم الصحابة.

وضرب في حق الغائبين/ عن وقته وهم الذين أتوا بعده. [٨٨/ ا]

● فأما الحاضرون معه في وقته فالنصيحة في حقهم: أن لا يرموه بالكذب ولا يقذفوه بالبهتان فيقولوا هو ساحر أو مجنون أو مسيطر أو طالب ملك فيدخلوا في وصفه ما لم يجعله الله له ولو كان كذلك كان غاشاً، بل يصفوه بالصدق والعفاف والنصح والرحمة والصيانة والخلق الذي وصفه به الله ثم يؤازروه ويعاونوه وينصروه حتى يبلغ مرغوبه ومأموله من التبليغ ولا يدخروا من أنفسهم شيئاً في نصرته ومؤازرته ولو كانوا مدخرين عنه شيئاً لكانوا غاشين له.

وحاشا صحابته من ذلك فإنهم لحظوه بعين الصدق والكرامة وأفرغوا جهدهم وطاقتهم في نصرته وعونه فلذلك كانوا أفضل الناس.

وبضدهم في النصيحة كان كفرة زمانهم ومنافقوهم فإنهم رموه بالغش والكذب وأضافوا إليه وأدخلوا في وصفه بالقول ما لم يجعله الله فيه.

والمنافقون منهم خذلوه في مواطن النصرة وخادعوه بقلوبهم في مواطن الغيبة.

---

(١) أطرافه عند: البخاري في الصحيح (٧/ ٤٥)، مسلم في الصحيح (اللباس ١٢٦)، أبي داود في السنن (٤٩٩٧)، أحمد في المسند (٦/ ١٧٦)، البيهقي في السنن الكبرى (٧/ ٣٠٧).

(٢) في الأصل: الغائبين الحاضرين. واللفظ الأول زائد على السياق فحذفته.

ثم لما توفي عليه الصلاة والسلام انتدبوا النصيحة فأظهروا أمره وبلغوا سنته وقاتلوا من رام هدم طريقته فكانوا في الغيبة والحضور سواء رضي الله عنهم ونفعنا ببركتهم في الدنيا والآخرة.

● وأما الغائبون عنه فالنصيحة في حقهم: أن يكون حالهم معه ومع طريقته كحال الصحابة بعد وفاة نبيهم فيأخذوا سننه وينصروه فيها غائباً ويبلغوها غيرهم كما بُلغوها من غيرهم من غير أن يدخلوا فيها تحريفاً أو كذباً فيغشوه بل كما قال: «رحم الله من سمع مني مقالة فبلغها كما سمعها»[1].

[٨٨/ ب] وينفون/ عنه تحريف الغالين وانتحال الجاهلين وتأويل المبطلين هكذا خلف عن سلف إلى يوم القيامة. فإن كذبوا عليه وأدخلوا في شريعته ما ليس منها فقد غشوه، وقال عليه الصلاة والسلام: «من كذب عليّ متعمداً فليتبوأ مقعده من النار»[2].

فالناصحون له أن ينصحوه في إظهار أقواله وأعماله وأن لا يحدثوا فيها شيئاً بآرائهم وأن لا يعملوا عملاً إلا بسنّته وعلى طريقته.

[فصـــل]

وأما النصيحة لكتابه: فنفي ما رماه به المبطلون حيث قالوا عنه: ﴿إِفْكٌ مُفْتَرًى﴾[3] [وقالوا][4]: ﴿وسِحْرٌ يُؤْثَرُ﴾[5] [وقالوا][4]: ﴿إِنْ هَذَآ إِلاَّ أَسَاطِيرُ ٱلأَوَّلِينَ﴾[6] [وقالوا][4]: ﴿إِنْ هَذَآ إِلاَّ قَوْلُ ٱلْبَشَرِ﴾[7].

وغير ذلك مما يتنزه عنه كتاب الله جل جلاله بل يصفه بما وصفه به منزله بالكرم والبيان والتعظيم كما قال: ﴿إِنَّهُ لَقُرْآنٌ كَرِيمٌ * فِي كِتَابٍ مَّكْنُونٍ﴾[8] [وقال][4]: ﴿يَس * وَٱلْقُرْآنِ ٱلْحَكِيمِ﴾[9]. [وقال][4]: ﴿حَم * وَٱلْكِتَابِ ٱلْمُبِينِ﴾[10]. [وقال][4]: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَاكَ

---

(١) أطرافه عند: الهيثمي في مجمع الزوائد (١٠/ ٢٤٧)، المنذري في الترغيب والترهيب (٤/ ١٧٩)، المتقي في الهندي الكنز (٢٩٤٧١).

(٢) أطرافه عند: البخاري في الصحيح (١/ ٣٨)، مسلم في الصحيح (المقدمة ٣، ٤)، ابن ماجة في السنن (٣٠)، أبي داود في السنن (علم ٤)، الترمذي (فتن ٧٠)، الدارمي في السنن (١/ ٧٧)، البغوي في شرح السنة (١/ ٢٥٣).

(٣) سورة سبأ (الآية: ٤٣).

(٤) زيادة للفصل بين الآيات.

(٥) سورة المدثر (الآية: ٢٤، ٢٥).

(٦) سورة المؤمنون (الآية: ٨٣).

(٧) سورة الواقعة (الآية: ٧٧، ٧٨).

(٨) زيادة للفصل بين الآيات.

(٩) سورة يس (الآية: ١، ٢).

(١٠) سورة الزخرف (الآية: ١، ٢).

﴿سَبْعاً مِّنَ ٱلْمَثَانِي وَٱلْقُرْآنَ ٱلْعَظِيمَ﴾[١]. إلى غير ذلك من أوصاف القرآن.

ثم يقرأه بقراءة حسنة وصوت حسن كما قال النبي عليه الصلاة والسلام: «زينوا القرآن بأصواتكم»[٢]. [وقال أيضاً]: «ليس مِنّا من لم يتغن بالقرآن»[٣]. فإن تزيينه من النصح له حتى يتحبب لقلب التالي له ولقلب كل سامع له فيقع من القلوب مواقعه.

ولا يسلك به مسلك أغاني الشعر فإن ذلك من الغش للقرآن حيث سلك به غير مسلكه: ﴿وَمَا عَلَّمْنَاهُ ٱلشِّعْرَ وَمَا يَنبَغِي لَهُ﴾[٤].

بل بخشية وحزن صادق كما قال النبي عليه الصلاة والسلام: «أحسن الناس صوتاً بالقرآن من إذا قرأ رأيت أنه يخشى الله»[٥].

وأن لا يقصد بحسن صوته الرياء فإن ذلك يبطل ثمرة القرآن وهو غش في حق القرآن.

ثم العمل به فإن ترك/ العمل به تضييع له وتضييعه ليس من النصح. [٨٩]

والتماس بركة الفهم فيه وإخراج الحكم والعبر منه وتحليل حلاله وتحريم حرامه والوقوف عند متشابهه وتعليمه لغيره إذا سأله ولا يقل فيه بتأويل يخرج عن طريق الحق إلى الرأي المذموم الذي نهي عن تفسير القرآن به.

وذلك كله من الغش وترك النصح فمن نصح القرآن اهتدى وهدى غيره ومن غشه ضل وأضل غيره كما قال تعالى: ﴿يُضِلُّ بِهِ كَثِيراً وَيَهْدِي بِهِ كَثِيراً﴾[٦]. [وقال][٧]: ﴿وَنُنَزِّلُ مِنَ ٱلْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَآءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ وَلاَ يَزِيدُ ٱلظَّالِمِينَ إِلاَّ خَسَاراً﴾[٨].

ومن أعظم الغش في القرآن وترك النصح له تأويل معانيه على أهواء الزنادقة وإبطال

---

(١) سورة الحجر (الآية: ٨٧).

(٢) أطرافه عند: أبي داود في السنن (١٤٦٨)، النسائي في المجتبى (٢/ ١٨٠)، ابن ماجة في السنن (١٣٤٢)، أحمد في المسند (٤/ ٢٨٣)، الدارمي في السنن (٢/ ٤٧٤)، الحاكم في المستدرك (١/ ٥٧١).

(٣) أطرافه عند: البخاري في الصحيح (٩/ ١٨٨)، أبي داود في السنن (١٤٦٩)، أحمد في المسند (١/ ١٧٢)، البيهقي في الكبرى (٢/ ٥٤)، الحاكم في المستدرك (١/ ٥٦٩)، الحميدي في المسند (٧٦، ٧٧)، البغوي في شرح السنة (٤/ ٤٨٥).

(٤) سورة يٓس (الآية: ٦٩).

(٥) أورده الزبيدي في الإتحاف (٤/ ٥٢٢)، المتقي الهندي في كنز العمال (٢٧٤٩).

(٦) سورة البقرة (الآية: ٢٦).

(٧) زيادة للفصل بين الآيات.

(٨) سورة الإسراء (الآية: ٨٢).

معانيه الظاهرة كما فعل كثير من الفلاسفة الضالين والطبيعيين حتى وصل من افترائهم أنهم يقولون بالاستغناء عن القرآن وعن الرسول ومع ذلك فإنهم يزعمون أنهم أهل العلم والفهم للرسالة والوحي والمعرفة.

وهذا هو الغش بعينه والتدليس وهو أعظم ممن كفر به جهاراً فإن النبي عليه الصلاة والسلام يقول: «من ابتغى الهدى في غيره أضله الله». فكيف يكونون مهتدين في أمور الآخرة والديانات والنبي عليه الصلاة والسلام قد شهد لهم بالضلال.

جعلنا الله وإياكم من الناصحين لأنفسنا ولكل من أُمرنا بالنصح له. آمين.

وصلى الله على محمد وآله [وسلم تسليماً].

[فصـــل]

وأما النصيحة لأئمة المسلمين وعامتهم فمن النصيحة للأئمة: أن لا يخرج عليهم بالسيف، ولا ينكث لهم بالعهد فيما بويعوا عليه، وأن يدعي لهم بالصلاح إذا كان الإمام ممن تجوز فيه الإمامة، وتلزم بيعته، ويطيعوه في المكيال والميزان، وفيما أمر به من/ طاعة [٨٩/ ب] الله وهذا حق العامة.

وأما العاملون له والداخلون عليه فحقهم أن ينصحوه ونصحهم له أن يبينوا له أمور العامة على ما هي عليه ولا يدلسوا ويقولوا خلاف ما شاهدوه وعلموه من صلاح أو فساد.

ونصحهم للعامة أن يكونوا واسطة خير بين الأمير والرعية فيقومون بالنصيحة في جميع العامة بالإرشاد إلى كل خير ورفق.

ونصيحة الأمير رعيته: أن لا يغفلها ويحوطها كما أمر الله ورسوله.

ومتى لم يفعل أحد منهم من أمير أو عامل أو عامي ذلك فهو غاش.

ثم نصيحة الناس بعضهم لبعض في المعاملات والصناعات: إظهار العيوب، وترك التدليس، وأن يريد كل واحد لأخيه كما يريد هو لنفسه.

هذا هو الاختصار فيه وهو معيار حق وذلك أن يعرض الإنسان نفسه في كل ما يعامل به غيره فيقول: إن كنت أريد هذا الأمر الذي أعامل به غيري فكذلك يجب عليَّ أن أريده أيضاً لغيري إذا عاملته به، ولا يريه أحسن الوجهين ويستر أردأهما.

والنصيحة داخلة في كل شيء وبالقليل يستدل على الكثير وقد قيل: لا خير في قوم ليسوا بناصحين ولا في قوم لا يحبون الناصحين.

لأنها إرشاد إلى أحسن الوجوه في أمور الدين والدنيا الجامعين لكل خير وعلم وعمل.

ومن فضائل النصيحة: أن لا يرضى الإنسان لنفسه بالدون من المنزلة عند الله فذلك من قلة نصح الإنسان لنفسه، بل إن قدر أن لا يكون مغبوناً في شيء في يوم التغابن فقد نصح نفسه ولم يعبها ولا غشها.

وذلك إنما يكون لمن ناقش وأفرغ الجهد في النصح لله بالطاعة والتقرب/ إليه. [٩٠/ أ]

وقد عمت النصيحة مقام الإسلام، والإيمان، والإحسان جميعاً.

فهذا المعنى إذا اعتبرته أيضاً وجدته شائعاً في كل الموجودات لم ير قط جزء ولا شخص من أشخاص المُلك كله إلا ناصحاً مجتهداً في طاعة الله مع الأنفاس والحركات.

فإن العالم الكلي كله بأجزائه متعبد بشرائع الإسلام لأن الدين عند الله الإسلام، وله أسلم من في السماوات والأرض إلا الثقلين ففيهم النقص والعصيان.

مَنَّ الله علينا بتوفيقه وجعلنا من خاصة عبيده. آمين.

وصلى الله على محمد وآله وسلم تسليما[١].

الشعبة الرابعة عشر والشعبة الخامسة عشر: الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر

هما شعبتان مرتبطتان كل واحدة بصاحبتها لأن الأمر بالشيء نهي عن ضده فلذلك جعلتهما في باب واحد.

فأما كونهما من شعب الإيمان فجلي في الأخبار وفي آيات القرآن.

روت عائشة رضي الله عنها في الصحيح أن رسول الله ﷺ قال: «خلق كل إنسان من بني آدم على ستين وثلاثمائة مفصل فمن كبّر الله وحمد الله وهلل الله وسبح الله واستغفرَ الله وعزل حجراً من طريق أو شوكة أو عظم أو أمر بمعروف أو نهى عن منكر عدد تلك الستين وثلاثمائة السلامى فإنه يمشي يومئذ وقد زحزح نفسه عن النار»[٢].

(١) جاء بهامش المخطوط عبارة: «بلغ مقابلة». يريد مقابلة هذا المخطوط على المنسوخ عنه.

(٢) أطرافه عند: مسلم في الصحيح (الزكاة: ٥٤)، البيهقي في السنن الكبرى (٤/ ١٨٨)، المنذري في الترغيب والترهيب (٣/ ٦١٩)، القرطبي في تفسير القرآن (١٥/ ١٦١).

فساق الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر معدوداً في شعب الإيمان لأن التهليل والذكر [٩٠/ ب] كله/ وإماطة الأذى الذي هو الشوك والعظم والحجر من شعب الإيمان، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر أقوى شعب الإيمان بوجه وأضعفه أيضاً بوجه آخر كما روى أبو سعيد الخدري قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «من رأى منكم منكراً فاستطاع أن يغيره بيده فليغيره بيده فإن لم يستطع فبلسانه فإن لم يستطع فبقلبه وذلك أضعف الإيمان»(١).

وفي خبر آخر: «ليس وراء ذلك من الإيمان حبة خردل». يعني أن التغيير بالقلب دون اليد واللسان أضعف الإيمان، فجعله من الإيمان فكذلك تغييره باللسان واليد أقوى الإيمان.

والأمر بالمعروف: هو الحجة كذلك تسميته عند أهل العلم كما قال الله تعالى: ﴿لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةٌۢ بَعْدَ ٱلرُّسُلِ﴾(٢). لأن الرسل أمرتهم بالمعروف.

والنهي عن المنكر: هو الوقاية أي وقاء الناس من العذاب، قال الله تعالى: ﴿وَٱتَّقُوا۟ فِتْنَةً لَّا تُصِيبَنَّ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مِنكُمْ خَآصَّةً﴾(٣). يعني أهل المنكر إذا لم يغير عليهم: ﴿وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ﴾(٤).

قال أبو بكر الصديق رضي الله عنه: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «ما من قوم يعمل فيهم بالمعاصي ثم يقدروا على أن يغيروا ولا يغيروا إلاّ أوشك أن يعمهم لله بعقاب»(٥).

إلاّ أنه شرط في هذه الأخبار كلها القدرة والاستطاعة وفيها رحمة عظيمة.

فالأمر بالمعروف: هو الأمر بفعل الخيرات كلها التي أمر الله بها ورسوله.

[٩١/ أ] والنهي عن المنكر: هو/ النهي عن ارتكاب المحرمات كلها وهو على مقامات ثلاث:

مقام في الظاهر: وهو الأمر بارتكاب أمور المعروف الظاهرة، ونهي عن ارتكاب المناكر الظاهرة.

---

(١) أطراف الحديث عند: مسلم في الصحيح (٦٩)، الترمذي في الجامع الصحيح (٢١٧٣)، النسائي في المجتبى (٨/ ١١١)، أحمد في المسند (٣/ ٢٠)، التبريزي في المشكاة (٥١٣٧)، أبي داود في السنن (١١٤٠).

(٢) سورة النساء (الآية: ١٦٥).

(٣) سورة الأنفال (الآية: ٢٥).

(٤) سورة البقرة (الآية: ١٩٦).

(٥) أطراف الحديث عند: أبي داود في السنن (الملاحم ب ١٧)، ابن ماجة في السنن (٤٠٠٩)، أحمد في المسند (٤/ ٣٦١، ٣٦٤)، المنذري في الترغيب والترهيب (٣/ ٢٣٠)، الطحاوي في مشكل الآثار (٢/ ٦٤)، البيهقي في السنن الكبرى (١٠/ ٩١).

ومقام في الباطن: وهو مقام الإيمان وعالم النفس فينهى النفس عن الهوى ويأمرها بالتزام التقوى وامتثال خواطر المعروف واجتناب خواطر المنكر، ومقام باطن في مقام الإحسان والروح أمر بالتزام المعروف الحق سبحانه وإيثاره والإقبال عليه ونهي عن الإعراض عنه وإيثار سواه ونهي عن توهم إله سواه فإنه أنكر المنكرات[١].

وله مراتب في نفسه وشروط: فقوم يجب عليهم باليد واللسان والقلب. وقوم باللسان والقلب دون اليد. وقوم بالقلب وهو أضعف الإيمان، وذلك على حسب التمكين في الأرض، قال الله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ إِن مَّكَّنَّـٰهُمْ فِي ٱلْأَرْضِ أَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَمَرُوا۟ بِٱلْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا۟ عَنِ ٱلْمُنكَرِ﴾[٢].

فأما تغييره باليد فللأمراء، والقضاة، وأصحاب الأحكام.

وأما تغييره باللسان فللرعية يأمر بلسانه ويذكر فإن قبل منه وإلاّ استعان بغيره أو رفع أمر ذلك إلى الحاكم إن رجى تغييره هذا في المجاهرين.

وأما إن وقعت زلة في أهل الستر وخزية في أهل العفاف ممن يستتر فسترها أولى ويأمره في الستر وحده ولا يكشفه.

وأما تغييره بالقلب فإذا أظهرت الأمراء المناكير وتركت المعروف ووضعت السيف والعذاب لمن تعرض لها في ذلك فيجب إنكاره بالقلب والعقد على ذلك فيقول لقلبه: اللهم إن هذا منكر لو قدرت لغيرته/ وإنما أنكره وأنكر أهله. [٩١/ ب]

ويقول في المعروف أيضاً إذا رأى أنه لا يقدر أن يأمر به: لو قدرت لأمرت بفعل هذا الخير الذي قد ضاع العمل به.

لكن يجب على العلماء الداخلين على الأمراء التلطف للأمراء بالقول ويأمرونهم في السر إذا أشهروا المناكير فيقولون له: مثلك لا يليق به إلاّ ما يحمد عليه ويشكر وإن هذا الأمر الذي أحدثته الخلق يكرهونه منك ويذمونك عليه، ونحو هذا مما يظن أنه ينفع.

فهذه مراتب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر على الكافة لا يسقط عن أحد من الخلق بوجه في حال من الأحوال لأنه إن سقط عن اليد واللسان لم يسقط فرضه عن القلب ولو سقط عن القلب لكان راضياً به وصار من أهل المنكر وخرج عن أهل المعروف فإن المنكر ضد المعروف وأهل المنكر ضد أهل المعروف فإذا خرج عن قوم وقع في ضدهم

(١) جاءت في الأصل مكررة.
(٢) سورة الحج (الآية: ٤١).

وكتب منهم ولذلك ورد في الخبر: لو قتل رجل رجلاً بالمشرق ظلماً ورضي به آخر بالمغرب لكان شريكه في إثمه.

فأما صورة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر: فأول ما يجب على الإنسان أن ينظر نفسه فيأمرها بأنواع البر والعمل بما ضيعت منها ويرى ما هي عليه من المنكرات ظاهراً وباطناً فينهاها عنه. ثم يتعدى إلى أهل داره فيأمرهم وينهاهم، وجيرانه. ثم كلما ظهر له شيء لزمه فرضه حيث ما حل أو نزل لأن الله يقول في كتابه: ﴿أَتَأْمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلْبِرِّ وَتَنسَوْنَ أَنفُسَكُمْ﴾[1]. الألف في ﴿أَتَأْمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلْبِرِّ﴾[1] للتوبيخ والتقرير وليست بنهي لأنه لو [٩٢/ أ] نهاه عن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وهو في/ نفسه غير مؤتمر لأدى ذلك إلى تضييع فرضين: الفرض الذي لزمه في نفسه، والفرض الذي لزمه في غيره فيجتمع عليه إثمين.

وإنما الألف على التوبيخ للذي يطمع بصلاح غيره وهو في نفسه فاسد فلو اجتمع الصلاح في النفس والأمر للغير كان الكمال.

وأفضل الناس في هذا الشأن منزلة الذي إذا ظهر على المنكر تغير بظهوره عليه كما ورد في الخبر: «خياركم الذين إذا رُؤوا ذُكر الله»[2].

وذكر الله من أعظم درجات المعروف فلما كان هذا من أمر الله ذكر بالله عند رؤيته.

وبهذا تفهم أن المنكر والمعروف ضدان كالليل والنهار إذا ظهر هذا غاب هذا.

وفي هذا حكمة عظيمة لمن تفطن لها فإن المعروف مأخوذ من العرف الذي هو العادة التي عرفه الناس وعلموه ولم يعرف إلاّ هو.

والمنكر هو الذي أنكرته العقول والقلوب عند رؤيته فالمنكر لا أصل له لأنه مجهول منكر في أصل الخلقة.

فإن المعروف الحق الذي لم يزل ولا يزال هو الله تعالى ومخلوقاته في الملك والملكوت والعرش والجبروت ولم تعرف إلاّ إياه رباً ولم تعرف طاعة إلاّ طاعته فكان التعبد به والقيام بحقه هو المعروف فقط.

فلما خلق إبليس وآدم عليه الصلاة والسلام وذريتهما وحدثت المعاصي على أيديهما

---

(١) سورة البقرة (الآية: ٤٤).

(٢) أطراف الحديث عند: ابن ماجة في السنن (٤١١٩)، أحمد في المسند (٦/ ٤٥٩)، السيوطي في الدر المنثور (٣/ ٣١٠).

ـ أعني الثقلين ـ صار العصيان والمخالفات منكراً أي أنكرته العقول والقلوب لأنه لم يألفه ولم يعهده ولا كان له أصلاً في العرف الذي تقدم عند الخلائق كلها ولهذه العلة إذا كان المنكر مخفياً غير ظاهر لم يضر غير صاحبه الذي ظهر على قلبه وجوارحه فقط لأنه شبيه بأصله لم يعرفه أحد فإذا ظهر وفشى وجب/ تغييره وردّه أيضاً إلى أصله بإنكار النفوس [٩٢/ ب] والألسن والأيدي له حتى لا يبقى إلا المعروف الذي لم يزل معروفاً قديماً وحديثاً وكذلك إذا قامت القيامة وفنيت الدنيا التي ظهرت فيها المناكير لم يكن للمنكر وجود ولا للعصيان أثر بوجه ولا حال ولم يبق إلاّ طاعة الطائعين الذين ﴿لاَّ يَعْصُونَ ٱللَّهَ مَآ أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾[١] وانقاد وطاع أهل المنكر كلهم حين يرون ﴿أَنَّ ٱلْقُوَّةَ لِلَّهِ جَمِيعاً﴾[٢] ولم يبق في الوجود مقدار ذرة من العصيان لأن الهوى المعبود الذي اتخذ إلهاً من دون الله وحسب الذين يتبعون الظن أنه يضر أو ينفع فأطاعوه واتبعوه إذا ظهر الإله الحق في الآخرة للجميع في وجوده أفنى الهوى وفنيت طاعته التي هي المنكر.

فاعرف العلة في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر فإن الباري تعالى لا يعلم في ملكه معبوداً سواه ولا من يضر ولا ينفع سواه وما لا يعلمه الله فهو أنكر المنكرات فطاعته إذاً هي المنكرات: ﴿قُلْ أَتُنَبِّئُونَ ٱللَّهَ بِمَا لاَ يَعْلَمُ فِي ٱلسَّمَاوَاتِ وَلاَ فِي ٱلأَرْضِ﴾[٣].

[و][٤]الهوى إله معبود: ﴿إِن يَتَّبِعُونَ إِلاَّ ٱلظَّنَّ﴾[٥] الآية. [وقال][٦]: ﴿وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِ ٱلْبَاطِلُ﴾[٧].

وكذلك شاهدته العقول والأرواح في مقام الإحسان وأنكرت يقيناً أن يكون عند غيره معنى من الألوهية لأنها تعلمه وقامت لها البراهين على ذلك فلما لم يعلمه الله تبارك وتعالى وشاهدت المعروف الذي لم يزل أمرت ذواتها وغيرها بالانقياد له وما كانت قط معصية إلاّ بشرك خفي أو جلي وإقبال على غير الله أو حُب غير الله أو مشاهدة شيء يضر أو ينفع غير الله أو غفلة عن الله. فافهم.

/ وقد حصل في هذا المقام المتقدم مقامات الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر في [٩٣/ أ] مقام الإسلام والجسد ومقام الإيمان والنفس ومقام الإحسان والروح مجملاً فأغنى عن تفسيره.

---

(١) سورة التحريم (الآية: ٦).
(٢) سورة البقرة (الآية: ١٦٥).
(٣) سورة يونس (الآية: ١٨).
(٤) زيادة يقتضيها السياق.
(٥) سورة النجم (الآية: ٢٨).
(٦) زيادة للفصل بين الآيات.
(٧) سورة لقمان (الآية: ٣٠).

فأما اعتبار الأمر بالمعروف في الوجود كله فإنك إذا نظرت الأشياء كلها من سماء وأرض وحيوان ونبات وأي موجود كان رأيته مصلياً راكعاً وساجداً ومسبحاً ومعظماً ومنزهاً لبارئه ومتعبداً له بجميع أنواع المعروف كلها فيقول لك بلسان الحال كن مثلي فإني ما عصيت قط طرفة عين.

وكذلك إذا صرفت بصرك إلى أهل العقوبات فرأيت مطروداً ملعوناً ومحبوساً مسجوناً أو مضروباً معذباً أو أي نوع من العقاب رأيته حل بمن حل يقول لك بلسان الحال لا تكن مثلي فيحل بك ما حل بي عاجلاً أو آجلاً.

وذلك نهي عن المنكر فإن الوجود كله لا يخلو عن خير وشر الشر جزاء على المنكر والخير جزاء على المعروف.

فالشر الذي هو العقاب كله يخاطب العقول حيثما كانت ويقول: من عمل بمقتضى ما خلقت من أجله حللت به.

والثواب كله والخير أجمعه يقول: من عمل بمقتضى ما خلقت من أجله أكرمته وكنت ثواباً له بكلام دائم متصل غير منفصل مع الأنفاس والساعات يسمعه كل من فتح الله بصيرته وألقى السمع وهو شهيد.

[وصلى الله على محمد وعلى آله وسلم تسليماً][1].

الشعبة السادسة عشر: العدل

قال الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَٱلْإِحْسَانِ﴾[2]. [وقال][3]: ﴿وَإِذَا حَكَمْتُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ أَنْ تَحْكُمُواْ بِٱلْعَدْلِ﴾[4]. وقال: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُونُواْ قَوَّٰمِينَ بِٱلْقِسْطِ﴾[4] وهو العدل. وقال: ﴿وَزِنُواْ بِٱلْقِسْطَاسِ ٱلْمُسْتَقِيمِ﴾[5] وهو العدل.

[٩٣/ ب] / وأما كونه من شعب الإيمان فبيّن فإن العدل هو: إعطاء كل ذي حق حقه، ولله على الخلق حق ولرسوله حق ولملائكته حق ولجميع الخلق حق.

(١) خاتمة اعتاد المؤلف رحمنا الله وإياه ذكرها بآخر كل شعبة وأحسبه غفل عنها هنا فأثبتها طلباً للأجر.
(٢) سورة النحل (الآية: ٩٠).
(٣) زيادة للفصل بين الآيات.
(٤) سورة النساء (الآية: ٥٨، ١٣٥).
(٥) سورة الإسراء (الآية: ٣٥)، الشعراء (الآية: ١٨٢).

فقد عم العدل المقامات كلها: مقام الإسلام والإيمان والإحسان والذوات الثلاثة: الجسد والروح والنفس وكلف العبد إعطاء كل ذي حق حقه.

وقد جعله علي بن أبي طالب رضي الله عنه في حديثه الطويل دعامة من دعائم الإيمان فقال: الإيمان على أربع دعائم: على الصبر، واليقين، والعدل، والجهاد.

فما كان دعامة الإيمان كيف لا يكون منه فإن الأساس من البنيان.

فأما تفسير معنى العدل فهو الحكم بالحق ووضع الحقوق في مواضعها وهو معنى شائع عام في جميع الأشياء فللّه حق ولكتابه حق ولملائكته حق ولرسله حق وللوالدين حق وللقرابة حق وللمسلمين حق وللفقراء حق وللزوجات حق وللأولاد حق ولملك اليمين حق وللجوار حق وللأصحاب حق ولابن السبيل حق وللعلماء حق وللمتعلمين حق وللبيع والشراء حق وقد قال النبي عليه الصلاة والسلام: «كلكم راعٍ وكلكم مسؤول عن رعيته»[1].

فالعدل أن لا يبخس أحد من حقه شيئاً على قدر طاقة الإنسان ووسعه.

فأما حق الله على خلقه فقد ورد في الخبر: «حق الله على العباد أن يعبدوه ولا يشركوا به شيئاً»[2].

والعدل هو الوسط بين الزيادة والنقصان فالعدل في ذلك أن لا ينقص من حقه شيء على حسب ما أمر، وأما الزيادة على الحق في حق الله تعالى فمحال لأن حقه لا يقام به حقيقة فكيف بالزيادة عليه ولذلك تقول الملائكة يوم القيامة: «سبحانك ما عبدناك حق عبادتك».

/ لأنها شاهدت التقصير على صفاء عبادتها وإخلاص توحيدها لأن الباري تعالى لم [٩٤/ أ] يكلف أحداً إلا ما يطيق فعله [فعلى][3] العبد أن يفعل ما أمر به على غاية جهده فإن ضيع شيئاً مما أمر به فقد جار ولم يعدل فيه كما ورد في السارق الذي يسرق من صلاته أي نقص من كمال ركوعها وسجودها فإن العدل الواجب على المصلي أن يعتدل في الركوع والسجود والجلوس والقيام، والعدل في القراءة أن يعطي كل حرف حقه ولا يبخسه حظه من النطق

---

(١) أطراف الحديث عند: البخاري في الصحيح (٢/٦)، أبي داود في السنن (الخراج ب ١)، الترمذي في الجامع (١٧٠٥)، أحمد في المسند (٣/ ٥)، البيهقي في السنن الكبرى (٦/ ٢٨٧)، ابن حجر في الفتح (٢/ ٣٨٠).

(٢) أطراف الحديث عند: مسلم في الصحيح (الإيمان ٤٩)، أبي عوانة في المسند (١/ ١٦)، البخاري في الصحيح (٧/ ٢١٨)، ابن حجر في الفتح (١٠/ ٣٩٧).

(٣) زيادة يتطلبها السياق.

ويتفهم معاني الآيات ويخشع في مواضع الخشوع ويحضر قلبه في مواضع الحضور، إلى غير ذلك من حقوق الصلاة على قدر طاقته فإن ضيع شيئاً من ذلك فهي خداج أي ناقصة قدر ما يكون النقصان وسيجبر من النفل إن كان له نفل أو يفعل الله في حقه ما يشاء.

وهكذا جميع ما فرض الله تعالى من حقوقه على عباده يجري هذا المجرى أي فرض كان.

فاعتبر بهذا غيره من الفرائض لأني لو تتبعت ذلك لطال به الكلام وخرج عن حد الاختصار الذي قصدت له في تأليف هذه الشُعب.

وحدّ الاختصار في ذلك ما ورد في تفسير قوله: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ﴾[1]. قيل في التفسير: حقه أن يطاع فلا يعصى ويذكر فلا ينسى ويشكر فلا يكفر.

فهذه الستة أشياء جامعة لما أردنا بيانه وهي: الطاعة، وترك العصيان، والذكر الدائم الكثير، وترك النسيان، والشكر لجميع النعم، وترك التبديل لها.

فإنك إذا أطعته وعصيته فقد بخسته حقه ووجب عليك التوبة من النسيان والغفلات [٩/ ب] وإذا شكرته وقصرت في الشكر أو وضعت/ النعم في غير مواضعها فقد كفرتها ووجب عليك التوبة والإقلاع والاستبدال لحالك وهذا إذا نظرته بحقيقة النظر لا تمر عليك ساعة من ليل أو نهار إلا وتجدد فيه التوبة والاستغفار مما أنت عليه.

ألاَ ترى إلى سيد المرسلين كيف كان يتوب ويستغفر في اليوم مائة مرة فكيف بأمثالنا.

والتائب بصدق من الذنب كمن لا ذنب لـه والحمد لله. فاجعل هذا من بالك واعمل عليه ولا تقل هذا لا أقدر عليه ولا أقوم بحق الله فإن فعلت ذلك كنت من المتهاونين بحق الله، ويخشى على المتهاون الهوان في دار الهوان فإن الحجة تقوم على الخلق يوم القيامة بطلب معاشهم وتجاراتهم فإنهم لم يقصروا في طلبها وأفرغوا غاية الجهد في ذكرها والشغل بها وطاعتها وعصيان من خالفهم فيها وهي أتعب وأشق من طاعة الله أضعافاً مضاعفة فإن كان يقول الإنسان: لا أقدر على قضاء حقوق الله. قيل له: فكيف قدرت على قضاء حقوق أغراضك وأهوائك وهي أكبر مشقة وتعباً فلا يكون لأحد حجة.

والحمد لله الذي لم يكلف المؤمنين ما لا طاقة لهم به ولو كلف لكان ذلك.

وقد دعا النبي ﷺ في ذلك في آخر سورة البقرة: ﴿رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِۦ﴾[2]. فقال له بكرمه: قد فعلت.

(١) سورة آل عمران (الآية: ١٠٢).
(٢) سورة البقرة (الآية: ٢٨٦).

ونسأل الله تبارك وتعالى أن يضع لنا البركة فيما وهبنا من نعم الدين والدنيا والآخرة وأن يسمع لنا وأن يحبب لنا نفسه وطاعته حتى يكون أحب إلينا من كل شيء. آمين.

[فصـــل]

واعلم أن الشهادة لا تكون إلاّ بالعدالة والعدل من الشهداء الذي لا يميل في شهادته إلى أحد من المشهودين له.

وضده شاهد الزور وهو يميل/ عن الوسط لأنه مأخوذ من الازورار وهو الميل. [٩٥/ أ]

والميزان العدل هو الذي يكون لسانه في وسط القبة لا يميل إلى أحد الجانبين فكذلك ينبغي فيبخس حق الآخر كما أن الكفة إذا مالت في الميزان بخست الأخرى من حقها والخلق كلهم استعبدوا بهذه العدالة وأن يكونوا قائمين بين الله ومخلوقاته في شهادتهم للّه ولمخلوقاته بالقسط فيعطوا الله حقه وهو معنى الربوبية وللخلق حقهم وهو العبودية فمن أضاف إلى المخلوقات شيئاً من معاني الربوبية وإن دق فقد بخس الربوبية حقها أو بخس العبودية حقها وسقط عنه اسم العدالة وسمي باسم الظلم لأنه وضع الشيء في غير موضعه قال الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾[1].

ومن فهم هذا المعنى اتضح له وجه الحكمة في مظلمة الشرك التي لا تغفر، قال الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ﴾[2].

وسيأتي الكلام عليه في مواضعه إن شاء الله.

[فصـــل]

وأما حق الرسول عليه الصلاة والسلام فعظيم لا يقدر أحد قدره أيضاً فإن كل نعمة أسدى الله إلى الأمة من نعم الدين كلها إنما كانت على يديه فمن كان سبب الهداية إلى رب العالمين والمعرفة به وسبب العبادة له وسبب النجاة من الضلال وسبب تنوير القلوب وشرح الصدور وتنبيه العقول وسلامة النفس من وحشة الكفر وضيق الصدور وظلمة الحمق ومن العذاب الدنياوي وسبب الراحة بعد الموت وسبب النجاة من الخلود في النار وسبب النظر إلى وجه الله الكريم وسبب النجاة من غضب الله، وسبب نيل الرضوان من الله وسبباً لأن ينعم/ الله على عبيده أبد الآبدين فنعم لا تحصى كيف يقدر قدر هذا الشخص أو يؤدي شكره [٩٥/ ب] أبداً.

(١) سورة لقمان (الآية: ١٣).
(٢) سورة النساء (الآية: ٤٨).

فالعدل في حقه أن تلحظه بعين التعزير والتوقير وتراه في المرتبة التي جعله الله فيها وتقدره قدره الذي هو عليه.

وهيهات أنَّى لك بذلك وقد قرن الله اسمه مع اسمه الذي سمي على العرش بعظمته وجلاله ورفعته وكبريائه وذل لاسمه كل شيء بالتعبد والخضوع والإقرار.

كيف يقدر قدره أو يؤدي شكره وقد أمر الله بتعزيره وتوقيره في آيات كثيرة من كتابه فقال: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِداً وَمُبَشِّراً وَنَذِيراً﴾[1] [وقال][2]: ﴿لِتُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتُعَزِّرُوهُ وَتُوَقِّرُوهُ﴾[3].

وقال للصحابة: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ﴾[4] إلى قوله: ﴿لَا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ وَلَا تَجْهَرُوا لَهُ بِالْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ أَنْ تَحْبَطَ أَعْمَالُكُمْ وَأَنْتُمْ لَا تَشْعُرُونَ﴾[4].

فشخص رجل قدره عند الله حبط أعمال الإسلام من أجل رفع الصوت عنده لقد جل قدره وعظم خطره وكذلك رفع الصوت بالآراء على سنته وتقديم الرأي عليها والتهاون بكلامه من ذلك المعنى بل تلحظ سنته وكلامه كما يلحظ شخصه.

واختصار القول في هذا المعنى: أن الباري تبارك وتعالى جعل الخير والهداية والنعيم الذي في يده جل جلاله في خزانة ملكه وجعل الشر والضلال والعذاب وأنواع الخزي كلها الذي في يده الأخرى في خزانة ملكه ثم خاطب الخلائق كلهم وقال: لا ينال أحد من الخير الذي في يدي ذرة إلاّ على يدي هذا الشخص الذي أرسلته إليكم ولا ينال شيئاً من الشر الذي لا يقوم له شيء وهو بيدي إلاّ من أغضب هذا الشخص ولم يطعه.

فهكذا ينبغي أن تفهم بعض درجات النبي ومراتبه ﷺ.

ومن العدل في (. . .)[5].

---

(١) سورة الأحزاب (الآية: ٤٥).

(٢) زيادة للفصل بين الآيات، والواضح أنه حدث لبث عند تلاوة وكتابة المؤلف للآية فأدخل الآيتين في بعض حيث إن الاستشهاد جاء بالآية الثانية.

(٣) سورة الفتح (الآية: ٩).

(٤) سورة الحجرات (الآية: ١، ٢).

(٥) سقطت الورقة [٩٦/ أ، ب] من المخطوط وبها ذكر بقية حقوق الرسل عليهم السلام، الكتب والخلائق والأهل والعشيرة.. الخ.

/ كما قال: ﴿وَٱلْأَرْضَ مَدَدْنَاهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ﴾[١]. وكذلك كل شيء كما نبّه عليه في قوله: ﴿شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَأُوْلُواْ ٱلْعِلْمِ قَآئِمًۢا بِٱلْقِسْطِ﴾[٢]. أي يعطي كل شيء قسطه. [٩٧/ أ]

مَنّ الله علينا برحمته وفضله ورضى عَنّا خصماءنا بكرمه وسمح لنا في حقوقه. آمين.

وصلى الله على محمد وآله وسلم.

الشعبة السابعة عشر: الأمانة

وهي من أعظم شعب الإيمان لأن النبي عليه الصلاة والسلام قد نفى الإيمان عن من ليس بأمين فقال: «لا إيمان لمن لا أمانة له»[٣].

وروى أبو هريرة عن رسول الله ﷺ: «إذا ضيعت الأمانة فانتظر الساعة»[٤].

وفي حديث حذيفة الذي رواه في رفع الأمانة قال في آخره: «فيصبح الناس يتبايعون ولا يكاد أحد يرد الأمانة فيقال في بني فلان رجل أمين، ويقال للرجل ما أعقله وما أظرفه وما أجلده وما في قلبه مثقال حبة خردل من إيمان»[٥].

فانظر هذه الشعبة ما أعظم قدرها التي يذهب الإيمان بذهابها.

واعلم أخي أن الأمانة قدرها عظيم لأن الله عرضها على السماوات والأرض والجبال فأبين أن يحملنها وأشفقن منها وهي صفة باطنة نزلت في جذر قلوب الرجال يرد العبد المتصف بها الشيء الذي اؤتمن عليه واستودع إلى من ائتمنه ما استودعه[٦] كما استودعه.

---

(١) سورة ق (الآية: ٧).

(٢) سورة آل عمران (الآية: ١٨).

(٣) أطراف الحديث عند: أحمد في المسند (٣/ ١٣٥)، ابن خزيمة في الصحيح (٢٣٣٥)، الطبراني في الكبير (٨/ ٢٣٠)، الصغير (١/ ٦٠)، ابن أبي شيبة في المصنف (١١/ ١١)، البغوي في شرح السنة (١/ ٧٥)، الهيثمي في مجمع الزوائد (١/ ٩٦).

(٤) أطراف الحديث عند: البخاري في الصحيح (١/ ٢٣)، البيهقي في السنن الكبرى (١٠/ ١١٨)، ابن حجر في الفتح (١/ ١٤٢)، السيوطي في الدر المنثور (٦/ ٥٠)، التبريزي في مشكاة المصابيح (٥٤٣٩).

(٥) جزء من حديث طرفه عند الترمذي في الجامع الصحيح (٢١٧٩)، البخاري في التاريخ الكبير (٧/ ٣٢٩).

(٦) في الأصل: فاستودعه. وهو تحريف.

ويحق لكل عبد أن يبكي القيح والدم إن قدر على ذلك من أجل حمله الأمانة فإن قدرها عظيم وحملها الإنسان بجهله وظلمه.

واعلم يا أخي وفقنا الله وإياك أن الأمانة على ضروب:

[٩٧/ ب] فمنها أمانة الله وأمانة الرسول وأمانة فيما/ بين الخلق.

قال الله تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَخُونُواْ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ وَتَخُونُوٓاْ أَمَـٰنَـٰتِكُمْ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾[1].

ومعنى ﴿لَا تَخُونُواْ ٱللَّهَ﴾[1] فيما ائتمنكم عليه، وَلَا تَخُونُوٓاْ ٱلرَّسُولَ فيما ائتمنكم عليه، ولا تخونوا بعضكم لبعض فيما ائتمنكم عليه.

[فصل]

فأما أمانة الله جل جلاله وتعالى علاه وشأنه فهي الوديعة التي استودع الله آدم وولده وأمنهم عليها وهي تمليكه إياهم الأشياء وجعله إياهم خلفاء في ملكه لأنه لولا الغيبة لما سميت الأمانة أمانة ولا الخيانة خيانة فبغيبتهم عن المستخلف ظهر الأمين منهم والخائن.

فأول ما ملكهم نفوسهم وأمنهم عليها وأمرهم بحفظها وأن يلقوه طاهرين من معاني الخيانة كما خلقهم طاهرين ثم ملكهم بعد نفوسهم ملكه واستخلفهم فيه ليكونوا فيه قائمين بحقوق الأمانة لأن من ملكك شيئاً واستخلفك عليه فقد أمنك عليه.

فحقيقة الأمانة إذاً أن يحكم الأمين في نفسه وفيما ملك بحكم من أمنه واستخلفه وكما أمره فيكون بدلاً من الذي أمنه على نفسه وعلى ملكه فلذلك عظم أمر الأمانة والخيانة لأنه كلف أن يحكم في نفسه وغيره كحكم الله تعالى فيه وفي غيره.

فإن قلت كيف يقدر أحد على هذا؟ فاعلم أن حكم الله هو الشرع الذي شرع والحد الذي حد وقد كلف العبد القيام بما شرع الله وحكم عليه وغيره وكذلك ورد في تفسير صحيح البخاري في قوله تعالى: ﴿إِنَّا عَرَضْنَا ٱلْأَمَانَةَ عَلَى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ﴾[2] الآية. قال في تفسير الأمانة: ما أمر به الشرع.

والشرع أمر بالتوحيد والإيمان بالمؤمنات والقيام بفروع الإسلام وجميع المشروعات.

---

(١) سورة الأنفال (الآية: ٢٧).

(٢) سورة الأحزاب (الآية: ٧٢).

فقد عمت الأمانة مقام الإحسان، والإيمان، والإسلام ظاهراً وباطناً؛ فقد أمنه الله على مقام الإسلام وفروعه وعالم الحس.

وأمنه على مقام/ الإيمان وعلى نفسه في عالم النفس. [٩٨/ أ]

وأمنه على مقام الإحسان في مقام الروح والعقل لأن ذلك هو الشرع كله أمنه عليه ليرى أيكون أميناً في ذلك كله أم لا فقد عمت الأمانة المقامات كلها. فافهم.

ولكن إنما تفهم حقيقة المعنى منها ـ أعني الأمانة ـ بفهم الخلافة، فالأمين هو الذي يكون إذا غاب عن الذي أمنه كما كان معه في حال حضوره.

والباري جل جلاله خلق الخلق طاهرين واستخلفهم في دار الدنيا ثم أمرهم بالإيمان به والعمل بمقتضى الإيمان بالغيب فمن حفظ نفسه في دار الدنيا وحفظ ما أُمِّنَ عليه كما كان يحفظ ذلك في حال حضوره بين يدي الله فهو الأمين.

وقد نبّه الله على هذا المعنى في مواضع كثيرة فقال تعالى: ﴿يَعْلَمُ خَـآئِنَةَ ٱلأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِي ٱلصُّدُورُ﴾[1]. فنبّه الناظر على أن الله ﴿يَعْلَمُ خَـآئِنَةَ ٱلأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِي ٱلصُّدُورُ﴾[2] فلو أن الناظر يعلم أو يتحقق أن الله يراه في حال النظر لما نظر إلى ما حظر عليه. وقالت امرأة العزيز: ﴿ذَٰلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّي لَمْ أَخُنْهُ بِٱلْغَيْبِ﴾[3].

فالأمانة أن يستولي من الأمن سره وعلانيته ولا يبالي على أي حال اطلع عليه إلاّ بما أمر الشرع بستره من نكاح أو غيره وهذه المسألة تستدعي فهم معنى الخلافة وكيف استحق إبراهيم ذلك دون سائر الخلق.

فاعلم أن الملائكة المكرمين خلقوا على مراتب لا يتعدى أحد مرتبته التي جعل فيها كما قالوا صلوات الله عليهم: ﴿وَمَا مِنَّآ إِلاَّ لَهُ مَقَامٌ مَّعْلُومٌ﴾[4] وقد عمروا العالم كله حتى أنه ليس فيه موضع شبر إلا مغمور بهم فالملائكة المخلوقون بالأرضين الموكلون بها لا يتصرفون إلاّ في معنى ما خلقوا وصرفوا فيه والملائكة المخلوقون/ بالبحر الموكلون به [٩٨/ ب] كذلك والموكلون بالرياح أيضاً كذلك لا يتصرفون إلاّ في المقام الذي هم فيه وفي الأمر الذي وكلوا به، كذلك الموكلون بعالم الأفلاك والشمس والقمر والنجوم وأجرام السماوات وحملة الكرسي والعرش وملائكة الجنان وملائكة النار والحجب وغير ذلك مما لا يحصى كل منهم مخلوق من نوع مقامه الذي وكل به وعامل بالعمل الذي استعمل فيه لا يتعداه

---

(١) سورة غافر (الآية: ١٩).
(٢) سورة غافر (الآية: ١٩).
(٣) سورة يوسف (الآية: ٥٢).
(٤) سورة الصافات (الآية: ١٦٤).

وكذلك الشياطين والجن مقصورون على نوع ما خلقوا منه.

وكذلك الحيوانات والنبات والأفلاك الدائرات كل شيء من ذلك قاصر على الشيء الذي استعمل به غيره فكل واحد منهم أمين في نفسه على الشيء الذي اختص به.

وهذه الأمانة المعرفة بالألف واللام في قوله: ﴿إِنَّا عَرَضْنَا ٱلْأَمَانَةَ﴾[١]. مخصوصة لآدم وولده لأن الله خلق آدم وولده من جميع المخلوقات وركب بنيته من جملة الموجودات وعلمه الأسماء كلها.

فكذلك كان خليفة لأنه لا صالح لأن يفهم جميع معاني الموجودات كلها، وفي بعض الكتب المنزلة: ابن آدم خلقت الأشياء كلها من أجلك وخلقتك من أجلي.

ويصدقه من القرآن قوله عز وجل: ﴿وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي ٱلسَّمَاوَاتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ جَمِيعاً مِّنْهُ﴾[٢]. فهذا عالم الملك الظاهر كله مخلوق من أجله.

وأما عالم الملكوت فإن الله يقول: ﴿وَٱتَّقُواْ ٱلنَّارَ ٱلَّتِيٓ أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ﴾[٣]. ويقول: ﴿وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا ٱلسَّمَاوَاتُ وَٱلْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ﴾[٣].

فهذا عالم الملكوت مخلوق من أجله إبليس إنما إبليس من أجله لما لم يقر بخلافته، والملائكة مصرفون في حوائج بني آدم.

[أ/] فإسرافيل مشغول بالصور الذي فيه أرواح بني آدم. وجبريل مصرف/ في الوحي الذي فيه هداية بني آدم. وميكائيل وكل بأرزاق بني آدم. وملك الموت مسخر في قبض أرواحهم. والبهائم مخلوقة لهم. والسقف عرش الجنة والجنة مخلوقة لهم فكل شيء من أجله خلق ولذلك خلق في آخر الموجودات كلها.

فخلق الله تبارك وتعالى العرش والكرسي والجنة والنار والسماوات والأرض والنبات وجميع الحيوانات.

ثم خلق بعد ذلك آدم حين كملت الموجودات ليكون خليفة فيها لأن آدم فيه من الأرض جزء ومن الجبال جزء ومن الماء جزء ومن الهواء جزء ومن الريح جزء ومن النار

---

(١) سورة الأحزاب (الآية: ٧٢).

(٢) سورة الجاثية (الآية: ١٣) وجاء بأولها لبس حيث قال: هو الذي خلق لكم وهو سهو.

(٣) سورة آل عمران (الآية: ١٣١، ١٣٣) والآية الثانية أيضاً حدث فيها لبس حيث قال الجنة التي أعدت للمتقين.

جزء ومن السحاب جزء ومن أخلاق الشياطين جزء ومن أخلاق الملائكة جزء ومن جميع الموجودات جزء.

فمن التراب لحمه ومن الجبال عظمه ومن الماء دمه ومن الهواء نفسه ومن الريح قوته ومن النار حرارته.

وجعل في باطن جسده القلب وهو مثال للشمس في الفلك منه تنتشر الحرارة في الجسد كالشمس في العالم وجعل فيه الرئة لتبريد الحرارة عن باطن جسده وهي مثال للقمر في العالم الفلكي.

وجعل فيه المعدة المشتهية للطعام وهي مثال للزهرة في الفلك.

وجعل فيه المرار المهيج للغضب والحقد وغير ذلك من الأفعال التي تحمد مرة وتذم أخرى وهو مثال للمريخ في العالم الفلكي.

وجعل فيه الكبد المصفي للدم المعدل للمزاج وهو مثال للمشتري في العالم.

وجعل فيه الطحال الزام ببرده ويبسه ما صرفه الله فيه من باطن الإنسان وجعل مثاله في الفلك زُحَل.

وجعل فيه الدماغ المهيج للأفكار وغير/ ذلك مما صرف فيه وهو مثال العطارد. [٩٩/ ب]

فهذه مثالات في جسد الإنسان لأشخاص الأفلاك التي أقسم الله بها وهي: الجوار الكنس، والشمس، والقمر.

وجعل في هذه الأعضاء الرئيسية قوى فعالة بإذن الله تعالى فمنها مُغَذٍّ ومنها جاذب ومنها ماسك ودافع ومصور ومعدل ومقسم للغذاء وغير ذلك من القوى المركبة في باطن الإنسان، وهي مثال للأملاك المصرفة للفلك والكواكب الخَدمة لهذا العالم بإذن الله.

وركب أيضاً في الإنسان طبائع النبات وطبائع الحيوان من الأكل والشرب والمرارة والحلاوة والخشونة والبلادة والحقد والشجاعة والجبن وجميع صفات البهائم والنبات المحمودة والمذمومة ليفهم المعاني كلها، لكنه كلف أن يصير المذموم محموداً.

وكذلك جعل فيه الهمم العالية الرفيعة مثال للسماوات العاليات والهمم الدنية السافلة مثال للأدراك السافلة.

وجعل له نفساً حاملة لجسده وهي مثال للكرسي الذي وسع السماوات والأرض.

وجعل له روحاً وعقلاً وهو مثال للعرش الحامل للكل.

وصفات محمودات وأخلاق مذمومات وهي مثال للملائكة والشياطين فصفات اللين والرحمة والرضوان مثال للملائكة السماوية المقربين الروحانيين، وصفات الشدة والغلظة والقوة مثال للملائكة الأرضية أهل قبضة الشمال، ومثال أخلاقه المذمومة مثال الشياطين.

وجعل الله له سمعاً وبصراً وإرادة وكلاماً وحياة وعلماً وقدرة ليفهم بها صفات بارئه.

[١٠٠/ أ] فالإنسان إذا تفكر في جسده ونفسه وروحه وعرفها عرف جملة الموجودات/ وعرف العلة في تكليفه الأمانة وصار خليفة إلا أنه كلف أن يجري أخلاقه وأعماله وأحكامه كلها على الشرع فيكون كل ما فيه محموداً فائتمنه الله على نفسه وعلى مخلوقاته وأمره أن يكون فيه بدلاً منه وأن لا يخون ولا يغير الأمانة.

فمن أيده الله بالتوفيق وأجرى أموره على الشرع وبقي على صورة الأمانة وصل في الآخرة إلى معنى قوله تعالى: ﴿وَإِذَا رَأَيْتَ ثَمَّ رَأَيْتَ نَعِيماً وَمُلْكاً كَبِيراً﴾[1].

ومن خان الله تعالى وادعى الربوبية لغير الله أو بفعل من أفعال الله فقد خان الله فيما أمنه عليه وغير الأمانة وجحدها وأراد قلب الملك وقام على الملك في ملكه وأفسد.

ولذلك قيل: من الذنوب ذنوب لا يصلح للملك أن يعفو عنها وليس من الحكمة العفو منها: خليفة استخلفه ملك فأراد قلب دولته عليه. فإنها خيانة عظيمة لا يصلح العفو عنها إذا عثر عليه قبل توبته ورجوعه إلى الحق. فلذلك انقسم الخلفاء إلى أمناء، وخونة، وما بين ذلك. فقسم لهم داران: دار الكرامة، ودار الهوان [. . .]

نسأل الله الكريم أن يلهمنا رشدنا ويتوب علينا من دقائق الآفات وجليلها إنه كريم منان.

[فصـــل]

وأما أمانة الرسل عليهم السلام فإنهم استودعوا الناس الشرائع التي جاءوا بها وهي العلوم والأعمال كما ورد في الحديث: «العلماء أمناء الرسل»[2].

وكلف الخلق كلهم طلب العلم وفرض عليهم فهم أمناء عليه وعلى العمل به.

فهم أمناء على الوضوء والصلاة والغسل والصوم والصلاة[3] والزكاة والحج وعلى

---

(١) سورة الإنسان (الآية: ٢٠).

(٢) أورده ابن الجوزي في الموضوعات (١/ ٢٦٣)، ابن أبي حاتم في العلل (١٥٠٦)، العجلوني في كشف الخفا (١٣٢)، السيوطي في اللآلىء المصنوعة (١/ ١١٤).

(٣) سبق أن ذكرها قبلها بقليل.

الاعتقادات كلها وكل ما يلزمهم التصديق به والعلم والعمل فمن وافق علمه عمله وسره علنه وكان جارياً على/ سنة الأنبياء فهو الأمين ومن كان بضد ذلك فهو الخائن، وبين ذلك [١٠٠/ ب] درجات.

ولذلك تقول الأنبياء إذا سئلت يوم القيامة: ﴿لَا عِلْمَ لَنَآ﴾(١).

قال الله تعالى: ﴿يَوْمَ يَجْمَعُ ٱللَّهُ ٱلرُّسُلَ فَيَقُولُ مَاذَآ أُجِبْتُمْ قَالُواْ لَا عِلْمَ لَنَا إِنَّكَ أَنتَ عَلَّامُ ٱلْغُيُوبِ﴾(٢). أي أنت العالم ببواطنهم وما كانوا عليه، حينئذ تظهر الأمانة والخيانة.

تاب الله علينا من جليل الخيانة ودقيقها. آمين.

[فصل]

وأما أمانة الناس بعضهم مع بعض: فهي الودائع في الأموال والأهلين وهي التي عبر عنها قوله تعالى: ﴿وَتَخُونُوٓاْ أَمَـٰنَـٰتِكُمْ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾(٣).

والأمانة صفة كريمة من علامة السعادة فمن أخذ درهماً أو أقل من ذلك أو أكثر من مال غيره فهو خائن لا يريد رده.

وكذلك من نظر نظرة إلى غير أهله بسوء كما قال تعالى: ﴿يَعْلَمُ خَآئِنَةَ ٱلْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِي ٱلصُّدُورُ﴾(٤).

وكذلك جميع الجوارح إذا تعدت إلى متاع الغير قد خان غيره في ذلك.

والخيانة كلها مذمومة مجانبة للإيمان فقد عمت الأمانة جميع المقامات الإسلامية، والإيمانية، والإحسانية كلها ليرى أيكون خائناً نفسه أم لا.

نسأل الله التوبة من جميعها. آمين.

وصلى الله على محمد وآله [وسلم تسليماً].

الشعبة الثامنة عشر: الصدق

فأما كون الصدق من شعب الإيمان فقد ثبت عن رسول الله ﷺ أنه قال: «عليكم بالصدق فإن الصدق يهدي إلى البر وإن البر يهدي إلى الجنة، وما زال الرجل يصدق

(١) سورة المائدة (الآية: ١٠٩).
(٢) سورة المائدة (الآية: ١٠٩).
(٣) سورة الأنفال (الآية: ٢٧).
(٤) سورة غافر (الآية: ١٩).

ويتحرى الصدق حتى يكتب عند الله صديقاً»(١).

[١٠١/ أ] فشيء يبلغ إلى الصديقية/ التي هي أرفع درجات الإيمان كيف لا يكون من الإيمان؟!

ولأن لفظ الصدق من لفظ التصديق والتصديق هو الإيمان فهو منه، إلاّ أن الصدق يجري من الإيمان مجرى القوة من الأبدان فإذا لم تكن القوة في البدن كان ضعيفاً بقدر ما نقصه من القوة. وكذلك الصدق من الإيمان بقدر صدق العبد تكون قوة إيمانه.

ولأن الكذب الذي هو ضد الصدق مجانب للإيمان كما ورد عن النبي عليه الصلاة والسلام حين سئل فقيل له: يا رسول الله أيكون المؤمن بخيلاً؟ قال: «نعم». قيل: أيكون المؤمن جباناً؟ قال: «نعم». قيل: أيكون المؤمن كذاباً؟ قال: «لا»(٢).

واعلم أن الصدق هو التحقق والتحقيق بصفات الصادقين لأن الصدق هو الحق والكذب هو الباطل.

فحدّ الصدق هو التحقيق في الأقوال والأعمال وأحوال القلوب.

وحال القلب هي حقيقة الصدق وصدق الأقوال والأفعال الناطقة بلسان الحال التي هي أصدق من لسان المقال.

ولذلك قال الأشياخ من العلماء: ليس في المؤمنين أقل من الصادقين. وقالوا أيضاً: الصدق سيف الله في الأرض ما وضع على شيء إلاّ قطعه.

فالصادق في إيمانه من صدرت أقواله وأفعاله عن حال اتصف بها قلبه وهي التي سأل الخليل ربه فقال: ﴿وَٱجْعَل لِّي لِسَانَ صِدْقٍ فِي ٱلْآخِرِينَ﴾(٣).

وقال النبي عليه الصلاة والسلام في هذا المعنى: «ليس الإيمان بالتحلي ولا بالتمني ولكنه ما وقر في القلب وصدقه العمل»(٤).

فالصدق على هذا على ضربين: ظاهر وباطن.

[١٠١/ ب] فالباطن محله القلب والسر وهو على ضربين ـ أعني الباطن ـ ضرب في مقام الإيمان/ وضرب في مقام الإحسان.

---

(١) أطرافه عند: مسلم في الصحيح (البر والصلة ١٠٥)، أبي داود في السنن (الأدب ب ٨٧)، الترمذي في الجامع الصحيح (١٩٧١)، أحمد في المسند (١/ ٣٨٤)، البيهقي في السنن الكبرى (١٠/ ١٩٦)، البغوي في شرح السنة (١٣/ ١٥٢)، الهيثمي في مجمع الزوائد (١/ ٩٣).

(٢) أورده العجلوني في كشف الخفا (٢/ ١٦٠)، ابن أبي حاتم في العلل (٢٤٥٨).

(٣) سورة الشعراء (الآية: ٨٤).

(٤) أورده ابن عدي في الكامل (٦/ ٢٢٩٠).

والظاهر محله الجوارح والجسد الظاهر، فإذا استوى الظاهر والباطن فهو الصدق من قولهم: عود صدق، إذا أخرجت عجم باطنه ووجدته موافقاً لظاهره في الصلابة.

ألاَ ترى أن الصدق في القول هو الذي إذا أخبرك بشيء فقد تحققه بقلبه فإذا وجدته كما أخبرك علمت أنه صادق.

والكاذب بضد ذلك إذا أخبرك بخبر وهو لا يحققه بقلبه فإذا وجدته بخلاف ما أخبرك به علمت أنه كاذب، فهذا يفهمك أن الصدق استواء السر والعلانية.

وذلك أن الله تعالى أرسل الرسل إلى الخلق وأمرهم بالإيمان بالغيب والعمل بمقتضى ما أخبر به والصدق في ذلك كله.

فأمر العبد أن يكون صادقاً في مقام إسلامه وصادق في مقام إيمانه وصادق في مقام إحسانه وأن يرتقي في مقام الإحسان إلى أعلى درجات الصديقية والصديقين على قدر طاقته.

فآمنوا وعملوا وارتفعوا بقدر صدقهم في موافقة السر للعلانية وانحطوا وقصروا بقدر التناقض في الأقوال والأفعال والأحوال.

قال النبي عليه الصلاة والسلام: «ليس الإيمان بالتحلي ولا بالتمني»[١]. التحلي: هو أن يتلبس الإنسان بالإيمان والإسلام ويتمنى ما آمن به وأسلم له دون الأفعال. ويعتري هذا من ضعف الإيمان وقلة قوة الباطن التي أُعطيها الصادقون.

وعن هذا المعنى يُسأل الناس يوم القيامة، قال الله تعالى: ﴿لِّيَسْأَلَ ٱلصَّادِقِينَ عَن صِدْقِهِمْ﴾[٢]. لأن كل من أقر للّه بالوحدانية ولرسوله بالرسالة وآمن بما جاء به/ فهو صادق [١٠٢/ أ] فيما أقر به وآمن لأنه شهد بالحق فيسأل عن صدقه هل وافقت شهادته حاله أم لا فمن صدقت أحواله أقواله وأفعاله نفعه صدقه قال الله تعالى: ﴿يَوْمَ يَنفَعُ ٱلصَّادِقِينَ صِدْقُهُمْ﴾[٣].

قال الله تعالى في قلة الصدق: ﴿لَّيْسَ بِأَمَانِيِّكُمْ وَلَآ أَمَانِيِّ أَهْلِ ٱلْكِتَابِ مَن يَعْمَلْ سُوٓءًا يُجْزَ بِهِۦ﴾[٤]. كما قال عليه الصلاة والسلام: «ليس الإيمان بالتحلي ولا بالتمني»[٥].

فإن عدم العبد الصدق خلفه ضده وهو الكذب في الأقوال والأفعال فكان بالمنافقين

---

(١) سبق تخريجه قبل قليل.
(٢) سورة الأحزاب (الآية: ٨).
(٣) سورة المائدة (الآية: ١١٩).
(٤) سورة النساء (الآية: ١٢٣).
(٥) سبق تخريجه قبل قليل.

أشبه منه بالصادقين على قدر قلة صدقه وكذبه إلاّ أن المؤمنين ضد الكافرين والمنافقين ضد الصادقين.

فإن الكافرين جحدوا ظاهراً وباطناً والمنافقين تحلوا بالإيمان ظاهراً وعروا منه باطناً فكانوا كاذبين.

والصادق الحقيقي: هو الذي عري من النفاق ولم يبق فيه منه شيء لاستواء ظاهره وباطنه.

والمنافق الحقيقي: هو الذي عري من الصدق ولم يبق منه شيء لاختلاف ظاهره وباطنه.

وما بين ذلك درجات بقدر مخالفة الظاهر الباطن أو موافقة الباطن الظاهر.

فمن تحقق بالإيمان والإحسان ظاهراً وباطناً فهو الصديق، قال الله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ آمَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦٓ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصِّدِّيقُونَ﴾[1]. ومن قل تحققه قلّت صديقيته.

ومن قِلَّةِ الصدق خاف الصحابة وكبار العلماء رضوان الله عليهم.

وروى ابن أبي مليكة في الصحيح: أدركت ثلاثين من أصحاب رسول الله ﷺ كلهم يخاف النفاق على نفسه.

وقال التيمي: ما عرضت قولي على عملي إلا خشيت أن أكون مكذباً وكان عمر يسأل عن نفسه لحذيفة/ هل يرى فيه شيئاً من أسباب النفاق. / ب]

وقيل: الصادق هو الذي لا يبالي متى جاءه الموت بل الصادق هو الذي يتمنى الموت. قال الله تعالى: ﴿فَتَمَنَّوُا۟ ٱلْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾[2]. وقال بعض العلماء: لا يفزع من الموت إلاّ مريب.

فإذا أردت أن تعرف هل أنت صادق أم لا فانظر هل ترضى حالك للموت وعملك للحساب ونفسك للقاء الله أم لا؟ فبقدر صدقك تشتاق إلى لقاء مولاك.

فإن قلت: أحب البقاء لعلي أتوب إلى الله وأعمل صالحاً.

فإن ذلك عقوبة ما فاتك من الصدق فيما سلف من عمرك، أو عقوبة ما أنت عليه من قلت صدقك في حب الله ولقائه لأن نفسك أشركت في حبه حب غيره.

---

(١) سورة الحديد (الآية: ١٩).

(٢) سورة الجمعة (الآية: ٦).

وللصديقين أسرار وأحوال لا يحل كشفها إلا الصادقون بعضهم مع بعض لتصديقهم بها وأكثر الناس ينكرونها عليهم لضعف معاني الصديقية عندهم فيهم لأنها درجة ليس بينها وبين النبوة حجاب إلاّ درجة الوحي المخصوص بالأنبياء عليهم السلام لأن شرط النبي الصدق والعصمة من ضده الذي هو الكذب.

فلولا صدق الأنبياء ما ظهر لهم دليل النبوة فناهيك بدرجةٍ عُصم الأنبياء من ضدها فآخر درجات الصديق أول درجات النبي.

مَنَّ الله علينا بالصدق وجعلنا من أهله في الدنيا والآخرة. آمين. آمين.

وصلى الله على محمد وآله[1] [وسلم تسليماً].

الشعبة التاسعة عشر: الوفاء بالعهود والمواعيد

فأما كون الوفاء من الإيمان فإن ضده من شُعب النفاق، عن ابن عمر أن رسول الله صلى الله/ عليه وسلم قال: «أربع من كن فيه كان منافقاً خالصاً ومن كانت فيه خصلة منهن [١٠٣/ كانت فيه خصلة من النفاق حتى يدعها: إذا ائتمن خان، وإذا حدث كذب، وإذا عاهد غدر وإذا خاصم فجر»[2].

والوفاء بالعهد على ثلاثة أضرب:

ضرب في حق الله وحق دينه الذي هو الإسلام والإيمان والإحسان.

وضرب في حق المؤمنين بعضهم مع بعض.

وضرب مع الكفار.

فأما الوفاء مع الكفار بالعهد فهم أهل الذمة والصلح والمعاهدين إذا عوهدوا على ما عوهدوا عليه وصولحوا وجب الوفاء لهم بذلك، وحرم ظلمهم[3]، وقد ثبت في الصحيح عن النبي عليه الصلاة والسلام أنه قال: «من قتل معاهداً لم يرح رائحة الجنة وإن ريحها

---

(١) جاء بهامش المخطوط عبارة: «بلغ مقابلة» وهو ما يفيد مقابلة المخطوط على الأصل المنسوخ عنه.

(٢) أطراف الحديث عند: البخاري في الصحيح (١/ ١٥)، مسلم في الصحيح (الإيمان ١٠٦)، الترمذي في الجامع الصحيح (٢٦٣٢)، أحمد في المسند (٢/ ١٨٩)، البيهقي في السنن الكبرى (٩/ ٢٣٠)، البغوي في شرح السنة (١/ ٧٤).

(٣) جاءت هذه الكلمة بالأصل: ظلهم. وهو تحريف.

يوجد من مسيرة أربعين عاماً»[١].

وفي الصحيح أيضاً: «وذمة المسلمين واحدة يسعى بها أدناهم فمن أخفر مسلماً فعليه لعنة الله والملائكة والناس أجمعين»[٢].

وقال الله تعالى: ﴿وَأَوْفُوا بِالْعَهْدِ إِنَّ الْعَهْدَ كَانَ مَسْئُولاً﴾[٣]. وعن أبي بكرة قال قال رسول الله ﷺ: «من قتل معاهداً في غير كنهه حرم الله عليه الجنة»[٤].

فالوفاء مع الكفار أن لا يظلموا في أنفسهم ولا في أموالهم ويوفى لهم بشروطهم التي اشترطت معهم.

وأما الوفاء مع المؤمنين: فإذا وعدت أخاك المؤمن بعهد فإياك أن تخلفه بوجه إلا من عذر قاطع حائل بينك وبين الوفاء والعذر مقبول في ذلك إذا ذكرته لمن عاهدته ووعدته مثل المرض وما أشبهه علم أنه عذر ضروري فإنك لم تكتمه كذباً أو حيلة تتخلص بها من خلف الوعد عنده.

[١٠٣/ ب] ومن العهد أن لا تغدر بمؤمن فتظلمه في نفسه أو ماله فإن الله ورسوله قد/ أوجب على المؤمنين أن لا يخادع بعضهم بعضاً ولا يمكر بعضهم ببعض حين جعلهم أخوة فقال: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾[٥]. وقال عليه الصلاة والسلام: «المسلم أخو المسلم لا يظلمه»[٦]. فإذا غدره وخادعه لم يوف بعهد أُخوة الإسلام.

والخداع والمكر ونقض المواثيق التي ربطت المسلمين كل ذلك من أخلاق المنافقين وأفعالهم التي هي ضد أخلاق المؤمنين.

---

(١) أطرافه عند: البخاري في الصحيح (٩/ ١٦)، ابن ماجة في السنن (٢٦٨٦)، الدارمي في السنن (٢/ ٢٣٥)، أبي داود في السنن (٢٧٦٠)، الحاكم في المستدرك (٢/ ١٤٢).

(٢) أطراف الحديث عند: البخاري في الصحيح (٣/ ٢٦)، مسلم في الصحيح (الحج ب ٨٥ رقم ٤٦٧)، أبي داود في السنن (المناسك ب ٩٨)، الترمذي في الجامع الصحيح (١٥٧٩)، البيهقي في السنن الكبرى (٥/ ١٩٦)، الحاكم في المستدرك (٢/ ١٤١).

(٣) سورة الإسراء (الآية: ٣٤).

(٤) سبق تخريج نحو هذا الحديث قبل قليل.

(٥) سورة الحجرات (الآية: ١٠).

(٦) أطراف هذا الحديث عند: البخاري في الصحيح (٣/ ١٦٨)، مسلم في الصحيح (البر والصلة ٣٢)، أبي داود في السنن (النذور ب ٨)، ابن ماجة في السنن (٢١١٩)، أحمد في المسند (٢/ ٢٧٧)، البيهقي في السنن الكبرى (٥/ ٣٢٠)، الحاكم في المستدرك (٢/ ٨).

ولأجل كون هذه الأخلاق في الناس قيل: لو نبت للمنافقين أذناب لما قدرنا أن نمشي على الطرق.

ومن العهد الذي يجب الوفاء به الارتباط لبيعة السلطان الذي اجتمع على توليته في كل زمان والذي انعقد له عهد الأمانة بالشرع.

فإذا لم يرتبط بها ولم يرها فقد نقض ميثاق البيعة الذي ألزمه الشرع وذلك خروج عن الشرع.

ومن العهد الذي يجب الوفاء به ما أخذه الله على العلماء في قوله: ﴿وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَاقَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَابَ لَتُبَيِّنُنَّهُۥ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُۥ﴾[1].

فقد أخذ على العلماء [العهد][2] بتبيين العلم وكشفه لأهله الطالبين له وتعليمه لكل جاهل به إذا رآه جاهلاً وتنبيهه على ما ينفعه وذلك من الوفاء للرسل بالعهد الذي عهد إليهم حين قال للآخذين عنه: «ليبلغ الشاهد الغائب»[3].

وقال الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَآ أَنزَلْنَا مِنَ ٱلْبَيِّنَاتِ وَٱلْهُدَىٰ مِنۢ بَعْدِ مَا بَيَّنَّاهُ لِلنَّاسِ﴾[4].

فهذا كله مما أخذ على من علم شيئاً أن يعلمه ولا يكتمه فإنه عهد الله وعهد الرسل إلى الخلق.

وكذلك أخذت الأنبياء العهود والمواثيق على جميع أممها أن تؤمن بمحمد وتقبل منه إذا بعث.

فكل مؤمن به قبل مبعثه أو حين مبعثه أو بعد مبعثه فقد وفى بالعهد ولم يخلف الوعد.

/ وكل من لم يقبل منه عليه الصلاة والسلام فقد نقض العهد وأخلف الوعد وأورثه [١٠٤/ أ]

---

(١) سورة آل عمران (الآية: ١٨٧).

(٢) زيادة يتطلبها السياق.

(٣) أطراف الحديث عند: البخاري في الصحيح (١/٢٦)، مسلم في الصحيح (الحج ب ٨٢ رقم ٤٤٦)، الترمذي في الجامع (٨٠٩)، ابن ماجة في السنن (٢٣٣)، أحمد في المسند (٥/٤٥)، الدارمي في السنن (٢/٦٨).

(٤) سورة البقرة (الآية: ١٥٩).

ذلك الخلود في النار وإن كان مؤمناً بالله، وإنما أورث ذلك خلف الوعد ونقض العهد.

فانظر ما أعظم قدر هذه الشعبة من شعب الإيمان، والوفاء محمود بكل لسان.

وكذلك من العهد تبليغ الرسل ما أخذ الله عليهم تبليغه إلى الأمم لا يسعهم إلاّ الوفاء بما عهد الله إليهم فالتزموا الجد والصبر على ما أصابهم من الأذى طمعاً في تنفيذ العهد والوفاء به فبلغوا أمتهم وعهدوا أيضاً إلى أممهم كما عهد إليهم وأوصوهم بالإيمان بمحمد عليه الصلاة والسلام في كل قرن وزمان، قال الله تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَاقَ ٱلنَّبِيِّينَ لَمَآ آتَيْتُكُم مِّن كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مُّصَدِّقٌ لِّمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ وَلَتَنصُرُنَّهُ قَالَ ءَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ إِصْرِي قَالُوٓاْ أَقْرَرْنَا قَالَ فَٱشْهَدُواْ وَأَنَا۠ مَعَكُم مِّنَ ٱلشَّٰهِدِينَ﴾(١).

والوفاء بالعهود والمواعيد عام في كل شيء لمن اعتبره ونظره وجده شائعاً في جميع الأمور ويجمعه ثلاث مقامات:

مقام الإسلام في الظاهر ومقام الجسد.

وضرب في مقام الإيمان وعالم الغيب لأنه أخذ عليه العهد أن يؤمن بالغيب والدار الآخرة ويعمل فيها على قدر طاقته، فوجب عليه الوفاء بذلك.

وضرب في مقام الإحسان ومقام الروح والعقل لأنه قد أخذ عليه في العهد في الميثاق الأول أن لا يشرك به ولا يساويه بخلقه وأن يؤثره على ما سواه في جميع الأحوال فقد وجب عليه الوفاء بذلك.

[١٠٤/ ب] فقد عمت هذه/ الشعبة المقامات كلها فافهم

مَنَّ الله علينا بصفة الوفاء إنه على كل شيء قدير.

[فصـــل]

واعلم أن عهد الله تعالى قديم وذلك قبل خلق الدنيا والأجساد فإن الله تبارك وتعالى لمّا برأ الأرواح الروحانية من جميع الموجودات قبل خلق الأشباح الجسمانية وقت تقدير المقدورات فأشهدهم ربوبيته فشهدوا وأمرهم بطاعته فأطاعوا، ولذلك أخذ أرواح بني آدم فأشهدهم وقررهم فأقروا، قال الله تبارك وتعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنۢ بَنِيٓ آدَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُواْ بَلَىٰ شَهِدْنَآ﴾(٢).

---

(١) سورة آل عمران (الآية: ٨١).

(٢) سورة الأعراف (الآية: ١٧٢).

فشهد الوجود كله له، قال النبي عليه الصلاة والسلام: «إن الله خلق الأرواح قبل الأجساد بخمسين ألف سنة»[١]. قيل أرواح الموجودات كلها.

وقال عليه الصلاة والسلام: «إن الله خلق الخلق وقضى الأقضية وأخذ ميثاق النبيين وعرشه على الماء». ثم غيبهم في الوجود فلما أوجد الجسمانيات وربطها بالروحانيات نررهم على العهد القديم وذكرهم به فقال للسماء والأرض: ﴿ٱئْتِيَا طَوْعاً أَوْ كَرْهاً قَالَتَآ أَتَيْنَا طَآئِعِينَ﴾[٢].

وأما بنو آدم فذكرهم بالعهد القديم على ألسنة الرسل والأنبياء وأمرهم بالوفاء بعهد الله وان لا ينقضوا الميثاق، وذلك أن تعطى الربوبية حقها وتلتزم العبودية قدرها ولذلك جاء الألف واللام في ذكر الميثاق في تعريف العهد القديم فانقسم الخلق في دار الدنيا إلى ذاكر للعهد متذكر فأخذ في أسباب الوفاء وهم المؤمنون المعنيون بقوله تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَوْفُواْ بِٱلْعُقُودِ﴾[٣]. قال ابن عباس: هي العهود.

/ وإلى نَاسٍ مُتَناسٍ فأخلف الوعد ونقض العهد. [١٠٥]

والناس في الوفاء والخلف للعهد درجات، وجعل الله تبارك وتعالى على نفسه عهداً ووعداً ووعيداً للفريقين جزاء للوفاء والنقض، قال الله تبارك وتعالى: ﴿أَوْفُواْ بِعَهْدِيٓ أُوفِ بِعَهْدِكُمْ﴾[٤]. [وقال][٥]: ﴿وَمَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِۦ مِنَ ٱللَّهِ﴾[٦].

وقد أنجز الله وعده ووعيده للفريقين في الدنيا والآخرة فجزاء من نقض العهد وأخلف الوعد في الدنيا اللعنة وقساوة القلب، قال الله تبارك وتعالى: ﴿فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَـٰقَهُمْ لَعَنَّـٰهُمْ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَـٰسِيَةً﴾[٧].

وجزاؤهم في الآخرة سوء الدار وهي النار على قدر ما أخلف من العهد يكون بُعدُهُ عن الله، وقساوة قلبه وخلوده في النار وخروجه منها في الدنيا والآخرة، مسلماً كان أو كافراً.

وجزاء من أوفى بالعهد التقريب والرحمة في الدنيا وعقبى الدار في الآخرة.

جعلنا الله من أهل الوفاء بتوفيقه وكرمه. آمين. آمين.

---

(١) أورده ابن الجوزي في الموضوعات (١/ ٤٠١)، الشوكاني في الفوائد المجموعة (٣٨٢)، السيوطي في اللآلىء المصنوعة (١/ ١٩٩).

(٢) سورة فصلت (الآية: ١١).

(٣) سورة المائدة (الآية: ١).

(٤) سورة البقرة (الآية: ٤٠).

(٥) زيادة للفصل بين الآيات.

(٦) سورة التوبة (الآية: ١١١).

(٧) سورة المائدة (الآية: ١٣).

وصلى الله على محمد وآله [وسلم تسليماً].

الشعبة الموفية عشرين: كف الأذى

فأما كونه من شعب الإيمان فدليله ما رواه ابن عمر أن رسول الله ﷺ قال: «المسلم من سلم المسلمون من لسانه ويده»[1].

وعن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «المسلم أخو المسلم لا يظلمه ولا يسلمه..»[2] وذكر الحديث.

وقال ﷺ: «سباب المسلم فسوق وقتاله كفر»[3].

فكف الأذى عن المسلمين من أعظم شعب الإيمان لأن أذياتهم من أفعال الكفار، فإذاية المسلم نقصان في كمال الإسلام لقول النبي عليه الصلاة والسلام: «المسلم من سلم المسلمون من لسانه ويده».

[١٠٥/ ب] ومن أجل هذا جعل الإسلام [السلام][4]/ تحية المسلمين فيما بينهم ومعنى ذلك أن قول السلام عليكم أي سلمت مني [من][4] أن أضرك وأؤذيك بظاهري وباطني.

فالأذية على ضربين:

ضرب ظاهر بالجوارح، وضرب بالباطن باطن القلوب.

فأما الضرب الظاهر: فعلى نوعين: إذاية في الأموال بالسرق والأخذ والنهب وغير ذلك.

وإذاية في الأنفس بالسب والضرب والغمز والهمز واللمز وغير ذلك.

---

(١) أطراف الحديث عند: البخاري في الصحيح (٩/١)، مسلم في الصحيح (الإيمان ٦٥)، الترمذي في الجامع (٢٦٢٧)، النسائي في المجتبى (١٠٥/٨)، أبي داود في السنن (٢٤٨١)، أحمد في المسند (١٦٣/٢)، الدارمي في السنن (٣٠٠/٢)، البيهقي في السنن الكبرى (١٨٧/١٠)، الحاكم في المستدرك (١٠/١).

(٢) سبق تخريج الحديث قبل قليل في الشعبة السابقة.

(٣) أطراف الحديث عند: البخاري في الصحيح (١٩/١)، مسلم في الصحيح (الإيمان ب ٢٨ رقم ١١٦)، الترمذي في الجامع الصحيح (١٩٨٣)، النسائي في المجتبى (١٢٢/٧)، ابن ماجة في السنن (٦٩)، أحمد في المسند (١/ ١٣٨٥)، البيهقي في السنن الكبرى (٢٠٩/١).

(٤) ما بين المعقوفين زيادة يتطلبها السياق.

وأما الضرب الباطن: فمثل الحسد والغل والبغضاء والكبر عليه وظن السوء به وقلة الرحمة والقسوة عليه وغير ذلك.

وذلك كله مضر بالمسلمين مؤذٍ لهم وقد أمر الشرع بكفّ النوعين من الأذى وقد هلك خلق كثير بعدم هذه الشعبة عندهم وذلك بحسب قدر الشخص الذي يؤذي على قدر ذلك يكون هلاك المؤذي والمؤمنون كلهم كبار وإذايتهم محرمة ولكن منها ما يكبر فيكون كفراً مثل إذاية الأنبياء أو عيب شيء منهم حتى أن من قال في النبي [ﷺ] إن ثوبه وسخ يريد بذلك عيبه قتل كفراً لا حداً.

ومنها ما يكبر فيكون بدعة مثل إيذاء الصحابة وعيبهم وقد هلك في هذا خلق كثير من الروافض والشيعة.

ومنها ما يكبر فيوصل إلى محاربة الله مثل إذاية أهل الولاية كما ورد في الخبر: «من آذى لي ولياً فقد بارزني بالمحاربة وأنا الثائر له في الدنيا والآخرة»[1] أو كما قال.

ومنها ما يكون فيه القصاص في الدنيا والآخرة مثل إذاية عامة المسلمين.

والإذاية كلها فيها القصاص في الدنيا والآخرة ولكن ليس من أبغض صاحباً من الصحابة أو ولياً من الأولياء كمن أبغض بعض المؤمنين والذنب واحد ولكن كبرت الإذاية على قدر الشخص المؤذَى.

فإذا/ فهمت هذا فكف الأذى على نوعين: ظاهر، وباطن. [١٠٦/ أ]

النوع الظاهر: سلامة الناس من شر لسانك ويدك وجوارحك.

والنوع الباطن على نوعين: ضرب في مقام الإيمان، وضرب في مقام الإحسان.

فأما الضرب الأول في مقام الإيمان: فأول ما يجب عليك ألاَّ تؤذي نفسك في الآخرة بالكفر والمؤذيات من الصفات المهلكات، ولا تؤذي الملائكة الكرام في عالم الغيب، ولا تؤذي ذاتك في المآل في مقام الإيمان بدخول النار ومقاساة الشدائد، وأن لا تؤذي صدرك في الحال بقلة سلامته للمسلمين.

وقد قيل: إن بهذه الخصلة كان الأبدال أبدالاً[2].

ـ أعني سلامة الصدر للأمة ـ وسلامة الناس من شرهم، ومن أجلها هرب الكبار عن

(١) أورده الزبيدي في إتحاف السادة المتقين (٥/ ٢٩٥، ٨/ ٤٧٧، ٩/ ٦١٠)، أبي نعيم في الحلية (٤٥).
(٢) سيأتي الكلام عنهم في موضعه إن شاء الله تعالى.

الناس ليسلم الناس منهم وفي ذلك سلامتهم.

والضرب الثاني من الباطن في مقام الإحسان: هو أن لا يؤذي الإنسان بعقله وإدراكاته الرب تبارك وتعالى، ينسب إليه ما لا يليق به بل ينزهه عمَّا يستحيل عليه، ينسب له ما لا يجب أن ينسب، ويجوز عليه ما لا يجوز، ولا يكون من الذين قال الله فيهم: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُ لَعَنَهُمُ ٱللَّهُ فِي ٱلدُّنْيَا وَٱلْآخِرَةِ﴾[1] الآية.

وقال الله عز وجل عنهم فيما[2] ورد في الصحيح عن أبي هريرة قال قال رسول الله ﷺ: «كذبني ابن آدم ولم يكن له ذلك، وشتمني ابن آدم ولم يكن له ذلك»[3] الحديث إلى آخره. فينزه مولاه عمّا لا يليق به وينسب إليه ما يليق به.

ولا يؤذي المخلوقات أيضاً بذلك فإنك إذا نسبت إلى المخلوقات شيئاً من معنى الربوبية آذيتها غاية الإذاية ألا ترى إلى قوله تعالى كيف يصف تأذي المخلوقات/ بأقوال الكفار: ﴿تَكَادُ ٱلسَّمَاوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنشَقُّ ٱلْأَرْضُ وَتَخِرُّ ٱلْجِبَالُ هَدًّا﴾[4]. [١٠٦/ ب]

ومثل هذا في القرآن كثير، وإذا كف العبد أذاه عن جميع المخلوقات وعن الباري تعالى كان كاملاً كما قال النبي عليه الصلاة والسلام: «المسلم من سلم المسلمون من لسانه ويده»[5].

[وقوله تعالى][6]: ﴿وَلَهُۥٓ أَسْلَمَ مَن فِي ٱلسَّمَاوَاتِ وَٱلْأَرْضِ﴾[7] من جميع المخلوقات ﴿طَوْعاً وَكَرْهاً﴾[7]. فلا تؤذي إلاّ من أسلم كرهاً كما أمرت

فإن قلت كيف الحيلة في السلامة والاتصاف بهذه الشعبة؟

فاعلم أن الحيلة في ذلك على نوعين:

النوع الواحد: الخلوة والعزلة في وقت فراغك فتجلس وحدك أو تنام فتسلم أو تشتغل بطاعة ربك وذكر مولاك فتغنم.

النوع الثاني: كف جوارحك في وقت مخالطتك ومصاحبتك للخلق وحسن ظنونك

---

(١) سورة الأحزاب (الآية: ٥٧).
(٢) في الأصل: مما. وهو تحريف.
(٣) أطرافه عند: الطبراني في الكبير (١٠/ ٣٧٦)، الزبيدي في إتحاف السادة المتقين (١٠/ ٤٤٨).
(٤) سورة مريم (الآية: ٩٠).
(٥) سبق تخريج الحديث.
(٦) زيادة للفصل بين الآيات.
(٧) سورة آل عمران (الآية: ٨٣).

وسلامة صدرك لهم فإن أذوك ولم تؤذيهم ربحت ربحاً عظيماً إن احتملت الأذى فإن محتمل الأذى لا يخلو عن شيئين: إما أن يعفو فله ثواب المحسنين، وإما أن يصبر إلى الآخرة فيأخذ من حسنات الظالم أو يعطيه هو من سيئاته.

وبهذين النوعين يكبر قدر مخالطة الناس ويكون له فضل كثير السلامة والغنيمة وتهذيب الأخلاق فإن مخالطة الناس فيها علم كثير فإنه يستفيد بها علماً كثيراً وينبهونه على عيوب لم تكن تظهر له وحده فيكون الناس له كالمرآة وهو لهم كذلك يظهر له فيها حسنه وقبيحه.

ويروض نفسه على اكتساب الأخلاق الحسنة وطرح الأخلاق السيئة.

وأما من قصر عن هذه الدرجة فإنه من مخالطة الناس/ على غرر لا سيما في هذه الأزمنة فإن ضرر المخالطة أكثر من نفعها. [١٠٧/ أ]

وقد روى أبو داود في كتاب السنن عن عيسى بن واقد أن رسول الله ﷺ قال: «إذا كانت سنة ثمانين ومائة فقد حلت لأمتي العزلة، والغربة، والترهب في رؤوس الجبال»[١].

هذه الأسباب الثلاثة: العزلة، والغربة، والترهب أسباب السلامة.

وورد في المخالطة وكف الأذى والاحتمال أيضاً كثير منها ما رواه يحيى بن وثاب عن شيخ من أصحاب رسول الله ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «المسلم الذي يخالط الناس ويصبر على أذاهم خير من الذي يخالط الناس ولا يصبر على أذاهم»[٢].

فالمؤمن يحتاج أن يستعمل هذين الحديثين فيكون له حظ من الخلوة والعزلة ليأنس بذكر ربه ويسلم الناس من شره.

وإذا خالط الناس لما يحتاج إليه وما لا بد له منه يمسك نفسه وجوارحه عن أذاهم فيحصل له بهذين المعنيين معاني الإفادة وراحة السلامة اللذين هما سببا السعادة.

وجملة ما يلحق بهذا الباب أن لا يؤذي العبد المخلوقات كلها إلاّ ما أمر الشرع بإيذائه مثل أن يلعن الإنسان شيئاً من الحيوان أو يسب الريح أو الدهر أو شيئاً من المخلوقات، فإن المخلوقات كلها قد أسلمت للّه كما قال: ﴿وَلَهُ أَسْلَمَ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ﴾[٣] الآية.

---

(١) أورده ابن الجوزي في الموضوعات (٣/ ١٩٤).

(٢) أطرافه عند: الترمذي في الجامع (٢٥٠٧)، البغوي في شرح السنة (١٣/ ١٦٣)، الزبيدي في إتحاف السادة المتقين (٩/ ١٧٩)، التبريزي في المشكاة (٥٠٨٧)، السيوطي في الدر المنثور (١/ ٦٧).

(٣) سورة آل عمران (الآية: ٨٣).

وقالوا: البرُّ هو الذي لا يؤذي الذر[١].

فإذا فهمت ما تقدم علمت أن هذه الشعبة التي هي كف الأذى قد عمت مقامات الإسلام ومقامات الإيمان ومقامات الإحسان كلها ظاهراً وباطناً.

مَنَّ الله علينا بما ينفعنا ويسلمنا في الدنيا والآخرة آمين. آمين.

وصلى الله على سيدنا محمد وآله [وسلم تسليماً].

[١٠٧/ ب]

/ الشعبة الإحدى والعشرون: البـرور

أما كونه من شعب الإسلام والإيمان فدليله ما كتب النبي عليه الصلاة والسلام للعلاء بن الحضرمي حين بعثه أميراً إلى البحرين فذكر فيه: «هذا كتاب محمد بن عبد الله القرشي رسول الله ﷺ النبي الأمي إلى خلقه كافة..»[٢] ثم ذكر كلاماً كثيراً يدعو فيه الخلق إلى الله ثم بين لهم الإسلام فقال فيه: «والإسلام الصلوات الخمس، وإيتاء الزكاة، وحج البيت، وصيام شهر رمضان، والغسل من الجنابة، والطهور قبل الصلاة، وبر الوالدين..».

ثم ذكر شرائع الإسلام والإيمان إلى آخر الحديث. فجعل البرور من الإسلام.

وعن عبد الله قال سألت، رسول الله ﷺ: أي الأعمال أحب إلى الله؟ قال: «الصلاة لوقتها». قلت: ثم أي؟ قال: «برّ الوالدين». قلت: ثم أي؟ قال: «الجهاد في سبيل الله»[٣]. فقدمه على الجهاد الذي هو من أعظم سهام الإسلام.

وعن ابن عمر قال: قال رجل يا رسول الله أردت أن أجاهد معك؟ قال: «ألك أبوان؟». قال: نعم. قال: «ففيهما فجاهد»[٤]. فرده عن الجهاد إلى البر لأنه أعظم منه وأوجب.

---

(١) علق على ذلك بالهامش بقوله: قوله: البرّ من لا يؤذي الذر تتمته: ولا يضمر الشر.

(٢) أطراف الحديث عند: البيهقي في السنن الكبرى (٨/ ٢٧)، الطبراني في الكبير (١٨/ ٨٩)، ابن سعد في الطبقات الكبرى (١/ ٢/ ٣٣)، أحمد في المسند (٥/ ٧٨)، الهيثمي في مجمع الزوائد (١/ ٣٠)، (٦/ ٢٨٤).

(٣) أطراف الحديث عند: البخاري في الصحيح (٩/ ١٩١)، مسلم في الصحيح (الإيمان: ١٣٧)، أحمد في المسند (١/ ٤١٨)، البيهقي في السنن الكبرى (٢/ ٢١٥)، الحاكم في المستدرك (١/ ١٨٨)، البغوي في شرح السنة (٢/ ١٧٦).

(٤) أطرافه عند: البخاري في الصحيح (٨/ ٣)، أبي داود في السنن (٢٥٢٩)، الطحاوي في مشكل الآثار (٣/ ٢٥).

ولعظم قدر هذه الشعبة - أعني البر - شرك حق الوالدين مع حقه بواو العطف فقال: ﴿أَنِ ٱشْكُرْ لِي وَلِوَالِدَيْكَ﴾(١). وشكر الوالدين هو برهما والقيام بحقوقهما، قال في آية أخرى: ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّآ إِيَّاهُ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا﴾(٢).

فقرن حقهما بحقه وحيثما ذكرهما الله تعالى قرن حقهما بحقه.

فهذه الشعبة إذاً أعظم شعب الإيمان والإسلام وإنما قرن الله تبارك وتعالى حق الوالدين بحقه وشركه بواو العطف من أجل أن الله تبارك وتعالى/ خلق الولد وصوره وأخرجه للدنيا [١٠٨/ ٢أ] ضعيفاً لطيفاً لا حيلة له ثم قيض له الوالدين وتكفلا بتربيته لأنه لا قوام له بنفسه فلم يزالا يربيانه حتى وصلاه إلى حدّ يقوم بنفسه ولو تركاه ونفسه حين خروجه إلى الدنيا وحين تربيته لهلك ولم يصح وجوده.

فهما كانا سبب تمام خلقته ونشأته فالله هو الخالق المصور حقيقة وهم المنشئان له مجازاً فكما اقترن النشؤ بالخلقة واشترك معه في سبب كمال العبد أشرك الله حقهما بحقه وشركه بواو العطف معه في الوجوب.

ولهذا لا يقدر واحد أن يقوم بحق أبويه لأن من كان سبب خلقتك ونشئك كيف تقوم بحقه أو تقدر على شكره.

وكذلك أيضاً قرن العقوق لهما بالشرك به كما قرن طاعتهما بطاعته لهذه الحكمة فقال: ﴿قُلْ تَعَالَوْا۟ أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ أَلَّا تُشْرِكُوا۟ بِهِۦ شَيْـًٔا وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا﴾(٣).

تقدير الكلام حرم ربكم عليكم ألاّ تشركوا به شيئاً وحرم عليكم ألاّ تفعلوا بالوالدين إلا إحساناً ولمّا كان الشرك لا يغفر عظم أيضاً قدر العقوق لاقترانه به حتى يرضى الأبوان. فافهم.

فمن برَّ والديه فقد برَّ بارئه وخالقه لأن في برهما برّه للاشتراك المتقدم ولأنه أمر به فمن برّ أمره فقد برّه جل جلاله.

واعلم يا أخي أن البرور لا يخلو من ثلاثة أوجه: أحدها: أن يكون الأبوان حيين فيلتزم العبد القيام بحقوقهما طول الحياة ويحسن إليهما بماله وقوله ويؤثرهما على نفسه وزوجه وبنيه وإن كانا محتاجين إليه في دينهما أن يعلمهما أمور دينهما فيعلمهما أمور الدين

(١) سورة لقمان (الآية: ١٤).

(٢) سورة الإسراء (الآية: ٢٣).

(٣) سورة الأنعام (الآية: ١٥١).

وينبههما على كل ما يضرهما وينفعهما برفق ورحمة ويتأدب معهما غاية الأدب.

[١٠٨/ ب] / ولا يرفع صوته عليهما ولا يحدد النظر إليهما وليطلب في كل وقت رضاءهما.

هذا هو البرور في حال الحياة.

وإن كانا ميتين وجب عليه أن يدعو لهما في كل وقت يرجى فيه قبول الدعاء في أوقات الصلاة ويتصدق عنهما ويفعل ما يستطاع من الخير ويرسل إليهما ثوابه، ويصل أهل ودهما من بعد موتهما فإن ذلك كله إذا فعله بعد موتهما يبلغه رضى الله عنه لأجل رضاهما عنه حين أدخل السرور عليهما في حال موتهما.

وإن كان عاقاً لهما قبل أن يموتا وقد جعل الله لكل مؤمن فرجاً ومخرجاً إذا عمل أسباب الخير المأمور بها.

وقد روى أبو صالح عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «من صلى ليلة الخميس ما بين المغرب والعشاء ركعتين يقرأ في كل ركعة بفاتحة الكتاب وآية الكرسي خمس مرات و ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾ خمس مرات، والمعوذتين خمس مرات فإذا فرغ من صلاته استغفر الله خمس عشرة مرة وجعل ثوابه للوالدين فقد أدى حق والديه عليه وإن كان عاقاً لهما وأعطاه الله ما يعطي الصديقين والشهداء»[(١)].

وإنما هذا من أجل إدخال السرور عليهما ورضاهما عنه، وليس هذا من باب: «لا يصلي أحد عن أحد» وإنما هو من باب الهبة والهدية تصلي أنت لنفسك ثم تهب أجر ما وهبك الله لهما والثواب غير الصلاة والهدية مقبولة في شرعنا، والصلة في الدنيا بالدينار والدرهم والصلة في الآخرة بالثواب والجزاء من عند الله.

هذا هو بر الوالدين المسلمين في حال حياتهما.

وأما إذا كانا مشركين فحقهما: حسن الصحبة لهما طول الحياة وتنبيههما على الإسلام [١٠٩/ أ] ومواراتهما بعد موتهما لأن الله تعالى/ يقول: ﴿وَصَاحِبْهُمَا فِي ٱلدُّنْيَا مَعْرُوفاً﴾[(٢)]. وبعد موتهما إذا كانا مشركين يسقط عنه حقهما. واعلم أن البر على ضربين لأن ذوات الخلق على ضربين أجساد، وأرواح، والآباء هم سبب نشوء الأجساد إلى مرتبته من الخِلقة والزمان فيستغني الإنسان بنفسه في أمور دنياه كما تقدم، فوجب برهما كما تقدم.

---

(١) أورده الشوكاني في الفوائد المجموعة في الأحاديث الضعيفة والموضوعة (٤٦)، الزبيدي في إتحاف السادة المتقين (٣/ ٣٨٠).

(٢) سورة لقمان (الآية: ١٥).

والضرب الثاني من البر لآباء الدِّين: وهم الأنبياء وبر أزواجه وهنّ أمهات المؤمنين والعلماء وهم الذين تولد منهم الدين وصلحت بهم بواطن الخلق وظواهرهم وهم الذين يحرسون الخلق من مكروهات الآخرة ويوصلون إليهم خيرها كما أن الخليقة يحرسون الأبناء من مكروهات الدنيا ويوصلون إليهم نفعها؛ قال الله تعالى في لوط عليه السلام: ﴿هَٰٓؤُلَآءِ بَنَاتِي هُنَّ أَطۡهَرُ لَكُمۡ﴾[1]. يعني بنات قومه دعاهم إلى النكاح.

وقال الله تبارك وتعالى: ﴿ٱلنَّبِيُّ أَوۡلَىٰ بِٱلۡمُؤۡمِنِينَ مِنۡ أَنفُسِهِمۡۖ وَأَزۡوَٰجُهُۥٓ أُمَّهَٰتُهُمۡ﴾[2].

وفي قراءة عند عبد الله بن أُبَيّ بن كعب: «ٱلنَّبِيُّ أَوۡلَىٰ بِٱلۡمُؤۡمِنِينَ مِنۡ أَنفُسِهِمۡ» [وهو اب لهم]».

وفي الحديث عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «أنا لكم بمنزلة الوالد أعلمكم فإذا أتى أحدكم الغائط فلا يستقبل القبلة ولا يستدبرها..»[3] وذكر الحديث.

فالنبي ﷺ لجميع الأمة كالأب وأزواجه أمهاتهم لأن منه ومن أزواجه تعلم الذكور والإناث معاني الدين كله ولم يتولد خيراً إلاّ منه ومنهن. فبرّه وبرّهن أوجب من كل واجب، وعقوقه وعقوقهن أهلك من كل مهلك.

فبرّ النبي [ﷺ] وأزواجه نظر القلب إليه الآن وفي كل وقت بعين الوقار والإجلال والصلاة عليه وعليهن إلى منتهى الأعمار والآجال والانتساب إليه وإلى أمهات المؤمنين انتساباً دينيًا/ محبة بالقلب ونطقاً باللسان ولعناً وبغضاً لمن آذاه وآذى واحدة منهنَّ لا يبري العبد في دينه سوى ذلك. [١٠٩/ ب]

وقال النبي عليه الصلاة والسلام: «الجنة تحت أقدام الأمهات»[4]. ظاهره أن الأمهات يلتمس رضاهن المبلغ إلى الجنة بالتواضع لهن وإلقاء النفس تحت أقدامهن بالتذلل لهن.

والحقيقة فيه أن أمهات المؤمنين هن معه عليه الصلاة والسلام أزواجه في أعلى درجة

---

(١) سورة هود (الآية: ٧٨).

(٢) سورة الأحزاب (الآية: ٦).

(٣) أطرافه عند: الربيع بن حبيب في المسند ([illegible]٢)، أبي عوانة في المسند (١/ ٢٠٠)، الألباني في الصحيحة (٣/ ٢٨٩).

(٤) بنحو هذا الطرف عند: الحاكم في المستدرك (٢/ ٧٠)، العجلوني في كشف الخفا (١/ ٤٠١)، ابن الجوزي في تذكرة الموضوعات (٢٠٢)، الألباني في الضعيفة ([illegible]٥٩٣)، ابن عدي في الكامل (٦/ ٢٣٤٧)، الزبيدي في إتحاف السادة المتقين (٦/ ٣٢٢).

في الجنة والخلق كلهم تحت تلك الدرجة فانتهاء رؤوس الخلق في رفعة درجاتهم في الجنة وآخر مقام لهم في الرفعة أول مقام أقدام أمهات المؤمنين.

فحيث انتهى الخلق فمن ثم ابتداء درجاتهن، فالجنة تحت أقدامهن رضوان الله عليهن وصلوات الله وسلامه عليهن.

وأما مقام النبي عليه الصلاة والسلام فكما ورد في حديث قتادة: أن الله تبارك وتعالى يقعده على العرش.

وذلك أن الله تعالى غني عن الملك كله لا حاجة له فيه فوهب لنبيه مكان الربوبية ومقام الإشراف على الملك لاستغنائه هو عنه[1].

فمن الذي يقدر أن يلحظه بالعين الذي جعله الله هو وأزواجه فيها إلاّ ما شاء الله من ذلك.

فهكذا ينبغي أن يلحظ النبي [ﷺ] وأزواجه أزلاً وأبداً.

لا حرمنا الله برّه وبرّهن في الدنيا والآخرة آمين.

وإذا فهمت هذا المعنى فهمت الحقيقة في معنى الصلاة على نبي ﷺ وكيف تعود الصلاة عليك إذا صليت عليه [ﷺ] وعلى أزواجه صلاة جامعة لمعاني الإحسان والإنعام ودائمة بدوام ذي الجلال والإكرام.

واعلم أن في برور الأنبياء والآباء أو أمر ما جاءوا به برّ الباري تبارك وتعالى: ﴿وَإِن تُطِيعُوهُ/ تَهْتَدُوا﴾[2]. وكما ورد: «رضا الله في رضا الوالدين». لأن الله أمر بذلك أن يطاع [١١٠/ أ] الآباء والأنبياء ويكرموا ومن امتثل أمر الله فقد برّ الله وأكرمه وعظمه وأجله.

فالبرور على هذا يكون في جميع الأوامر ظاهراً وباطناً في مقام الإسلام والإيمان والإحسان لأن الرسول [ﷺ] أمر بذلك كله والله أمر الرسول [ﷺ] فقد عمّ البرور جميع المقامات كلها لمن فهم مقام الإسلام والإيمان والإحسان؛ وبرُّ البرِّ الرحيم وبرّ أوامره كلها أوجب الواجبات ولا يفهم حقيقة البرّ إلاّ من تجلى الله له بوصف من أوصافه وهم أهل الحضور كما ورد عن الصحابة وغيرهم: أن منهم من كان يدخل الخلاء مقنعاً، ومنهم من

(١) مثل هذا القول يستعاذ بالله منه ولا يجوز نقله إلاّ لبيان فساده وهلاك من اعتقده والله لنا وللمؤلف نسأل العفو والمغفرة ونسأله سبحانه وتعالى أن يكون قد مات على غير مثل هذا القول. ونسأله سبحانه وتعالى حسن الختام.

(٢) سورة النور (الآية: ٥٤).

كان لا يرفع طرفه إلى السماء من كثرة بروره لحضور ربّه.

في هذا المقام مقام الإحسان أسرار من معاني البرور عظيمة.

منّ الله علينا وعليكم ببره وبر أوامره كلها وغفر لنا ولكم عقوقنا كله بمنّه وكرمه. آمين.

وصلى الله على سيدنا محمد وآله وسلم تسليماً كثيراً[١].

الشعبة الثانية والعشرون: صلة الرحم

أما كونها من شعب الإيمان فدليله ما في كتاب رسول الله ﷺ الذي بعثه مع العلاء بن الحضرمي إلى أهل البحرين فذكر فيه: «والإسلام إقام الصلوات الخمس وإيتاء الزكاة وحج البيت وصيام شهر رمضان والغسل من الجنابة والطهور قبل الصلاة وبرّ الوالدين وصلة الرحم المُسألة. .»[٢] وذكر الحديث. فجعل صلة الرحم من الإسلام وشعبة من شعبه.

وكذلك ورد في الصحيح أيضاً عن ابي أيوب: أن رجلاً قال: يا رسول الله أخبرني بعمل يدخلني/ الجنة؟ قال القوم: ما له؟ ما له؟. قال رسول الله ﷺ: «أرب ما له». فقال [١٠] رسول الله ﷺ: «تعبد الله ولا تشرك به شيئاً وتقيم الصلاة وتؤتي الزكاة وتصل الرحم، ذرها»[٣]. قال كأنه كان على راحلته فاستاق صلة الرحم مع التوحيد والصلاة والزكاة في قرن واحد.

وعن جبير بن مطعم أن رسول الله ﷺ قال: «لا يدخل الجنة قاطع رحم»[٤].

والأخبار في هذا المعنى كثيرة.

واعلم أن الرحم على ضربين: رحم قرابة وولادة، ورحم إيمان وإسلام.

فأما رحم القرابة: فعلى نوعين: ضرب منهم يرث، وضرب لا يرث.

---

(١) جاء بهامش المخطوط عبارة: «بلغ مقابلة» مما يفيد مقابلة المخطوط على الأصل المنسوخ منه.

(٢) أورده الطبراني في المعجم الكبير (١٨/ ١٩)، السيوطي في جمع الجوامع (١٠١٠٧).

(٣) أطرافه عند: ابخاري في الصحيح (٢/ ١٣٠)، أحمد في المسند (٣/ ٤٧٢)، الطبراني في المعجم الكبير (٤/ ١٦٥).

(٤) أطرافه عند: البخاري في الصحيح (٨/٦)، مسلم في الصحيح (البر والصلة ب ٦ رقم ١٨، ١٩)، أبي داود في السنن (١٦٩٦)، الترمذي في الجامع (١٩٠٩)، أحمد في المسند (٤/ ١٨٠)، البيهقي في السنن الكبرى (٧/ ٢٧)، أبي نعيم في الحلية (٧/ ٣٠٨).

ومنهم من تجب نفقته بالحكم مثل الآباء والأبناء.

ومنهم من لا تجب نفقته بالحكم مثل الأخوة والأخوات والخال والخالات وسائر القرابات لكن بالصلة والإحسان.

وأما رحم الإيمان: فهي أخوة الإسلام والإيمان قال الله تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾[1].

وأوجب لكل واحد منهم على أخيه حقاً فإذا اجتمع رحم الإيمان ورحم القرابة والولادة كان له حقان حق القرابة وحق الإسلام، وإذا انفرد رحم الإيمان كان له حق أُخوة الإيمان.

واعلم أن الصلة تكون بالمال وتكون بالزيارة وبالإحسان وبالصفح في الأقوال وبالعفو في الأفعال وبالألفة في المحبة والاجتماع، وغير ذلك من معاني التواصل والتراحم.

هذا في الدنيا، وأما من مات من القرابات فصلتهم تكون بالاستغفار لهم والدعاء في الأوقات التي ترجى له فيها الإجابة لهم وتنفيذ وصاياهم وغير ذلك مما يخفف عنهم أو يدخل سروراً عليهم.

[أ] وكذلك/ أيضاً رحم الإيمان وصلتهم بقطع التقاطع والتدابر وترك الهجران إلاّ ما أباحه الشرع من ذلك وصلتهم بالمال عند الحاجة.

ومن الصلة للرحمين جميعاً تعليمهم ما يجهلون وتنبيههم على ما ينفعهم كما ورد في الخبر: «نعم الهدية الكلمة من الحكمة يهديها الرجل إلى أخيه المسلم».

والإعانة على الخير بأي وجه كانت صلة وصدقة.

عن أبي هريرة قال: حدثنا محمد رسول الله ﷺ فذكر أحاديثاً منها: وقال رسول الله ﷺ: «على كل سلامى من الناس صدقة كل يوم تطلع عليه الشمس ـ قال: ـ يعدل بين الاثنين ويعين الرجل في دابته فيحمله عليها ويرفع عليها متاعه صدقة، والكلمة الطيبة صدقة. .» وذكر الحديث.

وعن أبي موسى أن رسول الله ﷺ قال: «على كل مسلم صدقة». قيل: أرأيت إن لم يجد؟ قال: «يعتمل بيديه فينفع نفسه ويتصدق». قال: أرأيت إن لم يستطع؟ قال: «يأمر

---

(١) سورة الحجرات (الآية: ١٠).

بالمعروف والخير». قال: أرأيت إن لم يستطع؟ قال: «يمسك عن الشر فإنها صدقة».

فهذه أسباب التواصل كثيرة من استعملها كان من الواصلين لا سيما مع القرابة فإنها أوكد، وقد أمر الشرع بصلة الأرحام كثيراً ونهى عن القطيعة وأوجب اللعنة منه على القاطع فقال: ﴿فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِن تَوَلَّيْتُمْ أَن تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَتُقَطِّعُوا أَرْحَامَكُمْ * أُولَٰئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ فَأَصَمَّهُمْ وَأَعْمَىٰ أَبْصَارَهُمْ﴾(١).

وعن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «الرحم شجنة من الرحمٰن»(٢).

وفي رواية أخرى عن عائشة رضي الله عنها: «الرحم شجنة من الرحمٰن فمن وصلها وصله الله ومن قطعها قطعه الله».

/ والصلة مأخوذة من الوصلة والاتصال الذي هو ضد القطع والانفصال. [١١١/ ب]

والحكمة في ذلك أن النبي [ﷺ] وأزواجه عليهن السلام للأمة كالآباء والأمهات والأمة كالبنين كما تقدم في باب بر الوالدين فالمؤمنون كلهم أخوة كما قال عليه الصلاة والسلام: «المسلم أخو المسلم».

جمعهم رضاع لبان فطرة الإيمان فإذا لم تكن رحم الإيمان وكان رحم الولادة مجردة من الإيمان وجبت البراءة منها كما قال إبراهيم عليه السلام لأبيه والذين معه: ﴿إِذْ قَالُوا لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَآءُ مِنكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ﴾(٣).

والحكمة في هذا: أن الصلة نوع من التوحيد لأن الألفة اجتماع والاجتماع اتحاد والقطيعة افتراق والافتراق كثرة والكثرة ضد التوحيد.

فمن أجل ذلك قطع الله قاطع الرحم لأن الله واحد لا يصل إلاّ واحداً متصفاً بالتوحيد وهو بريء عن الكثرة جل جلاله عن ذلك.

وإذا نظرت هذا في الموجودات كلها وجدتها واصلة لهذا الرحم لا تنفك طرفة عين عن التعبد للّه بذلك فإن ملك الله كله أشخاص كثيرة لكن تلك الأشخاص قد عطف بعضها على بعض وأوصلت إعانتها إلى من يليها ومن يلي ذلك إلى من يليه حتى تماسك الكل

---

(١) سورة محمد (الآية: ٢٢).

(٢) أطرافه عند: البخاري في الصحيح (٨/ ٧)، ابن أبي عاصم في السنة (١/ ٢٣٧)، أحمد في المسند (٢/ ٢٩٥)، ابن أبي شيبة في المصنف (٨/ ٣٥١)، الهيثمي في مجمع الزوائد (٨/ ١٥٠).

(٣) سورة الممتحنة (الآية: ٤).

وصار ملكاً واحداً متعاوناً بعضه مع بعض لملك واحد لو انفصل شيء من تلك الأشخاص ولم يوصل إعانته إلى غيره ولا وصله بذلك بطل تدبير الملك ووقعت الكثرة والشتات.

فإذا فهمت هذا جداً علمت أن صلة الرحم على ثلاثة أضرب:

ضرب في مقام الإسلام.
وضرب في مقام الإيمان.
وضرب في مقام الإحسان.

[١١٢/ أ] وأن الصلة/ قد عمت جميع الموجودات والمقامات وحرمت القطيعة التي هي الفرقة والعذاب، وفي صلة مقام الإحسان يقول الله عز وجل: «اليوم أرفع نسبي وأضع أنسابكم. أين المتقون».

والاتصال في حق الخلق بعضه ببعض حتى يكونوا شيئاً واحداً حقيقة.

والاتصال في حق الباري تعالى الذي هو تقارب الذوات محال والاتصال المعنوي الذي هو وصال المحبة والخلة والإيمان والعلم والمعرفة والقرب منه والكون في كنفه حقيقة فمن وصل الرحم الجسمانية والرحم الإيمانية والإحسانية فقد وصله الله وكان من الذين يصلون ما أمر الله به أن يوصل، ومن قطع الرحم قطعه الله.

فإذا فهمت هذا جداً عرفت قدر هذه الشعبة من شعب الإيمان وكيف وجبت اللعنة لقاطع الرحم من الله تعالى.

فإن العالم الكلي الذي هو جميع المخلوقات متعبد لله بشرائع الإسلام كلها وشعب الإيمان أجمعها فمن ترك شعبة من شعب الإيمان خالف الملك كله في تعبده ولذلك أمر الله بالتذكر والتفكر وحض رسوله عليه ليقع اليقين لكل ما جاءت به الرسل في قلوب المؤمنين.

واعلم أن هذه الشعبة التي هي صلة الرحم ورد في الخبر أنها تزيد في العمر وهذا مشكل يحتاج إلى بيان لأن الله يقول: ﴿وَمَا يُعَمَّرُ مِن مُّعَمَّرٍ وَلاَ يُنقَصُ فِي عُمُرِهِ إِلاَّ فِي كِتَابٍ﴾[١].

فمن قدر أجله صغيراً أو كبيراً لا يقدر أن يزيد فيه ولا ينقص منه كما قال تعالى: ﴿فَإِذَا جَـآءَ أَجَلُهُمْ لاَ يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلاَ يَسْتَقْدِمُونَ﴾[٢].

وبيان ذلك إن شاء الله أن العمر هو الحياة والحياة هي عيش الإنسان من حين يولد إلى

---

(١) سورة فاطر (الآية: ١١). (٢) سورة النحل (الآية: ٦١).

أن يموت وصلة الرحم سبب للمودة لأنها عبادة تتعدَّى إلى الغير/ فتدخل السرور إلى قلوب [١١٢/ ب] الموصولين بالصلة فيحبه أهله فيدخل عليه بكل مسرور سرور في قلبه فتطيب حياته بالسرور الذي يدخل على قلبه وذاته وهو الوصال الذي وصله الله به حيث قال: «من وصلها وصلته ومن قطعها قطعته».

فإذا وصله الله طابت حياته ونمت فتنشأ حياته ويقوى في ساعة بالبركة والنمو على قدر الوصلة في كبرها وصغرها.

والبركة زيادة كزيادة ربح المال التي ليست بالزمان وإنما هي بالبركة والنمو ثم إذا مات الموصل للرحم يود أهله الذين يحبونه أن لو فدوه بأنفسهم فيبقى ودهم له في قلوبهم بعد موته فيذكرونه بكل خير ويترحمون عليه لأن مثاله في الوجود في نفوسهم فيكون أيضاً ذلك بمنزلة حياته كأنه لم يمت وقد نبَّه النبي عليه الصلاة والسلام على هذا المعنى في حديث رواه أبو هريرة في الصحيح قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «من أحب أن يبسط له في رزقه وينسأ له في أجله فليصل رحمه»[١]. والأثر هو بعد الموت.

وروى كميل عن علي رضي الله عنه في الحديث الطويل: مات خزان الأموال والعلماء باقون ما بقي الدهر أحياء أعيانهم مفقودة وأمثالهم في القلوب موجودة.

والعلماء أحياء أبداً لأن آثارهم باقية. فافهم.

والقاطع للرحم يدخل الغم على الغير بغير حق فيبغضونه ويبغضهم ويتولد الحقد عنده فيتنغص عليه عيشه الذي هو حياته وتنغيص العيش نقصان من عمره لأن بركة الحياة قد زالت عنه التي تحصل للواصل وهو طيب الحياة.

ألا ترى إلى قول الله تعالى: ﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحاً مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً﴾[٢].

فمن فقد طيب الحياة فقد نقص عيشه وخسر عمره.

ألاَ ترى/ إلى قول النبي عليه الصلاة والسلام: «لا يدخل الجنة قاطع رحم»[٣]. [١١٣/ أ]

والحياة الطيبة على الحقيقة هي في الجنة.

(١) أطرافه عند: البخاري في الصحيح (٦/٨)، مسلم في الصحيح (البر والصلة ٢١)، البيهقي في السنن الكبرى (٧/٢٧)، البغوي في شرح السنة (١٣/١٨)، المنذري في الترغيب والترهيب (٣/ ٣٣٤).

(٢) سورة النحل (الآية: ٩٧).

(٣) سبق تخريج الحديث قبل قليل.

والواصل للرحم إذا وصله لله يجد أذواقاً من تلك الحياة على قدر صلته وهي زيادة حياة، وتفهم قول الله تعالى في قوله: ﴿وَتُقَطِّعُوٓاْ أَرْحَامَكُمْ﴾[1] وقوله: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَعَنَهُمُ ٱللَّهُ فَأَصَمَّهُمْ وَأَعْمَىٰٓ أَبْصَٰرَهُمْ﴾[1].

واللعنة هي البعد من جواره الذي هو ضد الوصل والعمى والصمم موت القلب والموت فقد الحياة. فهذا بيّن لا إشكال فيه إن شاء الله.

وصلى الله على محمد وآله وسلم.

الشعبة الثالثة والعشرون: إكرام الجار

فأما كونه من شعب الإيمان فإن الله قد استاقه بعد التوحيد وبرّ الوالدين وصلة الرحم في قرن واحد فقال: ﴿وَٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ وَلَا تُشْرِكُواْ بِهِۦ شَيْـًٔا وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا وَبِذِي ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱلْجَارِ ذِي ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْجَارِ ٱلْجُنُبِ وَٱلصَّاحِبِ بِٱلْجَنۢبِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ﴾[2].

وفي الصحيح عن ابن شريح أن رسول الله ﷺ قال: «والله لا يؤمن، والله لا يؤمن، والله لا يؤمن». قيل: من يا رسول الله؟ قال: «الذي لا يأمن جاره بوائقه»[3]. فنفى الإيمان عنه بعدم هذه الشعبة والله أعلم بما أراد رسوله. هل أراد جملة الإيمان أو أراد لا يؤمن إيماناً كاملاً؟

وكيفما كان فقد صار شعبة من شعب الإيمان.

وفي حديث آخر عن أبي هريرة: «من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فلا يؤذ جاره»[4].

والأخبار في هذا المعنى كثيرة.

واعلم أن إكرام الجار ظاهراً وباطناً، فالظاهر على نوعين:

---

(١) سورة محمد (الآية: ٢٢).

(٢) سورة النساء (الآية: ٣٦).

(٣) أطرافه عند: البخاري في الصحيح (٨/ ١٢)، أحمد في المسند (٢/ ٢٨٨)، الحاكم في المستدرك (١/ ١٠)، الهيثمي في مجمع الزوائد (٨/ ١٦٩)، ابن حجر في الفتح (١٠/ ٤٤٣)، الألباني في الصحيحة (١٥٤٩)، السيوطي في الدر المنثور (٢/ ١٥٨).

(٤) أطرافه عند: البخاري في الصحيح (٨/ ١٣)، الطبراني في الكبير (١٠/ ٢٤١)، أبي عوانة في المسند (١/ ٣٥)، الخطيب في تاريخ بغداد (١١/ ١٣٩)، السيوطي في الدر (٢/ ١٥٩)، الطحاوي في مشكل الآثار (٤/ ٢٢٢).

النوع الواحد: وهو الفرض الواجب أن لا يؤذيه ولا يضره ويكف عنه شره جملة.

والنوع الآخر: أن يحسن إليه ويصله بما قدر ويأمره بالمعروف وينهاه عن المنكر وينبهه على ما ينفعه.

فإذا اجتمع المعنيان فهو الكمال وإذا لم يقدر على الإحسان فليكف عن الأذى.

هذا هو حق الجار عليك في خاصة نفسك، وأما في خاصته فإن كان محسناً إليك فاقبل إحسانه وكافئه عليه بما تقدر عليه من إحسان أو دعاء فإن ذلك يثمر المحبة.

وإن كان مؤذياً لك فليلزمك الصبر عليه حتى يجعل الله فرجاً أو التبديل به خيراً منه إن أمكن وبالرحلة إن لم تقدر على الصبر فإنه يقال: إن الجار السوء يشيب قبل المشيب.

روى أبو هريرة قال: جاء رجل إلى رسول الله ﷺ يشكو جاره قال: «اصبر». ثم أتاه، فقال: «اصبر». ثم أتاه، فقال: «اصبر». ثم أتاه، فقال عليه الصلاة والسلام: «اذهب فاطرح متاعك في الطريق»(١).

ففعل فجاء الناس يمرون فيسألونه فيخبرهم خبر جاره فجعل الناس يلعنونه: فعل الله به وفعل. فجاء إليه جاره فقال: ارجع فإنك لا ترى مني شيئاً تكرهه.

وحق الجوار في أقرب الأبواب، روت عائشة رضي الله عنها قالت: قلت يا رسول الله إن لي جارين فإلى أيهما أهدي؟ قال: «أقربهما منك باباً»(٢).

فالجيران نازلون في حقوقهم منزلة القرابات الأقرب من القرابات أبداً أوجب ثم الذي يليه وكذلك الجيران.

وقد نبّه النبي عليه الصلاة والسلام على هذا المعنى في قوله: «ما زال جبريل يوصيني بالجار حتى ظننت أنه سيورثه»(٣).

ومن حسن الجوار بذل الماعون للجيران فإنه قد ورد في قوله تعالى: ﴿وَيَمْنَعُونَ

---

(١) أطراف الحديث عند: أحمد في المسند (١/ ٦٢، ٦٣)، (٥/ ١٤٩)، الزبيدي في الإتحاف (٦/ ٣٠٦)، (٩/ ١٣)، العجلوني في كشف الخفا (٢/ ١٦٥)، ابن السني في عمل اليوم والليلة (٥٥٤)، ابن حجر في لسان الميزان (٦/ ٦٢٦)، الهيثمي في مجمع الزوائد (١٠/ ٣٢٤).

(٢) أطرافه عند أحمد في المسند (٦/ ١٧٥، ١٨٧)، ابن حجر في المطالب العالية (٢٧٢٠).

(٣) أطرافه عند: البخاري في الصحيح (٨/ ١٢)، مسلم في الصحيح (البر والصلة ب ٤٢ رقم ١٤٢)، أبي داود في السنن (٥١٥١)، الترمذي في الجامع الصحيح (١٩٤٢)، ابن ماجة في السنن (٣٦٧٣)، البيهقي في الكبرى (٦/ ٢٧٥)، البغوي في شرح السنة (١٣/ ٧١).

﴿ٱلْمَاعُونَ﴾[١] أنه المعروف كله حتى ذكر القصعة والقدرة والفأس.

[١١٤/ أ] والماعون: مشتق من العون والإعانة فكل ما يستعان/ به على الخير فهو ماعون، قال الله تعالى: ﴿وَتَعَاوَنُواْ عَلَى ٱلْبِرِّ وَٱلتَّقْوَىٰ وَلَا تَعَاوَنُواْ عَلَى ٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَانِ﴾[٢].

ومن حق الجار على الجار أن ينبهه على ما ينفعه من أمر دينه وآخرته وينهاه عما يضره في دينه وآخرته.

فإنه يقال: إن الجار يتعلق بجاره يوم القيامة ويخاصمه في حقوقه وفي أنه لم يأمره ولم ينهه وإن أدّى ذلك إلى بغض جاره له فلا يضره فقد ورد في الآثار: إذا رأيت القارىء محبباً في جيرانه فاعلم أنه مداهن. وقيل: مرائي.

وإكرام الجار جاره بأمر الدين وأمر الآخرة كإكرامه بأمور الدنيا بل إكرامه بأمور الدين أوجب وأفضل، فإن إكرامه بذلك من الخير الذي لا ينقطع وهي الآخرة وقد قال رسول الله ﷺ: «خير الجيران عند الله خيرهم لجاره»[٣]. وهذا هو الجار الظاهر وإكرامه.

وأما الباطن فعلى ضربين: ضرب في مقام الإيمان، وضرب في مقام الإحسان.

فأما الضرب الأول في مقام الإيمان: فإن العالم كله مشحون بالملائكة فإذايتهم وإذاية مواطنهم وهي مساجدهم التي يتعبدون فيها لرب العالمين محرمة علينا فليس في العالم موضع شبر إلاّ وفيه جبهة ملك.

فالعالم كله مسجد لهم فإذايتهم بالمعاصي، كما ورد في قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُمْسِكُ ٱلسَّمَاوَاتِ وَٱلْأَرْضَ أَن تَزُولَا﴾[٤]. أي من معاصي العباد.

ويقال إن للذنوب روائح إذا أذنب العبد ذنباً ثارت منه ريح منتنة فتنفر منه الملائكة وتنقبض منه الأمكنة على قدر صغر الذنب وكبره، ألاَ تسمع لقوله تعالى: ﴿تَكَادُ ٱلسَّمَاوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنشَقُّ ٱلْأَرْضُ وَتَخِرُّ ٱلْجِبَالُ هَدًّا * أَن دَعَوْا لِلرَّحْمَٰنِ وَلَدًا﴾[٥].

[١١٤/ ب] فإكرام هذا الجار كف الأذى عنهم/ بترك العصيان وكشف العورات والقبائح للكرام الكاتبين.

---

(١) سورة الماعون (الآية: ٧). (٢) سورة المائدة (الآية: ٢).

(٣) أطراف الحديث عند: الترمذي في الجامع (١٩٤٤)، أحمد في المسند (٢/ ١٦٨)، الدارمي في السنن (٢/ ٢١٥)، ابن خزيمة في الصحيح (٢٥٣٩)، الطحاوي في مشكل الآثار (٤/ ٣١).

(٤) سورة فاطر (الآية: ٤١). (٥) سورة مريم (الآية: ٩٠، ٩١).

ألاَ ترى كيف أمر الشرع أيضاً بأن لا تستقبل القبلة ولا تستدبر ببول ولا غائط إكراماً للمصلين.

وكذلك تنفر الملائكة من الروائح القبيحة في الأجساد والأوساخ، قال النبي عليه الصلاة والسلام: «من أكل من هذه الشجرة فلا يقرب مساجدنا يؤذينا بريح الثوم»[(١)].

وكذلك لا تدخل الملائكة بيتاً فيه كلب ولا صورة ولا تمثال، وذلك كله داخل في هذا المعنى.

وفيه إشارة إلى بيت القلب وتطهيره من كَلَبِ الحرص والغضب، وتماثيل الشرك المتوهمة المحبوبة القاطعة عن الله.

فإزالة ذلك كله إكرام للملأ الأعلى المجاورين للقلوب والأرواح والنفوس في عالم الملكوت والأجسام في عالم الملك.

وأما الضرب الثاني الباطن في مقام الإحسان: فهو مقام مراقبة الباري تعالى، ومن حقائق هذا الباب إكرام نظر الباري تعالى والحياء منه والتوقير له والإجلال والإخبات له فإنه الجار القريب الذي هو أقرب إلى كل شيء من كل شيء.

وإكرام هذا الجواد الكريم موجود في قوله تعالى: ﴿تَبَارَكَ ٱسْمُ رَبِّكَ ذِي ٱلْجَلَالِ وَٱلْإِكْرَامِ﴾[(٢)]. ومعناه: هو أهل لأن يجل ويكرم نظره قربة. فافهم.

فهمنا الله وإياك وأعاننا وإياك على العمل.

ألاَ ترى أنه قد ورد في الأخبار: أن آدم لما وقع في الخطيئة قيل له: اخرج فإنه لا يجاورني من عصاني.

فمن كان في الدنيا حسن الجوار ظاهراً وباطناً كان جزاؤه الحلول بجوار الواحد الأحد في الجنة وعلى قدر حسن جواره يكون قربه من جوار الواحد الأحد.

ولذلك نبّه النبي عليه الصلاة والسلام على هذا المعنى في قوله: «من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليكرم جاره»[(٣)].

---

(١) أطراف الحديث عند: البخاري في الصحيح (١/٢١٧)، مسلم في الصحيح (المساجد ٧٠)، أبي داود في السنن (الأطعمة ب ٤١)، أحمد في المسند (٥/١٢٦)، أبي عوانة في المسند (٢/١٩)، مالك في الموطأ (١٧)، ابن عبد البر في الاستذكار (١/١٥٢).

(٢) سورة الرحمٰن (الآية: ٧٨).

(٣) أطرافه عند: مسلم في الصحيح (الإيمان ٧٤)، أحمد في المسند (٤/٣١)، الدارمي في السنن=

[١١٥/ أ] فقوله: «من كان يؤمن بالله واليوم الآخر» أي من كان يؤمن بجوار الله في الآخرة والرجوع إلى السكنى في جواره «فليكرم جاره» في الدنيا على المعاني الثلاثة المذكورة فيما تقدم.

والمقربون الذين قاموا بحسن الجوار قد وجدوا من قرب جوار الواحد الأحد أذواقاً في الدنيا قبل الآخرة فأنزلهم المنازل الرفيعة من جواره: ﴿إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَنَهَرٍ * فِي مَقْعَدِ صِدْقٍ عِندَ مَلِيكٍ مُّقْتَدِرٍ﴾[١].

والجوار أخو الاعتكاف في الشرع وهو هو وأعلاه عكوف العبد على مولاه في الحال في مقعد الصدق عند مليك مقتدر.

وفي الحديث أيضاً: «الماهر بالقرآن مع السفرة الكرام البررة»[٢].

أي قد أجل مقامهم وأنزل منزلتهم وعلى فوت هذه الحالة نقول: إنّا للّه وإنّا إليه راجعون.

ونسأل الله الكريم التوبة من كل ما يوجب البعد من جوار الله وأن يرزقنا الحياء منه والإكرام له والملائكة الكرام المكرمين. [آمين. آمين. آمين].

وصلى الله على محمد وعلى آله وسلم.

الشعبة الرابعة والعشرون: إكرام الضيف

أما كونه من شعب الإيمان فموجود في قوله عليه الصلاة والسلام: «من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليكرم ضيفه»[٣].

وفي الصحيح أيضاً عن ابن عمر أن رجلاً سأل رسول الله ﷺ: أي الإسلام خير؟ قال: «تطعم الطعام..» وذكر الحديث. فجعل إطعام الطعام من الإسلام، وهو راجع إلى التضييف وغيره.

= (٢/ ٩٨)، الحاكم في المستدرك (٤/ ١٦٤)، البيهقي في السنن (٩/ ١٩٧)، مالك في الموطأ (٩٢٩).

(١) سورة القمر (الآية: ٥٤، ٥٥).

(٢) أطراف الحديث عند: البخاري في الصحيح (٩/ ١٩٣)، مسلم في الصحيح (صلاة المسافرين ٢٤٤)، ابن ماجة في السنن (٣٧٧٩)، أحمد في المسند (٦/ ٩٨)، البيهقي في السنن الكبرى (٢/ ٣٩٥)، عبد الرزاق في المصنف (٩١٩٤).

(٣) أطرافه عند: البخاري في الصحيح (٨/ ١٣)، مسلم في الصحيح (الإيمان ٧٤)، أبي داود في السنن (٣٧٤٨)، الترمذي في الجامع الصحيح (١٩٦٧)، أحمد في المسند (١/ ٢٠)، الدارمي في السنن (٢/ ٩٨)، الحاكم في المستدرك (٤/ ١٦٤).

لأن إطعام الطعام على نوعين:

إما أن يأتيك الزائر فتطعمه فيكون ضيفاً لك.

وإما أن تدعوه فيجيبك زائراً لك في منزلك فيكون ضيفاً بدخوله منزلك.

لا يخلو إطعام الطعام عن هذين القسمين.

ولأن إطعام الطعام من المروءة، وقالوا: لا دين لمن لا/ مروءة له. [١١٥/ ب]

والأخبار كثيرة.

واعلم أن التضييف على نوعين: ظاهر، وباطن.

فأما الظاهر: فهو الزائر والمستزار الإنساني فأما الزائر فهو القادم عليك فأكرمه ثلاثة أنواع بالإيواء والتبجيل والقِرَى ومنتهاه ثلاثة أيام كما أخبر النبي عليه السلام في قوله: «من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليكرم ضيفه جائزته». قالوا: وما جائزته يا رسول الله؟ قال: «يوم وليلة»[١]. «والضيافة ثلاثة أيام فما كان بعد ذلك فهو صدقة عليه ولا يحل له أن يثوي عنده حتى يحرجه ويؤثمه». قالوا: كيف يؤثمه؟ قال: «يقيم عنده وليس عنده ما يقريه به».

فالإيواء يزيل الغربة والخوف عن الضيف بوجوده المنزل بدلاً من منزله.

والتبجيل يزيل عنه وحشة الغربة ويثمر عنده الأنس. والقرى يطيب النفس ويولد المحبة.

وهذه كلها أعمال الإيمان ومن أجل هذه الثلاثة كانت الضيافة على أهل الوَبَر أوجب منها على أهل المدر لأن المنزل والأنس والقرى متعذر في البادية كما أنها هي كلها موجودة في الحاضرة.

فإن المسافر يجد المنزل في الحاضرة غير متعذر ويجد الخلق الكثير والطعام الكثير على اختلاف أنواعه كما ورد في الخبر: «الضيافة على أهل الوبر وليست على أهل المدر»[٢].

ولو لم يكن في التضييف فائدة إلاّ ما ورد فيه: «إن الضيف إذا ارتحل، ارتحل بذنوب أهل المنزل».

---

(١) أطرافه عند: البخاري في الصحيح (١٣/٨)، مسلم في الصحيح (اللقطة)، الدارمي في السنن (٩٨/٢)، ابن حجر في الفتح (٤٤٥/١٠).

(٢) أورده العجلوني في كشف الخفا (٤٧/٢)، الألباني في الضعيفة (٧٩١)، علي القاري في الأسرار المرفوعة (٢٣٨).

كيف وفيه من غير ذلك من أسرار الجزاء المعبر عنها في قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾(١) حِكم وأنوار عبّر عنها قول النبي ﷺ في قوله: «من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليكرم ضيفه».

[١١٦/ أ] ففي قوله هذا تنبيه عظيم لفهم الجزاء على الأعمال،/ معناه: «من كان يؤمن بالله واليوم الآخر» أي يصدق بلقاء الله والقدوم عليه فالإنسان ضيف في الآخرة قادم على الله فيؤويه سبحانه في منزله وداره التي هي الجنة ويعظمه بخدمة الولدان والعبيد ويتلقونه بالبشرى والتوقير والتبجيل ويكرمه بالإطعام والراحة في دار كرامته «فليكرم ضيفه» فإنه قادم عليه ليس له مأوى كما يقدم الإنسان غريباً في الآخرة ليس له مأوى فيؤويه الله في الجنة ويتلقاه بالبشرى والترحيب ـ أعني ضيفه ـ ويثيبه الله على ذلك الترغيب والتوقير ويخدمه الأملاك والولدان ويقدم إليه القرى فإن الله يقدم إليه إذا دخل جنته جميع ما فيها من الأطعمة والكرامة.

وهكذا صفة الأعمال كلها من عمل خيراً أو شراً جزاؤه في الآخرة على مثل العمل في الدنيا: ﴿جَزَآءً وِفَاقًا﴾(٢). [وقال تعالى](٣): ﴿سَيَجْزِيهِمْ وَصْفَهُمْ﴾(٤).

وإنما نبهتك على هذا لتنتبه في ألفاظ القرآن والحديث على معاني الجزاء فتنكشف لك حقائقها فإنها في ألفاظ الرسول والقرآن مودعة.

وكذلك إذا استزرت أنت غيرك من أخ أو غيره إلى منزلك فأطعمته وأكرمته فهو من الإيمان أيضاً فقد سُئل رسول الله ﷺ عن الإيمان فقال: «إطعام الطعام وبذل السلام»(٥).

وقال أيضاً في الكفارات والدرجات: «إطعام الطعام والصلاة بالليل والناس نيام».

والأخبار في فضل الضيافة وإطعام الطعام لا تحصى فهيَ شعبة عظيمة من فضائل الإيمان.

ويقال: إن السخاء على الطعام يستر البخل بالمال.

وأما الباطن: فعلى ضربين: ضرب في مقام الإيمان وضرب في مقام الإحسان.

---

(١) سورة الطور (الآية: ١٦).
(٢) سورة النبأ (الآية: ٢٦).
(٣) زيادة للفصل بين الآيات.
(٤) سورة الأنعام (الآية: ١٣٩).
(٥) أطرافه عند: أحمد في المسند (٣/ ٣٢٥)، البيهقي في السنن الكبرى (٥/ ٢٦٢)، الحاكم في المستدرك (١/ ٤٨٣)، أبي نعيم في الحلية (٦/ ١٤٦)، الزبيدي في إتحاف السادة والمتقين (٥/ ٢٣٩)، ابن الجوزي في العلل المتناهية (١/ ١٦)، العقيلي في الضعفاء الكبير (١/ ١٤١).

فأما الضرب الأول الإيماني: فاعلم أن كل وارد/ يرد على العبد من الغيب مما ليس [١١٦/ ب] بحاضر معه ولا هو مجاور له فإنه ضيف بوروده عليه يجب له من الإكرام ما يليق به كضيف أبينا إبراهيم صلوات الله على نبينا وعليه وهم الملائكة الواردون على الخلق، قال الله تعالى: ﴿هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ ضَيْفِ إِبْرَاهِيمَ الْمُكْرَمِينَ﴾[١]. وقال في لوط [عليه السلام]: ﴿قَالَ إِنَّ هَؤُلَاءِ ضَيْفِي فَلَا تَفْضَحُونِ﴾[٢]. [وقال][٣]: ﴿وَلَقَدْ رَاوَدُوهُ عَن ضَيْفِهِ﴾[٤]. فإنما سموا ضيفاً بقدومهم عليه ودخولهم منزله لا بأن ذلك اسم لهم. فافهم.

فإن الملائكة تتعاقب على الخلق في كل يوم وليلة ترد من عند الله ملائكة النهار عند صلاة الصبح فتحفظ على الخلائق أعمالهم، وكذلك ملائكة الليل أيضاً ترد عليهم عند ذهاب النهار وإقبال الليل فتحفظ عليهم أعمالهم هكذا مع كل يوم وليلة لا يخلو العبد عن القادمين عليه.

والواجب على العبد إكرامهم بما يليق بهم من التعزير والتوقير وقبول المهام وترك الأذى لهم بما يكرهونه من مخالفة وترك تعبهم بما في كتب الفضول من القول والفعل وإملاء الأعمال الصالحة عليهم من الأذكار والأقوال الطيبة ليكتبوها فذلك إكرامهم وتضييفهم.

وكذلك الأنفاس ثم الساعات ثم الأيام والليالي قادمة على العبد شاهدة له وعليه إكرامها وإملاؤها بالخير فإنها صروف لا يعمل العبد خيراً ولا شراً إلا في ساعة من الزمان أو أقل من ساعة أو أكثر وإهانتها إملاؤها بالشرّ.

وكذلك كل وارد من الله من خاطر خير وواعظ في قلب المؤمن أو تفهيم علم من الله يجب إكرامه بالقبول والامتثال.

وأما الضرب الثاني من الباطن في مقام الإحسان: فهو تجلي الباري تعالى لقلوب المؤمنين وتنزله إليهم بصفات الرحمة/ والتكليم في كل ليلة وتنبيههم في كل وقت من [١١٧/ أ] التذكير والوعظ، فيجب إكرام تجليه، وتجليه تنزله ومجيئه سبحانه: «من أتاني يمشي أتيته هرولة»[٥].

وكيف لا وهو أقرب من حبل الوريد وإنما مجيئه وتنزله كشف الحجب من الغفلة وغيرها عن القلوب.

---

(١) سورة الذاريات (الآية: ٢٤).
(٢) سورة الحجر (الآية: ٦٨).
(٣) زيادة للفصل بين الآيات.
(٤) سورة القمر (الآية: ٣٧).
(٥) أورده البيهقي في الأسماء والصفات (٤٥٧).

فقد عم التضييف والإكرام جميع المقامات الثلاثة الإسلام، والإيمان، والإحسان وبقي الإكرام في كل مقام منها لكل ضيف وارد فيها من أكرمها أكرمه ورفع قدره في الحال إن كان من أهل الأحوال وفي المآل إذا قدم على ذي الجلال وإن أغفلها واستهان بها حرم الإكرام والترفيع في الحال والمآل.

ومن هذه الواردات ما يعظم قدره فيزيد في قلوب المتلقين له إكراماً وترحيباً على غيره وإن كان الكل مكرم كيوم الجمعة في الأيام كان السلف الصالح يأخذون الأهبة له عشية الخميس وذلك من الإكرام له وكانوا يتلقونه بالترحيب.

كان إبراهيم بن أدهم يقول في كل صبيحة يوم الجمعة وعشيته: مرحباً بيوم المزيد، مرحباً بالكاتب والشهيد.

وكذلك أوقات الصلوات على غيرها والشهور الفاضلة كشهر رمضان وغيره وليلة القدر وغيرها من الليالي الفاضلة.

وكذلك الواردات كلها من الله جل وتعالى في القلوب.

ومن هذا الباب دخلوا إلى الاستعداد لقدوم الموت عليهم والارتقاب له والتأهب للقائه.

فمن أكرم هذه الواردات وتلقّاها بالإكرام ورآها رسلاً وواردات من الله جزاؤه عند الله أول دخول الآخرة في منتهاها التأهب لقدوم روحه في السماوات حتى إن الأرض لتقول لأحدهم: مرحباً بك لقد كنت أحبك وأنت على ظهري فسترى صنيعي بك اليوم.

[١١٧/ ب] ولا يمر بروحه على ملإ من الملائكة/ إلاّ تلقته بالترحيب والإكرام فيقولون روح طيبة جاءت من جسد طيب.

حتى لا يبقى في الوجود إلاّ من يكرمه ويُرَحبُ به على قدر درجته.

وإن أردت اعتبار هذا المعنى في الوجود كله فإن الملائكة والوجود كله بين يدي الله متلقٍّ لما يرد عليه من الله بالترحيب والامتثال والإكرام وهذا مقام الإحسان. فافهم.

فهمنا الله وإياك وأعاننا وإياك على برّه وبرّ وسائطه المكرمين. آمين.

وصلى الله على محمد وآله وسلم.

الشعبة الخامسة والعشرون: الصمت والعي

أما كون الصمت من الإيمان فإن رسول الله ﷺ قال: «من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليقل خيراً أو ليصمت»[١]. وفي الحديث: «الحياء والعي شعبتان من الإيمان»[٢].

وحد الصمت: الإمساك والحبس.

فإذا فهمت هذا فاعلم أنه على ثلاث مقامات: مقام الإسلام، ومقام الإيمان، ومقام الإحسان.

فأما الصمت في مقام الإسلام: فإن الكلام ينقسم على قسمين: خير، وشر.

وقال الله تعالى: ﴿لاَّ خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِن نَّجْوَاهُمْ﴾[٣] الآية.

وقال النبي عليه الصلاة والسلام: «وهل يكب الناس في النار على مناخرهم إلاّ حصائد ألسنتهم»[٤].

ومن عدّ كلامه من عمله قلّ كلامه إلا فيما يعنيه.

فإذا علم العبد أن كلامه من العمل كان كسائر الجوارح لسانه والجوارح كلها ساكنة صامتة لا تتكلم وكلامها العمل فقد استوى اللسان مع الجوارح فكما أن الجوارح لا يجوز لها أن تعمل إلاّ صالحاً فهكذا اللسان لا يعمل إلاّ صالحاً وعمله هو الكلام وأكثر الناس لم يعدّوا الكلام من العمل من طريق أن اللسان هو ترجمان العبد في جميع حاجاته فخف الكلام على الناس وهو الذي أورد/ الموارد وأهلك الخلق. [١١٨/ أ]

وفي اللسان أنواع المهلكات مثل الكذب والزور والفخر والاستهزاء والنميمة والبهتان والغيبة والحسد والحديث الذي لا يفيد.

---

(١) أطرافه عند: البخاري في الصحيح (١٣/٨)، مسلم في الصحيح (الإيمان ٧٤)، الدارمي في السنن (٩٨/٢)، الترمذي في الجامع الصحيح (١٩٦٧)، ابن ماجة في السنن (٣٩٧١)، البيهقي في السنن الكبرى (٨/ ١٦٤)، مالك في الموطأ (٩٢٩).

(٢) أطرافه عند: الترمذي في الجامع الصحيح (٢٠٢٧)، أحمد في المسند (٢٦٩/٥)، الحاكم في المستدرك (١/ ٩)، الطحاوي في المشكل (٤/ ١٢١)، البغوي في شرح السنة (١٢/ ٢٦٦).

(٣) سورة النساء (الآية: ١١٤).

(٤) أطراف هذا الحديث عند: أحمد في المسند (٥/ ٢٣٦)، الترمذي في الصحيح (٢٦١٦)، ابن ماجة في السنن (٣٧٩٣)، المنذري في الترغيب والترهيب (٣/ ٥٢٩).

فواجب على العبد أن يحكم لسانه ويضبطه كما يضبط سائر الجوارح ولا يتكلم إلا فيما أمر به والذي أُمر بالكلام فيه.

والصمت في عالم الحس ثلاثة أيضاً: ضرب في المباحات والأشغال التي لا بد منها، وضربان في أمور الدّين لأن أمور الدّين على ضربين خير وشر.

فأما أمور الدنيا: فيتكلم الإنسان بحوائجه في منزله ومع أهله ومع من يبيع منه ويشتري ممّا لا بد منه وذلك كله حسن، ويضبط لسانه عن كل جفاء وبذاء فإن ذلك من شُعب النفاق.

وأما أمور الخير الدينية: فالكلام فيها بالسؤال عن العلم والجواب فيه فلا يتكلم إلاّ بعلم حق ولا يتكلم في الدين بأهواء المبتدعة والمتعمقين ويتمذهب به فإن ذلك جناية على الدّين والصمت عن ذلك فرض واجب إلاّ أن يتكلم العالم والمتعلم فيه بمعنى الحكاية أو على وجه البيان لفساده فإن ذلك علم خير ومتى وجد الإنسان من يكفيه ويكون هو صامتاً كان خيراً له. كذلك إذا سُئل عن فتوى مسألة فليصمت عنها ويدفعها إلى من هو أعلم بها منه أو لمن كلف الفتوى بها فذلك طريقة السلف.

هذا إذا كان عالماً بها أما إذا كان جاهلاً فالصمت عليه واجب لئلا يتكلم بالجهل ويفتي بغير علم فيضل ويضل. والصمت زين للعالم وسِتر للجاهل.

وأما أمور الشرع الدينية: فإن العبد إذا رأى عيباً من غيره فإنه مأمور بستر العورة وأن [١١٨/ ب] لا يرفع الفواحش ولا يطلب المثالب والعورات وليكف عنها ويصمت/ عن الكلام بها وإلاّ كان من الذين يذيعون الفاحشة ويؤذي الناس بلسانه و: «شر الناس من اتقاه الناس مخافة لسانه»[1].

إلاّ أن يرى منكراً فواجب عليه أن ينهى صاحبه فيتكلم إذ ذاك فإن الصمت هناك قبيح فإن رأى من يفسد صلاته أو طهارته أو تجارته فلينهه والصمت عن ذلك إثم.

وعلى الجملة المختصرة الجامعة في هذا الباب، فليكن لسان العبد عنده بمنزلة جارحة من جوارحه كما جعله الله جارحة من الجوارح وليكن كلام اللسان عنده عملاً من الأعمال كما جعله الله بالأعمال كلها ينقسم قسمين خير وشر، وكذلك الكلام؛ فليصمت

---

(١) بنحو هذا الطرف عند: أحمد في المسند (٦/ ٣٨)، العجلوني في كشف الخفا (٢/ ١٢)، الزبيدي في الإتحاف (٦/ ٢٨٨).

الإنسان وليكف عن الشر ولا يتكلم إلاّ بالخير كما أمر أن لا يفعل إلاّ خيراً ويترك الشر بجوارحه كلها.

فإذا كان العبد هكذا كان حكيماً عاقلاً لأن الصمت حكمة وقليل فاعله، وكذلك الحكماء قليل.

وإذا كان الإنسان حاكماً للسانه عن الشر متكلماً بالخير صار ذلك عادة له فيثقل على اللسان الكلام في الشرّ والباطل ويكرهه وينفر منه ويعيى ويكل عنه فيكون العي عن الكلام في الشر صفة للسان فحينئذ يكون بهذا الوصف الذي قال النبي عليه الصلاة والسلام فيه: «الحياء والعي شعبتان من الإيمان»[1]. فالعي في اللسان عن الشر وفي الجوارح من أكبر خصال الإيمان.

ومن الناس من تكل جوارحه عن فعل الشر وتعيى فلا تمتد إلى ذلك ولا تنبسط وترك ذلك هو صمتها كما أن عمل الجوارح هو نطقها فإن الفقهاء قد أجمعوا على أن الرجل إذا كتب لامرأته بيده أنت طالق ولم ينطق بلسانه، أن ذلك بمنزلة قوله أنت طالق سواء.

فعلى هذا يصمت العبد بجوارحه كلها ويضبطها/ عن الشر وأعظمهم في ذلك رتبة [١١٩/ اللسان لأنه الترجمان والمبين وقد كان من السلف الفاضل من يحبس الحصاة في فيه وقاية للسانه لعله يصمت كما تصمت الجوارح ويكون ذلك عادة له.

والأخبار والحكايات في فضائل الصمت وآفات الكلام وفضل الكلام أيضاً في الكتب أكثر من أن تحصى.

مَنّ الله علينا بما ينفعنا آمين.

وأما المقام الثاني من الصمت في مقام الإيمان فإن أول ما يقع عليه بصر الإيمان في الغيب النفس الباطنة في الجسد وهي محادثة إبليس والمستمعة له، وهو أبداً متكلم بأنواع الوساوس وهي متكلمة بأنواع التسويل وضروب الأماني والخواطر المذمومة على اختلاف أنواعها ولولا هي ما تكلم اللسان بحرف في الظاهر.

وخواطرها في ذلك تنقسم على نوعين وإن كثرت: نوع منها يتفكر في معصية ويتدبر لها كيف تكون، ونوع منها في امتداد الآمال الدنياوية وتدبرها والخوض في أودية كيف تكون ما تكون بل هي المتكلمة في النوم واليقظة والصلاة والأكل والشرب وفي كل حال.

---

(١) سبق تخريج الحديث قبل قليل.

فيجب على الإنسان أن يصمت عن الخوض في ذلك والحديث به فإنه زخرف وغرور ألاَ ترى أنه لا يكتب للعبد من صلاته إلاّ ما عقل منها؟

هذا من أجل تحدث النفس في الصلاة بخواطر أغراضها كما يمضي باقي الصلاة باطلاً ويكتب للعبد، كذلك يمضي عمره كله باطلاً في حين حديثها في أي نوع كانت فيه من الطاعات التي لا يحضر فيها وتسكت عن إفسادها بالحديث بالعجب والرياء وغير ذلك. فافهم.

فإن قلت: وكيف تسكت النفس؟

[١١٩/ ب] فاعلم أن الله جل جلاله قد جعل في مقام الإيمان/ المؤمنات العظائم والأهوال الجسام مثل: الموت، والقبر، والحشر، والنشر، والصراط، والحوض، والميزان، والحساب، والجنة، والنار، وجميع أمور الآخرة.

فإذا فكر العبد في المؤمنات وتكلم فيها بالفكر في عالم الغيب سكنت النفس عن تسويلها وحديثها بالأمر بالسوء وانصرفت صامتة عن أمور الدنيا والبشر إلاّ فيما يجب وصارت مفكرة في كيف يكون حالها في الموت وشدائد آلامه والقبر وأهواله والنار الكبرى وأهوال القيامة ويفكر في أعمالها السوء وما هي عليه فتلوم نفسها وتنكسر فتصير لوامة بعد أن كانت أمارة وذلك من رحمة الله بها في قوله: ﴿إِلاَّ مَا رَحِمَ رَبِّي﴾[١].

ولولا الرحمة بها ما زالت عن الأمر بالسوء أبداً لأنه طبعها.

فلا شيء أعون على صماتها وإسكاتها من النظر بالإيمان في المؤمنات وذلك ليس فيه بُعد مسافة وإنما هو نظر بالإيمان في المؤمنات، والإنسان حيث كان قائماً أو جالساً أو مضطجعاً يدرك ذلك كله من مقامه ويرى كيف يخاطب كل شيء في الغيب بلسان الحال وهو صامت ألم تسمع إلى قول المصطفى عليه الصلاة والسلام حيث قال: «تركت فيكم واعظين ناطق وصامت فالناطق القرآن والصامت الموت».

فهذا متكلم وهو صامت فيقول لك: أنا الناقل لك عن هذه الدنيا الفانية إلى الدار الباقية، وأنا الذي أحول بينك وبين أهلك وجيرانك وأصحابك ومالك ودارك وأهلك[٢]، وبيك وخدمك ومراكبك وجسدك ولا أراعي شيئاً من ذلك بل آخذك أحببت أو كرهت فاستعد لي فإني مستعد لك. ألست هاذم اللذات، ومفرق الجماعات ومهلك الأولين

(١) سورة يوسف (الآية: ٥٣).

(٢) تكررت قبلها بأربع كلمات فقط.

والآخرين ومبيد كل جسد/ ذي روح من طير في هواء أو حوت في بحر أو وحش برّي أو [١٢٠/ أ] حيوان إنسي؟

فانظر لنفسك فلا تظن أني أتركك ولو تركت أحداً لتركت الأنبياء وأهل الكرامات على الله.

فانظر لنفسك يا مسكين فقد مات سيد الأولين والآخرين محمد عليه الصلاة والسلام فكيف تطمع بالخلد يا نفساً مسكينة بخواطرك الكاذبة وليس في الدنيا من يخلد.

وكذلك يخاطبه القبر وهو صامت: أنا بيت الدود أنا بيت الغربة أنا بيت الوحشة أنا بيت الظلمة فانظر ما أقول لك إن كان حقاً أم لا.

ألست تصير فيّ غريباً عن كل ما نقلك الموت منه إليّ؟ ألست ترى ظلمتي كيف التراب تحتك وفوقك ويمينك وشمالك ومن كل جوانبك؟

ألست ترى كيف يصير جسدك قيحاً وصديداً ونتناً ودوداً؟ ألست ترى وحشتك فيّ حين أسلمك الخلق كلهم ولم يشتغلوا بك ولا أقبلوا عليك بل انصرفوا وتركوك وأسلموها؟

ألست ترى ضيقي هل رأيت قط بيتاً على هذه الصورة لا تجد من أين تنصرف يميناً ولا شمالاً؟ وصدقني يا مسكين فإن كل ما قلت لك حق واستعد لي بما يؤنسك فيّ وما يُوسعني عليك وما يكرمك فيّ ولا يهينك. هكذا إلى ما لا يحصى من كلام الحال.

وهكذا تقول لك النار في الغيب: قد عظم عذابي وكثرت آلامي فما أعظم سلاسلي وأغلالي وظلمة أهوالي وأنكالي، وما أشد حري وغضبي وما أكثر زقومي وغسليني وما أعظم ما أعددت لمن يدخلني، فانظر لنفسك واطلب النجاة مني.

وكذلك تقول الجنة: قد كثر حريري وطاب نعيمي وجرت مياهي وأنهاري وجل عن الوصف قدري فطوبى لمن حل بي فانظر يا مسكين أن لا تصرف/ عني. [١٢٠/ب]

وكذلك الصراط وجميع الأهوال مخاطبة كل أحدٍ من مقامه بلسان الحال بأنواع من الكلام وضروب من العلوم المصمتة للنفس الأمّارة المسكتة لها لو تتبعت لكان فيها أسفار من الحكمة.

وإذا أقبلت النفس على ذلك وصغت إليه واستمعت له انكسرت عن محادثة إبليس وصمتت عن خواطرها المذمومة ورجعت تتكلم باللآئمة على نفسها وكيف يكون حالي في تلك الأهوال العظام مع ضعفي وقلة حيلتي ثم ترجع إلى ربها فتسأل منه الرحمة وتحسن

التوبة فحينئذ يكون لها وصف من الأوصاف المحمودة فإن رجعت إلى الحديث في أمور دنياها وتكلمت في ذلك بالفكر فيما لا بد منه وهي منكسرة فيكون حديثها طاعة إذ كان معيناً للآخرة وهذا حال العبد في مقام الإيمان ومشاهدة المؤمنات المغيبات المسكنة عن الفكر في المحظورات والأماني الكاذبة المسؤولات.

فصـــل

وأما المقام الثالث من الصمت والعي في مقام الإحسان: فإنه إذا نظر العبد في مقام المشاهدة وشاهد العقل والسر فرق ما بين قدر الخلق والخالق وشرف الباري سبحانه وفضله على سائر المخلوقات امحت الأذكار سوى ذكره وصمتت الأسرار عن ذكر شرف سواه مع ذكر شرفه وقال الله تعالى: ﴿لَقَدْ أَنزَلْنَآ إِلَيْكُمْ كِتَابًا فِيهِ ذِكْرُكُمْ﴾[1].

أي شرفكم، فإذا لاح شرف قدر الباري للعقول لم يذكر قدر مع قدره ولا شرف مع شرفه وامتلأ السر بذكره وصمتت عن ذكر ما سواه ونسي باستيلاء تعظيم ذكره ذكر سواه وربما ارتفعت همم أقوام في هذا المقام عن ذكر الذكر غيرة/ أن يذكر مع المذكور الشريف القدر سواه فيغيب عن ذكر الذكر في الذكر شغلاً بالمذكور الأجل والشريف الأرفع جل جلاله وتعالى عُلاه وشأنه. [١٢/ أ]

وفي هذا المقام كان علي رضي الله عنه يصفرّ وجهه عند الوضوء لأنه كان يأخذ في التأهب للدخول على المذكور العظيم في مقام الإحسان عند الصلاة ألاَ تسمعه يقول: ﴿إِنَّ الصَّلَوٰةَ تَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَآءِ وَالْمُنكَرِ﴾[2] ثم قال: ﴿وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ﴾[2].

أي في الصلاة أكبر من الصلاة وغيرها، وهكذا في جميع أنواع الطاعات صلاة أو غيرها.

ألا ترى إلى قول الصديق رضي الله عنه: من ذاق شيئاً من خالص محبة الله أنساه ذلك ما سواه. هذا لأن ذكر جمال الله أصمت عن ذكر ما سواه من جميل وغيره.

أولاً ترى إلى حال عثمان رضي الله عنه في مقام الإحسان وحضوره فيه كيف يستحي وينقبض حتى لا يرفع طرفه.

أولا ترى إلى مقام عمر رضي الله عنه وهجيراه الله أكبر حين كبر قدر الله عنده فكان يشاهد الأشياء صغيرة في جنب كبرياء الله فكان يقول: الله أكبر.

---

(١) سورة الأنبياء (الآية: ١٠).
(٢) سورة العنكبوت (الآية: ٤٥).

أولا تسمع إلى قول النبي عليه الصلاة والسلام للصحابة حين نسي آية من الفُرقان فسألهم عنها فلم يجيبوه فقال: «أفيكم أُبيّ؟..» الحديث إلى قوله لهم: «ما بال أقوام يتلى عليهم كتاب ربهم..» الحديث إلى قوله: «هكذا أُخرجت عظمة الله من قلوب بني إسرائيل».

إنما جرى هذا كله من أجل أن الأسرار لم تصمت في مقام الحضور الذي هو الإحسان ولا أنصتت في موضع الإنصات وإن كانت الألسن قد أنصتت فلم ينفع ذلك الإنصات شيئاً إذ المعول على إنصات السر إلى كلام الرحمٰن قال الله تعالى: ﴿وَإِذَا قُرِئَ ٱلْقُرْآنُ فَٱسْتَمِعُوا/ لَهُ [١٢١/ ب] وَأَنصِتُوا﴾[1].

وقد وصل الأمر في هذا الصمت الروحاني الباطن بالصديق إلى حدّ عظيم وعدوه من أكبر الأشياء عليهم مثل الحديث الصحيح الذي ورد في الصحابي حين رأى الطائر الدّبسي في الصلاة فتصدق بالحائط كفارة لذلك الفكر.

وكذلك عبد الرحمٰن بن عوف تحدثت نفسه في صلاة الليل بأمور التجارة التي كان أرسل بها إلى الشام فاشتغل حتى لم يدرِ ما كان فيه فتصدق بالعير كلها وأحمالها وبضائعها فكان ذلك آلافاً كثيرة.

فانظر هذا الصمت كيف هو عند الرجال الأكابر.

وقد ورد في الصحيح في هذا المعنى كثير من ذلك حديث ما يقطع الصلاة؟ فورد أن رسول الله ﷺ قال: «إذا صلى أحدكم إلى غير سترة فإنه يقطع صلاته المرأة الحائض والكلب»[2].

وفي رواية أخرى: «الحمار والخنزير واليهودي والمجوسي والمرأة».

وورد أنه لا يقطع الصلاة شيء والمار هو الخاطر.

وقد نسخ وترك العمل بقطع الصلاة في الظاهر بالحديث الآخر الذي قال فيه: «لا يقطع الصلاة شيء»[3]. وبقي حكم الآخر في الباطن عند الراسخين في علم الناسخ والمنسوخ.

---

(١) سورة الأعراف (الآية: ٢٠٤).

(٢) أطرافه عند: الترمذي في الجامع الصحيح (٧٠٤)، البيهقي في السنن الكبرى (٢/ ٢٧٥)، التبريزي في المشكاة (٧٨٩)، الذهبي في الميزان (٧٢٢٩).

(٣) أطرافه عند: البيهقي في السنن الكبرى (١/ ٢٢١)، (٢/ ٢٧٨)، أحمد في المسند (١/ ١٣٨)،=

فإن المار كما تقدم هو الخاطر والخاطر الذي يخطر في حين الصلاة في باطن العبد بالحديث في المرأة التي هي الإنسانية، والمرأة الدنياوية، والخاطر الذي يكون في الكَلْبِ الحرصي، والخاطر الحماري الذي قام بالإقبال على غير الله في الصلاة والجاهل بالمقام الذي هو فيه، أو الخاطر الشبق الخنزيري في الجماع في تلك الحال، أو الخاطر المجوسي الذي يولد العجب في الصلاة برؤية الأفعال واستحسانها من النفس كما ورد في أن القدرية مجوس/ هذه الأمة، وإنما كانوا مجوساً بإضافة الأفعال إلى أنفسهم. [١٢٢/ أ]

والحديث مع هذه الخواطر كلها وترك الصمت عنها يقطع الصلاة بلا خلاف عند الجميع ـ أعني أنه لا يكتب له منها ما قطعت هذه الخواطر منها ـ فلا يكتب له إلا عشرها تسعها ثمنها. الحديث إلى آخره، وإنما يكتب له منها ما حضر فيها مع الله ولذلك تجبر الصلوات بالتطوع إذا كانت ناقصة هذا النقصان وغيره.

فالصمت في مقام الإحسان عن الحديث مع غير الله من أوجب الواجبات والتوبة والاستغفار من ترك الصمت فيه من أوجب الواجبات وقتاله ودرأه واجب كما ورد في الحديث «فليقاتله فإنه شيطان».

ولكل حديث ظاهر وباطن كما للآيات، فإن نسخ الحديث ظاهراً بقي حكمه باطناً فإن الباطن محكم كله[1].

واعلم أن قلة الصمت من العباد في هذا المقام إنما هو من قلة العلم بالله وقلة الحياء منه فنقصت الخشية بقلة العلم فبقيت النفس حيّة فإذا ذكر القلب والسر لله تحدثت النفس مع خواطرها وأقبلت على غيره ولو كان السر عالماً بقدر شرف المذكور الذي هو قائم بين يديه وحاضر معه لاستحال أن يتحدث مع غيره وصمت بالأدب بين يديه كما يصمت بين يدي ملك من ملوك الدنيا حياءً منه وخشية كما يصنع أهل الخشية، والحياء مع الله في مقام الحضور الإحساني[2].

= الدارقطني في السنن (١/ ٣٦٧)، الطبراني في الكبير (٨/ ١٩٣)، ابن أبي شيبة في المصنف (١/ ٢٨٠)، الزيلعي في نصب الراية (٢/ ٧٦)، ابن الجوزي في العلل المتناهية (١/ ٤٤٩).

(١) هذا القول ليس عليه دليل من الشرع إذ لا يحل الصلاة لغير القبلة ولا نكاح أكثر من أربع ولا زواج متعة ولا شرب خمر بعد أن بيّن الشرع حرمة ذلك، فافهم.

(٢) جاء بالهامش تعليق على هذا نصه: يناسب هذا المقام قول سيدي أحمد الرفاعي رحمه الله: أقل ما في الكلام سقوط هيبة الرب من القلب. فاعتبره تجده موافقاً للمقامات الثلاثة أعني مقام الإسلام بصمت اللسان والجوارح، ومقام الإيمان بصمت النفس، ومقام الإحسان بصمت (. . .) [سقط بعض الكلام من الأصل لصغر القلم] الواحد الغفار. فتأمل ذلك وتحققه تكن من الأبرار وتظهر لك الأسرار أفاض الله علينا الأنوار. اهـ.

وقد ورد في الخبر: «ما تجلى الله لشيء إلا خشع له».

وقد ورد في صفة قوم في الآثار وصفوا فيها بالخشية والصمت في هذا المقام فقال في بعضها: إنهم قوم أسكتتهم خشية الله وإنهم لهم الفصحاء البلغاء.

وهؤلاء هم الذين اتصفوا بالعي بين يدي مليكهم فتعايا ألسنتهم وجميعهم/ بالأدب [١٢٢/ ب] إنصاتاً للحكيم العليم واستماعاً له وكذلك أحوالهم في جميع المقامات.

ألم تسمع إلى وصف النبي للمحب عليه الصلاة والسلام في مقام الحب: «حبك الشيء يعمي ويصم»[(١)].

وهذا هو وصف الصامت بالحقيقة لأنه إذا أقبل على محبوبه ولم يسمع إلى سواه فقد صمت عن الحديث مع غيره.

ولعل معترضاً يعترض فيقول: إن النبي عليه الصلاة والسلام كان يسهو في الصلاة في هذا المقام وينسى ليسن.

فشتان ما بين الحالتين ونسيان النبي [ﷺ] إنما كان حضوراً لأن قرة عينه كانت في الصلاة فقد يكون النسيان لأركان الصلاة وهيأتها من كثرة الحضور مع الله والإقبال على كلامه والتفهم وقد وصل كثير من التابعين والمتأخرين في هذا المقام إلى حدٍّ عظيم من النسيان للخلق فكيف بالمصطفى عليه الصلاة والسلام الذي لا يقربه شيطان ولا يحضره ولا يحضر مكاناً فيه شيطان.

ولقد كان الشيطان يَفْرَقُ من ظل عمر ويخافه ويسلك فجاً غير فجه إذا رآه فكيف بالنبي عليه الصلاة والسلام.

فالحضور في مقام الإحسان في الصلاة أو غيرها لا يصح إلاّ بالصمت الروحاني وقطع الأصوات الخفية لأن الأصوات مشوشة مشتغلة حينئذ إذا انقطعت فيكون متى[(٢)] نظر إلى الوجود كله رآه صامتاً بين يدي مليكه لا يقبل على أحد بالكلام معه لا ينطق إلا بلسان الحال الذي هو أفصح من لسان المقال ولسان الحال صاحبه لا يتكلم بلسان المقال إلاّ مع مكلمه إذا أمره سبحانه وإذا أنطقه.

فكذلك ينبغي أن يكون العبد في مقام الإحسان واحداً من تلك المخلوقات الصامتة

---

(١) أطراف الحديث عند: أبي داود في السنن (٥١٣٠)، أحمد في المسند (٥/ ١٩٤)، الخطيب في تاريخ بغداد (٣/ ١١٧)، العجلوني في كشف الخفا (١/ ٤١٠)، ابن الجوزي في تذكرة الموضوعات (١٩٩).

(٢) جاءت في الأصل: منا. وهو تحريف.

[١٢٣/ أ] فمتى التفت إلى مخلوق منها إلى جانبه أو أي مكان نظراً ظاهراً وباطناً/ رآه صامتاً وقال له صمته بلسان الحال: اصمت كصمتي بين يدي مليكك.

فهناك ناطقته البرايا كلها وهي صامتة فعلمته وتأدب بها وكان كأحدها وحصل له مقام الصمت الدائم فاستوى عنده الحضر والبادية والخلاء والملاء لأنه لا يجد في العالم موضعاً ليس فيه مخلوق ولا يجد موضعاً خالياً من الخلق بوجه ولا مغرز إبرة فإن الهواء أعظم المخلوقات الذي يتوهمه الناس خلاء والمخلوقات كلها كما تقدم صامتة متكلمة بلسان الحال للناظر فيها معلمة له الصمت فلا يرى خلقاً إلاّ هكذا ولا يرى في كل شيء إلاّ الله بالدلالات عليه ولا يسمع إلا التنبيه عليه والإشارة بالأدب والصمت بين يديه ولا يرى إلاّ المسبحين له بلسان الحال الذاكرين له الساجدين له القانتين الخاشعين الصامتين بالهيبة فلو وقع بصره على ما وقع في هذا المقام في أي مكان لم ير إلاّ حاضراً متعبداً له بالأحوال الشريفة متأدباً بالصمت في مقام الحضور.

وقد عبر سهل بن عبد الله فقال رضي الله عنه عن حاله الكريمة في هذا المقام فإنه كان إماماً عظيماً وصديقاً عليماً نفعنا الله بحبه وحب أمثاله آمين. فقال رضي الله عنه: إن لي أربعين سنة أكلم الله والناس يظنون أني أكلمهم.

وإنما كان هذا لأنه تحقق في مقام الصمت وثبت فيه ورسخت قدمه فيه فلم يزل عنه.

نسأل الله الكريم أن يلحقنا بعباده الصالحين ولا يجعل حظنا من أوصافهم وصفهم. آمين.

وصلى الله على محمد وآله وسلم(١).

الشعبة السادسة والعشرون: الغيـرة

[١٢٣/ ب] أما كونها من الإيمان فقد روى أبو هريرة أن رسول الله صلى الله عليه/ وسلم قال: «إن الله تعالى يغار وإن المؤمن يغار»(٢).

---

(١) جاء بالهامش عبارة: بلغ مقابلة. مما يفيد مقابلة المخطوط على الأصل المنقول عنه.

(٢) أطراف الحديث عند: البخاري في الصحيح (٧/ ٤٥)، مسلم في الصحيح (التوبة ٣٦)، الترمذي في الجامع الصحيح (١١٦/١)، أحمد في المسند (٢/ ٥٢٠)، البيهقي في الكبرى (١٠/ ٢٢٥)، في الأسماء والصفات (٤٨٢)، التبريزي في المشكاة (٣٣١٠)، الزبيدي في الإتحاف (٥/ ٣٦٠).

فنسب الغيرة إلى الإيمان بقوله: «إن المؤمن يغار».

روى مسلم والبخاري عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «استمعوا ما يقول سيدكم». يعني سعد بن عبادة قالها للأنصار في قصة سعد فيمن وجد مع امرأته رجلاً: «إنه لغيور وأنا أغير منه والله أغير مني». فجعل الغيرة من صفات الله، وصفات رسوله وصفات المؤمنين، والأخبار فيها كثيرة.

واعلم أن الغيرة على معنيين: ظاهر وباطن.

فأما الظاهر منها: فالغيرة على الحريم وهي على نوعين: محمود ومذموم.

فالمحمود منها: الغيرة في الريبة وسدّ الذّرائع الموجبة للريبة فإن ذلك يؤدي إلى العفة عن المحرمات ولذلك ورد في الديوث من الشدة ما ورد لفقد الغيرة منه.

وتفسير معنى الغيرة هو: كراهة مشاركة الغير.

وأما المذموم منها: فالغيرة في غير ريبة ومن الناس من يقوى فيه هذا حتى يكون بلاء على أهله ويلهمهم ما لم يكن أهله يعرفونه.

روى جابر بن عتيك أن رسول الله ﷺ كان يقول: «من الغيرة ما يحب الله ومنها ما يبغض الله: فأما الغيرة التي يحبها الله فالغيرة في الريبة، وأما التي يبغضها الله فالغيرة في غير ريبة».

والفرق بين الغيرة المذمومة والمحمودة أن المحمودة حفظ الحريم عن أسباب التبهرج والخروج بالثياب المزينة إلى المواضع التي فيها ينظر إلى المرأة فتميل النفوس إليها وهي بتزينها وتطيبها ومشيها هذه كلها أسباب مذمومة والمنع من هذا حسن محمود.

وورد في وصفهن في الحديث: «نساء كاسيات عاريات مائلات مميلات لا يدخلن الجنة ولا يجدن ريحها وإن ريحها ليوجد من مسيرة/ خمسمائة عام»[1]. [١٢٤/ أ]

ومن أجل ذلك حرم الحمام على المرأة إلا لمريضة أو نفساء لأنها تهتك سترها بانكشافها في غير منزلها.

وأما إذا خرجت المرأة فيما لا بد منه من حوائجها مبتذلة مختصرة الثياب مختفية في مشيها فقد أباح الشرع ذلك.

(١) أطراف هذا الحديث عند: مسلم في الصحيح (اللباس رقم ١٢٥)، (الجنة ب ١٣ رقم ٥٢)، البيهقي في السنن الكبرى (٢/ ٢٣٤)، مالك في الموطأ (٩١٣)، أحمد في المسند (٢/ ٣٥٦)، البغوي في شرح السنة (١٠/ ٢٧١)، المنذري في الترغيب والترهيب (٣/ ٩٥).

وروت عائشة رضي الله عنها قالت: خرجت سودة زوج النبي ﷺ بعدما ضرب علينا الحجاب لحاجتها ـ وكانت امرأة جسيمة طوالاً تفرع النساء لا تخفى على من يعرفها ـ فرآها عمر بن الخطاب رضي الله عنه فقال: يا سودة أما والله ما تخفين علينا فانظري كيف تخرجين. قالت: فانكفأت راجعة ورسول الله في بيتي وإنه ليتعشى وفي يده عرق فدخلت فقالت: يا رسول الله إني خرجت لبعض حاجتي فقال لي عمر كذا وكذا. قالت: فأوحي إليه ثم رفع عنه وإن العرق في يده ما وضعه فقال: «إنه قد أذن لكن أن تخرجن لحاجتكن»[١].

والحديث: «نعم النساء نساء الأنصار لم يمنعهن الحياء أن يتفقهن في الدين»[٢].

وقد أذن للمرأة أن تسأل عن دينها إذا لم يكن من يغنيها وأبيح لها الخروج إلى الصلاة في المساجد وإلى المصلى في الأعياد ولكن على شرط ما وصفه الله في قوله تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ قُل لِّأَزْوَٰجِكَ وَبَنَاتِكَ وَنِسَآءِ ٱلْمُؤْمِنِينَ يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِن جَلَـٰبِيبِهِنَّ ذَٰلِكَ أَدْنَىٰٓ أَن يُعْرَفْنَ فَلَا يُؤْذَيْنَ﴾[٣]

فأمرهن بالتستر بالجلابيب وأن لا يعترضن بأنفسهن لأن يعرفن: ﴿وَٱللَّهُ يَعْلَمُ ٱلْمُفْسِدَ مِنَ ٱلْمُصْلِحِ﴾[٤].

وقالت عائشة رضي الله عنها: يرحم الله نساء المهاجرات الأولى لما نزلت: ﴿وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَىٰ جُيُوبِهِنَّ﴾[٥] شققن مروطهن فاختمرن بها. وقالت: أخذن أزرهن فشققنها من قِبَل الحواشي فاختمرن[٦] بها.

[١٢٤/ ب] وأما/ الباطن فعلى ضربين: ضرب في مقام الإيمان، وضرب في مقام الإحسان.

فأما الضرب الأول في مقام الإيمان وعالم النفس: فإن النفس الأمارة بالسوء مؤنثة مطبوعة على أكثر معاني النساء وإذا لم يكن لها عاقل زاجر طلبت التبرج بمحاسنها والتزين بصفاتها وأفعالها والركون إلى إبليس فزينها فاصطحبت معه وقبلت وحيه فكانت غيبة سرّه ومعدن وحيه كالمرأة السوء الذي لا يقدر زوجها على حبسها إذا كان قليل القوة وكانت أقوى منه فتكون هي المالكة له تفعل ما تهوى وهو المملوك يجري في أغراضها ولا يقدر على

(١) أطرافه عند: البخاري في الصحيح (٦/ ١٥٠)، مسلم في الصحيح (السلام ١٧)، السيوطي في الدر المنثور (٥/ ٢٢١)، ابن كثير في البداية والنهاية (٣/ ٢٢)، في التفسير (٦/ ٤٤٤).

(٢) أطرافه عند: البيهقي في السنن الكبرى (١/ ١٨٠).

(٣) سورة الأحزاب (الآية: ٥٩).

(٤) سورة البقرة (الآية: ٢٢٠).

(٥) سورة النور (الآية: ٣١).

(٦) في الأصل: فاحتزمن.

ردّها وهذه صفة النفوس الرديئة الغالبة للعقول الضعيفة.

وقد نبَّه عليه الصلاة والسلام على هذا المعنى في قوله: «الهوى والشهوة يغلبان العقل والعلم والبيان».

فأهل القوة العارفون بركاكة النفوس غارت عقولهم للّه على نفوسهم فملكتها العقول بزمام القهر وساستها بسياسة الحفظ فكانت النفوس مملوكة والعقول مالكة قائمة عليها بما أمر الشرع القيام به، قال الله تعالى: ﴿ٱلرِّجَالُ قَوَّٰمُونَ عَلَى ٱلنِّسَآءِ بِمَا فَضَّلَ ٱللَّهُ بَعۡضَهُمۡ عَلَىٰ بَعۡضٖ﴾[1].

وقد ورد في الخبر عن النبي عليه الصلاة والسلام في شرح ما يؤدي هذا المعنى فقال في خبر فيه طول يذكر فيه شرف العقل: «لكل قوم راع وراعي العابدين العقل ولكل أهل بيت قيم وقيم بيوت الصديقين العقل».

فهذه رعاية باطنة للنفوس وذواتها وبيوت غائبة تحفظها العقول برعايتها لأن قوله عليه الصلاة والسلام: «لكل قوم راع» قد عم به الرعاية الجسمانية كلها في حق كل أحد، وقوله: «لكل أهل بيت قيم» عام أيضاً في البيوت الظاهرة كلها التي تسكنها الأجساد فإذا غار العقل للّه تعالى على نفسه وحمل النفس على ما أمر به كانت/ النفس صالحة قانتة حافظة للغيب [١٢٥/ أ] لأنها ساكنة في الغيب بما حفظ الله فلم يصدر منها فعل إلا بما يحب الله.

وتقوى هذه الغيرة في العارفين وتتحكم هذه الرعاية فيهم فمنهم من يغار أن يخرج نفس من أنفاسه لغير الله تعالى أو لغير ذكر الله لأنه ورد في الخبر: «ما قعد قوم مقعداً لم يذكروا الله فيه ولم يصلوا على النبي ﷺ إلاّ كان عليهم حسرة يوم القيامة»[2].

فكيف إذا كانت في معاصي الله فأهل العقل غاروا على أعمارهم أن تمضي أعمارهم ضائعة في غير طاعة الله أو خالية من ذكر الله فيخسرون ما لا درك له ولا خلف منه وهذه غيرة يا لها من غيرة لا توجد إلاّ في الذكور من الرجال وفيهم تحققت صفات الرجولية كما أثنى الله عليهم بها في قوله: ﴿رِجَالٞ﴾ وأي رجال ﴿لَّا تُلۡهِيهِمۡ تِجَٰرَةٞ وَلَا بَيۡعٌ عَن ذِكۡرِ ٱللَّهِ وَإِقَامِ ٱلصَّلَوٰةِ وَإِيتَآءِ ٱلزَّكَوٰةِ يَخَافُونَ يَوۡمٗا تَتَقَلَّبُ فِيهِ ٱلۡقُلُوبُ وَٱلۡأَبۡصَٰرُ﴾[3].

---

(١) سورة النساء (الآية: ٣٤).

(٢) أطرافه عند: الهيثمي في مجمع الزوائد (١٠/ ٧٩)، الزبيدي في إتحاف السادة المتقين (٥/ ٩)، المنذري في الترغيب (٢/ ١٤٠)، الألباني في الصحيحة (٧٦)، أحمد في المسند (٢/ ٤٦٣).

(٣) سورة النور (الآية: ٣٧).

وقد أثنى عليهم أيضاً بالرجولية في آية أخرى فقال: ﴿رِجَالٌ صَدَقُواْ مَا عَاهَدُواْ ٱللَّهَ عَلَيْهِ﴾[1] إلى آخر المعنى.

ولعمري إن الرجل ليشيب عَارضاه وما يستحق الثناء بالرجولية لظهور النفس عليهم وقلة الروحانية العقلية فيهم.

اللهم فهمنا عنك ووفقنا للعمل يا أكرم الأكرمين.

وأما الضرب الآخر في الباطن من الغيرة في مقام الإحسان: فهو مقام من المعرفة يغارون عليه منه وهو مقام شريف لا يتكلم فيه إلاّ الصديقون والمقربون، ومن ذلك قول أبي يزيد البسطامي رضي الله عنه حين قال له يحيى بن معاذ[2]: هلاّ سألته المعرفة به؟ فقال له: ويحك غرت عليه من أن يعرفه سواه.

وغير ذلك من الأحوال التي لا يصلح كشفها من أسرار المعرفة التي أمر بصيانتها [١/ ب] وسترها في مقام الإحسان/ عن جميع الخلقان.

ومن ذلك مقام الصديقين من كتمان السرائر عن غير أهلها وهؤلاء المتكلمون (. . .)[3] هم أهل الكشوفات والكرامات كما قال بعض أهل المعرفة: لا يطلع على سرائر الملك إلاّ الأمين لأن كشفها لأهل غيرها إضاعة.

فالغيرة (. . .)[3] وصيانتها كصيانة الحريم من صفات الرجولة وأهلها من قرب مقاماتهم أو كان منهم.

فكما أباح الشرع رؤية القرابة بعضهم لبعض ولا يحل ستر حريم عنهم كالأخ مع أخته وأمه وبنيه والعم وغير ذلك فكذلك أيضاً هذه القرابة الأخرى وقد أمر النبي عليه الصلاة والسلام بهذا في قوله: «ولا تؤتوا الحكمة غير أهلها فتظلموها ولا تمنعوها أهلها فتظلموهم».

لأن للصديقين مع الله أسرار وكشوفات لا تحتملها عقول أكثر الخلق كما قال النبي

---

(١) سورة الأحزاب (الآية: ٢٣).

(٢) هو: أبو زكريا يحيى بن معاذ بن جعفر الرَّازي، الواعظ، الزاهد المتوفى سنة (٢٥٨)، قال الذهبي في سيره (١٣/ ١٥): من كبار المشايخ له كلام جيد ومواعظ مشهورة، وعنه قال: لست أبكي على نفسي إن ماتت إنما أبكي على حاجتي إن فاتت. قلت: وله كتب منها: كتاب المريدين. انظر ترجمته في: ديوان الإسلام (٢٢٠٨)، تاريخ بغداد (١٤/ ٢٠٨)، المنتظم (٥/ ١٦).

(٣) في موضع كل نقط كلمة واحدة غير مقروءة.

عليه الصلاة والسلام: «لا تحدثوا الناس بما لا تدرك عقولهم أتحبون أن يكذب الله ورسوله»[١].

وذكر بعض من ينتمي إلى المحبة مقاماً منها عند بعض الأشياخ فقال له بعد كلام طويل: هل رأيته في ليلة مرتين وثلاثاً؟ فقال: لا. فقال: لولا أني أستحي لأخبرتك أن محبتك معلولة تهتم بسوى حبيبك ولا تراه في ليلك، ثم قال: لكنّي لا أدعي محبته وعلى ذلك ما اهتممت بسواه منذ عرفته وربما رأيته في ليلة سبع مرات.

وقال بعض الأبدال: رأيت الله مائة وعشرين مرة وسألته عن سبعين مسألة أظهرت منها أربعة فأنكرها الناس عليّ فأخفيت الباقي.

فلأجل هذا كانت غيرة أهل الكمال وبخلهم بالأسرار لئلا تظهر للأجانب لا على الأهل لها والأقارب.

واعلم أن الولي من العامة هو الحريص على أخبار الأولياء الذي إذا سمع حقاً لهم لم ينكره ولا يعترض عليه/ بقول ولا عقل بل يحرص عليه ويموت نفسه شوقاً بالكمد إليه [١٢٦ والولي من الخاصة الذي يفيد ويستفيد ويجد في أحواله وعلوماته وكرامته الزيادة والمزيد[٢].

اللهم ارزقنا حُبّك وحبهم وأعطنا مما أعطيتهم يا كريم.

[فصـــل]

وأما غيرة الباري سبحانه فقد فسرها النبي عليه الصلاة والسلام في قوله: «إن الله تبارك وتعالى يغار»[٣].

وغيرة الله ألا يأتي المؤمن ما حرم الله عليه، ومن غيرة الحق سبحانه حجابه الأجانب والأباعد عن مواطن القرب منه قال الله تعالى: ﴿وَإِذَا قَرَأْتَ ٱلْقُرْآنَ جَعَلْنَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْآخِرَةِ حِجَابًا مَّسْتُورًا﴾[٤].

---

(١) أورده الزبيدي في الإتحاف (٢/ ٦٧).

(٢) هذا غيض من فيض من أقوال غلاة الصوفية عفا الله عنا وعنهم وهدانا وإياهم إلى الصراط المستقيم وجنبنا وإياهم الهوى وغوايات الشياطين وتلبيس إبليس اللعين. اللهم آمين اللهم آمين اللهم آمين.

(٣) سبق تخريج الحديث أول الشعبة.

(٤) كل مؤمن ولي الله سبحانه وتعالى فلا يعد مؤمن وهذا الاستدلال في غير موضعه تماماً إذ هو وصف لغير المؤمنين الذين هم الكافرون قطعاً ولا شك في ذلك ومن شك في ذلك فليراجع إيمانه ونسأل الله السلامة، والآية من سورة الإسراء ورقمها (٤٥).

قال سري السَّقَطي: هذا حجاب الغيرة فلا أحد أغير من الله.

ومن غيرة الحق على الأكابر فإنهم إذا ساكنوا شيئاً سواه أو لاحظوا غيره شوش عليهم وامتحنهم حتى يصفي أسرارهم كما فعل بيوسف عليه السلام حين قال: ﴿لِلَّذِي ظَنَّ أَنَّهُ نَاجٍ مِّنْهُمَا اذْكُرْنِي عِندَ رَبِّكَ﴾(١). أي عند ملك مصر. ﴿فَلَبِثَ فِي السِّجْنِ بِضْعَ سِنِينَ﴾(١). من أجل ذلك.

وآدم عليه السلام لما وَطَّن نفسه على الخلود في الجنة والطمأنينة بها أخرج منها.

وإبراهيم عليه السلام لمّا أعجبه إسماعيل ابنه أُمر بذبحه.

وقال بعض المشايخ: رأيت بعض الأولياء بفردِ عينٍ فسألته فقال: نظرت مرة إلى شاب نظرة بعيني فإذا كف من الهواء قد لطمني فطارت عيني كما ترى فسمعت صوتاً يقول لطمة بنظرة وإن زدت زدناك.

وإنما ذلك من أجل كبر أقدارهم عنده ولو أن أقرب الناس إليك وأحبهم عندك من ولد صغير وما أشبهه رأيته يفعل بنفسه فعلاً يضره ويهلكه لغارت نفسك عليه وضربته وأغلظت له في القول لأنه عزّ عليك هلاكه وضرّه.

[١٢٦/ ب] فما لنا لا نغار على أنفسنا التي هي أعز الأشياء/ علينا ونمنعها من مواطن الهلاك الأبدي ما هذا إلاّ من ضِعف غيرة الإيمان فينا وقلتها عندنا.

والغيرة إذا اعتبرتها وجدتها عامة في جميع العوالم ومقامات الإسلام والإيمان والإحسان كلها وفي جميع الأشياء لأنها شعبة عظيمة من شعب الإيمان وهي باقية في الدنيا والآخرة فإن الملك الكريم جبريل عليه السلام حين رمى بالطين في فم فرعون وهو قد غرق حين أراد أن يقول كلمة التوحيد وإنما فعل ذلك غيرة للّه من أجل تمرده على الله.

وكذلك غضب جهنم وتميزها من الغيظ إنما ذلك غيرة للّه على العصاة للّه، وكذلك الزبانية فيها.

وكذلك ورد أن الأرض تستأذن والسماء أن تخسف بمن عليها أو ترميهم بعذاب من فوقهم وإنما ذلك غيرة للّه.

وكذلك الجنة في الجنة الغيرة باقية فيها فإن كل أحد في ملكه قد حجبه عن غيره [غيرة](٢) عليه.

---

(١) سورة يوسف (الآية: ٤٢).

(٢) زيادة يتطلبها السياق.

فافهم قدر هذه الشعبة وغِرْ على نفسك للّه تعالى لعل الله يَغَارُ لك فيحميك من كل مكروه. مَنَّ الله علينا وعليك بما مَنَّ به على أوليائه وأصفيائه. آمين.

وصلى الله على محمد وآله وسلم.

الشعبة السابعة والعشرون: ترك ما لا يعني

أما كونه من شعب الإيمان فدليله الحديث المشهور: «من حسن إسلام المرء تركه ما لا يعنيه»[1]. فجعل ترك ما لا يعني من حسن الإسلام وحسن الشيء بعضه، ودليله الحديث: «من قبح إسلام المرء أخذه فيما لا يعنيه».

فناهيك بهذه الشعبة شرفاً إذا حسن الإسلام بوجودها فيه وقبح بفقدها منه.

وقيل للقمان الحكيم: ما بلغ بك ما نرى؟ يريدون الفضل. قال لقمان: صدق الحديث، وأداء الأمانة/، وتركي ما لا يعنيني. [١٢٧/]

وتفسير ما لا يعني هو الفضول كله على اختلاف أنواعه.

والناس يسمون من دَخَلَ فيما لا يعنيه: فضولياً.

فمن اشتغل بما لا يعنيه بفضول فاته ما يعنيه، فترك ما لا يعني هو الاشتغال بما أُمر العبد به والإقبال على ما يعود عليه نفعه ويثمر له فائدة في دنياه وآخرته وترك خلافه، وهذه صفة العاقل وضدها صفة الأحمق. كما ورد في الحديث الطويل الذي رواه أبو ذر عن رسول الله ﷺ فقال فيه: «وعلى العاقل أن تكون له ساعات: ساعة يناجي فيها ربه عز وجل، وساعة يحاسب فيها نفسه، وساعة يفكر في صنع الله عز وجل، وساعة يخلو فيها لحاجته من المطعم والمشرب، وعلى العاقل أن يكون ظاعناً لثلاث: تزود لمعاد، أو مرمة لمعاش، أو لذة في غير محرم، وعلى العاقل أن يكون بصيراً بزمانه، مقبلاً على شأنه، حافظاً للسانه، ومن حسب كلامه من عمله قَلَّ كلامه إلا فيما يعنيه»[2].

فالمشتغل بما لا يعنيه اسمه في لسان العلم: المتكلف.

---

(١) أطراف الحديث عند: مالك في الموطأ ط الشعب (١٦٢٩)، والترمذي في الجامع الصحيح (٢٣١٨)، ابن ماجة في السنن (٣٩٧٦)، أحمد في المسند (١/٢٠١)، الطبراني في الكبير (٢٨٨٦)، في الصغير (٢/٤٣)، الخطيب في تاريخ بغداد (٤/٣٠٩).

(٢) أطرافه عند: المنذري في الترغيب والترهيب (٣/١٨٩)، الزبيدي في إتحاف السادة المتقين (١٠/١٠٨)، العراقي في المغني عن حمل الأسفار (٢/٣١).

وقد أمر الله نبيّه أن لا يكون من المتكلفين فقال له: ﴿قُلْ مَآ أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ وَمَآ أَنَا مِنَ ٱلْمُتَكَلِّفِينَ﴾[1].

فما لا يعني هو ما لا يعود عليه فيه فائدة في دنيا أو آخرة، ومن اشتغل بما لا يعود عليه فيه فائدة فقد ظهر سفهه وقبح حاله.

واعلم أن ترك ما لا يعني على ضربين:

ظاهر في عالم الجسد ومقام الإسلام.

وباطن وهو على ضربين: ضرب في مقام الإيمان وعالم النفس، وضرب في مقام الإحسان وعالم الروح.

كما أن الإنسان ظاهر وباطن، وظاهر الإنسان هو جسده وجوارحه، وباطنه هو نفسه وروحه، وهو على ثلاث مقامات على عدد الذوات: الجسد، والنفس، والروح.

[١٢٧/ ب] فمن قعد بجسده مع البطّالين/ وسمع كلامهم بأذُنه ونظر إليهم بعينه وخاض معهم بلسانه ومشى إليهم برجله وأمزج جوارحه في خوضهم واشتغل بقيل وقال فقد عَمَّرَ جوارحه بما لا يعنيه في مقام الإسلام وتعدّى ذلك إلى قلبه في مقام الإيمان فإذ يفكر فيما يشتغل به جوارحه والأنفاس والساعات تمر عليه باطلاً، وربما جره ذلك إلى ما يعنيه تركه من المحرمات وترك الواجبات أو نقصها وترك الفضائل والرغائب والأغراض من مراقبة الله وما يعنيه من مقامات الإحسان فيلقى العنت.

ومن خدعته نفسه بأمانيها والشيطان وأغفلته عن التأهب للآخرة وأطاعهما بالفكر في الأماني وأودية الغرور فقد ترك ما يعنيه واشتغل بما لا يعنيه ظاهراً وباطناً في المقامات الثلاث. ومن شغل الباطن والظاهر بما لا يعني تعلُّمُه ما لا يهم العبد من العلوم وتركه ما هو أهم به.

فمن ترك العلم النافع الذي فيه إصلاح نفسه وأخذ في تعلم ما يصلح به غيره فيشتغل بعلم مجادلات الناس وخصوماتهم وهو لم يحكم إصلاح نفسه بعد ويقول في اعتذاره نيتي بتعلم العلم نفع الناس به. لو كان صادقاً لاشتغل بالأهم فإذا أصلح نفسه فحينئذ يطلب كيف يصلح غيره، وإصلاح نفسه وأهله فعل صلاح قلبه ورياضته على إخراج الصفات المذمومة المهلكة في الآخرة مثل: الحرص، والحسد، والحقد، والرياء، والكبر، والعجب، والترؤس على الأقران، والتطاول عليهم وجملتها تصل إلى مائة صفة مهلكة وأكثر.

---

(١) سورة ص (الآية: ٨٦)

ثم علم الصفات المنجية مثل: الصبر، والرجاء، والخوف، والخشية، والقناعة، والزهد، والرضى، والمحبة، والتواضع، والتوكل، والتوبة من القليل والكثير، والمراقبة، وغير ذلك من صفات القلب/ المنجية وجملتها أيضاً تصل إلى المائة. [١٢٨/ أ]

وهذه الصفات المهلكة والمنجية فهي كلها من نوع ما أخبر به النبي عليه الصلاة والسلام في قوله: «ثلاث مهلكات وثلاث منجيات: فأما المهلكات: فشح مطاع، وهوى متبع، وإعجاب المرء بنفسه، وأما المنجيات: فخشية الله في السر والعلانية، والقصد في الغنى والفقر، والعدل في الرضى والغضب»[١].

فالذي يشتغل بما لا يعنيه يترك باطنه مشحوناً بالمهلكات خالياً من المنجيات ويطلب إصلاح نفسه فيما يزعم، ولو كان صادقاً لأصلح نفسه ثم يطلب صلاح غيره كما فعل العلماء الصادقون من السلف الصالح، ولذلك ورد في الأثر:

لا يفتي الناس إلا: أمير، أو مأمور، أو متكلف.

فالتارك للأهم عليه من المعلوم وتعديه إلى غيره مشتغل بما لا يعنيه، وهذا إذا اعتبرته وجدته عاماً في جميع الأحوال والأعمال والمقامات الثلاثة.

والذين اشتغلوا بما يعنيهم هم أهل الوقت كما قالوا: المريد الصادق هو ابن وقته.

فالمريد للّه وللدار الآخرة رأى وقته ثلاث ساعات: ساعة قد مضت عنه في معصية وبطالة فيتوب إلى الله منها ويستغفر ويندم ويبكي عليها، وإما في طاعة فيشكر الله ويسأله القبول لها. وساعة هو فيها فيشتغل فيها بما يعود عليه فيها نفع في دينه وآخرته ولا تخلو هذه الساعة من ثلاث أحوال صالحة:

إما أن يكون فيها مشتغل بعلم ينفعه، أو عمل صالح يقربه إلى الله، أو مباح يستعين به على طاعة، وكل معين على طاعة.

وقد انخدع أكثر الناس في هذه الساعة من المباح فتراه أكثر النهار مشتغلاً بدنياه والحرص عليها وهو يقول: إنما أشتغل بهذا المباح ليعينني على الآخرة وهو منخدع بطلب التكاثر/ والفضول لو عقل. [١٢٨/ ب]

والساعة الثالثة: هي الآتية المستقبلة فالشغل بها والتدبير لها تضييع للحاضرة، فأما الصادقون المشتغلون بما يعنيهم فجعلوا الوقت كله للّه مباحاً كان أو غيره.

---

(١) أطرافه عند: أبي نعيم في الحلية (٢/ ٣٤٣)، الهيثمي في مجمع الزوائد (١/ ٩٠)، الزبيدي في إتحاف السادة المتقين (٨/ ١٩٢)، العجلوني في كشف الخفا (١/ ٣٨٦).

ومن ذلك ما ورد عن مالك بن أنس رضي الله عنه: أنه كان يسدّ أذنيه بالكرسف ولا يسمع كلام الناس فيحفظه فيشغله عما يعنيه لأنه رأى ذلك مما لا يعنيه، ذلك بشدّة حفظه.

وكان أبو بكر الصديق رضي الله عنه يضع حجراً في فيه لئلا يتكلم بما لا يعنيه.

والآثار عن الصادقين في هذا المعنى أكثر من أن تحصى وإيرادها يجر إلى التطويل وغرضنا الاختصار.

والذي يبين لك هذا الباب إن كنت صادقاً في عزمك أن تنظر جوارحك وقلبك فإن كان كل واحد منهما معموراً بما يعود عليك فيه فائدة في دينك وآخرتك ودنياك المحمودة المعينة لك على الآخرة فأنت مشغول بما يعنيك.

وإن كانت جوارحك وقلبك مشغولاً بما لا يعود عليك فيه فائدة في دينك وآخرتك ودنياك المحمودة المعينة على الآخرة فأنت مشغول بما لا يعنيك.

وها أنا أذكر لك صفة المشتغل بما يعنيه التارك لما لا يعنيه لتكون لك مرآة تنظر فيها بنفسك وهي صفة السلف الصالح رضي الله عنهم وذلك: أن يكون العبد مقبلاً على الخير مجانباً للشر مسارعاً لما أمر به ونُدب إليه إذا قدر عليه حزيناً على ما فات بريئاً من التكلف مصلياً للخمس في الجماعات إذا أمن الفتنة مجتنباً للغيبة ولذكر الناس طويل الصمت منفرداً بحاله عن الناس تاركاً للكثير من مجالستهم واجتماعهم خشية دخول الشبهات عليه وخوفاً من تغير قلبه/ فمن اجتمعت فيه هذه الخصال فقد حسن إسلامه وترك ما لا يعنيه فاتخذها مرآة تنظر فيها نفسك. [١٢٩/ أ]

وأما حقيقة شغل الباطن بما يعنيه فهو المعنى الذي وصفت عائشة رضي الله عنها به باطن رسول الله ﷺ فقالت في ذلك: كان رسول الله ﷺ كثير التفكير في تعرف الفاني من الباقي.

فهذا الوصف غاية الكمال في هذا الباب لا يُشغل الباطن والظاهر إلا بالذي هو أولى. والفاني والباقي الذي ذكرتهما يحتمل معنيين:

المعنى الواحد: أن الباقي هو الله جل جلاله، والفاني هو ما سواه.

فكان النبي ﷺ يعرف صفات بارئه من صفات مخلوقاته فيستدل بهذا على هذا، وبهذا على هذا، وهذه أعلى المراتب في الشغل بما يعني وهو مقام الإحسان، ومقام الروح.

والمعنى الآخر: أن الآخرة بما فيها باقية إلى الآباد والدنيا فانية.

فكان يعتبر الدنيا وزوالها، وكان يعتبر الآخرة وبقاءها فيزهد في الفاني ويحذره

ويرغب في الباقي ويشمّر له، وهذا مقام الإيمان، ومقام النفس في الغيب.

فيحصل من هاتين الفكرتين العلم بالله وأفعاله والعلم بالدار الآخرة وفضيلتها وغايتها، والعلم بالدار الدنيا وحقارتها وفنائها.

ومن كان هكذا كان صمته فكرة، ونظره عبرة، وكلامه حكمة لعمارة قلبه بالأفكار والأذكار فمثل هذا القلب في القلوب كالبيت المعمور في البيوت الخالية.

شغلنا الله وإياك بما يعني عما لا يعني وأعاننا بتوفيقه على ذلك. آمين.

وصلى الله على محمد وآله وسلم.

الشعبة الثامنة والعشرون: التقـوى

أما كون التقوى من الإيمان فلا يحتاج إلى استشهاد عليه لشهرة/ ذلك. [١٢٩/]

وعن أبي سعيد الخدري قال: جاء رجل إلى النبي ﷺ فقال: يا نبي الله أوصني؟ فقال: «عليك بتقوى الله فإنه جماع كل خير»[١]. فوصف التقوى بأنه اجتماع الخير، وقال الله تبارك وتعالى: ﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾[٢]. فعلق الإيمان بشرط التقوى كأنه لا يصح إلاّ به.

وروى أبو هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «من يأخذ عني هؤلاء الكلمات فيعمل بهن ويعلم من يعمل بهن»؟

قال أبو هريرة: قلت أنا يا رسول الله فأخذ بيدي فعدّ خمساً فقال: «اتق المحارم تكن أعبد الناس، وارض بما قسم الله لك تكن أغنى الناس، وأحسن إلى جارك تكن مؤمناً، وأحب للناس ما تحب لنفسك تكن مسلماً، ولا تكثر الضحك فإن كثرة الضحك تميت القلب»[٣]. فجعل اتقاء المحارم أفضل العبادات.

والتقوى على معنيين: ظاهراً وباطناً، وهو على ثلاثة أصناف:

---

(١) أطرافه عند: الطبراني في الصغير (٢/ ٦٦)، الهيثمي في مجمع الزوائد (٤/ ٢١٥)، المتقي الهندي في كنز العمال (٤٣٢٨٣).

(٢) سورة المائدة (الآية: ٥٧).

(٣) أطرافه عند: الترمذي في الجامع الصحيح (٢٣٠٥)، أبي نعيم في الحلية (٦/ ٢٩٥)، التبريزي في مشكاة المصابيح (٥١٧١)، الشجري في الأمالي (٢/ ٩٨)، الألباني في الصحيحة (٩٣٠)، المتقي الهندي في الكنز (٤٤٣١٢).

ضرب في مقام الإسلام والجسد. وضرب في مقام الإيمان والدار الآخرة وعالم النفس. وضرب في مقام الإحسان ومقام الروح.

فقد عمّ المقامات كلها. وقد أكثر الناس القول في حدّ التقوى والحقيقة فيه إن شاء الله: أن التقوى تنزيه القلب عن الأدناس وطهارة البدن من الآثام، وإن شئت قلت: التقوى: التحرز والحذر من مواقعة المخالفات، وهو الذي شبهه النبي عليه الصلاة والسلام التائب به في قوله: «التائب من الذنب كمن لا ذنب له»[1].

فالذي لا ذنب له هو المتقي وليس المشبّه بالشيء كالمشبه به دليله: ﴿أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ ٱجْتَرَحُوا۟ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن نَّجْعَلَهُمْ كَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَوَآءً﴾[2].

ويقال: إن هذه الآية هي مبكَاة العابدين إذا وقفوا على معناها وتذكروا ما أصابوا من الذنوب أبكتهم.

١٣/ أ] وقال في آية أخرى: / ﴿أَمْ نَجْعَلُ ٱلْمُتَّقِينَ كَٱلْفُجَّارِ﴾[3].

وإنما يتبين لك المتقي من غيره في مثلٍ نضربه، وذلك أن نفرض: رجلين ولدا في الإسلام طاهرين نقيين فنَشَآ على طهارتهما ونقاوتهما إلى حدٍّ أشرفا فيه على المخالفات والمحرمات، فأما الواحد: فبقي على حالته الأولى من التقى والبراءة من المعاصي باجتنابه لها إما كلها وإما بعضها. وأما الثاني: فواقع المحرمات وارتكب السيئات إما كلها وإما بعضها.

فالباقي على حالته الأولى من الطهارة والبراءة من الآثام هو المتقي.

والمواقع لها هو الفاجر، والراجع عن الذنوب هو التائب يسمى تائباً ولا يسمى متقياً إلا فيما يجتنب في المستقبل وقوعه.

فكل ذنب تركه العبد واجتنبه سمي متقياً فيه فإن واقع ذنوباً ولم يواقع أُخر كان له من التقوى بقدر ما لم يواقع منها، فالبراءة والتحرز من مواقعة الذنوب هو التقوى كما يتحرز

---

(١) أطرافه عند: ابن ماجة في السنن (٤٢٥٠)، البيهقي في السنن الكبرى (١٠/ ١٥٤)، أبي نعيم في الحلية (٤/ ٢١٠)، الهيثمي في مجمع الزوائد (١٠/ ٢٠٠)، ابن الجوزي في تذكر الموضوعات (١٨٨)، العجلوني في كشف الخفا (١/ ٣٥١).

(٢) سورة الجاثية (الآية: ٢١).

(٣) سورة ص (الآية: ٢٨).

المستتر بالاتقاء بالمجَنّ عن أن تصيبه الحجارة والسلاح، ألاَ ترى إلى قول الله تعالى: ﴿وَٱتَّقُواْ ٱلنَّارَ﴾(١).

أي احترزوا منها بالتقوى لئلا يصيبكم ويواقعكم عذابها، وكذلك: ﴿ٱتَّقُواْ يَوْماً لاَّ تَجْزِي نَفْسٌ﴾(٢). احترزوا منه أن يصيبكم ويواقعكم مكروه ذلك اليوم.

والتقوى عام في كل شيء ظاهراً في أمور الدين والدنيا، وباطناً بتقوى الموت وما بعده من أمور الآخرة كلها، وباطن ذلك كله وحقيقته تقوى الله في مقام الإحسان.

فقد عم التقوى كل شيء فإن كل طاعة لها نقيضها وتسمى معصية، ظاهراً كانت الطاعة أو باطناً فإن الطاعة على نوعين: ظاهر وباطن، والمعاصي على نوعين: ظاهر، وباطن وهو الذي عنى الله عز وجل بقوله: ﴿وَذَرُواْ ظَاهِرَ ٱلْإِثْمِ وَبَاطِنَهُ﴾(٣). فما من طاعة ظاهرة/ إلاّ ولها ضدّ في الباطن والظاهر. [١٣٠/ ب]

وكذلك أيضاً في الباطن مثال ذلك: الإيمان ضده الكفر، والإقرار بالتوحيد ضده الشرك، والصلاة ضدها ترك الصلاة. وهكذا إلى آخر الطاعات كلها.

فمن اجتنب الآثام كلها فهو المتقي، والذي عمر به العبد قلبه وجوارحه وهو سره وعلانيته وظاهره وباطنه.

والجوارح سبعة وهي: اليد، والرجل، والفرج، والفم، والعين، والأنف، والأذن.

وعلى كل جارحة ضرب من الآثام وهو ظاهر الإثم وفيه تنحصر المعاصي كلها وهي على نوعين:

أحدهما: ارتكاب المعاصي كلها الذي نص الشرع على تسميتها معصية.

والنوع الآخر: ترك فعل الطاعات التي نص الشرع على تسميتها طاعة.

لأنه لا معصية أعظم من ترك الصلاة والزكاة أو ترك طاعة أمر العبد بفعلها.

ففي هذين النوعين تنحصر المعاصي كلها فمن اجتنب وقوع المعاصي بجوارحه ولم يترك الطاعات فقد اتقى الله في ظاهره.

وهذان النوعان الكلام فيهما يحتاج إلى تفسير كثير وقد تكلم العلماء على ذلك في جميع الكتب في الحلال والحرام فأغنى عن كلامنا نحن فيه.

---

(١) سورة آل عمران (الآية: ١٣١).

(٢) سورة البقرة (الآية: ٤٨، ١٢٣). (٣) سورة الأنعام (الآية: ١٢٠).

فإن الفرج الذي هو أحد الجوارح يتعلق به من المعاصي مثل الزنا وعمل قوم لوط ونكاح البهائم ونكاح اليد، وقد ذكر في كتب الفقه ما يتعلق على من فعلها وذلك يتعلق به من التحريم مثل ما حرم عليه من النساء نكاحهن مثل النسب والصهر والرضاع والخامسة مع وجود الأربع والمطلقة ثلاثة والأمة مع وجود الطول للمدة، وتعدد من يصل إلى خمسين امرأة أو نحوها فيما ذكر بعض أهل العلم، وذلك موجود في كتب الفقه كالأنكحة الفاسدة وما جرى مجراها من نكاح في العدة/ وغيره. [١٣١/ أ]

وكذلك اليد يتعلق بها أنواع كثيرة: كالسرقة، والخيانة، ومنع الزكاة، والحقوق، والضرب، والقتل وغير ذلك مما يتعلق بجارحة اليد وأحكامها في كتب الفقه أيضاً كثيرة.

وهكذا كل جارحة يتعلق بها جميع المعاصي التي نهى الله عنها وترك جميع الطاعات التي أمر الله بفعلها، فمن اجتنب هذا فقد اتقى الله بظاهره وعلى قدر ما يقع فيه ينقصه من التقوى. فافهم.

وأما الباطنة: فإن المعاصي كلها إنما تصدر عن فعل القلب وأمره، وله أيضاً معاصي تنفذ وتتم في السر دون ظهورها على الجوارح كـ: الإصرار، واعتقاد ما لا يجب اعتقاده، والرياء وأنواع المعاصي المنسوبة للقلب وشهرتها تغني عن تفسيرها وهي على نوعين أيضاً: ترك فعل المحمود، وارتكاب المذموم. فمن اجتنب بقلبه المذموم كله ولم يترك المحمود فقد اتقى باطن الإثم كله وكان ممن وصف الله في هذه الآية: ﴿وَذَرُوا۟ ظَاهِرَ ٱلْإِثْمِ وَبَاطِنَهُۥٓ﴾[1].

وهو قسم الحرام كله الظاهر والباطن، وكل ما ذكر في جميع كتب العلم والفقه من أبواب المحرمات والمكروهات لا تخلو عما ذكرناه من هذين القسمين الباطنين فمن عمل بهما فقد عمل بكل ما ورد من العلم في أبواب المنهيات والمحرمات كلها ولذلك قال النبي ﷺ لأبي هريرة: «اتق المحارم تكن أعبد الناس»[2] يعني المحارم كلها.

يعني المحارم كلها.

وقال سهل رضي الله عنه: من أراد أن تصح له التقوى فليجتنب المعاصي كلها.

والتقوى إنما تكوٓن عن المعصية وعن المكروه، والمصر فإن الطاعة لا يتقي منها ولا

(١) سورة الأنعام (الآية: ١٢٠).

(٢) أطرافه عند: العجلوني في كشف الخفا (١/ ٤٤)، التبريزي في المشكاة (٥١٧١).

يتحرز ما ورد في قوله: ﴿ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ﴾(١).

أن يطاع فلا يعصى، ويذكر فلا ينسى، ويشكر فلا يكفر.

معناه أن يحذر أن ينقص من طاعته شيء أو أن يعصى بالمخالفات أو أن ينقص من ذكره أو أن/ ينسى فلا يذكر أو ينقص من شكره شيء أو أن يكفر. [١٣١/ ب]

والنقصان من الطاعة ترك لبعضها والنقصان من الذكر ترك لبعضه، والنقصان من الشكر ترك لبعضه، وهذا هو المعنى الذي ذكرت لك في التقوى قبل هذا.

وإذا فهمت هذين المعنيين فقد فهمت التقوى بحقيقته إن شاء الله وتفهم حقيقة معنى النجاة مع التقوى في قوله تعالى: ﴿ثُمَّ نُنَجِّ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَواْ﴾(٢).

لأن النجاة إنما تكون من العذاب، والعذاب لا يكون إلا على معصية أو ترك طاعة، فمن لم يواقع منها شيئاً صح له النجاة فافهم.

ويقدر ما يصح له من تقوى المعصية وتقوى ترك الطاعة يصح له من النجاة، فإن الله بكرمه قد حكم أن لا يعذب إلاّ من عصى.

وإذا فهمت ما ذكرت لك تعلم معنى قوله تعالى: ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَاكُمْ﴾(٣). وقوله: ﴿إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلْمُتَّقِينَ﴾(٤). وغير ذلك مما ورد في التقوى من الجزاء عليها عاجلاً وآجلاً فإن هذا الكرم الذي ذكره الله في قوله: ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَاكُمْ﴾(٣).

هو الكرم الذاتي وهو أفضل من الكرم الفعلي الذي هو السخاء كما ورد عن أمير المؤمنين علي بن أبي طالب رضي الله عنه قال: سادة الناس في الدنيا الأسخياء، وسادة الناس في الآخرة الأتقياء. وبين السيادتين من التفاوت مثل ما بين الدنيا والآخرة.

هذا يبين لك ما بين الكرمين من تفاوت الفضيلة والكرم الذاتي من قولك: فلا عليّ كريم، وقال النبي عليه الصلاة والسلام: «إذا أتاكم كريم قوم فأكرموه»(٥).

وهو السيد النسيب الذي يرفع لعظم قدره ونزاهته على الرذائل ومنه كرائم الملك وهن

---

(١) سورة آل عمران (الآية: ١٠٢).
(٢) سورة مريم (الآية: ٧٢).
(٣) سورة الحجرات (الآية: ١٣).
(٤) سورة المائدة (الآية: ٢٧).
(٥) أطراف الحديث عند: ابن ماجة في السنن (٣٧١٢)، البيهقي في السنن الكبرى (٨/ ١٦٨)، الحاكم في المستدرك (٤/ ٢٩٢)، الطبراني في الكبير (٢/ ٢٧٠)، الصغير (٢/ ١٢)، أبي نعيم في الحلية (٦/ ٢٠٥)، العجلوني في كشف الخفا (١/ ٧٧)، ابن أبي حاتم في العلل (٢٥٣٢).

الوجهات المرفعات الأقدار عنده ليس ذلك بأنهن يعطين للملك شيئاً لكن لعظم أقدارهن عنده.

ومنه قولهم: من كرم عليه ما يطلب هان عليه ما يبذل.

[١٣٢/ أ] ومن هذا المعنى/ هو الكرم الذاتي الموصوف به رب العالمين في قوله: ﴿ذِي ٱلْجَلَالِ وَٱلْإِكْرَامِ﴾[(١)].

أي الوجود كله يجله ويكرمه لعظم قدره لأنه نزيه بريء عن رذائل الأوصاف، وبهذا الوصف كان كريماً في أحديته وأزليته قبل وجود الأفعال التي تكرم بها وجاد على الموجودات.

وكذلك المتقي الذي اتقى الذنوب ظاهراً وباطناً كرم عند الله لسلامته من دنيات الأفعال لأن الذنب تجريح في فاعله والتجريح مسقط للقدر عند المجرح والمعدل فافهم.

وأيضاً فإن الطاعة في ترك المعاصي أكثر من الطاعة للّه في فعل الطاعات، ولذلك قالوا: ليس كل من عمل بطاعة الله كان حبيباً للّه لكن من ترك ما نهى الله عنه كان حبيباً للّه.

فإن الطاعة لو اجتهد العبد في تكثيرها غاية الاجتهاد كان الذي بقي له من طاعة الله أكثر أضعافاً مضاعفة فإنه لا يقدر أن يطيعه بجميع أنواع الطاعات، وإذا اتقى المخالفات للّه فقد أطاعه بترك العصيان للّه كله. فافهم.

فالشر كله هو العصيان، والخير كله هو الطاعات فهذا في ناحية، وهذا في ناحية، فإذا اتقى العصيان فقد ترك الشر كله، وإذا دخل في الطاعات لم يأخذها كلها ولا يقدر على ذلك، قال النبي عليه الصلاة والسلام: «إذا أمرتكم بشيء فأتوا منه ما استطعتم، وإذا نهيتكم عن شيء فانتهوا»[(٢)].

وقد بيّن الله معنى ما ذكرناه من كرم التقوى في آية من كتابه فقال: ﴿رَبَّنَآ إِنَّكَ مَن تُدْخِلِ ٱلنَّارَ فَقَدْ أَخْزَيْتَهُۥ﴾[(٣)]. والخزي ضد الإكرام، ولا يدخل العبد النار إلاّ بمعصية.

فالتقوى في مقام الإسلام: حفظ الجوارح عن المنهيات وعن نقص الطاعات وتركها.

---

(١) سورة الرحمٰن (الآية: ٧٨).

(٢) أطرافه عند: أحمد في المسند (٢/ ٢٥٨)، ابن ماجة في السنن (٢)، الربيع بن حبيب في المسند (٣١٢)، البخاري في الصحيح (٩/ ١١٧)، مسلم في الصحيح (الحج ٤١٢)، الدارقطني في السنن (٢/ ٢٨١)، البيهقي في السنن الكبرى (٤/ ٣٢٦).

(٣) سورة آل عمران (الآية: ١٣١، ١٩٢).

والتقوى في مقام الإيمان: اتقاء الآخرة وشدائدها وأهوالها على اختلاف أنواعها كما قال: ﴿وَاتَّقُوا النَّارَ﴾[(١)]، وقال: ﴿وَاتَّقُوا يَوْماً تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللَّهِ﴾[(٢)].

وتقوى/ النفس وخواطرها الداعية في الغيب إلى المحظور[(٣)] والصفات المهلكة، [١٣٢/ ب] وتقوى الشيطان في التحذر منه ومن إغوائه وأنواع خواطره.

والتقوى في مقام الإحسان: تقوى الله وحده وهو حقيقة التقوى لأن تقوى ما سواه من المخلوقات مجاز وتقواه[(٤)] هو الحقيقة.

وفي هذا المقام للصديقين أحوال وأسرار لا يجدها إلاّ هم من هجمات الحقيقة وسطوات التجلي وغير ذلك وهي ثمرة كل تقوى، قال الله عز وجل في ذلك: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾[(٥)].

أي لعلكم تبلغون إلى التقوى بعد العبادة فوصف التقوى أنها ثمرة العبادة وأن بعدها تكون وتحصل.

وذلك أنه إذا استنار القلب بنور الفرقان ورأى فضل الباري على ما سواه وجلالة قدره اتقت العقول أن يفوتها وتحذرت من الإعراض إلى سواه، إلى غير ذلك مما يحسن ترك الكلام فيه ويجمل السكوت عنه لأن المتكلم فيه ليس هو حاله وإن كان يجده علماً.

مَنَّ الله علينا وعليكم بما مَنَّ به على أوليائه المقربين.

فالمتقي كريم القدر بريء من الريبة ونزيه عن الرذائل وطاهر من الأوساخ وزكي النفس، ومن اجتمعت فيه هذه الخصال قرب من الزكي الطاهر البر الكريم جل جلاله قُرب الرتبة لا قُرب المسافة.

فافهم قرب المقربين المتقين وذلك أن ينظر العقل إلى صفات بارئه في مقام الإحسان ونزاهته وما هو عليه فيتقرب منه بالاتصاف على قدر طاقته.

جعلنا الله وإياكم بكرمه منهم في عافية. آمين.

وصلى الله على محمد وآله [وسلم تسليماً كثيراً].

---

(١) سورة آل عمران (الآية: ١٣١، ١٩٢).

(٢) سورة البقرة (الآية: ٢٨١).

(٣) في الأصل: المحضور. وهو تحريف.

(٤) في الأصل: وتقوى. وهو تحريف.

(٥) سورة البقرة (الآية: ٢١).

الشعبة التاسعة والعشرون: الــورع

[١٣٣/ أ] أما كونه من شعب الإيمان فدليله الحديث المشهور في الصحيح روى/ النعمان بن بشير قال سمعت رسول الله ﷺ يقول: «الحلال بيّن والحرام بيّن وبينهما مشتبهات لا يعلمها كثير من الناس فمن اتقى الشبهات فقد استبرأ لدينه وعرضه»[١]. فجعل اتقاء الشبهات استبراء للدين والعرض، والدين هو الإسلام.

ودخل الحسن البصري مكة فرأى غلاماً من أولاد علي بن أبي طالب رضي الله عنه قد أسند ظهره إلى الكعبة وهو يعظ الناس فوقف عليه الحسن فقال: ما ملاك الدين؟ فقال: الورع. فجعل ملاك الدين الورع.

وروى قتادة عن مطرف بن عبد الله أن رسول الله ﷺ قال: «فضل العلم خير من فضل العبادة، وخير دينكم الورع»[٢]. فجعل الورع من الدين وخير الدين.

وروي من طريق آخر عن صعصعة بن سعيد عن أبيه قال: قال رسول الله ﷺ: «فضل العلم أحب إليّ من فضل العبادة وخير دينكم الورع»[٣].

فالورع شعبة من الإيمان وهو من باب التقوى المتقدم قبل هذا إلاّ أن التقوى في الحرام كله والورع عن الشبهات كلها ولكون الشبهة قريبة من الحرام كان الورع أيضاً قريباً من التقوى فمرة يعبر عن هذا بهذا[٤] وبهذا عن هذا في مواضع، ومرة يمتاز هذا عن هذا لهذه العلة فإن النبي ﷺ قال: «الحلال بيّن والحرام بيّن وبينهما مشتبهات»[٥]. فجعل الشبهة شيئاً زائداً على الحلال والحرام.

فالتقوى تقع على الحرام كله من المكاسب وغيرها من الأفعال الظاهرة والباطنة كما تقدم.

---

(١) أطرافه عند: البخاري في الصحيح (٧/ ٣٠)، مسلم في الصحيح (المساقاة: ١٠٨)، الترمذي في الجامع (١٢٠٥)، ابن ماجة في السنن (٣٩٨٤)، الدارمي في السنن (٢/ ٢٤٥)، البيهقي في السنن الكبرى (٥/ ٢٦٤)، البغوي في شرح السنة (٨/ ١٢).

(٢) ، (٣) أطرافهما عند: الحاكم في المستدرك (١/ ٩٢)، الهيثمي في مجمع الزوائد (١/ ١٢٠)، أبي نعيم في الحلية (٢/ ٢١٢)، ابن أبي شيبة في المصنف (٨/ ٥٤٠)، السيوطي في الدر المنثور (١/ ٣٥٠)، العجلوني في كشف الخفا (٢/ ١١١)، ابن الجوزي في العلل المتناهية (١/ ٦٧).

(٤) في الأصل: بهذا هذا. وهو إبدال وقد وضع فوق كل كلمة منهما حرف (م).

(٥) سبق تخريج الحديث في أول الشعبة.

والورع يقع على الشبهة في المكاسب وجميع الأفعال الظاهرة والباطنة أيضاً فهو على ضربين: ظاهر، وباطن.

فأما الظاهر منه: فهو الكف عن القدوم على الأعمال الظاهرة المشتبهة في عالم الحس ومقام الأجساد، كما ورد في الحديث: «لا ورع كالكف»(١).

والورع أيضاً جار حكمه على الجوارح/ كلها مثال ذلك في اللسان إذا عرضت لك [١٣٣/ ب] كلمة مشتبهة لا تدري غيبة أم لا فالواجب عليك الكف عن ذكرها فإن من الغيبة ما هو حلال وما هو حرام، والشبهة ما لا تدري أحلال هو أم حرام.

وكذلك في الأكل إذا عرفت الطعام حلالاً فهو حلال، وإذا عرفته حراماً فهو حرام، وإذا لم تدر أحلال هو أم حرام فهو شبهة لاختلاطه.

وكذلك فيما تتناوله الأيدي والفروج وتبصره الأبصار وتصغي إليه الآذان فإن نكاح الرجل للمرأة على الوجه الذي لا خلاف فيه حلال ونكاح الزنا وغير ذلك من الأنكحة الممنوعة حرام ونكاح المرأة بوجه منعه قوم من العلماء وأباحه آخرون شبهة كالذي يقول من العلماء: للمرأة أن تزوج نفسها وتباشر عقد النكاح بنفسها إذا كانت رشيدة لقوله تعالى: ﴿أَن يَنكِحْنَ أَزْوَاجَهُنَّ﴾(٢). وقوله: ﴿حَتَّىٰ تَنكِحَ زَوْجاً غَيْرَهُۥ﴾(٢). وقوله: ﴿فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا فَعَلْنَ فِيٓ أَنفُسِهِنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ﴾(٢).

وقال آخرون: لا يجوز لقوله جل جلاله: ﴿ٱلرِّجَالُ قَوَّٰمُونَ عَلَى ٱلنِّسَآءِ﴾(٣). ولقول النبي ﷺ: «لا نكاح إلاّ بولي»(٤).

فالأولى ترك هذا النكاح والأخذ بالولي للخروج من الشبهة وغير هذا من المسائل في الطلاق والنكاح كثير لا ينحصر.

وكذلك مشيك بالقدم إلى طاعة أو في طريق مسلوكة غير مغصوبة حلال، ومشيك إلى

---

(١) أطرافه عند: ابن ماجة في السنن (٤٢١٨)، الهيثمي في مجمع الزوائد (١٠/ ٢٨٣)، في موارد الظمآن (٩٤)، الزبيدي في إتحاف السادة المتقين (٧/ ٣٢٣).

(٢) سورة البقرة (الآية: ٢٣٠، ٢٣٢، ٢٣٤).

(٣) سورة النساء (الآية: ٣٤).

(٤) أطرافه عند: أبي داود في السنن (٢٠٨٥)، الترمذي في الجامع (١١٠١)، ابن ماجة في السنن (١٨٨٠)، أحمد في المسند (٤/ ٣٩٤)، الدارمي في السنن (٢/ ١٣٧)، الحاكم في المستدرك (٢/ ١٦٩)، البيهقي في الكبرى (٧/ ١٠٧)، الدارقطني في السنن (٣/ ٢١٩).

معصية أو في طريق مغصوبة حرام، ومشيك إلى شيء لا تدري أطاعة هو أم معصية، أو في أرض مختلف فيها شبهة.

وهكذا جميع الجوارح وهكذا كله مكتوب في كتب العلم في المكاسب وغيرها.

وقد قالوا: الورع في المنطق أشد منه في الذهب والفضة كقولهم فيما ملكت الأيدي من المكاسب في رجل توفي وكان غير حافظ لكسبه؛ فمذهب طائفة من كبار العلماء التنزه عن أخذه من غير تحريم/ [١٣٤/ أ]، ومذهب طائفة من كبار العلماء: أخذه وترك وزره على من اكتسبه وأنه حلال، ومذهب طائفة من كبار العلماء: تركه كله، ومذهب مالك: إن علم الوارث أنه يخصّ أقواماً بأعيانهم ردّ الظلامة إليهم وإن لم يعرف المظلومين، وعرف الظلمة تصدق بها عنهم إذا لم يعلم لهم وارثاً، وهذا عدل من القول إن شاء الله.

والشبهات في جميع الأفعال والجوارح أكثر من أن تحصى فالورع عنها في الظاهر في جميع مقامات الإسلام تركها والخروج إلى البيّن الذي لا إشكال فيه فإن الشبهة مشكلة لولا إشكالها لم تسم شبهة وقد قال النبي عليه الصلاة والسلام فيها: «لا يعلمها كثير من الناس»[١].

ولاشتباهها اختلفوا في تحديدها فقالت طائفة: الشبهة ما غاب عين أصله فلم يعرف أحلال هو أم حرام.

وقالت طائفة: ما اختلف فيه فقال قوم حلال، وقوم حرام.

وقالت طائفة: الشبهة ليست في الأموال فإن المال لا يعرف إلاّ حلالاً أو حراماً.

وقالت طائفة: الشبهة أكثرها حلال.

والحقيقة في تحديدها إن شاء الله: أن ما لم يتبين لك ولم تقطع عليه يقيناً أحلال هُو أم حرام فهو شبهة لقول النبي عليه الصلاة والسلام: «الحلال بين والحرام بين وبينهما مشتبهات»[١].

فقد قامت الشبهات وجوداً ثالثاً بين الحلال والحرام.

وأما الباطن: فعلى ضربين ومقامين:

ضرب في مقام الإيمان والنفس.

وضرب في مقام الإحسان والروح والعقل.

---

(١) سبق تخريج الحديث بأول الشعبة.

فأما الضرب الأول في مقام الإيمان: فإن الإيمان في القلب منبسط على المؤمنات كلها الأخروية قد أحاط بها الإيمان، والتصديق، والخواطر مزدحمة على القلوب من قبل النفس والهوى والأمل والأماني والشياطين والملائكة ومن قبل الروح والعقل/ بجميع أنواع الخير [١٣٤/ ب] والشر في كل وقت وحين.

فيجب الوقوف على الأقدام على الخواطر بغير تبيين وعلم والوقوف هو الورع وهو الكف حتى يتبين الشيء لأن كثرة الخواطر الواردة على القلب يوجب اشتباهها وقد شبه القلب في تقلبه بالخواطر كورقة تحركها الرِّياح، وقيل كالقِدر امتلأت غلياناً.

فالورع في هذا المقام هو الوقوف والنظر حتى يتبين الإشكال منها وتمتاز خواطر الملك من خواطر الروح والنفس والشيطان والهوى الدنيا فينفذ ما يجب تنفيذه ويرد ما يجب رده، هذا كله في أمور الآخرة وأمور الدنيا والدين.

وأما الضرب الثاني الباطن في مقام الإحسان: فإن النظر والفكر في هذا الباب ينقسم قسمين: نظر في المخلوقات، ونظر في خالقها، والاستدلال بها عليه لأنه بها عرف، فيجب التوقف والتمييز بين صفات الخالق وصفات المخلوق ولا يؤخذ الأمر جزافاً فيقع العبد فيما لا ينبغي من التشبيه والشبهات.

وقد ضل كثير من الناس في هذا الباب وزاغوا لقلة ورعهم وإيثارهم الرأي والمعقول بقلة الورع وترك الشرع المنقول فضلوا وأضلوا وذلك كإقدام العقول والقلوب على ما لم يتبين لها من العلوم ولذلك كان عمر بن الخطاب رضي الله عنه يقول: اتهموا الرأي.

فإنه إنما كان مصيباً من رسول الله ﷺ، وقال الله تعالى في هذا المعنى: **﴿هُوَ ٱلَّذِيٓ أَنزَلَ عَلَيْكَ ٱلْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُّحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ ٱلْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ﴾**[١] الآية.

ومن أجل قلة ورع الزائغين في هذا الباب وقعوا في المراء لأن الشيء إذا لم يتبين وقع فيه المراء وورد فيه: «المراء/[٢] في القرآن كفر». [١٣٥/ أ]

فالوقوع في المراء عقوبة ترك الورع كذلك أخبر النبي عليه الصلاة والسلام في قوله: «الحرام بين والحلال بين وبين ذلك أمور مشتبهة»[٣].

---

(١) سورة آل عمرن (الآية: ٧).

(٢) مكررة بآخر الصفحة [١٣٤/ ب] وأول الصفحة [١٣٥/ أ].

(٣) سبق تخريج الحديث بأول الشعبة.

فمن ترك ما شك فيه من الإثم كان لما استبان له أترك ومن اجترأ على ما شك فيه من الإثم يوشك أن يواقع ما استبان له فإذا لم يكن العبد من الراسخين فليكن من المتبعين الورعين المصدقين بالتصميم الجازم فهي طريق السلامة ولا يكن من الزائغين المشبهين القائلين بآرائهم.

والناس في هذا الباب ثلاثة: راسخ يتبين له المشتبه لرسوخه فصار محكماً في حقه. وزائغ أحال المعنى إلى غير ما أريد به كالذي يعتقد في يد الله جارحة، وفي الاستواء الاستقرار على المكان وغير ذلك من المسائل المشتبهات فهذا لاحقٌ بالحرام أي حرام اعتقاده. والثالث رَجُل لم يصل درجة الرسوخ فالواجب عليه التصديق الجزم بمعنى ما يستحيل اعتقاده في المسألة وإمرار الأخبار كما ورد مع نفي التشبيه والتمثيل وهذا هو الورع على الحقيقة وضده الاعتراض بالرأي وتأويله على الهوى بغير دليل قاطع ولا علم راسخ فيجب الورع والإيمان بالأخبار كما وردت مع نفي التشبيه والتعطيل وعليه درَج مالك والشافعي رحمهما الله وسفيان الثوري وابن عيينة وابن المبارك، والبخاري، والترمذي، وجميع المحدثين من السلف والخلف في فتواهم رضوان الله عليهم.

وهو الورع وهو طريق سابل درج عليه السلف وهذا هو معنى الأثر الذي ورد: إنما الأمور ثلاثة: أمر استبان لك رشده فاتبعه. وأمر استبان لك غيه فاجتنبه. وأمر اشتبه عليك/ [/ ب] فَكِلْهُ إلى عالمه. أو كما ورد. ومن أجل هذه وقف من توقف من الصحابة في وقت الحرب من الفتنة التي كانت.

وورد عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه أنه كان يقول لابنه محمد ابن الحنفية يوم الجمل وقد قدمه أمامه: أقدم، أقدم! ومحمد يتأخر وهو يلزمه بقائم الرمح فالتفت إليه محمد ابنه وقال له: هذه الفتنة المظلمة العمياء. فوكزه عَلِيّ برمحه وقال: تقدم لا أُمَّ لك أتكون فتنة أبوك سائقها وقائدها؟!

فكان عَلِيّ يقدم على أمره لأنه كان من الراسخين وعلى يقين، وكان محمد ابنه يجبن لأنه كان في مقام الشبهة.

والورع هو الجبن عن الهجوم والإقدام والوقوف عند المشكلات.

واليقين هو الإقدام على الأشياء ببصيرة والقطع في الأمر على علم وهذه هي صفة العلماء الموثوق بهم الراسخين لا يحسنه سواهم.

وكان الثوري يقول: إنما العلم الرخصة من ثقة فأما الشديد فكل أحد يحسنه.

يعني أن التوقف والجبن صفة المؤمنين وهو الورع ومن أجل هذا حسن الصمت لأن الإقدام لا يحسنه كل أحد وفيه ورد: إن الله يحب البصر الناقد عند ورود الشبهات.

فقد تبين بما تقدم أن الورع ترك الشبهات كلها ظاهراً وباطناً.

كذلك قال إبراهيم بن أدهم رضي الله عنه: الورع ترك كل شبهة.

والكشف عن حقيقة هذه المسألة خطير جداً لأن الورع مقامه من الدين عظيم جزاؤه خفة الحساب، قال الله تعالى: ﴿فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ * فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَاباً يَسِيراً﴾[1].

وقيل في هذا المعنى: ثواب الورع قلة الحساب.

وقيل في هذا المعنى أيضاً: الورع الخروج من كل شبهة ومحاسبة النفس مع كل طرفة.

/ وهذا حال من أقام نفسه في الدنيا مقام وقوفه بين يدي الله تبارك وتعالى في القيامة. [١٣٦/ أ]

فقد تبين والحمد لله أن الورع عام في جميع المقامات: في مقام الإسلام والجسد الظاهر، وفي مقام الإيمان والنفس في الباطن، وفي مقام الإحسان والروح العقلي كسائر مقامات الدين فمن تبين الأشياء على ما هي عليه فهو من الراسخين ومن حرفها أو زاد فيها أو نقص فهو من الزائغين والمخلطين ومن توقف فصدق بالشيء وآمن به على ما هو عليه وهرب من التأويل الباطل والحرام البين فهو من المهتدين.

وأصل التوفيق في ذلك كله الورع والوقوف حتى يتبين أو يترك الشيء إلى عالمه وإنما تتبين هذه المسألة على الحقيقة بفهم هيئة العالم على ما هو عليه وفهم قول النبي عليه الصلاة والسلام: «الحلال بيّن والحرام بيّن وبينهما مشتبهات»[2].

وذلك أن الله تعالى خلق الجنة والنار وجعلهما دارين إحداهما جهة اليمين والأخرى جهة الشمال هذه خير كلها صرف وهذه شر كلها صرف، وأنزل الدين بالأمر والنهي على معنى الدارين فالأمر هو الحلال آخذه يدخل الجنة، والنهي هو الحرام آخذه يدخل النار.

ثم خلق دار الدنيا بين الدارين ومنهما وبعدهما فالجنة من القبر إلى أعلى عليين، والنار من القبر إلى أسفل سافلين.

---

(١) سورة الانشقاق (الآية: ٧، ٨).

(٢) سبق تخريج الحديث بأول الشعبة.

[فالقبر][(١)]: روضة من رياض الجنة أو حفرة من حفر النار.

وقال أيضاً: «والذي نفس محمد بيده ما بعد الدنيا من دار إلا الجنة أو النار»[(٢)].

فهذا قسم من النبي عليه الصلاة والسلام أن ليس بعد الدنيا إلا الجنة أو النار.

فالناس بعد الموت إما منعم أو معذب في جنة أو نار، فعلى هذا فالناس إذاً في الدنيا وقوف بين الجنة والنار حقيقة وهم لا يشعرون إلا/ الموقنين منهم. [١٣٦/ ب]

والدنيا مخلوقة من الجنة والنار فلذلك كانت مشبهة لأنها ممزوجة من هذه وهذه خلقتها على الحقيقة من أربعة معان: معنيان ظاهران للحواس، ومعنيان باطنان في القلوب.

والذوات: اثنان من قبل الجنة، واثنان من قبل النار، ويلتقيان في ورود بعضها على بعض فكان ذلك ظاهر الدنيا وباطنها.

أما الاثنان من قبل الجنة:

فالواحد الظاهر: هو ما ينزل الله من علو إلى هذا العالم من الأنوار والأزهار والروائح والمياه والألبان وكل طيب وحسن ظاهر للحسن.

ويصعد من النار في مقابلته كل كربة من الحرور والبرود والظلمات والأمراض والأسقام والشكايات وكل مكروه ظاهر للحواس فيمتزج هذا بهذا وهذا بهذا فكان عنهما وجود ظاهر الدنيا.

وينزل من العلو بالمعنى الآخر، الباطن: وهو ما يجري الله تعالى في هذا العالم من الإيمان والعلوم والأعمال والأذكار الباطنة والأخلاق الحسنة منها والصلوات وجميع أمور الديانات ويصعد من النار في مقابلته الكفر والشرك والنفاق والأعمال القبيحة والغضب وجميع ما يكون من الفسوق والخذلان فيلتقيان فلذلك كانت أمور الدنيا كلها مزجاً به خيراً وشراً.

فالأعمال والأحوال الواردة من الجنة هي التي أُحل للعبد فعلها وأمر بها، والواردة من النار هي التي حرم على العبد فعلها وهذا بمنزلة قول النبي ﷺ: «الحلال بيّن والحرام بيّن»[(٣)].

(١) زيادة يقتضيها السياق.

(٢) أورده السيوطي في الدر المنثور (٦/ ٢٢٢).

(٣) سبق تخريج الحديث بأول الشعبة.

فإذا امتزجت الأعمال والعلوم والأحوال فهي شبهة يجب تنقيتها وتصفيتها أو الوقوف قبل الفعل عنها.

فالورع واقف بجسده في الدنيا بين الجنة والنار والدنيا واردة عليه من الآخرة مع كل نفس؛ ناظر إلى الحلال والحرام في ورودهما/ من غيب الله وعلى أيدي ملائكته. وناظر إلى [١٣٧/ أ] الشر من أسفل على أيدي الشياطين فيترك الحرام بالتقوى ظاهراً وباطناً ويأخذ الحلال وإذا اشتبه عليه الأمر وقف ولذلك ضاقت على الورعين الدنيا.

والحلال هو كل فعل انحلت عنه المطالب كلها من الله ومن العباد من أجل المظالم.

والحرام هو كل ما خطر ومنع من كل فعل فمن أخذه طولب عليه من الله والعباد.

فإذا قلت: «لا إله إلا الله» مثلاً وسلم القول والذكر من التزين والرياء والسمعة والإعجاب والشك والتشبيه وغير ذلك مما يمتزج معها حين القول إن امتزج فقد انحلت عنها المطالبة وجاءت من الجنة من عند الله ورجعت إلى الله.

وكلمة الكفر والشرك والرياء وغير ذلك إذا ورد على العبد حرم فعله ووجب تركه لأنه حرام فيرد بالتقوى.

فإذا امتزج العمل والفعل وجب تنقيته أو الوقوف عنه وتركه وهو الورع وإلاّ حوسب العبد حساباً شديداً عليه.

وكذلك كل شيء من منكح أو ملبس أو مطعم أو أي فعل كان إذا تبين بالشرع أنه حرام وجب تركه وإذا تبين أنه حلال أخذ وفعل إن احتيج إليه.

فإذا امتزج وجب الوقوف عنه فعالم الدنيا بين الجنة والنار كالشفق بين الليل والنهار ممتزج بظلام الليل وضياء النهار.

دليل ما تقدم قول النبي ﷺ: «حُبِّبَ إليَّ من دنياكم ثلاث: الطيب والنساء وجعلت قرة عيني في الصلاة»[١]. فجعل الصلاة من الدنيا. وفي حديث آخر: «الدنيا ملعونة ملعون ما فيها إلا ذكر الله وما والاه»[٢].

(١) أطرافه عند: النسائي في المجتبى (٧/ ٦١)، أحمد في المسند (٣/ ١٢٨)، الحاكم في المستدرك (٢/ ١٦٠)، ابن الجوزي في تذكرة الموضوعات (١٢٤)، العجلوني في كشف الخفا (١/ ٤٠٥)، ابن عدي في الكامل (٣/ ١١٥١)، ابن حجر في تلخيص الحبير (٣/ ١١٦).

(٢) أطرافه عند: ابن ماجة في السنن (٤١١٢)، ابن الجوزي في العلل المتناهية (٢/ ٣١٢)، ابن أبي حاتم في العلل (١٨٦٣)، الفتني في تذكرة الموضوعات (١٧٤)، العجلوني في كشف الخفا (١/ ٤٩٦).

وفي [رواية][(١)] أخرى: «إلا عالم أو متعلم». فجعل الذكر وما والاه من كل خير والعلم والعالم من الدنيا. وقال فيها: «إذا رأيتم رياض الجنة فارتعوا»[(٢)]. فذكر أنها من [١٣٧/ ب] الجنة/ وردت. فهذا هو المعنى الباطن.

والمعنى الآخر: من النار كل ملعون سوى ذكر الله وما والاه أو العالم والعلم المذكور في الحديث المتقدم.

وقول الله تعالى: ﴿ٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌۢ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِى ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَوْلَٰدِ﴾[(٣)].

وهذه أحوال وأعمال للقلوب والأجساد.

وأما دليل المعنيين الظاهرين فقول النبي ﷺ: «إن النار اشتكت إلى ربها فأذن لها بنفسين نفس في الشتاء ونفس في الصيف..»[(٤)] الحديث إلى آخره. وقوله: «ناركم هذه التي توقدون عليها جزء من سبعين جزءاً من نار جهنم»[(٥)].

ثم وصف المعنى الآخر النازل من الجنة فقال: «ولولا أنها ضربت بالماء مرتين ما انتفعتم منها بشيء».

وقال عليه الصلاة والسلام: «النيل والفرات وسيحون وجيحون من الجنة»[(٦)].

---

(١) زيادة يتطلبها السياق.

(٢) أورده ابن حبان في المجروحين (٢/ ٢٥٢)، الزبيدي في إتحاف السادة المتقين (٥/ ١٧٣).

(٣) سورة الحديد (الآية: ٢٠).

(٤) أطرافه عند: مسلم في الصحيح (المساجد ١٨٦)، مالك في الموطأ (١٦)، أحمد في المسند (٢/ ٤٦٢).

(٥) وبنحو هذا الطرف عند: ابن ماجة في السنن (٤٣١٨)، أحمد في المسند (٢/ ٢٤٤)، الدارمي في السنن (٢/ ٣٤٠)، السيوطي في الدر المنثور (١/ ٣٦).

(٦) أورده الخطيب في تاريخ بغداد (١/ ٥٥)، العجلوني في كشف الخفا (٢/ ٤٥٦).

وسَيْحُون: نهر مشهور كبير بما وراء النهر قرب خُجَنْدَة بعد سمرقند يجمد في الشتاء حتى تجوز على جمده القوافل وهو في حدود بلاد الترك. وجَيْحُون: نهر يعرف بجرياب يخرج من بلاد وَخَاب في حدود بَذَخْشان وينضم إليه أنهار في حدود الخُتل ووخش فيصير من تلك الأنهار هذا النهر العظيم وينضم إليه نهر يلي جرياب يسمى بأَخْش وهو نهر هُلْبُك مدينة الختل ويليه نهر بربان والثالث نهر فارعي والرابع نهر أنديخارع والخامس نهر وخشاب وهو أغزر هذه الأنهار فتجتمع هذه الأنهار قبل أن تجتمع مع وخشاب وقبل القواديان ثم ترتفع إليه بعد ذلك أنهار البُتّم وغيره ومنها أنهار الصغانيان وأنهار =

وقال الله تعالى: ﴿وَأَسْقَيْنَاكُم مَّآءً فُرَاتاً﴾(١).

وقال في عموم جميع ما نزل من الجنة: ﴿مَّا يَفْتَحِ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ مِن رَّحْمَةٍ فَلاَ مُمْسِكَ لَهَا﴾(٢).

فكل رحمة من الجنة من نور وطيب وغيره لأن الله يقول فيما روي عنه للجنة: «أنتِ رحمتي أرحم بك من أشاء»(٣).

وهذه الرحمة المفتوحة هي التي أنزل من المائة التي ذكر النبي ﷺ في قوله: «إن الله خلق مائة رحمة أنزل إلى الأرض واحدة وأمسك عنده تسعة وتسعين فإذا كان يوم القيامة قبض هذه إلى تلك فرحم بها عباده المؤمنين»(٤).

وهذا تصديق لقول الله تعالى: ﴿لِيَمِيزَ ٱللَّهُ ٱلْخَبِيثَ مِنَ ٱلطَّيِّبِ﴾(٥).

وقوله فيما روي عنه في الدنيا: «ميزوا ما كان لي منها وألقوا سائرها في النار».

فالورع في دار الدنيا أقام بنفسه هذا المقام من التميز فيميز أعماله وأحواله وعلومه وأقواته ويخلصها من الأشباه فإذا ورد القيامة خف حسابه.

/ والذي أخذ الأمر بالتخليط أمثالنا يوقف فيطول حسابه ومناقشته على قدر تخليطه، [١٣٨/] ومن كان الحرام غالباً عليه فالنار أولى به.

وهذه إشارات وحكم إن فهمتها فهمت منها معاني الآخرة كلها ووقع لك اليقين بها، وكذلك تفهم منها لأي شيء تأكل الأرض أجساد قوم ولا تأكل أجساد آخرين، وتفهم منها أحوال المعاد كلها إن شاء الله.

= القواديان فتجتمع كلها وتقع في جيحون بقرب القواديان. [وأخباره وتعريفه يطول راجعه في معجم البلدان لياقوت الحموي].

(١) سورة المرسلات (الآية: ٢٧).

(٢) سورة فاطر (الآية: ٢).

(٣) أطرافه عند: الحميدي في المسند (١١٣٧)، البيهقي في الأسماء والصفات (١٥٨، ٣٤٩)، السيوطي في الدر المنثور (٦/١٠٧).

(٤) أطرافه عند: أحمد في المسند (٤/٣١٢)، الحاكم في المستدرك (١/٥٦)، الطبراني في الكبير (٦/٣٠٧)، البيهقي في الأسماء والصفات (٤٩٦)، الهيثمي في مجمع الزوائد (١٠/٢١٤)، ابن أبي حاتم في العلل (٢١٤٩)، ابن حجر في الفتح (١٠/٤٣٢).

(٥) سورة الأنفال (الآية: ٣٧).

وكذلك ينظر العقل في مقام الإحسان أيضاً في المخلوقات وينظر منها إلى الخالق وينظر في الكتاب والسنة ويكون ورعاً كافاً عن الإقدام بغير بيان وبرهان كتابي وعقلي لئلا يقع العبد فيما وقع فيه الزائغون الذين يقولون بخلق القرآن والذين يقولون بالتشبيه والذين يقولون بحدوث الصفات وغير ذلك من آرائهم المجانبة لاعتقاد أهل السُّنة وإنما وقعوا في ذلك لقلة الورع والإقدام والجرأة بآرائهم وتأويلاتهم الكاذبة المضلة.

مَنَّ الله علينا وعليكم برحمته من عنده وهداية كاملة ويسر شامل وعافية دائمة في الدنيا والآخرة بكرمه. آمين.

وصلى الله على محمد وعلى آله وسلم[١].

الشعبة الموفية ثلاثين: القناعة

أما كونها من شعب الإيمان فإن مكحولاً روى عن واثلة بن الأسقع عن أبي هريرة قال قال رسول الله ﷺ: «كن ورعاً تكن أعبد الناس، وكن قانعاً تكن أشكر الناس»[٢].

فجعل القناعة أفضل مقامات الشكر، والشكر نصف الإيمان فكانت القناعة أفضل شعب نصف الإيمان.

ولأنها أيضاً من كنوز البر، والبر هو من شعب الإيمان كما روى جابر عن رسول الله ﷺ قال: «القناعة كنز لا يفنى»[٣].

وورد في/ التفسير في قوله تعالى: ﴿فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً﴾[٤]. قيل: الحياة الطيبة في الدنيا القناعة.

[١٣٨/ ب] والحياة من الإيمان لأنها ليست حياة جسمانية وأيضاً فإن القناعة غنًى وعز بالله،

(١) جاء بهامش الأصل عبارة: «بلغ مقابلة» وهو ما يفيد مقابلة هذا المخطوط على الأصل المنقول عنه.

(٢) أطراف هذا الحديث عند: ابن ماجة في السنن (٤٢١٧)، أبي نعيم في الحلية (١٠/ ٣٦٥)، ابن عدي في الكامل (٩/ ٢٤٣٣)، العجلوني في كشف الخفا (٢/ ٤٥)، الهيثمي في مجمع الزوائد (١/ ٣١٨)، المنذري في الترغيب (٢/ ٥٦٠)، الألباني في الصحيحة (٩٣٠)، الزبيدي في إتحاف السادة المتقين (٨/ ١٦٠).

(٣) أورده: العجلوني في كشف الخفا (٢/ ١٥١)، السيوطي في الدر المنثور (١/ ٣٦١)، المنذري في الترغيب والترهيب (١/ ٥٩٠)، ابن أبي حاتم في العلل (١٨١٣)، ابن عدي في الكامل (٤/ ١٥٠٧).

(٤) سورة النحل (الآية: ٩٧).

وضدها فقر وذل للغير، وكان عليه السلام يستعيذ بالله من أضدادها كالطمع والفقر وأشباههما.

ومتى لم يقنع العبد لم يشبع أبداً وإن كان له من المال ما لا يحصى فإنه طامع في الزيادة فاغرٌ فاه يقول: هل من مزيد.

وورد في الصحيح في هذا عن رسول الله ﷺ: «لو كان لابن آدم واديان لابتغى وادياً ثالثاً ولا يملأ جوف ابن آدم إلاّ التراب»[١].

وقيل إنه قرآن.

فعلى قدر ما عند الإنسان من القناعة يكون عنده من شبع القلب والاستغناء بالله وبالضد لمن فقد القناعة أو بعضها، وعلى قدر ما يفقد من القناعة يكون عنده من ضدها ويذهب من دينه بقدر ذلك فإما أن يكون مشرداً في الأسفار في طلب الزيادة المذمومة متبعاً للهوى ومؤثراً الدنيا على الآخرة فإذا كان مؤثراً لطلب الدنيا على طلب الآخرة فقد نقص عمله ظاهراً وباطناً ـ أعني عمل قلبه وجوارحه ـ وذلك نقصان دينه.

وإن كان فقيراً ولم يقنع فإما أن يطلب المال من غير حله فيسرق أو يغصب أو يذل لأبناء الدنيا، وفي ذلك ذهاب بعض دينه كما ورد في الخبر: «من تواضع لغني ذهب ثلثا دينه»[٢].

وإنما تواضع له بالطمع الذي هو ضد القناعة ولو قنع لكان عزيزاً والطمع هو الفقر الحاضر المستعاذ منه الذي كاد أن يكون كفراً.

وفي الزبور مكتوب: القانع غني وإن جاع.

ففي القناعة الغنى والعز المحمود اللذان هما من أجلّ صفات المؤمنين، وفي فقدهما/ التعبد للغير كما ورد في الخبر: «تعس عبد الدينار تعس عبد الدينار»[٣]، إلى آخر المعنى. [١٣٩/ أ]

---

(١) أطرافه عند: البخاري في الصحيح (٨/ ١١٥)، مسلم في الصحيح (الزكاة ١١٦)، أحمد في المسند (٣/ ١٢٢)، الترمذي في الجامع (٢٣٣٧)، الدارمي في السنن (٢/ ٣١٩)، الهيثمي في مجمع الزوائد (١٠/ ٢٤٤).

(٢) أورده: الفتني في تذكرة الموضوعات (١٧٥)، العجلوني في كشف الخفا (٢/ ٣٣٤)، علي القاري في الأسرار المرفوعة (٣٣٩)، السيوطي في الدرر المنتثرة (١٥٧).

(٣) أطرافه عند: البخاري في الصحيح (٨/ ١١٥)، ابن ماجة في السنن (٤١٣٥)، البيهقي في السنن الكبرى (٩/ ١٥٩)، الهيثمي في مجمع الزوائد (١٠/ ٢٤٨)، البغوي في شرح السنة (١٤/ ٢٦١).

ويقال في الفعل الثلاثي من لفظ القناعة: قنع قناعة، إذا رضي فالفاعل منه قانع أي راضٍ بما أوتي فلم تطمع نفسه في غيره.

ومن الرباعي: أقنع الرجل رأسه يقنع إذا نصبه قائماً مرتفعاً فلم يلتفت يميناً ولا شمالاً ولم يطأطيء رأسه وكان بصره تلقاء وجهه. ومنه الإقناع في الصلاة، ومن هذا قوله تعالى: ﴿مُقْنِعِي رُءُوسِهِمْ﴾[1]. أي رافعي رؤوسهم.

فإذا فهمت هذا فاعلم أن القناعة تظهر في الظاهر والباطن.

فإذا قنع العبد بالحلال لم يقع في الحرام بجميع جوارحه كالذي لا يقنعه شرب الماء فليشرب النبيذ الحلال وليقنع به فإن لم يقنع شرب الحرام.

وكذلك ينكح واحدة من النساء فإن لم يقنع أمر بالزيادة إلى أربع فإن لم يقنع فملك اليمين فإن لم يقنع وقع في الحرام، وذل بذل المعاصي.

وهكذا في كسب الأموال وسعي الجوارح كلها وأصل ذلك كله عدم القناعة من القلب وإذا لم يقنع بقليل المال طلب الزيادة وطمع فيها فهو لا يشبع أبداً وناله الذل بالتعبد للهوى.

وقال وهب رحمه الله في هذا المعنى: إن العز والغنى خرجا يجولان فلقيا القناعة فاستقرا.

وكذلك قيل: إن العُقاب عزيز في مطاره فإذا طمع في جيفة معلقة على مصيدة وقع عليها فتعلق في المصيدة وصار ذليلاً.

فالقانع عزيزٌ بربه غني بعطاء ربه وهذه صفة الإيمان قال الله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِۦ وَلِلْمُؤْمِنِينَ﴾[2].

وقال تعالى: ﴿فَلَا تَهِنُوا۟ وَتَدْعُوٓا۟ إِلَى ٱلسَّلْمِ وَأَنتُمُ ٱلْأَعْلَوْنَ﴾[3]، [وقال][4]: ﴿[وَلَا تَهِنُوا۟ وَلَا تَحْزَنُوا۟ وَأَنتُمُ ٱلْأَعْلَوْنَ] إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾[5].

وإنما كانوا عالين وأعزة باعتزازهم وعلوهم بالله وحسن العز بالله كحسن الذل له سواء وحسن الاستغناء به كحسن/ الافتقار إليه سواء. [١٣٩/ ب]

---

(١) سورة إبراهيم (الآية: ٤٣).
(٢) سورة المنافقون (الآية: ٨).
(٣) سورة محمد (الآية: ٣٥).
(٤) زيادة للفصل بين الآيات.
(٥) سورة آل عمران (الآية: ١٣٩) وقد أدخل سهواً آية سورة محمد في آية آل عمران ففصلت بين الآيتين وأضفت ما سقط من آية آل عمران بين معقوفين.

فالقناعة مقام رفيع من مقامات الدين رافعة لقلوب أهلها في الحال إلى عليين، قال الله تبارك وتعالى في أوصافهم: ﴿يَحْسَبُهُمُ ٱلْجَاهِلُ أَغْنِيَآءَ مِنَ ٱلتَّعَفُّفِ﴾[1]. والتعفف هو حال القانع، ووصف القناعة.

وفي هذا المعنى قيل: الفقراء كلهم أموات إلاّ من أحياه الله بعز القناعة. فيخرج من هذا أن القناعة بالشيء استغناء به عن غيره.

ويقال: من رضي من الله بالقليل من الرزق رضي الله منه بالقليل من العمل.

فصـــل

اعلم أن القناعة على ثلاثة أضرب على عدد الذوات: الجسم، والنفس، والروح، وعلى عدد مقامات الإسلام، والإيمان، والإحسان.

فضرب ظاهر في مقام الإسلام وعالم الحس.

وضربان باطنان في مقام الإيمان والإحسان والنفس والروح.

فأما الضرب الظاهر في مقام الإسلام: فهو ما تقدم ذكره من القناعة بأمور الرزق وأمور الدنيا. وقد تقدم شيء من الكلام عليه.

وأما الضرب الباطن في مقام الإيمان: فإن القلب إذا نظر بإيمانه إلى الآخرة ونظر إلى الدنيا ورأى ما بينهما من التفاوت والفوز قنع بالآخرة وأغنته وصار مشتغلاً بما قنع به عن غيره. وهذه حالة رفيعة نفع الله بذكر أهلها آمين.

وقد ورد في الآثار: أن أهل القناعة يحشرون يوم القيامة منتطقين بمناطق النور على أوساطهم يزينون أهل المحشر ويتعجب الناس من حسنهم. أو كما ورد.

وأما الضرب الباطن من القناعة في مقام الإحسان: فإنه لأهل الهمم الرفيعة فإن الناس في القناعة درجات ولهم في القناعة مقامات رفيعة؛ فمنهم من يقنع بالآخرة عن الدنيا كما قنع أهل الدنيا بالدنيا عن الآخرة، ومنهم من ارتفعت/ همته فقنع بالله عن الكل إذْ وجد فيه [١٤٠/ أ] غنية عن الكل فهؤلاء هم القانعون بالله وهم الذين غلب عليهم مقام الإحسان الروحاني فطوبى لهم بأي كنز قنعوا وبأي موجود ظفروا.

وقال بعض أهل هذه الهمم لأحدهم: انظر إن أعطاك جميع ما في الملك فلا تقنع بشيء دونه بدلاً منه. أو كما قال.

---

(١) سورة البقرة (الآية: ٢٧٣).

فالطالبون لهذا المقام مجدون في طلب مرغوبهم لا يجدون راحة إلاّ بالظفر بمطلوبهم.

وفي الخبر: «لا راحة لمؤمن دون لقاء ربه»[1].

ومنهم من يلقاه حالاً ومآلاً على حسب رزقه وقسمه وهذه صفة العقول الراجحة السليمة الكاملة لأن صفة العقل أن يختار الأفضل على المفضول والكامل على الأنقص ويقنع به عن غيره، فإن فعل ضد ذلك كان منحوس الحظ لقناعته بالأنقص عن الكامل وبالمفضول عن الأفضل وإنما يظهر هذا العين عياناً يوم التغابن وفي دوام الخلود فيقف كل عقل في مقامه الذي قنع به في مقام تعبده في الدنيا ومن ذلك المقام يكون مزيده في دار الشقاوة والسعادة.

رزقنا الله وإياكم الحظ الأكبر والنصيب الأوفر بمنّه وكرمه. آمين.

وصلى الله على محمد وآله وسلم تسليماً.

الشعبة الموفية إحدى وثلاثين: الإيمان بالله تبارك وتعالى بالغيب

وهذا هو الذي يقع عليه صريح اسم الإيمان في اللغة وهو التصديق بالشيء وما سوى ذلك من شعب الإيمان فروع تتفرع منه.

قال الله تبارك وتعالى: ﴿وَمَآ أَنتَ بِمُؤْمِنٍ لَّنَا وَلَوْ كُنَّا صَادِقِينَ﴾[2] أي ما أنت بمصدق لنا.

فقول اللسان: «لا إله إلاّ الله محمد رسول الله» يسمى إقراراً منه، وتصديق القلب بما أقر به اللسان يسمى إيماناً.

[١٤٠/ ب] ومعناه التصديق بوجود الله أنه حق. والوجود هو الله[3]/ . واسم الله واقع على الذات فهو الاسم العلم الواقع على الواجد[4] الحق جل جلاله.

فلو قال الإنسان: لا إله إلا الكريم أو الحليم ولم يقل: لا إله إلا الله. لم يستقم إيمانه

---

(١) أورده الألباني في سلسلة الأحاديث الضعيفة (٦٦٣).

(٢) سورة يوسف (الآية: ١٧).

(٣) يقصد أن الوجود دليل علي في ذاته على الله ولله در من قال:

وفي كل شيء له آية تدل على أنه الواحد

(٤) في الأصل: الوجود. وأثبت ما هو أنسب.

حتى يقر ويصدق بالاسم الأعظم الواقع على الواجد[1]؛ لأن الأسماء غيره واقعة على الصفات، ومن أقر بالصفات ولم يقر بالذات لم يصدق بموجود لأن الصفات لا تكون إلاّ لموصوف ولا يصح وجودها دون الذات، والذات هو الذي عنى رسول الله ﷺ بقوله: «تفكروا في خلق الله، ولا تتفكروا في ذات الله»[2].

وهو المعني بقوله عليه الصلاة والسلام: «لا شخص أغير من الله، ولا شخص أحب إليه العذر من الله»[3]. من أجل ذلك بعث المرسلين مبشرين ومنذرين. «ولا شخص أحب إليه المدح من الله»[3]. من أجل ذلك وعد الجنة.

فذكره الشخص واقع على وجود الذات سبحانه.

وهو الذي عنى خبيب في شعره حيث قتل في الله رحمه الله:

وذلـك فـي ذات الإلـه وإن يشـأ يبـارك علـى أوصـال شلـو ممـزع

وهذا الباب ينقسم في النظر على ثلاثة أقسام: نظر ظاهر في مقام الإسلام والحس الذي هو عالم الجسد.

وضرب في مقام الإيمان وعالم النفس الأخروي.

وضرب في مقام الإحسان الروحاني.

فأما الضرب الأول في عالم الأجساد: فينظر الناظر في الأجساد فينفي الجسمانية عن بارئه ويصدق أن ربه ليس بجسم ولا يشبه الأجسام ولا الجواهر والأعراض المؤتلفة منها الأجساد. فيصح إذ ذاك إيمانه ببارئه وتصديقه ويكون مؤمناً بالله على ما هو عليه.

وأما الضرب الثاني من النظر الإيماني في مقام/ الإيمان: فإن العالم على قسمين: [١٤١/ أ] ظاهر وهو ما تقدم، وباطن وهو: عالم الغيب النفساني والروحاني فينظر أيضاً في عالم النفس واختلاف النفوس وعظم موجودات الآخرة واختلافها فيرى عليها آثار الحدث ودلائله.

---

(١) في الأصل: الوجود. وأثبت ما هو أنسب.

(٢) أورده الزبيدي في إتحاف السادة المتقين (١٠/ ١٨٠)، العجلوني في كشف الخفا (١/ ٣٧١)، الألباني في الصحيحة (١٧٨٨).

(٣) أخرجه البخاري في الصحيح (٩/ ١٥١)، مسلم في الصحيح (اللعان ١٧)، أحمد في المسند (٤/ ٢٤٨)، الحاكم في المستدرك (٤/ ٣٥٨)، ابن أبي عاصم في السنة (١/ ٢٣٠)، ابن حجر في فتح الباري (١٣/ ٣٨٤)، السيوطي في الدر المنثور (٣/ ٨١)، الدارمي في السنن (٢/ ١٤٩).

فينفي أن يكون ربه من قبيلها وإن كانت موجوداتها أشرف من عالم الأجساد فيؤمن أن ربه أعلى وأجل من ذلك وأنه ليس مثلها.

وأما الضرب الثالث من النظر في مقام الإحسان: فينظر الأرواح صادرة من أمر ربها فكانت خلقتها أغرب وأعظم من غيرها من الأجسام والنفوس لا أنها بسيطة لطيفة جداً. فيرى أيضاً عليها آثار الحدث فينفي عن ربه أن يكون من قبيل الأرواح والعقول.

ويشهد على الوجود كله جسمانية، ونفسانية، وروحانية بالحدث فإن الباري ليس من قبيل ذلك كله فيصدق به أنه ليس مثل شيء من الأشياء.

فحينئذ يصح إيمانه وتصديقه وقد ضل خلق كثير في الأرواح والنفوس فقالوا بقدمها، وآخرون بقدم الكل جسداً كان أو غيره.

وآخرون نفوا الصانع ولم يصدقوا به حين لم يشاهدوه ولا أدركوه[1].

وآخرون شبهوه.

والسلامة من ذلك كله أن يؤمن العبد ويصدق أن الباري موجود[2] وأنه ليس كمثله شيء من الوجود إلا أنه يحتاج التصديق بقلبه أن يعتقد بتصديقه أنه ليس كالأشخاص، ولا ذاته كالذوات ولا وجوده كوجود شيء من الموجودات وإلا كان معتقداً لشيء متوهم أو متخيل أو مشبه.

والإله سبحانه يتعالى عن ذلك وإنما يستقيم له هذا العقد وينتفي عنه الباطل في اعتقاده بتصديقه بتسعة أشياء بها ينتفي عن وجود الله ما لا يليق به:

[١٤١/ ب] أولها التصديق بوجود الله/ أنه حق ثابت وأنه قديم لا أول له، وأنه باقٍ لا آخر له، وأنه ليس بجوهر، وأنه ليس بجسم مؤلف من جواهر، وأنه ليس بعرض من الأعراض، وأنه ليس مختصاً بجهة، وأنه ليس مستقرًا على مكان، ولا حالاً في شيء، وأنه واحد لا ثاني معه.

فأما دليل الأصل الأول: من القرآن: أعني أن وجوده حق بقوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ﴾[3].

---

(١) مثل الشيوعيين في عصرنا.

(٢) الأولى أن يقول واجد أو موجد الموجود وعموماً سيكرر ذلك وقد نبهت عليه في أكثر من موضع وأهملته في مواضع أخرى كثيرة لأنه درج على ذلك.

(٣) سورة الحج (الآية: ٦).

ودليله من العقل: أن العالم كله حادث بعد أن لم يكن ولا بد للحادث من فاعل بقوله: ﴿أَمْ خُلِقُواْ مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ ٱلْخَالِقُونَ﴾(١). أي من غير رب.

وأما القدم فدليله: قوله تعالى: ﴿هُوَ ٱلْأَوَّلُ﴾(٢). ودليله من العقل: استحالة التسلسل وإذا بطل التسلسل ثبت القدم لواحد قديم.

دليل البقاء: قوله: ﴿ٱلْأَوَّلُ وَٱلْآخِرُ﴾(٣). وقوله: ﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ . وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو ٱلْجَلَالِ وَٱلْإِكْرَامِ﴾(٤).

ودليله من العقل: ما ثبت قدمه استحال عدمه لأنه قبل الأفعال كلها، وكل فعل من الأفعال لا يكون بنفسه فكيف يعدم الباري نفسه بفعله أو يعدمه غيره لأن كل فعل واقع في العالم فعله.

ولا يقال أيضاً: إنه ينعدم من ذاته لأنه لو جاز أن ينعدم شيء بنفسه دون أن يفعل فيه العدم لجاز أن يتكون شيء بنفسه دون أن يُكَوِّنه مكون.

ودليل مخالفته للأشياء: وأنه ليس بجوهر ولا جسم ولا عرض من النقل قوله تعالى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾(٥) لأن الأشياء كلها لا تخلو عن هذه الثلاثة الأشياء وهي الجوهر والجسم والعرض.

ودليله من العقل: أن الجوهر هو مصنوع في الحيز المحصور فيه فقد ظهرت فيه صورة الوضع في حيزه بسكونه، والسكون عرض وحال معه بحدوثه في الحيز بعد الحركة التي صار بها إلى الحيز، وحينئذ/ سكن في الحيز، وقد ظهر أن الجوهر مفعول لغيره [١٤٢/ أ] بالبرهان.

وأما الجسم: فإنه لو كان جسماً لكان مؤلفاً من جواهر كثيرة ولم تكن تلك الجواهر مؤلفة إلاّ بعد افتراقها فقد ظهرت في الجسم صورة التأليف والمؤلف مفعول لغيره.

وأما العرض: فلو كان عرضاً لكان حالاً في الأجسام والجواهر لأن العرض لا يكون موجوداً بانفراده إنما يوجد اللون والحركة وغير ذلك من الأعراض في الجواهر والأجسام فإذا كان حالاً فيها لا يوجد إلا معها فقد ظهرت فيه الصنعة كما ظهرت في الجسم والجوهر لأنه طارىء عليها.

---

(١) سورة الطور (الآية: ٣٥).
(٢) سورة الحديد (الآية: ٣).
(٣) سورة الحديد (الآية: ٣).
(٤) سورة الرحمٰن (الآية: ٢٦، ٢٧).
(٥) سورة الشورى (الآية: ١١).

وأما دليل أنه ليس مختصاً بجهة: فقوله: ﴿اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ﴾[١] [وقوله][٢]: ﴿وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَمَا كُنتُمْ﴾[٣].

ودليله من العقل: أنه لو كان في جهة لغابت عنه الجهة الأخرى لكونه محدوداً.

والدليل على أنه ليس مستقراً على مكان ولا حالاً في شيء: قوله تعالى: ﴿لاَّ تُدْرِكُهُ الأَبْصَارُ﴾[٤]. وقوله: ﴿وَلاَ يُحِيطُونَ بِهِ عِلْماً﴾[٥].

ومن العقل: أنه لو كان على شيء أو في شيء لأدركته الأبصار والأوهام والأمكنة والحواس وأحاطت بما يليها منه سبحانه تعالى عن ذلك.

والدليل على أنه واحد: من النقل قوله تعالى: ﴿وَإِلَـٰهُكُمْ إِلَـٰهٌ وَاحِدٌ لاَّ إِلَـٰهَ إِلاَّ هُوَ الرَّحْمَـٰنُ الرَّحِيمُ﴾[٦]. ودليله من العقل: لو كان اثنين لم يخل أن يكون الواحد أقوى من الآخر فالضعيف مغلوب والغالب الإله أو يكونا ضعيفين لا يقدر واحد منهما على شيء فلا يكون واحد منهما إلهاً أو يكونا قويين متساويين في القوة لا يغلب هذا هذا، ولا هذا هذا.

[١٤٢/ ب] فإذا أراد أحدهما إيجاد ملك له منعه الآخر فلا يوجد/ لواحد منهما فعل أبداً وقد ظهرت الأشياء ودلت على وحدانيته فثبت وجود الباري تعالى واحداً للعقول بالأفعال الدالة عليه لأن فعلاً لا يوجد من اثنين كما تقدم ولا دون فاعل، وكيف تكون صنعة دون صانع والصنعة قبل صنعها عدم فما ليس بشيء كيف يكون شيئاً بنفسه وإلى هذا نبّه العقول في كتابه فقال: ﴿أَفِي اللَّهِ شَكٌّ فَاطِرِ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ﴾[٧] [وقال][٨]: ﴿أَلَمْ نَجْعَلِ الأَرْضَ مِهَاداً. وَالْجِبَالَ أَوْتَاداً﴾[٩]. ويقول: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلاَفِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ﴾[١٠] إلى قوله: ﴿لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾[١٠]. أي يعقلون أن فعلاً لا يكون دون فاعل. ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَكُمْ مِّن تُرَابٍ﴾[١١]. كيف يكون التراب شخصاً بنفسه حتى يتحرك ويقوم حيث ما ذكر أفعاله سبحانه المراد بها الدلالة عليه.

---

(١) سورة الزمر (الآية: ٦٢).
(٢) ما بين المعقوفين زيادة للفصل بين الآيات.
(٣) سورة الحديد (الآية: ٤).
(٤) سورة الأنعام (الآية: ١٠٣).
(٥) سورة طه (الآية: ١١٠).
(٦) سورة البقرة (الآية: ١٦٣).
(٧) سورة إبراهيم (الآية: ١٠).
(٨) زيادة للفصل بين الآيات وإيضاح المعنى.
(٩) سورة النبأ (الآية: ٦، ٧).
(١٠) سورة البقرة (الآية: ١٦٤).
(١١) سورة الروم (الآية: ٢٠).

فإن قلت: قد ثبت لي بحمد الله دلالة الفعل على الفاعل بالبرهان لكني لست أدري بالبرهان هذا العالم الذي وجدت فيه هل هو حادث مصنوع أم لا بل هكذا وجدته ووجده غيري قبلي فلعله لم يزل هكذا الفلك يدور دورة قبل دورة إلى غير أول والحوادث تحت الفلك في عالم الكون والفساد يتعاقب، كل ولد مسبوق بوالد، وكل زرع مسبوق ببذر، وكل بيضة مسبوقة بدجاجة، وكل ليل مسبوق بيوم، هكذا إلى غير أول.

فأثبت لي بالبرهان حادث العالم بعد أن لم يكن فيتم لي به قيام البرهان على الصانع الحق.

فاعلم أن: معرفة حدث العالم قد تقدم في صدر الكتاب طرف من الكلام عليه وله أربعة أصول في فهمها تبرهن له بالبرهان حدثه.

أولها: إثبات الأعراض في الجواهر.

والثاني: إثبات استحالة وجود جوهر بلا عرض.

الثالث:/ إثبات حدوث العرض. [١٤٣/]

والرابع: استحالة وجود حوادث لا أول لها.

فأما الأول وهو إثبات الأعراض: فإن الحركة والسكون عرضان وهما موجودان في العالم كله فإن كل جسم وجوهر من الوجود كله لا يخلو إما أن يكون ساكناً أو متحركاً وهذا يدركه كل أحد بلا تعب فكر فإن من زعم أنه يدرك جسماً أو جوهراً لا متحركاً ولا ساكناً فينبغي أن يُعَزّى في عزيزه العقل الذي[1] ليس عنده منه شيء.

فإذا ثبت له الحركة والسكون ثبت له:

الأصل الثاني وهو استحالة وجود جوهر بلا عرض: فإنه لم يعقله إلا ساكناً أو متحركاً والحركة والسكون غير الجسم والجوهر.

وأما الأصل الثالث وهو إثبات الأعراض أنها حادثة: فإن ذلك مدرك بأقل تأمل فإن الحركة والسكون ضدان لا يوجد هذا إلاّ بعد فقد هذا فإذا سكن الجوهر فبالضرورة يعلم أن السكون حدث بعد أن لم يكن بعد ذهاب الحركة وفنائها ثم إذا طرأت الحركة زال السكون وحدثت الحركة بعد أن لم تكن.

فبتعاقب الحركة على السكون والسكون على الحركة عُلم بالضرورة أنهما حادثان بعد

(١) في الأصل: التي. وهو تحريف.

أن لم يكونا في الجوهر. والعرض لا يوجد منفرداً بنفسه لم يعقل قط حركة ولا سكون بلا متحرك وساكن ولون بلا متلون.

فالجوهر على هذا لا يسبق العرض ولا يوجد إلاّ معه وفيه والعرض لا يوجد إلاّ في الجوهر، والعرض حادث وما لا يكون له وجود إلاّ مع الحادث فهو بالبرهان حادث.

فإن جواهر جسم السماء والأرض وكل شخص بالضرورة يعقل أنها مؤتلفة بعضها إلى بعض ومجتمعة حتى صارت جسماً والتأليف لا يكون إلا [بعد] افتراق.

وهكذا كل جوهر في الوجود لم يظهر من الغيب الذي هو العدم إلى المشاهدة التي[1] هي الوجود إلا بحركة تحرك ثم سكن.

[١٤٣/ ب] فلم يكن في حين حركة[2]/ الإيجاد [إلاّ متحركاً][3] ثم سكن ثم تحرك أو سكن فيما ضرب فيه.

فلولا تجديد العرض له مع كل نفس لم يكن له وجود لأن الجوهر ليس له وجود إلا بالعرض فلم يبق إلاّ:

الأصل الرابع وهو أن حوادث بلا أول لها محال: والدليل عليه: أنك إذا قلت: إن الجواهر لم تزل تسكن وتتحرك حركة قبل حركة وسكوناً قبل حركة إلى غير أول وهكذا وجدت الأشياء.

فاعلم أن قولك هذا محال ونفرض القول في الدورة الفلكية التي نحن فيها فنقول: الفلك لا يخلو أن يكون دار دورة واحدة أو دورتين أو أكثر ولم يدر لا واحدة ولا اثنتين ولا أكثر.

فإن قلنا لم يدر ولم يتحرك فهذا باطل بالضرورة فإن الحركة والدوران مشاهدتين.

فإن قلنا: دار دورتين فقط. فالدورة التي قبل هذه التي نحن فيها قد انقضت ومضت وهذه التي نحن فيها لها أولى لأن وجودها بعد التي انقضت.

فإن قلت: هذه الثانية باقية فهذا باطل. فإن بالدورة الثالثة ينقضي وجود الثانية قبلها، وبالرابعة ينقضي وجود الثالثة، وبالخامسة ينقضي وجود الرابعة، وبالسادسة ينقضي وجود الخامسة وهكذا أبداً.

---

(١) في الأصل: الذي. وهو تحريف.

(٢) في الأصل: حركته. وهو تحريف.

(٣) زيادة يقتضيها السياق.

فقد ظهر بالضرورة وجود السادسة بعد أن لم تكن لأنها بعد الخامسة [وظهر][(١)] وجود الخامسة بعد أن لم تكن لأنها بعد الرابعة وظهر وجود الرابعة بعد أن لم تكن لأنها بعد الثالثة، وظهر وجود الثالثة بعد أن لم تكن لأنها بعد الثانية وظهر وجود الثانية بعد أن لم تكن لأنها بعد الأولى، والأولى قد انقضت ولو كانت قديمة لبطل عدمها.

لأن ما ثبت قدمه استحال عدمه.

وبالضرورة يعلم أن الدورة الأولى حين انقضت/ كان لها نهاية وهو انقضاؤها، عادت [١٤٤/ أ] على بدايتها الأولى وتلك الأولى هي خروجها من العدم إلى الوجود.

وهكذا كل ساكن ومتحرك من جميع الوجود، وهكذا الكلام في جميع الأعراض اللازمة للجواهر.

فقد ثبت لك أن الجوهر لا يخلو عن العرض وأن العرض حادث على الجواهر لولاه لم يكن لهما وجود ولا يسبق واحد منهما صاحبه ولا يوجد واحد منهما منفرداً بنفسه عن صاحبه.

والعرض حادث بالضرورة وما لا يسبق الحادث ولا يوجد إلاّ معه فهو حادث مثله بالضرورة.

فالعالم كله إذاً حادث بعد أن لم يكن وبحدوثه بعد أن لم يكن دلّ على صانعه لأن فعلاً لا يكون دون فاعل أصلاً، لأنه قبل أن لم يكن لا شيء ولا شيء كيف يكون شيئاً دون فعل يجعله شيئاً.

واعلم أن: العرض لا يبقى زمانين لأن الجوهر به يتجدد وجوده أبداً، ومتى تجدد وجود العرض تغير الجوهر بحدوثه فيه عما كان عليه قبل فأكسبه حالاً لم يكن عليها ولو جاز أن يبقى العرض زمانين لجاز بقاء الجوهر دون تغير ولو ثبت نفساً واحداً دون تغير لساوى بقاؤه بقاء الباري تعالى لأنه كان يكون قائماً بنفسه، وهذه صفة القديم الذي لا يطرأ عليه شيء وهو القيم بنفسه الباقي على ما كان عليه. فافهم فهمنا الله وإياك.

الشعبة الثانية والثلاثون الإيمان بالأسماء والصفات

اعلم أن الكلام الذي تقدم إنما هو في الوجود الذي هو الذات وهذا الباب إنما هو في الأسماء والصفات فهي شعبة ثانية من الإيمان لا بد من التصديق بها ومن لم يصدق/[١٤٤/ ب]

---

(١) ما بين المعقوفين زيادة يقتضيها السياق.

بالصفات فقد كذب بالقرآن والسنة وإجماع أهل السنة وكذب العقل.

وقد أفرد البخاري رضي الله عنه كتاباً وسماه: الرد على الجهمية. لأن جهماً أول من تأول إبطال حقائق الأخبار في الصفات وقال الله تبارك وتعالى: ﴿فَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّمَآ أُنزِلَ بِعِلْمِ ٱللَّهِ﴾[١]. وقال: ﴿وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَّحْمَةً وَعِلْمًا﴾[٢]. فأثبت لنفسه العلم والرحمة. وقال: ﴿يُرِيدُونَ أَن يُبَدِّلُواْ كَلَٰمَ ٱللَّهِ﴾[٣]. فأثبت لنفسه الكلام. وقال: ﴿سُبْحَٰنَ رَبِّكَ رَبِّ ٱلْعِزَّةِ﴾[٤]. أي ذو العزة والعزة صفة العزيز. وقال: ﴿ذِي ٱلْجَلَٰلِ وَٱلْإِكْرَامِ﴾[٥]. والجلال صفة الجليل. وقال: ﴿قَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ﴾[٦]. فأثبت لنفسه السمع. وقال: «العظمة إزاري، والكبرياء ردائي فمن نازعني واحدة منهما قصمته»[٧].

وقال النبي عليه الصلاة والسلام: «حجابه النور لو كشفه لأحرقت سبحات وجهه ما أدركه بصره من خلقه»[٨]. والبصر صفة المبصر.

ولو تتبعت هذا لطال الكلام به والقرآن والحديث قد نطقا بأسماء الله تعالى وصفاته.

وقد ورد في: ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾[٩] أنها صفة الرحمٰن في الصحيح.

وأهل السنة والحديث قد نقلوا إلينا أخبار الصفات ونطقوا بالصفا ت فلو كذبناهم فيما نقلوا من ذلك ونطقوا به وجب تكذيبهم في كل ما نقلوا من الشريعة وكان ذلك هدماً للإسلام. فنعوذ بالله من الضلال.

فصـــل

وأما دليل ذلك من العقل: فإن الوجود كله على اختلاف أنواعه لا يخلو من جوهر وهو ذاته وعرض حالٌ فيه وهو صفته القائمة.

فالجوهر لا يعقل إلا هكذا، ولو تصور جوهر بغير صفة يوصف بها أو اسم يسمى به لم يكن له وجود.

---

(١) سورة هود (الآية: ١٤).
(٢) سورة غافر (الآية: ٧).
(٣) سورة الفتح (الآية: ١٥).
(٤) سورة الصافات (الآية: ١٨٠).
(٥) سورة الرحمٰن (الآية: ٧٨).
(٦) سورة المجادلة (الآية: ١).
(٧) أورد نحوه الزبيدي في إتحاف السادة المتقين (٨/ ٣٣٨).
(٨) وكذا أورده الزبيدي في الإتحاف (٢/ ٧٢، ٧٧)، أبو عوانة في المسند (١/ ١٤٥)، ابن حجر في الفتح (١٣/ ٣٧٤)، ابن الجوزي في تذكرة الموضوعات (١٢).
(٩) سورة الإخلاص (الآية: ١).

فإذا/ فهمت فالفرق بين القديم والمحدث في هذا، أن الجواهر محدثة وصفاتها التي [١٤٥/ أ] هي الأعراض محدثة عرضت فيه بعد أن لم تكن كما حدث هو بعد أن لم يكن.

والباري سبحانه لم يزل قديم الذات قديم الصفات لم يطرأ عليه اسم ولا صفة ولا يتغير عما كان عليه ولا يزداد ولا ينقص فلذلك لا يقال في صفاته إنها أعراض لأنها لم تحدث قط إنما الباري لم يزل على ما هو عليه ولا يزال على ما كان عليه فلا تشبه ذاته الجواهر ولا تشبه صفاته الأعراض فليس بجوهر ولا عرض.

فإن قال قائل: إذا قلنا بالذات والصفات فلزمنا أن نقول إن الباري مجموع من ذات وصفات ومركب من صفات وذات.

قلنا: هذا خطأ عظيم في النطق فإنه بإجماع أهل العقول أنه لا يقال مجموع إلا فيمن اجتمع بعد افتراق، ولا يقال مركب إلا فيمن ركّبه مركب وجمعه جامع.

وهذه صفة الجواهر والأعراض والباري سبحانه كما قلنا لم يزل ولا يزال على ما هو عليه لا تشبهه الأشياء كلها.

ثم نفرض سؤالاً على من يقول بنفي الصفات طلباً للوحدة في زعمه فنقول أولاً: إذا قال القائل: زيد فنعلم أن هذه كلمة أفادت فائدة واحدة وهي أن قولك زيد دلنا على وجود زيد فقط، يعلم هذا قطعاً.

فإذا قلنا زيد عالم جداً أفادنا قولنا عالم معنى آخر وهو العلم، وإلاّ كان قولنا زيد عالم بمنزلة قولنا زيد زيد.

وكذلك إذا قلنا: زيد ضارب. كان قولنا هذه بمنزلة قولنا زيد زيد.

وهذا خلاف من الكلام لمن يدعيه ليس عنده من العقل ما يخاطب به.

فكذلك إذا قلنا: الله عالم مميت مصور يلزمه على قوله أن يفيدنا ذلك في الثلاثة الأسماء ما يفيد قولنا/ الله، الله، الله، ويلزمه أن يقول: [١٤٥/ ب]

إن معنى قولنا: الله قديم. أن يكون بمعنى الله كليم مكلم موسى، ورافع عيسى، وجاعل الليل سكناً.

وإذا قلنا: الله مربي كقولنا الله حي، وإذا قلنا الله حي كقولنا الله السلام، وإذا قلنا الله السلام كقولنا الله الظاهر والآخر.

وهذا بيّن الفساد لا خفاء به فلا بد له من الرجوع إلى الحق فيقول: إذا قلنا الله العليم

أفادنا الله الوجود وأفادنا العليم صفة العلم.

وإذا قلنا الحي أفادنا الحي صفة الحياة، وهكذا أسماؤه وصفاته.

عصمنا الله من الزلل وإياكم برحمته.

فالأسماء والصفات: قديمة بقدمه لا يجوز أن يقال شيء منها محدث بعد أن لم يكن فكان الباري سبحانه يوصف بالزيادة بعد، ولا يجوز أن تفارقه أو تزول عنه فيتغير ويحول عما كان.

بل هو على ما كان ولا يزال على ما كان.

فأما قدم الأسماء: فإن الخلق لم يسموا الخالق سبحانه ولو سموه باسم لكان ذلك الاسم محدثاً كأنهم جعلوا للّه اسماً يعرف به لم يكن ولذلك لم يجز أن يسمى إلاّ بما سمى به نفسه في كتابه أو على ألسنة[1] أنبيائه فإنه أعلمهم بذلك، أو اسم يوجب له الجلال والكمال من إجماع أو غيره فإن ذلك وصف له بما هو عليه وما كان الله عليه فهو سمى نفسه بذلك.

وحقيقة المعرفة بهذا الفن يحصل[2] لك بمعرفة أربعة أشياء وهي:

المسمي، والمسمَّى، والاسم، والتسمية.

فالمسمِّي والمسمَّى واحد وهو الذات والاسم المعنى الذي بيّن وجود المسمى أو دلّ على صفة إن كان الاسم يدل على صفة بسموه وسمته التي يعرف بها عن غيره من المسميات. والتسمية هي قول المسمى وكلامه الذي سمى به/ نفسه. [١٤٦/ أ]

وكلامه قديم فالكل قديم والحروف قديمة جعلها الله تبارك وتعالى دلالة على أسمائه وصفاته ولذلك يقول في الخلق سميت زيداً تسمية فالتسمية فعل فعلته وقت تسميتك إياه وقول قلته والاسم هو المعنى الذي سميته به ليعرف فإن كان ذلك المعنى حقيقة في نفسه وإلاّ كان لقباً يعرف به.

والباري تبارك وتعالى سمى نفسه في قدمه بكلامه دون زمان.

فأسماؤه قديمة بقدم كلامه لأنها من كلامه والكلام قديم لم يزل وأسماؤه قديمة لم تزل.

---

(١) في الأصل: سنة. وهو تحريف.

(٢) في الأصل: تحصل. وهو تصحيف.

فإذا فهمت هذا فاعلم أن أسماء الله تعالى تنقسم ثلاثة أقسام:

[القسم الأول][1]: أسماء تدل على الذات وهو الوجود كشيء موجود ومذكور، وما كان مثل هذا فهذه الأسماء تدل على المسمى نفسه.

والقسم الثاني: أسماء تدل على ذات وصفات ذات كالحي والعالم والقادر والمريد والسميع والبصير ونحو هذا فهذا القسم يدل على ذات وصفة ذات وهي الحياة والعلم والقدرة والإرادة، وغير ذلك.

والقسم الثالث: أسماء تدل على ذات وصفة فعل كالمميت سبحانه والخالق والرازق. فالمميت هو الله والصفة هي الموت والإماتة وهي فعل الله تعالى فهي صفة فعل لا يرجع منها إلى الذات ولو جاز ذلك لدل على أن الموت قائم بذات الباري تعالى وهو محال.

وكذلك الخالق هو الله والخلق هي الصفة وهي فعل فهي صفة فعل لا يرجع منها إلى الذات شيء، ولو جاز ذلك لدل على أن الخلق قائم بذات الباري تعالى والله سبحانه يتعالى عن ذلك.

وهكذا كل صفة فعل فالأسماء لا تخلو عن هذه الأقسام الثلاثة.

/ ثم إن الأسماء كلها في أي قسم كانت لكل اسم منها معنيان: نفي، وإثبات. [١٤٦/ ب].

فالإثبات إثبات ما يجب له حقيقة من معنى كل اسم نفى ما يستحيل عليه من صفات خلقه التي اتصفوا بها مجازاً أو حقيقة. كالقادر مثلاً فإن اسم القادر واقع على الله حقيقة ويستحيل عليه العجز فهو القادر على كل شيء ولا يستحق التسمية بهذا الاسم إلا هو لعدم العجز عنده.

وإن اتصف أحد من الخلق بالقدرة فذلك مجاز والله تعالى يتنزه عن المجاز.

وهكذا اسم الخالق للّه حقيقة ويستحيل عليه أن يخلق أحد معه شيئاً وذلك المستحيل منفي عنه.

أو القدوس فإن معناه الطاهر المنزه عن معاني الحدث وصفات المخلوقين فالطهارة والنزاهة له حقيقة، وخلافها الذي هو صفة المحدثين مستحيل عليه.

وهكذا في جميع أسمائه لا يساميه أحد فيها بوجه وإن تسمى أحد بمعاني أسمائه وصفاته فإن ذلك وصف مخلوق أو مجاز والله يتعالى عنه.

وقد أشار إلى هذا المعنى في قوله: ﴿فَٱعْبُدْهُ وَٱصْطَبِرْ لِعِبَادَتِهِ هَلْ تَعْلَمُ لَهُ سَمِيًّا﴾(١).

أي من يساميه أو يدانيه في رتبة الربوبية وما هو عليه من أسمائه وصفاته.

فصـــل

اعلم أن النظر في هذا الباب ينقسم ثلاثة أقسام كسائر الأبواب كلها:

قسم في عالم الحس ومقام الإسلام.

وقسم في عالم النفس ومقام الإيمان.

وقسم في مقام الإحسان وعالم الروح.

من أجل أن الذوات ثلاثة ولكل ذات صفات محدثة فوجب أن تكون صفات الباري لا تشبه صفات جميع الذوات كما لا تشبه ذاته جميع الذوات.

[١٤٧/ أ] **فأما الضرب الأول في مقام الإسلام وعالم الحس**: فإن الظواهر أجسام/ وصفاتها من نوعها كاليد مثلاً الواقع على الجارحة الجسمية والقدم والعين والوجه وسائر الصفات فإذا سمع المؤمن ما وافق ذلك في الاسمية من صفات الله وجب عليه أن يصدق أنها ليست مثل هذه الصفات الجسميات كما قال تعالى: ﴿وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ﴾(٢). فيعلم أن وجهه ليس كالأوجه وقوله: ﴿يَدُ ٱللَّهِ﴾(٣) وقوله: ﴿بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ﴾(٤) وقوله: ﴿تَجْرِي بِأَعْيُنِنَا﴾(٥).

وكقول النبي عليه الصلاة والسلام: «فيضع الجبار فيها قدمه» «ويكشف عن ساقه»(٦).

وغير ذلك من الصفات التي وافقت صفات الأجسام في الاسمية فينفي المؤمن جميع ذلك عن ربه ويقول: يدٌ لا كالأيدي ووجه لا كالأوجه وكذلك سائر الصفات.

وأما الضرب الثاني في مقام الإيمان: فإن النفس لها الإرادة والقوة والرضى والغضب والعزم والقدرة والكلام الدائر في الخلد والحديث وغير ذلك من صفات النفس التي يكثر تعدادها ويطول جلبها.

(١) ما بين المعقوفين زيادة تصنيفية.
(٢) سورة مريم (الآية: ٦٥).
(٣) سورة الرحمٰن (الآية: ٢٧).
(٤) سورة المائدة (الآية: ٦٤).
(٥) سورة القمر (الآية: ١٤).
(٦) أخرجه البخاري في الصحيح (٦/ ١٩٨)، أبو عوانة في المسند (١/ ١٦٩)، ابن حجر في فتح الباري (٨/ ٦٦٤)، السيوطي في الدر المنثور (٦/ ٢٥٤)، ابن كثير في التفسير (٨/ ٢٢٤)، البغوي في التفسير (٧/ ١٣٩)، الألباني في الصحيحة (٥٨٣).

فالنظر الحق أن تعلم أن ذلك كله دليل على صفات الباري ولكن ليست صفة كصفة.

فإن إرادة النفس تكون بتمني ولغرض ما والغضب منها يكون بألم وتعب وكلفة والرضى بابتهاج وسرور ونعيم وصفاتها كلها تحدث في النفس أحوالاً تتغير معها.

فالواجب أن ينظر الإنسان في ذلك كله فيعلم أن صفات الباري تتعالى عن جميع ذلك فيؤمن أن صفاته ليست لصفات الخلق.

وأما القسم الثالث أيضاً في مقام الإحسان: فإن الروح موصوف بالإدراك العلي والحلم والنظر والتدبير والقيام بمملكة النفس والجسد والقضاء والحكم فيها وغير ذلك مما يطول الكلام به لأنها كلها أعراض موجودة/ بعد أن لم تكن وليس منها صفة في مقام النفس [١٤٧/ ب] والروح إلاّ وهي مربوطة بضدها لا تنفك عنه أبداً.

والباري تعالى منزه في أوصافه عن ذلك كله فوجب على العبد أن يؤمن ويشهد ويقرّ صفات الباري تعالى منزهة عن صفات المخلوقين فهو أحديّ واحد الأسماء والصفات.

وقد بيّنا في باب التوحيد طرفاً من ارتباط الصفات بأضدادها والفرق بينها وبين صفات الباري في ذلك فلينظر هنالك.

فقد عَمّ الإيمان بالصفات النظر في جميع المقامات والعالم كلها والصفات كما قدمنا في صدر الباب على ثلاثة أقسام: نفسية، ومعنوية، وفعلية.

فالنفسية: كالبقاء والدوام والقدم والنزاهة والرفعة والوحدة وشبه ذلك.

والمعنوية: كالحياة والإرادة والقدرة والكلام وغير ذلك.

والفعلية: كالتصوير والخلق والتقديم والتأخير والصنع والإتقان والإيجاد وغير ذلك.

فالفعلية: هي غيره وإذا قدرت زوالها أو وجودها استوى ذلك في حق الباري تبارك وتعالى لأنها فعله.

وصفة النفس: لو قدرت زوالها بطل وجود الذات ولم يكن للذات وجود.

وصفات المعاني: لو جاز أن يقدر عدمها لم يبطل وجود الذات وخلاف الصفة ضدها لا يجوز في حق الباري سبحانه هي وصفات المعاني.

وصفات النفس: أعني التقدير وقد أطلق العلماء والأئمة في الصفات عبارة حسنة فقالوا فيها لا هي هو، ولا هي غيره.

لأنك إن قلت: هي هو فقد نفيت عنه الصفات وأثبت الذات مفردة بلا صفات **وأثبت**

[١٤٨/ أ] الصفات مفردة وبقيت الذات/ لأن قولك: هي هو يحتمل معنيين: أحدهما أن تقول هي هو أي الصفات هي الذات فتكون الذات صفات وهذا محال لأن الصفة لا تكون هي الموصوف لا تعرف الصفة إلا لموصوف ولا يكن لها وجود إلاّ بكونها قائمة بالموصوف الذي هو الذات.

والمعنى الثاني: أن تقول هي غيره أي هي غير الذات فتفرد الذات بغير صفة وهذا مذهب المعتزلة وكثير من المخالفين لأهل الإسلام فيقولون: عالم بلا علم، وقادر بلا قدرة، ونحو هذا.

والصواب: ما أطلق علماء أهل السنة فقالوا: لا هي هو، ولا هي غيره. لأنك إن قلت هي غيره فقد أثبت الغيرية وأن الإله غيران.

وإن قلت: هي هو فقد نفيت الصفات فافهم.

والعمدة في هذا الباب: أعني معرفة الصفات المعنوية معرفة عشرة أصول ينتظم لك فيها ما بقي من معرفة الصفات إن شاء الله وهي:

الحياة، والعلم، والقدرة، والإرادة، والكلام، والسمع، والبصر، وكمال الإدراك للطعوم والروائح وغير ذلك، وأنه قديم الصفات لم يزل موصوفاً بها ولا يزال وأنه منزه عن شبه الحوادث وطروئها عليه.

فأما الأصل الأول وهي الحياة: فدليله من القرآن: ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْحَيُّ ٱلْقَيُّومُ﴾[١]. فوصف نفسه بالحياة لأن اسم الحي دل على ذات ومعنى وهي الحياة ودليله أن الحي على الحقيقة هو الدارك الذي له شعور بنفسه وبغيره. والميت هو الذي لا يدرك نفسه ولا غيره ولا شعور له بشيء.

ولو كان ذلك كذلك لما صح وجود الأشياء عنه فإن الحياة شرط في وجود العالم [١٤٨/ ب] والإرادة وجميع الصفات ومن أجل هذه اللطيفة أشار من أشار إلى أن الحي هو الاسم/ الأعظم لأن الحياة شرط في وجود جميع الصفات الكاملة بالموصوف إذ لو لم يكن حياً لما كان عالماً ولا قادراً ولا مريداً ولا سميعاً ولا بصيراً ولا أدرك شيئاً ولا صح منه وجود شيء وقد ثبت إيجاد الأشياء عنه.

فقد ثبت حياته بالبرهان. والحمد لله.

---

(١) سورة البقرة (الآية: ٢٥٥).

وأما الأصل الثاني وهو العلم: فدليله من القرآن: ﴿وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَّحْمَةً وَعِلْماً﴾(١).

ودليله من العقل: أن الجاهل لا يصدر منه الفعل المتقن ولا الصنعة المرتبة الكاملة بل العالم هو الذي يصدر ذلك عنه.

ومن نظر في مخلوقات الله تبارك وتعالى وإتقانها وترتيب أشخاص الموجودات وأعضاء الحيوان حتى النملة وأقل منها يتبين له من لطف الخلقة وتزيين الصنعة وترتيب الحكمة ما يبهر العقل واللب.

فحينئذ يعلم أن هذا الصنع المحكم الغريب والملك المرتب العجيب لا يصدر إلاّ من عالم عظيم لا يعزب عنه مثقال ذرة في جميع الملك.

ولو لم يكن عالماً لما صدر عنه شيء من ذلك فقد ثبت علمه بالبرهان كما ثبت علمه بالخبر والقرآن والحمد لله.

الأصل الثالث القدرة: أما دليله من القرآن فقوله: ﴿وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾(٢).

فقدير دل على ذات ومعنى هي القدرة. ودليله من العقل: أن العاجز هو الذي لا يقدر على شيء ولا يصدر منه فعل بوجه.

وقد وجدت الأفعال ضروة. فقد ثبتت قدرته بأقل تأمل ونظر. والحمد لله.

الأصل الرابع الإرادة: أما دليله من القرآن فقوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ﴾(٣) [وقوله](٤): ﴿وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَيَخْتَارُ﴾(٥).

ودليله من العقل: أن الذي يتصف بعدم الإرادة هو المهمل في نفسه ومن/ كان بصفة [١٤٩/ أ] الإهمال فإنه لم يصرف قدرته إلى أحد الجهتين الإيجاد أو ترك الإيجاد فإن القدرة إنما تصدر الأفعال عنها بصرف الإرادة إياها إلى الفعل ولا يترك المريد الفعل إلا بترك الإرادة للفعل.

وكذلك التكوين بالكلام كما قال تعالى: ﴿إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَا أَرَدْنَاهُ أَن نَّقُولَ لَهُ كُن فَيَكُونُ﴾(٦). فقدم الإرادة على التكوين بالكلام.

فكيف يصح وجود فعل عن القدرة والكلام بغير إرادة، والإرادة متقدمة على الأحداث

---

(١) سورة غافر (الآية: ٧).
(٢) سورة المائدة (الآية: ١٢٠).
(٣) سورة الحج (الآية: ١٤).
(٤) زيادة للفصل بين الآيات.
(٥) سورة القصص (الآية: ٦٨).
(٦) سورة النحل (الآية: ٤٠).

بالقدرة والكلام فلا يكون فعل من الفاعل حتى يريد الفاعل، ولو صح وجود فعل بلا إرادة لكانت أفعاله غير مخصصة بالتقديم والتأخير والرفع والخفض والقبض والبسط، وكان يكون ملكه مهملاً كما تصدر حرارة النار عن النار والمعلول عن العلة. فكان يكون مضطراً، والإله سبحانه وتعالى يتنزه عما يتوهمه الجاهلون.

ولو صدرت أفعاله أيضاً من غير إرادة كما زعم كثير من الضالين لكانت أفعاله التي أحاط بها علمه تصدر عنه جملة في وقت واحد فلا يبقى فعل يوجده ويصدر عنه ويكون ملكه وأفعاله محصورة وتامة لا تزيد ولا تنقص ولا تتحول ولا تتغير ولا تتقدم ولا تتأخر.

وهذا مستحيل من قبل أن المريد هو الذي يوجد ما يشأ ويترك إيجاد ما لم يشأ إيجاده ويؤخر إيجاد ما شاء تأخيره إلى الوقت الذي شاء تأخيره ويخص شيئاً بما لم يخص به غيره.

فقد دلت التخصيصات في الأشياء والتقديم والتأخير على إرادة الباري تعالى برهاناً بيناً كما نطق به القرآن. والحمد لله.

الأصل الخامس الكلام: أما دليله من القرآن فقوله تعالى: ﴿وَكَلَّمَ ٱللَّهُ مُوسَىٰ تَكْلِيماً﴾[1] [وقوله][2]:/ [١٤/ ب] ﴿وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ ٱللَّهُ إِلاَّ وَحْياً﴾[3] وقوله: ﴿يُرِيدُونَ أَن يُبَدِّلُوا كَلَامَ ٱللَّهِ﴾[4] وغير ذلك.

ودليله من العقل: أن القرآن العزيز الذي هو كلامه ثبت بالتواتر والتواتر برهان قاطع أبين من كل برهان فإن من لم يدخل مكة ولم يرها قط قد استوى علمه بوجودها مع من دخلها ورآها وكذلك مصر وبغداد وجميع البلدان المشهورة قد استوى علمه بوجود جميعها مع علم من دخلها ورآها.

وإنما ثبت هذا بالتواتر والشهرة وثبت للعقول أنه كلام الله وأنه ليس كلام آدمي ولا خلق بالإعجاز الذي فيه فإنه قد أعجز الخلق كلهم على فصاحتهم ونبلهم ومكيدة عقولهم عن أن يأتوا بسورة مثله أو بعشر أو بقرآن مثله.

ثم كان الرسول الذي أتى به أُمّيًا لا يكتب ولا يقرأ ولا يقول الشعر فكان ذلك منه أبين بيان على أنه كلام الله تبارك وتعالى.

ثم إنه تحدى الكل وقال لهم: ﴿قُل لَّئِنِ ٱجْتَمَعَتِ ٱلإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأْتُوا بِمِثْلِ

---

(١) سورة النساء (الآية: ١٦٤).
(٢) زيادة للفصل بين الآيات.
(٣) سورة الشورى (الآية: ٥١).
(٤) سورة الفتح (الآية: ١٥).

هَٰذَا ٱلْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا﴾[١].

أي معيناً. فلما لم يستطع أحد أن يأتي بمثله أو بمثل سورة منه عُلم بالبرهان القاطع والدليل الساطع أنه كلام الله جل جلاله.

فإذا ثبت أنه كلام ثبت أنه غير مخلوق ولو كان كلام بشر لكان مخلوقاً مثل المتكلم به فافهم.

وروي عن إمام العلماء وسيد الحكماء علي بن أبي طالب رضي الله عنه حين قالت له الخوارج: حكّمت في دين الله المخلوقين. فقال: والله ما حكمت مخلوقاً ما حكمت إلاّ القرآن.

فإذا تحققت هذا علماً. فاعلم أن كلام الله تعالى ليس بصوت ولا حرف، والكلام الحقيقي هو كلام النفس كما قال الشاعر:

/ إن الكلام لفي الفؤاد وإنما جعل اللسان على الفؤاد دليلا [١٥٠/]

فالأصوات والحروف إنما وضعت دلالات علي كلام النفس، ومن قلت له: اكتب أرضاً أو سماءً أو فرساً أو آدمياً فكتب الذي أمليت عليه في ورقة أو لوح ثم زعم أن الأرض أو السماء أو الفرس هو المكتوب في الورقة فاقطع طمعك عن عقله واقض بحماقته.

ومن زعم أن حركة شفتيه أو صوته وكتابته بيده في الورقة هو عين كلام الله القائم بذاته فقد زعم أن صفة الله قد حلت بذاته ومست جوارحه وسكنت قلبه.

وأي فرق بين من ما يقول هذا وبين من يزعم من النصارى أن الكلمة اتحدت بعيسى عليه السلام.

والحروف أيضاً والأصوات مختلفة فيها خط حسن وأحسن منه، وخط غير حسن يعاب عليه صاحبه ويضرب، وكذلك الأصوات مختلفة باختلاف الخلق منها صوت مطرب وصوت خشين، وصوت يُشتم عليه صاحبه.

فأي صوت منها أو أي خط هو كلام الله منها؟ والحروف والأصوات متقدمة بعضها على بعض فالألف قبل اللام والميم قبل اللام ألف.

ونهاية صفات الله لا توصف بالحد وبالنهاية والقبل والبعد ومع هذا كله فكلام الله مكتوب في المصحف مقروء بالألسنة محفوظ في القلوب وليس حالاً في مصحف ولا

---

(١) سورة الإسراء (الآية: ٨٨).

جارحة ولا قلب؛ بل هو المسموع والمفهوم ولو كانت الحروف هي نفس كلام الله كيف كان عثمان رضي الله عنه يستجيز أو كيف كان يتجرأ أو يقدم على حرق المصاحف بمحضر آلاف من الصحابة وهم العلماء القدوة رضي الله عنهم.

كلا بل علم عثمان والصحابة رضي الله عنهم أن كلام الله ليس بأشخاص/ ولا حروف [١٥٠/ ب] فتحرق بإحراق الأوراق والمداد.

وتبين بفعله ذلك رضي الله عنه الفرق بينه وبين الحشوية المجسمة التي تزعم أن كلام الله صوت وحرف ففيه أسوة حسنة لأهل السنة. والحمد لله.

الأصل السادس البصر: دليله من القرآن قوله: ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ سَمِيعاً بَصِيراً﴾(١).

ودليله من العقل: أن البصير هو الذي يتصرف بنظره في ملكه ويضع الأشياء مواضعها ولو كان عادماً لصفة البصر كيف كان يتصرف في ملكه وينفذ أفعاله في جميع ملكوته.

فقد ثبت بجميع الأفعال وتصرفه في ملكه بصره بالبرهان البين. والحمد لله.

لأن من عدم البصر كان به العمى والأعمى وإن كان عالماً لا يهتدي سبيلاً ولا يتصرف في ما يحب.

الأصل السابع السمع: أما دليله من القرآن: ﴿قَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ﴾(٢). وقوله: ﴿إِنَّنِي مَعَكُمَآ أَسْمَعُ وَأَرَىٰ﴾(٣).

ودليله من العقل: استجابته لخواص عباده الأنبياء عند بعثهم إلى الأمم وتكذيبهم إياهم واقتراحهم عليهم بالمعجزات فيسألونه ويدعونه فيجيبهم. ولو لم يسمعهم لما أجابهم.

وقد ثبتت عقوبات الأمم وإهلاكهم بعد دعاء الأنبياء واستجابة الله لهم بالبرهان المتواتر الذي لا شك فيه كقول نوح عليه السلام: ﴿رَّبِّ لَا تَذَرْ عَلَى ٱلْأَرْضِ مِنَ ٱلْكَافِرِينَ دَيَّاراً﴾(٤) فكان استجابته له موافقة لدعائه.

وكقول أيوب عليه السلام: ﴿مَسَّنِيَ ٱلضُّرُّ وَأَنتَ أَرْحَمُ ٱلرَّاحِمِينَ﴾(٥) الآية. ثم قال: ﴿فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ﴾(٥).

---

(١) سورة النساء (الآية: ١٣٤).
(٢) سورة المجادلة (الآية: ١).
(٣) سورة طه (الآية: ٤٦).
(٤) سورة نوح (الآية: ٢٦).
(٥) سورة الأنبياء (الآية: ٨٣، ٨٤).

وكقول زكريا عليه السلام: ﴿رَبِّ لاَ تَذَرْنِي فَرْداً وَأَنتَ خَيْرُ الْوَارِثِينَ﴾[(١)]. ثم قال: ﴿فَٱسْتَجَبْنَا لَهُ وَوَهَبْنَا لَهُ يَحْيَىٰ﴾[(١)].

وكقول ذي النون: ﴿لاَّ إِلَـٰهَ إِلاَّ أَنتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ الظَّالِمِينَ﴾[(٢)] ثم قال: ﴿فَٱسْتَجَبْنَا لَهُ﴾[(٢)].

وكقول عيسى عليه السلام: ﴿ٱللَّهُمَّ رَبَّنَآ أَنزِلْ عَلَيْنَا/ مَآئِدَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ﴾[(٣)] [إلى قوله][(٤)]: ﴿قَالَ ٱللَّهُ إِنِّي مُنَزِّلُهَا عَلَيْكُمْ﴾[(٣)]. [١٥١/ أ]

وأمثال ذلك لا يحصى فقد تواتر في حق كل من غاب عن تلك المواطن كما ثبت مشاهدة حق كل من حضر تلك المعجزات، والتواتر والمشافهة في العلم بوجود الشيء سواء في حق غير الأنبياء والإجابة للأولياء كثير.

وهو أفضل الكرامات فيعطيهم ما يسألون ولو لم يسمعهم لما أجابهم.

قال الله تبارك وتعالى في هذا المعنى: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ ٱلدَّاعِ إِذَا دَعَانِ﴾[(٥)].

وعبادة العالم كلها أكثرها بالأذكار سراً أو جهراً وحركات الوجود كله أصوات خفية وجلية وهو يعلم الخلق بأقوال أسرارهم وجهرها كقوله: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ نُهُواْ عَنِ ٱلنَّجْوَىٰ ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا نُهُواْ عَنْهُ وَيَتَنَاجَوْنَ بِٱلإِثْمِ وَٱلْعُدْوَانِ﴾ [(٦)] وكقوله: ﴿قَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا﴾[(٦)].

ولو لم يسمع ذلك لما أعلم به كما سمعه. فافهم.

الأصل الثامن كمال الإدراك للطعوم والروائح والملموسات: أما دليل إدراكه لها من القرآن كقوله: ﴿مِن بَيْنِ فَرْثٍ وَدَمٍ لَّبَناً خَالِصاً سَآئِغاً للشَّارِبِينَ﴾[(٧)]. وكقوله: ﴿لَّمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُ﴾[(٨)]. دليله أنه يدرك ما تغير طعمه. وكقوله: ﴿مِّن مَّآءٍ غَيْرِ ءَاسِنٍ﴾[(٨)]. دليله إدراكه للآسن. وكقوله: ﴿كُلُواْ مِن طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ﴾[(٩)]. فخص الطيب وهو الحلال وما فيه

---

(١) سورة الأنبياء (الآية: ٨٩، ٩٠).
(٢) سورة الأنبياء (الآية: ٨٧، ٨٨).
(٣) سورة المائدة (الآية: ١١٤، ١١٥).
(٤) زيادة لإيضاح السياق.
(٥) سورة البقرة (الآية: ١٨٦).
(٦) سورة المجادلة (الآية: ١).
(٧) سورة النحل (الآية: ٦٦).
(٨) سورة محمد (الآية: ١٥).
(٩) سورة طه (الآية: ٨١).

اللذة أيضاً ودل بتخصيص اللذيذ أنه يدرك الكريه المطعم المر المذاق. وكقوله في الروائح: ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ ٱلْمَحِيضِ قُلْ هُوَ أَذًى﴾[١]. وليس شيئاً أنتن من رائحة المحيض. وكقوله: ﴿مِن صَلْصَالٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ﴾[٢]. أي متتن متغير. وكقوله: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجْسَ﴾[٣]. أي النتن. كما قال تعالى: ﴿فَزَادَتْهُمْ رِجْساً إِلَىٰ رِجْسِهِمْ﴾[٤]. أي نتناً إلى نتنهم لأن الكفار رجس نجس/ [١٥١/ ب] وقال في رائحة يوسف عليه السلام: ﴿إِنِّي لَأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ﴾[٥]. لأن كل طيب له رائحة طيبة كما كانت توجد رائحة محمد عليه الصلاة والسلام. وقال: ﴿وَلاَ رَطْبٍ وَلاَ يَابِسٍ﴾[٦]. فعبر عن الملموس والرطب واليابس. وقال: ﴿نَارٌ حَامِيَةٌ﴾[٧]. أي حارة. وإنما يجد المخلوق حرارتها بلمسها. وقال: ﴿يُقَلِّبُ ٱللَّهُ ٱللَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ﴾[٨] أي بما فيهما.

وهذا كثير لا تحصى شواهد إدراكه للأشياء ومن جميع الوجود على الكمال الأرفع.

ودليله من العقل: أن إدراكه لذلك كمال وفقده نقصان.

ولو كان يعجزه شيء لا يدركه لكان ناقصاً والإله لا يكون ناقصاً.

ولأن مخلوقاته مثل بني آدم وغيرهم يدركون جميع ذلك بحواسهم وذلك كمال فضلوا به على غيرهم.

فمن لم يدرك ذلك فهو ناقص فكيف يكون خلقه تبارك وتعالى أكمل منه. فافهم.

الأصل التاسع العلم: فإنه منزه عن شبه الحوادث وطروئها عليه.

واعلم أن الباري تبارك وتعالى مخالف في أوصافه لجميع الأشياء ليس إدراكه كإدراك الخلق ولا كما يتوهمه الجاهلون.

بل هو جل جلاله عالم بغير قلب ولا دماغ وقابض وباسط وفاعل ومالك بغير جارحة.

ومريد بغير تمنٍ ولا فكر، ومتكلم بغير لسان ولا صوت ولا حرف، وسميع بغير أذن ولا إصغاء، وبصير بغير حدقة ولا مقابلة، ومدرك للطعوم بغير شفة ولا ذوق [ومدرك][٩]

---

(١) سورة البقرة (الآية: ٢٢٢).
(٢) سورة الحجر (الآية: ٢٦).
(٣) سورة الأحزاب (الآية: ٣٣).
(٤) سورة التوبة (الآية: ١٢٥).
(٥) سورة يوسف (الآية: ٩٤).
(٦) سورة الأنعام (الآية: ٥٩).
(٧) سورة القارعة (الآية: ١١).
(٨) سورة النور (الآية: ٤٤).
(٩) زيادة يتطلبها السياق.

للروائح بغير أنف ولا شم، وللرطب واليابس وتقلب الليل والنهار بما فيهما والقلوب والوجود كله بغير ملاصقة ولا لمس.

وكذلك يجيء بغير حركة وينزل بغير هبوط ولا سفول ويغضب من غير تغير ولا تشفي ويرضى من غير استبشار ولا طيب نفس.

ويحب من غير سرور ولا فرح،/ ويقرب من غير تلاصق ولا اتصال، ويبعد من غير [١٥٢/ أ] تناء وانفصال ويعلو على جميع الأشياء من غير استقرار ولا مكان بل بعلو الرتبة والمكانة وسمو الرفعة والجلالة.

واحذر مزلة الوهم والخيال فإن هذا الصراط أدق من الشعر وأحد من الموسى.

وأمور الباري كلها أجل وأرفع مما يتوهمه الجاهلون ودليل ذلك من القرآن العزيز: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾[1]. وقوله: ﴿لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ. وَلَمْ يَكُن لَّهُ كُفُواً أَحَدٌ﴾[2].

ودليله من العقل أنه لو كان يشبه الأشياء في أوصافه لوجب عليه ما يجب عليها لأن حقيقة الشبه أن يكون للواحد مثل ما للآخر ولو كان ذلك لما عرف الخالق من المخلوق ولا الرب من المربوب ولا المالك من المملوك.

لأنه كان يلزمه مثل ما لزمها فيصير مثلها وهي مثله وإذا كان مثلها فهو واحد منها مصنوع كصنعتها لأن الأشياء مصنوعة قد شهدت العقول بالبراهين القاطعة وضع صورها وهيئة تأليفها وتركيبها.

فلو أشبهها في شيء من صفاته لكان مصوراً مثلها مصنوعاً.

فبالضرورة القاطعة وجب أن يكون مخالفاً لها في جميع صفاته.

وإذا كان مخالفاً لها لم تشبهه ولم يشبهها، فما ورد عليك في الشرع من المشتبهات فإن كنت ممن نهض فيها بطريق العلم الراسخ وإلاّ فارجع إلى هذا الأصل وهو علمك بأنه مخالف لجميع الأشياء.

وانف عنه ما لا يليق به وهو معنى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾[3].

الأصل العاشر العلم بأنه قديم الصفات: أما دليله من القرآن فقوله جل جلاله: ﴿وَكَانَ

---

(١) سورة الشورى (الآية: ١١).
(٢) سورة الإخلاص (الآية: ٣، ٤).
(٣) سورة الشورى (الآية: ١١).

ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيراً﴾[١]. [وقوله][٢]: ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيماً﴾[٣]. [وكقوله][٤]: ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ سَمِيعاً بَصِيراً﴾[٥]. [وكقوله][٤]: ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ سَمِيعاً عَلِيماً﴾[٥].

وأمثال هذا لا يحصى فمعنى كان في هذه الآيات وما أشبهها: كان الله في أزله ولا/ [١٥٢/ ب] يجوز أن تصرف فيقال: كان يكون.

ولذلك أطلق بعض العلماء في كان فقال: كان هو الله. أشار به إلى أنه القديم جل جلاله.

ودليله من العقل: أن الله جل جلاله حين أوجد الأفعال والموجودات لو لم يتقدم له العلم بوجودها والقدرة عليها والكلام المخاطب لها بالتكوين والإرادة وجميع الأوصاف الموجبة له رتبة الربوبية والملك لما صح منه وجود الأفعال. لأن وجود فعل من عاجز جاهل ضعيف غير قوي ولا مريد محال.

وقد وجدت الأفعال فقد صح قدم الصفات قبلها وإذا صح قدم الصفات قبلها استحال عليه طرئان الحوادث في صفاته لأنه لو طرأت عليه لازداد علماً وقدرة وبصراً وسمعاً وغير ذلك من أوصافه فكان يكمل بعد النقصان وعند طروئها عليه كان يشتغل بالفكر والروية واكتساب الفضائل فيشغله شأن عن شأن.

ولو أشغله تدبير أهل بلدة من البلدان أو جسد واحد من أجساد الحيوان عن تدبير شيء من الأكوان لبهت وتحير.

فبطل الملك والحدثان وكان يكون له في تكميل نفسه شغل شاغل على ممر الدهور والأزمان.

سبحان ربك رب العزة عما يقول المعتزلة وجميع أهل الإفك والبهتان.

وإنما الحق الذي لا يجوز غيره أن تعلم أن صفات الباري سبحانه قديمة بقدم ذاته لم يحدثها هو لنفسه ولا حدثت عليه بل كان بها من غير افتتاح وجود ولا تزداد ولا تنقص كما كانت عليه ولا تفارقه أبداً ولا تحل في شيء أبداً بل هو منفرد بأوصافه عن جميع خلقه.

ولا يخلق منها بمعنى التبعيض شيئاً بل الأشياء كلها فاضلها ومفضولها أرواحها وأجسامها مخلوقة لا من شيء.

---

(١) سورة الأحزاب (الآية: ٢٧).
(٢) زيادة للفصل بين الآيات.
(٣) سورة الأحزاب (الآية: ٤٠).
(٤) زيادة لإيضاح السياق وللفصل بين الآيات.
(٥) سورة النساء (الآية: ١٣٤، ١٤٨).

والله جل جلاله ليس من شيء ولا منه ـ على معنى التبعيض ـ شيء ولا هو مثل/ [١٥٣/ أ] شيء[١].

[وصلى الله على محمد وآله وسلم تسليماً كثيراً][٢].

الشعبة الثالثة والثلاثون: الإيمان بالأقدار والقضايا الجارية على الخلق

أما دليل كونها من شعب الإيمان فإن في حديث جبريل صلوات الله عليه الذي سأل فيه رسول الله ﷺ عن الإسلام، والإيمان، والإحسان. قال: فأخبرني عن الإيمان؟ قال: «أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر وتؤمن بالقدر كله خيره وشره»[٣] قال: صدقت.

فجعل الإيمان بالقدر من جملة الإيمان ومن أعداد شعبه.

وفي حديث: «ثلاث من أصل الإيمان: الكف عن من قال: لا إله إلا الله، ولا يكفر بذنب ولا يخرج من الإسلام بعمل، والجهاد ماض منذ بعثني الله إلى أن ينال آخر أمتي الدجال لا يبطله جور جائر ولا عدل عادل، والإيمان بالأقدار»[٤].

فجعل الإيمان بالأقدار من أصول الإيمان.

وحلف ابن عمر رضي الله عنه فقال: والذي يحلف به ابن عمر لو كان لأحدهم مثل أحد ذهباً فأنفقه في سبيل الله ما قبل الله منه حتى يؤمن بالقدر.

فقال: يؤمن بالقدر. فجعله من الإيمان.

وعن حذيفة بن اليمان قال قال رسول الله ﷺ: «لكل أمة مجوس، ومجوس هذه الأمة يقولون لا قدر، من مات منهم فلا تشهدوا جنائزهم، ومن مرض منهم فلا تعودوهم، وهم

---

(١) جاء بهامش الصفحة أعلى اليمين عبارة: بلغ مقابلة وهو ما يفيد مقابلة المخطوط على مخطوط آخر أو على الأصل.

(٢) ما بين المعقوفين اعتاد المؤلف ذكره في نهاية كل شعبة ولم يذكره هنا فأثبته.

(٣) أخرجه البخاري في الصحيح (١/ ٢٠)، أحمد في المسند (١/ ٣١٩)، البيهقي في السنن الكبرى (١٠/ ٢٠٣)، أبو نعيم في الحلية (٨/ ٢٢)، ابن حجر في الفتح (١/ ١١٤)، وفي المطالب العالية له (٢٨٩٤).

(٤) أخرجه أبو داود في السنن (٢٣٥٢)، البيهقي في السنن الكبرى (٩/ ١٥٩)، الزيلعي في نصب الراية (٣/ ٣٧٧)، التبريزي في مشكاة المصابيح (٥٩)، سعيد بن منصور في السنن (٢٣٦٧).

شيعة الدجال، وحق على الله أن يلحقهم بالدجال»[١].

فوصفهم بأوصاف مجانبة للإيمان من أجل عدم هذه الشعبة العظيمة فيهم.

واعلم أن: الإيمان بالقدر من أعظم شعب الإيمان لأنه من التوحيد فإنه إضافة الأفعال كلها إلى الله وأنها صادرة عن قدرته لا شريك له فيها.

[١٥٣/ ب] فإذا أضاف العبد شيئاً من الأفعال إلى غير الله فقد أشرك به، وهذا يلزم كل من/ كذب بالقدر لأن تكذيب القدر تكذيب القرآن والحديث ومن كذب بالقرآن والحديث فقد كذب الله ورسوله، قال الله تبارك وتعالى: ﴿إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ﴾[٢]. وقال: ﴿وَكُلُّ شَيْءٍ فَعَلُوهُ فِي الزُّبُرِ. وَكُلُّ صَغِيرٍ وَكَبِيرٍ مُسْتَطَرٌ﴾[٢]. وقال: ﴿وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلاَّ عِندَنَا خَزَائِنُهُ وَمَا نُنَزِّلُهُ إِلاَّ بِقَدَرٍ مَّعْلُومٍ﴾[٣].

والإيمان بالقدر على ثلاثة أضرب:

ضرب في مقام الإسلام.
وضرب في مقام الإيمان.
وضرب في مقام الإحسان.

فأما الضرب الأول في مقام الإسلام وعالم الحس: فهو أن تؤمن بأن كل فعل في الوجود الظاهر ظهر بحركة الحواس وأشخاص العالم أو سكون فهو فعل للّه تعالى لا شريك له في شيء من ذلك خيراً كان أو شراً طاعة أو معصية.

وأما الضرب الثاني في مقام الإيمان: فهو أن تصدق بأن الاستطاعة والقوة المنسوبة إلى النفوس والأرواح على اكتساب الحركات والسكنات إنما ذلك مجاز، أعني إضافتها إلى الخلق والكل من عند الله هو يعطي القوة والاستطاعة ويخلقها ويخلق المقدور الذي تقع عليه القدرة والقوة.

هذا في جميع الملكوت كله والجبروت سواء كان المقدور فعلاً للنفوس أو نظراً للعقول أو أي شيء كان.

---

(١) أخرجه أبو داود في السنن (٤٦٩٢)، أحمد في المسند (٢/ ٨٦)، الهيثمي في مجمع الزوائد (٧/ ٢٠٧)، السيوطي في الدر المنثور (٦/ ١٣٨)، ابن عدي في الكامل (٦/ ٢٣١٧)، السيوطي في اللآلىء المصنوعة (١/ ١٣٣).

(٢) سورة القمر (الآية: ٤٩، ٥٢، ٥٣). (٣) سورة الحجر (الآية: ٢١).

وأما الضرب الثالث في مقام الإحسان: فهو مقتضى علم الله كما أن الضربين الأولين اللذين تقدم ذكرهما مقتضى قدرته جل جلاله وهو أن ينظر العقل ويؤمن أن مقادير الموجودات كلها وما يجري عليها سبق بها علم الله قبل وجود أعيانها.

فقد كان الله عالماً بالكون كله وبما يكون من الكون من الأفعال قبل وجود الكون وهذا هو القدر المعلوم الذي قال فيه تعالى: ﴿وَمَا نُنَزِّلُهُ إِلاَّ بِقَدَرٍ مَعْلُومٍ﴾[1] أي معلوم قبل نزوله ووجوده.

/ ولو لم يكن ذلك كذلك على ما زعمه أهل الباطل لجاز على الله تبارك وتعالى [١٥٤/ أ] ضربان من المستحيل:

الضرب الواحد: أن يطرأ عليه ما لم يعلمه حين وجود الفعل الذي لم يسبق به علمه وفي ذلك إثبات حدوث العلم عليه وإضافة النقائص إليه.

والضرب الثاني من المستحيل: أن يطرأ في ملكه سبحانه ما لا يعلمه أبداً من الأفعال كما يقول الذي ينسب إليه علم الكليات دون الجزئيات وغيرهم من القدرية.

ولو كان ذلك كذلك لأدى إلى أن العالم أجهل والجاهل أعلم وهو محال كما أن القدرة لو لم يتأثر عنها الكون كله وأعماله وحركاته وسكناته على ما زعمه المخالفون لأدى ذلك إلى أن القادر أعجز وأن العاجز أقدر وكان الذي يصدر من الخلق من الأفعال أكثر من الذي يصدر عن الخالق.

سبحانه وتعالى عما يقول الظالمون علواً كبيراً.

ومعرفة هذا ينحصر لك في تسعة فصول تعرف بها حكمة الله في أفعاله المقدرة كلها:

الأصل الأول: العلم بأن الله خالق جواهر العالم كلياته وجزئياته خلافاً لمن يقول إن العالم الكلي والطبيعي يولد الجزئيات التي هي الموردات الثلاثة: المعادن، والنبات، والحيوان.

الأصل الثاني: العلم بأن الله خالق أعمال العالمين الحركة والسكون والصنائع والأفعال خلافاً للقدرية وأمثالهم الذين يضيفون الأفعال للمخلوقات.

والأصل الثالث: العلم بأن الأعمال كسب للعباد لأنها خلق لهم وأنهم لا يحيطون علماً بأجزاء تفاصيل ما يصدر عنهم من الحركات المكتسبة والسكنات ولا بأعدادها والخالق

(١) سورة الحجر (الآية: ٢١).

لا يكون خالقاً إلاّ أن يعلم ما يخلق كما قال تعالى: ﴿أَلاَ يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ﴾[١].

[١٥٤/ ب] ولأنها أيضاً خير محض/ فإنهم بالضرورة يدركون التفرقة بين الحركة المقدورة بالاختيار وبين الرعدة الضرورية فلم يبق إلا حالة ثالثة فعبر عنها بالاكتساب وعلى ذلك يقع الثواب والعقاب والكل خلق الله.

الأصل الرابع: العلم بأن أعمال الخلق كلهم وإن كانت كسباً لهم فإنها مراد الله تعالى ولو لم يرد الخير والشر جميعاً لكان يعصى كرهاً، ولو كان ذلك كذلك كما يزعم المبتدعة وغيرهم من الضالين لكان الذي يجري على إرادة إبليس وجنوده وأتباعه من المكروه أكثر من الذي يجري على إرادة الله من الخير.

وفي كتاب الله عز وجل دليل على أنه يريد الشر ممن أراده منه وهو قوله: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجْسَ﴾[٢] [وقال:][٣] ﴿لِيُعَذِّبَهُم بِهَا فِي ٱلْحَيَاةِ ٱلدُّنْيَا وَتَزْهَقَ أَنفُسُهُمْ وَهُمْ كَافِرُونَ﴾[٤].

تقدير الكلام: ويريد أن تزهق أنفسهم على الكفر.

الأصل الخامس: العلم بأن الله متفضل بالخلق والإيجاد وبتكليف لا على معنى الوجود واللزوم خلافاً للمعتزلة التي تقول بوجوب ذلك عليه لما فيه من مصلحة العباد فإن الذي يفعل ما يجب عليه يلحقه ضرر في ترك فعل ما يجب عليه وينتفع بفعله إذا فعله وهذا وصف المضطر والذي يلحقه النفع والضرر.

والباري سبحانه يتنزه عن الضرر وعن الحظوظ والأعراض فإذا لم يتضرر بترك مصلحة العباد ولم ينتفع بها لم يكن للوجوب في حقه معنى يعود عليه.

الأصل السادس: العلم بأن الله يجوز عليه أن يكلف عباده ما لا يطيقون خلافاً لقول المعتزلة وهذا مشاهد ومعلوم بالسمع فإن الله تعالى يقول في كتابه: ﴿رَبَّنَا وَلاَ تُحَمِّلْنَا مَا لاَ طَاقَةَ لَنَا بِهِ﴾[٥].

[١٥٥/ أ] فإنهم لم يسألوه محالاً ولو كان تكليف ما لا يطاق محالاً لكانت/ الآية لغواً.

وذلك مشاهد أيضاً لأن الرسل خاطبت الكفار بالإيمان وهم لا يطيقونه.

---

(١) سورة الملك (الآية: ١٤).
(٢) سورة الأحزاب (الآية: ٣٣).
(٣) زيادة للفصل بين الآيات.
(٤) سورة التوبة (الآية: ٥٥).
(٥) سورة البقرة (الآية: ٢٨٦).

وقد خاطب رسول الله ﷺ أبا جهل وغيره من الكفار بالإيمان وقد أعلمه بأنهم لا يؤمنون فقال تعالى: ﴿سَوَآءٌ عَلَيْهِمْ أَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لاَ يُؤْمِنُونَ﴾[(١)].

وقد أمره بالإنذار والتبليغ والدعوة ليكل إلى الإيمان فهذا تكليف ما لا يطاق.

الأصل السابع: العلم بأن لله إيلام الخلق وتعذيبهم من غير جرم سابق ومن غير ثواب لاحق خلافاً للمعتزلة لأنه متصرف في ملكه لا يعدوه فالظلم عبارة عن تصرف المالك في ملك غيره وهو محال على الله إذ لا يصادف لسواه ملكاً وذلك مشاهد في البهائم فإن ذبحها وما صبّ عليها من أنواع المحن والعذاب إيلام لها ولم يتقدم لها جريمة.

فإن قلت: إن الله يختبرها ويثيبها على ذلك ويجب عليه ذلك.

فقد تقدم أنه لا واجب على الله لأنه لا يتضرر بترك فعل من الأفعال والثواب منه لكان من صح أنه يثاب فضل ونعمة والعذاب عدل وحكمة.

الأصل الثامن: العلم بأنه يفعل بعباده ما يشاء ولا يصح [أن][(٢)] يجب عليه رعاية الأصلح لهم خلافاً للمعتزلة في قولها: إن فعل الأصلح لعباده واجب عليه.

وقد قدمنا أن الوجوب لا يعقل في حق الله سبحانه.

فإن قيل: مهما قدر على فعل الأصلح لهم ثم سلك بهم أسباب العذاب كان ذلك قبيحاً لا يليق بالحكمة.

فالجواب أن القبيح هو ما لا يوافق الغرض والشيء قد يكون قبيحاً عند شخص وحسناً عند آخر لأنه وافق غرض أحدهما ولم يوافق غرض الآخر.

وإن أريد بالقبيح ما لا يوافق غرض الباري فهو محال لأنه لا غرض له فلا يتصور منه قبيح بل هو الحكيم الحق والحكيم معناه/ العالم بحقائق الأشياء القادر على إحكام فعلها [١٥٥/ ب] على وفق إرادته. فكيف يجب عليه وصف رعاية الأصلح وهو لا يستفيد برعاية الأصلح ثناءً ولا ثواباً ولا يدفع عن نفسه ضرراً أو ورقة أو حنة[(٣)].

كل ذلك على الحكيم الحق محال، والحكيم من الخلق يرعى الأصلح نظراً لنفسه ليستفيد نفعاً وثناءً وثواباً عاجلاً أو آجلاً أو يرفع عن نفسه به رقة أو حنة[(٣)] أو ضرراً لأن له

---

(١) سورة البقرة (الآية: ٢٨٦).

(٢) ما بين المعقوفين زيادة لاقتضاء السياق.

(٣) الحنة: العداوة.

عرضاً والباري تعالى منزه على الحظوظ والأغراض.

الأصل التاسع: اعلم بأن معرفة الله وطاعته واجبة بإيجاب الله وشرعه لا بالعقل كما يقول المعتزلة وغيرهم من المخالفين.

ومعنى كون المعرفة والطاعة واجبين أن في تركها ضرراً على تاركها.

ومعنى كون الشرع موجباً أنه يعلم ما يضر وينفع بعد الموت والعقل يفيد فهم ذلك والإحاطة بإمكان ما يخبر به منه في المستقبل، ومن أين للعقل بمجرده، دون الشرع أن يوجب الطاعة والمعرفة وأن يعرف الحسن والقبيح والضار والنافع وإيجابه لا يخلو من ثلاثة أوجه:

● إما أن يوجب الطاعة والمعرفة لغير فائدة وهو محال لأن العقل لا يوجب المحال.

● والوجه الثاني: أن يوجب الطاعة والمعرفة لفائدة وغرض إلى المعبود جل جلاله، وذلك أيضاً محال فإنه مقدس عن الفوائد والأغراض بل الطاعة والمعصية والكفر والإيمان في حقه سيان.

● والوجه الثالث: أن يوجب الطاعة والمعرفة بفائدة ترجع إلى العبد، وذلك أيضاً محال لأنه لا غرض له في المال لأنه يتعب فيه ويتصرف عن الشهوات الملائمة له بسببه وليس في المال إلاّ الثواب والعقاب فمَن أين يعلم بمجرد أن الله يثيبه على المعرفة/ والطاعة ولا يعاقب عليها. [١٥٠/ أ]

والطاعة والمعصية في حق [الله][1] جل جلاله يتساويان لا يتضرر ولا ينتفع بهما وإنما عرف الوجوب وامتاز الحسن والقبيح بالشرع لأن الباري جل جلاله أرسل الرسل وأطلعهم على مغيبات الأمور الضارة والنافعة فهم يقولون للخلق أمامكم المخوفات المهلكات والمحبوبات المنجيات إن نظرتم كما أمرناكم وأبصرتم ما به أخبرناكم، وإذا أبصرتم علمتم أن حقهم واجب النظر الذي هو أول الواجبات عند أهل الأصول وسبب العلم والنجاة والعقل صالح ومهيأ لأن يبصر ما أخبروه ويرشد إلى ما يضره وينفعه إذا اقتدى بهداهم وسلك منهاجهم[2].

---

(١) سقط لفظ الجلالة من السياق فأثبته بين معقوفين.

(٢) جاء بهامش الصفحة عبارة: بلغ مقابلة وهو ما يفيد مقابلة المخطوط على الأصل أو على آخر.

الشعبة الرابعة والثلاثون: الإيمان بالأنبياء والرسل بالقلب

أما كون هذه الشعبة من الإيمان فبين جداً لأن الله قد حتم على نفسه أن لا يقبل الإيمان به إلا مقروناً بالإيمان برسله.

ومن لم يفعل ذلك فهو كافر لقوله عز وجل: ﴿وَيُرِيدُونَ أَن يُفَرِّقُوا بَيْنَ اللَّهِ وَرُسُلِهِ وَيَقُولُونَ نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ وَيُرِيدُونَ أَن يَتَّخِذُوا بَيْنَ ذَٰلِكَ سَبِيلاً أُولَٰئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ حَقّاً﴾[1].

ولولا الرسل[2] ما اهتدى أحد من الخلق خلافاً لمن يقول لا فائدة في بعث الأنبياء لأن العقل يغني عنهم ويهدي إلى الأفعال المنجية في الآخرة.

وما زعموه باطل فإن الأنبياء مشاهدون لأمور الآخرة والعقل محجوب عن ذلك فكيف يهدي إلى النجاة بما لم يشاهده وهو غيب عنه فإذاً لا بد من الأنبياء ولا غنى عنهم بوجه ولا حال بل حاجة الناس إلى الأنبياء كحاجة الأعمى إلى الأولاد فكما لا يمشي الأعمى إلاّ بدليل فكذلك العقل أعمى في أمور الآخرة لا يهتدي إليها إلاّ بدليل.

وبذلك/ وصف الله نبيه محمداً ﷺ في التوراة فقال في وصفه: «يا أيها النبي إنّا [١٥٦/] أَرسلناك شاهد ومبشراً ونذيراً وحرزاً للأميين، أنت عبدي ورسولي سميتك المتوكل ليس بفظ ولا غليظ ولا سخّاب في الأسواق ولا يدفع بالسيئة السيئة ولكن يعفو ويغفر ولن يقبضه الله حتى يقيم به الملة العوجاء ويفتح به أعيناً عمياً وآذاناً صُمًّا وقلوباً غلفاً»[3].

فوصفه بأنه يُبَصِّر من العمى فكل عقل لم يتبع الرسل فهو أعمى يقع ويقوم في مهاوٍ لا آخر لها حتى يأتيه الموت فإذا لم يكن عنهم غنا ولم يكن منهم بد وجب تمييزهم ومعرفتهم من غيرهم وإنما عرفوا بالمعجزات التي أعجزوا بها الخلق ولما أتوا بما ليس في طاقة البشر الإتيان بمثله.

والأنبياء بشر مثل الأمم على أن ذلك المعجز إنما هو من عند رب العالمين فوجب الإيمان بهم أنهم رسل الله وأنه بعثهم إلى هداية الأمم فلا بد من معرفة المعجزة لأنها شرط في صدق الرسل وهو يميزها من السحر والكرامة.

---

(١) سورة النساء (الآية: ١٥٠، ١٥١).

(٢) يريد لولا أن الله أرسل الرسل.

(٣) أخرجه الطبراني في معجمه الكبير (١١/ ٣١٢).

فأما معرفة المعجزة: فتعتبر بأمرين يغنيان عما وراء ذلك من الأمور.

● **أحد الأمرين**: صلاح الرسول في نفسه وفضله على غيره فإن الرسول لا يكون إلاّ صالحاً في غاية من الفضل والعصمة من الكذب والفواحش.

● **والأمر الثاني**: تحدّي الخلق بمعجزته وادعاؤه أنهم لن يأتوا بمثل ما أتى(١) به على كثرتهم ومعرفتهم حتى يوقفهم على العجز الضروري فيقول لهم إن كنت عندكم ساحراً فإن السحر يتوصل إلى عمله فأتوا بمثله على كثرتكم وحذقكم فلما أعجزهم عن الإتيان وعرف صدقه وصلاحه وجب اتباعه وحرمت معصيته وخلافه.

[١٥٧/ أ] **وأما/ السحر**: فالفرق بينه وبين المعجزة أمران:

● **أحدهما**: أنه لا يظهر إلا على يدي رجل فاسد غير مرضي الحال ولذلك يقتل إذا عثر عليه.

● **الثاني**: أنه يتوصل إليه بالتعليم كل من اشتغل به ويبطل عند ظهور الحق عليه فلا يبقى لأنه تخييل والخيال يبطل عند ظهور الحقائق عليه قال الله تعالى: ﴿مَا جِئْتُمْ بِهِ ٱلسِّحْرُ إِنَّ ٱللَّهَ سَيُبْطِلُهُۥٓ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُصْلِحُ عَمَلَ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾(٢).

ولقد اجتمع على موسى سبعون ألف ساحر مع كل واحد منهم عصا وحبل فأبطل ذلك كله بعصاةٍ واحدة فأدخلهم في الإيمان شاءوا أم أبوا. والحمد لله.

وأما الكرامة: فالفرق بينها وبين المعجزة أمران:

● **أحدهما**: أنها لا تكون إلاّ على يدي ولي ولا تظهر إلاّ على يدي عدو(٣).

● **الثاني**: أنه مقر بأن كرامته بركة من بركات النبي ﷺ الذي اتبعه واستن بسنته ولو ادعى النبوة لبطلت كرامته على الفور وعاد فاسقاً وإنما يدعي أنها كرامة أكرم بها ببركة النبي ﷺ المتبع.

فافهم فهمك الله فقد ثبتت جميع النبوات بما أتى به الأنبياء من المعجزات الخارقة للعادات وثبتت نبوة نبينا محمد عليه الصلاة والسلام الذي لا نبي بعده بالقرآن العظيم الذي

---

(١) في الأصل: ارتى. وهو تحريف.

(٢) سورة يونس (الآية: ٨١).

(٣) يريد مخالف لهم وقد اختلف في أمر الكرامة فمن مؤيد، ومعارض. وعموماً فإن أمرها لا يصل إلى درجة المعجزة التي لا تكون إلاّ على يد نبي مرسل من قبل الله عز وجل إلى الناس.

تحدى به كافة الفصحاء البلغاء وهو باق بأيدي الخلق لم يقدر قط أحد من الخلق أن يعارض منه آية واحدة، والحمد لله.

ومن معجزاته: انشقاق القمر وتسبيح الحصى وإنطاق العجماء وجري الماء من أصابع يديه الكريمتين وإطعامه النفر الكثير من الطعام اليسير وغير ذلك من آياته ﷺ وأقواله الصادقة التي خرجت وتخرج كما أخبر بها وعنها.

ومن أعظم معجزاته: كونه أمياً لا يقرأ ولا يكتب ثم أتى الخلق/ بمجارٍ من العلم لا [١٥٧/ ب] تنفد وينابيع من الحكم كل عقل منها يستمد.

ومن أهم أصول هذا الباب: أن تعلم أنه لا نبي بعد محمد ﷺ وأنه قد ختمت به النبوة كما وصف الله في قوله: ﴿مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَكِن رَّسُولَ ٱللَّهِ وَخَاتَمَ ٱلنَّبِيِّينَ﴾(١).

وكل من أدرك وقته ولم يؤمن به وإن كان على طريقة نبي من الأنبياء قبله فهو كافر لا يقبل منه إيمانه لأن جميع الأنبياء قبله قد أمرت بالإيمان به لأمتها وبشر به فالجاحد لنبوته والتارك لطريقته كافر لأنه قد كفر بأمر نبيه الذي أمره بالإيمان بمحمد عليه الصلاة والسلام قال الله تبارك وتعالى في إيمان الأنبياء به قبل مبعثه: ﴿وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَاقَ ٱلنَّبِيِّينَ لَمَآ آتَيْتُكُم مِّن كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مُّصَدِّقٌ لِّمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ وَلَتَنصُرُنَّهُ قَالَ ءَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ إِصْرِي قَالُوٓاْ أَقْرَرْنَا قَالَ فَٱشْهَدُواْ وَأَنَا مَعَكُم مِّنَ ٱلشَّاهِدِينَ﴾(٢).

وقال عليه الصلاة والسلام: «لو أدركني موسى وعيسى ثم لم يؤمنا بي لأكبهما الله في النار»(١).

وإنما أشار بهذا صلوات الله عليه من أجل أهل الكتابين اليهود والنصارى أتباع موسى وعيسى الذين يزعمون أنهم على الحق لأنهم مؤمنون بالنبوة فقال: «لو أدركني موسى وعيسى ثم لم يؤمنا بي لأكبهما الله في النار»(١).

فكيف بغيرهما ممن هو على شريعتهما بزعمه ولم يبدل ولم يغير ولم ينسب إلى عيسى ما ليس هو له بأهل ولا افترى على الله كذباً من اليهود والنصارى.

---

(١) سورة الأحزاب (الآية: ٤٠). (٢) سورة آل عمران (الآية: ٨١).

(٣) أخرج نحو هذا الحديث أحمد في المسند (٣/ ٣٨٧)، البيهقي في دلائل النبوة (١/ ٨)، الألباني في الإرواء (٦/ ٣٤)، ابن كثير في التفسير (٤/ ٢٩٦).

وأما من بدل وغير فليس كلامنا عليه ولا يقع به اعتبار وإنما لم يصح أن يفرق بين الأنبياء بالإيمان من أجل أنهم كلهم أولاد علات ودعوتهم واحدة إلى دين واحد يعبدون رباً واحداً فمن/ كذب واحداً منهم فقد كذب جميعهم ولذلك قال تعالى: ﴿كَذَّبَتْ قَوْمُ نُوحٍ الْمُرْسَلِينَ﴾(١). [١٥٨/ أ]

ولم يكن نوح إلاّ رسول واحد. ﴿وكَذَّبَتْ عَادٌ الْمُرْسَلِينَ﴾(١).

ولم يكن لهم نبي إلاّ هود. ﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ الْمُرْسَلِينَ﴾(١).

[وقال](*): ﴿كَذَّبَ أَصْحَابُ لْئَيْكَةِ الْمُرْسَلِينَ﴾(٢).

والأنبياء الذين(٣) وجب الإيمان بهم عددهم مذكور في حديث رواه أبو ذر عن النبي ﷺ قال أبو ذر: قلت يا رسول الله كم الأنبياء؟ قال: «مائة ألف وأربعة وعشرون ألف نبي» قال: قلت: يا رسول الله كم الرسل من ذلك؟ قال: «ثلاث مائة وثلاثة عشر جمًّا غفيراً». قلت: يا رسول الله كثير طيب؟ قال: «نعم» قلت: من كان أولهم؟ قال: «آدم عليه السلام».

قلت: يا رسول الله أنبي مرسل؟ قال: «نعم، خلقه الله بيده ونفخ فيه من روحه وسواه قبلاً» ثم قال: «يا أبا ذر أربعة سيريانيون(٤) آدم وشيث وخنوخ وهو إدريس وهو أول من خط بقلم ونوح، وأربعة من العرب هود وشعيب وصالح ونبيك يا أبا ذر»(٥).

وأول أنبياء بني إسرائيل موسى وآخرهم عيسى، وأول الرسل آدم وآخرهم محمد ﷺ فإنه إمام الكل وسيد الجميع.

فصـــل

فإذا تقرر هذا فإن الإيمان في هذا الباب ينقسم إلى ثلاثة أقسام:

قسم في مقام الإسلام.

وقسم في مقام الإيمان.

وقسم في مقام الإحسان.

---

(١) سورة الشعراء (الآية: ١٠٥، ١٢٣، ١٤١).

(٢) سورة الشعراء (الآية: ١٧٦).

(*) زيادة للفصل بين الآيات.

(٣) جاءت في الأصل: الذي. وهو تحريف.

(٤) في الأصل: سريانون. وهو تحريف والتصويب من المصادر التي خرج منها الحديث.

(٥) أخرجه البيهقي في السنن الكبرى (٩/٤)، أحمد في المسند (٥/٢٦٦)، الطبراني في الكبير (٨/٢٥٩)، ابن حجر في المطالب (٣٤٥٤)، أبو نعيم في الحلية (١/١٦٧)، السيوطي في الدر المنثور (١/٥١)، المتقي الهندي في الكنز (٣٢٢٧٧).

فأما الأول في مقام الإسلام: فهو التصديق بهؤلاء الأنبياء الذين ظهرت أشخاصهم في عالم الحس المسمين بأسمائهم كنوح وهود وشعيب [عليهم السلام] ومن ذكر منهم إلى مبعث محمد عليه الصلاة والسلام ومن لم يذكر باسم وذكر مجملاً في/ سائر الأنبياء. [١٥٨/ ب]

وأما المقام الثاني هو مقام الإيمان: أن يؤمن بالله بأن يؤمن بأن جميع الأنبياء أخذوا الإيمان من الملائكة من عالم الغيب ومنهم تلقوا الشرائع والوحي والسنن.

خلافاً لمن يقول إن العقل يدرك النبوة وحده وذلك مذهب أكثر أهل الضلال الذين يقولون إن عقل الإنسان هو الملك وهو النبي وبه يكتفى عن كل شيء.

وأما المقام الثالث في مقام الإحسان: فهو التصديق بمقام الخصوصية للأنبياء والرسل وأن القدرة قد صرفت ذلك المقام عن جميع الخلق وغيبته عنهم كما قال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُطْلِعَكُمْ عَلَى ٱلْغَيْبِ وَلَكِنَّ ٱللَّهَ يَجْتَبِي مِن رُّسُلِهِ مَن يَشَآءُ﴾[١]. وقالت الرسل في هذا المقام لأممهم: ﴿إِن نَّحْنُ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ وَلَكِنَّ ٱللَّهَ يَمُنُّ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ﴾[٢]. أي بالخصوصية. فمقام الرسالة محجوب عن الخلق أعني مقام الرسالة ولا يأتي أحد بكتاب ولا يشرع شريعة إلا أن يكون رسولاً مطلعاً على مقام الرسالة.

لكن مقام الصديقية والإلهام والفهم والرؤيا الصادقة قد بث الله معاني ذلك في الوجود وندب إلى الارتقاء في تلك المقامات الشريفة ليفهم بها الموقنون مقامات الأنبياء ويرفعون على آثار الأنبياء في الدرجات والنبوة التي هي علو الدرجة مندوب إليها لكن على آثار الأنبياء والاقتداء بهم.

وذلك من بركات الأنبياء وفي ذلك المقام مقام الولاية والصديقية والمحادثة ومنهم أبدال النبيين[٣] وورثتهم من العلماء الراسخين، قال النبي عليه الصلاة والسلام:/ «إن منكم مكلمين»[٤]. [١٥٩/ أ]

وفي رواية أخرى: «وإن عمر لمنهم». وقال: «الرؤيا الصالحة من الرجل الصالح جزء من ستة وأربعين جزءاً من النبوة»[٥]. وقال: «من أوتي القرآن فقد أوتي النبوة إلا أنه لا يوحى إليه».

---

(١) سورة آل عمران (الآية: ١٧٩). (٢) سورة إبراهيم (الآية: ١١).

(٣) راجع التعليق على ذلك في هامش الشعبة (٥١) في الكلام على حب أولياء الله وأوتاده.

(٤) ورد نحوه بتهذيب تاريخ دمشق (٦/ ٣٥٨).

(٥) أخرجه البخاري في الصحيح (٩/ ٣٩)، أحمد في المسند (٢/ ٣٦٨)، الهيثمي في مجمع الزوائد =

يعني أنه لا يكون رسولاً فعلى قدر الارتقاء في درجات الصديقية ومقام الإلهام والمحادثة والفهم في كتاب الله واتباع نبي الله يكون ارتفاع درجة العبد في مقام النبوة التي هي ارتفاع الدرجة.

أما مقام الإرسال وشرع الشرائع: فإنه مقصور ومحجور على أهله.

أماتنا الله وإياكم على سننه واستعملنا بما جاء به ورفع درجتنا في القرب منه آمين.

وصلى الله على محمد وعلى آله وسلم تسليماً.

الشعبة الخامسة والثلاثون: الإيمان بكتب الله المنزلة من عنده على أنبيائه عليهم السلام

أما كونه من شعب الإيمان فلا يحتاج أيضاً إلى استشهاد عليه، قال الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا آمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَالْكِتَابِ الَّذِي نَزَّلَ عَلَىٰ رَسُولِهِ وَالْكِتَابِ الَّذِي أَنزَلَ مِن قَبْلُ﴾[1].

والكتب المنزلة على الأنبياء هي النبوة والوحي والأشخاص المنزل عليهم هم الأنبياء وجملة الكتب المنزلة من عند الله تعالى المشهورة مائة كتاب وأربعة كتب يجب الإيمان بها.

وروى أبو ذر قال: قلت يا رسول الله كم كتاب أنزله الله عز وجل؟ قال: «مائة كتاب وأربعة كتب أنزل الله على شيث خمسين صحيفة وعلى خنوخ ثلاثين صحيفة وعلى إبراهيم عشر صحائف وأنزل الله على موسى قبل التوراة عشر صحائف وأنزل التوراة والإنجيل والزبور والفرقان»[2].

[١٥٩/ ب] وكذلك يجب الإيمان بكل كتاب أنزل/ الله إلى جميع الأنبياء عليهم السلام في خاصة أنفسهم وما أمروا بتبليغه إلى الخلق لأن الله يقول: ﴿قُولُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنزِلَ إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ﴾[3] وقال: ﴿إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كَمَا أَوْحَيْنَا

= (٧/ ١٧٢)، السيوطي في الدر المنثور (٣/ ٣١٢)، التبريزي في المشكاة (٤٦٠٨)، ابن حجر في الفتح (١٢/ ٣٦٧)، المتقي في كنز العمال (٤١٤٠٠).

(١) سورة النساء (الآية: ١٣٦).

(٢) أورده الهيثمي في موارد الظمآن (٩٤)، الزبيدي في إتحاف السادة المتقين (٩/ ٣٩)، السيوطي في الدر (٦/ ٣٤١)، الطبري في التاريخ (١/ ٣١٢، ١٥٣)، المتقي في الكنز (٤٤١٥٨).

(٣) سورة البقرة (الآية: ١٣٦).

﴿إِلَىٰ نُوحٍ وَٱلنَّبِيِّينَ مِنۢ بَعْدِهِۦ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ﴾(١). إلى قوله: ﴿وَرُسُلًا قَدْ قَصَصْنَٰهُمْ عَلَيْكَ وَرُسُلًا لَّمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ﴾(٢).

فالإيمان بجميع ما أنزل الله على جميع الأنبياء واجب لأنه وحي من عند الله ويجزي من ذلك كله الإيمان بالقرآن العظيم فإنه قد وجب الإيمان بكل آية منه، وقد ذكر فيه جميع الأنبياء عموماً وخصوصاً وما أنزل عليهم. ففي الإيمان به إيمان بجميع الكتب لأنه مهيمن على جميعها.

وكذلك يجب الإيمان بكل ما صح من حديث رسول الله ﷺ وهو شعبة من شعب الإيمان بذاته لكن قرنته في باب واحد مع الإيمان بالكتب لأنه وحي وقد نبه الله عنه أنه ﴿مَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ . إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ﴾(٣).

فالإيمان بحديثه واجب والمكذب به مكذب للرسول.

وقد زعم قوم من المتأخرين بمجرد العقول أنهم يستغنون بالعقل عن الكتب والأنبياء.

وما زعموه باطل فإن العقل لا يستغني عن الشرع والشرع لا يقبل إلاّ بالعقل، لا يستغني واحد منهما عن صاحبه.

ومن أجل هذه المقالة ضل جميع الخلق إلاّ أتباع الأنبياء دليل ذلك حديث النبي عليه الصلاة والسلام حيث يقول: «إن الله خلق الخلق في ظلمة ثم أفاض عليهم من نوره فمن أصابه من ذلك النور اهتدى ومن أخطأه ضل»(٤).

والنور الذي أفاض عليهم هو نور كتبه المنزلة كما قال: ﴿وَٱتَّبَعُوا۟ ٱلنُّورَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ مَعَهُۥٓ﴾(٥). [وقال](٦): ﴿وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكُمْ نُورًا مُّبِينًا﴾(٧). [وقال](٦): ﴿وَٱلنُّورِ ٱلَّذِىٓ/ [١٦٠/ أ] أَنزَلْنَا﴾(٨).

(١) سورة النساء (الآية: ١٦٣).

(٢) سورة النساء (الآية: ١٦٤).

(٣) سورة النجم (الآية: ٣، ٤).

(٤) أخرجه الحاكم في المستدرك (١/ ٣٠)، أحمد في المسند (٢/١٧٦، ١٩٧)، الهيثمي في موارد الظمآن (١٨١٢)، ابن أبي عاصم في السنة (١/١٠٧، ١٠٨، ١١٣)، الألباني في الصحيحة (١٠٧٦)، ابن كثير في التفسير (٦/ ٦٤)، التبريزي في مشكاة المصابيح (١٠١)، المتقي الهندي في الكنز (٥٨٢، ١٣١٤).

(٥) سورة الأعراف (الآية: ١٥٧).

(٦) زيادة للفصل بين الآيات.

(٧) سورة النساء (الآية: ١٧٤) وقد تكررت هي وآية الأعراف التي قبلها بالأصل فحذفت التكرار.

(٨) سورة التغابن (الآية: ٨).

وقال عليه الصلاة والسلام: «تركت فيكم أمرين لن تضلوا ما تمسكتم بهما كتاب الله وسنتي»[١]. وفي حديث آخر: «من اتبع الهدى في غيره أضله الله». يعني القرآن، وقال الله تعالى: ﴿وَإِن تُطِيعُوهُ تَهْتَدُواْ﴾[٢]. دليله من لم يطع الرسول فقد ضل.

فإذا تقرر هذا فالإيمان بالوحي على ثلاثة أضرب كما تقدم في سائر المقامات:

ضرب في مقام الإسلام.
وضرب في مقام الإيمان.
وضرب في مقام الإحسان.

فأما الضرب الأول الظاهر في مقام الإسلام: فأن يؤمن العبد ويصدق بأن هذا القرآن والحديث المكتوب في الأوراق وهي كتب الله وحديث رسول الله يسره الله بلسان نبيه للذكر وللعمل به فوجب على كل مؤمن الإيمان بجميع الإسلام بالكتاب والسنة فإن الإيمان عمل بالجوارح وتصديق بالقلب ونطق باللسان.

ويجعل الإنسان إمام عمله الكتاب والسنة وما تفرع منهما واشتهر له منهما.

ويجتنب الآراء والأقوال الفاسدة الضعيفة، فهذا من الإيمان بالوحي في مقام الإسلام.

وأما الضرب الثاني في مقام الإيمان: فأن يصدق بأن هذا الكتاب والوحي هو الذي ظهر على لسان محمد رسول الله ﷺ وأنه من الأنبياء نزل من عند الله بواسطة الأملاك، ومن اللوح المحفوظ كما قال تعالى فيه: ﴿إِنَّهَا تَذْكِرَةٌ * فَمَن شَآءَ ذَكَرَهُ * فِي صُحُفٍ مُّكَرَّمَةٍ * مَّرْفُوعَةٍ مُّطَهَّرَةٍ * بِأَيْدِي سَفَرَةٍ * كِرَامٍ بَرَرَةٍ﴾[٣] و [قال تعالى][٤]: ﴿فِي كِتَابٍ مَّكْنُونٍ * لاَّ يَمَسُّهُ إِلاَّ ٱلْمُطَهَّرُونَ﴾[٥] قالوا فيه: ﴿إِنَّمَا يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ﴾[٦] [وقالوا فيه أيضاً][٤]: ﴿إِنْ هَٰذَآ إِلاَّ إِفْكٌ ٱفْتَرَاهُ﴾[٧].

[١٦٠/ ب] وغير ذلك مما كذبوا به، فيجب على كل مؤمن أن يعتقد خلاف ما قالوا ويصدق/ أنه من عند الله نزل على جبريل ثم على محمد ثم يسره الله بلسان نبيه عليه الصلاة والسلام.

---

(١) أخرجه مالك في الموطأ (٨٩٩)، الألباني في الصحيحة (١٧٦١).
(٢) سورة النور (الآية: ٥٤).
(٣) سورة عبس (الآية: ١١ ـ ١٦).
(٤) ما بين المعقوفين زيادة للإيضاح وللفصل بين الآيات.
(٥) سورة الواقعة (الآية: ٧٨، ٧٩).
(٦) سورة النحل (الآية: ١٠٣).
(٧) سورة الفرقان (الآية: ٤).

وأما الضرب الثالث في مقام الإحسان: فأن يصدق ويؤمن أنه قائم بذات الله وصفة من صفاته يتكلم بها أزلاً وأبداً فإذا نظر الناظر في آياته وتدبر في معجزاته وعجائبه تبين له أنه كلام الله يقيناً لا سيما إذا فهم معانيه وكان الباري هو الذي يهديه فيه ويُفهمه.

فحينئذ يرى في هذا المقام كيف خاطب به الوجود كله وكيف هو كلمة واحدة متحدة بذات الباري والوجود متكلم بتلك الكلمة، وكيف هو ـ أعني القرآن ـ مبين لجميع الأشياء، ومبين لصفات الباري، وما هو عليه مما يجب له ويجوز عليه ويستحيل.

وكيف هو تبيان لكل شيء، وكيف احتوى على علم الأولين والآخرين كما قال تعالى: ﴿مَّا فَرَّطْنَا فِي ٱلْكِتَابِ مِن شَيْءٍ﴾(١).

لأن القرآن هو تفسير وتبيين للصفات والأسماء أسماء الباري وتفسير وتبيين لكل شيء.

فهذا مقام العلماء الروحانيين والربانيين، وهو هدى الله يهدي به من يشاء.

ومن زعم أنه يصل إلى معرفة الله وعبادته متفرداً بعقله فقد رد على الكتاب والسنن وعليه الدليل وليقال فلان اهتدى بعقله دون الرسل والكتب ولو واحداً من الخلق وليس يجده.

فإن احتج بإبراهيم عليه السلام وأنه نظر إلى الكوكب والقمر والشمس وارتقى إلى معرفة الله وملكوته بالنظر فإن الله يقول قبل نظره: ﴿وَكَذَٰلِكَ نُرِيَ إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ ٱلسَّمَاوَاتِ وَٱلْأَرْضِ﴾(٢).

وأعلمنا أن الله علمه وأراه الآيات وتعليمه إياه هو الوحي حتى أن تعليم الأنبياء في المنام وحي.

وكذلك ورد في الحديث: «رؤيا الأنبياء وحي»(٣).

والفلاسفة/ هم أكيس النظار بالعقل المجرد وقد كبروا وابتدعوا في نظرهم فأنّى هذا [١٦١/ أ] يضاف إلى عقل [بل هو](٤) يوصل إلى الكفر والبدعة، ولقد وصل بهم نظرهم إلى حد يصور لهم الباطل في صورة الحق وعضدوه بالبراهين وزعموا أن التنزيه الكامل والنور الساطع فيما أدركوه من الباطل مثل قولهم: إن الله يعلم الكليات ولا يعلم الجزئيات بوجه

(١) سورة الأنعام (الآية: ٣٨).
(٢) سورة الأنعام (الآية: ٧٥).
(٣) أخرجه الهيثمي في مجمع الزوائد (٧/ ١٧٦).
(٤) ما بين المعقوفين زيادة يتطلبها السياق.

وأنه لو علمها لكان نقصاً في حقه جل جلاله والله تعالى يقول: ﴿وَمَا يَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلاَّ يَعْلَمُهَا وَلاَ حَبَّةٍ فِي ظُلُمَاتِ الأَرْضِ وَلاَ رَطْبٍ وَلاَ يَابِسٍ إِلاَّ فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ﴾[١].

فمن زعم أن هذا النظر مصيب فليكفر بهذه الآية وبكل آية مثلها.

وإنما النقص الحقيقي أن لو كان ما قالوا حقاً فإن من غاب عن علمه شيء وإن دق فقد نقص علمه وتناهى وإنما العلم الكامل الذي لا يتناهى ولا يعزب عنه شيء كبر أو صغر.

فانظر كيف انقلب الباطل عندهم حقاً والحق باطلاً حتى عضدوه بالبراهين في زعمهم.

وهذه المسألة أول ما كفروا به.

فإن قال قائل: فإن في علوم النظار منهم ومن غيرهم ما هو حق ومبرهن عليه وحكم كثيرة تقبلها العقول السليمة.

قلنا: نعم لكن ذلك من أقوال أنبياء كانوا قبلنا فيهم وحكماء كانوا أتباعاً لهم ثم حدثت بعدهم الأهواء وكثرة الآراء الفاسدة كآراء المبتدعة في شريعة محمد عليه الصلاة والسلام، وكتحريف النصارى واليهود لشرائع أنبيائهم فما وافق من أقاويلهم الحق قبلناه كما قال معاذ بن جبل رضي الله عنه: تلقى الحق إذا سمعته، فإن على الحق نور.

وما خالف الحق الذي هو الشرع رمينا به وجه الشياطين.

وقد ذكر المجوس أنه كان فيهم أنبياء وسموهم وذكر اليونانيون أن امرأة منهم [١٦/ ب] حاكمت/ زوجها إلى بعضهم فأصابته مشغولاً بالتقديس يعني الصلاة فانتظرته مع زوجها حتى فرغ وقال:

يا جاهلة بمقدار ما جنته على نفسها اعترفي بذنبك وأعلمي زوجك بجنايتك عليه فإن السكران الذي واقعك في ليلة كذا وزوجك قائم في الهيكل يدعو لك بدوام البقاء والسلام قد اجلك لما استترتِ[٢] عن أعين البشر لم تبق عين ترى عيبك، أو لم تعلمي أن في ملكوت السموات ما لا يحصى عدده وأنت فيهم كالمكفوفة بين المبصرين وستلدين بعد شهرين خلقاً مشوهاً.

ثم قال للزوج: عقدت نكاح هذه المرأة على غير استقامة فحصدت منها أكثر مما زرعته.

فولدت شخص إنسان له يدان ويدان في صورة صغيرتان.

---

(١) سورة الأنعام (الآية: ٥٩).

(٢) في الأصل: استرت.

وذكروا أن رجلاً وافاه فقال: يا نور الألباب إني دفنت مالاً في موضع من منزلي ونسيت مكانه فقام معه وجاء إلى منزله فأثاره ثم قال:

يا أيها الممتحن بي والشاك في أنه لا بد أن يتلف منك ما آثرته لك من المال في هذا الأسبوع ثم لا أستخرجه لك بعدها فإن حقاً على من لعب بنعم الله أن يسلبه إياها. فذهب المال.

ومن نوادر حكمهم:

● من غلب عقله هواه افتضح[1].

● من غض طرفه أراح قلبه.

● أيها الإنسان إذا اتقيت ربك وحذرت الطريق المؤدية إلى الشر ثم تقع في الشر لا تلم القضاء فيما جنيت من شر.

● خير يدفع خير من خير لا ينفع.

● لا شيء أشد من ترك الشهوة.

● تحريك الساكن أيسر من تسكين المتحرك.

● من قَلَّ وفاؤه كثر أعداؤه.

● أحسن إن أحببت أن يحسن إليك.

● بالهمم العالية والقرائح الزكية تصل القلوب إلى نسيّم العقل الروحاني وترقى في ملكوت الضياء والقدرة الخفية عن الأبصار المحيطة بالأنظار/ وترتقي في رياض الألباب [١٦٢/ أ] المصفاة من الأدناس، وبالأفكار يصفو كدر الأخلاق المحيطة بأقطار الهياكل الجسمانية فعند الصفو ومفارقة الكدر تعيش الأرواح التي لا يصل إليها انحلال ولا اضمحلال.

● الحكمة حياة النفوس وزارعة الخير في القلوب ومنيرة الحظ وحاصدة الغبطة وجامعة السرور، ولا يخبو نورها ولا يكبو زنادها.

● الحكمة حلة العقل وميزان العدل ولسان الإيمان وعين البيان وروضة الأدب ومراح الهموم عن الأنفس وأمن الخائفين وأنس المستوحشين ومتجر الراغبين وحظ الدنيا والآخرة وسلامة العاجل والآجل.

● كل شيء تتهيأ فيه حيلة إلا القضاء.

(١) كذا بالأصل وأحسبه قد قلب وأظنه: من غلب هواه عقله افتضح.

● ليس شيء أقرب إلى تغير النعم من الإقامة على الظلم.

فهذه حكم[١] صدرت عن الأنبياء وعن أتباعهم من العلماء والأولياء الحكماء.

وكتب بعضهم إلى ملك زمانه وقد مات ابنه: إن الله تبارك وتعالى جعل الدنيا دار بلوى وجعل الآخرة دار عقبى فيأخذ ما يأخذ مما يعطي ويبتلي إذا ابتلى ليجزي.

● الذنوب الفاضحة تذهب الحجج الواضحة.

● اعقلوا في ستر من أنتم فإن كنتم لا تعقلون فاحذروا الدنيا فإن كنتم لا تحسنون أن تحذروا الدنيا فاجعلوا شوكاً وانظروا أين تضعون أقدامكم.

● واحذروا أكل الشهوات فإن القلوب المعلقة بالشهوات محجوبة عن الله عز وجل.

فهذه ألفاظ تذكر الغيب والآخرة التي جاء بها الأنبياء.

● من أراد أن يقوى على طلب الحكمة فليكف عن تمليك النساء نفسه.

● لا ضر أضر من الجهل، ولا شر أشر من النساء.

● من كانت الدنيا عنه سائرة فلا يشك إن أعطاه فانية ومهجته عن الدنيا راحلة.

[١٦٢/ ب] ● من حسن خلقه/ غفر ذنبه وأُقيلت عثرته ومن أساء خلقه عوقب في حياته ولم يصفح عن ذلته بعد مماته.

● الدنيا وإن رمقت خطرة من لحظة ملتفت.

● يحسن بالمرء التعليم ما دامت به الحياة.

وقال بعضهم:

● ما أحب أن النفس علمت كلّ ما أوعدت به.

فقيل: لِمَ أيها الحكيم؟

فقال: لأنها لو علمت لطالت فلم ينتفع بها.

● ما عندي من فضيلة العلم إلاّ علمي بأني لست بعالم.

● الاتكال على القضاء أروح وقلة الاسترسال أحزم.

● إذا هرب الحكيم من الناس فاطلبه وإذا طلبهم فاهرب منه.

---

(١) في الأصل: أحكام. وهو تحريف.

هذه كلها حكاية حكم مقبولة لأنها دالة على الحق وما وجد في كلامهم من الباطل علم بأنها آراء فاسدة دخلت عليهم حين عدم الأنبياء وأتباعهم من الحكماء.

وإنما الغرض من إيلاف أقوالهم أن كل كتاب وافق الكتاب والسنة قُبل وما لم يوافق طرح ولم يقبل فإن الله يقول: ﴿وَإِنَّ كَثِيراً لَّيُضِلُّونَ بِأَهْوَآئِهِم بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾[1] أي بغير علم من الله ومن رسوله [صلى الله عليهم وسلم أجمعين] كما قال في آية أخرى: ﴿فَإِن لَّمْ يَسْتَجِيبُواْ لَكَ﴾[2] يا محمد ﴿فَٱعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَآءَهُمْ﴾[2] أي آراءهم ﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ ٱتَّبَعَ هَوَاهُ بِغَيْرِ هُدًى مِّنَ ٱللَّهِ﴾[2] فالهدى إنما هو من الله وهداه هو الكتب المنزلة على رسله لا يتوصل إلى الحق إلاّ بها.

جعلنا الله من المهتدين بهديه المتمسكين بجملته المتبعين لنبيه ورسوله ورزقنا الفهم عنه. آمين.

الشعبة السادسة والثلاثون: الإيمان بالملائكة

أما كون هذه الشعبة من الإيمان فبين لا يحتاج إلى دليل/، قال الله تعالى: ﴿آمَنَ ٱلرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِ وَٱلْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ آمَنَ بِٱللَّهِ وَمَلَآئِكَتِهِ وَكُتُبِهِ﴾[3]. وفي حديث جبريل عليه السلام في سؤاله عن الإيمان قال: «أن تؤمن بالله وملائكته»[4]. [١٦٣]

وشواهد هذا الباب أكثر من أن تحصى.

واعلم رحمك الله أن الإيمان بالملائكة واجب كالإيمان بالرسل والجاحد للملائكة كافر لا يقبل إيمانه لأنه مكذب بكتب الله ورسله وعددهم لا يحصيهم إلاّ الله تبارك وتعالى.

فإن الملك كله ظاهراً وباطناً [و][5]العرش بما حوى معمور بهم لا يخلو منهم مكان لأنهم خدمة الملك كلهم ومتعبدون له في جميع أقطار العالم كله.

فمنهم ملائكة موكلون بالأرض لا يحصي عددهم إلا الله ولذلك أمر النبي ﷺ أن لا تُسْتَدْبَرَ القبلة لبول أو غائط إكراماً للمصلين إليها.

---

(١) سورة الأنعام (الآية: ١١٩).

(٢) سورة القصص (لآية: ٥٠).

(٣) سورة البقرة (الآية: ٢٨٥).

(٤) جزء من حيث جبريل عليه السلام الذي رواه البخاري (١/ ٢٠)، أحمد في المسند (٢/ ٤٢٦)، البيهقي في السنن الكبرى (١٠/ ٢٠٣)، ابن حجر في الفتح (١/ ١١٤)، (٨/ ٥١٣)، ابن كثير في التفسير (٦/ ٣٥٦)، السيوطي في الدر المنثور (٣/ ٦٩).

(٥) ما بين المعقوفين ساقط والسياق يقتضيه.

وفي الحديث الصحيح عن عائشة رضي الله عنها أنها قالت: قلت للنبي ﷺ: هل أتى عليك يوم أشد من يوم أحد؟ قال: «لقد لقيت من قومك وكان أشد ما لقيت منهم يوم العقبة إذ عرضت نفسي على ابن عبد ياليل بن عبد كلاب فلم يجبني إلى ما أردت فانطلقت وأنا مهموم على وجهي فلم أستفق إلا وأنا بقرن الثعالب فرفعت رأسي فإذا أنا بسحابة قد أظلتني فنظرت فإذا فيها جبريل فناداني فقال: إن الله قد سمع قول قومك لك وما ردوا عليك وقد[1] بعث إليك ملك الجبال لتأمره بما شئت فيهم فناداني ملك الجبال فسلم عليّ ثم قال يا محمد هو ذلك بما شئت إن شئت أن أطبق عليهم الأخشبين». قال رسول الله ﷺ: «بل أرجو أن يخرج الله من أصلابهم من يعبد الله وحده لا يشرك به شيئاً»[2]. فأثبت الملك أ[ن][3] له موكل بالجبال. / والله أعلم بما بين يديه من الملائكة وأنه شخص وأنه نادى رسول الله ﷺ. [١٦٣/ ب]

ومنهم ملائكة موكلون بالبحر وذكر أن منهم ملكاً اسمه مَهْلَيْهَائِيل يسبح بهذا التسبيح:

«سبحان الله العلي الذاتي، سبحان الله شديد الأركان، سبحان من يذهب بالليل ويأتي بالنهار، سبحان من لا يشغله شأن عن شأن، سبحان الله الحنان المنان، سبحان الله في كل مكان». فقال: «من قال هذا التسبيح مائة مرة لم يمت حتى يرى مقعده من الجنة أو يرى له».

ومنهم موكلون بالهواء وما بين السماء والأرض.

ومنهم السائحون الذين يتبعون مجالس الذكر كما ورد في صحيح مسلم عن أبي هريرة قال إن رسول الله ﷺ قال: «إن لله ملائكة سيّارة فضلاً يتبعون مجالس الذكر فإذا وجدوا مجلساً فيه ذكر قعدوا معهم وأحاط بعضهم بعضاً بأجنحتهم حتى يملؤوا ما بينهم وبين السماء والأرض»[4] وذكر الحديث إلى آخره.

ومنهم الذين ينقلون الصلاة لمحمد عليه الصلاة والسلام فمن يصلي عليه.

فهذه[5] كلها صفات أشخاص عالمة متكلمة بالأذكار.

---

(١) جاءت مكررة بالأصل.

(٢) أخرجه البخاري في الصحيح (٤/ ١٣٩)، مسلم في الصحيح (الجهاد ب ٢٩ رقم ١١٢)، ابن حجر في فتح الباري (٧/ ١٦٦)، الزبيدي في الإتحاف (٩/ ٨٨)، التبريزي في المشكاة (٥٨٤٨).

(٣) ما بين المعقوفين ساقط من الأصل والسياق يتطلب إضافته.

(٤) أخرجه أحمد في المسند (٢/ ٢٥٢)، الحاكم في المستدرك (١/ ٤٩٥)، البغوي في شرح السنة (٥/ ١١)، أبو نعيم في الحلية (٨/ ١١٧)، الهيثمي في مجمع الزوائد (١٠/ ١٣٢).

(٥) في الأصل: هذا. وهو تحريف.

ومنهم ساكن في السماوات السبع وصفهم الرسول ﷺ ليلة الإسراء.

وذكر أن تسبيح أهل سماء الدنيا:

«سبحان ذي الملك والملكوت من قالها له مثل ثوابهم وتسبيح أهل السماء الثانية: سبحان ذي العزة والجبروت من قالها كان له مثل ثوابها، وتسبيح الثالثة: سبحان الحي الذي لا يموت من قالها كان له مثل ثوابها، وتسبيح أهل السماء الرابعة: سبحان القدوس رب الملائكة والروح من قالها كان له مثل[1] ثوابها، وتسبيح أهل السماء الخامسة: سبحان من جمع بين الثلج والنار من قالها كان له مثل ثوابها، وتسبيح أهل السماء السادسة: سبحان القدوس رب كل شيء من[2]/ قالها كان له مثل ثوابهم»[3]. [١٦٤/ أ]

ومنهم خزنة الجنة، ومنهم خزنة النار، ومنهم حَمَلَة العرش، ومنهم موكلون بالحجب، ومنهم موكلون بالمطر. حتى قد ورد أنه لا تنزل قطرة من السماء إلا ومعها ملك.

ومنهم موكلون بالأرحام وخلق النطف، وموكلون بنفخ الأرواح في الأجساد، وموكلون بخلقة النبات، وتصريف الرياح وجري الأفلاك والنجوم، ومنهم حفظة على أعمال العباد، ومنهم موكلون بحفظ بني آدم يحفظونه من أمر الله أي بأمر الله.

واعلم بالجملة فإنهم عامرون للملك كله حتى إنه ليس في العالم موضع شبر إلا وهو معمور بالعباد المكرمين الذين ﴿لَا يَعْصُونَ ٱللَّهَ مَآ أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾[4].

ويجمع لك ذلك كله على الاختصار أن تعلم أن العالم على ثلاثة مراتب:

عالم الملك والشواهد الظاهر للحواس والجسد في مقام الإسلام.

وعالم الملكوت الباطن الذي هو عالم الكرسي الذي وسع السماوات والأرض وعالم النفس.

والثالث عالم العرش والحجب الذي هو عالم الروحانيين والمقربين من الأملاك، وعالم الروح.

والعالم كله مشحون بهم من أعلاه إلى أسفله كما ورد في القرآن والحديث، قال

(١) في الأصل مكررة.

(٢) في الأصل مكررة بآخر [١٦٣/ ب] وأول [١٦٤/ م] فحذفت التكرار.

(٣) أورد البيهقي نحوه في الأسماء والصفات (١٣٧)، المتقي في كنز العمال (٢٠٦٣، ٢٢٦٦١).

(٤) سورة التحريم (الآية: ٦).

الله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَحۡمِلُونَ ٱلۡعَرۡشَ وَمَنۡ حَوۡلَهُۥ﴾[١].

فوصف أن الملائكة حافين بالعرش وبالملك كله ظاهره وباطنه.

فالإيمان بجميعهم واجب.

واعلم أن أوصافهم ستة أوصاف هي جامعة لكل فضيلة:

أولها العلم الكامل: كما شهد الله لهم بذلك في قوله: ﴿شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ﴾[٢] ثنى بشهادتهم بعد شهادته.

الثاني العفة الكاملة عن الشهوات: كما شبه الله نبيه يوسف بهم في قوله: ﴿مَا هَٰذَا بَشَرًا/ إِنۡ هَٰذَآ إِلَّا مَلَكٞ كَرِيمٞ﴾[٣]. [١٦٤/ ب]

الثالث الاجتناب للمعصية: كما أخبر الله عنهم في قوله: ﴿لَّا يَعۡصُونَ ٱللَّهَ مَآ أَمَرَهُمۡ﴾[٤]. فليس فيهم من يعصي الله طرفة عين.

الرابع الطاعة الكاملة والامتثال الكامل في كل ما أمر به المعبود جل جلاله: كما أخبر عنهم في قوله: ﴿وَيَفۡعَلُونَ مَا يُؤۡمَرُونَ﴾[٤].

الخامس الذكر[٥] الدائم المتصل الذي لا يدخله فتور، ولا غفلة ولا يقطعه سهو ولا نوم: كما أخبر عنهم في قوله: ﴿يُسَبِّحُونَ ٱلَّيۡلَ وَٱلنَّهَارَ لَا يَفۡتُرُونَ﴾[٦].

السادس الأخلاق الحسنة الكاملة: فليس فيهم فيما بينهم تحاسد ولا شحناء ولا استطالة بعض على بعض ولا شيء يستقبح رحماء بالمؤمنين مستغفرون لهم أشداء[٧] غلاظ في مواضع الشدة على من يجب ذلك عليه نافعون للخلق يحسنون لهم بضروب المنافع والإحسان.

ثم مع هذا كله وهب الله لهم الأعمار الطائلة والذوات القوية على الخدمة: ﴿إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلۡفَضۡلُ ٱلۡمُبِينُ﴾[٨].

واعلم أن أفضل الناس من تشبه بهم في أوصافهم حتى يكون آدمياً ملكياً، وشر الناس

---

(١) سورة غافر (الآية: ٧).
(٢) سورة آل عمران (الآية: ١٨).
(٣) سورة يوسف (الآية: ٣١).
(٤) سورة التحريم (الآية: ٦).
(٥) في الأصل: الذاكر. وهو تحريف.
(٦) سورة الأنبياء (الآية: ٢٠).
(٧) في الأصل: أشد. وهو تحريف.
(٨) سورة النمل (الآية: ١٦).

من تباعد من أوصافهم حتى يكون آدمياً شيطانياً.

فإذا فهمت هذا فاعلم أن الإيمان بهم عليهم السلام على ثلاثة أضرب:

أحدها: العمل بأعمالهم من امتثال طاعة المعبود واجتناب معصيته.

الثاني: التصديق بوجودهم صلوات الله وسلامه عليهم.

والثالث: التشبه بهم في أوصافهم وأفعالهم وعلومهم وهم في ذلك على مراتب ودرجات مرتبة فوق مرتبة ودرجة فوق درجة من الأرض إلى حملة العرش.

وسكان الحجب على نحو هذه الدرجات ترتيب درجات المعراج الذي عرج فيه رسول الله ﷺ إلى أن كان قاب قوسين أو أدنى.

والمعارج/ التي تعرج الملائكة. [١٦٥/ أ]

وفي بعض أحاديث الإسراء عن النبي ﷺ وصف فيه مراتب الملائكة في درجات المعراج قال: «وكان المعراج أرسل من جنة الفردوس منضود باللؤلؤ وما من مؤمن إلا ويجعل له عند موته معراج أما ترون كيف يتبع بصره روحه والمعراج أحسن شيء خلقه».

ثم قال في الحديث: «وما من درجة إلا وعليها زُمرة من الملائكة لهم زَجَلٌ بالتسبيح».

وقال الله تبارك وتعالى في ترتيب مراتبهم: ﴿وَمَا مِنَّآ إِلاَّ لَهُ مَقَامٌ مَّعْلُومٌ﴾[1].

فاحرص رحمك الله على الفكر والذكر ورفع الهمة عن هذا العالم الخسيس الأدنى إلى المحل الكريم محل الملائكة فإنهم الملأ الأعلى فمن فعل ذلك حصل له العلم واليقين بوجود الملائكة.

والعلم واليقين زائد على الإيمان فإنه إذا ارتفع الروح إلى المحل الكريم الذي هم فيه فتحس روحه بذواتهم فإن الأرواح تشتام فيجد الإلهامات والخطرات المرضية تأتيه في قلبه من ذواتهم.

وربما قوي الإلهام في حق قوم وربما كان الكشف لقوم على حسب ما يكون القرب منه.

صلوات الله وسلامه عليهم وأفاض علينا من بركاتهم برحمته آمين.

قال الله تبارك وتعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِآيَاتِنَا وَٱسْتَكْبَرُواْ عَنْهَا لاَ تُفَتَّحُ لَهُمْ أَبْوَابُ

(١) سورة الصافات (الآية: ١٦٤).

﴿ٱلسَّمَآءِ وَلَا يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ حَتَّىٰ يَلِجَ ٱلْجَمَلُ فِي سَمِّ ٱلْخِيَاطِ﴾[1].

دليل الآية أن من لم يكذب بآيات الله ولم يستكبر عن قبولها والعمل بها يفتح لهم أبواب السماء.

ولما كان الملائكة على مراتب كما تقدم فمنهم من هو في عالم الحجب والعرش مقاماتهم المحبة والأنس واستماع الوحي وغير ذلك من المقامات الرضوانية الروحانية.

ومنهم من هو في عالم السماوات والأرض أحوالهم الخوف والخشية والقلق والحراسة والمراقبة كالكروبيين وحراس السماء وغير ذلك من أحوالهم الشريفة، وكأحوال ملائكة الأرض/ السفلى وخدمة النار الغلاظ الشداد على الأعداء. [١٦٥/ ب]

ومنهم النازلون في عالم الحس بالأمور السماوية والصاعدون وخدمة النبات والأجسام والعوالم كله بضروب الاجتهاد، وكان للعبد أيضاً ذوات ثلاثة:

جسد، ونفس، وروح.

فليجتهد العبد بجسده في طاعة ربه في الطاعة واجتناب المعصية وارتقاء الهمة إلى العلى ونزوله والتواضع إلى السفلى.

وليكن في عالم النفس حارساً لقلبه وهمه عن الخطرات الشيطانية والهوى فيرجم العدو بشهب الأذكار.

ويتقوى على النفس بالغلظة والشدة في طاعة الله حتى يردها ويكفها فيتشبه بملائكة السماوات وليكن أيضاً بروحه وعقله مفكراً وناظراً إلى العلا مكتسباً لأحوال المحبة والرضى والشوق وغير ذلك من صفات الروحانيين.

أعاننا الله وإياك على الفهم عند التقرب إليه بكل ما يحبه ويرضاه، ولا جعلنا من أهل البعد عنه. آمين. آمين.

وصلى الله على محمد وآله وسلم.

الشعبة السابعة والثلاثون: الإيمان بالجن والشياطين

أما كون هذه الشعبة من الإيمان فدلائلها من القرآن والسنة كثيرة منها: قصة آدم مع إبليس وغير ذلك من الآيات كقوله: ﴿إِنَّ ٱلشَّيْطَانَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَٱتَّخِذُوهُ عَدُوًّا﴾[2]. وكقوله في

(١) سورة الأعراف (الآية: ٤٠).

(٢) سورة فاطر (الآية: ٦).

الجن: ﴿قُلْ أُوحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ ٱسْتَمَعَ نَفَرٌ مِّنَ ٱلْجِنِّ﴾(١). وقال الله تعالى: ﴿أَجْلِبْ عَلَيْهِم بِخَيْلِكَ [وَرَجِلِكَ]﴾(٢).

وقال لهم رسول الله ﷺ: «لكم كل عظم](٣) ذكر اسم الله عليه تجدونه أوفر ما كان لحماً وكل بعرة علف لدوابكم ذكر اسم الله عليه تجدون».

فأثبت لهم أكلاً ودواباً وخيلاً ورجلاً فوجب الإيمان بأنهم(٤) أشخاص وأمم لا يعلم عددهم إلا الله خلافاً لمن يقول إنما هي أخلاط السوداء.

ومن/ زعم هذا يدخل عليه الكفر من حيث كذب القرآن والرسل عليهم السلام، وقد [١٦٦ ـ أ] ثبت في الصحيح عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «إن عفريتاً من الجن تفلت البارحة ليقطع عليّ صلاتي فأمكنني الله منه فأخذته فدعته» يعني خنقته «فأردت أن أربطه إلى سارية من سواري المسجد حتى تصبحوا وتنظروا إليه كلكم فذكرت قول أخي سليمان رب اغفر لي وهب لي ملكاً لا ينبغي لأحد من بعدي إنك أنت الوهاب فرده الله خاسئاً»(٥).

فهل تربط الأخلاط وصفات الأنفس السواري؟!

هل هذا إلا زلل عظيم ممن يراه؟ وثبت في الصحيح أيضاً عن أبي هريرة قال: وكلني رسول الله ﷺ بحفظ زكاة رمضان فأتاني آتٍ فجعل يحثو من الطعام فأخذته وقلت لأرفعنّك إلى رسول الله ﷺ. فقال: إني محتاج وعليّ عيال وبي حاجة شديدة. قال: فخليت عنه فأصبحت. فقال رسول الله ﷺ: «يا أبا هريرة ما فعل أسيرك البارحة؟» قلت: شكى حاجة شديدة وعيالاً فرحمته فخليت سبيله. فقال: «أما إنه قد كذبك وسيعود». فعرفت أنه سيعود لقول رسول الله ﷺ: «إنه سيعود». فرصدته فجاء فجعل يحثو من الطعام فأخذته فقلت: لأرفعنك إلى رسول الله ﷺ. قال دعني فإني محتاج وعليّ عيال لأعود فرحمته وخليت سبيله فأصبحت فقال لي رسول الله ﷺ: «يا أبا هريرة ما فعل أسيرك؟» قلت: يا رسول الله شكى

---

(١) سورة الجن (الآية: ١).

(٢) سورة الإسراء (الآية: ٦٤).

(٣) ما بين المعقوفين ساقط من الأصل والسياق يقتضيه والحديث أخرجه مسلم في الصحيح (الصلاة ب ٣٣ رقم ١٥٠)، ابن كثير في التفسير (٣/ ٣١٧)، القرطبي في التفسير (١٣/ ١٨٢).

(٤) جاءت بالأصل: فانهم. وهو تحريف.

(٥) أخرجه البخاري في الصحيح (١/ ١٣٤)، (٦/ ١٥٦)، أحمد في المسند (٢/ ٢٩٨)، البغوي في شرح السنة (٣/ ٢٦٩)، التبريزي في المشكاة (٩٨٧)، أبو عوانة في المسند (٢/ ١٤٤)، البيهقي في دلائل النبوة (٧/ ٩٧)، أبو نعيم في دلائل النبوة (١٣٠).

حاجة حاجة شديدة وعيالاً فرحمته فخليت سبيله. قال: «إنه قد كذبك وسيعود». فرصدته الثالثة فجاء فجعل يحثو من الطعام فأخذته فقلت لأرفعنك/ إلى رسول الله ﷺ وهذا آخر [١٦٦/ ب] ثلاث مرات تزعم أنك لا تعود ثم تعود. قال دعني أعلمك كلمات ينفعك الله بها. قلت: وما هو قال: إذا أويت إلى فراشك فاقرأ آية الكرسي: ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْحَيُّ ٱلْقَيُّومُ لَا تَأْخُذُهُۥ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ﴾[1] حتى ختم الآية. فإنك لن يزال عليك من الله حافظ ولن يقربك شيطان حتى تصبح فخليت سبيله. فأصبحت فقال لي رسول الله ﷺ: «ما فعل أسيرك البارحة»؟ فقلت: يا رسول الله زعم أنه يعلمني كلمات ينفعني الله بها فخليت سبيله. فقال: «ما هي»؟ قلت: قال لي إذا أويت إلى فراشك فاقرأ آية الكرسي من أولها حتى تختم الآية: ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْحَيُّ ٱلْقَيُّومُ﴾[1] لن يزال عليك من الله حافظ ولا يقربك شيطان حتى تصبح. قال أبو عبد الله البخاري: وكانوا أحرص شيء على الخير. فقال رسول الله ﷺ: «أما إنه قد صدقك وهو كذوب، تعلم من تخاطب منذ ثلاث يا أبا هريرة»؟ قلت: لا. قال: «ذاك شيطان»[2].

فانظر هذه الصفة هل هي إلا صفة شخص من الأشخاص وهل تكون الأخلاط والصفات تأتي إلى الطعام فتغرفه وتُعلم العلم.

ومثل هذا في القرآن كثير والحديث الصحيح أكثر من أن يحصى فوجب الإيمان بالجن والشياطين لا محالة.

والذي يزعم أنها أخلاط السوداء وما شاكلها من صفات النفوس مع إنكاره لعالم الشياطين كافر بالقرآن والحديث وجاحد له.

نسأل الله السلامة من الزيغ في جميع الأمور بمنه وفضله.

بل الذي في الإنسان من الأخلاط السوداوية وصفات الإباء والاستكبار بغير حق والمكر والخداع دليل واضح على ما في الوجود من الجن والشياطين.

لذلك من عرف نفسه عرف به سائر الموجودات.

---

(١) سورة البقرة (الآية: ٢٥٥).

(٢) أخرجه البخاري في الصحيح (٣/ ١٣٢)، البيهقي في دلائل النبوة (٧/ ١٠٧)، أبو نعيم في دلائل النبوة (١٣٠، ١٣١)، النووي في الأذكار (٤٠٩)، البغوي في شرح السنة (٤/ ٤٦١)، المنذري في الترغيب (١/ ٤١٨)، التريزي في المشكاة (٢١٢٣).

/ وقال النبي ﷺ: «الشباب شعبة من الجنون»[١]. [١٦٧/ أ]

وفي حديث آخر: «يهرم ابن آدم ويشب منه اثنتان»[٢] وذكر الحديث.

فهذه الأوصاف المركبة في جبلة الإنسان وخلقته بها يستدل أن في العالم جناً وشياطين كما أن بما فيه من الصفات المحمودة والأخلاق الحسنة يستدل على ما في العالم من الملائكة ملائكة الرحمة وبما فيه من الغضب في الله والغيظ والغلظة والشدة والكبرياء بحق دليل على ما في العالم من الملائكة الغلاظ الشداد الذين لا يعصون الله ما أمرهم، وبما فيه من صفات الرضى وطيب النفس والهناء دليل على ملائكة الرضى كرضوان وخزنة الجنة.

وبما فيه من صفات الحزن والخوف والكروب والغموم دليل على الكروبيين وأهل الخشية والقلق من الأملاك وبما فيه من الفطن والأذهان والإلهامات دليل على ملائكة الوحي والتعليم.

وهكذا استقرت لي صفات الإنسان بفهم وعلم.

كذلك يحصل له اليقين بسائر الموجودات إن شاء الله.

فإذا فهمت هذه فاعلم أن الإيمان بالجن والشياطين أيضاً على ثلاثة أضرب:

ضرب في مقام الإسلام.
وضرب في مقام الإيمان.
وضرب في مقام الإحسان.

فأما الضرب الأول في مقام الإسلام: فإن للشياطين علوماً وأخلاقاً وخيلاً وصفات وأعمالاً بمقتضى أخلاقهم وعلومهم.

فيجتنب الإنسان أعمالهم ولا يطيعهم بجوارحه ظاهراً فيكون شيطاناً من شياطين الإنس ومن الشياطين إلاّ المؤمنون منهم فإنهم بضد الكافرين ومنهم طائعون ومتصفون بالأحوال الشريفة التي أمر الإنسان بها.

---

(١) أورده العجلوني في كشف الخفا (٢/ ٥، ٤٣٦)، السيوطي في الدر المنثور (٢/ ٢٢٥)، الزبيدي في الإتحاف (٩/ ٢٨٠).

(٢) أخرجه مسلم في الصحيح (الزكاة ١١٥)، الترمذي في الجامع (٢٤٥٥)، ابن ماجة في السنن (٤٢٣٤)، ابن حجر في الفتح (١١/ ٢٤١)، أبو نعيم في الحلية (٨/ ١٦٠)، أحمد في المسند (٣/ ١٩٢)، الطبراني في الكبير (٧/ ٢٥٨).

وأما الضرب الثاني في مقام الإيمان: فهو التصديق بوجودهم وأنهم عالم كثير غُيب عنا كما أن الإنسان عالم لا يحصي عددهم إلاّ الله في عالم/ [١٦٧/ ب] الدنيا والهروب من وساوسهم[١] ومعرفة خواطرهم وأوحيتهم وتسويلهم إلاّ المؤمنون منهم.

وأما الضرب الثالث في مقام الإحسان: هو التخلق[٢] بضد أخلاقهم مثل الإباءة والعناد والكِبر وترك الاتصاف بأوصافهم لأن من اتصف بأوصافهم فقد أشبههم.

ولذلك سماهم الله إخوان الشياطين لأنهم أشبهوهم.

وأخو الشيء شبيه أخيه.

لولا شبه فيه منه لما قُرن به بل سماهم: ﴿شَيَاطِينَ الْإِنسِ وَالْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُوراً﴾[٣].

فحقيقة الإيمان بهم التصديق بهم والبعد عن صفاتهم وأفعالهم وإذا لم يبعد العبد من أوصافهم وأفعالهم انحط إلى عالمهم وصارت ذاته الباطنة في أفقهم فلا يسمع باطنه إلا كلامهم وزخرف القول من وحيهم وتشكيكهم وأمرهم بالمنكر والفحشاء والأمنية والإيعاد والوسوسة والخواطر الرديئة كلها.

وذلك أصل كفر وشر من في الوجود من أوله إلى آخره إلاّ المؤمنون منهم.

فافهم. فهمنا الله وإياك وأعاننا على البعد من كل كافر منهم بكل وجه وبكل معنى، ولا جعلنا منهم ولا من إخوانهم في الدنيا والآخرة. آمين. آمين.

وصلى الله على محمد وعلى آله وسلم.

الشعبة الثامنة والثلاثون: الكف عن من قال: لا إلّه إلاّ الله

أما كون هذه الشعبة من الإيمان فدلائله كثيرة جداً من القرآن والسنة وإجماع أهل السنة يغني عن الاستشهاد على ذلك، قال الله تعالى في ذلك: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَاءُ﴾[٤].

ولو كان كافراً ما غفر له، ومن عذبه أخرجه بإيمانه من النار.

---

(١) في الأصل: وسامهم. وهو تحريف.

(٢) في الأصل: الخلق. وهو تحريف.

(٣) سورة الأنعام (الآية: ١١٢).

(٤) سورة النساء (الآية: ٤٨).

وقال الله تعالى: ﴿وَإِن طَآئِفَتَانِ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱقْتَتَلُوا۟﴾[(١)]. فسماهم مؤمنين.

/ وقال النبي عليه الصلاة والسلام: «إذا التقى المسلمان بسيفيهما فالقاتل والمقتول في النار»[(٢)]. فسماهم مسلمين. [١٦٨/ أ]

وقال أيضاً عليه الصلاة والسلام في النساء: «يكفرن». قيل: يكفرن بالله؟ قال: «يكفرن الإحسان ويكفرن العشير»[(٣)]. فهذا كفر دون كفر.

وقال أيضاً عليه الصلاة والسلام: «سِباب المسلم فسوق وقتاله كفر»[(٤)].

وروى أنس بن مالك قال: قال رسول الله ﷺ: «ثلاثة من أصل الإيمان: الكفّ عمن قال: لا إله إلا الله، ولا تكفر مسلماً بذنب».

التوحيد أصل من أصول الإيمان وما كان من أوصافه فهو شعبة منه بل هو من أعظم شعبه. والحمد لله.

ومن لا يرى ذلك فهو من أهل الزيغ والضّلال الذين يقولون بالتكفير بالذنوب غلواً في تعظيم الذنب حتى خرجوا عن الحد وإنما القول العدل في ذلك: أن من ارتكب الذنب متأولاً وهو يرى أنه عاص بركوبه إياه غير مستحلٍ له. فهذا يحكم له بحكم الإسلام ويؤمر بالتوبة منه والرجوع عنه فإن تاب لحق بالطائعين، وإن بقي على حاله فأمره بركونه [عن][(٥)] طريق الآخرة [على خطر][(٥)] لكنه في المشيئة بين المغفرة والعذاب.

ثم إن دخل النار فلا بد أن يخرج منها بإيمانه، فالتكفير ساقط عنه بكل وجه والحمد لله يخرجه من النار ولا يخلد في النار إلاّ كافراً بهذا شهد الكتاب والأخبار.

---

(١) سورة الحجرات (الآية: ٩).

(٢) أخرجه البخاري في الصحيح (١/ ١٥)، (٩/ ٥)، مسلم في الصحيح (الفتن ١٥)، النسائي في المجتبى (٧/ ١٢٥)، ابن ماجة في السنن (٣٩٦٤)، البيهقي في السنن الكبرى (٨/ ١٩٠)، أبو نعيم في الحلية (٣/ ٣٠٣)، ابن عدي في الكامل (٧/ ٢٦٥٠).

(٣) أخرجه البخاري في الصحيح (١/ ١٤)، النسائي في المجتبى (٣/ ١٤٨)، البيهقي في السنن الكبرى (٣/ ٣٢١)، الشافعي في المسند (٧٨)، ابن خزيمة في الصحيح (١٣٧٧)، عبد الرزاق في المصنف (٤٩٢٥).

(٤) أخرجه البخاري في الصحيح (١/ ١٩)، (٨/ ١٨)، (٩/ ٦٣)، مسلم في الصحيح (الإيمان ب: ٢٨ رقم ١١٦)، الترمذي في الجامع (١٩٨٣)، النسائي في المجتبى (٧/ ١٢٢)، ابن ماجة في السنن (٦٩، ٣٩٣٩)، أحمد في المسند (١/ ٣٨٥)، البيهقي في السنن الكبرى (١/ ٢٠٩)، الحميدي في المسند (١٠٤)، أبو عوانة في المسند (١/ ٢٤)، أبو نعيم في الحلية (٥/ ٢٣).

(٥) ما بين المعقوفين يتطلبه السياق.

وأما من ارتكب الذنب من غير تأويل قصد فيه الحق وهو عند الله على خلاف ذلك ومن غير أن يرى نفسه عاصياً بل ركبه ركوب استحلال وترك الواجب عليه ترك عناد وجحود، هو الذي يطلق عليه التكفير لأنه كفر بآيات الله وكتبه ورسله من أجل أن الكتاب أوجب الواجبات وأحل الحلال وحرم الحرام.

[١٦٨/ ب] فإذا حرم هذا ما أحل الله وأحل ما حرم الله أو أنكر ما أوجب الله فقد/ كذب الله ورد عليه، قال الله تعالى: ﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِباً أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ﴾[1].

وقال: ﴿وَلاَ تَقُولُواْ لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ الْكَذِبَ هَـٰذَا حَلاَلٌ وَهَـٰذَا حَرَامٌ لِّتَفْتَرُواْ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ﴾[2] الآية.

وقال في آية أخرى: ﴿قُلْ أَرَأَيْتُم مَّآ أَنزَلَ اللَّهُ لَكُم مِّن رِّزْقٍ فَجَعَلْتُم مِّنْهُ حَرَاماً وَحَلاَلاً قُلْ ءَآللَّهُ أَذِنَ لَكُمْ أَمْ عَلَى اللَّهِ تَفْتَرُونَ﴾[3].

وقد نسب الله من فعل هذا للكفر وقال في سورة براءة: ﴿إِنَّمَا النَّسِيءُ زِيَادَةٌ فِي الْكُفْرِ يُضَلُّ بِهِ الَّذِينَ كَفَرُواْ يُحِلُّونَهُ عَاماً وَيُحَرِّمُونَهُ عَاماً لِّيُوَاطِئُواْ عِدَّةَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ فَيُحِلُّواْ مَا حَرَّمَ اللَّهُ زُيِّنَ لَهُمْ سُوءُ أَعْمَالِهِمْ﴾ ثم قال: ﴿وَاللَّهُ لاَ يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ﴾[4].

ولو أن كل من واقع ذنباً وقع عليه التكفير لما دخل الجنة أحد من خلق الله وبقيت الجنة خالية لأن النبي عليه الصلاة والسلام قال: «ما من نبي إلا وقد عصى أو همَّ بالمعصية»[5].

فما ظنك بسائر الخلق دون الأنبياء؟!

والعجب كل العجب من القائلين بالتكفير بالذنوب وهم أكثر خلق الله ذنوباً لأنهم يكفرون الأئمة ويخرجون عليهم بالسيف ويقتلون عباد الله بغير حق ويبيحون ما حرم الله ولا يرون ذلك كله ذنباً بل يرونه حسناً وحقاً واجباً.

هل هذا إلا لأن الله زين لهم سوء أعمالهم وكما قال في آية أخرى: ﴿أَفَمَنْ زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ فَرَآهُ حَسَناً﴾[6].

هذا هو القول العدل في ذلك، والإيمان ثابت عند المتصف به لا يحبطه إلا ضده وهو

---

(١) سورة يونس (الآية: ١٧).
(٢) سورة النحل (الآية: ١١٦).
(٣) سورة يونس (الآية: ٥٩).
(٤) سورة التوبة (الآية: ٣٧).
(٥) أخرج نحوه ابن عدي في الكامل (٢/ ٨١٤).
(٦) سورة فاطر (الآية: ٨).

الكفر إلا أن الذنوب تنقصه وتضعفه وتخف وزنه، ولو أرادوا بالإحباط هذا المعنى لكان خفيفاً.

أعني نقصان الإيمان وضعفه فإن القرآن شهد بزيادة الإيمان ونقصانه، وكذلك شهدت به السنة.

ولا معنى لقول من يقول: إن الزيادة والنقصان/ لا يوصف بها الإيمان وإنما الزيادة [١٦٩/ أ] والنقصان في الأعمال التي هي فروع الإيمان فإن الباري تعالى يقول في قلة الإيمان فلا يؤمنون إلا قليلاً والقليل أنقص من الكثير فلا شك.

وقد ثبت في الصحيح عن أبي سعيد الخدري عن النبي ﷺ أنه قال: «يدخل أهل الجنة الجنة وأهل النار النار ثم يقول الله أخرجوا من النار من كان في قلبه مثقال حبة من خردل من إيمان»[1].

وفي الصحيح أيضاً عن النبي ﷺ قال: «يخرج من النار من قال: لا إله إلا الله وفي قلبه وزن شعيرة من إيمان ويخرج من قال: لا إله إلا الله وفي قلبه بُرة من إيمان ويخرج من النار من قال: لا إله إلا الله وفي قلبه وزن ذرة من إيمان»[2].

فوصف النبي عليه الصلاة والسلام درجات النقصان من الذرة إلى ما فوقها وكذلك ثبت عن النبي ﷺ [أنه قال][3]: «لا يزني الزاني حين يزني وهو مؤمن، ولا يسرق السارق حين يسرق وهو مؤمن»[4]. . الحديث إلى آخره.

إنما أراد عليه الصلاة والسلام إيماناً كاملاً.

وقال علي بن أبي طالب رضي الله عنه في زيادة الإيمان ونقصانه:

---

(١) أخرجه البخاري في الصحيح (١/ ١٢)، مسلم في الصحيح (٢١٨٩)، ابن حجر في الفتح (١١/ ٤٠٦)، الطبراني في الصغير (٢/ ١٧)، أبو نعيم في الحلية (٦/ ٣٥٠)، التبريزي في المشكاة (٥٦٣٩).

(٢) أخرجه البخاري في الصحيح (١/ ١٧)، (٩/ ١٥٠)، مسلم (الإيمان: ٣٢٥)، الترمذي في الجامع (٢٥٩٣)، ابن ماجة في السنن (٤٣١٢)، أحمد في المسند (٣/ ١١٦)، ابن أبي شيبة في المصنف (١١/ ٣١).

(٣) زيادة للإيضاح.

(٤) أخرجه البخاري في الصحيح (٣/ ١٧٨)، (٧/ ١٣٦)، مسلم في الصحيح (الإيمان ب ٢٤ رقم ١٠٠)، أبو داود في السنن (٤٦٨٩)، الترمذي في الجامع الصحيح (٢٦٢٥)، النسائي في المجتبى (٨/ ٦٤)، ابن ماجة في السنن (٣٩٣٦)، أحمد في المسند (٢/ ٣٧٦)، البيهقي في السنن الكبرى (١٠/ ١٨٦)، الدارمي في السنن (٢/ ١١٥).

إن الإيمان ليبدو لمعة بيضاء فإذا عمل العبد الصالحات نمت وزادت حتى يبيض القلب كله.

فقد كشف رضي الله عنه للعقل حقيقة السرِّ في زيادته فإن البياض النوري له درجات لا آخر لها في القوة النورية فإن نور الثوب الأبيض ليس كنور السراج ولا نور السراج كنور الكوكب ولا نور الكوكب كنور القمر ولا نور القمر كنور الشمس ولا نور الشمس كالذي تستمد منه نورها[1].

وفي القدرة أن الله يزيد الشمس في نورها ويقويها مائة ألف ضعف مما هي عليه وأكثر من ذلك إلى غير نهاية إن شاء الله.

كذلك يخلق الله في قلب عبد من الإيمان وأنواره ويضعفه إذا شاء أضعافاً مضاعفة على غيره فيكون قلب واحد/ يتلألأ كما تتلألأ الشمس وآخر كالقمر وآخر كالنجم وآخر أقل منه. وقد ورد في قلوب المشتاقين: أن السماء تضيء بنور قلوبهم. [١٦٩/ ب]

فهكذا درجات الإيمان في القلوب فإنه ليس قوة إيمان من يصدق بالله واليوم الآخر وهو مهمل في المخالفات كقوة إيمان من تعفف عن بعض المعاصي دون بعض ولا قوة إيمان من تعفف عن بعضها كقوة إيمان من تعفف عن جميعها ثم إن من واقع شيئاً منها سارع[2] بالخروج منها ولا قوة إيمان من رغب في الدنيا كقوة إيمان من ظهرت له أعمال الآخرة فشمر إليها واستنار قلبه بأنوارها ولا قوة إيمان هذا كقوة إيمان من استنار قلبه بنور مولاه فآثره على من سواه، وكذلك في الإيثار له والقرب منه درجات بعضها فوق بعض لا يحيط بتفصيل درجاتها إلا العليم بها هم درجات عند الله وهذا هو مذهب الصحابة والأئمة الفقهاء رضي الله عنهم قال ابن أبي مليكة: أدركت ثلاثين من أصحاب رسول الله ﷺ كلهم يخاف النفاق على نفسه ما منهم أحد يقول إنه على إيمان جبريل وميكائيل.

وروى ابن وهب عن مالك وقد سأله عن الإيمان أيزيد وينقص؟ قال: قد ذكر الله زيادته ونقصانه في غير آية من القرآن والإيمان يزيد. فقلت: فبعضه أفضل من بعض؟ قال: نعم.

وقال إبراهيم بن أبي الورد: سمعت مالكاً يقول: الإيمان قول وعمل يزيد وينقص.

وقاله ابن أبي جريج، ومعمر، وسفيان.

---

(١) جاء بعدها عبارة: نور الشمس وهي زائدة على السياق فحذفتها.

(٢) في الأصل: صارع. وهو تحريف.

وقال ابن نافع عن مالك: سمعته يقول: أنا مؤمن، والإيمان قول وعمل يزيد بالأعمال.

وقال الله: ﴿لِيَزْدَادُوٓاْ إِيمَانًا مَّعَ إِيمَانِهِمْ﴾[1]. فذكر زيادة في إيمانهم.

وقال: ﴿رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِ ٱلْمَوْتَىٰ﴾[2] إلى قوله: ﴿لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِي﴾[2] فذلك زيادة في دينه.

فهذا إبراهيم عليه السلام فما ظنك/ بغيره؟ [الذي][3] لا يقول بزيادته ولا نقصانه [١٧٠/ أ] يجعل إيمانه كإيمان إبراهيم، وجبريل، ومحمد [ﷺ]، وأبي بكر. ويرى الكل سواء، ولو كان الإيمان في قلوب الخلق سواء لاستووا في الأعمال والزهد في الدنيا والرغبة في الآخرة فإن القوة التي في الإيمان أثمرت الأحوال الشريفة والأعمال الرضية والضعف فيه أثمر الكلَّ والرغبة في الفاني والزهد في الباقي واتباع الهوى وغير ذلك.

ولو كان الإيمان في القلوب على السواء فما بالهم اختلفوا في الطاعة والعصيان والإقبال والإدبار وهل ذلك إلا من سبب النقص والكمال والضعف والقوة ولكن الكل مسلمون مؤمنون. والحمد لله.

هذا مذهب أهل السنة ولا يقول بزيادته ونقصانه من أهل العلم فلقوله معنى يرجع إلى هذا.

وذلك أن معنى قوله يرجع إلى العدد بقدر أمور الإيمان ومثال ذلك قوله: «لا إله إلاّ الله» حروفها عشرة[4] لا يزاد فيها حرف ولا ينقص منها، ولو زيد فيها حرف أو نقص منها حرف لانخرمت الكلمة وانخرم معناها.

فكذلك جميع أمور الدنيا الإيمان قد عددها الشرع عموماً وخصوصاً فقال: آمنوا بالله، وبكتبه، وبرسله، وبالملائكة، وبالغيوب على اختلاف أنواعها، وبكذا، وبكذا حتى استقرت جميع الموقنات في قلوب المؤمنين فكانت عقيدة لا يزاد فيها ولا ينقص. هذا المعنى هو الصحيح.

وأما زيادته في نفسه بمعنى النشور والعظم فلا شك فيه كما ورد في بعض الأخبار: «إذا مدح المؤمن ربا الإيمان في قلبه»[5]. يعني المؤمن العارف بنفسه الذي يرى المدح من

---

(١) سورة الفتح (الآية: ٤).

(٢) سورة البقرة (الآية: ٢٦٠).

(٣) ما بين المعقوفين يتطلبه السياق.

(٤) باعتبار أنه يحسب (لا) حرف واحد.

(٥) أخرجه الحاكم في المستدرك (٣/ ٥٩١)، الطبراني في الكبير (١/ ١٣٥)، ابن الجوزي في تذكرة =

فضل في حال المدح ويرى ستر الله لقبائحه فيتولد في قلبه الشكر على ما ظهر من الجميل والشكر يشرح الصدر ويوجد معه طعم الإيمان بل هو إيمان جديد.

[١٧٠/ ب] وكذلك نقصانه إذا مدح العبد وأعجب بنفسه نسي/ مولاه وقل شكره ونسي قبائحه ووجد طعم نفسه الأمّارة بالسوء وضعف الإيمان في نفسه.

وهكذا في ارتكاب المعاصي والانهماك فيها حتى أن من الخلق من يكون وزن إيمانه مثقال حبة خردل لكن اسم الإسلام والإيمان ينطلق على الجميع ولا يذهب الإيمان[١] إلا ضده وهو الكفر.

وإذا تقرر هذا فاعلم أن هذا المقام على ثلاثة أضرب:

ضرب في مقام الإسلام.
وضرب في مقام الإيمان.
وضرب في مقام الإحسان.

فأما الضرب الأول في مقام الإسلام: فأن تكف عن أهل الذنوب لسانك بالتكفير ولا ينطلق عليهم وتقطع بذلك.

وكذلك تكف جوارحك الظاهرة عن مقابلتهم بما تقابل[٢] به الكفرة فتكون كالخوارج الذين يكفرون بالذنوب ويستحلون دماء المسلمين وأموالهم وسبي نسائهم وذراريهم وقد عابوا علي بن أبي طالب رضي الله عنه بتركه ذلك فقال ابن عباس: ما الذي نقمتم عَلَى عَلِيّ؟ فقالوا: ثلاث:

- حكم في دين الله الرجال.
- ومحى اسمه من أمير المؤمنين.
- وقاتل ولم يسب.

فقال لهم ابن عباس: أتسبون أمكم عائشة رضي الله عنها؟!

بل تأمرهم بالمعروف وتنهاهم عن المنكر كما أمرك الله ولا تقطع بهم.

أما الضرب الثاني في مقام الإيمان: فأن لا تعتقد فيه الكفر بقلبك وتكف عنه ظنونك

= الموضوعات (١٦٤)، العجلوني في كشف الخفا (١/ ١٠٥)، الزبيدي في إتحاف السادة المتقين (٤/ ١٨٢).

(١) في الأصل: ولا يذهب والإيمان. فالواو زائدة فحذفتها.

(٢) جاءت العبارة في الأصل على النحو التالي: مقاماتهم بما تقاتل. وهو تحريف، تصحيف.

السوء كما كففت جوارحك وتعتقد له الرأفة والرحمة وإن أظهرت به الغلظة وتبغض ما أمرك الله أن تبغض ولا تنظر[١] بعين الازدراء له والعجب بنفسك إلاّ أن تعتقد فيه الكفر.

وأما الضرب الثالث في مقام الإحسان: فإن بذلك يتهيأ لك جميع الموارد في هذا الباب، وذلك أن تنظر بتفكر عقلك وروحك إلى ما سبق له في/ علم الله وفي التقدير الأزلي [١٧١/ أ] فلا تدري بما يختم له ولعله أن يكون عند الله من الفائزين، وأنت بضد ذلك فإن الأعمال بالخواتيم فيدخلك من الخوف على نفسك وترى عيوبك فتشتغل بها عن غيرك لنظرك في مقام الإحسان إلى علم الله الأزلي القائم بذات الله في غيب الغيب وأرفع الدرجات الروحانية الإحسانية فلا تدري ما سبق فيه لك ولغيرك.

ونسأل الله الكريم أن يحبب لنا الإيمان ويزينه في قلوبنا ويكره لنا الكفر والفسوق والعصيان ويجعلنا من الراشدين. آمين.

وصلى الله على محمد وآله وسلم.

الشعبة التاسعة والثلاثون والشعبة الموفية أربعين: في النية والإخلاص

أما كون النية من الإيمان فلا يحتاج إلى دليل عليه لأن أعمال الإيمان كلها ظاهرها وباطنها مربوطة بها وتابعة لها فلا يصح عمل إلا بها.

وكذلك الإخلاص أيضاً لأنه من التوحيد وضده الشرك والتوحيد هو الإيمان.

وفي الخبر: «من أحب للّه وأبغض للّه وأعطى للّه ومنع للّه فقد استكمل الإيمان»[٢]. فجعل الإخلاص في الأعمال كمال الإيمان.

والشواهد على كونه من الإيمان كثيرة جداً، وقد جعل قوم الإخلاص والنية شيئاً واحداً، وفرق بينهما آخرون وهو الصحيح.

وإنما جعلهما شيئاً واحداً من جعلهما من أجل أنهما قرينان لا يفترقان أبداً، ولا يصح وجود أحدهما دون الآخر.

---

(١) في الأصل: تصل. وهو تحريف.

(٢) أخرجه أبو داود في السنن (ب ١٥)، الطبراني في الكبير (٨/ ١٥٩)، البغوي في شرح السنة (١/ ٣٩)، ابن حجر في الفتح (١/ ٤٧)، الهيثمي في مجمع الزوائد (١/ ٩٠)، التبريزي في مشكاة المصابيح (٣٠، ٣١)، الخطيب في التاريخ (٩/ ٤٤٤)، الألباني في الصحيحة (٣٨٠)، المنذري في الترغيب والترهيب (٤/ ٢٤).

أعني النية الصحيحة فإن العمل يحتاج إلى نية والنية تحتاج إلى إخلاصها للمعمول له لتكون صحيحة صادقة فلما ارتبطا هذا الارتباط جاز أن يعبر بالواحد عن الآخر فجعلتهما في باب واحد.

[١٧١/ ب] فالإخلاص/ روح النية والنية روح العمل ألا ترى كيف وقع الاسم على النيات كلها بلفظ واحد في حق المؤمن، والكافر، والمرائي، والمخلص، والطائع، والعاصي.

واختلف لفظ الإخلاص، والرياء، والشرك، والسمعة، والتزين.

وهذه كلها أسامي تصحح النية أو تفسدها فيقال للمؤمن في أعماله كلها نيات، وللكافر نيات في أعماله، وللمرائي في أعماله نيات وكذلك صفات الخلق.

فاشتركوا في اسم النية واختلفوا في صحة النية وفسادها فسمي من صحح نيته بالإخلاص مخلصاً ومن أفسد نيته بالرياء مرائياً، ومن ربطها بالطمع طامعاً، ومن ربطها بالشرك مشركاً.

والنية من أعمال السر تدركها الملائكة عليهم السلام والإخلاص سر السر لا يدركه أحد إلا الله أو من أطلعه عليه.

دليل ذلك قول النبي ﷺ: «من همّ بحسنة ولم يعملها كتبت له حسنة، ومن همّ بسيئة ولم يعملها كتبت له حسنة»[1].

فالهمة ابتداء النية والملائكة مطلعون عليها كما ورد في الخبر: «إن الملائكة تقول عبدك فلان هم بحسنة فيقول ارقبوه فإن هو عملها فاكتبوها له عشراً»[2] الحديث.

فوصف في هذا الحديث أن الملائكة مطلعون على الهمة الصالحة والفاسدة والهمة هي النية.

وأما الإخلاص فقد ورد في حديث السبعة الأملاك الذي رواه معاذ بن جبل أن الملائكة تضرب بالعمل وجه صاحبه عند كل سماء من أجل الآفة التي دخلت العمل. إلا الإخلاص والرياء فإنهم لا يطلعون عليهما حتى يصل العمل إلى الله فيقبله أو يرده من أجل

---

(١) أخرجه: أحمد في المسند (١/ ٢٧٩)، مسلم في الصحيح (١١٨)، أبو عوانة في المسند (١/ ٨٤)، أبو نعيم في الحلية (١٠/ ٣٩٤)، الطبراني في المعجم الكبير (١٢/ ١٦١)، الهيثمي في مجمع الزوائد (١٠/ ١٤٥)، في موارد الظمآن له (٣١).

(٢) أورده الزبيدي في إتحاف السادة المتقين (٧/ ٢٩٦)، البيهقي في الأسماء والصفات (٧٢).

الإخلاص أو ضده الذي هو سر السر. ﴿وَإِن تَجْهَرْ بِٱلْقَوْلِ فَإِنَّهُ يَعْلَمُ ٱلسِّرَّ وَأَخْفَى﴾[(١)] من السر فذلك النية سر العمل/ وأخفى منه الإخلاص لها أو ضده. (. . .)[(٢)]. [١٧٢/ أ]

قال: سألت رسول الله ﷺ عن الإخلاص ما هو؟ قال: «سألت جبريل عن الإخلاص ما هو؟ قال: سألت رب العزة عن الإخلاص ما هو؟ قال: سر من سري استودعته قلب من أحببت من عبادي»[(٣)].

فالنية الصحيحة بالإخلاص قد اقترنت مع الإخلاص اقتران الجوهر بالعرض ـ أعني أنه لا يفارقها كما لا يوجد جوهر إلا بعرض ولا عرض إلا بجوهر ـ فكذلك عبر من عبر عن الإخلاص بالنية وهذا في لسان العرب جائز يسمي الشيء باسم الشيء إذا جاوره أو شاكله فأما إذا وقع التفصيل فإن حد النية هو قصد الباطن إلى الفعل أو همة الباطن أن يفعل أو إرادته أن يفعل كما قال الله تعالى: ﴿وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَابِ لَوْ يَرُدُّونَكُم مِّنْ بَعْدِ إِيمَانِكُمْ كُفَّاراً حَسَداً﴾[(٤)].

وكما قيل: إن نية الفقير بمجردها خير من عمل الغني كله.

وذلك أن الفقير يود ويتمنى رخص الأسعار ورخص جميع السلع كلها فهو يتمنى الخير لجميع العالم ويوده ضرورة.

ومن تجديد النية بالتمني والود أيضاً ما روي في الإسرائيليات:

أن رجلاً فقيراً مرّ في مجاعة بكثبان[(٥)] فقال في نفسه: لو كان لي مثل هذا الرمل طعاماً لقسمته على الناس. فأوحى الله إلى نبي أن قل له: إن الله قد قبل صدقتك وقد شكر حسن نيتك وأعطاك ثواب ما لو كان طعاماً فتصدقت به.

فهذا إنما ودّ وتمنى أن يكون له فأعطي ما تمنى وود هذا لأن نيته اقترنت بالإخلاص لله ولو اقترنت بالرياء والسمعة وليقال إنه سخي أو كريم لما قبلت نيته.

فحد النية: إرادة الباطن للفعل.

وحد الإخلاص: إفراد الإرادة للمعمول له دون سواه.

---

(١) سورة طه (الآية: ٧).

(٢) سقط من السياق قدر سطر تقريباً.

(٣) أورده الزبيدي في إتحاف السادة المتقين (١٠/ ٤٤).

(٤) سورة البقرة (الآية: ١٠٩).

(٥) في الأصل: بكتمان. وهو تحريف.

[١٧٢/ ب] أو قل النية:/ تمني القلب أو همة القلب أو قصد القلب للفعل.

والإخلاص: إفراد الهمة والقصد والتمني، أو قل: توجيه الإرادة والتمني والقصد للمعمول.

واعلم أن العمل الظاهر بالجوارح للنية لأن النية فعل الباطن والباطن هو المحرك للجوارح.

فأول ما يفعل الباطن العمل صورة روحانية في نفسه ثم يحرك الجوارح فتعمله على صورة ما صوره.

كما قال سهل رحمه الله: النية مقدمة العمل.

فالموقنون[1] المسددون الذين صحت أعمالهم هم الذين إذا أرادوا فعل شيء فكروا في عاقبته فإن كان رشداً صححوا النية التي هي فعل القلب بالإخلاص. فقامت صورة العمل في النفس صورة روحانية مجردة من الآفات ثم أظهروه بالجوارح على صورة ما تصور في القلب فإن طرأت آفة عليهم أماطوه بالكرامة له حتى يتم العمل كما تصور باطناً صحيحاً.

وهكذا أيضاً من نوى شراً أول ما يصوره في نفسه صورة ثم يعمله ظاهراً بجوارحه، ولذلك ورد في الخبر: «إذا التقى المسلمان بسيفيهما فالقاتل والمقتول في النار». قلنا: يا رسول الله: هذا القاتل فما بال المقتول؟ قال: «إنه كان حريصاً على قتل صاحبه»[2].

معناه أنه نوى قتله وأراده بباطنه فلم يقدر على تنفيذه على حسب ما أراده ظاهراً كما قدر صاحبه القاتل فكان كالقاتل لأنه في الباطن قاتل.

وهكذا الأمور في جميع الأشياء لا يخطر في باطن العبد شيء فيريده إلا تصورت صورته كاملة في باطنه.

فمن ذلك ما يعفى عنه ومن ذلك ما يؤاخذ به وهذا سر عظيم فمن همه أُشرب بحاراً من العلم لا آخر لها وأسراراً من العلوم الربانية لا مثيل لها.

وكيف يخلق الله أعيان الموجودات عن الإرادة القديمة دون نصب ولا تعب بل كما [١٧٣/ أ] قال: ﴿وَمَا مَسَّنَا/ مِن لُّغُوبٍ﴾[3].

---

(١) في الأصل: بالموقنون. وهو تحريف.

(٢) أخرجه البخاري في الصحيح (١/ ١٥)، (٩/ ٥)، مسلم في الصحيح (الفتن: ١٥)، ابن ماجة في السنن (٣٩٦٤)، البيهقي في السنن الكبرى (٨/ ١٩٠)، البغوي في شرح السنة (١٠/ ٢٢١)، ابن حجر في الفتح (١/ ٨٥)، أبو نعيم في الحلية (٣/ ٣٠٣)، البخاري في التاريخ (٣/ ٥٠٣).

(٣) سورة ق (الآية: ٣٨).

وانظر قوله تعالى: ﴿لَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهِي أَنفُسُكُمْ﴾[١] أي تتمنى.

وانظر إلى حال الذي نوى وقال للجبل تحرك فتحرك.

كيف انفعل التحرك بإرادته ثم التسكين.

وكذلك خرق العوائد كلها من مشي على الماء أو أي نوع من هذا الباب لمن فتح الله له بصيرته[٢].

ولنرجع إلى ما كنا بسبيله.

اعلم أن تصحيح النية والعمل وفسادهما يتضح بمعرفة العوالم الثلاثة: عالم الملك، والملكوت، والجبروت. التي هي على عدد المقامات الثلاثة: مقام الإسلام، والإيمان، والإحسان.

وبمعرفة هذه العوالم الثلاثة تصح معرفة الإنسان بنفسه إن شاء الله.

فالعالم الظاهر كله يسمى عالم الملك ومثله من الإنسان الجسد الظاهر، وأعمال الجسد هي الإسلام فتحتاج في كل عمل إلى نية وإخلاص.

وعالم الملكوت هو باطن الملك الظاهر وهو عالم الكرسي الذي وسع السماوات والأرض وما فيهما ومثاله موت الإنسان نفسه، وأعمال الإيمان والعقود كلها ويحتاج في جميعها إلى نية صالحة وإخلاص كما ورد في الحديث: «من قال: لا إله إلا الله مخلصاً من قلبه دخل الجنة»[٣].

وعالم الجبروت: هو موضع تدبير الملك ظاهراً وباطناً وهو عالم العرش قال الله تعالى: ﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ﴾[٤].

وأمر الباري تعالى لأنه جبر محض لأنه لا راد لأمره ومثاله من الإنسان روحه: ﴿قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي﴾[٥].

وأعمال المواجيد، والأحوال، والعلوم، بإخلاص صحيح فقد عمّت النية والإخلاص المقامات الثلاثة.

---

(١) سورة فصلت (الآية: ٣١).

(٢) سيرد الرد على هذه الأقوال وأمثالها في الشعبة رقم (٥١) تحت عنوان حب أولياء الله وأوتاده فراجعه في الموضع المشار إليه.

(٣) أخرجه الحميدي في المسند (٣٦٩)، البخاري في التاريخ (٨/ ٦٥)، أبو نعيم في الحلية (٧/ ٣١٢)، الطبراني في الكبير (٥/ ٢٢٣)، الخطيب في تاريخ بغداد (١٢/ ٦٤).

(٤) سورة يونس (الآية: ٣). (٥) سورة الإسراء (الآية: ٨٥).

[١٧٣/ ب]

/فصـــل

اعلم أن أول ما يبدأ الأمر عالم الجبروت خبراً من خاطر أو غيره من الغيب فيظهر للعقل الذي هو وصف الروح فإمّا يقبله أو يرده بالكراهة بواسطة النفس.

فإن قبله صار نية وعقداً مذموماً في خزانة ملكوت النفس وعالم النيّات.

ثم بعد ذلك تأخذ القوى في إخراجه إلى عالم الجسد بالحركات والسكنات.

فمن أيده الله بتوفيقه وأراد تصحيح نياته وقبول أعماله أيد الروح بنور العقل حين ظهور الأمر والخاطر فينظر إلى الأمر فإن كان من أمور الآخرة ورآه صافياً بالإخلاص عقد عليه وحرك النفس لقبوله والعقد عليه فيكون نية[١] صالحة فإن كان مما لا يخرج إلى عالم الجسد ويقع في عالم الملكوت ظهر للأملاك وكتب له عمل صالح.

وإن كان مما لا يتم إلاّ بإخراجه إلى عالم الملك والشهادة أخرجه إلى عالم الملك الذي هو الجسد فتم وإن كان من أمور الدنيا نظره أيضاً فإن كان مما يعود إليه فيه نفع في دينه أو دنياه عقد عليه إن كان محتاجاً إليه وأمضاه أيضاً لأن أمور الدنيا معينة للآخرة لأنها ركاب لها.

وإن كان الأمر لغير الله أو لدنيا مذمومة أو معصية أظهر قبحه للعقل فنفر عنه وكسّل النفس عن قبوله فترده بالكراهية.

فإن زاد الجبر حتى تقبله النفس وجب عليه فسخه والتوبة منه وعقد النية على تركه فكتب له أيضاً عمل صالح.

فمثل هذا تكون أعماله كلها من دين أو دنيا صالحة لأن نيته فيها كلها للّه والدار الآخرة، وهذه صفة أهل التثبت والتوقف في أسرارهم كما قال بعضهم: كنت بواب قلبي سبع سنين. يعني أنه كان عقله واقفاً على باب/ قلبه في عالم السر فكل خاطر أراد دخول قلبه نظره فإن كان من قبيل الخير قبله ونواه وإن كان من قبيل الشر والهوى أغلق الباب في وجهه وطرده ولم يمكنه من الدخول، قال الله تعالى في وصف أهل الكهف: ﴿وَكَلْبُهُم بَاسِطٌ ذِرَاعَيْهِ بِالْوَصِيدِ﴾[٢]. يعني حارسهم باسط ذراعيه على عتبة الباب وفناء الكهف. [١٧٤/ أ]

ومن كان هذا وصفه لم ينفك من عمل صالح في كل نفس من أنفاسه وساعة من ساعاته بأن أوقاته في ليله ونهاره لا تخلو من أربعة أقسام:

---

(١) في الأصل: كيه. وهو تحريف.

(٢) سورة الكهف (الآية: ١٨).

ساعة يؤدي فيها ما افترض الله عليه وهي أجل الطاعات.

وساعة يعمل فيها فضيلة والفضائل ترفع العبد إلى الدرجات العلى.

وساعة يصنع فيها مباحاً من أكل أو كسب أو غير ذلك من أنواع المباح والمباح إذا قصد به الاستعانة على الطاعة كان طاعة لا محالة.

وساعة يكون خالياً كسلاناً غير نشيط لا يجد نشاطاً لذكر ولا فكر ولا غير ذلك.

فلينو العبد حينئذ انتظار الفرج وانتظار الفرج بالصبر عبادة، ولينو انتظار أوقات الفرائض أيضاً فيكون طائعاً كما ورد في الحديث: «إن العبد في صلاة ما انتظر الصلاة»[1].

فهذه أوقات العبد في ليله ونهاره ليس فيها قسم خامس.

فإذا كانت نيته صالحة كانت أنفاسه كلها وآثاره طاعة وذلك بحسن النية فإن النية هي التي تحسن الأعمال وبها تزكو وتكثر ولذلك كانت النية خيراً من العمل كما ورد في الخبر: «نية المؤمن خير من عمله».

لأن من حسن شيئاً وأصلحه وكثره فهو أحسن من ذلك الشيء وأصلح منه لأنه سبب صلاحه وخيره بل هو كل خير صدر في العمل عن النية فهي خير من العمل وهي/ أيضاً أبلغ [١٧٤/ من العمل لأن نية المؤمن الصالح إذا عمل عملاً لله عز وجل يود ويتمنى أن لو كان العمل أصلح مما هو وأصفى ويتمنى أيضاً ويود أن لو كان أطاع الله بجميع أنواع الطاعة ويتقرب إليه بأنواع القرب لكن لا يقدر بجوارحه على ذلك وكذلك يود أن لو أطاعه الخلق كلهم ولم يعصوه طرفة عين ويحزن على ما وقع في الأمة والدين من فساد حتى قال بعضهم: وددت أن هذا الخلق أطاعوا وأني قرضت بالمقاريض.

فمثل هذه النية تبلغ أهلها ما لا تبلغهم أعمالهم.

وكذلك أيضاً تبلغ في المآل ما لا يبلغه العمل فإن نية المؤمن أن لا يكفر بالله أبداً ولو عمر في الدنيا أبد الآبدين فأعطي ثواباً على هذه الخلود في الجنة دار الثواب أبد الآبدين ولولا أنه نوى العصيان في بعض الأوقات وفسدت نيته بعض الفساد في طاعة الله لما دخل النار وقتاً من الأوقات.

والأعمال لا تبلغ هذا المبلغ ولا تدركه فإنه لو خلد العبد في الجنة على قدر أعماله لم

(١) أخرج نحوه البخاري في الصحيح (١/ ٥٥)، مسلم في الصحيح (المساجد ب ٤٩ رقم ٢٧٤)، ابن خزيمة في الصحيح (٣٦٠)، أبو داود في السنن (٤٧١)، أحمد في المسند (٢/ ٤١٥)، أبو عوانة في المسند (٢/ ٢٣).

يبق فيها إلا مقدار سبعين سنة أو ستين سنة وعلى مقدار ما يكون عمره الذي أطاع الله فيه.

فصـــل

وأما الإخلاص فحده كما تقدم إفراد النية وتصفيتها من الخلط لله عز وجل في حين العمل من أوله إلى آخره ثم إخفاء العمل عن التحدث به مع الخلق ونسيان النفس له أن تطلع عليه بعد تمام العمل، قال الله تبارك وتعالى: ﴿فَمَن كَانَ يَرْجُواْ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلْيَعْمَلْ عَمَلاً صَالِحاً وَلاَ يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَداً﴾[1] يعني في حال العمل.

وقال في كتابه بعد تمام العمل: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لاَ تُبْطِلُواْ صَدَقَٰتِكُم بِٱلْمَنِّ وَٱلْأَذَىٰ﴾[2].

[١٧٥/ أ] ففرض الإخلاص/ الواجب في أعمال البر كلها على العمال أو يستوي في قلبه بنو آدم مع أشخاص العالم كله من أرض وحيوان ونجوم وأفلاك وملائكة وغير ذلك.

فكما أنه لا يرائي بعمله لشخص من أشخاص العالم كله فكذلك ينبغي أن يكون مع بني آدم.

فإن قلت: إن بني آدم ينفعون أو يضرون فإن أشخاص العالم كله أكثر شفقة لك من بني آدم كالشمس مثلاً فإنها نافعة لهذا العالم بأسره بتنويرها وتسخيرها في كل نفس من الأنفاس.

وكذلك كل شخص في الوجود غيرها لا يرائي العامل بعمله لشيء منها.

فإن قلت: إن أشخاص العالم ليس بيدها شيء ملك إنما الأمر فيها بيد الله.

فكذلك أيضاً بنو آدم لا يملكون ضراً ولا نفعاً هو يصرف القلوب ويقبضها ويبسطها وإن اعتقدت غير ذلك وقعت في الشرك الأكبر والرياء هو الشرك الأصغر.

واعلم أنه لا تنقطع أصول الرياء من القلب حتى تنقطع أسبابه، وأسبابه خمسة أشياء:

إحداها: الطمع في نيل[3] منفوع.

الثاني: الرغبة في دفع مضرة.

الثالث: حب الثناء والمدح.

---

(١) سورة الكهف (الآية: ١١٠).

(٢) سورة البقرة (الآية: ٢٦٤).

(٣) في الأصل: ليل. وهو تحريف.

الرابع: كراهية الذم.

الخامس: ضعف اليقين وهو أصل الكل فإنه إذا ضعف اليقين قل نظر العبد ومشاهدته لربه وقوي نظره إلى الخلق ورآهم الفاعلين باستيلاء الغفلة عليه فيطمع فيهم لرؤية صدور الأفعال عنهم فيخافهم ويرجوهم ويفرح بمدحهم ويحزن بذمهم فيدخل عليه التصنع والرياء ضرورة لأجل هذه العلة الكامنة في باطنه فمتى قويت هذه الأشياء الخمسة في القلب قوي الرياء لأنها فرع منها ومتى ضعفت ضعف ومتى انقلعت بالكلية/ انقلع الرياء ولا ينقلع [١٧٥/ ب] بالكلية حتى يكون بنو آدم عنده بمنزلة أشخاص العالم كله كما تقدم فيكون العامل واقفاً مع الله فرد الفرد ويشاهد أشخاص العالم كله كل شخص واقفاً مع الله في عبادهِ فرداً بفردٍ ليس فيها شيء يرائي في حركة واحدة من حركاته لشخص آخر وهذا هو في الخليقة عمل السر الذي وردت الأخبار بتفضيله وإن كان صاحبه في العلانية أو في السر لأنه لا يسمع أحداً ولا يراه بل جعل سمع الله في مقابلة سمع الخلق وبصره في مقابلة بصر الخلق فكان في غيب الغيب وسر السر عن أبصار الخلق وسمعهم ومن ضعف عن هذه الدرجة أمر بطلب أسبابها وهو الهروب من بني آدم إلى الخلوة فيعمل في السر منهم حيث لا يسمعونه ولا يرونه فيسمع سمع خالقه ويتزين لبصره جل جلاله.

فإن الرياء إنما هو لهاتين الحاستين ـ أعني السمع والبصر ـ ومنهما استقت السمعة والرياء.

فالسمعة للسمع، والرياء للبصر، والتزين يجمعهما جميعاً يتزين لسامعه ويتزين لرائيه.

وإلى هذا المذكور ندب النبي عليه الصلاة والسلام في قوله: «الإحسان أن تعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك»[1].

فإنه ما يدخل العامل في العمل ينبغي أن يسبق إلى سره قبل كل شيء هذا المعنى.

وذلك أن ينظر إلى ربه ويصفي سره لنظره ثم يسمعه ويتزين له وإذا كان هكذا يتمنى العامل ويود أن لا يطلع أحد من خلق الله على عمله ويجد الراحة والنشاط في العمل وهما علامة المخلص المتبرم في الجماعة والنشاط في الخلوة إلا مع أقوام توجد الزيادة معهم من الأشياخ والإخوان أو رجل يظهر أفعاله للاقتداء به كي يكون له أجر من اقتدى به وتلك حالة من استوى وكمل من الأنبياء والأولياء.

---

(١) جزء من حديث جبريل أخرجه البخاري في الصحيح (١٤٤/٦)، البيهقي في السنن الكبرى (٢٠٣/١٠)، ابن خزيمة في الصحيح (٢٢٤٤)، أحمد في المسند (٣١٩/١)، ابن حجر في الفتح (٥١٣/٨).

[١٧٦/ أ] وعلامة المرائي الكسل في[1]/ الخلوة والنشاط في الجمع.

وقد ينشط المرائي أيضاً في الخلوة إذا كان العمل يظهر منه في المستقبل كالذي يجتهد في درس العلم والتعلم ليظهر في المحافل ويثنى عليه في المجالس.

فهذا أيضاً أفعاله ظاهرة وباطنه كله رياء وكل من لم يقنع في أفعاله كلها بنظر الله لها وسمعه دخل في الرياء لا محالة عليه.

واعلم أن أسباب الإخلاص خمسة أشياء على عدد أسباب الرياء:

أولها وهي الأصل قوة النفس بالله والمشاهدة له جل جلاله ويتفرع عن النفس أربعة فروع:

أولها: الطمع فيما عنده من الثواب.

والثاني: الرغبة في دفع المكاره كلها عنه لأنه شاهد الكل بيده وأنه الضار النافع.

الثالث: طلب الحظوظ عنده وحب المدح والثناء من الله لأن من أثنى الله عليه بكلامه بوصف من الأوصاف لا يقدر أحد قدر ما أعطي.

الرابع: كراهة السقوط من عين الله والذم من الله فإن من ذمه الله بكلامه وسقط من عينه ذمه الكل وسقط عند الكل ـ أعني في الآخرة ـ فمن حصلت هذه الأشياء الخمسة في قلبه جعل نظر الله إليه عوض نظر الخلق وسمع الله عوض سمع الخلق وطمع فيما عند الله عوضاً مما عند الخلق ورغب إليه أن يحرسه من كل مكـروه عوضاً من الخلق وطلب الجاه عند الله لا عند الخلق وكثرة السقوط عند الله لا عند الخلق.

فمن كان هكذا كان مخلصاً لله يفتح (. . .)[2] وهو من المخلصين على إخلاصه بكسرها فإن العبد لا يكون مخلصاً على الحقيقة حتى يخلصه الله لنفسه من الاستعباد للأشياء فيكون مخلصاً منها فحينئذ تصفو عبادته من رق الأشياء كما أثنى الله على أهل هذه الحال فقال: ﴿إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ ٱلْمُخْلِصِينَ﴾[3]. بالفتح والكسر لما لم يتملكهم العدو بشيء ولم [١٧٦/ ب] يدخلوا تحت لواء سلطانه/ يئس منهم فقال: ﴿إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ ٱلْمُخْلَصِينَ﴾[3]. فأضاف عبادتهم لله وحده دون من سواه وبذلك أثنى عليهم أيضاً سبحانه في قوله: ﴿إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا

(١) تكرر هذا الحرف بآخر [١٧٥/ ب] وأول [١٧٦/ أ] فحذفت المكرر.
(٢) موضع النقط بياض قدره كلمة واحدة.
(٣) سورة الحجر (الآية: ٤٠).

﴿ٱلْمُخْلَصِينَ﴾[1]. قرئت بكسر اللام وفتحها فأضافهم إلى اسمه المضمر دون من سواه فقال: ﴿عِبَادِنَا﴾[1].

وعن مثل هذا الحال أخبر الله جل جلاله عن أسرار الأبرار في قوله: ﴿إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ ٱللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنكُمْ جَزَآءً وَلَا شُكُورًا﴾[2].

إذا فهمت الآية وجدت فيها هذه المعاني الخمسة المتقدمة.

وبذلك وصفهم أيضاً في قوله: ﴿وَسَيُجَنَّبُهَا ٱلْأَتْقَى * ٱلَّذِي يُؤْتِي مَالَهُۥ يَتَزَكَّىٰ * وَمَا لِأَحَدٍ عِندَهُۥ مِن نِّعْمَةٍ تُجْزَىٰٓ * إِلَّا ٱبْتِغَآءَ وَجْهِ رَبِّهِ ٱلْأَعْلَىٰ﴾[3].

فهذا آتى ماله ليرى طلب التزكية عند الله والطهارة للقرب منه والنظر إليه وأن لا يبقى في مقام التخلف والذم لا ليطلب على أعماله ثواباً من أعراض الدنيا ولا جاهاً ولا محمدة في الدنيا.

فإذا أخلص العمل من أن يطلب عليه ثواب دنياوي من الخلق فهو مخلص، وهذه أول درجات الإخلاص فإن من عمل للآخرة وليثيبه الله في الآخرة فهو من المخلصين لكن عمله للنفس لأجل الجزاء والجزاء حظ من حظوظ النفس وفوق ذلك أن يعمل لأجل الله لأنه أهل أن يعبد ويشكر بالعبادة سبحانه كما عمل نبينا محمد ﷺ في هذا المقام حتى عوتب في كثرة العبادة فقال: «أفلا أكون عبداً شكوراً»[4].

وبذلك أمر الله نبيه عليه الصلاة والسلام في قوله: ﴿لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَاسِرِينَ * بَلِ ٱللَّهَ فَٱعْبُدْ وَكُن مِّنَ ٱلشَّاكِرِينَ﴾[5].

أي كن من الشاكرين على أن ارتضيناك لعبادتنا وعلى أن جعلناك أهلاً أن تعبدنا وهذه أعلى رتبة في الإخلاص وليس وراءها مَرْمًى إلا ترك الركون إلى الإخلاص وأن يرى العبد نفسه مخلصاً فإن ذلك شركاً خفياً، قال الله تعالى/ في عثمان بن عفان رضي الله عنه: ﴿أَمَّنْ [١٧٧/ أ]

---

(١) سورة يوسف (الآية: ٢٤).

(٢) سورة الإنسان (الآية: ٩).

(٣) سورة الليل (الآية: ١٨ ـ ٢٠).

(٤) أخرجه البخاري في الصحيح (٢/ ٦٣)، مسلم في الصحيح (صفات المنافقين ٧٩، ٨٠، ٨١)، الترمذي في الجامع الصحيح (٤١٢)، ابن ماجة في السنن (١٤١٩)، النسائي في المجتبى (٣/ ٢١٩)، أحمد في المسند (٤/ ٢٥١)، البيهقي في السنن الكبرى (٢/ ٤٩٧).

(٥) سورة الزمر (الآية: ٦٥، ٦٦).

هُوَ قَانِتٌ آنَاءَ ٱللَّيْلِ سَاجِداً وَقَآئِماً يَحْذَرُ ٱلآخِرَةَ وَيَرْجُواْ رَحْمَةَ رَبِّهِۦ﴾[١].

فأخبر عن سره أنه لا يرجو إلا رحمة ربه مفرداً حين صفى سره عن الركون إلى العمل وقطع اليأس عن النجاة إلا بالله وبذلك أمر الله نبيه عليه الصلاة والسلام أيضاً في قوله: ﴿وَلِلَّهِ غَيْبُ ٱلسَّمَاوَاتِ وَٱلأَرْضِ وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ ٱلأَمْرُ كُلُّهُ فَٱعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ﴾[٢].

لا على عبادتك فإن النفس إن طالعت إخلاصها كثر عندها عملها وذلك شرك خفي منها لأنها أضافت لها فعلاً وهو كذب فإن الله خالق كل شيء ولن ينال العبد هذه المرتبة في الإخلاص حتى يرى القلب بالمشاهدة كثرة عمال الله وخدامه[٣] في ملكه وملكوته على ممر الدهور والأزمان وأنهم لم يفتروا قط طرفة عين عن عبادته ويرى مقدار ما يقع عبادته عن عبادة العابدين وهل يحس أو يسمع لها ذكر في عبادة العابدين فيستحي العبد من أن ينظر حينئذ إلى إخلاصه ويبقى فرداً مع الفرد الحق لا يرجو إلاّ هو ولا ينظر إلا إليه ولا يتوكل إلا عليه ويصير العمل واحداً من الخلق لا يركن إليه كما لا يركن إلى شخص من أشخاص الخلق: ﴿وَٱللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ﴾[٤].

فهذا مقام الإحسان الروحاني والإيماني.

بلغ الله بنا وتاب علينا من جميع الآفات جليها وخفيها. آمين. آمين.

وصلى الله على محمد وآله وسلم.

انتهى النصف الأول من كتاب الشعب بعون الله
يتلوه في أول النصف الثاني في باب التوبة إن شاء الله.
كتبه العبد الفقير الحقير المعترف بالذنب الكثير[٥].

(١) سورة الزمر (الآية: ٩).
(٢) سورة هود (الآية: ١٢٣).
(٣) يريد عباده وملائكته.
(٤) سورة الصافات (الآية: ٩٦).
(٥) هذا من تقسيم المؤلف رحمنا الله وإياه.

/ بسم الله الرحمٰن الرحيم(*) [١٧٨/ أ]

وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه
وسلم تسليماً

الشعبة الحادية والأربعون: باب التوبة

أما كونها من الإيمان فبيّن واضح لا يحتاج إلى استشهاد عليه، من أجل أن التوبة رجوع من شيء إلى شيء.

فهي رجوع عن جميع أضداد/ شعب الإيمان إلى شعب الإيمان، ودخول في الإيمان [١٧٨ وشعبه، ورجوع إلى الله بعد الفرار منه.

فهي إذاً من أكبر شعب الإيمان.

وقد جعلها الله إيماناً في قوله: ﴿فَإِذَا[١] انسَلَخَ الأَشْهُرُ الْحُرُمُ فَاقْتُلُواْ الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدتمُوهُمْ وَخُذُوهُمْ وَاحْصُرُوهُمْ وَاقْعُدُواْ لَهُمْ كُلَّ مَرْصَدٍ﴾. ثم قال: ﴿فَإِن تَابُواْ﴾[١]. أي رجعوا من الشرك إلى الإيمان فهذا أيضاً يبين كونها[٢] من شعب الإيمان.

واعلم يا أخي أن التوبة قدرها عظيم، وأمرها جسيم لا يقدر أحد قدر النعمة على عبادة، ولم يبق اليوم في الأرض سبب أرجى منها، لأن الباري تبارك وتعالى ترك بابها مفتوحاً لا غلق عليه إلى أن يبلغ الكتاب أجله، وهو طلوع الشمس من مغربها، وطلوع النَّفَس على آخرِهِ.

ووعد بالمغفرة منها لكل نوع من أنواع المخالفات فأي نعمة أعظم منها؟

(*) أول الجزء الثاني من تقسيم المؤلف رحمنا الله تعالى وإياه وأسكننا وإياه فسيح جناته. آمين. آمينَ.

(١) جاءت في الأصل (فإن) وهو تحريف وقع في غفلة من الناسخ والآية في سورة التوبة رقم (٥).

(٢) جاءت العبارة على النحو التالي: تبين من الإيمان كونها وعبارة (من الإيمان) زائدة على السياق فحذفتها وضبطت ما حرف.

وهي أول دليل على حسن صفات[١] الباري جل وعلا على ما هو عليه من الجلال والكبرياء، وعظم السلطان والرفعة والسيادة. يعظم في الوجود عصيانه، وتكبر مخالفته بقدر عظمته وكبريائه، لأن عظم الذنب على قدر الذي يعصى كما قيل: لا تنظر إلى صغر الذنب وانظر إلى قدر الذي عصيت ومن واجهت بعصيانك.

[١٧٩/ أ] / لكن عنده من العطف والحنان والرحمة واللطف والحِلم، وغير ذلك من صفات العفو والمغفرة ما لم يَعْلمه إلا هو فبها يتوب على عبده العاصي ويرجع عليه ويمهله حتى يتوب فإذا تاب قَبله وتلقاه بما لا تقدّره العقول من الإكرام والإحسان.

فدلت التوبة على أمرٍ عظيم من معرفة ما هو الله عليه من الصفات، وأسرار، (. . .)[٢] لا تسطرها الأقلام، وتذهل عنها القلوب والأحلام من صفات[٣] ذي الجلال والإكرام.

ولذلك حرم اليأس وكان كفراً لأنه كفر بهذه الصفات الحسنى التي يشاهدها التائب في مقام الإحسان الروحاني، والآيس محجوب عنها ألا ترى أن الباري تعالى يُعصى في هذا العالم في كل نفس من الأنفاس بأنواع العصيان كلها على مَمَرّ الدهور والأزمان من كل شيطان وكافر مبتدعٍ وعاصٍ ينسب له ما لا يليق به، ويصرون على ذلك يحلم ويرزق ويعافي ويستر.

ثم يتوب على عبده فإذا تاب قبله، وعفى عنه وكتب في زمرة المطيعين.

فللّه الحمد على ما هو عليه ربنا من صفات عُلا وأسماء حسنى.

واعلم أن حد التوبة في اللغة، الرجوع. يقال: تاب فلان، أي رجع من مكان إلى مكان.

[١٧٩/ ب] فحدها وحقيقتها: رجوع من كفر إلى إيمان، أو من بدعة/ إلى سنة، ومن معصية إلى طاعة، أو من غفلة إلى يقظة.

فهذه الأربعة محيطة بجميع أجزاء التوبة لا يشذ عنها شيء منها بحال.

فهي إذاً أول العبادات والأساس التي يُبنى عليها المقامات. فمن لا توبة له لا مقام له.

---

(١) في الأصل: أخلاق. واستبدلتها بما هو أنسب.

(٢) موضع النقط بياض قدره كلمة.

(٣) في الأصل: أخلاق فاستبدلتها أيضاً بما هو أنسب.

قال الله تبارك وتعالى: ﴿وَمَن لَّمْ يَتُبْ فَأُوْلَـٰئِكَ هُمُ ٱلظَّـٰلِمُونَ﴾[١]. والظالم لا مقام له حتى يقلع ويرجع عن ظلمه.

وهي أول حالة دعي الخلق إليها على ألسنة الرسل والكتب فإن الرسول إنما يدعو الخلق أول ما يدعوهم إلى ترك المخالفات والإقلاع عن الزلات وخلع الأنداد. قال الله تبارك وتعالى: ﴿فَمَن يَكْفُرْ بِٱلطَّـٰغُوتِ وَيُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱسْتَمْسَكَ بِٱلْعُرْوَةِ﴾[٢].

فأول التوبة الإقلاع عن الذنب ظاهراً وباطناً.

فالظاهر ترك الفعل، والباطن حل الإصرار من القلب.

فإذا تركت الجوارح الفعل وحل القلب الإصرار عليه فقد أقلع عما كان مقيماً فيه، ثم الفرار مما سكن فيه.

وهو عبارة عن الرجوع إلى ما كان هرب منه من الموافقة.

ثم العزم على ترك العود وهو ربط القلب على أن لا يفر من الموافقة إلى ما عنه هرب من المخالفة.

ثم الندم على ما فات من الحالتين، حالة المخالفة وحالة الموافقة.

/ فمن صحت له هذه الأربعة صحت توبته وكانت نصوحاً، لم يتعلق بها شيء سواها [١٨٠/] وكان صاحبها كمن لا ذنب له، لأن من لا ذنب له لم يتعلق به ذنب وهو الطائع الذي لم يواقع الذنوب فقد شبَّه النبي ﷺ التائب التوبة النصوح بمن لا ذنب له، فقال: «التائب من الذنب كمن لا ذنب له»[٣].

فمثل التوبة كالإكسير الذي يحول الأعيان ويبدلها ويقلبها ذهباً وجواهر.

قال الله تعالى مشبهاً على هذا المعنى: ﴿إِلاَّ مَن تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلاً صَالِحاً فَأُوْلَـٰئِكَ يُبَدِّلُ ٱللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ﴾[٤].

---

(١) سورة الحجرات (الآية: ١١).

(٢) سورة البقرة (الآية: ٢٥٦).

(٣) أخرجه البيهقي في السنن الكبرى (١٠/ ١٠٤)، الهيثمي في مجمع الزوائد (٨/ ١٩)، السيوطي في الدر المنثور (١/ ١٢)، الزبيدي في إتحاف السادة المتقين (٥/ ٢٥١)، ابن حجر في المطالب العالية (٢٨١٢)، العجلوني في كشف الخفا (١/ ٣٥٠).

(٤) سورة الفرقان (الآية: ٧٠).

فنص على أنه يبدل السيئات حسنات، وذلك أن التائب إذا أقلع ورجع فاراً إلى ما ناب إليه وتبين له قبح ما كان عليه وصح له سوء حاله حصل له الندم وهو الحسرة والأسف لا سيما من كان عارفاً عالماً بالله، وبمقدار ما عصى فتأسف على أحواله وأعماله القبيحة ويود أن لو كانت أعماله صالحة على خلاف ما كانت عليه، ويسترجع على مصيبها كلما ذكرها أنه كان مطيعاً فيما سلف وأن معصيته كانت طاعة بالندم الحاصل في هذه الحال.

فهذا هو الإكسير الذي يبدل السيئات حسنات.

[١٨٠/ ب] وكتب الله بفضله مكان كل سيئة حسنة كما ورد في بعض/ الأخبار ونص عليه الكتاب في الآية المتقدمة.

فهذا الندم على ما مضى وسلف من العبد كمثل النية الصادقة في المستقبل التي يكتب العبد بها عاملاً، ويعطى ما نوى، وإن لم يعمل حين عجز عن القدرة عن العمل.

واعلم أن حال التائب منحصر في ثلاثة أقسام وهي مقامات: الإسلام، والإيمان، والإحسان الثلاثة.

وعلى عدد الذوات الثلاث التي هي: الجسم الظاهر، والنفس الباطنة فيه، والروح الذي هو باطن الكل.

فأما القسم الأول الظاهر في مقام الإسلام: فالتوبة فيه رجوع الجوارح عن المخالفات إلى أعمال الصالحات، والفرار من أقران السوء، ومواضع المخالفات، يفر بجسده من ذلك إلى مواطن الصالحات، ويلبس الجوارح بالأعمال الصالحات.

وأما القسم الثاني الباطن في مقام الإيمان: فهو حال الإصرار من القلب وإدخال الغم، والحزن، والأسف، والندم على الذنوب عوضاً من الفرح بها، وعزم القلب على فعل الطاعات، وعلى أن لا يعود إلى السيئات، إلى غير ذلك من أحوال التائب في الباطن.

ويستعين على ذلك بمشاهدة القلب للمؤمنات في الغيب، وتذكر أمور الآخرة وأهوالها فيعينه ذلك على التوبة لا محالة.

وأما القسم الثالث في مقام الإحسان: فهو رجوع السِّر إلى من فرَّ عنه حين المعصية [١٨١/ أ] بالانكسار والذل،/ والدعاء، والرغبة، والنظر إلى قدر من عصى، إلى غير ذلك من حال التائبين، وأسرار الهاربين إلى الله بالتوبة.

وقال سَهل: مقام التائب الحقيقي مقام حملة العرش.

واعلم أن العبد المنيب إذا نظر إلى حاله المتقدمة في حين البطالة بعين يقينه انكشف

له سرّ الملكوت، ورأى ما كان عليه وأين كان ومن أي شيء أنقذه الله تبارك وتعالى: ﴿وَكُنتُمْ عَلَىٰ شَفَا حُفْرَةٍ مِّنَ ٱلنَّارِ فَأَنقَذَكُم مِّنْهَا﴾(١) الآية.

وأُعطي العلم المحجوب عنه قلوب الغافلين.

وذلك أن الله تبارك وتعالى يقول: ﴿كَلَّآ إِنَّ كِتَٰبَ ٱلْفُجَّارِ لَفِي سِجِّينٍ﴾(٢).

وفي الحديث: «وهل يكب الناس على مناخرهم في النار إلا حصائد ألسنتهم».

فالسيئات كتاب مرقوم في أسفل سافلين وصورتها مرسومة في ذات العبد كما أن الحسنات كتاب مرقوم في عليين، والنار في أسفل سافلين، والجنة في عليين، ولا يدخل النار إلا بعمل يوجب دخولها.

فإذا عمل العبد المعصية ارتسمت وكتبت في السفلى وكانت طريقاً إلى جهنم(٣)، وعلى ذلك الطريق تأتيه النار وتأخذه، ولو لم يكن ذلك الطريق لَما اهتدت النار إليه ولا أخذته وكذلك تلتقطهم في المحشر كما يلتقط الطير حب السمسم، وهي أعرف بالعصاة والجبابرة منهم بأنفسهم.

لأن النار المحسوسة الآن/ لا تمشي إلا في حطب تأكله، وتتوصل إليه إلى مطلوبها، [١٨١/ وكذلك النار الأُخروية لا تأتي العبيد إلا على طريق أعمالهم المرقومة فيها فهي تسعى في طريق السيئات حتى تصل إلى العصاة فإذا وصلت إلى عبد وهو غير تائب وجدت إليه سبيلاً وتمكنت منه بإذن الله تعالى.

وإذا كان العبد تائباً لم تجد النار إليه سبيلاً لأنه قد أقلع عن مقامها وقطع أسبابها بينه وبينها ونبذ أبوابها التي تدخل إليه منها، ومثال ذلك:

أن الإنسان مثلاً إذا عمل السيئة وتكلم بالكلمة من شرك، أو كذب، أو إضلال، أو نميمة، أو غير ذلك من الأعمال السيئة ارتسمت في ذات المتكلم نكتة سوداء، وارتقمت في قَبضة الشمال من سجين، وأسفل سافلين. فكانت طريقاً متصلاً بدار الجحيم، وكان العبد على شفا حفرة من النار.

فعلى ذلك الطريق يدخلها وبه تقبل هي إليه لا من غيره.

---

(١) سورة آل عمران (الآية: ١٠٣).

(٢) سورة المطففين (الآية: ٧).

(٣) جاءت بعده كلمة: السواي. ولم أفهم قصده من ذكرها فحذفتها من موضعها وأثبتها في هذا الموضع وشجعني على ذلك استقامة السياق بدونها أيضاً.

فإن تاب فقد أقلع عن الحفرة، فتأتي النار على ذلك الطريق في المحشر فتجده مقطوعاً، وتجد الصمت الذي هو توبة اللسان قد نبذ الباب وأغلقه في وجهها، فلا يكون لها عليه سلطان.

وكذلك الغض في العين، والكف في اليد: ﴿كُفُّوٓاْ أَيۡدِيَكُمۡ﴾[١] وكذلك حبس الرجل عن المخالفة.

[١٨٢/ أ] / وقبض جميع الجوارح عن المخالفات، والقلب باطناً عن العقود الموبقات والإصرار الموبق.

وهذا شر مكنون نبّه الجليل جل جلاله عليه في قوله: ﴿لَوۡ تَعۡلَمُونَ عِلۡمَ ٱلۡيَقِينِ * لَتَرَوُنَّ ٱلۡجَحِيمَ﴾[٢].

ومن هذا المعنى استغاث الناظرون بعين اليقين المتفكرون في ملكوت السماوات والأرض إلى ربهم في قوله: ﴿وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلۡقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾[٣] بقولهم لربهم: ﴿رَبَّنَا مَا خَلَقۡتَ هَٰذَا بَٰطِلٗا سُبۡحَٰنَكَ فَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ﴾[٣]. طلبوا الوقاية منها لمّا شاهدوها في باطن المُلك أقرب إلى الخلق من أنفسهم. «الجنة أقرب إلى أحدكم من شراك نعله»[٤] النار كذلك.

فمن كانت هذه حاله من التوابين لا يخلو من محو وإثبات يمحو السيئات ويثبت الحسنات بالتذكر والأعمال الصالحات فينجلي قلبه ويصفو ويبصر ما كان غاب[٥] عنه.

ولأن الشيء الذي تاب منه أيضاً لا يخلو كما تقدم من أربعة أشياء: إما شرك، وإما بدعة، أو معصية، أو غفلة.

فأما الشرك على قسمين: شرك أكبر، وشرك أصغر أخفى من دبيب النمل على الصفا.

فإن خلا عن الأكبر كيف يخلو عن الأصغر؟!

---

(١) سورة النساء (الآية: ٧٧).

(٢) سورة التكاثر (الآية: ٥، ٦).

(٣) سورة آل عمران (الآية: ١٩١).

(٤) أخرجه: البخاري في الصحيح (٨/ ١٢٧)، أحمد في المسند (١/ ٣٨٧)، البيهقي في السنن الكبرى (٣/ ٣٦٨)، أبو نعيم في الحلية (٧/ ١٢٥)، الخطيب في تاريخ (١١/ ٣٨٨)، ابن حجر في فتح الباري (١١/ ٣٢١)، المنذري في الترغيب والترهيب (٤/ ٢٤٧).

(٥) في الأصل: ناب. وهو تحريف.

والبدعة على قسمين: بدعة تنقل عن الملة، وبدعة أخف منها لا تنقل عن الملة. مثل ما أحدث الناس بينهم من القول والفعل، وفي أمور الدنيا مما لم/ يكن عليه الرسول [ﷺ]، [١٨٢/ ب] والسلف الصالح من تشديد الناس في وساوس الوضوء والاغتسال بالماء الكثير، وترك السلام والبدأ بقولهم: كيف أصبحت، وغير ذلك مما لا يحصى كثرة، ويكبر تعداده.

وإنما يفطن له من شغف بالعمل بالسنن فإن خلا عن البدعة الكبرى أنَّى له بالسلامة من الأخرى؟! لا سيما في مثل هذه الأزمنة.

وكذلك المعصية: أيضاً على ضربين كبائر وصغائر فإن خلا عن الكبائر، الزنا لا محالة. «فالعين تزني وزناها النظر» الحديث إلى آخره.

ولا يخلو أحد عن ذنب حتى تسع الكل مغفرة الله الواسعة، وقد نبّه على سعتها بقوله: ﴿ٱلَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَٰٓئِرَ ٱلْإِثْمِ وَٱلْفَوَٰحِشَ إِلَّا ٱللَّمَمَ﴾[1].

وهي الصغائر. ثم قال: ﴿إِنَّ رَبَّكَ وَٰسِعُ ٱلْمَغْفِرَةِ﴾[1].

أي وسعت الكل لأنهم إن خلوا عن الكبائر لم يخلوا عن الصغائر.

وكذلك الغفلات على ضربين: غفلة هي موت القلب وترك الذكر ونسيان للمنعم، والنوم عن الانشغال بالباقي بالإقبال على الفاني.

وغفلة تحلل أحوال الذاكرين في ذكرهم، والمتيقظين في حال يقظتهم، من إلى ذكرهم، ويقظتهم.

أو سكون إلى نفس، أو ملاحظة حظ من الحظوظ أو ركون إلى مقام وحال، أو انقطاع برؤية نعمة عن المنعم.

وفي أحوال الكبراء عدم رؤية التقصير حتى ينقلوا/ إلى أرفع مما هم فيه فيذكرون [١٨٣/ أ] تقصيرهم ويرون أنهم كانوا في غفلة.

ومنها الغان الذي في الحديث: «إنه ليغان على قلبي فأستغفر الله في اليوم سبعين مرة»[2].

---

(١) سورة النجم (الآية: ٣٢).

(٢) أخرجه مسلم في الصحيح (الذكر ٤١)، أبو داود في السنن (١٥١٥)، أحمد في المسند (٤/ ٢١١)، البيهقي في السنن الكبرى (٧/ ٥٢)، الطبراني في الكبير (١/ ٣٨٠)، البخاري في التاريخ الكبير (٢/ ٤٢)، ابن حجر في الفتح (١١/ ١٠١).

فلا يخلو أحد عن التوبة وسيد الأولين والآخرين دارج فيها في كل يوم مع سائر المقامات.

ونسأل الله الكريم الرحيم أن يمنّ علينا بتوبة صادقة ومغفرة عامة شاملة. آمين رب العالمين.

فقد اندرج في هذا الكلام جميع مقامات التوبة من أولها إلى نهايتها مختصراً غير مرتب لأني لم أقصد به قصد الوعظ فيكون مرتباً كترتيب التواليف مبوباً مرتباً بالحكايات ومحشواً من الأخبار والأحاديث لأنه لا يعظ إلا من اتعظ، ولا يؤلف ويرتب إلا عالم مبرز، وأنا لست هنالك.

وإنما قصدت في جميع فصول هذا الكتاب تذكيراً بها وتنبيهاً إلى عرض علمي يذكر ولا يأمر وينبه ولا ينهى كي لا يخرج إن شاء الله عن[1] أقل أغراض الطلب.

ولعل وعسى تصلنا وتسعنا بركة العلم فإن الراتع حول الحمى يوشك أن يواقعه.

واعلم أن الذنوب تنقسم بوجه آخر على قسمين: قسم في حق الخالق وهو على قسمين: إما ارتكاب نهي، وإما ترك أمر.

[١٨٣/ ب] فأما ترك الفرائض فلا بد من الإتيان بها مثل الصلوات/ ، والزكوات، والصوم، وغير ذلك.

وفي الحديث: «ودين الله أحق أن يقضى»[2].

وأما ارتكاب النهي فيكفي منه الإقلاع، وأن لا يعود.

وقسم في حق المخلوق: فهي المظالم فالتوبة من هذا القسم أعسر منها من القسم الآخر، ولا يبرىء منها إلا ردّ المظالم على أربابها.

وهي: إما مالية، أو عرضية، أو بدنية.

فأما المال: فيرده إليه إن كان حياً أو إلى ورثته إن كان ميتاً وذلك يجزي عنه.

---

(١) في الأصل: من وهو تحريف.

(٢) أخرجه البخاري في الصحيح (٣/ ٤٦)، مسلم في الصحيح (الصيام ب ٢٧ رقم ١٥٤)، أبو داود في السنن (الإيمان والنذور: ب ٢٦)، النسائي في المجتبى (الحج ب ١٠)، البيهقي في السنن الكبرى (٤/ ٢٥٥)، الطبراني في الكبير (٤/ ٣٢)، الدارقطني في السنن (٢/ ١٩٦)، ابن حجر في فتح الباري (٤/ ١٩٢).

وأما العرض: فيستحل منه وكذلك القتل وضرب البدن وقطع الأطراف، وغير ذلك يعطي القصاص من نفسه له أو يستحل منه إن كان حياً وإن لم يقدر على شيء من ذلك فليكثر من الدعاء والاستغفار للمظلوم في أكثر الأحايين فإن ذلك ينجح إن شاء الله.

فإن التوبة مفتوح بابها وهي الستر الكثيف بين العبد وبين العذاب، وبين الخزي والفضيحة والذم وقدرها في الآخرة أعظم مما يتوهم المتوهمون.

والحمد لله رب العالمين.

الشعبة الثانية والأربعون: الصبـــر

أما كون الصبر من الإيمان فبين واضح لا يحتاج إلى استشهاد عليه وقد ورد في الخبر عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه: إن الصبر رأي الإيمان.

وفي الخبر «الإيمان نصفان: نصف صبر/ ونصف شكر»[1]. [١٨٤/]

والشواهد عليه كثيرة إلا أنه من أعظم الشعب وأكبر دعائم الإيمان.

واعلم أن الصبر داخل في جميع الأحوال الباطنة والأعمال الظاهرة وله بداية وفي أسرار المقربين نهاية. وهو مقام عظيم لا يثبت فيه إلاّ خاصة الله من عباده.

وما أتي الخلق ولا وقعوا فيما وقعوا فيه من المخالفات والآفات إلاّ مِن قلّة الصبر.

وأما حَدّ الصبر ومعناه فهو: البيان والوقوف في مواطن الاختبار والامتحان.

وبالصبر يظهر من العبيد خبثهم وخلاصتهم إما أن تحسن أخلاقهم بالصبر على المحن فيظهر منهم الكتمان في ترك الشكوى وتحسين الخلق والاستعانة بالله، وغير ذلك من أحوال الصبر فيحسن الصبر ويصير بها صبراً جميلاً.

وإما أن تظهر منهم الشكوى، والضجر، والتبرم، والجزع، والهلع، فيقبح حاله بعدم الصبر، وما يظهر عليهم حين الاختبار، فإن الصبر مرٌّ مثله كمثل الشجيرة[2].

والكير يظهر الطيب والخبيث[3].

---

(١) أورده الزبيدي في إتحاف السادة المتقين (٣/٩)، السيوطي في الدر المنثور (٦٦/١)، الألباني في السلسلة الضعيفة (٦٢٥، ١٥، ٤٨).

(٢) يقصد شجيرة الصبر أي صغيره مرّ ككبيره.

(٣) يقصد من المعادن. وكذا الابتلاء يظهر معادن العباد.

واعلم أن الإنسان في هذه الدار لا يخلو من حال نعمة وحال محنة يجب عليه قضاء حقهما، ومن حالة أمر وحالة نهي يلزمه الوفاء بهما، ولا يتم له حالة من هذه الأحوال إلاّ بالصبر.

[١٨٤/ ب] فأما حال النعمة: / فأن يكون الإنسان معافاً في بدنه وغنياً بما في يده، وسالماً من المصائب، في أهله وأقاربه.

فيجب عليه عند ذلك الصبر على القيام بحقوق هذه النعم لأنها ابتلاء من الله تعالى كما قال الله تعالى: ﴿فَأَمَّا ٱلْإِنسَانُ إِذَا مَا ٱبْتَلَاهُ رَبُّهُۥ فَأَكْرَمَهُۥ وَنَعَّمَهُۥ﴾[١]، ﴿وَنَبْلُوكُم بِٱلشَّرِّ وَٱلْخَيْرِ فِتْنَةً﴾[٢]. فسماه ابتلاءً وأكثر الخلق يظن أن الصبر[٣] على القيام بحقوق هذه الأشياء هَيّن وليس الأمر كما تمنوا، بل الصبر على هذه الأشياء أعظم منازل الصابرين.

وأكثر الخلق يصبرون على المحن ولا يصبرون على النعم بل تخرجهم النعمة إلى الطغيان، والبَطَر، والعصيان، وذلك من قلّة الصبر على النّعم، ولا يصبر عليها إلاّ الصديقون كما قال المشايخ: لا يصبر على حلاوة الشكر إلاّ صِدّيق.

وقال عبد الرحمٰن بن عوف رضي الله عنه: ابتلينا بالصبر فصبرنا، وابتلينا بالسراء فلم نصبر.

فقد تجد الإنسان فقيراً ليس عنده إلا قوت يوم أو شهر أو سنة أو بيده قليل من المال ويكون حاله مستقيماً.

فلو اختبر في ملك ألف دينار مثلاً انفسد حاله وذهبت استقامته لقلة صبره عن إخراجها عن يده وعن القيام بحقها، وعن الجري على الاستكثار منها حين ذاق حلاوتها [١٨٥/ أ] فتخرجه إلى أمور تفسد حاله وهو يشعر بذلك أوْ لا/ يشعر.

وتجده أيضاً ضعيف البدن، ومريضاً فيصبر عن الطعام وعلى قلته، ثم يصير قوي البدن صحيحه، ويجد لذة النعم فلا يقدر على ترك شهوة ولا صوم يوم واحد من قلّة الصبر على النّعمة.

فإذا كان الإنسان في حال النعم وجب عليه الصَّبر على القيام بحقوقها فيخلص من عهدتها.

---

(١) سورة الفجر (الآية: ١٥).

(٢) سورة الأنبياء (الآية: ٣٥).

(٣) في الأصل: يظن الصبر أن الصبر. فحذفت الزائد على السياق.

وأما حال المحنة: فأن يكون الإنسان فقيراً، أو مريضاً، أو مصاباً فيحتاج[1] أيضاً إلى صبر ليسلم من السخط، والتشكي بغير حق، وإظهار أمور الجاهلية في المصائب والأمراض من التذلل للعبيد في حال الفقر والقلّة والسؤال بغير حق فإنه من الفواحش، ومن الطمع المفسد للدين، وغير ذلك من الآفات المفسدة الداخلة على أهل المحنة يكبر بعدادها.

فهاتان الحالتان حالة النعمة وحالة المحنة، لا تصلحان إلاّ بالصبر.

وأما حالتا الأمر والنهي: فإن العبد مخاطب بهما في جميع أحواله ولا يقدر العبد على القيام بهما إلاّ بالصبر فإن العبد يحتاج إلى صبر على مجاهدة قلبه وجوارحه على القيام بالأوامر المفروضات، والمندوبات.

وعن هاتين الحالتين خاف جبريل عليه السلام على الخلق أن لا يثبتوا ويصبروا فيهما في الحديث الذي رواه أبو هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «لَمّا خلق الله الجنة قال/ لجبريل [١٨٥/ اذهب فانظر إليها فذهب فنظر ثم جاء فقال: أي ربّ وعزتك لا يسمع بها أحد إلا دخلها. ثم حفَّها بالمكاره ثم قال: انظر إليها فذهب فنظر ثم جاء فقال: وعزتك لقد خشيت أن لا يدخلها أحد». قال: «فلما خلق النار قال: اذهب فانظر إليها، فذهب وجاء فقال: أي ربّ وعزتك لا يسمع بها أحد فيدخلها. فحفها بالشهوات ثم قال: اذهب فانظر إليها. فذهب وجاء فقال: أي ربّ وعزتك لقد خشيت أن لا يبقى أحد إلاّ دخلها»[2].

فالمكاره التي حُفت بها الجنة هي المأمورات والمندوبات التي دعي العبد إلى القيام بها، والقيام بها شاق على النفس، ولا ينال شيء منها إلاّ بالصبر الكثير.

وكذلك الشهوات التي حُفت بها النار هي المنهيات التي زجر الخلق عن مواقعتها، ولا ترجع النفس عن المنهيات إلاّ بالصبر الكثير فهي من هوى النفس وحياتها.

والصبر عن النهي أعظم من الصبر على الأمر، وما صار الصّديقون صديقين إلاّ بالصبر عن المنهيات فقد تجد الإنسان يكثر العبادة وتخف عليه وتجده عمره كله لا يقدر على غض بصره وكف لسانه أو مواقعة الشيء الخفيف من المنهيات، وذلك من أجل أن المنهيات عيش النفس والإنسان لا يخلو عن حالة/ الصبر بوجه في جميع أحواله فإن الله عز وجل يقول: [١٨٦/ أ] ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَانَ فِي كَبَدٍ﴾[3].

---

(١) في الأصل: يحاج. وهو تحريف.

(٢) أخرجه أبو داود في السنن (٢٧٤٤)، الحاكم في المستدرك (١/ ٢٧)، النسائي في المجتبى (٧/ ٣)، الزبيدي في إتحاف السادة المتقين (٢٥١)، التبريزي في المشكاة (٥٦٩٦).

(٣) سورة البلد (الآية: ٤).

في مكابدة المحنة والمشقة، فهو من أول خروجه إلى الدنيا في مكابة مشاق التربية إلى حين التميز فيتحمل مكابدة التأديب والتعليم إلى حين التكليف، فتلزمه مكابدة الأوامر والنواهي والشهوات، ثم في حال الكسب والعبادة يدخل في مكابدة الخلق وأذيتهم حين مخالطتهم، واعتزاله عنهم فإنهم لا يتركونه خالطهم أو اعتزلهم، وفي دعوتهم إلى الله إن كان ممن يدعو الخلق إلى الله، ومكابدة نفسه، وإبليس وجنوده.

ومع ذلك يتخلله المصائب، والنوائب، والمخاوف، ويحتاج في ذلك كله إلى صبر جميل إلى حين الموت.

ثم بعد ذلك تلقاه أمور الآخرة فإن كان التزم الصبر في الدنيا كفاه الصبر جميع مؤنة الآخرة واستراح.

ولا يبدأ بالصبر من حين الموت على مشاق الآخرة حتى يفرغ منها بدخول الجنة إن كان من أهلها وإلاّ بقي في مشاق الصبر المؤبّد ومكابدة النكد المخلد، نسأل الله العافية.

اعلم رحمك الله أن الصبر على ثلاثة أضرب على عدد مقامات: الإسلام، والإيمان، والإحسان.

وكذلك اختلفت أسامي الصبر على ثلاثة أسماء:

[١٨٦/ ب] **أولها التصبر**: وهو تفعل أي تكسب، وهو المقام الظاهري الذي يتفعل فيه الصبر/ على فعل الحسنات، وترك المخالفات، والتثبت في المصائب والشدائد.

فإن الجسد ضعيف لا يحتمل إلاّ الاكتساب للصبر والتفعل له في مواطنه.

والضرب الثاني في مقام الإيمان: هو الصبر في مواطن مجاهدة النفس، والعدو، وخطرات الهوى في الباطن وحملها على مخالفة قطاع طرق الله حتى تثبت قدم العبد فيكون صابراً.

والصبر كما تقدم هو: الوقوف، والثبات. لأن التصبر فيه بعض التزلزل والاضطراب، والصبر ثبات ووقوف ولا اضطراب، وإنما يستعين العبد على اكتساب هذا المقام بنظر الإيمان في الآخرة، ومشاهدة المؤمنات الغيبية من الموت فما بعده من المؤمنات، وبتذكر أهوال الآخرة وعظائمها، وشدائدها، وحسرات الموت على درجاتها فيرجع النفس عن الهوى، ويثبت في مواطن اللقاء في الجهاد الباطن.

وأما الضرب الثالث في مقام الإحسان وعالم الروح والعقل: فهو الاصطبار في طلب العلم بالفكر الصافي العقلي والنظر وطلب القرب منه.

وكما قيل: إن العلم إن أعطيته كُلَّكَ أعطاك بعضه.

وقليل من الخلق من يصبر على الفكر والسلوك في طريق الحق سبحانه.

ومعنى الاصطبار هو: افتعال الصبر وطلب الزيادة من ذلك المقام الذي هو فيه، وهذا مقام الأنبياء، والأكابر/ من الأولياء وفيه بعض حلاوة خُفِّفت. [١٨٧/ أ]

وإنما الشدائد العظام في المقام الأول. قال الله عز وجل في المقام الأول: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُم مَّثَلُ ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلِكُم مَّسَّتْهُمُ ٱلْبَأْسَآءُ وَٱلضَّرَّآءُ وَزُلْزِلُوا۟﴾. أي شدد عليهم فتزلزلوا بتجرع المرارة ﴿حَتَّىٰ يَقُولَ ٱلرَّسُولُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ مَتَىٰ نَصْرُ ٱللَّهِ أَلَآ إِنَّ نَصْرَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ﴾[١].

وقال في المقام الأوسط: ﴿وَٱلصَّٰبِرِينَ فِى ٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَحِينَ ٱلْبَأْسِ﴾[٢]. أي الواقفين التائبين الذين لا يفرون عند اللقاء.

وقال في المقام الأعلى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱصْبِرُوا۟ وَصَابِرُوا۟﴾[٣]. على وزن فاعلوا، أي افتعلوا الاصطبار، وقال لنبيه عليه السلام: ﴿رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا فَٱعْبُدْهُ وَٱصْطَبِرْ لِعِبَٰدَتِهِۦ﴾[٤]. أي افتعل الصبر. وقال: ﴿وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱصْطَبِرْ عَلَيْهَا﴾[٥].

ومنه قوله: ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ﴾[٦]. على وزن فعَّال، أضاف الفعل الكثير إليه لأنه يتفعله ويطلبه.

وفي هذا المقام أسرار للعارفين والمقربين في اللقاء الكريم لا يفهمها إلاّ هم ولا يعرفها سواهم[٧] جعلنا الله وإياك منهم.

قال النبي ﷺ في وصف داود عليه السلام: «كان يصوم يوماً ويفطر يوماً، ولا يفر إذا لاقى»[٨].

---

(١) سورة البقرة (الآية: ٢١٤).
(٢) سورة البقرة (الآية: ١٧٧).
(٣) سورة آل عمران (الآية: ٢٠٠).
(٤) سورة مريم (الآية: ٦٥).
(٥) سورة طه (الآية: ١٣٢).
(٦) سورة لقمان (الآية: ٣١).
(٧) هذه عبارة من العبارات التي لا يكاد يخلو كتاب من كتب الصوفية من ذكرها أو ذكر أمثالها وهو نوع من أنواع الإفراط في الاعتقاد بالصالحين.
(٨) أخرجه مسلم في الصحيح (الصيام ب ٣٥ رقم ١٨٢، ١٨٦)، أحمد في المسند (٢/ ١٦٠، ١٦٤)، ابن حجر في الفتح (٤/ ٢٢١، ٢٢٤).

[١٨٧/ ب] / وقال في وصف الموقنين: ﴿قَالَ ٱلَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَٰقُواْ ٱللَّهِ كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً﴾[١].

هذا[٢] هو طلب الصبر وزيادة منه لأن اليقين خَفَّفَه عليهم وأعذبه حتى عَذُبَ عذابه بمشاهدة الموقن به جل جلاله.

واعلم أن أحوال الخلق في هذا المقام ـ أعني الاصطبار ـ على ثلاثة أقسام:

القسم الأول: أبناء الدنيا تشمروا في طلبها بقطع الفيافي والقفار، وحفر الجوابي، وتشقيق الأنهار، والجري في لجج البحار وغير ذلك من الحرف والأشغال في جميع الأقطار، وتحملوا مرارة الصبر فيما ينالهم من المشاق حين وجدوا لذة الربح، أوْ رجوا الظفر بها، وحين ذاقوا لذة المنفعة بمطلوبهم منها. فتراهم ينالون من المشاق ما لا يوصف، ومن التعب، والحرِّ، والبرد، والسهر، وغير ذلك فوق الوصف. ولكن خَفَّفَ ذلك، وأعذبه لهم استشعار المنفعة بنيل المطلوب.

وهذا مقام لا ينكره أحد لأنه مشاهدة.

القسم الثاني: من الخلق أبناء الآخرة، وأهل العبادة تحملوا وظائف العبادات، ومشاق العقبات في طريق الله حين أيقنوا بما بعد الموت، وأنه لا بدّ لهم من لقاء الله عزّ وجل.

[١٨٨/ أ] وربما وجدوا لذة/ الأذكار، وحلاوة الخدمة للسيد الجبار فيسهل عليهم الأمر.

وفي هذا المقام حمله الصَّالحين.

القسم الثالث: هم أهل السَّير بالباطن، وأهل السلوك بالقلوب حتى وصلوا إلى حصن العزيز الجبار فكانوا جلساءه وأهل مناجاته ومعرفته فكان الملك كله بالإضافة إليه في أعينهم كلا شيء فآثروه على كل شيء وتحملوا قطع اللجج بالفكر الصافي، والذكر المفرد.

فيلقاهم في مسيرهم بأضعاف ما تقربوا إليه كما ورد عنه: «من تقرب مني شبراً تقربت منه ذراعاً».

فقال: «مني» ولم يقل من غيره. «ومن تقرب مني ذراعاً تقربت إليه باعاً، ومن أتاني يمشي أتيته هرولة».

---

(١) سورة البقرة (الآية: ٢٤٩).

(٢) في الأصل: هذه. وهو تحريف.

وهذا هو مجيئه سبحانه للخصوص، وإتيانه قبل يوم الحساب.

ما هو للناس غيب هو لهم شهادة، وهذا هو لقاؤه لهم ولقاؤهم له، وهذا المجيء والإتيان إنما هو بمعنى التجلي، والاستتار إذا كان العبد في ستر وحجاب فكشف عنه ذلك الحجاب والستر تجلى له ما لم ير قبل ذلك فكان في حقه مجيئاً.

فكذلك مجيئه في المحشر أيضاً إذا أتى الوقت الذي قدّر لهم أن يروا ربّهم فيه كشف عنهم الأستار فشاهدوا ما لم يروا قبل ذلك، وكان مجيئاً بلا شك بمعنى التجلي لا بحركة ولا/ سكون. [١٨٨/ ب]

وقد جرى طلق الكلام إلى غاية أخرى فلنرجع إلى الصبر.

فإذا لقيهم في مقام الصبر، والسير، والسلوك بالتواطن أبصروا أمراً عظيماً وعاينوا شيئاً كثيراً غزيراً فكادت أركانهم تنهدّ من فعل ذلك المقام.

كيف والجبل صار دكًّا في نفس واحد، والأرض والسماء لا تحمل ذلك فكيف تحمله أسرارهم: «لم تسعني[*] أرضي ولا سمائي ووسعني قلب عبدي المؤمن»[١].

وفي هذا المقام من الاصطبار يسهل عليهم الأنس بجمال المتجلي أعباء الصبر، فلا يفرون عنه، ولا يذهبون كما صَنَع الجبل حتى صار دكاً.

وقد أوردت في هذا المكتوب قوله: «لم تَسعني[٢] أرضي ولا سمائي ووسعني قلب عبدي المؤمن»[٣].

وهذا من المشكلات فرأيت أن لا أتجاوزه حتى يتبيّن معناه إن شاء الله.

فمعنى قوله: «لم تسعني أرضي ولا سمائي»[٣]: أي لم تطقني، ولم تحملني، من قوله: ﴿لاَ يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْساً إِلاَّ وُسْعَهَا﴾[٤]. أي طاقتها، وما في وسعها أن تحمل.

«ووسعني قلب عبدي المؤمن»: أي أطاقني وحملني حين تجليت لقلبه بعظمتي، وما أنا عليه من كبريائي.

وإنما حمله، وأطاقه مما أودعه من أسرار الفهوم قوة العلوم، وصلابة اليقين، وما أقل علم من ينكر على المحققين من أهل طريق الله الصَّعق، والبكاء، والقلق، والانزعاج،

(*) جاءت بالأصل: تستعني. وهو تحريف.
(١) أورده ابن الجوزي في تذكرة الموضوعات (٣٠).
(٢) جاءت في الأصل: تستعني. وهو تحريف.
(٣) راجع التعليق على الحديث السابق. (٤) سورة البقرة (الآية: ٢٨٦).

[١٨٩/ أ] والموت وما[1]/ ذلك إلا من أمر عظيم يصيب بواطنهم ولنا في الجبل أُسوة، وقد خرَّ موسى [عليه السلام] صعقاً.

وقد صعق بالنبي ﷺ، وكان أبو بكر لا يسمع الناس من كثرة البكاء.

هل أضعف صوته على قوته إلاّ شيء عظيم.

وقد غشي على عمر بن الخطاب على قوته، ومات غيره.

وأقل أحوال العاقل إن لم يكن يعلم فلا يعترض على أهل التحقيق وليسلم[2] فإن هذا المقام إن لم يصحبه أنس الجمال، ونسيم روح الجلال أهلك وأمات وأتلف وكان صاحبه من أكبر الشهداء جعلنا الله وإياكم من خاصته برحمته آمين. آمين.

وصلى الله على محمدٍ خاتم أنبيائه وسلم تسليماً.

الشعبة الثالثة والأربعون: الشكر

أما كونه من شعب الإيمان فبين أيضاً فإن ضده الكفر. قال الله عز وجل: ﴿لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِن كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ﴾[3]. فعرفه بضده وقال: ﴿وَٱشْكُرُواْ لِي وَلَا تَكْفُرُونِ﴾[4]. وقال: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ بَدَّلُواْ نِعْمَةَ ٱللَّهِ كُفْراً﴾[3]. أي جعلوا مكان الشكر كفراً، فالشكر إيمان جديد يتبين به نقصان الإيمان.

وفي الخبر: «الإيمان نصفان: نصف صبر، ونصف شكر».

والشواهد عليه تطول.

[١٨٩/ ب] واعلم رحمنا الله وإياك أن الشكر باب من التوحيد/ ولذلك عظم مقدار الشكر، وذلك أنك إن حددت الشكر فقلت: إنه الثناء على المنعم، والإقرار بالنعمة للمنعم بها، أوْ رُؤية

---

(١) جاءت مكررة بآخر الصفحة [١٨٨/ ب] وأول الصفحة [١٨٩/ أ] فحذفت التكرار.

(٢) كثير من صوفية اليوم يأتون بأفعال تخالف صريح الدين وما هو معلوم منه بالضرورة ويتعلل لهم البعض بمثل هذه الأقوال فنسأل الله السلامة وحسن الاعتقاد وحسن الختام.

(٣) سورة إبراهيم (الآية: ٧).

(٤) سورة البقرة (الآية: ١٥٢). (٥) سورة إبراهيم (الآية: ٢٨).

(٦) أورده الزبيدي في إتحاف السادة المتقين (٣/٩)، الألباني في الضعيفة (٦٢٥، ١٥، ٤٨)، المتقي الهندي في كنز العمال (٦١).

النعمة من المنعم فقد أضفت الأفعال إليه، ولم تُشرك معه فيها أحداً، وهذا هو التوحيد بعينه.

فأما إذا حددناه بأنه الثناء على المنعم بنعمه وأياديه فهو مأخوذ من قولهم: شكر باب البعر، إذا ظهر. ودابة شكور، إذا أظهرت من السمن فوق الحد. لأنه إذا كتم الذي أعطي النعمة فلم يظهرها بالثناء على معطيها، فقد غطى عليها، وإذا ذكر معطيها فقد أظهرها، ومن هذا قول النبي ﷺ: «لا يشكر الله من لا يشكر الناس»[(١)].

والتغطية في اللغة كفر ومنه: ﴿أَعْجَبَ ٱلْكُفَّارَ نَبَاتُهُۥ﴾[(٢)] أي الزراع الذين يغطون البذر عن الأعين.

والإظهار شكر كما تقدم، وإن حددناه أيضاً بأنه الإقرار بالنعمة لواهبها، فهو من قولهم: أقر فلان بالحق، إذا اعترف به لصاحبه.

وضده الجحود، وأكثر ما ذَمَّ الله سبحانه في كتابه من لم يشكر فقال: ﴿يَعْرِفُونَ نِعْمَتَ ٱللَّهِ ثُمَّ يُنكِرُونَهَا﴾[(٣)]. حين لم يعترفوا له بها، ومثله: ﴿وَٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ﴾[(٤)] يحذر من نسيان الاعتراف بالنعمة.

وإن حددناه أيضاً بأنه رؤية النعم من المنعم فإن ذلك/ من صفات القلب، وهو أجل [١٩٠] الشكر وتنتظم فيه حدود الشكر كلها.

ولأنها إضافة الشيء إلى واهبه ومعطيه وإذا أضافه إليه فقد اعترف له وأثنى به عليه لأنه جعله فاعلاً ومعطياً وكريماً، فهو ثناء واعتراف وإن لم يذكره باللسان.

ومنه قول النبي ﷺ لبعض الصحابة حين سأله: ما يتخذ من الأموال ذخيرة؟ فقال: «اتخذ لساناً ذاكراً، وقلباً شاكراً».

فأمره أن يكون قلبه مبصراً لما صنع الله معه ومع جميع الخلق من الفضائل والأيادي فيكثر ذخره عنده ويستغني بكثرة ما أعطاه من النعم التي لا يحصيها أحد من العالمين.

وعند ذلك يكون غنياً، وأمره أن لا يعمي قلبه عن مواهب الله وعطاياه فتقل عنده فيكون فقيراً مفلساً حين لم ينتفع بكثرة ما أعطي من النعم، والمواهب.

---

(١) أخرجه أبو داود في السنن (٤٨١١)، أحمد في المسند (٢/ ٢٠٣)، البيهقي في السنن الكبرى (٦/ ١٨٢)، الطبراني في الكبير (١/ ١٦٢)، البغوي في شرح السنة (٣/ ١٨٧).

(٢) سورة الحديد (الآية: ٢٠).

(٣) سورة النحل (الآية: ٨٣).

(٤) سورة البقرة (الآية: ٢٣١).

ومن هذا المعنى قوله لبعض أنبيائه: «إذا عرفت أن ذلك مني فقد شكرتني».

والمعرفة هي رؤية القلب أن النعم كلها من الرب فعلى هذا لا بُدّ [أن يكون][1] لك كَرٌّ من النظر في المخلوقات والفكرة فيها فإنها كلها نِعم من الله على عباده.

وما تَنَسَّمَ روائح الشكر من لم يخض بحار الفكر، ولا وجد لذة النعمة من لم يعرفها، وشكر عليها.

فصـــل

[١٩٠/ ب] اعلم أن الشكر على ثلاثة أقسام/ كسائر المقامات:

قسم في مقام الإسلام وعالم الحس والشهادة.

وقسم في مقام الإيمان وعالم الغيب.

وقسم في مقام الإحسان وعالم الروح.

فأما القسم الأول الظاهر: فأول ما يجب عليك أن تعرف معنى النعمة ما هو؟ ثم تشكر عليها. فيكون الشكر جزاءً لبعض حقها.

وإن كان في لفظ الجزاء تجوز ما فإنه بالحقيقة معنى الشكر نفسه.

ومنه شكر الله تعالى لعباده فإنه الشكور أي المجازي لهم على شكرهم بالمزيد، وعلى عبادتهم بالثواب، ويثني عليهم بذلك، ليس له معنى سوى ذلك.

وقد ورد في الحديث ذلك أيضاً حين قال المهاجرون لرسول الله ﷺ: ما رأينا مثل قوم نزلنا بين أظهرهم، حين أنزلوهم في ديارهم، وقاسموهم أموالهم. فقالوا: لقد خشينا أن يذهبوا بأجورنا. أو كما قالوا يريدون الأنصار. فقال عليه الصلاة والسلام: «لا ما أثنيتم وقلتم خيراً»[2]. فأخبر أن الثناء وقول الخير على واهب النعمة موافاة النعمة غير أن ذلك في حق العبد مع باريه مجاز لأن الكل منه.

فعلى هذا تكون عبادة الجسد شكر الله، وهو شكر الجوارح.

ومنه قوله عليه الصلاة والسلام: «أفلا أكون عبداً شكوراً»[3]. حين كُلِّم في

---

(١) ما بين المعقوفين يتطلبه السياق.

(٢) أخرج أحمد نحوه في المسند (٣/ ٢٠٠)، ابن أبي شيبة في المصنف (٩/ ٦٨)، ابن كثير في البداية والنهاية (٣/ ٢٢٨).

(٣) أخرجه البخاري في الصحيح (٢/ ٦٣)، مسلم في الصحيح (صفات المنافقين ٧٩، ٨٠، ٨١)، =

الاجتهاد، وفي كثرة العبادة. فيكون قيام القدمين في طاعة الله إظهاراً منها لنعم الله عليها وبسط اليد/ وقبضه في الطاعات إظهاراً منها لنعم الله عليها، وذكر اللسان وإصغاء السمع [١٩١/ أ] وتحريك البدن كله وسكونه في الطاعة إظهاراً منها لنعم الله عليها، وثناءاً بنعمته عليه، لسان حال ومقال وتعدد العقل النعم فيغرق في بحر الإحصاء فتعجز الجوارح والقلب عن القيام ببعض واجب حق الله فيكون عجزها ذلك شكراً له حين عجز فردَّ الإحصاء إلى المحصي الحسيب، ورأى ذلك كله منه وإليه مجملاً وتفصيلاً، وإلى العجز والحيرة في كثرة تعداد النعم تنتهي عقول العقلاء في مقام الشكر.

وقد قال المصطفى [ﷺ]: «لا أحصي ثناءً عليك أنت كما أثنيت على نفسك»[(١)].

فأما معنى النعمة فإنها مأخوذة من النعيم، والنعيم هو اللذة، والموافقة، والملاءمة للطبع، والانتفاع، وضده المكروه، والضار، والمؤلم للطبع، وكل ما تنعم العبد به أوْ ٱلْتذَّ واستراح وكفاه مؤنة التعب وانتفع به عاجلاً وآجلاً فهو نعمة.

فتنقسم الأشياء كلها إلى قسمين: نافع، وضار، ملذوذ، ومكروه، ومنعم، ومعذب.

فكل ما وافقه من الضدين فهو عليه نعمة سابغة وكل ما لم يوافقه من الضدين ودُفع عنه ولم ينزل به فهو عليه أيضاً نعمة سابغة من حيث دُفع عنه ما يؤلمه ويضره، ويجب عليه الشكر على النعمتين نعمة الدفع والنفع وكذلك ما لم ينزل به/ مما يوافقه ويلتذ به فصرفه [١٩١/ ب] عنه نعمة سابغة عليه من حيث كُفي مؤنة القيام بشكره وحقه.

وكذلك أيضاً ما نزل به من مؤلم وضار له فيه نعمة سابغة عليه من حيث أنه كفارة له ومن حيث أن لم يكن ذلك البلاء والمؤلم أكبر مما هو هذا ما لم يكن النافع، والموافق، والضار، والمؤلم عصياناً.

فإن كان عصياناً وجبت التوبة منه ولم يجب عليه الشكر.

فإن الشكر في موضع الاستغفار ذنب إلاّ أن ينظر العبد فيما صرف عنه من الكفر والعصيان فيكون ذلك نعمة يشكر الله على ما صرف عنه من ذلك.

وكذلك ينظر في جميع الأضداد فيشكر الله على كل حسن وموافق نزل في نفسه

= الترمذي في الجامع الصحيح (٤١٢)، النسائي في المجتبى (٣/ ٢١٩)، ابن ماجة في السنن (١٤١٩)، أحمد في المسند (٤/ ٢٥١)، البيهقي في السنن الكبرى (٢/ ٤٩٧)، ابن خزيمة في الصحيح (١١٨٢)، أبو نعيم في الحلية (٧/ ٢٥٠)، ابن حجر في فتح الباري (٨/ ٥٨٤)، الخطيب البغدادي في تاريخ بغداد (٤/ ٣٣١).

(١) أخرجه أحمد في المسند (٦/ ٥٨)، الزبيدي في إتحاف السادة المتقين (٢/ ٧١).

وجسده، ويشكر على ما صرف عنه من ضد ذلك.

ثم بعد ينظر في العالم الأكبر الكلي بعد نظره في الجزئي فيرى الأفعال كلها نعماً سابغة عمت الخلائق: ﴿وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَشْكُرُونَ﴾[1] فأول ما ينظر الإنسان في أقرب الأشياء إليه وهو نفسه فيرى كيف صور من نطفة في أحسن تقويم فسوى خلقته وركب أعضاءه في أجمل تركيب وأحسن صورة، فيشكر الله أن أحسن صورته، وركبه سالم الأعضاء ولم يجعله على خلاف ذلك.

[١٩٢/ أ] فإن الإنسان من قرنه إلى قدمه لله عليه في كل عضوٍ وعِرْقٍ/ وشَعر وبشر نعم لا تحصى مما جُعل فيه أو دُفع عنه.

فلينظر الإنسان إلى جلدة رأسه كيف جعل على دماغه ويافوخه وقاية لدماغه ورأسه وجعل عليها الشعر، وفي أحسن الصور وقاية على وقاية وجمالاً على جمال.

وينظر ما صرف عنها من الآفات المؤلمة والأمراض المسقمة له كالجرب، والقرع، وكثرة القمل، وداء الثعلب، وتكسر الشعر، وَغير ذلك من البلايا النازلة بجلدة الرأس، كيف دفعت عنه، وألقى مكانها ضدها من الحسن، والموافق النافع وهو لا يشعر بذلك.

ثم انظر إلى الدماغ كيف ركب في اليافوخ سالماً من الآفات وجعل لك فيه الحس، والتمييز، والحفظ، والإمساك، والتخييل، والفكر، وغير ذلك من المنافع الملذة، والموافقة.

وانظر ما صرف عنه من البلايا مثل: الورم، والصداع، والزكام، وفساد الذهن، والخيال، وعدم الحفظ، وغير ذلك مما يطول تعداده.

ثم اهبط ناظراً في نعم الله عليك في العينين وجمال صورتهما في كهفيهما [وحفظه][2] لهما من الآفات، والأعراض، وإلى غشاوتهما التي هي الجلدة، والأشفار السائرة عن الإبصار إذا لم تُرد الإبصار، والدافعة عنهما الآفات، والغبار، ثم ماء جعل فيهما من الحس والإبصار فيما قرب وبعد من الأنظار،/ ثم إلى ما صرف عنهما من العمى، والعور، [١٩٢/ ب] والحول، والعقى، والرمد، والكمنة، والجرب، والبياض، والطفرة، ونبت الشعر، والغدة، والشرة، والوجع، والعَشا، وداء البثر، والدمع، والقمل، والحمرة، والشعيرة، والشعر الزائد، والصَّدع، وغير ذلك مما يكثر تسوقه.

(١) سورة النمل (الآية: ٧٣).

(٢) ما بين المعقوفين زيادة يتطلبها السياق.

لله عليك في جميع ذلك نعم سابغة لم تشعر بها.

ثم اهبط ناظراً إلى الأذنين وحسن تركيبهما في اعوجاج صماخيهما ليدور الصوت فيهما ويدرك العبد المسموعات التي ينال بها منافعه.

وانظر كيف خُلقتا لك سالمتين وركب فيهما السمع ودفع عنهما الصمم وجعلتا صامتتين، ودفع عنهما الدوي وجعلتا نافذتين مفتوحتين، ودفع عنهما السدد، وهو أكبر البلايا وصحيحتين، ودفع عنهما الورم، وسيلان الدم والقيح، وجعلتا خاويتين لم يعمرهما الدود، وساكنتين لم يحللهما الوجع، والصداع.

وهكذا جعلت نعمة، ودفع نقمة.

ثم اهبط إلى الفم واللسان وما جعل الله فيهما من النعم الحسان مثل النطق، والصمت، والتذوق، وجمال الصورة، والماء الحلو العذب، والحص، والعض بالأسنان، والمضغ، والطحن بالمطاحين.

ثم سلامتهما من البَكم، ونقصان الكلام، والحفر، والأكلة، وورم اللسان، ووجع الأسنان، وتحريكهما، وسقوطهما، والحسوسة، والنتن، والبخر، وغير ذلك من المرارة، وسيلان الدم، وما يكثر تعداده من نعم النفع/ والدفع. [١٩٣]

ثم انظر فوق ذلك إلى أنفك، ومنخريك وجمال وجهك بهما، كيف كانت صورتك تظهر لو عدمتهما؟ وكيف جعلتا نافذتين تجري الأنفاس فيهما التي بها حياتك وقناتين لسيلان فضلات الدماغ الضارة بك، لو لم تسل عليهما فترمي تلك الفضلات على تلك القنوات.

ثم ما جعل فيهما من حاسة الشم المدركة للروائح النافعة والضارة فتستجلب ما ينفعك، وتدفع ما يضرك.

ثم انظر إلى صحتهما وسلامتهما من الجدع وعدم الشم، وسيلان الأنف، والورم، والقروح، والنتن، والبواسير، والحرارة، وكثرة الرعاف، وغير ذلك من النعم السابغة.

ثم انظر إلى وجهك وإلى حسن تركيبه، وجمال صورته كيف جعلت فيه الحواس الباصرة، والسامعة، والناطقة، والذائقة، والشامة.

وانظر كيف خلق سوياً مستوياً، ورقيق البشرة فيه جمال البياض، والحمرة، والرونق، والحسن التام.

وكيف دفع عنه الأوجاع، والنفخ، والخشونة، والبروشة، والكلف، والقروح،

واللقوة، وابتثار الشعر من الحاجبين، واللحية، وداء الثعلب، وغير ذلك.

ثم انظر إلى الحلق كيف جعله الله نافذاً إلى الداخل والخارج، وما جعل فيه من منافع إدخال النفس لتبريد حرارة الجوف فيدخله بارداً ويخرجه حاراً ومنافع إدخاله وإخراجه التي لو مُنعَت إدخاله/ وإخراجه[1] لطفيت من ساعتك. [١٩٣/ ب]

تدخله بغير تعب وتخرجه كذلك بغير تعب آلافاً من الأنفاس في يومك وليلتك.

ومن منافع إدخال الطعام والشراب عليه القائمين ببنيتك.

وانظر إلى سعته ونعمة الله عليك بذلك لو كان ضيقاً لم يمر عليه الطعام والشراب والأنفاس.

ثم انظر إلى ما دفع عنه من ضيق النفس، والذبحة، والبحة، والحبسة، والخشونة، والخنازين، والورم، وذلك من آفات الحلق.

وكيف يكون حالك لو ابتليت بها؟ فاعدد نعم الله عليك فيما نفع ودفع.

ثم اهبط ناظراً إلى الصدر، وانظر حسن خلقته، وما خلق له الصدر فإنه تنور البدن وكير البدن وفيه مسكن الأنفاس المحركة للحرارة الموقدة لنار التنور.

والصدر أيضاً حجاب على الصدر والرِّئة، والأعضاء الرئيسية، فهو ستر وكنٌّ من الآفات الحارة.

وانظر إلى حسن تركيبه، وكمال سعته، وما صرف عنه من الأمراض، والأوجاع، وذات الجنب، والسعال، وضيق النفس، والتيبس الكائن من الحر، ونفث الدم، وغير ذلك من آفاته المهلكة المؤلمة.

ثم انظر إلى البطن وما حوى، وما أسكن فيه من الأعضاء الرئيسية الدبرة لصلاح البدن لأن بالأعضاء الرئيسية قيام الأبدان، ومنها تدبر البنية بإدخال الغذاء، وإمساكه، وطحنه، ونضجه، وتصفيته، وتفرقه في العروق كلها ليأخذ كل عضو/ قوامه، وكل شعرة في البدن غذاءها، وإخراج التفل، والبول، وفضلات المني. [١٩٤/ أ]

فجعلت المعدة لعمل مخصوص، والرئة لشيء آخر، والقلب لشيء آخر، والمرار لشيء آخر، والطحال لشيء آخر، والكليتان لشيء آخر كالرئة مثلاً جُعلت للقوة الجاذبة للآبار، وإدخال النفس مع كل طرفة ثم القوة الدافعة لإخراجه الأصوات التي يكون عنها

(١) عبارة وإخراجه التي لو منعت إدخاله وإخراجه. فحذفت التكرار الذي ورد بنهاية صفحة وأول الأخرى.

الكلام، ولولا هاتان القوتان لهلكت بترك التنفس وإخراجه، وخرست عن الكلام.

وانظر إلى حال من ابتلى الله رئته بآفات السل، والقروح، الزكام، والسعلة، والنتن، أو نفث الدم من قروح الرئة. كيف يكون حاله وكلامه وأنفاسه؟

فكيف لو ذهبت هاتان القوتان أو إحداهما بالكلية لهلكت.

وكذلك انظر إلى القلب فإنه رئيس عظيم جعل الله عز وجل فيه قوة نبض العروق البدنية كلها فمنه قوي نبضها، ومنه تأخذها، وجعل منه انبساط روح الحياة في البدن، وانتشار الحرارة في كل طرفة ونفس، وأنت لا تشعر بما للّه عليك في تلك القوى مع كل طرفة ونفس حتى لو أحيلت تلك القوة لهلكت.

ثم إن الله سكنه وعافاه من الخفقان، وآمنه من الصداع، والقرح، ونبهه من العشى، وسلمه من الورم، والانقطاع، وغير ذلك من أمراضه المؤلمة المهلكة.

وانظر كيف يكون حال من ابتلي في قلبه بالفرع،/ والصداع أو الخفقان أو الورم، [١٩٤/ والانقطاع، والعشى، وأنت في غفلة مما تخللك من النعم الباطنة.

ثم انظر أيضاً إلى الكبد ورئاسته كيف جعل الله فيه القوة المعدلة، والقوة المنضجة للغذاء، والمعدلة للبدن؟ فهو ينضج الدم ويعدله ويحسنه ويصفيه ويغذي به البدن بإذن الله سبحانه.

وما جعل فيه من تدبير القوى فلو اختل شيء من ذلك عليك لهلكت.

ثم أنعم عليك بتسمينه وعافاك من إضعافه ومن الأورام والقروح والأوجاع وغير ذلك من آفاته التي يطول الكلام بذكرها.

وكل ذلك نعم سابغة لا يُقَدَّر قدرُها.

وانظر أيضاً إلى المرار فإنه أيضاً رئيس عظيم، وفيه من النعم والمنافع ما لا يحصى، ففيه قوة تخشين المعدة، وقوة تصفي دم الكبد من الكيموس، وتلطف العروق، وفيه قوة تحريك الخلاء، والبول.

وهذه نعم جسام من عند ذي الجلال والإكرام.

وانظر إلى ما دفع عنها من المضار والآفات فإن آفاتها، الصفراء، والسوداء، واليرقان، وغير ذلك.

وانظر إلى الطحال فإن فيه قوة تبرد القلب كي لا يفسد المعدة الطعام بقوة الحرارة،

وفيه قوة هي قوة المعدة الماسكة التي لولاها لهلك الإنسان وفيه قوة تجذب دردي الدم من الكبد إلى نفسه فيصيره مرز سوداء بها قوام البنية، وإصلاح الجثة.

وله علل كثيرة دفعها الله عنك مثل انتفاخ الطحال، وربوبيته، وصلابته، وأوجاعه، وغير ذلك/ مما سلمك الله منها وأنت لا تشعر. [١٩٥/ أ]

ثم انظر أيضاً إلى المعدة فإنها مسكن للطعام وفيها مسكن الشهوة التي بها يؤخذ الطعام والشراب ولو عدمتها هلكت.

وفيها قوة نضج الطعام وقوة تزلقه، ونعم لا تحصى ولا تعد.

وانظر سلامتها من الآفات المضرة لها كفسادها بالقيء لَوْ دام عليك لهلكت كنفث الدم وداء العطش الكثير، وعدم العطش المعتدل، والشهوة الكلبية التي لا يُشبع صاحبها شيء، أو انقطاعها بالكلية، أوْ داء الفواق، والجشاء، والتخم، وسوء الهضم، وعلة الجنس، ونفث الدم، وغير ذلك من العلل التي لو بليت بها ولازمتها هلكت.

وكذلك انظر إلى الأمعاء فإنها جعلت مسلكاً للغذاء والرياح، وكيف عافاك الله فيها من السحج، والقولنج، والرياح، وهوام الديدان، وحبس التفل عن إخراجه، وغير ذلك.

وانظر إلى الكليتين، والمثانة، وما فيهما من المنافع فإن فيهما قوة تجذب فضلة الدم من الكبد وتمصله وقوة تُصيره بولاً وتخرجه من المثانة، وقوة تدفع المني، وقوة تسوقه إلى الأنثيين، والذكر.

وانظر إلى ما دفع عنهما من المضار العظيمة مثل: الحصى، والسحج، والقروح، وبول الدم، والأوجاع، وحرقة البول، وسلس البول، وتقطره، ووجع السرة أو حبس البول مما لو ابتليت بواحدة منها لعطبت وذهبت.

وانظر إلى الذكر والأنثيين، فإنهما مخرجان للبول والمني وبهما صلاح البنية وإقامة[1]/ النسل الذي هو حياة الإنسان بعد موته. [١٩٥/ ب]

وانظر كيف اجتمعت فيه العروق وما في ذلك من الحكمة والنعمة.

وانظر إلى آفاته وما دفع عنك منها مثل الأبخرة، والفتق، والورم، وداء الاسترخاء، وضعف الشهوة وانقطاعها بالكلية وهي العنة أوْ كثرة الشهوة الخارجة عن الحد، والوجع، والقروح، والحكة، والجرب، والصنت والإنعاظ الكثير وكثرة الاحتلام والفقد.

---

(١) جاءت مكررة بآخر الصفحة [١٩٥/ أ] وأول الصفحة [١٩٥/ ب] فحذفت التكرار.

ثم انظر إلى المخرج وما فيه من منفعة إخراج التفل الذي لولاه لهلكت، وما عافاك منه من دفع المضار عنه مثل الوجع والتآليل والبواسير وإخراج السُّرم، وأعظم من ذلك كله الداء الخفي فإنه ابتلاء من الله عز وجل.

ثم انظر إلى الوركين فإنهما فيهما يلتقي عظما الظهر والفخذين اللذين بهما يتمكن الإنسان من القيام والقعود الذين لو حرمتهما كنت كالحجر والخشب.

وانظر عَوَافِيَ الله فيهما من آفات عرق النسا وزوال عظم الورك عن موضعه، والأوجاع، وغير ذلك مما صرف الله عنك.

ثم انظر أيضاً إلى الفخذين والساقين والرجلين فإنهما دعائم البدن وعليهما قوامه وبهما المشي والحركة اللذان بهما، ولولاهما لهلكت، وما تجتلب بهما من المنافع إلى نفسك وأهلك.

وانظر إلى عَوَافي الله فيهما من الكسر والفك والرياح المؤلمة والفالج،/ والخدر، [١٩٦/ أ] والنقاريس، وغير ذلك من البلايا التي صرف الله عنهما.

وكذلك انظر إلى يديك اللذين جعلهما الله سبحانه للإنسان لخدمة الجسد لا قوام له إلا بهما فبهما تحك كله وتُغَسِّله وتكسوه وتجرده وتطعمه وترجله وتكحله وهما المتصرفتان في خدمة البدن في النوم واليقظة وفي كسب المعاش من خياطة أو أي صناعة كانت أو أخذ أو عطاء كل ذلك منافع لا تحصى وتعود راحتها ومنفعتها على جسمك كله.

ثم انظر عَوَافي الله أيضاً فيما صرف عنهما من القطع، والشل، والتيبس، والكسر، والأوجاع، وغير ذلك.

ثم انظر إلى كل عظم في جسدك وكيف ارتبط كل واحد بصاحبه، واستعان كل واحدٍ مع صاحبه على قوام بنيتك.

فكذلك رباطات العظام بالعضلات فبها تنبسط العظام وتنقبض.

وانظر عوافي الله تعالى في كل عظم منها وعضل من الكسر والأوجاع، والفك وغير ذلك من المنافع الكثيرة.

ثم انظر إلى اللحم في الجلد كالشيء في الوعاء المحفوظ، وكيف جعل الله في ذلك الجمال، والحسن، واللين، والرطوبة، وغير ذلك من المنافع الكثيرة؟ وكيف عوفي من السَّلّ، والذبول، والحبوب الكريهة من الدماميل، والحكاك، والجرب القبيح، والقوب، والكلف، والحشوة، والرس،/ والبرص، والجدري، والبهق الأسود، والأبيض، والجذام، [١٩٦/ ب]

والمسامير، والتآليل، والبواسير، وأنواع الحميات المهزلة، وغير ذلك من البلايا التي لو ظهرت عليك وعمت الجسد قذرت نفسك وقذرك غيرك، وتألمت على قدر ما يكون البلاء.

فإن ابتلاك الله ببعض هذه البلايا في جسدك فلا تنسَ ما صرف الله عنك من جملتها فقد صرف عنك أنواعاً في جميع جسدك.

لو سجدت له على الجمر ما أديت شكره على ذلك.

فصــــل

وأما المقام الثاني من الشكر في عالم الغيب ومقام الإيمان.

فأما أول ما تنظر أيها العبد في خلقة ذاتك الباطنة التي بها حياتك وانتظام جميع حواسك وأعضائك ولولا نفخة الروح فيك لكانت بنيتك الظاهرة تراباً وجواهر منتثرة كما كنت قبل نفخة الحياة فيك، وكما تكون إذا قبضت عنك بالوفاة.

فمنفعتها أربت على كل منفعة وهي أصل المنافع.

وصرف عنها من المضار مثل الصفات المحمودة والمذمومة التي بها سعادة الدنيا والآخرة، وغير ذلك غريزة العقل الذي لولاه لكنت بمنزلة الحجر والأنعام السَّائبة التي تحمل وتساق وتركب وتمتهن وتتحكم فيها.

[١٩٧/ أ] فشرفك الله بالعقل المميز فشرفت[1] على/ غيرك من المخلوقات وحكمتها به وفضلك به تفضيلاً.

به تدبر، وتفكر، وتستجلب كل منفعة، وتدفع كل مضرة.

فلو تفرغت بشكر ذلك أنت وغيرك يشكر معك عنك أبد الآبدين ما أديت شكر ذلك.

وانظر ما صرف الله عنك من ضده الذي هو الحمق وكيف كان يكون حالك وتألم ظاهرك وباطنك وضحك الخلق منك، وفزعك، وأفكارك، وتصرفك، وكلامك، ونومك، ويقظتك، وغير ذلك مما عوفي عنه باطنك.

ثم انظر إلى ما تكتسب به من المنافع الأخروية وتدفع به المضار الأخروية التي أمرك الله بكسبها وأعانك بتوفيقه عليها وعلى التداوي من عللها فيه تكتسب الإيمان وتدفع الشرك والكفران والعلم وتدفع الجهل، واليقين وتدفع الشك والريب، والتواضع، والحلم، وتدفع

---

(١) في الأصل: فشرعت. وهو تحريف.

الكبر، والغضب، وغير ذلك من الصفات المحمودة والمذمومة التي قد ملئت منها البواطن وهي جارية على الخلق مع الأنفاس.

وهذه النعم، والمضار الباطنة في باطن العبد لو تتبعتها لطال بها الكلام ويخرج الكلام بها إلى أن يكبر حجم[1] الكتاب جداً، وغرضنا الاختصار وسيرد منها في باب الأخلاق كثيرٌ إن شاء الله.

وإنما الغرض من هذا الباب أن تَتَفَطن لما عُوفي منه باطنك/ من أمراض الشك [١٩٧/ ب] والريب [وما][2] تنعم به من السكون والطمأنينة، وما عوفي به من زَغْبِ[3] الكفر، ونعم به من الإيمان، ونعم به من جمال العقل واستبشاره وبهجته وعوفي به من أحوال الحمق والخرافة وتهوره، وما أنعم عليه من سلامة الصدر لأصحابه زالكبراء والفضلاء والأولياء والسادة من الأصفياء والمسلمين والمسلمات وما عوفي به من الغل لهم والحسد والوقيعة فيهم.

وانظر إلى عظيم استراحة باطنك من فتنة الإضلال والكفر والمارقين في هول عظيم من وحشة الجحد ورعب الكفر والجهل وعمى القلب.

وهذه كلها نعم باطنة يكثر تعدادها وفي مقابلتها نقم صرفها الله بكرمه عنك لو شكرته على نعمة واحدة أبد ألآبدين ما قمت بشكره فكيف بسائرها؟

لكن إذا رأيت ذلك كله منه وشغلت نفسك بالثناء عليه وعرفت قدر نعمه عليك كنت شاكراً، وإذا غفلت ولم تدر قدر ما عمل معك ساءت حالك.

وكم للّه عليك في ظاهرك نعم وعوافي في جميع أعضائك من قرنك إلى قدمك وصرف بلايا كثيرة لا تحصى كذلك في باطنك نعم كثيرة سابغة منعمة لباطنك.

صرف عنك في مقابلة كل واحدة منها نعم لا تحصى فاعددها واشكر.

فإن ابتليت بمرض باطن فانظر في علاجه واشكر/ على ما صرف من غيره من البلايا. [١٩٨/ أ]

فإن ابتليت ببلاء ظاهر فاصبر وعالجه إن شئت، واشكر على ما صرف عنك من غيره.

فسترى أن النعم قد غمرتك وأنت لا تشكر ولا تحس بها.

---

(١) في الأصل: جرم. وهو تحريف.

(٢) ما بين المعقوفين زيادة يتطلبها السياق.

(٣) زغب: أي دفع. وفي لسان العرب لابن منظور: أصل الزَّغْب الدَّفْعُ والقَسْمُ.

فصـــل

اعلم أن المحبة أيضاً ظاهرة وباطنة فأما الظاهرة فقد تقدمت أنواعها.

والباطنة محبة النفس في منعها هواها وسوقها مُكرهة إلى الطاعة، وتألم القلب بخواطر العدو وصرفها، وهموم القلب وأحزانه على ما ابتلي به من التكليف ومقاسات أنكاد الشياطين والهوى، وتزين الدنيا وصبره على إيذاء الخلق وانقطاعه حسرات على الفانيات.

كل ذلك آلام باطنة له فيها أجر المجاهد الجهاد الأكبر كما لَه في تألمه على الأمراض والآلام الظاهرة أجر المجاهد الجهاد الأصغر[1].

فهذه الآلام الظاهرة والباطنة إذا نظرت إلى ما يؤول الحال فيها من الثواب عادت نعماً فمن قوي في هذا النظر صار البلاء عنده نعمة وشكر الله عليها، وسُمي شكوراً على المبالغة لشكره على السراء والضراء.

فصار كل ما في باطن العبد وظاهره نعماً جساماً إلاّ شيئان فقط وهما[2]: العصيان الباطن، والظاهر فإنه لا يحل الصبر عليه، ولا الشكر، ولا علاج له إلا بالتوبة والاستغفار.

فصـــل

[١٩٨/ ب] **وأما المقام الثالث/ من الشكر في مقام الإحسان.**

فهو شكر المنعم جل جلاله وهو على قسمين:

القسم الأول: ما يمدك به مع كل نفس من نعم صفاته الفعلية.

والقسم الثاني: شكره على النعمة به سبحانه وما هو عليه من صفاته ونعوت جلاله وكماله.

فأما القسم الأول من الصفات الفعلية: فإنه يمدك مع اللحظات والأنفاس والخطرات بدروب أنواع من النعم على عدد المخلوقات أجمعها لأنه القيوم بها مع كل نفس فإذا نظرت النعمة عليك في هذا المقام فحينئذ ينقلب إليك البصر خاسئاً وهو حسير فإن هذه النعم المتصلة بذلك إنما تأتيك من خارجك وليست منك ولا هي حالة بك فتدعها بل تمدك العوالم كلها بالنعم ظاهراً وباطناً وليس تملك منها من ذلك قطميراً ولا فتيلاً بل تأتيك من العالم الأكبر إتيان الأغراض في الأنفاس في الساعات والأعوام، والجمعات، والشهور،

---

(١) يشير إلى الحديث الضعيف: (رجعنا من الجهاد الأصغر إلى الجهاد الأكبر).

(٢) في الأصل: هو. وهو تحريف.

والسنين قد جَبَر الله الوجود كله وقهره حتى وصل إليك كل ما في العالم الأكبر من أشخاص العالم وأعضائه ما أمر أن يوصله من منفعة إليك: ﴿وَسَخَّرَ لَكُم مَا فِي ٱلسَّمَاوَاتِ وَمَا فِي ٱلأَرْضِ جَمِيعاً مِّنْهُ﴾[١].

فأول ما ينظر في أفعاله الظاهرة، في الأرض كيف خلقت لك وسطحت يابسة غير سيالة فصارت بذلك قراراً ليستقر عليها الخلق وبساطاً كفاهم مُؤْنَةَ الوعر، ولولا يبسها/ [١٩٩/ أ] لخسف بكل ما على ظهرها.

فيبسها نعمة لازمة نافعة لك مع كل طرفة وبسطها نعمة متصلة أيضاً في كل نفس يستجلب لك من أجل ذلك المنافع على ظهرها وتتصرف أنت بنفسك أيضاً فيما ينفعك.

وساكنة هامدة لولا سكونها بالجبال الراسيات مع كل نفس لزلزلت بك واضطربت.

ولو كانت متحركة يوماً واحداً لأهلكت ما على ظهرها.

فسكونها لك فيه نعمة نافعة منعمة لك دائمة بدوام سكونها وبدوام يبسها ودوام بسطها ومتخلخلة للحفر والحرث والغراسة ولو كانت كالحجر هلك كل ما على ظهرها.

ثم انظر إلى ما يخرج من بركاتها النافعة المنعمة لك وما ينعقد في جوفها وعلى ظهرها من الحجارة وما يصنع منها من العوامد والطوب والآجر المهيأة للبنيان المُكنّ من الحر والبرد الساتر من الأعين الحافظ من السرق والأسوار الحاجبة للأعداء والقناطر والأسداد، وغير ذلك من منافعها.

وإلى ما يخرج من معادنها كالحديد ذي المنافع والبأس الشديد وما يصنع منه من آلات الصنائع كلها والحرف كالسكاك للحرث، والفيسان والمساحي للحفر، والغرس، وكالإبرة، والحلقة والجملين للخياطة وغيرها والمشط والروادخ لصنعة الكتان، وكالسكاكين، والمناشير، والسيوف، والرماح، والسهام، وآلات السلطان؛ الذي به صلاح هذا العالم/ بما [١٩٩/ ب] فيه من البأس الشديد.

والحديد يدخل في جميع الأشياء، ما يوجد دار، ولا موضع يستغني عنه.

وكذلك الصفر لو لم يكن فيه إلا منفعة المغزل المتخذ للغزل المصنوع للباس وستر العورة فكيف بما يتصرف فيه من المنافع.

وكذلك جميع المعادن وما يخرج منها كالشبة، والملح، والزرنيخ، والزوق، وربما

---

(١) سورة الجاثية (الاية: ١٣).

وصلت عدتها ـ أعني المعادن ـ إلى الألف والكل نعمة وفيه منفعة كالذهب والفضة القاضيان على جميع الأشياء، وغير ذلك من أنواع المعادن الداخلة في الأدوية والمتحدة الخواص وحلها وذكر خواصها يطول.

وانظر إلى ما تخرج الأرض ببركتها من النبات، وما جعل الله فيه من المتاع لنا ولأنعامنا فهو على ثلاثة أنواع:

نوع يغرس غراسة فينبت من عيدان.

ونوع يزرع زراعة ويذراً فينبت من حبوبه.

ونوع يخلق من غير بذر ولا غرس، وهو الأبُّ والمرعى وجميع أشجار الجبال والأرض ما لا يزرع ولا يغرس.

فإذا نظرت إلى البري الذي ينبت في الجبال وغيرها وجدته يتخذ منه الأبَ، والحرث، والنبات، والأبواب، والأغلاق، والخزائن، والمرمات، وخشب الإنشاء، والأرحي، والعصي للرماح، والنبل، والسروج، وما لا يحصى من الآلات النافعة لجميع الخلق.

[٢٠٠/ أ] وما لم يصل إلى حد أن ينجز منه اتخذ/ للحرق للأفران والدور، ومنه الفحم المنضج للطعام، والمذيب للحديد وغيره عند أهل الصناعات.

وأما ما ينبت بنفسه للمرعى فإنه عيش للحيوان و يكون صلاحها وتسمينها وقوتها وكل ذلك نعم لابن آدم لا تحصى.

ومنه ما يكون للأدوية النافعة للعلل والأمراض وهي أنواع لا تحصى يعرفها أهل صناعات الطب ومعرفة العشب.

فأما مَا يؤكل مما يبذر بذراً فهو أنواع كثيرة كالقمح، والشعير، والسلت، والذرة، والفول، والعدس، وأنواع المأكولات المنعمة لبني آدم.

وأما مَا يغرس كالزيتون المبارك، والتين، والأعناب، والجوز، والرمان، والنخل، وغير ذلك مما لا تحصى منفعته.

ومنافع النبات ونعمه أكثر من أن تحصى.

وانظر إلى الحيوان المسخر كالإبل، والبقر، والأنعام، والمعز، والوحش، وما يهدي لك من نعم اللحوم، والألبان، والأسمان، والأجبان، والأصواف، والأشعار، والجلود،

والريش التي لا يستغني أحد عنها في كل مكان.

ثم انظر إلى منافعها في الحرث والدرس، وحمل الأثقال على الإبل.

وانظر إلى الخيل، والبغال، والحمير، وما فيها من الزينة والمنافع للحمل، والركوب، والجهاد، والحرث، والدرس، والسواقي[1]، ولولا ذلك لهلك بنو آدم وانقطعت معايشهم لو تكلفوا جلب السلع والأثقال من بلد إلى بلد، وأن يحرثوا بأنفسهم/ ويدرسوا، [٢٠٠/ ب] وما ترون منها في الفيافي سلط عليه بنو آدم بالصيد والعقر فينتفع بلحومها وجلودها.

ثم انظر إلى بني آدم كيف سخر الله جل جلاله بعضهم لبعض فسخر لك الآباء من صغرك يربونك بأحسن اللطف حتى تكبر فتخالط الناس فيجدهم قد سخروا فيما حبب لهم من الصناعات والحرف فتجد نجارين وخياطين وكمادين، وخرازين، وحدادين وتجاراً وفرانين، وفلاحين، وغير ذلك يكثر تعداده.

والكل نافع لك وكان مؤنة ذلك الشغل الذي لو كلفته بنفسك لم تقدر عليه وهلكت.

ثم انظر إلى تآلفهم في المدن والقرى ورحمة الله بذلك ولو ألقى بينهم الفتنة والعداوة والبغضاء كان الهلاك بالفتنة وضَرٌ بعضهم لبعض، ولذلك جعل الله السلطان من أجل الألفة وجعل السجون لأهل الفساد ليأمن الخلق ويصلح حالهم.

فالأمن أكبر نعم الله على عباده.

ثم انظر إلى البحار وسعتها وجريها على وجه الأرض من أجل بعد المسافات كي تجري فيها الفلك بنعمة الله فتوصل المنافع إلى الأقطار البعيدة.

فإن الحيوان لا يقدر على توصيل ذلك فتكون جالساً في موضعك وتأتيك منافع الهند والسند وغير ذلك من الأقطار.

ثم انظر إلى ما نتج منه من أنواع الغذاء من الحوت الطري ومن الجواهر، والأصداف.

وانظر إلى ملوحته النافعة لأهوية العالم فإنه للهواء كالملح/ للطعام يقطع عفوناته [٢٠١/ أ] ويدفع مضارها في كل نفس والهواء جارٍ عليه يأخذ كل الملوحة النافعة له.

وانظر إلى الماء العذب وحلاوته للشرب وانتفاع الخلق به وتنعمهم بذلك في شربهم

---

(١) الساقية: آلة قديمة لرفع الماء لري الأرض وكانت تصنع من الخشب ثم من العاج وقد انقرضت إلا أن الكثير ما زال يعرفها حتى الآن وحل محلها مواتير الري المشهورة الآن في كل صقع.

وطبخ طعامهم وغسل أعضائهم وطهورهم وإزالة أوساخهم في الحمامات وغيرها وغسل ثيابهم.

وجري الأنهار والعيون لسقي ثمارهم وزروعهم وطحن طعامهم في الأرحية[١] وغير ذلك من نزول الأمطار في مواضع الحاجة إليها فتنبت به جميع أنواع النبات المتقدم ذكرها وتنعقد به المعادن أيضاً.

ولولا الماء لذهب هذا العالم فإنه حياته.

ثم انظر إلى النار ومنافع الخلق بها في الطبخ للغذاء في الدور، والأفران، والأسواق، وفي غير الغذاء، في الحدادة، والصباغة وغير ذلك من الاستصباح في البيوت والمساجد والطرق والأسواق، والليل، وحاجة الخلق إليها كحاجتهم إلى الماء.

وقد عدد الله النعمة بها كما عدد بالماء وقرنها بالماء في سورة الواقعة.

ثم انظر إلى أعجب من ذلك كله وهو هذا الذي قد جمع الخليقة فيه كالحوت في الماء لا يستغني عنه طرفة عين فهو حياة الحيوان ولو خرجوا عنه طرفة عين لهلكوا كما يهلك الغريق في الماء إذا عدم الهواء ولولا عدم الهواء ما هلك.

وانظر إلى رطوبته وحسن طعمه كيف يشربه ويستقيه الحيوان بلا مشقة ولا صعوبة ولولا/ رقته لأهلك إذا ملأ الجوف كما يهلك بالماء والتراب إذا امتلأ به الجوف ولا يجد الهواء مسلكاً فيه. [٢/ ب]

ولذلك تجد الهواء إذا كثف في قيعان الآبار بكثرة مكثه فيها وسكونه عن الحركة لضيق أفواهها يقتل بكثافته فهذه خصلة واحدة من خصاله ونعمة من نعمه.

ومن نعم رقته ولطافته تصرف الخلق فيه في جميع الجهات والأسفار ولو كان كالماء والتراب ما كانوا يخوضونه، وكيف كانت[٢] تنفذ أبصارهم فيه لرؤية المبصَرات، وفي سكونه أيضاً وحركاته نعم جمة بتحريكه تجري السفن وبها تصفية الحبوب وإذهاب الحر، وإصلاح الجو.

---

(١) آلة من الحجارة تطحن بها الحبوب وهي في هذه الأيام لا تكاد تعرف لما جد من الآلات والأجهزة الخاصة بالطحن وقد صارت المطاحن الآن في غاية الضخامة بحيث إنه لا يستطيع إدارتها الأفراد القلائل بل يتطلب العمل فيها للعشرات والعشرات. وقال الرازي في لسان العرب: الرحى: معروفة التي يطحن بها والجمع: أَرْحٍ، وأَرْحاءٌ، ورُحيٌّ، ورِحِيٌّ، وأرْحِيَةٌ (والأخيرة نادِرة). وقال: ودارت الحرب كَدَوْرِ الأَرْحِيَةِ.

(٢) جاءت في الأصل: كان. وهو تحريف.

وبالجملة فالهواء، والماء، والنار، والأرض أمهات من النعم ليس منها جزء واحد إلاّ وفيها نعم لا يحصيها إلاّ خالقها.

ثم اصعد بنظرك إلى عالم السماوات فإنها عاطفة لجميع المنافع المذكورة على هذا العالم ومنها ترك الأمر كله، ومنها تدبير الليل والنهار المخلوقين للحركة والسكون والنوم واليقظة والراحة وكلها نعم للخلق لولاها هلكوا، وبحركة العالم العلوي تنشأ الجمعات، والشهور، والأعوام فتخلق الخيرات في هذا العالم مرتبة على فصول العام من الشتاء والربيع، والصيف، والخريف.

وانظر إلى شخص واحد من أشخاص السماء مثلاً فتستدل به على الغير كالشمس فإنها سراج هذا العالم إذا طلع عليه/ استضاء وأخذت منه الأبصار نورها وعملت جميع الأشغال [٢٠٢/ أ] في جميع الأقطار ثم لا يزال دائماً كذلك إلى حين الأفول فيكون بأفوله الليل فتستريح الأبدان بالسكون والنوم.

هذا حاله في طلوعه وغروبه وله حركة أخرى من الجنوب إلى الشمال لتسخير هذا العالم فتثبت به المعايش كلها وتصلح وتتضح في حين صعودها ثم هبوطها أيضاً إلى الجنوب يأتي البرد والشتاء فيزرع الناس ويغرسون طعامهم ثم تصعد عليه فتصلحه.

فالعالم كله مفتقر[1] إليها في كل نفس فكل حركة من حركاتها نعمة.

وكذلك كل شخص في عالم السماوات مثلها قد جعله الله على كل عمل نافع لهذا العالم لا يستغني عنه بل لا يستغني عن جوهر واحد من أجرام السماء إذ لو انخرم منه جوهر واحد لتبعه الذي يليه لأنه معتمد عليه كحلقة السلسلة المعلقة الواحدة تحمل الأخرى.

فأجزاء السماوات والعالم معتمدة بعضها على بعض ملتصقة منتظمة غاية الانتظام يحمل هذا هذا، وهذا هذا، وينفع هذا هذا من حيث أنه يحكمه ويعتمد عليه، وكذلك الآخر.

فكل جوهر من جرم السماء يفتقر إليه جميع أجزائها على كثرتها، وكل جزء ينفع جميع الأجزاء، ولو انخرم منها جزءٌ لانهدّ الكل، وانخرم النظام لأن ليس منها واحد يقوم بنفسه في حيزه.

والحمد لله/ على عدد أجزاء العالم كله وعلى هذا الترتيب ينبغي أن تفهم نعمة الله في [٢٠٢/ ب] جميع المخلوقات حتى يتبين لك العجز عن الإحصاء وهي المعرفة بالشكر وليس كل أحد

---

(١) في الأصل: متقفر. وهو تحريف.

يعرف صورة العجز إلاّ من نظر وعلم فإن العجز إذ ذاك كما سماه الصديق ويدركه أهل التحقيق لا كما يزعم الجاهل الغافل عن مقام العالم الفاضل.

ثم انظر إلى كيفية خلقها فذلك أعظم النعم وكيف خلقت مقبية كالخباء نَخبُو من تحتها قد عطفت عليهم بأكنافها على صورة الحنان والرحمة، ذلك بأنها ستنزل عليهم خيراتها وبركاتها في كل لحظة لأن منها ما يستمد هذا العالم في كل نفس كل شيء لأنها محل الأمر النازل.

وجعلت أيضاً حجاباً لما تحتها عن البروز والظهور لما فوقها لأن سماء الدنيا هي دنيا بالإضافة إلى ما فوقها فهي أقرب وأدنى لأن يحمل الخلق أنوارها وعجائبها وتحمل خلقهم ذلك ويصلح أمرهم.

ولو ظهر لهم ما فوقها بلا حجاب لهلكوا فإن أمور السماء الأولى بالإضافة إلى الثانية كالحلقة الملقاة في فلاة، وكذلك الثانية وأهلها بالإضافة إلى ما فوقها إلى العرش.

وانظر إلى أحاديث الإسراء وخلقة السماء تجد هذا بيناً فيه.

[٢٠/ أ] فرحم الله هذا العالم بأن جعلها/ سترة لما تحتها عَمّا فوقها فتتلقى هي ما يرد عليها من علو بأملاكها وقواها وتنزله على ما تحتها هكذا سماء سماء إلى الجنات وهكذا أيضاً هذه الأرض مع التي تحتها والتي تحتها مع التي تحتها إلى جهنم على هذا الاعتبار ما سفل الأمر تحتها كان أشد وأطم وأعظم.

ألا ترى أن النبي ﷺ قد قال: «فأشد ما تجدون من الحر فمن السعير، وأشد ما تجدون من البرد فمن الزمهرير»[١]، [وقال][٢]: «الحُمى من فيح جهنم»[٣].

وأن هذه الحمى من الفيح لولا ما امتزجت بالرحمة حين صعود الفيح لذابت الجبال لها.

وقال النبي ﷺ: «ناركم هذه التي توقدون عليها جزء من سبعين جزءاً من نار جهنم ولولا أنها ضُربت بالماء مرتين ما انتفعتم منها بشيء»[٤].

---

(١) راجع مسند الشافعي (٢٧)، فتح الباري (٢/ ١٩). (٢) زيادة للإيضاح.

(٣) أخرجه البخاري في الصحيح (٤/ ١٤٦)، الحاكم في المستدرك (٤/ ٢٠٣)، مسلم في الصحيح (السلام ٧٨، ٧٩)، ابن ماجة في السنن (٣٤٧١)، أحمد في المسند (١/ ٢٩١)، الدارمي في السنن (٢/ ٣١٦)، أبو نعيم في الحلية (٧/ ١٦١).

(٤) أخرجه البخاري في الصحيح (٤/ ١٤٧)، الترمذي في الجامع الصحيح (٢٥٨٩)، مسلم في الصحيح =

كذلك الحمى جزء من سبعين من حُمَّى جهنم، وكذلك أيضاً الماء النازل من السماء ومعاني الجنة والرحمة المنزلة إلى الأرض امتزجت مع ما صعدت من الفيح من جهنم وكسر هذا هذا وهذا هذا، فكانت منها الدنيا كلها فالتقى النور مع الظلام والرحمة مع الغضب، وكل ضد مع ضد، فخلقت منها الدنيا وما فيها.

وإذا فهمت هذا علمت أن الجنة والنار هما القائمتان بهذه الدار/ بما فيها لا يستغني [٢٠٣/ ب] العالم عنها طرفة عين فهما نعمتان عظيمتان لأهل هذه الدار من حيث ليس لهم عيش ولا قوام إلاّ بهما وقد قال الله في الجنة: «أنتِ رحمتي أرحم بك من أشاء». وقال: «الجنة مائة درجة»[1]. وقال في حديث آخر: «إن الله خلق مائة رحمة أنزل منها إلى الأرض واحدة فبها يتراحم الخلق»[1]. الحديث إلى آخره.

فتفهم وتفطن واشكر الله على جميع مخلوقاته فإن الله قد حمد نفسه على ذلك فقال: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَالَمِينَ﴾[2]. وهم الخليقة بأسرها.

وانظر منفعة الدارين العظيمتين كيف تصل منفعتهما إليك من مقامهما وأنت في مقامك هذا. ثم اصعد ناظراً إلى الكرسي فإنه قد وسع الكل: ﴿وَسِعَ كُرْسِيُّهُ ٱلسَّمَاوَاتِ وَٱلْأَرْضَ﴾[3]. وهو موضع حكم الملك والحكم على شيئين وعلى خصمين، كذلك وسع الكرسي أهل القطبين ووسع الدارين العلوي والسفلي فلا تتحرك ذرة فما فوقها في العالمين إلا في مقام الحكم الذي هو الكرسي فمنافعه قد شملت جميع ما تحته لأن الكل فيه كحلقة ملقاة في أرض فلاة كما أن محمداً ﷺ فنعمه قد شملت ما تحته. ثم اصعد إلى العرش العظيم الذي هو موضع تدبير/ الملك كما قال: ﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ﴾[4]. [٢٠٤/ أ]

فجميع الخلق والكرسي كحلقة الدرع في أرض فلاة قد ستر بعظمته كل ما تحته وما في ضمنه عن تجلي عظائم الأمور المدبرة الربانية التي لا يشارك في تدبيرها والنظر فيها وتفصيلها أحد من الخلق فلا يحمل ذلك إلا العرش الذي أُهِّلَ لتفصيل تلك الأمور ولهذه العلة خصصه الباري بالاستواء فهو موضع التدبير لا أنه مكان فإن الرب لا يسعه مكان ولا يحتاج إلى مكان فافهم هذا فإنه معنى حسن في الاستواء أيضاً.

= (٢١٨٤)، أحمد في المستدرك (٤/ ٥٩٣)، عبد الرزاق في المصنف (٢٠٨٩٧)، الزبيدي في إتحاف السادة المتقين (١٠/ ٥١٣) العجلوني في كشف الخفا (٢/ ٤٥٠)، السيوطي في الدر المنثور (١/ ٣٦).

(١) أخرجه أحمد في المسند (٤/ ٣١٢)، الحاكم في المستدرك (١/ ٥٦)، الطبراني في الكبير (٦/ ٣٠٧)، ابن حجر في الفتح (١٠/ ٤٣٢).

(٢) سورة الفاتحة (الآية: ٢).

(٣) سورة البقرة (الآية: ٢٥٥). (٤) سورة يونس (الآية: ٣).

فالعرش أعظم نعم الله بل كل نعمة منه ترد فهو الجامع لها في الدنيا والآخرة أبد الآبدين ودهر الداهرين، وإلى هذا انتهى نظر الناظرين وشكر الشاكرين على النعم المحدثة فوجب شكره سبحانه على عدد جواهر العالم كله، وعلى عدد جميع أعراضه في جميع أحوال الدين والدنيا والآخرة أبد الآبدين ودهر الداهرين.

وأما الضرب الثاني من الشكر في مقام الإحسان: فهو شكره لذاته وشكره على النعمة التي لولاهم لم يكن شيئاً مذكوراً لا رب ولا مربوب ولا خالق ولا مخلوق.

فهو النافع وحده وهو الخالق لا سواه فكل ما أضيف لغيره مجاز لأنه منه حقيقة.

[٢٠٤/ ب] / فالشكر كله له ومنه وإليه لا دعوى لأحد في ذلك مَعه[١].

فلما رأى الشاكرون كل شيء متصرفاً بيد القدرة صادراً عن تدبر العلم والإرادة نازلاً بأمر الكلمة السابقة وتجلى لهم سعة علمه وتدبيره وعظيم قدره وجلاله وكيف صارت جميع المخلوقات أقل من جوهر بالإضافة إلى وجوده وتجلي لهم بأوصاف الحنان وأسمائه الحسان ورأوا منه فيض الفضائل والخيرات في كل الأحايين والأوقات على جميع الموجودات جوداً محضاً وكرماً صرفاً لا لغرض منه ولا لعوض يعود عليه وبيّن لهم غنى نفسه عن العالمين «ليس الغنى عن كثرة العرض إنما الغنى غنى النفس»[٢].

لا يشغله وجود الخلق ولا يزيده كونهم ولا يضره ولا يفقده عدمهم بل هو كما هو ليس هو على ما هو إلا هو فعند ذلك قالت الأسرار، وراء حجب الأستار:

الحمد لله الذي هو ربنا على ما هو عليه فرحاً به وسروراً فزادهم نضرة وحبوراً فحين فهموا وسمعوا خيرة كلامه تحيروا في حضرة جلاله وتاهوا سكارى من لحظات جماله فطمعوا وودوا أن يشكروه على ما هو عليه[٣].

[٢٠٥/ أ] فتبين لهم أن ذلك لا يكون إلا إليه فقالوا مسلمين شكراً له: سبحانك/ سبحانك لا نحصي ثناءاً عليك كما تستحقه أنت كما أثنيت على نفسك.

---

(١) في الأصل. نفعه. وهو تحريف.

(٢) أخرجه البخاري في الصحيح (٨/ ١١٨)، مسلم في الصحيح (الزكاة ٤٠ رقم ١٢٠)، الترمذي في السنن (٢٣٧٣)، ابن ماجة في السنن (٤١٣٧)، أحمد في المسند (٢/ ٢٤٣)، الحميدي في المسند (١٠٦٣)، أبو نعيم في الحلية (٤/ ٩٩)، ابن حجر في الفتح (١١/ ٢٧١).

(٣) هذه من العبارات الصوفية والألفاظ الشائعة لديهم التي لا يكاد يخلو كتاب أو مجلس لهم عن ذكرها فنسأل الله حسن الفهم وحسن الختام. اللهم آمين.

فهذا شكرهم إذا نظروا فوق الفوق ثم إذا نظروا به إلى جميع الموجودات وشاهدوا قيوميّته بالمخلوقات رأوا العالم كله مفتقراً في كل لحظة وأن لا قوام لشيء دون قيض العرض دائماً عليه.

فوجب عليهم أن يشكروه عدد جواهر العالم كله أوله وآخره وظاهره وباطنه وعدد ما أجري عليه ويجري أبد الآبدين ودهر الداهرين من أعراضه فشكروه على ذلك شكراً مجملاً إذ لا يحيط به إلا هو مفصلاً.

وإلى هذا المعنى أشار النبي ﷺ في قوله: «لك الحمد حمداً كثيراً طيباً مباركاً فيه ملء السماوات والأرض وما فيهما وما بينهما وملء ما شئت من شيء بعد»[1].

فرجع صلوات الله عليه إلى العموم والتجميل حين عجز عن إحصاء التفضيل.

الشعبة الرابعة والأربعون: الزهد

أما كون الزهد من الإيمان فبين في النظر وكثير مجيئه في الخبر.

أما دليل ذلك في الخبر فقوله عليه الصلاة والسلام: «الدنيا سجن المؤمن وجنة الكافر»[2]. ولم يسجنه إلا الزهد الذي هو كمال إيمانه/ وما صارت جنة الكافر إلاّ لمن ذهب [٢٠٥/] إيمانه أو نقص.

ومنه الحديث المروي في الحياء قال رسول الله ﷺ: «استحيوا من الله حق الحياء»[3] وذكر الحديث إلى قوله: «ومن أراد الآخرة ترك زينة الدنيا وآثر الآخرة على الدنيا فمن فعل ذلك فقد استحيا من الله حق الحياء، والحياء من الإيمان».

ومنه حديث علقمة: «إن لكل حق حقيقة فما حقيقة إيمانك»[4] فقال: عزفت نفسي عن

---

(١) أخرجه البخاري في الصحيح (١/ ٢٠٢)، أحمد في المسند (٢/ ١٨)، ابن خزيمة في الصحيح (٦١١)، أبو عوانة في المسند (٢/ ١٠٧)، ابن حجر في الفتح (٢/ ٢٨٤)، البيهقي في السنن الكبرى (٢/ ٩٥).

(٢) أخرجه مسلم في الصحيح (الزهد المقدمة ١)، الترمذي في الجامع الصحيح (٢٣٢٤)، ابن ماجة في السنن (٤١١٣)، أحمد في المسند (٢/ ١٩٧)، الحاكم في المستدرك (٣/ ٦٠٤)، أبو نعيم في الحلية (٨/ ١٧٧).

(٣) أخرجه الترمذي في الجامع الصحيح (٢٤٥٨)، أحمد في المسند (١/ ٣٨٧)، الحاكم في المستدرك (٤/ ٣٢٣)، الطبراني في الكبير (٣/ ٢٤٦)، أبو نعيم في الحلية (١/ ٣٥٨)، الطبراني في الصغير (١/ ١٧٧)، السيوطي في الدر المنثور (١/ ٢٦٤)، المنذري في الترغيب (٢/ ٥٥).

(٤) أخرجه ابن أبي شيبة في المصنف (١١/ ٤٢)، أبو نعيم في الحلية (٩/ ٢٧٩)، الذهبي في ميزان=

الدنيا. فوصف أن حقيقة الإيمان الزهد.

وأما من طريق النظر الذي لا شك فيه: فإن الآخرة غيب، والرب غيب، والدنيا شهادة لا تدرك حواس الخلق إلاّ هي ثُمَّ دعا الله الخلق إليه وإلى الآخرة بكتابه وعلى أَلْسِنَةِ رُسُلِهِ فمن شمر وأجاب إلى الدار الآخرة وإلى السلوك إلى ربه وزهد في الدنيا فقد صرح بحقيقة إيمانه لأن الإيمان تصديق بالغيوب وعمل لها.

فصـــل

اعلم أن الزهد يقتضي أربعة أشياء:

زاهد: وهو العبد.

وزهد: وهو حاله.

ومزهد: وهو العوض.

ومزهود فيه: وهي الدنيا.

فأما المزهد: فهو الله تعالى والدار الآخرة والاشتغال بأمور الدين ظاهراً وباطناً.

والمزهود فيه التي هي الدنيا: شيئان فقط أحدهما: العرض المالي، والثاني الجاه النفساني.

وأما الجاه فإنه تفاخر ورياء، وأما المال فإنه تكاثر واتباع هوى. وهذان المعنيان يجمعان معاني الدنيا كلها التي أُمر الناس بالزهد فيها فإن اللعب والزينة واللهو هو هوى النفس ولها يطلب التكاثر.

وأما الجاه فإنه رياء وبه يظهر التفاخر فمن زهد في الحياة واتباع الهوى فقد زهد في الدنيا بأسرها ـ أعني الدنيا المذمومة ـ ومعنى اتباع الهوى ما صد عن الله والدار الآخرة.

فإذا فهمت هذا فاعلم أن الدنيا بأسرها هي كل ما على وجه الأرض.

قال الله تعالى: ﴿إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى ٱلْأَرْضِ زِينَةً لَّهَا﴾[1]. وعلى ظهرها يتنافس[2] الخلق في الجاه والمال والأرض أقل وأذل وأحقر ما في العالم لأن نسبتها من العالم الفلكي نسبة النقطة الهندسية التي هي مركز الضابط إذا صنعت وأقل كوكب في السماء من الكواكب

= الاعتدال (٩٨٧٧)، الزبيدي في إتحاف السادة المتقين (٩/ ٣٢٧)، المتقي الهندي في كنز العمال (٦٣٩٨٩)، ابن كثير في البداية والنهاية (٥/ ٩٤).

(١) سورة الكهف (الآية: ٧).

(٢) جاءت في الأصل على هذا الرسم: سمامس. بلا نقط ثم حرفت والصواب ما أثبته والله أعلم.

الثابتة أكبر من الأرض مراتٍ لأن الكوكب يظهر اكبر من نقطة الضابط ونحن في النقطة يظهر لنا أبداً نصف الفلك ويغيب عنا نصفه.

ولو كانت الأرض أكبر من نقطة لم يظهر لنا نصف الفلك بل أقل هذا/ برهان عقلي لا [٢٠٦/ ب] مدفع فيه.

ومن الأرض التي هي النقطة معمور وغير معمور، والذي منها غير معمور أكثر من المعمور.

فانظر ما حصل للناس من تلك النقطة وكيف اقتسموها فطالب الجاه والكبر فيها غير مذكور في العالم الأعلى وهو لا يعلم ﴿وَلَوْ نَشَاءُ لَمَسَخْنَاهُمْ عَلَىٰ مَكَانَتِهِمْ﴾[1]. في النقطة أي جاههم لأن نفوسهم ليس لها في العلو مسلك، ولا يرقون إلى السيد الأعلى فهم يتطاولون في بنيان أجسامهم بعضهم على بعض بالفخر والعلو.

فكانوا بالإضافة إلى الذين ارتفعت هممهم إلى الآخرة العليا وإلى السيد المولى تحت أقدامهم كالذر فالدنيا وما عليها بالإضافة إلى ما هو منها أقل من جناح بعوضة بالكمية وأقل وزناً بالقيمة فإن ملك العبد فيها شيئاً أو داراً عرضها مرجع أو أكثر يظن أنه ملك شيئاً بل لو ملك جميع أقاليمها ليس له في العالم العلوي قدر لأنه نقطة بالإضافة إلى ما فوقها كما تقدم، معمورها وغير معمورها.

فأين ملك من ملكها كلها من ملك فقير أهل الجنة الذي ليس في الجنة أدنى منزلة منه وهو آخر من يدخلها.

وفي الحديث[2]:/ «ينظر إلى قصوره وجناته مسيرة ألف عام» الله أعلم من أي الأعوام: [٢٠٧/ أ] ﴿وَإِنَّ يَوْماً عِندَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ﴾[3].

فالزهاد الذين عقولهم تعمر العُلا جاههم يتسع في العالم الأعلى على قدر سعة الملكوت الأسنى.

واعلم أن الجاه على ثلاث مراتب: جاه دنيوي وقد تقدم ذكره. وجاه أُخروي علوي على قدر درجات أهل الجنة ومنازلهم فيما بينهم بعضهم مع بعض. وجاه عند الرفيق الأعلى كما قال. وهو ترتيب درجاتهم وعنايتهم في نفس الملك على قدر قربهم منه.

---

(١) سورة يٓس (الآية: ٦٧).

(٢) عبارة: في الحديث جاءت مكررة بآخر الصفحة [٢٠٦/ ب] وأول [٢٠٧/ أ] فحذفت التكرار.

(٣) سورة الحج (الآية: ٤٧).

فإذا فهمت هذا فاعلم أن الزهد يحقر المزهود فيه ويهونه على الزاهد فيه ويقلله، قال الله تعالى: ﴿وَكَانُوا فِيهِ مِنَ الزَّاهِدِينَ﴾(١). لمَّا هان عليهم ونظروه بعين التحقير باعوه بالبخس اليسير ولو كان عندهم عظيماً كبيراً لَمَا أخذوا فيه شيئاً قليلاً(٢) كما قالوا آخراً حين عظم قدره عندهم ورأوا له الفضل عليهم: ﴿تَاللَّهِ لَقَدْ ءَاثَرَكَ اللَّهُ عَلَيْنَا﴾(٣).

فحلفوا بالله العظيم حين تبين لهم شرف يوسف الكريم، ولا يحلف أحد على شيء إلاّ إذا عظم عنده ومنه قول النبي ﷺ لعلي رضي الله عنه: «إنك لزهيد»(٤).

[٢٠٧/ ب] حين قرض عليهم شعره في مناجاة/ الرسول ﷺ. معناه: إنك مقلل محقر.

وجميع معاني الزهد في الملبس، والمطعم، والمسكن، والبَذاذة فإنما هو من تحقير الأشياء الدنيا عند الزاهد.

فقصد إلى أحقر ما فيها وأقله فاقتناه، وأغرب ما في هذا المعنى قول النبي ﷺ: «لو كانت الدنيا تزن عند الله جناح بعوضة ما سقى كافراً منها جرعة ماء»(٥).

وبهذا النظر كان النبي ﷺ ينظر الدنيا موافقةً لربه.

فصـــل

اعلم أن الزهد منه فرض ومنه ما هو فضل وينقسم كله على ثلاثة أقسام على عدد مقامات الإسلام والإيمان والإحسان.

وعلى عدد الذوات الثلاثة: الجسم، والنفس، والروح.

فأما القسم الأول في مقام الإسلام: فهو إيثار الأمور الدينية على الدنيا وترك الدنيا لها. والأمور الدينية منها فرائض وفضائل. فالزهد أيضاً منه فرض، وفضل كذلك.

فأما الفرض فإنه واجب على جميع الخلق، وأما الفضل فإنه مخصوص بخصوص.

فأما الفرض الواجب والفضل المندوب فإنه ملازم لجميع الطاعات متعلق بها لا يفارقها من فرض أو نفل.

(١) سورة يوسف (الآية: ٢٠).

(٢) جاءت في الأصل: كثيراً. وهو سهو من الناسخ. (٣) سورة يوسف (الآية: ٩١).

(٤) أخرجه الترمذي في الجامع الصحيح (٣٣٠٠)، الطبراني في الكبير (١/ ١٠٩)، ابن حجر في الفتح (١١/ ٨١)، الهيثمي في المجمع (٧/ ١٢٢)، في الموارد (١٧٦٤).

(٥) أخرجه ابن ماجة في السنن (٤١١٠)، الخطيب في تاريخ بغداد (٤/ ٩٢)، ابن حجر في المطالب (٣١٧٢)، السيوطي في الدر المنثور (٦/ ١٧).

وبيان ذلك أن الخلق المخلوق/ في الدنيا لما ربتهم الدنيا من صغرهم إلى كبرهم [٢٠٨/ أ] ونشأوا فيها وتغذوا بلبانها شغفهم حبها لأن حياتهم بها وفيها، فشمروا لطلبها واجتهدوا في اقتنائها فلم يكن ليزيلها عنهم إلاّ أمر عظيم إما زهد فيها أو موت ينقل عنها.

فأرسل الله الرسل إلى الخلق يدعونهم منها إلى عبادة الله، وأنزل الكتب تتلى عليهم وتذكرهم بأحسن منها وأبقى لعلهم يزهدون فيها ولا تشغلهم عن عبادة الله.

فشرعت لهم الشرائع وفرضت لهم الفرائض وقضيت الذرائع كي يتدرجوا في الزهد فيها شيئاً فشيئاً.

ورُغبوا في الفضائل عسى يؤثروا غيرها عليها فهذا دأب المرسلين مع الناس من أول الدنيا إلى آخرها.

فأول ما فرض توحيد الله ومعرفته والشغل به، ولن ينال أحد ذلك إلا بترك الاشتغال بما يقطع عن ذلك من فضول الدنيا ولو ساعة أو حيناً ما، فترك الشغل بها في ذلك الوقت فرض تدبراً كان أوْ أكلاً أو شرباً أو شراءً أو أي نوع كان منها.

ومن ذلك طلب العلم الذي هو فريضة على كل مسلم ما ضيع أحد طلبه إلاّ بطلب الدنيا والشغل بها، وما طلب أحد العلم المفترض عليه وقتاً ما إلا ترك الشغل/ بالدنيا ذلك [٢٠٨/ الوقت والحين فتركه لها زهد فيها.

ثم الصلوات وأوقاتها بينما الناس مكبون على الشغل بها إذ صعد المؤذنون على الصوامع بأرفع الأصوات إشارة إلى تعظيم ذكر الله على غيره فأول ما ينطق به التكبير تنبيهاً على ما اشتغلوا به من البزر الحقير لعلهم يزهدون فيه ويتركونه لأداء الفرض فيجيئونه.

فصار عند ذلك ترك الشغل بالدنيا فرضاً عليهم ما دام وقت الصلاة لم تخرج فهم في إجابة الداعي وإيثاره على ترك ما هم فيه من الفاني درجات عند الله فمن خرج الوقت عنه ولم يسارع إلى الطهارة والصلاة فقد وقعت عليه العقوبة وآثر دنياه على دينه وهواه على مولاه فتعرض عليه التوبة فإن تاب وإلاّ قتل وفرق بينه وبين دنياه المذمومة المفرقة الحائلة بينه وبين دينه.

فهكذا في كل يوم خمس مرات فرض عليهم ترك الشغل بالدنيا وتحقيرها في جنب دين الله في تلك الأوقات ويرغبون في ما سوى تلك الأوقات في الفضائل.

وانظر إلى الزكاة وأوقاتها وغير ذلك من الحقوق المالية إذا جاء وقتها أمر بإخراج تلك الحقوق من أيديهم وزهدوا في ترك الرغبة/ فيها حتى يخرجوها فمن وفق زهد فيها [٢٠٩/ أ]

واستحقرها وأخرجها عن يده ومن اشتدت رغبته وحرصه وذهب الزهد من قلبه فيها بالكلية أمسكها ولم يخرجها ولزمه من العقوبة ما ورد الشرع بذكره.

وانظر إلى الصوم ما أبين الزهد فيه فأول ما فرض على الخلق عند طلوع الفجر ترك الأكل والشرب والجماع والإمساك عنه إلى الليل.

فهذه الأمور التي أُمروا بتركها هي أعظم أمور الدنيا فكذلك الحج أول ما فرض على الخلق الخروج من دنياهم ومفارقة أوطانهم بما حوت من أهل أو غيره، وهذه هي الدنيا بأثرها.

وانظر إلى الجهاد وكيف فرض عليهم الخروج من الدنيا بأثرها إذا لزمهم فرضه والتعرض للموت الكامل بين الدنيا وأهلها وقد بين الله هذا المعنى في كتابه فقال: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ قِيلَ لَهُمْ كُفُّوٓاْ أَيْدِيَكُمْ﴾[١] إلى قوله: ﴿فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ ٱلْقِتَالُ إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَخْشَوْنَ ٱلنَّاسَ كَخَشْيَةِ ٱللَّهِ﴾[٢] إلى قوله: ﴿وَقَالُواْ رَبَّنَا لِمَ كَتَبْتَ عَلَيْنَا ٱلْقِتَالَ لَوْلَآ أَخَّرْتَنَآ إِلَىٰٓ أَجَلٍ قَرِيبٍ﴾[٢] فصرح لهم بالزهد في الدنيا حين أمسكهم عن الواجب فقال: ﴿قُلْ مَتَٰعُ ٱلدُّنْيَا/ قَلِيلٌ﴾[٢]. [ب]

فحقرها بقوله: ﴿قَلِيلٌ﴾ والقليل هو الحقير ثم عظم الآخرة وشرفها لعلهم يرغبون فيها ويزهدون في الحقير فقال: ﴿وَٱلْءَاخِرَةُ خَيْرٌ لِّمَنِ ٱتَّقَىٰ﴾[٢].

ثم زادهم بياناً وعرفهم أنهم لا بد لهم من مفارقة دنياهم وأنهم مخرجون منها بغير اختيارهم حين لم يخرجوا باختيارهم فقال: ﴿أَيْنَمَا تَكُونُواْ يُدْرِككُّمُ ٱلْمَوْتُ وَلَوْ كُنتُمْ فِي بُرُوجٍ مُّشَيَّدَةٍ﴾[٢].

وهكذا أَمْرُ كل فريضة أُمر الخلق بها أو فضيلة ندبوا إليها تجدها مقترنة بزهد فرض أو فضل ولو لم تشغل الدنيا الخلق عن الفرائض المفروضة والفضائل الموظفة لسموا زاهدين حين لم تلههم بزخرفها عن دينهم الذي هو خير منها وإن كانوا مكتسبين لها ومتصرفين فيها كما كان السلف الصالح.

وإنما أهلك الخلق بتعظيمها وإيثارها، وقد أثنى الله على قوم هي بأيديهم بأحسن ثناء فقال: ﴿رِجَالٌ لَّا تُلْهِيهِمْ تِجَٰرَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ وَإِقَامِ ٱلصَّلَوٰةِ وَإِيتَآءِ ٱلزَّكَوٰةِ﴾[٣].

(١) سورة النساء (الآية: ٧٧).
(٢) سورة النساء (الآية: ٧٧، ٧٨).
(٣) سورة النور (الآية: ٣٧).

فوصفهم بأن في أيديهم أموالاً يؤتون منها الزكاة لكن لم يلههم ذلك عن ذكر الله وعلى القيام بفرائضه لأن غيرها أكبر وأشرف منها في قلوبهم، وقال أيضاً في سورة أخرى: ﴿يَآ ءَايُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لاَ[1]/ تُلْهِكُمْ أَمْوَالُكُمْ وَلاَ أَوْلَادُكُمْ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ﴾[2]. [٢١٠/ أ]

يعني ألهته عن الزكاة: ﴿فَأُولَـٰئِكَ هُمُ ٱلْخَاسِرُونَ﴾[2] وصفهم بالخسران حين ألهاهم الحقير عن الشيء الخطير وهو ذكر العلي الكبير فهذا هو المذموم من الدنيا وهي رغبة القلب وحرصه وتعظيمه وإيثاره للأشياء على ما هو أفضل منها حتى تقطعه عما أُمر به ونُدب إليه.

والإحسان صنع ذلك بنفسه ولم تصنع الأشياء به ذلك بل هي نافعات للخلق غير مضرات إذا لم يضروا أنفسهم بإيثارها على ما هو خير منها.

وربما كان أخذ الدنيا واجباً على العبد فما يكون واجباً كيف يوصف بالذم على الجملة.

وإن الأنبياء والصديقين لم يتركوها بالكلية حين كان أخذها واجباً عليهم.

وكان رسول الله ﷺ يأكل ويشرب ويلبس ويركب ويسكن وينكح ويعطي ويمنع وكانت دنياه كلها محدودة.

ومن فهم شيئاً من دنياه أو غيرها من أموره وجب قِبله بلا شك فكل ما أعان على فرائض الله وطاعته من الدنيا فهو طاعة محمودة.

وقد تكلم أبو محمد سهل[3] في هذا العرض كله من الحكمة لم يترك فيها شيئاً من العدل لأنه كان سيداً في الحكماء ورأساً في/ الفضلاء والزهاد فقال: كل ما شغلك تركه عن [٢١٠/ ب] الله فأخذه فرض عليك.

فهذا كلام موزون بميزان العدل بريء من التعصب والميل والأنبياء كلهم والصديقون

---

(١) تكرر هذا اللفظ بآخر الصفحة [٢٠٩/ ب] وأول الصفحة [٢١٠/ أ].

(٢) سورة المنافقون (الآية: ٩).

(٣) هو أبو محمد سهل بن عبد الله بن يونس بن عيسى بن عبد الله بن رافع الصوفي الزاهد الشهير بالتستري ولد في سنة ٢٠٠، وقيل: سنة ٢٠٣ وتوفي سنة ٢٧٣، وقيل ٢٨٣ وقيل هو صاحب كرامات لقي ذا النون وكان له اجتهاد ورياضات وهو ورع سكن البصرة زماناً وعبدان مدة وكان سبب سلوكه خاله محمد بن سوار. وله كتب منها تفسير القرآن الكريم، قصص الأنبياء، رقائق المحبين، جوابات أهل اليقين، الغاية لأهل النهاية، مواعظ العارفين. وله تراجم في مواضع كثيرة منها: ديوان الإسلام بتحقيقي (١١١٦) طبقات الصوفية، طبقات الأولياء، سير أعلام النبلاء (١٣/ ٢١٠)، الأعلام (٣/ ١٤٣)، وغير ذلك كثير.

كلهم يحذرون من الدنيا ويذمونها ويزهدون فيها ومنها يأكلون ويلبسون وفيها يتصرفون لكن إنما يذمون ما يجب أن يذم وهو ما بعد المزيد عن ذكر الله وطاعته وصد عن طلب العلم النافع واكتساب الفضائل.

روى أبو هريرة [رضي الله عنه] قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «الدنيا ملعونة ملعون ما فيها إلا ذكر الله وما والاه»[1]. ولو أمر الخلق بترك الدنيا كلها على الجملة لهلكوا لأنهم لا قوام لهم إلا بها.

فإن قلت كيف تركها الأولياء بالكلية وهم أوتاد الأرض الذين يمشون على الماء ويسيرون في الهَواء؟

فما أعقلك عن فهم المعاني فإن هؤلاء هم الملوك على الحقيقة وغيرهم بالإضافة إليهم هم الفقراء والمساكين وإن ملكوا الدنيا بأسرها.

وانظر إلى حكاية الخضر مع موسى حين شكا إليه موسى [عليه السلام] الجوع فإذا بظبي بينهما نصفه مشوي مما يلي الخضر فأكل[2]/ الخضر شيئاً مفروغاً منه. [٢١٠/ أ]

فهذه هي الراحة الكبرى والملك العظيم في الدنيا.

ومنهم من تصير له الأرض ذهباً وفضة ولو قبله لكان خازناً بل يأخذ شيئاً مفروغاً منه.

وإلى هذا المعنى أشار أبو زيد في قوله: لا يصح زهده - يعني الزاهد - إلا على الكامل.

ثم قال فيمن يصح زهده: هو من يعطيهم «كُنْ» ويقدرهم على الأشياء، إلى آخر كلامه.

فلا يقولون لشيء كن إلا كان[3].

فما يصنع من هذه حاله يخزن المال الذي يلهي ويشغل فمنهم من يأخذ رزقه من الكون متى احتاج، ومنهم من جعلت الدنيا تخدمه، ومنهم من جعل رزقه على أيدي

(١) أخرجه ابن ماجة في السنن (٤١١٢)، الزبيدي في إتحاف السادة المتقين (٨/ ٨٠)، المنذري في الترغيب والترهيب (١/ ٩٨)، ابن الجوزي في العلل المتناهية (٢/ ٣١٢)، أبو نعيم في الحلية (٣/ ١٥٧).

(٢) جاءت هذه الكلمة مكررة بآخر الصفحة [٢١٠/ ب] وأول الصفحة [٢١١/ أ] كما تكرر من الشيخ غفر الله لنا وله هذه الزلات الشديدة في أكثر من موضع في هذا الكتاب من أقول لغلاة المتصوفة.

(٣) سبحان الله كيف استساغ لنفسه أن يقول مثل هذا الكلام وهو عالم جليل حريص على التوحيد منذ بداية كتابه وشديد على أهل البدع والأهواء فالله نسأل حسن الختام بالموت على دين الإسلام.

الخلق، ومنهم من يكون بيده من الكسب أو المال ما يعين ولا يشغل ولا يلهي بل هو سبب الطاعة.

وقد ورد في الصحيح عن نبينا ﷺ أنه خُيّر بين أن تكون له جبال الأرض ذهباً وفضة فأبى ذلك وبقي بحال الانفراد مع الله لأنه أُعطي «كُنْ»، فكان إذا أراد إظهار «كُنْ» يروي الجيش الكثير من الإناء الصغير، ويأتيهم الماء من بين أصابعه ويشبع الخلق الكثير من الطعام اليسير ويزودهم منه إلى غير ذلك.

وإنما/ هرب عليه الصلاة والسلام حين خير أن تكون له جبال الأرض ذهباً وفضة من [٢١١/ ب] الاشتغال ومن التكاثر الملهي فبقي بحال الانفراد وقطع ما خاف أن يقطعه كما رمى بالخميصة التي صلى فيها وكان لها علم فقال: «ألهتني عن صلاتي».

فاستحقر كل ما يلهي قل أو كثر حسن أو قبح وزهد فيه ورآه حقيراً في جنب ما اشتغل به لأن راحته كانت في الصلاة.

كذلك الزهاد الذين وجدوا لذة العلم وحلاوة العبادة والسرور بفعل شرائع الإسلام استحقروا في جنب ذلك النعيم كل ما ألهاهم عنه.

فصل

فأما المقام الثاني من الزهد مقام الإيمان: فإن العقل إذا نظر بنور الإيمان ونظر إلى الآخرة وفضلها على الدنيا وبقائها وفناء الدنيا وكبرها وصغر الدنيا وعظم أهوالها وعذابها وحسابها قاس ما بين قدر الدنيا والآخرة فإما خاف من العذاب والحساب والأهوال فزهد خوفاً من الآخرة واستحقر الدنيا كلها في أهوالها وعذابها.

وإما رجا الثواب العظيم والملك المقيم واستحقر الدنيا كلها في جنب ذلك، فرغب في الفاضل/ وزهد في الحقير المفضول. [٢١٢/ أ]

فعلى هذين القسمين انقسم الزهاد في هذا المقام وهم أبناء الآخرة الذين نظروا بالعقول الراجحة فقرنوا حسن الدنيا بحسن الآخرة، وشدائدها وأهوالها وعظائمها بشدائد الدنيا وأهوالها فوجدوا لذة روح الآخرة باليقين الإيماني فخاطبتهم الآخرة بلسان الحال والمقال فقالت: انظروا قدر ما بيني وبين تلك الصغيرة الحقيرة والذميمة القصيرة ففاقت[1] على الدنيا وثقلت عليها فكان معنى كلامها، أفّ، أفّ، أفّ لها ففني في حقهم الزعاف الدنيوي والملح البحراني بالحلو الأخروي والعذب الفراتي وأظهرت لهم كف الجذب

---

(١) في الأصل: فاقفت. وهو تحريف.

لتجذبهم إليها بالزهد فطمس من الدنيا في أعينهم جميع أنوارها وقبح حسنها وجمالها منظر الدنيا بأسرها فأبدت لهم شبابها المحدود، وبقاءها المخلد، وقالت: ليس عمري كعمر الدنيا المنكد ولا حسني كقبح منظرها المسود فهي الأمَة العجوز الشمطاء المشوهة الخلق السوداء السيئة الخلق النَّكد المتبرجة لمن مضى ولمن يأتي القليلة الحياء/ [٢١٢/ ب] الآبقة القاطعة عن طريق المولى.

وأنا الحرة الجارية العذراء الباقية الجمال الحسناء الحبرة الملاعبة العَيْناء العفيفة القاصرة المقصورة التي لا ترى.

فشتان ما بين الزوجين وكثير ما بين الشيئين فكأن كلامها هذا ثابتاً بصقاً وتفلاً على الدنيا فأعذب تفلها كل مالح وطيب حلاوته كل مُرّ فطاب نعيمهم ولم تساو الدنيا ذرة في أعينهم لأن نعيمها مالح وحلوها مُرّ زعاف.

وكذلك ورد في الأخبار: أن الحور لو تفلت في البحار المالحة لعذب ماؤها ولو أظهرت كفها لطمس نور الشمس والقمر. فافهم.

وهذا الذي عذب لهم من الدنيا إنما هو ما كان للّه وأعان على الآخرة، وكان ركاباً لها، فهي على هذا ثلاثة أشياء: فاضلة، وهي الآخرة. وأمَة خادمة لها ولزوجها الزاهد وهي الدنيا المحمودة الخادمة للحرة الفاضلة تخدم حتى تصل الزاهد إلى الآخرة. والثالث هي الدنيا المذمومة الملهية التي تقدم ذكرها وتشويه خلقتها المزهود فيها.

فمن كان من أهل الآخرة خدمته الدنيا الأمَة المحمودة، وكانت ركاباً له والركاب هو المركوب وكل مركوب خادم وعبد تحت/ [٢١٣/ أ] الراكب له المخدوم.

• وكذلك ورد في الخبر: «الدنيا ركاب الآخرة». حتى تصل المخدوم إلى سيدتها الحرة الفاضلة. فافهم.

وهذه مشاهدة أبناء الآخرة.

فمن كان منهم كان للآخرة عاشقاً وبها وامقاً وللدنيا الملهية رافضاً ولها إذا شغلته راكضاً.

قال الله عز وجل: ﴿كَلَّا بَلْ تُحِبُّونَ ٱلْعَاجِلَةَ وَتَذَرُونَ ٱلْآخِرَةَ﴾[1].

ومن لم يكن من أبناء الآخرة وكان من أبناء الدنيا وخطابها العاشقين لمذمومها كان وراءها جارياً وقلبه من الآخرة خالياً ولسيده ومولاه ناسياً فتجلت لهم محاسن الدنيا

---

(١) سورة القيامة (الآية: ٢٠، ٢١).

المزخرفة فاستحسنوها كل الاستحسان فعظموها حتى خَرَّجَت من قلوبهم هيبة الإيمان.

قال النبي ﷺ: «إذا عَظَّمَت أمتي الدينار والدرهم نزع منها هيبة الإيمان»(١).

فهم في طلبها مشمرون وهي متعبة لهم كالمرأة السوء إذا علمت أن الرجل محبها أتعبته وأعرضت عنه وهو راغب لها وماشٍ في أثرها يتمنى أن تقبل عليه فينال مراده منها فكلما زاد بها كلفاً زادت عليه صعوبة وولت ظهرها لأن غرضها أن يزيد في حبها وطلبها والكلف بها فهو أبداً جارٍ وراءها لأنه لم يشبع/ منها. [٢١٣/ ب]

وقد ورد في الخبر: «لا تنكحوا النساء في أدبارهن»، و «من أصبح وهمه الآخرة جمع الله عليه شمله وجعل غناه في قلبه وأتته الدنيا وهي راغمة»(٢). أي الدنيا المحمودة.

جعلنا الله وإياكم من الفائزين برحمته آمين.

وصلى الله على سيدنا محمد وآله.

فصـــل

وأما المقام الثالث من الزهد في مقام الإحسان: فإن العبد إذا نظر إلى الخالق والمخلوق كائناً ما كان وغلبت عليه بكورة الروحانية واستولت عليه معارف العلوم الربانية واستعدته محاسن المعاني الإلاهية فأدرك فضل ما بين الخالق والمخلوق والمولى والعبد والقادر والعاجز، والقوي والضعيف، والغني عن كل شيء والفقير إلى كل شيء، والكبير الجليل، والنزر الحقير، والحق الذي لا يبطل أبداً، والباطل الذي يتطرق إليه الفناء دائماً سرمداً، والأول الآخر الظاهر الباطن الذي لا يتقيد بالحدود الزمانية والمكانية، والمحبوس المتحيز المقيد بأنواع الحدود الحابسة له في الأمامية والورانية والفوقية والتحتية والحرية والعبدية، الغالب القاهر فوق عباده، والمقهور المغلوب على مراده وغير مراده.

فعند/ ذلك تجلب معاني انفراد الواجد إليه عن المثل والنظير والمعين والوزير والقليل [٢١٤/ أ] والكثير واستيلائه على الممالك أجمع وكيف انقادت له واعترفت بين يديه مقرة بالخضوع متذللة بالخشوع فعظم العقل ما اجتمع الكل على تعظيمه وحقر في جنبه ما اجتمع الكل على تحقيره بالإضافة إليه فلم يعول على شيء إلا عليه.

فالعقول في هذا المقام تستحقر جميع ما في الجنان عند نظرة واحدة ينظرون إلى

---

(١) أورده الزبيدي في إتحاف السادة المتقين (٤/ ٥١٥)، العجلوني في كشف الخفا (١/ ١١٢)، السيوطي في الدر المنثور (/ ٣٠٢)، المتقي الهندي في كنز العمال (٦٠٧٠).

(٢) أورده الزبيدي في إتحاف السادة المتقين (٩/ ٢٣٥).

أسمائه الحسنى أو فهم آيه وسمع كلامه، وكلامه القرآن المفرق بين الحق والباطل والغامض والمشكل في جميع الأكوان وعم نوره وهداه أنواع الحدثان.

فإذا كان جميع الخلائق بكلمة واحدة يكلمهم وبنظرة واحدة إلى لمعة من سبحات أنواره إذا تجلت يهتدون ويبصرون فقد جمعت بالكلمة والنظرة جميع ما تفرق في الأكوان من أنواع النعيم وبقي فضل ما بين الوجه الكريم والكلام الحكيم على مستهبات جنات النعيم.

فوجدوا في سوى معروفهم فأجلّ غذاء عندهم ذكر الله تعالى وأحلى شرابهم لذيذ محبة الله وأجمل لباس يلبسونه ما يحليهم به وما يخلع عليهم من الاتصاف والتخلق بمعاني صفات الله/ [٢١٤/ ب] وأجل مسكن عندهم الغور في الكهوف الغنية به عن من سواه وأجل مركوب عندهم الهمم الرفيعة الجارية على طريق القصد إليه، مجالسهم مقاعد الصدق، ومنازلهم روضات الأنس، بالحق قد ظفروا بموجود ليس وراءه مطلوب وشبعوا به فلم يبق لهم مرغوب.

فهذا هو الزهد الكامل المتناهي لأن به تنقطع الرغبة وتنتهي الأماني فيزول فقرهم وتنعدم حاجتهم فإن ردهم على الأغيار فإنما ذلك لقضاء الحقوق والأوطار حقوق المماليك والسادات[١] الأحرار فيعلمون أن في تنفيذ أمره رضاه، فنعيمهم في الحالتين وهو نعيم النظر له ونعيم الرضى به وعنه.

من ذلك روايتان ومشاهدتان:

إحداهما: نعيم الرؤية بما تجلى منه لهم.

والثانية: نعيم ما أخفى في نفسه عنهم لأنه إذا أمرهم علموا ما يرضاه مما خفي في نفسه عنهم لأنه كان ذلك إدراكاً لما أخفى في نفسه وغيبه عنهم فهم يرونه ظاهراً وباطناً.

فهذا حقيقة الزهد وفيه انتهاء الأمنية والرغبة بالغوص العظيم الذي لا يقدره إلاّ الله، ويكون ما سواه في جنبه كلا شيء:

ألا كل شيء ما خلا الله باطل وكل نعيم لا محالة زائل

/ [٢١٥/ أ] حقيقة: قال الله عز وجل: : ﴿وَسِيقَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْاْ رَبَّهُمْ إِلَى ٱلْجَنَّةِ زُمَرًا﴾[٢]. وقال أيضاً: ﴿وَسِيقَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِلَىٰ جَهَنَّمَ زُمَرًا﴾[٢]. والزمرة: الفوج والقطعة من الناس وجمعها زمر.

(١) في الأصل: السيدات. وهو تحريف.
(٢) سورة الزمر (الآية: ٧٣).

ومعنى الآية: أن الناس يدخلون الجنة والنار زمرة بعد زمرة بترتيب وتدريج على قدر رتبهم في درجات القرب من الله وبعدهم منه بالتقوى وضده.

فأول زمرة تدخل الجنة أعلاهم فيها درجة.

وأول زمرة تدخل النار أسفلهم فيها دركاً.

والزمرة الثانية بعد الأولى تحتها في الجنة لأهل الجنة وفوقها في النار لأهل النار.

هكذا في الترتيب حتى يكون آخر من يدخل الجنة في أدنى درجة من الجنة، وآخر من يدخل النار في أعلى درك من النار.

فصـــل

قال الله عز وجل: ﴿وَسِيقَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْاْ رَبَّهُمْ إِلَى ٱلْجَنَّةِ﴾[1] الآية. فأقرب الخلق إلى الله المتقون: ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَاكُمْ﴾[2].

وقوله: اتقى على وزن افتعل يدل على تفاوت منازلهم في التقوى على عدد الحساب لأن معنى اتقى أي اتقى فاتقى، فأكثرهم تقوى في أعلى درجة في الجنة، وأقلهم تقوى في أدنى درجة من الجنة،وأكثرهم تقوى الذي اتقى الشرك الجلي والخفي الآية؛ظاهره وباطنه.

واتقى الدنيا مخافة أن تقطعه، واتقى ربه مخافة أن يفوته فقطع جميع العلائق دونه.

وهؤلاء هم الفقراء الزاهدون الصالحون.

قال الله عز وجل: ﴿أُوْلَـٰٓئِكَ يُجْزَوْنَ ٱلْغُرْفَةَ بِمَا صَبَرُواْ﴾[1].

أي صبروا على درجة الإمامة/ التي طلبوها في قولهم: ﴿وَٱجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا﴾[3] [٢١٥/ ب] وهي درجة الصبر على التقوى لأنه لا يكون إماماً للمتقين يقتدى بأفعاله وأحواله إلا التقيّ الذي يتقي به غيره من المتقين الذين ائتموا به وقال الله عز وجل: ﴿وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُواْ وَكَانُواْ بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ﴾[4].

وأهل الثقة بالله والدار الآخرة والصبر على التقوى هم الذين اتقوا الدنيا، وصبروا على الفقر والزهد في الدنيا لأن حبها رأس كل خطيئة.

---

(١) سورة الزمر (الآية: ٧٣).

(٢) سورة الحجرات (الآية: ١٣).

(٣) سورة الفرقان (الآية: ٧٥).

(٤) سورة السجدة (الآية: ٢٤).

وفي الخبر: «اتقوا الدنيا واتقوا النساء»[١].

وفي الخبر: «لا يكون العبد من المتقين حتى يدع ما لا بأس به حذراً مما به البأس».

وهذه صورة الحذر من الدنيا وصورة الورع والزاهدين فيها.

وفي الخبر: «الفقراء الصُّبر جلساء الله».

فهذه أول زمرة، والمساكين في الغرفة المذكورة في آية الفرقان.

والغرفة في لسان العرب: العليّة، والعلية من مساكن عليين، وعليون لأولي الألباب.

وفي الخبر: «إن الفقراء يدخلون الجنة قبل الأغنياء بخمسمائة عام» و «بأربعين خريفاً».

وهذا التفاوت بين الخمسمائة سنة وبأربعين[٢] من أجل أن الفقراء لا يستون في الزهد والصبر فأعلاهم درجة الذين يدخلون الجنة قبل الأغنياء بخمس مائة سنة ثم الذين يلونهم/ في الفضل حتى يكون آخرهم زمرة الذين يدخلون قبل الأغنياء بأربعين خريفاً. [٢١٦/ أ]

ثم يدخل فضلاء الأغنياء بعد المتأخرين من فضلاء الفقراء فتكون درجة فضلاء الأغنياء بعد المتأخرين من فضلاء الفقراء.

فتكون درجة فضلاء الأغنياء في الجنة تحت درجة المتأخرين من فضلاء الفقراء ثم تترتب درجات الأغنياء في الدخول زمرة بعد زمرة على قدر تقواهم في غناهم وقلة أموالهم الكثير المال القليل التقوى يكون أبداً تحت الذي هو أكثر منه تقوى في ماله وأقل مالاً، حتى يكون أقلهم تقوى في ماله وأكثرهم في أدنى درجة في الجنة.

ومصداق ما أوضحناه قول رسول الله ﷺ: «المكثرون هم الأسفلون إلاّ». قالوا: يا رسول الله: إلاّ من؟ قال: «المكثرون هم الأسفلون إلاّ». قالوا: يا رسول الله إلاّ من؟ قال: «المكثرون هم الأسفلون». حتى والله خشينا أن تكون واجبة لكل مكثر. قال رسول الله ﷺ: «إلا من قال بالمال هكذا وهكذا» أربع مرات «بالليل والنهار وقليل ما هم»[٣].

---

(١) أخرجه مسلم في الصحيح (٤/٢٠٩٨)، أحمد في المسند (٣/١٩)، ابن ماجة في السنن (٤٠٠٠)، البيهقي في السنن الكبرى (٧/ ٩١)، العجلوني في كشف الخفا (١/ ٣٩).

(٢) عبارة: وهذا التفاوت بين الخمسمائة سنة وبأربعين. مكررة بالأصل، فحذفت التكرار.

(٣) أخرجه أحمد في المسند (٢/٤٢٨)، الزبيدي في إتحاف السادة المتقين (٨/ ٢١٥)، ابن عدي في الكامل (٦/ ٢١٠١)، الشجري في الأمالي (٢/ ١٥٩)، المتقي الهندي في كنز العمال (٢/ ١٥٩).

وهذا المستثنى الذي قاله رسول الله ﷺ إنما استثناه بعد التوكيد ثلاث مرات لقلته.

والاستثناء في العربية: إخراج قليل من كثير.

والإشارة به إلى فضلاء الصحابة الذين كان بأيديهم فضل مال/ حلال ومن أشبههم إن [٢١٦/ ب] وجد وكانوا أهل إنفاق في سبيل الله الخير من كل جهة عن يمين وشمال وأمام ووراء كما وصف النبي ﷺ في قوله: «هكذا، وهكذا» أربع مرات أي في[1] كل جهة من جهات الخير.

ولولا ذلك ما خرج أحد منهم بالاستثناء من الأكثرين والحكمة في ذلك أن السخاء بالمال وإخراجه من اليد في طرق الخير فقر منه وفقد له فإذا فقده من يده وأخرجه منها افتقر منه، وإذا كان ذلك فقد تشبه بالفقراء لأن الفقر فقد المال وخلوه من اليد. «ومن تشبه بقوم فهو منهم»[2].

فهذا يبين لك فضل الفقر على الغنى لمن أنصف، وفضل الزاهدين على غيرهم وفضل درجاتهم عند الله بأن[3] قال الله عز وجل: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّابِرِينَ﴾[4]، [وقال][5]: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوا وَّٱلَّذِينَ هُم مُّحْسِنُونَ﴾[6].

ومثله كثير، فهذه المعية هي مجالسة الحق في مقعد الصدق حالاً في الدنيا ومآلاً في العقبى.

فأما الحال في الدنيا: فقد ورد في الخبر: «الفقراء جلساء الله» وإنما كانوا جلساؤه لأنهم طلبوه وقطعوا العلائق دونه بالصبر والزهد، فانكشفت عن قلوبهم حجب الإكثار وتدينوا لمولاهم بالإجلال له والإكبار فكان ثواب تركهم للدنيا وصبرهم/ على فقرهم فيها [٢١٧/ أ] الجلوس مع الله والنظر في المعية الإحسانية مع الله والعلم بالله، لأن قلوبهم خالية من الحجب الحاجبة.

وهذا لا تجده في الدنيا سواهم لأن غيرهم محجوبون بالدنيا وقلوبهم مشحونة بالأغيار ومحجوبة بالشهوات والأوطار.

---

(١) عبارة: أي في. مكررة فحذفت التكرار.

(٢) أخرجه: أبو داود في السنن (٤٠٣١)، أحمد في المسند (٢/ ٥٠)، ابن أبي شيبة في المصنف (٥/ ٣١٣)، الزيلعي في نصب الراية (٤/ ٣٤٧)، الهيثمي في مجمع الزوائد (١٠/ ٢٧١)، ابن حجر في الفتح (١٠/ ٢٧٤)، الشوكاني في الأحاديث الضعيفة والموضوعة (٢٥٣).

(٣) في الأصل: بيان. وهو تحريف.

(٤) سورة البقرة (الآية: ١٥٣).

(٥) زيادة للفصل بين الآيات.

(٦) سورة النحل (الآية: ١٢٨).

فإن نظروا إلى الله ورفعوا أبصارهم إليه بالرغبة والطلب منه فإنما ينظرون إليه في أفعاله ويستدلون ـ أعني الأكابر منهم ـ عليه بمخلوقاته فهم بين الأسباب ومع الحجاب أبداً لم يذوقوا شيئاً من أحوال أهل التجريد الذين[١] وجدوا الله بالوجدان[٢] والوجود والغيبة والشهود من غير تكييف ولا تحديد، وقال قائلهم:

لو كنت من أهل الوجود حقيقة ... لغبت عن الأكوان والعرش والكرسي
وكنت بلا حالٍ مع الله واقفاً ... تصان عن التذكار للجن والإنس

فهذه[٣] أبواب خروجهم من الدنيا وفقدهم للأشياء في الحال، وأما في العقبى، فإن الله يقول: ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَاكُمْ﴾[٤].

لما يقطعهم ويحجبهم عنه، والكريم على الله هو الرفيع القدر عنده الوجيه لديه.

ودرجة الجاه عند الله وكريم المنزلة لديه هي درجات أهل عليين أهل الشفاعة والمنزلة والعناية والقرب والكرامة، درجات الرتبة والمكانة والحظوة[٥] والعناية، ولا رتبة/ [٢١٧/ ب] فوق العناية فهم أهل عليين أبد الآبدين، ودهر الداهرين. فافهم.

وأما دركات أهل النار فإنهم بالضد من هؤلاء المذكورين أكثرهم مضاد للتقوى وأكثرهم مالاً أسفلهم دركاً وأشدهم عذاباً: ﴿أَدْخِلُوٓاْ ءَالَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ ٱلْعَذَابِ﴾[٦].

وأقلهم مضادة للتقوى وأقلهم مالاً أعلاهم دركاً في النار وأخفهم عذاباً.

قال الله عز وجل: ﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ خَيْرٌ لِّأَنفُسِهِمْ إِنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ لِيَزْدَادُوٓاْ إِثْماً﴾[٧].

وفي الخبر عن النبي ﷺ: «أول من يقرع باب الجنة من أمتي فقراؤهم، وأكثر أهل الجنة من أمتي ضعفاؤهم، وشرار أمتي وأول من يساق إلى النار الأقماع».

قيل: يا رسول الله وما الأقماع؟ قال: «الذين إذا أكلوا لم يشبعوا وإن جمعوا لم يستغنوا»[٨].

---

(١) في الأصل: الذي. وهو تحريف.
(٢) في الأصل: الوجد. وما أثبته هو الموافق للسياق.
(٣) في الأصل: فهد. وهو سهو.
(٤) سورة الحجرات (الآية: ١٣).
(٥) في الأصل: الحظر. وهو تحريف.
(٦) سورة غافر (الآية: ٤٦).
(٧) سورة آل عمران (الآية: ١٧٨).
(٨) أخرج نحوه أحمد في المسند (١/ ٤)، أبو نعيم في الحلية (٣/ ٤٩)، الزبيدي في إتحاف السادة المتقين (٦/ ٣٢٣)، ابن الجوزي في العلل المتناهية (٢/ ٢٦٤).

الشعبة الخامسة والأربعون: التوكـل

أما كونه من شعب الإيمان فبيّن لأنه في نفسه تصديق بالمتوكل فيه عليه، ولأن الله عز وجل شرط الإيمان والإسلام بوجوده فقال: ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ فَتَوَكَّلُوٓاْ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ﴾[1] [وقال][2]: ﴿فَعَلَيۡهِ تَوَكَّلُوٓاْ/ إِن كُنتُم مُّسۡلِمِينَ﴾[3]. [٢١٨/ أ]

وقال لقمان لابنه: يا بني ومن الإيمان بالله التوكل على الله.

وقال بعض الصحابة: التوكل في مقام[4] التوحيد وجماع الإيمان.

وقال أبو محمد سهل: من طعن في التوكل فقد طعن في الإيمان.

والشواهد عليه من القرآن والسنة كثيرة يطول سوقها.

إلاّ أن منه ما هو فرض، وفضل. فالفرض واجب على جميع الخلق وهو: ما لا يصح الإيمان إلاّ به.

والفضل به يكمل الإيمان.

فصـــل

اعلم أن مقام التوكل ينتظم من أربعة أشياء:

متوكل وهو العبد.

وتوكل وهو حال العبد.

ومتوكل فيه وهو ما ينال العبد ويلحقه من جميع الأشياء.

ومتوكل عليه وهو الله.

فأما حد التوكل ومعناه فإنه يعلم من وجهين: أحدهما من جهة الحق، والآخر من جهة الخلق.

فأما الذي من جهة الحق: فهو قطع السكون والركون إلى الأشخاص والأسباب لعلمه بأنها لا تضر ولا تنفع، ولا تعطي ولا تمنع.

وأما الذي من جهة الخلق: وهو السكون والركون والتوكل على الحق لعلمه أنه مُدبّر

(١) سورة المائدة (الآية: ٢٣).
(٢) ما بين المعقوفين زيادة للفصل بين الآيات.
(٣) سورة يونس (الآية: ٨٤).
(٤) في الأصل: نظام. وهو تحريف.

الأمور، والمفوض إليه مقاليد الملك كله.

فافهم هذين المعنيين فإنهما جامعان لمعاني التوكل كله لا يشذ منه شيء.

ولفظة التوكل التي هي: التاء، والواو، والكاف، واللام. تعطي معاني التوكل كلها لمن تدبرها. لأن لفظة التوكل تعطي معنيين/ [٢١٨/ ب] وهما: توكل على وزن تفعل في المضاعف، وتَوَكْكُل على وزن تفعلل في الأصل.

ففي لفظه كافان ساكنة وأخرى متحركة، فنصف الكلمة التي هي «توك» يعطي معنى التوكي على الحق، والتوكي هو: الاعتماد والسكون والتفويض وغير ذلك.

وإذا توكأ واعتمد عليه فقد قطع الاعتماد والتولي على ما سواه.

ونصف الكلمة الذي هو «كل» يعطي أيضاً معنى الوكالة وهو أن يَكِل الأمور إلى موكلها الناظر فيها كأنه قال: تَوَكَّ على الحق وكل تدبير الملك كله إليه. فافهم.

فصـــل

فإذا فهمت ما تقدم فاعلم أن التوكل على ثلاثة أقسام كسائر المقامات الثلاث: الإسلام، والإيمان، والإحسان، والذوات الثلاث: الجسم، والنفس، والروح.

لأن التوكل يدخل في جميع الأشياء من أمور الدنيا والآخرة والربوبية.

فأما المقام الأول الظاهر في عالم الحس ومقام الإسلام: فإن الأمور في الظاهر شيئان: دينية، دنيوية.

والتوكل فيها يكون بسبب وغير سبب.

فالدينية: تتوكل عليه في أن يعطيك العون على القيام بالأمر والنهي، وأن يصلح أعمالك وينقيها وبصرفك عن المنهي/ [٢١٩/ أ] ولا[1] يبتليك به فإنه لا حول ولا قوة إلاّ به مع التسبب لاقتناء الخير واجتناب الشر لأن ذلك عمل لا ينوب فيه عنك غيرك.

وأما الدنيوية فإنها على ثلاثة أضرب: الضرب الأول: وهو التلبس بالأسباب في جلب منفعة أو دفع مضرة فتتوكل عليه في جلب الرزق والمنافع وتوصيلها إليك بيدك أو بيد غيرك حتى في رفع اللقمة إلى فيك وإعطاء القوة لرفعها وفي تهيئة معدتك وأعضائك لقبولها حتى تتهنأ العيش ويصل النفع إليك وتتوكل عليه في دفع الأسقام والآلام بتداوٍ وغير تداوٍ، وفي

---

(١) جاءت في الأصل مكررة بآخر الصفحة [٢١٨/ ب] وأول الصفحة [٢١٩/ أ] فحذفت التكرار.

دفع السرق عنك بغلق أو غير غلق، وفي دفع المكاره والمضرات كلها عنك وعن أشياء بك، ومالك، وفي حفظ جميع أحوالك بسبب وغير سبب.

فإن أسباب الدنيا تأتي بسبب وبغير سبب فيعتقد المكتسب والمتداوي، والحارز لماله، والغالق بيته، والمكتسب في جميع أموره أن الكسب لا يجلب إليه رزقاً، بل الكسب سبب، والرزاق هو الله، والطبيب، والدواء سبب، والشافي هو الله، والغلق سبب، والحفظ سبب، والحفيظ هو الله، لا الملاح، ولا الريس الحاذق ينجي من الغرق، ولا الريح، ولا السفينة، ولا الألواح، ولا الكلب النابح/ ولا شيء من الأسباب. [٢١٩/ ب]

فإن خلا قلب عبد من هذه الاعتقادات [أو][1] نطق فقال: لولا كسبي وكلبي ومالي والطبيب، والملاح الفلاني هلكنا وضررنا فذلك شرك وطعن في الإيمان يجب الاستغفار منه والرجوع إلى عقد الإيمان، واعتقاد التوكل.

وهذه المنزلة الأولى من التوكل علامة صحة توكل المتسبب فيه المتحقق في طلب الحلال.

وأما الضرب الثاني من هذا المقام الظاهر: فهو الخروج عن الأسباب وتركها والاعتماد على الله بلا سبب انتظاراً لما يفعل الله.

وهذا المقام لأهل القوة وليس بفرض وإنما هو فضيلة يختص بها أهل العزة بالله: ﴿وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَإِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾[2].

وفي هذا المقام الأنبياء والصديقون [و][3]الأولياء.

وأهل هذا المقام هم الذين يدخلون الجنة[4] بغير حساب.

عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «يدخل من أمتي الجنة سبعون ألفاً تُضيء وجوههم إضاءة القمر ليلة البدر بغير حساب».

قيل من هم يا رسول الله؟ قال: «هم الذين لا يكتوون، ولا يسترقون، وعلى ربهم يتوكلون». الحديث إلى آخره.

ورواه ابن عباس من طريق آخر، ورواه سهل بن سعد/ أيضاً وفيه زيادة. [٢٢٠/ أ]

---

(١) زيادة يتطلبها السياق.

(٢) سورة الأنفال (الآية: ٤٩).

(٣) زيادة يقتضيها السياق.

(٤) جاءت العبارة على النحو التالي: يدخلون أهل الجنة ولفظ: أهل زائد على السياق فحذفته.

عن سهل بن سعد أن رسول الله ﷺ قال: «ليدخلن الجنة من أمتي سبعون ألفاً أو سبعمائة ألف متماسكون آخذ بعضهم بعضاً لا يدخل أولهم حتى يدخل آخرهم ووجوههم على صورة القمر ليلة البدر»[1].

و «أو» في قوله: «أو سبعمائة ألف» تكون بمعنى الواو لأن رسول الله ﷺ لا يحدث بالشك، فيكون معنى الحديث ليدخلن الجنة من أمتي سبعون ألف وسبعمائة ألف.

و «أو» بمعنى الواو في كلام العرب كثير ومنه قوله عز وجل: ﴿وَأَرْسَلْنَاهُ إِلَىٰ مِائَةِ أَلْفٍ أَوْ يَزِيدُونَ﴾[2] معناه ويزيدون. وقوله: ﴿فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَىٰ﴾[3] معناه وأدنى لأن الله سبحانه لا يشك عز عن ذلك وجل.

وفي هذا المقام قيل لأبي بكر: ألا ندعو لك طبيباً؟ فقال: الطبيب أمرضني.

وقد أدخل الله في هذا المقام المهاجرين وأصحاب رسول الله ﷺ أخرجهم من مكة من ديارهم وأموالهم فبقوا مع الله بلا سبب ناظرين إلى ما يجري عليهم.

وكذلك كل من هاجر إليه وترك أهله وماله من سائر الأقطار وخرج بغير شيء.

وفي هذا المقام تظهر صحة التوكل وصدقه من سفهه وكذبه.

وقد يكون في الفيافي والقفار.

[٢٢٠/ ب] فمن الأولياء من خرج عن/ الأمصار وقطع الأسباب كلها فيخرجون بغير زاد ويسكنون التيه والجبال وسواحل البحر.

وهذا لا يَحِلّهُ إلا صديق عظيم ووليٌّ كريم، ولا ينبغي لأحد أن يتعاطاه إلا أن يدخل عليه بغير اختيار ويكون من أهل القوة فيطرح الكل ويُلقي على الله الكل.

ومنهم من يكون في البلاد ومع أبناء الجنس وهم الأكثرون ولا يضرهم ذلك إذا كانوا صادقين فإن الله مُسخر الخلق أجمعين وهو حال أهل الصفة[4] وغيرهم وحال المصطفى

---

(١) أخرجه البخاري في الصحيح (٨/ ١٢٤)، مسلم في الصحيح (الإيمان ٣٧١)، البيهقي في السنن الكبرى (٩/ ٣٤١)، أحمد في المسند (١/ ٣٢١)، أبو عوانة في المسند (١/ ١٤٠)، الطبراني في الكبير (٦/ ٦٤)، ابن حجر في الفتح (١١/ ٣٠٥)، ابن كثير في البداية والنهاية (٦/ ٢٢٧).

(٢) سورة الصافات (الآية: ١٤٧). (٣) سورة النجم (الآية: ٩).

(٤) أهل الصفة: هم جماعة من فقراء الصحابة كانوا يجلسون بآخر المسجد انتظاراً للصدقة حتى يفرج الله عنهم ما هم فيه من الفقر وكانوا يزيدون وينقصون حسب حال كل منهم فمن وسع الله عليه انصرف إلى العمل الذي وسع الله به عليه ولم يكن لهم فضل على غيرهم.

والنبيين كانوا مع الخلق وهم في مقام التوكل مع الحق.

وهذه المنزلة الثانية من التوكل علامة صحة توكل التارك فيه لسبب[1] التحقق في إخلاص اليقين.

وأما الضرب الثالث في المقام الظاهر: فهو الرجوع إلى الأسباب بعد الخروج منها كما ذكرنا آنفاً.

يرجعهم الله إلى الأسباب بعد الخروج منها كي يستوي حالهم في أخذ السبب وتركه ولا يشاهدون في الحالين إلاّ الله.

وقد درج فيه الصحابة الكرام والتابعون الأعلام فكانوا يكتسبون، ويتطيبون، ويغلقون بيوتهم ولا يشاهدون إلا الرزاق الشافي الحفيظ أدخلهم الله في الأسباب قدوة يقتدى بهم ورحمة بنا وبالضعفاء أمثالنا فقد كان سفيان الثوري، وإبراهيم بن أدهم من كبار المتوكلين/ [٢٢١/] وكانوا يحصدون ويحفظون البساتين.

وكان من الأولياء المتوكلين صناع وتجار وغير ذلك إلا أنهم مشاهدون يد الوكيل واقفون بقلوبهم مع الجليل ينظرون تدبيره ويشاهدون تقديره لعلمهم أنه قد فرغ من الأمور فهو ينفذها ويسوقها في أوقاتها إلى أهلها من إعطاء أو منع أو نفع أو ضر وهكذا ينبغي أن يكون المتوكل لا يتوكل ليعمل له مراده ويصنع له اختياره إنما يتوكل ليفعل الله ما يشاء ويحكم.

وإلى هذا أشار أبو زيد حين حَدّد التوكل فقال كلاماً كثيراً معناه أن التوكل هو ترك التمييز لبعض الأمور دون بعض.

فقد أقيم المتوكلون في هذا المقام على ضربين:

فمنهم من حُفظ وكُفي وسَلِمَ وأُعطي مراده.

ومنهم من قتل وضرب وأُهلك وأُميت جوعاً كيحيى عليه السلام نشر بالمنشار. وضرب محمد ﷺ وأُدمي.

ومن الأنبياء من مات بالجوع والقُمل(*)، ومن الأولياء كذلك ﴿وَكَأَيِّن مِّن نَّبِيٍّ قَاتَلَ

(١) في الأصل: للسبب. وهو تحريف.

(*) من المعلوم ان الأنبياء معصومون ومنزهون عن النقائص فهذا قول غير صحيح ولا يليق أن يوصف به نبي من أنبيائه سبحانه وتعالى.

مَعَهُ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ﴾(١).

والكل متوكلون قائمون بأحكام التوكل وذلك الفعل بهم زائد في كراماتهم ومظهر لمكانتهم ومن حفظ وكفي كالنبي عليه الصلاة والسلام وقف على رأسه رجل من الكفار والسيف في يده والنبي [ﷺ] نائم تحت شجرة على خلوة ففتح عينيه فقال له الرجل: أتخافني؟ قال: «لا». فقال: من يمنعك مني؟ فقال: «الله». فارتعدت يده بالسيف ولم [٢٢١/ ب] يصنع/ شيئاً. ثم ولى الرجل.

وكإبراهيم عليه السلام حين عرض له جبريل في كفته المنجنيق فجاءه السبب للنجاة وهو جبريل عليه السلام فقال له: ألك حاجة؟ فقال: أما إليك فلا. فكفاه الله وجعل النار عليه برداً وسلاماً.

وكهود عليه السلام حين أغرى قومه وحرضهم على إهلاكه بقوة التوكل فقال: ﴿فَكِيدُونِي جَمِيعاً ثُمَّ لاَ تُنظِرُونِ * إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى ٱللَّهِ﴾(٢). فعوفي ولم يقدروا له بشيء لأن الوكيل كفاه حين لم يشاهد إلاّ يد الوكيل قابضة على نواصيهم.

ألا تراه كيف قال: ﴿مَّا مِن دَابَّةٍ إِلاَّ هُوَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا﴾(٣). كأنه قال لهم وأنتم من جملة الدواب لا تتحركون إلا بتحريكه ولا تسكنون إلا بتسكينه.

وبمثل هذا خاطب نوح [عليه السلام] قومه حين أظهر عليهم قوة توكله فقال: ﴿إِن كَانَ كَبُرَ عَلَيْكُم مَّقَامِي وَتَذْكِيرِي بِآيَاتِ ٱللَّهِ فَعَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلْتُ﴾(٤). فلما أظهر لهم توكله أغراهم وأغضبهم فذكر آلهتهم فقال: ﴿فَأَجْمِعُوٓاْ أَمْرَكُمْ وَشُرَكَآءَكُمْ ثُمَّ لاَ يَكُنْ أَمْرُكُمْ عَلَيْكُمْ غُمَّةً ثُمَّ ٱقْضُوٓاْ إِلَيَّ وَلاَ تُنظِرُونِ﴾(١). فما استطاعوا قتله ولا تعجيزه.

وفي هذا المقام سخرت للأنبياء والأولياء السباع، والهوام ولم يهابوها بل هابتهم [٢٢٢/ أ] لأنهم لا يشاهدون إلا المسبب في/ الأسباب كانت بيد الغير أو بأيديهم كما قال تعالى: ﴿قَاتِلُوهُمْ يُعَذِّبْهُمُ ٱللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ﴾(٥).

فاعلم أن الأيدي والأسباب بيده كالآلة بيد الصانع إن شاء أمضى وإن شاء صرف.

فمنهم من يُكفى ومنهم من لا يُكفى، ومنهم من يُشفى من مرضه، ومنهم من لا يشفى فاستوى عندهم كون السبب وعدمه.

---

(١) سورة آل عمران (الآية: ١٤٦).
(٢) سورة هود (الآية: ٥٥، ٥٦).
(٣) سورة هود (الآية: ٥٥).
(٤) سورة يونس (الآية: ٧١).
(٥) سورة التوبة (الآية: ١٤).

وهذا هو التوكل الظاهر في مقام الإسلام.

فصـــل

اعلم أن عقد التوكل وربطه تصحيح اليقين وصحة النفس أن يعلم العبد علم يقين أن الله قدر المقادير وأنفذ الحكم والتدبير فلا يرد ما قدر ولا بدّ مما حكم به ودبر.

وأن الله جل جلاله وتقدست أسماؤه جعل لكل أحد من خلقه رزقاً معلوماً مكيلاً موزوناً مسمى باسم صاحبه لا يتعداه ولا يرجع أبداً إلى سواه، ثم فصَّله في تنفيذ المقادير كما قدره قبل تنفيذه فجراه على السنين لا يدخل رزق سنة على سنة أخرى ولا الشهور فلا يدخل رزق شهر على شهر آخر، وعلى الجمع لا يدخل رزق جمعة على جمعة أخرى، ثم على الأيام لا يدخل رزق يوم على يوم آخر، ثم على الساعات لا يدخل رزق ساعة على ساعة أخرى، ثم على الأنفاس لا يدخل رزق نفس على نفس آخر منذ خلق الله العبد وخرج إلى الدنيا وعند أول سقوطه من البطن إلى آخر نفس تخرج من الجسد الروح، ولذلك قال الله عز وجل: / ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِي خَلَقَكُمْ ثُمَّ رَزَقَكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ﴾[1]. [٢٢٢/ د]

فجعل الرزق بين بدء الخلقة ونزول الموت فكل رزق قدر للعبد عند سقوطه من بطن أمه لا يأخذه في النفس الذي بعده ولا في الساعة التي بعد تلك الساعة ولا في اليوم الذي بعد ذلك اليوم ولا في الجمعة التي بعد تلك الجمعة، ولا في الشهر الذي بعد ذلك الشهر، ولا في السنة التي بعد تلك السنة وهكذا في باقي عمره ما قدر للعبد عند طلوع الفجر لا يناله عند طلوع الشمس ولا يتأخر عنه، وما قدر له عند طلوع الشمس لا يناله عند طلوع الفجر ولا يتقدم له، ولو طلبه بكل حيلة في السماوات والأرض، ولو أعانه على الحيلة فيه أهل السماوات والأرض.

فلما علم الموقنون أن الأمر هكذا توكلوا على الوكيل الذي مقاليد الملك كلها موكولة مفوضة إلى تقديره وسكنت قلوبهم عن الطمس والتشوف إلى غير ما قدر.

فهم ينتظرون مجاري الأقدار كما قسمت وجريت على الأعمار.

والعمر هو اختلاف الليل والنهار، ولا ينال العبد شيء من المقدر[2] إلاّ في وقتٍ ربط به ذلك الشيء المقدر، والوقت هو الزمان الذي ينشأ نفساً بعد نفس، وساعة بعد ساعة ويوماً بعد يوم إلى انقضاء الآجال.

---

(١) سورة الروم (الآية: ٤٠).

(٢) في الأصل: المقدار. وهو تحريف.

[٢٢٣/ أ] ـ / والزمان مرتبط بحركات الأفلاك مزمومة بيد القدرة الأزلية زمًّا لا بد منه لا تفلت حركة واحدة عن ذلك الزَّم ولا يخرج عنه.

وخزائن الأرزاق في جميع الآفاق بيد الرزاق هو يجري الإنفاق ولا يخاف الإملاق: ﴿قُلْ لَّوْ أَنتُمْ تَمْلِكُونَ خَزَآئِنَ رَحْمَةِ رَبِّيٓ إِذاً لَّأَمْسَكْتُمْ خَشْيَةَ ٱلْإِنفَاقِ(١) وَكَانَ ٱلْإِنسَانُ قَتُوراً﴾. ﴿وَلِلَّهِ خَزَآئِنُ ٱلسَّمَاوَاتِ وَٱلْأَرْضِ وَلَكِنَّ ٱلْمُنَافِقِينَ لَا يَفْقَهُونَ﴾(٢).

فمن شهد بنور اليقين ملك الباري وزمه للأشياء على أنه وحده ينفق كيف يشاء وفوض الأمر بالتوكل إليه واستسلم لما قدر وأجري عليه فحينئذ يكون حال المتوكل ترك التدبير ومشاهدة التقوى فيصح يقينه ويصفى إيمانه ويستوي عنده منعه وعطاؤه.

فافهم لأي شيء يستوي المنع والعطاء عند أهل الصفاء فأيقن أنه لا تخرج ذرة من يده فما فوقها إلا بمشيئته.

فصـــل

وأما المقام الثاني من التوكل في مقام الإيمان: فهذا التوكل في أمور الآخرة كلها ولا يكون إلا بسبب وترك السبب فيه معصية وكفران وبدعة وأسباب هذا المقام هي وظائف [٢٢٣/ ب] الدّين وشرائع المرسلين لا يتركها إلا زنديق مارق ولا يطرح/ أشياء بها إلا مبتدع أو فاجر فاسق، بل قد ختم الله على نفسه لا تعطى الآخرة إلا بسبب، وأسبابها الإيمان، والتوحيد، والصلوات، والزكاة، والذكر، وغير ذلك من أمور الدين ظاهراً وباطناً، وقد استشار الصحابة رضوان الله عليهم رسول الله ﷺ في هذا التوكل الأخروي بغير سبب فمنعهم ذلك.

وورد في الصحيح عن النبي ﷺ أنه كان في جنازة فجعل ينكت في الأرض فقال: «ما منكم من أحد إلا وقد كتب مقعده من الجنة أو النار». قالوا: يا رسول الله أفلا نتكل؟ فقال: «لا؛ اعملوا فكل ميسر لما خلق له» ثم قرأ: ﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَٱتَّقَىٰ﴾(٣) الآيتين.

وروى ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ: «صنفان من أمتي ليس لهما في الإسلام نصيب المرجئة والقدرية»(٤).

---

(١) في الأصل: الإملاق وهو تحريف سهو. والآية هي رقم (١٠٠) في سورة الإسراء.

(٢) سورة المنافقون (الآية: ٧).

(٣) الآية من سورة الليل (رقم: ٥) والحديث أخرجه: البخاري في الصحيح (٦/ ٢١١)، (٨/ ١٥٤)، ابن ماجة في السنن (٧٨)، أحمد في المسند (١/ ١٤٠)، ابن حجر في الفتح (٨/ ٧٠٨).

(٤) أخرجه الترمذي في الجامع الصحيح (٢١٤٩)، ابن ماجة في السنن (٦٢، ٧٣)، ابن أبي عاصم في =

والمرجئة هي التي تتكل على ما سبق ولا ترى العمل ولا تعمل فساوت القدرية في شركها حين أشركت.

وإنما ينال منافع الآخرة وينجي من أهوالها ومضراتها بالتوحيد والاجتهاد في الأعمال مع التوكل على الله وترك التعويل على الأسباب والنظر إليها لأن العمل خلق من جملة المخلوقات فكما يعتقد في المخلوقات أنها لا تضر/ ولا تنفع كذلك في الأعمال. [٢٢٤/ أ]

وهذا هو معنى قول النبي ﷺ: «لن يدخل الجنة أحداً منكم عمله». قالوا: ولا أنت يا رسول الله؟ قال: «ولا أنا إلاّ أن يتغمدني الله برحمة منه وفضل»[(١)].

وقد قال الله عز وجل: ﴿ادْخُلُوا الْجَنَّةَ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾[(٢)]، ﴿أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾[(٣)] و ﴿إِنَّمَا تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾[(٤)].

وإنما معنى هذه الآيات من أعطيته إيماناً وعملاً ووفقته إليه فقد أعطيته براءة يأتيني بها فأنجيه وأُدخله الجنة. لا أن العمل هو المنجي والنافع، وإذا اعتقد العامل ذلك في أعماله وتوكل عليها دخله العجب والفساد وإنما ينتفع بكثرة التوحيد فيها والتبرؤ منها والتوكل على خالقها.

وبذلك أمر الله نبيه عليه السلام فقال: ﴿وَلِلَّهِ غَيْبُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَإِلَيْهِ يَرْجِعُ الْأَمْرُ كُلُّهُ فَاعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ﴾[(٥)]. فأمره بالعبادة ثم قال: ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ﴾[(٥)] لا على عبادتك. وكذلك أمره بقيام الليل فقال: ﴿يَا أَيُّهَا الْمُزَّمِّلُ * قُمِ اللَّيْلَ﴾[(٦)]. وأمره بترتيل القرآن فقال: ﴿وَرَتِّلِ الْقُرْآنَ تَرْتِيلاً﴾[(٦)]. وأمره بالذكر والانقطاع إليه فقال: ﴿وَاذْكُرِ اسْمَ رَبِّكَ وَتَبَتَّلْ إِلَيْهِ تَبْتِيلاً﴾[(٦)] أي انقطع إليه. ثم قال له بعد ذلك كله: ﴿فَاتَّخِذْهُ وَكِيلاً﴾[(٦)] أي توكل عليه لا على عبادتك ولا تلاوتك ولا ذكر ولا انقطاع.

فيعمل العبد ويتوكل على خالقه أن يحفظه في عقله ويحفظه في إيمانه/ من الخلل [٢٢٤/ ب]

= السنة (١/ ١٥٣)، البخاري في التاريخ (٤/ ١٣٣)، ابن الجوزي في تذكرة الموضوعات (١٥)، ابن الجوزي في العلل المتناهية (١/ ١٥٢، ١٥٤)، الهيثمي في مجمع الزوائد (٧/ ٢٠٦)، السيوطي في الدر المنثور (٦/ ١٣٨).

(١) أخرجه مسلم في الصحيح (صفات المنافقين ب: ١٧ رقم ٧٨).

(٢) سورة النحل (الآية: ٣٢).

(٣) سورة الأعراف (الآية: ٤٣).

(٤) سورة الطور (الآية: ١٦).

(٥) سورة هود (الآية: ١٢٣).

(٦) سورة المزمل (الآية: ١، ٢، ٤، ٨، ٩).

والزيغ وفي نفسه وفي إدامته وفي حسن الخاتمة والثبات في زلزال الموت الذي لا تثبت له الجبال الرواسي وصرف الفتن في ذلك المقام، وفي القبر والمساءلة والنجاة منه تسهل أمور الآخرة وأهوال القيامة كلها وزلات الصراط، وشدائد الحساب والميزان، ودخول النار والنجاة منها. فإن الكل بيده وهو المنجي منها وفي دخول الجنة ونيل السعادة.

فيعمل العبد ويتفرغ إليه في كل الأوقات في ذلك، ويتوكل عليه وحده سبحانه لا على سواه.

فصـــل

فأما المقام الثالث من التوكل في مقام الإحسان: فهو التوكل عليه في نيل القربى منه والفوز به وهو توحيد محض واعتماد عليه له صرف العلة يجذب العبد جذبة فينفيه عن نفسه وعن توكله ويكرمه بالأنس به والظفر به سبحانه.

وهذا توكل الهمم الرفيعة والعقول الراجحة السليمة.

وأسباب هذا المقام تصفية الأسرار من جميع الأغيار، وسياحة العقول في طرق الأفكار، وملازمة الأذكار في أوقات الليل والنهار مع الخروج بالتوكل عن جميع ذلك وعن التوكل؛ بل ينظر إلى عين الجود والمنة ويتعرض لنفحات الرحمة غير معتمد على الأشياء مع كثرة جهاد / ولو تتقطع الأكباد وذلك من أجل أن الرب جل جلاله رفيع القدر عظيم [٢٢٥٠/ أ] الخطر فلو تلفت كل الأرواح فيه لكان يسيراً، ولو بذلت المهج كلها فأهلكت عليه لكان نزراً حقيراً، ولو تقرب العباد إليه بجميع أنواع عبادة العالمين لما كان كثيراً ولا يقال إن بتلك الأسباب يستحق معنى من معاني التجلي الكريم فإن ذلك المعنى المتجلي منه لا يقاس قدر قيمته بشيء، ولا تعرف له قيمة، ولا قدر لرفعته وعظيم خطره.

فكيف ينال بالسعايات بل السعايات تعرض للنفحات فإن جذب سر عبد من هؤلاء المذكورين نفساً واحداً وأعطاه منه معنى من معاني المقربين فقد أعطاه ما لم يعط أحداً من العالمين.

ولا يقوم بشكر ذلك أبد الآبدين ﴿فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَوَكِّلِينَ﴾[(١)].

ومن أحبه فقد جذبه ومن جذبه فعن غيره قطعه وبنفسه أكرمه.

---

(١) سورة آل عمران (الآية: ١٥٩).

فعند ذلك كان كافيه وحسبه من سواه، فلا يريد ولا يطلب إلاّ إياه لا يريدون به بدلاً ولا يبغون عنه حولاً.

أرسل ذو النون[1] وسادة إلى أبي يزد البسطامي يتوكأ عليها. فقال أبو يزيد لسائقها: قل لأخي ذي النون: من كان اتكاؤه على الحق لا يحتاج إلى وسادتك. / فقال ذو النون: [٢٢٥/ ب] هنيئاً له.

فهذا توكل عليه له وبه ولا يطيق حمل ذلك إلاّ المحاولون في توكلهم بغيرهم لا بأنفسهم ﴿ذَلِكَ فَضْلُ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ﴾[2].

حقيقة: قال الله عز وجل: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّالِحَاتِ لَنُبَوِّئَنَّهُم مِّنَ ٱلْجَنَّةِ غُرَفاً تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَارُ وَنِعْمَ أَجْرُ ٱلْعَامِلِينَ﴾[3]. ثم نعتهم فقال: ﴿ٱلَّذِينَ صَبَرُوا۟ وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾[4]. فنعتهم بالصبر والتوكل.

وقول العرب بوأت الرجل منزلاً وأبأته أنزلته. والغرفة في لسان العرب العُليّة.

فدلت الآية أن أهل الصبر والتوكل هم أهل عليّين سكناهم المنازل الرفيعة ولذلك هم في الدنيا ساكنون في المقامات بالصبر على الله والتوكل عليه، أجسامهم في الأرض وبواطنهم عند الوكيل ثابتون عنده في علّيّين بالصبر.

والصبر هو الثبات. فكان ثوابهم في الآخرة على حسب أحوالهم: ﴿جَزَآءً وِفَاقاً﴾[5].

لأنهم صبروا عن الدنيا السافلة وارتفعوا إلى مولاهم بالهمم العالية.

فصـــل

قال الله عز وجل في إبليس: ﴿إِنَّهُ لَيْسَ لَهُ سُلْطَانٌ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾[6].

---

(١) ذو النون المصري هو: ثوبان بن إبراهيم الصوفي الزاهد المشهور أبو الفيض. وهو أحد الزهاد والعباد نوبي الأصل كانت له فصاحة وحكمة وشعر وهو أول من تكلم بمصر في: ترتيب الأحوال ومقامات أهل الولاية وتوفي بمصر سنة (٢٤٥) أو (٢٤٦) ودفن بقرافتها. انظر ترجمته في ديوان الإسلام بتحقيقي (٩٦٦)، سير أعلام النبلاء (١١/ ٥٣٢)، طبقات الصوفية (١٥)، وغير ذلك.

(٢) سورة الحديد (الآية: ٢١).

(٣) سورة العنكبوت (الآية: ٥٨).

(٤) سورة النحل (الآية: ٤٢).

(٥) سورة النبأ (الآية: ٢٦).

(٦) سورة النحل (الآية: ٩٩).

[٢٢٦/ أ] أخبر في هذه الآية أن المؤمنين أهل التوكل خرجوا عن مملكة/ إبليس وسلطانه وولايته وإنما خرجوا عن ذلك برفع الهمم إلى الله وسكناهم في مقامات الإيمان والتوكل على الوكيل في مقامات الإيمان.

والتوكل درجات ومنازل في عليين عند العليّ الأعلى.

والدنيا هي مملكة إبليس وفيها يتولى بسلطانه أهلها فالخارج عن سلطانه ومملكته ليس له مأوى إلاّ عند العلي الأعلى لأنه فَارٌّ من مملكة العدو السفلى فساكنهم حالاً في الدنيا ومآلاً في العقبى وفي الغرفات والدرجات العلى.

وهذا يدل أنهم أول من يدخل الجنة لأن الجنة في العلى وسقفها عرش الرحمٰن.

فإذا قا ‌رأ من قبورهم بالبعث قاموا إلى قصورهم بلا حساب.

وكذلك كانوا في الدنيا قاموا بأزواجهم من هذا العالم الخسيس الدنيوي ومن قبور أجسادهم إلى عليين فدخلوا الملكوت والناس خارجون عنه مشغولون بالدنيا مكبون عليها فوجدوا روح اليقين ولذة النعيم بالله والدار الآخرة.

وفي الخبر: إن قلوب الأغنياء لا تدخل ملكوت السماء.

وفي الخبر عن الله: إن القلوب المعلقة بالشهوات محجوبة عني.

فهم أول من دخل الجنة في الدنيا بالمعنى وهم أول من يدخلها حقيقة في العقبى مصداق ما أوضحناه ما خرجه أبو هريرة في الصحيح:

[٢٢٦/ ب] / أن رسول الله ﷺ قال: «يدخل من أمتي الجنة سبعون ألفاً تضيء وجوههم إضاءة القمر ليلة البدر بغير حساب».

قيل: ومن هم يا رسول الله؟ قال: «هم الذين لا يكتوون ولا يسترقون وعلى ربهم يتوكلون»[١].

وإذا دخلوها بغير حساب بقي الغير في الحساب والجزاء يكتوون بنار جهنم ومشاهدتها وحرارة الحساب والسؤال عن الأموال وكي الجبوه والجنوب والظهور على ترك إنفاقها في سبيل الخير التي هي سبيل الله.

وعلى الاستناد والتوكؤ والاعتماد عليها.

---

(١) أخرجه مسلم في الصحيح (الإيمان ٣٦٧)، الطبراني في المعجم الكبير (١٢/ ٤٠)، البخاري في الصحيح (٨/ ١٤٠)، الزبيدي في إتحاف السادة المتقين (٢/ ٤٠).

ويسترقون بالتعوذ من مفزعات أهوال يوم القيامة التي لا مفزع مثلها.

ويتطيرون بالدنيا المشؤومة عليهم القاطعة لهم عن الراحة من العذاب والحساب والفوز بمنازل أهل الاقتراب.

ولذلك جاءوا في الحديث المتقدم في صفة السابقين إلى الجنة حين سُئل عنهم فقال: «هم الذين لا يكتوون ولا يسترقون»[1].

وفي بعض الأحاديث: «ولا يتطيرون وعلى ربهم يتوكلون»[2].

فصـــل

فأما إضاءة وجوههم كالأقمار فإن ذلك ثواب ترك نظرهم وتوجههم إلى العالم النوراني الأخروي العلوي بالإقبال على الله والدار الآخرة النورانية والرغبة فيها والإعراض عن الدنيا المظلمة والهروب عنها فكانوا نورانيين في أكمل حسن وجمال.

وعلى قدر تلبس الإنسان بالدنيا وإقباله عليها/ يكون إظلامه وينقص حسنه وجماله. [٢٢٧/ أ]

وإن زاد ظلمه زاد قبحه وظلامه «الظلم ظلمات»[3].

والظلم إنما يكون ويتولد من حب الدنيا كما ورد في الخبر: «حب الدنيا رأس كل خطيئة»[4].

وأقل الظلم أن يبخس الإنسان نفسه وينقصها من درجة الكمال بالإقبال على الله والدار الآخرة وترك التلبس بأمور الدنيا والتجرد منها فإن التلبس لباس لها، واللباس ستر وحجاب والحجاب ظلمة والتجرد من حجبها كشوف ووضوح والوضوح نور، وقال النبي ﷺ: «أنا النذير العريان».

أي المتجرد من الأسباب الحاجبة المثقلة، والمشمر في طلب الله والدار الآخرة.

وظاهر هذا الحديث معنى ليس هذا موضع تفسيره وإنما فسرنا منه معنى الحقيقة التي تليق بهذا الباب فافهم.

---

(١) راجع تخريج الحديث السابق.

(٢) أخرجه البخاري في الصحيح (٣/١٦٩)، الترمذي في الجامع الصحيح (٢٠٣٠)، أحمد في المسند (٢/١٣٧).

(٣) أورده ابن الجوزي في تذكرة الموضوعات (١٧٣)، العجلوني في كشف الخفا (١/ ٤١٢)، البخاري في التاريخ (٣/ ٤٧٢)، الزبيدي في إتحاف السادة المتقين (٣/ ١٣١)، التبريزي في مشكاة المصابيح =

فأعظم الظلم الشرك: ﴿إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾[(١)].

والشرك جلي، وخفي، والمعاصي المتولدة عن حب الدنيا التي هي رأس كل خطيئة ظلم وظلام ونكت سود في القلوب والأرواح والنفوس والأشباح: ﴿وَمَن لَّمْ يَتُبْ فَأُولَٰئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾[(٢)].

فأكمل الناس جمالاً وأحسنهم وجهاً وحالاً أهل الإعراض عن العالم الدنياوي الأرضي الذي فيه ظلم الخلق كلهم أنفسهم فأظلمت ذواتهم وقبحت أحوالهم ﴿وَمَا ظَلَمَهُمُ ٱللَّهُ وَلَٰكِنْ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾[(٣)].

[٢٢٧/ ب] وفي الخبر: أن فقيراً من أهل الصفة/ مات فقال رسول الله ﷺ: «إنه يبعث يوم القيامة ووجهه كالقمر ليلة البدر ولولا خصلة كانت فيه لبعث ووجهه كالشمس الصابحة». ثم فسر الخصلة فقال: «إنه كان يدخر حلة الشتاء في الصيف وحلة الصيف في الشتاء»[(٤)].

فانظر ما نقص من جمال نظره وتدبيره لصيفه وشتائه.

وأما دخولهم الجنة بغير حساب فإنهم لم يكن لهم فضول أموال يحاسبون عليها ولا كانوا مقبلين على الدنيا منافسين فيها بل كانوا متوكلين على الله.

وقد فسر النبي ﷺ معنى ذلك حين سُئل عنهم فقال: «هم الذين لا يكتوون ولا يسترقون» وفي رواية: «ولا يتطيرون، وعلى ربهم يتوكلون»[(٥)].

فأما قوله: «لا يكتوون» فله حق وحقيقة وظاهر وباطن.

وظاهره أنهم لما توكلوا على الله وتركوا فضول الأسباب الشاغلة ربما دخل عليهم الضر والأمراض في أجسامهم فلم يبالغوا في الطب توكلاً على الطبيب الرب، والمبالغة في أخذ الأسباب نزول من التوكل على خالق الأسباب، وآخر الطب الكي.

وأما حقيقته وباطنه: فإن الكي بالحقيقة إنما هو بنار جهنم قال الله عز وجل: ﴿يَوْمَ يُحْمَىٰ عَلَيْهَا فِي نَارِ جَهَنَّمَ فَتُكْوَىٰ بِهَا جِبَاهُهُمْ وَجُنُوبُهُمْ وَظُهُورُهُمْ هَٰذَا مَا كَنَزْتُمْ لِأَنفُسِكُمْ فَذُوقُوا مَا كُنتُمْ تَكْنِزُونَ﴾[(٦)].

= (٥٢١٣)، السيوطي في الدر المنثور (٦/ ٣٤١)، المنذري في الترغيب والترهيب (٣/ ٢٥٧).

(١) سورة لقمان (الآية: ١٣).

(٢) سورة الحجرات (الآية: ١١).

(٣) سورة آل عمران (الآية: ١١٧).

(٤) أورده الزبيدي في إتحاف السادة المتقين (٩/ ٣٨١، ٥٠٢).

(٥) سبق تخريج الحديث قبل قليل.

(٦) سورة التوبة (الآية: ٣٥).

/ وأهل التوكل لم يكن لهم أموال يستندون إليها ويتوكؤون بالاعتماد عليها ويشرفون [٢٢٨/ أ] بجاههم بالنظر فيها فيعطون ويمنعون الحقوق فتكوى جنوبهم بها ويفقهون على المحاسبة والسؤال عن فضول الأموال فيمكثون بطول الوقوف وحرارة المحاسبة.

وأما قوله: «ولا يسترقون» يقول: رقيت الرجل رقيةً عوذته، والعوذة والمعاذة يعوذ بها الإنسان من فزع ودخلت التاء في قوله: «يسترقون» للمبالغة في طلب الرُقى أي يستفعلون الرقى وذلك من فزع كثير.

وأهل التوكل أهل قوة وشجاعة بالله وعزة به، قال الله عز وجل في وصفهم: ﴿أَلَاۤ إِنَّ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾[١].

فهم خاضوا الغمرات بتوكلهم فلا يجزعون من الأشياء ولا يخافون إلاّ مولاهم في كل الحالات فربما دخل عليهم المرض فتركوا التداوي وإن تداووا لم يبالغوا في أخذ الأسباب نظراً إلى المسبب.

والفزع من الأسباب شرك خفي حتى لقد قال بعضهم: إني لأستحي أن أخاف مع الله غيره.

فكان ثوابه على ذلك في المال إلا من مفزعات جميع الأهوال ولا سيما من ترك الأسباب وتوكل بحركته عليه.

أسباب الفزع الدنياوية وترك الفزع والمُبلّغ من أمور الدنيا محمود في غاية الحسن.

وكذلك قوله: «ولا يتطيرون».

والتطير: / الشؤم، فلا يشأمون بالأشياء فإن ذلك نقص في التوكل بل هم ناظرون [٢٢٨/ ب] بتوكلهم إلى المقدور فلا يتسخطون مقادير الباري.

وإن أصابهم ما يكرهون في طريق الله فأثابهم ذلك السعد الكامل فليس لهم في الآخرة سبب يشتهونه ولا ينظرون إذ لم يكن علبهم شيء مشؤوم كما كانت الدنيا المشؤومة على أهلها القاطعة لهم عن سعد أهل التوكل.

والمنجوس المشؤوم المتطير من أنجَسَتْهُ الإساءة وقطعته عن منازل المتوكلين الأحباب.

(١) سورة يونس (الآية: ٦٢).

أما قوله: «وعلى ربهم يتوكلون» فإن المتوكل مستند متوكىء على الوكيل في جميع أموره في الدنيا وأورثه ذلك في العقبى الاتكاء على الأرائك في منازل عليين.

والغير في مقاسات الحساب أو في العذاب على سوء الاكتساب.

ولصورة اتكائهم في عليين على أرائكهم شرح طويل وسر عظيم جليل لا يحتمل هذا المختصر كشفه.

الشعبة السادسة والأربعون: الرضى

أما كون الرضى من الإيمان فلا يحتاج إلى استشهاد عليه فإنه من رضي بالله رباً فقد وجد للإيمان/ طعماً وورد عن الله سبحانه: «من لم يرض بقضائي فليتخذ رباً سواي». [٢٢٩/ أ]

فأمره بالخروج من الإيمان.

وقال النبي ﷺ للوفد: «ما أنتم»؟ قالوا: مؤمنون. فقال: «ما علامة إيمانكم»؟ فقالوا: نصبر عند البلاء ونشكر عند الرخاء ونرضى بمواقع القضاء.

فقال بعد تمام كلامهم: «مؤمنون ورب الكعبة»[١].

والشواهد عليه لا تنحصر.

فصل

اعلم أن حد الرضى إرادة مقترنة بطيب وسرور في الموافق الملائم وإرادة مقترنة تنفي السخط والكراهية في المؤلم غير الموافق، وليس بإرادة مطلقة كما أن السخط الذي هو ضد الرضى كراهة الشيء مقترنة بإرادة غيره.

فالرضى اختيار العبد ما اختار الله مع وجود السرور في الموافق وعدم السخط والكراهة في غير الموافق للطبع.

وتفسير ذلك أن لا يريد العبد إلا ما أراد الله منه شرعاً.

فمعنى الرضى الاسترسال مع الله فيما يريد، قال الله تبارك وتعالى: ﴿وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ وَيَخْتَارُ مَا كَانَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ﴾[٢].

(١) أخرجه الطبراني في المعجم الكبير (١١/ ١٥٣)، الهيثمي في مجمع الزوائد (١/ ٥٤)، الزبيدي في إتحاف السادة المتقين (٩/ ٦٤٩).

(٢) سورة القصص (الآية: ٦٨).

فنفى عنهم الخيرة. ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلاَ مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى ٱللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْراً أَن يَكُونَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ﴾[١].

فنفى أن يكون لهم خيرة من أمرهم. وقال: ﴿فَلاَ وَرَبِّكَ لاَ يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ/ [٢٢٩/ ب] فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لاَ يَجِدُواْ فِيۤ أَنفُسِهِمْ حَرَجاً مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُواْ تَسْلِيماً﴾[٢].

فهذا هو الرضى فافهمه.

والرضى باب واسع يجري في كل شيء كما أن القضاء حكم نافذ جار على كل شيء وليس يشذ عنه شيء في الظاهر والباطن إلا شيء واحد بوجه ما وليس من كل وجه وهو العصيان للرب تبارك وتعالى ظاهراً وباطناً لأن من رضي بالشرك والكفر والبدع والعصيان والظلم منه أو من غيره فقد انقطع من الدين وليس في شيء من المؤمنين.

وإنما يجب الرضى بذلك من حيث هو قدر لله وقضاؤه في خلقه فيرضى عن الله فيه قضاءً وتدبيراً وحكماً وتقديراً ولا يرضى به من الخلق والعباد بل يبغض عليه ويعادي نفسه وغيره ويقاتل ويقتل ويأمر بالمعروف وينهى عن المنكر كما أمر الله جل جلاله.

فصــــل

اعلم أن الرضى على ثلاثة أقسام على عدد مقامات الإسلام، والإيمان، والإحسان.

فأما القسم الأول في مقام الإسلام: فهو الرضى عن الله فيما قدر وقضى وأجرى على العبيد وعلى جميع الخلق في عالم الحسِّ والشهادة وهو عالم الدنيا من قضاياه الدنياوية وما شرع لهم من شرائعه الدينية فيرضى بما قسم الله له من الدنيا ولغيره فإن ذلك ينفي عنه آفات الحسد/ [٢٣٠/ أ] وجميع المهلكات ويرضى بما أجرى الله عليه وعلى غيره من البلايا والمصائب فإن هذا موضع الرضى لأنه ابتلاء والبلاء مؤلم للطبع وذلك قضاء الله وقدره في الأموال والأبدان فلا يقول إلا ما يرضي الرب ولا يسخط ذلك بقلبه ويتطلع إلى ثواب الله في الآخرة فإن ذلك يعين على الرضى فإن وجد الألم في ذلك كله فإن الألم لا يخرجه من الرضى لأنه طبع البشر فإن سخط ذلك كله وتكلم بشر فقد خرج من الرضى ومن سخط فله السخط، قال النبي ﷺ: «تدمع العين، ويحزن القلب، ولا نقول إلاّ ما يرضي الرب»[٣].

(١) سورة الأحزاب (الآية: ٣٥).
(٢) سورة النساء (الآية: ٦٥).
(٣) أخرجه مسلم في الصحيح (الفضائل ٦٢)، أبو داود في السنن (الجنائز ب ٢٨)، البخاري في الصحيح (٢/ ١٠٥)، ابن ماجة في السنن (١٥٨٩)، البيهقي في السنن الكبرى (٤/ ٦٩).

وإن كان القضاء موافقاً لطبعه من صحة وغنى وأنس بالأهلين وغير ذلك فالرضى في هذا الموضع أن ينظر العبد ما أراد الله منه في صحته وماله وعوافيه فليؤد ذلك ويتمثله بطيب نفس وسرور وليترك هواه لمراد الله.

فإن الرضى كما تقدم اختيار ما اختار الله، وهذا هو ترك مراد العبد. فافهم.

وأما أمور الدين الشرعية الظاهرة فإن الله جل جلاله يقول: ﴿وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَامَ دِينًا﴾[1].

فيرضى العبد عن جميع أمور الدين على اختلاف أنواعها وتطيب نفسه بقبولها وامتثال فرائضها وفضائلها.

وأمور الدين وإن كثرت فلا تخلو من أمرٍ ونهي والباري قد رضي امتثال المأمور ورضي بترك المنهي/ ديناً لنا وأمرنا أن نرضى به وتطيب أنفسنا بالامتثال والترك في المأمور والمنهي عنه على وفق رضاه فإذا فعل العبد ذلك بطيب نفس فقد رضي الله جل جلاله. [٢٣٠/ ب]

وهذا شديد على النفس التي عيشها بالهوى ولا يقدر على ذلك إلا الصديقون.

فليستعن العبد على عبادة الله بالرضى ما استطاع كما قال النبي ﷺ لعبد الله بن عمر: «اعبد الله في الرضى»[2].

فإن العمل بالرضى أعلى المقامات، والرضى لا يشتم منه رائحة إلاّ مقروناً برضى الله كما أوحى الله إلى موسى عليه السلام: إن رضاي في رضاك بقضائي.

وهذا هو ذبح النفس لأنه مخالفة الهوى فليستعن العبد على ذلك بالنظر في جمال دين الإسلام وحسن فرائضه وفضائله حتى يتبين جمالها وحسنها لعقله فيرضى بها ويختارها وينظر في قبح الكفر والمعاصي حتى يتبين له قبحها فيرضى بتركها، ويرى كيف لم يرض الله إلا بالأحسن والأفضل ولم يرض له بقبح المخالفات وما يورث الهلكات ولو علم الله ديناً أجمل وأحسن من دين الإسلام لارتضاه لنفسه.

فدينه الذي ارتضاه هو دين الإسلام بامتثال فرائضه وفضائله واجتناب نواهيه فليعبد العبد ربه بالنشاط وطيب النفس ما استطاع، وليأخذ من الأوامر/ ما استطاع فإن الله يقول: ﴿وَلَا تَقْتُلُوٓا۟ أَنفُسَكُمْ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا﴾[3]. [٢٣١/ أ]

---

(١) سورة المائدة (الآية: ٣).

(٢) أورده الزبيدي في إتحاف السادة المتقين (٧/ ٢٣٨)، (٩/ ١٩).

(٣) سورة النساء (الآية: ٢٩).

وليترك جميع المنهي وليخالف الهوى فإن في ذلك رضى الله عز وجل.

ومخالفة الهوى هو ترك المنهي عنه فإذا تركت النفس الهوى طاب عيش العبد بوجود لذة الطاعات ووجد فيها نشاط الرضى وسروره.

فقد عمّ الرضى الأمور الجسيمة في عالم الحس ومقام الإسلام فإن القضايا في عالم الحس والشهادة لا تخلو عن أربعة أنواع: مأمورات، ومنهيات وهي الدينية، وعوافي، ونعم موافقة للطبع، وبلايا ومصائب مؤلمة.

فإذا استعمل العبد في جميع ذلك رضوان الله فقد عمل بالرضى.

أعاننا الله وإياكم على ما يحبه ويرضاه في يسر وعافية بمنه وفضله.

فصـــل

وأما المقام الثاني من الرضى في عالم الغيب ومقام الإيمان:

فلينظر العقل إلى عالم الآخرة بإيمانه وينظر إلى عالم الدنيا فلا يرضى بالأنقص والأدنى فقد عاب الله ذلك وذكره في كتابه فقال: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا وَرَضُواْ بِٱلْحَيَاةِ ٱلدُّنْيَا وَٱطْمَأَنُّواْ بِهَا وَٱلَّذِينَ هُمْ عَنْ آيَاتِنَا غَافِلُونَ﴾[1].

المعنى إلى آخره. وليطلب العبد معالي الأخلاق فيتصف باطنه بها وليترك سفاسفها فإن الله يرضى بعالي الأخلاق ولا يرضى سَفْسَافَها ويرضى الإيمان المتصف به القلب/ [٢٣١/ ب] الباطن ولا يرضى الكفر، قال الله تعالى: ﴿وَلَا يَرْضَىٰ لِعِبَادِهِ ٱلْكُفْرَ﴾[2].

وينظر إلى القضايا الأخراوية فيرضى بما يجري الله منها عليه وعلى العباد كلهم ولا يكون من الذين خاصم الله في أحكامه واعترضوا عليه في قضائه حين غاب عنهم حسن تقديره وإتقان صنعه فقالوا: إذا قدر الله علينا بالمعصية وعذبنا عليها فقد أساء وظلمنا، فهربوا من ذلك وقالوا: إن الشر من العباد.

ولا من الذين قالوا: واجب على الله أن يعمل لعباده الأصلح والأكمل، وغير ذلك من أقوال الزائغين والمارقين الذين لم يستحسنوا قضاء الله ولم يرضوه فاعترضوا عليه وخاصموه في أفعاله وأحكامه، وكالروافض الذين لم يرضوا بخلافة الصحابة واعترضوا عليهم ونسبوا إليهم ما لا يليق بهم ففرقوا دينهم وكانوا شيعاً.

---

(١) سورة يونس (الآية: ٧).

(٢) سورة الزمر (الآية: ٧).

فالرضى عن الله في أحكام الآخرة من إنعام وإهلاك ورفع وخفض وجميع ما يجري فيها على العباد واجب كأحكام هذه الدار سواء.

وإلى هذا المعنى أشار بعض العارفين حين قال: أرجو أن أكون عرفت طرفاً من الرضى لو أدخلني النار لكنت بذلك راضياً.

[٢٣٢/ أ] وإنما عنى هذا العارف لو أدخلني/ النار بغير ذنب لرضي بذلك موافقه لمراد مولاه.

فكيف والباري لا يدخل النار أحداً إلاّ باستحقاق وجزاءً لذنب ارتكبه ولا يوقفه موقفاً من الحساب ولا يشهده هولاً من الأهوال في الآخرة إلا جزاءاً لعمل عمله أو ذنب ارتكبه.

ولو أدخل الله العباد كلهم جهنم وصبّ عليهم أنواع العذاب وهم برآء ولم يواقعوا ذنباً ولا قارفوا عيباً لكان واجباً على الكل الرضى بذلك فإنه أهل أن يرضى عنه ولا يعترض عليه إذ الملك ملكه يحكم ما يريد ويفعل ما يشاء.

وإنما كان يحسن الاعتراض عليه والسخط لأفعاله لو كان معه إلّه آخر يكون قدره كقدره وملكه كملكه فيتعدى إلى ملك غيره فيصب على أهله عذابه ويجري عليهم أحكامه.

وفي هذه المنزلة أنزل أهل الأهواء أنفسهم حين خاصموه وجوروه، نسأل الله العصمة.

فالرضى واجب عن الله في جميع الأقضية في كل الأكوان لأن قضاءه حسن جميل من حيث وجده هو فكان في غاية الاستحسان لأنه مقتضى أسمائه الحسنى، قال الله جل جلاله: ﴿ٱللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ﴾[1].

وقال: ﴿ٱلَّذِي أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلَقَهُۥ﴾[2] فلم يخل عن الحسن شيء لأن الأشياء كلها مقتضى أسمائه الحسنى ومعاني صفاته العلى.

واعلم أنه لو أعطى الله لواحد من الخلق من العقل وحسن التدبير مثل ما أعطى لجميع [٢٣٢/ ب] العالمين/ ثم أعطى لكل واحد من الخلق مثل ما أعطى لذلك الشخص وزادهم أضعافاً مضاعفة حتى تنتهي عقولهم إلى مرتبة لا يجدون وراءها مزيداً من العقل ثم قال لجميعهم: انظروا هل ترون في تدبير الملك شين أو نقص فيه شيء من الحسن والزين؟ وهل يفند أهل هذا التقدير فيزال ويعاد غير هذا التقدير؟

لصاحت جميع العقول وقد خالطها الذهول وقالت: سبحانك أنت كما تقول، وفوق

---

(١) سورة الزمر (الآية: ٦٢).

(٢) سورة السجدة (الآية: ٧).

ما تقول لا تدبير إلا تدبيرك ولا حسن ولا تقدير إلا تقديرك المتقن.

وهل هذا التقدير إلا مقدور قدرتك، وهل هذا إلاّ تدبير نظرك وعلمك، ولا ينفذ ولا يظهر إلاّ ما علمت قبل الأكوان، ولا يطرأ عليك نظر آخر فتستفيد به علماً آخر الآن، فلا تقضي قضاء إلاّ في غاية الحسن والاستحسان نحن لا نجد في صنعك من فطور.

وقد انقلب البصر من حسن تدبيرك خاسئاً وهو حسير فكل ما أظهرت أو تظهر أبداً وتمحو وتثبت دائماً سرمداً لا يجوز تبديله ولا يحسن تحويله إذ لا يبدل القول لديك ولا اعتراض للخلق عليك، قال النبي ﷺ: «إن ما أصابك لم يكن ليخطئك وما أخطأك لم يكن ليصيبك»[(١)].

وكل موجود ظهر في أي حين ظهر على أي وجه ظهر كذلك علمه ربنا وعلم أنه/ لا [٢٣٣/ أ] يظهر إلاّ في ذلك الحين والوقت وعلى تلك الصورة والهيئة فإن كان يجوز أن ينقلب معلومه عما علم، فبئس القول ممن قاله وبئس ما فهم.

والرب سبحانه عالم بكل شيء وبكل وجه من وجوه التدبير والتقدير فإذا أظهر موجوداً في أي حين ظهر وأجرى عليه قضاء أي شيء كان ثم بدله أو غيره عما كان وأظهره في وجه آخر وصورة أخرى ولو أظهروه في وجوه لا تحصى فكذلك علمه وليس منها وجه ولا صورة إلا في غاية الحسن ونهاية الجمال لا يجوز أن يقال: لو كانت في غير هذه الصورة لكان أحسن من ذلك فإنما معنى قوله: لو كان الأمر إلى الضعف أحسن مما صنع الله.

وقد عاب القرآن فساد رأيهم في قوله: ﴿لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ ٱلْأَمْرِ شَىْءٌ مَّا قُتِلْنَا هَا هُنَا﴾[(٢)].

فإذا شهد العبد بحسن التقدير وجمال التدبير في ظاهر العالم وباطنه رضي بقضاء الله عليه وعلى جميع الخلق مقروناً بطيب النفس مع الموافق، ويلقى السخط والاعتراض في المؤلم ولم يكلف العبد ألاّ يجد للبلاء طعماً.

مَنَّ الله علينا وعليكم باليسر والعافية في جميع الدنيا والآخرة آمين.

وصلّى الله على سيدنا محمد وآله وسلم.

---

(١) جزء من حديث ابن عباس الذي أخرجه: الترمذي في الجامع الصحيح (٢٥١٦)، أحمد في المسند (١/ ٢٩٣)، الحاكم في المستدرك (٣/ ٥٤١)، أبو نعيم في الحلية (١/ ٣١٤)، النووي في الأذكار (٣٦٧)، السيوطي في الدر المنثور (١/ ٦٦).

(٢) سورة آل عمران (الآية: ١٥٤).

فصـــل

وأما القسم الثالث من الرضى في مقام الإحسان:

[٢٣٣/ ب] / فهو الرضى بالله رباً ولا يرضى بسواه كبر أو صغر معبوداً لأنه أهل أن يُرضى به وليس سواه أهلاً للرضى به رباً.

وفي هذا المقام ارتياح الأرواح وانتشار نسيم القرب بالأرباح.

فإن العبيد يفتخرون وتطيب نفوسهم ويشرفون إذا كان مواليهم عظماء الأقدار ولهم مكانة وجاه وكانوا من ذوي الأخطار مع أنهم كلهم عبيد مخلوقون فكيف بمن كان مولاه سيد العالمين ومالك الخلق أجمعين.

فهذا المقام من أقيمه طاب عيشه وصفي من كدره نعيمه إذا نظر إلى قدر مولاه طار قلبه وروحه رضاً به وفرحاً، وينظر إلى نفسه وقدرها وجنونها وإلى جسده وقذارته وقلبه ونزواته فلا يرضى عن نفسه ولا يراها أهلاً للقرب من عبادته وخدمته ولا لسانه لجري الأذكار عليه، ولا شيئاً منه للخدمة من أجل ما هو مولاه عليه من الرفعة والعزة لأن المولى العظيم لا يرضى بالقرب منه إلا بما يليق بمقام الرضى منه لأن الرضى من العبد عن الرضى من الرب والرب راضٍ لا يقرب إلاّ مرتضى ومصفى ومنقى.

[٢٣٤/ أ] فلولا استرواح الراضين إلى التوبة مع الساعات لذابوا من الحياء إذا نظروا إلى قدره/ وقدرهم ويئسوا من شمة واحدة من الرضى.

ولقد كان رسول الله ﷺ على جلالة قدره يتوب في اليوم مائة مرة من رؤية التقصير في حق ربه فكيف بسواه.

ولكن الله يقول في كتابه: ﴿رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ﴾(١)، ﴿لَقَدْ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾(٢).

فطمع الخلق في الرضى لأنه سبحانه عنده من التجاوز وكريم الصفح وحسن العفو والصفات على قدر ما عنده من الرفعة وجلالة القدرة فيطيب عيشهم بتجلي تلك المعاني الكرام ويقربهم ويكرمهم فيزيد رضاهم ويعلمون أنه قد رضيهم على ما هم عليه ويسمعونه يقول: ﴿وَلَا يَرْضَىٰ لِعِبَادِهِ ٱلْكُفْرَ﴾(٣).

---

(١) سورة المائدة (الآية: ١١٩).

(٢) سورة الفتح (الآية: ١٨).

(٣) سورة الزمر (الآية: ٧).

فيعلمون أنه قد رضيهم للإيمان به ورضيه لهم وأدخلهم دين الإسلام وشرح صدورهم له ودعاهم إلى نفسه والتقرب منه فيعلمون أنه قد اصطفاهم واختارهم.

والاصطفاء والاختيار هو الرضى منه جل وعلا، فعند ذلك سارعوا إلى مرضاته ووجدوا طعم الإيمان به حين رضي بهم عبيداً ورضوا به رباً.

وهاهنا يظهر للعقل والروح في مقام الإحسان منه لأن الرضى من العبد عن الرضى من الرب، والرب راض لا يقرب إلا مرتضى من الرضى العجب العجاب فيقول: ليس العجب من رضى الراضي بك وعنك لأنك أهل أن يرضى به عنه، وإنما العجب من رضاك بي وعني، وأنا أحقر وأقل/ من أن أصلح لشيء مما أهلتني له إلا بفضلك. [٢٣٤/ ب]

فهاج السرور به وطرب الروح: ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ﴾[(١)].

فإذا نظروا إليه في هذا المقام تبسمت قلوبهم فرحاً به وسروراً بوجوده فيقولون: الحمد لله الذي كان ربنا على ما هو عليه من الرفعة والكمال فينتهي رضاهم به حين أعطاهم سؤلهم منه وانتهت بهم أمانيهم لأن انتهاء السؤل والأمنية هو حصول المراد على أتم وجوه التمني فلا يرى به بدلاً ولا عنه في هذا المقام حولاً فرضوا به ورضوا عنه في جميع أقضيته فكانوا مع مراده كالميت بين يدي الغاسل يقلبه كيف يشاء.

وقال بعض العارفين: العارف سره واقف كالماء في البئر إن حرك تحرك وإن ترك ساكناً سكن.

فإن قلت: كيف هذا والماء والميت لا إرادة له وللعبد إرادة قد حجب بها؟

فاعلم أن مراد الله الذي هو رضاه قد ظهر في العلم الذي أنزل وبين على [رسوله ﷺ] فينظر العبد ما رضي الله به من المؤمنين وللمؤمنين فيمتثله فيزول مراد العبد وهواه. وكان متحركاً ساكناً بإرادة الله.

وأبين من ذلك أن تعلم أن مقتضى الإرادة القديمة على نوعين: مراد كون، ومراد شرع.

/ فمراد الشرع: هو الرضى فإذا استرسل العبد مع مراد الله الشرعي في جميع أموره لم تبق له إرادة فافهم. [٢٣٥/ أ]

سلك الله بنا وإياكم سبيل العافية في الدنيا والآخرة بكرمه آمين.

وصلى الله على محمد وآله وسلم.

---

(١) سورة السجدة (الآية: ١٧).

الشعبة[1] السابعة والأربعون: الخـــوف

أما كون الخوف من الإيمان فبين جداً بقوله تعالى: ﴿وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾[2].

ثم جعلوه مشروطاً لوجود الإيمان ولأن الخوف في نفسه تصديق بالواقع للخوف المنتظر ولأن ضده الأمن ﴿فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْخَاسِرُونَ﴾[3].

إنما خسروا بعد الخوف الذي هو تحقيق الإيمان ومن فاته التحقيق كيف ينتفع بالتصديق؟!

فصـــل

اعلم أن الخوف من أعظم شعب الإيمان لأن بالخوف يكون التقوى والورع اللذان هما ترك المخالفات والمحذورات وبه يكون الزهد والخشوع والإخبات والانكسار والفيض وغير ذلك من أمثال الطاعات.

فهو أصل لكل فضيلة أخراوية وله أسامي كثيرة، فمن أساميه: الجزع، والفزع، والوجل، والخشية، والإشفاق، والحذر، والرعب، والهيبة، والرهب، والزعر، وغير ذلك.

والاسم العلم له: الخوف.

فمن أساميه يتبين جده ومعناه لأن بعضها/ يفسر بعضاً. [٢٣٥/ ب]

وهو حال في جميع الأشياء وينقسم على ثلاثة أقسام:

خوف في مقام الإسلام وعالم الحس.

وخوف في مقام الإيمان وعالم الغيب والدار الآخرة.

وخوف في مقام الإحسان عن الأسماء والصفات المخوفة.

ومقام الخوف يقتضي ثلاثة أشياء:

خائف: وهو العبد.

وخوف: وهو حال العبد.

---

(١) جاءت في الأصل: الشبعة. وهو تحريف.

(٢) سورة آل عمران (الآية: ١٧٥).

(٣) سورة الأعراف (الآية: ٩٩).

ومخوف: وهو الشيء المهوب والمخوف منه.

فأما الخوف الأول في عالم الحس ومقام الإسلام: فإن الأمور الحسية دينية ودنياوية.

فالدينية: أمر ونهي فإذا خاف العبد العقوبة على المنهي عنه تركه مثال ذلك:

إذا فتح عينيه ووقع بصره على امرأة حسناء أو شخص حسن تحرم عليه فإن خاف وانقبض كما أمر وحذر سلم بالخوف من فتنتها وإن لم يخف ولم يغض طرفه جذبته حتى تلقيه في المهالك وإن عدمت هي الخوف وقعت معه في العصيان والخذلان. وهكذا جميع المنهيات.

وإذا خاف فوت المأمور به وخاف العقاب على تركه امتثله وشمر في طلبه.

وإذا خاف فوت منازل العلم طلبه.

فهذه حاله في كل مأمور به أو منهي عنه.

وأما الأمور الدنياوية: فإن الله عز وجل خلق الدنيا وملأها فتناً اختباراً لنا ثم حذر منها كما قال: ﴿إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى ٱلْأَرْضِ/ زِينَةً لَّهَا لِنَبْلُوَهُمْ﴾[1]. وقال تعالى: ﴿أَنَّمَا أَمْوَالُكُمْ [٣٦] وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ﴾[2]. وقال: ﴿وَجَعَلْنَا بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ فِتْنَةً﴾[3]. وقال: ﴿إِنَّ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ وَأَوْلَادِكُمْ عَدُوًّا لَّكُمْ فَٱحْذَرُوهُمْ﴾[4]. والحذر هو الخوف. وكل عدو قاطع مخوف بلا شك.

والدنيا أعدى عدو وأعظم قاطع وفاتن فإذا خافها العبد وكان فيها ومنها على غير أمن استقام إيمانه وحاله.

وأكيس الخلق من كان منها على مثل حد السنان فلا يأمنها.

ولمّا أمنها الخلق واطمأنوا منها ولم يخافوها أوقعتهم فيما وقعوا فيه، وقال عليه الصلاة والسلام: «اتقوا الدنيا واتقوا النساء»[5]. والتقوى هي[6] الخوف، فأمر بالخوف من الدنيا والنساء.

---

(١) سورة الكهف (الآية: ٧).
(٢) سورة الأنفال (الآية: ٢٨).
(٣) سورة الفرقان (الآية: ٢٠).
(٤) سورة التغابن (الآية: ١٤).
(٥) أخرجه مسلم في الصحيح (٤/٢٠٩٨)، أحمد في المسند (٣/١٩)، ابن ماجة في السنن (٤٠٠٠)، البيهقي في السنن الكبرى (٧/٩١)، العجلوني في كشف الخفا (١/٣٩).
(٦) في الأصل: هي. وهو تحريف.

وقال: «من أتى باب السلطان افتتن» يحذر من الفتنة.

فإذا كان الإنسان خائفاً من الفتنة المملوءة منها الدنيا ورأى أنه لا بد له من مشاهدتها في أخذ ما لا بد له منه من تجارة وصناعة وغير ذلك، أخذه كما أمره الله والخوف ملازم له فيحجره خوفه عن جميع المحذورات والفتن ويحمله على الورع والزهد والعزلة بالقناعة من الناس وعلى الصمت طلباً للسلامة وغير ذلك مما لا يحصى.

وكذلك يخاف أيضاً جوارحه أن تعصيه[1]، فيخاف لسانه كما يخاف السبع والكلب، ويخاف عينه، وأذنه/ ويده، ورجله، وجميع الجوارح أن يؤذي نفسه بها أو يؤذي الخلق. [٢٣٦/ ب]

وإن اطمأن إليها ولم يخفها رمته أيضاً في المهالك.

ومن كان هكذا كان غريباً في الدنيا وبين الخلق فهو كالمجاهد في أرض العدو ولا يستغني عن الحرس واحشاً متوحشاً ولا يطمئن ولا يأنس إلاّ بمن كان خائفاً مثله وبمن يجد المزيد معه من الخلق أو دنيا حسنة تعينه.

وقد ندب النبي ﷺ ابن عمر إلى هذا المقام فقال: «كن في الدنيا كأنك غريب أو عابر سبيل»[2].

والغريب غير مطمئن وحاله حال المتوحش وعابر السبيل، كذلك يخاف قطّاع الطريق وسباع البر وفيافيه.

أعاننا الله وإياكم على طاعته في يسر وعافية، آمين، آمين.

وصلى الله على محمد وآله.

فصـــل في مقام الإيمان

فإنه مقام عظيم وخوف جسيم قد شمل المؤمنات المغيبات كلها.

فيخاف العبد من نفسه القائمة في جسده فهي أعدى عدو له فلا يطمئن إليها ولا يركن لجذبها وخدعها لأنها كما وصفها الله أمّارة بالسوء، على وزن فعّالة، فهي كثيرة الأمر بالسوء لا تأمر إلاّ به ليلاً ونهاراً فهي العدو على الحقيقة، صدقها/ كذب ورجاؤها تَمن وخوفها أمن [٢٣٧/ أ]

---

(١) في الأصل: تعطيه. وهو تحريف.

(٢) أخرجه البخاري في الصحيح (٨/ ١١٠)، الترمذي في الجامع الصحيح (٢٣٣٣)، ابن ماجة في السنن (٤١١٤)، الطبراني في الكبير (١٢/ ٣٩٩)، وفي الصغير (١/ ٣٠)، الألباني في الصحيحة (١١٥٧).

ووعدها غرور، وطلبها الرّياسة، وأخلاقها الهلع، والجزع، والشح، والعجز في مواطن الطاعة، والفخر، والرياء، وطلب المدح، والثناء وعلى الاختصار فلا يرد منها إلا السوء.

فلا يسلم منها إلاّ بالخوف منها وإنزالها منزلة العدو المهلك الشجاع الملقي بذاته في المهالك، والخوف منها هو اليأس منها أن تأتي بخير.

فمقام الخوف الذي اسمه اليأس لا يصلح إلاّ في مقام الخوف من النفس واليأس من الطمع في الناس.

ويستعان على إصلاح النفس والصون من الله بضربها بسياط المخاوف الإيمانية فإن المخاوف الإيمانية قد أحاطت بالنفس في الغيب وهي لا تشعر إلا إذا ذكرت ونبهت.

فأول ذلك حضور الأجل وكشف غطاء الجسد عنها بالموت وهو أول مشاهدة تشاهد من عالم الإيمان حين لا ينفع نفساً إيمانها ولا تقبل توبة بمعاينة الغيب.

فهذا المقام من أعظم المخاوف لا يدري الإنسان بمَ يختم له، وما سبق من القدر السابق في الأزل، ولا يظهر ذلك إلاّ عند الموت.

فهذا خوف يكسر النفوس وينكس بالتواضع الرؤوس ويذهب الإعجاب ويذهل الألباب/ ويقلل الأعمال في أعين العمال، ويولد الإخلاص والتوحيد للواحد الأحد حتى [٢٣٧/ب] يتعلق القلب به ولا يعول على عمل ولا شيء إلاّ على الذي كتب السوابق وأظهرها في الخواتم.

ولا يبالغ مع ما في ذلك المقام من حس ألم الموت وغصصه ومشاهده وأهواله وتجلي صفحة ملك الموت بجملة أعوانه وضعف الجسم وثقل الجوارح وتجلي عظائم الآخرة في ذلك الموطن الذي الدنيا فيه كأصبع ألقيته في اليم كما ورد في الخبر، وأملاكها وسكانها على قدر عظمها وقد صعق بالنبي ﷺ على جلالته عند رؤية جبريل في صورته التي خلقه الله فيها فكيف بالضعفاء والمساكين في ذلك الموطن العظيم.

يأتي هذا كله فجأةً عند خروج العبد من عالم صغير إلى عالم كبير لم يشاهده.

فإذا كان الإنسان خائفاً ذلك المقام وعظمته فكأنه يشاهده في وقت بالتذكر فيأتيه وقد حصل له من تذكره كأنه قد شاهده فسهل عليه ويكون عليه أخف ممن لم يذكره ولا خافه وأتاه بغتة وفجأة.

ثم بعد ذلك المقام يخاف القبر ويتذكر مسكنه وضيق مكانه وهول منظره/ ووحشة [٢٣٨/ أ] غربته ورعب ظلمته ومشاهده وأملاكه والفتنة فيه.

قال النبي ﷺ: «إنكم تفتنون في القبور فتنة كفتنة المسيح الدجال أو قريباً من فتنة المسيح الدجال»[١].

وكيف ينام العبد فيه على يبس التراب بعد الفراش ويمزق شعره وتسقط عيناه وتتغير وجنتاه وتتفسخ بطنه وتنحل مفاصله وتجري الهوام فيه وتنتن ريحه.

وكذلك يقال: ما رأى أحد منزلاً إلاّ والقبر أفظع[٢] منه.

وإنه ليخوف وينادي ويهدد في كل يوم: أنا بيت الظلمة، أنا بيت الوحشة، أنا بيت الغربة، أنا بيت الدود، هذا ما أعددت لكم فما أعددتم لي.

ثم أعظم من ذلك عذابه وفوت نعيمه.

فهذا أيضاً موطن من المؤمنات الغيبية مخوف لا يستوي من خافه وتذكره مع من نسيه وأغفله.

وفي الصحيح: أن رسول الله ﷺ كان يستعيذ بالله من عذاب القبر. ثم هول البعث ونفخة الصور التي يفزع لها أهل السماوات والأرض. وهول الحشر والموقف يوم يحشر المتقون إلى الرحمٰن وفداً، والمتقون هم الخائفون، والمجرمون منقطعة أعناقهم وعطاش [٢٣٨/ ب] وهم الآمنون في الدنيا: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ أَجْرَمُوا۟ كَانُوا۟ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يَضْحَكُونَ﴾[٣].

والضحك والاستهزاء من أضداد الخوف.

ثم الخوف والحساب والمناقشة وكيف يكون العبد مع ما قدمت يداه بين يدي الملك الجبار وملائكته[٤].

ثم خوف الحوض والعطش إليه وأن لا يسقى العبد منه.

ثم خوف الميزان الذي كفتاه طباق السماوات والأرض وهول منظره ووزن الأعمال فيه.

وخوف الصراط وزلاته وحدته وعثاره ونكباته.

وخوف رؤية جهنم وزبانيتها وما أُعد فيها وخوف دخولها وذوق عذابها.

---

(١) أخرجه مسلم في الصحيح (المساجد ١٢٣)، النسائي في المجتبى (٣/ ١٣٥)، أحمد في المسند (٦/ ٥٣).

(٢) جاءت في الأصل انفع. وهو تحريف.

(٣) سورة المطففين (الآية: ٢٩).

(٤) في الأصل: أعوانه. فأثبت ما يليق بربنا عز وجل فحاشاه سبحانه عن مثل هذا الوصف وقد يكون سبق قلم من المؤلف رحمنا الله وإياه.

ثم خوف فوت الجنة ونعيمها مع رؤية ما فيها ومشاهدتها وما أعد الله للخائفين فيها كما قال: ﴿وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّتَانِ﴾[١].

فهذه كلها مخاوف ومفزعات وهو الفزع الأكبر بالإضافة إلى مخاوف الدنيا فمن خافها في الدنيا وأكثر ذكرها واستعد لها أمن منها في الآخرة كما قال تعالى: ﴿لاَ يَحْزُنُهُمُ ٱلْفَزَعُ ٱلأَكْبَرُ﴾[٢] [وقوله][٣] ﴿تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ ٱلْمَلاَئِكَةُ أَلاَّ تَخَافُواْ وَلاَ تَحْزَنُواْ﴾[٤].

وقال عز وجل: «لا أجمع على عبدي[٥] خوفين ولا أمنين فمن خافني في الدنيا أمنته في الآخرة ومن أمنني في الدنيا أخفته في الآخرة».

فانظر كيف صار الخوف من هذه الأحوال منجياً من مخاوفها وقد عاب الله من لا يخافها فقال: ﴿كَلاَّ بَل لاَّ يَخَافُونَ ٱلآخِرَةَ﴾[٦].

/ وقال في مدح الخائفين: ﴿يَخَافُونَ يَوْماً كَانَ شَرُّهُ مُسْتَطِيراً﴾[٧] ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لآيَةً لِّمَنْ خَافَ عَذَابَ ٱلآخِرَةِ﴾[٨]. [٢٣٩/]

وغير ذلك من الآيات ويكفي في جميع ذلك قوله: ﴿وَيُنَجِّي ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْاْ﴾[٩] أي خافوا ﴿بِمَفَازَتِهِمْ﴾[٩] الآية.

فذكر أن الخوف من ظفر به نجاه الله من مخاوف الآخرة، والنجاة هي[١٠] الفوز والظفر.

فصل: في صورة هذا الخوف

اعلم أن الآخرة كلها كالمرآة للقلب المؤمن، وباطن العبد بإيمانه منبسط على هذه المؤمنات كلها قد تجلى فيها وأحاط بها فيدركها العبد بإيمانه من مكانه الذي هو فيه بلا مسافة ينظر إليها بتذكره إياها ويجري فيها بفكره بغير تنقل جسماني وكلما نظر إليها ومرَّ

---

(١) سورة الرحمٰن (الآية: ٤٦).

(٢) سورة الأنبياء (الآية: ١٠٣).

(٣) ما بين المعقوفين زيادة للفصل بين الآيات.

(٤) سورة فصلت (الآية: ٣٠).

(٥) في الأصل: بني. وهو تحريف والحديث: أورده الهيثمي في مجمع الزوائد (١٠/٣٠٨)، الزبيدي في إتحاف السادة المتقين (١٠/٢٧٧).

(٦) سورة المدثر (الآية: ٥٣).

(٧) سورة الإنسان (الآية: ٧).

(٨) سورة هود (الآية: ١٠٣).

(٩) سورة الزمر (الآية: ٦١).

(١٠) في الأصل: هو. وهو تحريف.

بفكره عليها لدغته مخاوفها وأكربته مناظرها فيرسخ في القلب المؤمن الخوف بالمشاهدة ويتعظ ويحيى ويثبت قائماً في ذلك العالم من شدة الحذر فيتجافى عن دار الغرور ويثبت إلى دار الخلود: ﴿تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ ٱلْمَضَاجِعِ﴾[1] الدنياوية فلا تضطجع فيها قلوبهم المؤمنة ولا تنام قلوبهم بشدة المخاوف المحيطة بهم فإذا لاَحَ لأبصارهم الجسمانية بهجة الدنيا وزينتها وعمارتها هاج ذكر الموت في القلب في الباطن وهدمها من أصلها وإذا لاح للأبصار [٢٣٩/ ب] المباني العالية وما فيها من الجواري والولدان/ والخدم والأثاث لاح لبصر القلب بلا زمان ظلمة القبور ونقل الجميع إليها من تلك القصور وسكناهم تحت التراب والصخور فصار ذلك في قلوبهم هباءً منثوراً.

وهكذا كل ما لاح شيء من الدنيا في البصر حَمله البصر إلى القلب فيجده معموراً بمشاهدة الآخرة فيهدمه من أصله ولا يثبت الدنيا بمشاهدة الآخرة بوجه فإن الكبير الشديد والعظيم الكبير يغلب الصغير الحقير فإذا كان العبد هكذا خائفاً للآخرة ناظراً ببصره إلى الدنيا خائفاً منها الفتنة والقطيعة خالطه الخوف ظاهراً وباطناً يحذر هذه وهذه ويأخذ من هذه لهذه كمن يخشى في موضع مخوف كثير المخاوف من جميع الجوانب.

جعلنا الله وإياكم من حزبه الناجين في الدنيا والآخرة في عافية. آمين.

وصلى الله على محمد وآله.

فصـــل

وأما المقام الثالث من الخوف في مقام الإحسان:

فهو الحقيقة في الخوف وجميع المخاوف بالإضافة إليه كلا شيء بل إليه ترجع المخاوف كلها حقيقة بعد أن كانت مجازاً.

والخوف في هذا المقام والفزع والهيبة على حسب الأحوال لأنه عن مشاهدة صفات [٢٤٠/ أ] المخوف وبذلك وصف عباده المكرمين/ من الكروبيين والروحانيين والخدمة الأملاك في جميع العالمين فقال: ﴿وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَا فِي ٱلسَّمَاوَاتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ مِن دَآبَّةٍ وَٱلْمَلَآئِكَةُ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ﴾[2]. ثم قال: ﴿يَخَافُونَ رَبَّهُم مِّن فَوْقِهِمْ﴾[2]. فوصفهم بأنهم في أنفسهم تحت لما غشيهم وأحاط بهم من هيبة فوقية الربوبية ورتبة السيادة ثم قال: ﴿وَيَفْعَلُونَ مَا

(١) سورة السجدة (الآية: ١٦).
(٢) سورة النحل (الآية: ٤٩، ٥٠).

يُؤْمَرُونَ﴾[١]. فوصفهم بالمبادرة إلى الأمر كما يفعل الهائبون عند مشاهدة الملوك.

فإذا فهمت هذا فاعلم أن هذا المقام الإحساني ينقسم إلى قسمين لأن صفات الباري جل جلاله على ضربين: صفات ذاتية وصفات فعلية.

والفعلية هي انفعال الخلق مدة بقائه وتصريفه وتلوينه وتقليبه في كل نفس وطرفة.

وذلك الجليل الفعال ﴿صُنْعَ ٱللَّهِ ٱلَّذِي أَتْقَنَ كُلَّ شَيْءٍ﴾[٢].

وذلك أن المخلوق إذا أوجده الله وكان بعد أن لم يكن لم يتركه ولا تخلى الإيجاد عنه ولو فعل لانعدم على الحين ولا يجوز بقاؤه لأنه لو بقي طرفة عين بنفسه لاستغنى في ذلك النفس عن الموجد وقام بنفسه وهذه صفة ليست إلاّ للّه.

بل الأشياء والتصريف والإبقاء والإيجاد والتلوين والتقليب جار عليه أبداً.

فالمشاهد لهذا المقام من الصفات الفعلية يُرى صادرة عن الموجد/ جل جلاله وجارية [٢٤٠] كجري الماء في الأودية والأنهار متقلبة مرتعدة كارتعاد المياه وتلاطم الأمواج في لجج البحار المجري لذلك كله واحد يرفع ويضع ويعطي ويمنع ويستدرج ويمكن ويقلب القلوب في الشكوك والخيرات والإيمان واليقين ويرى في نظره ذلك ويعلم أن الله يحدث في كل وقت وحين من الضلال والإبعاد والعمى والجهل والعصيان والخذلان في باطن هذا العالم على قلوب الإنس والجن ما لا يحصى ويرى جميع ذلك نازلاً مع جميع العقوبات على القلوب من خزائن الغيب وشاهد الآجال في كل وقت يأتي على العباد والمختوم لهم في هذا العالم بالشقاء أكثر من المختوم لهم بالسعادة والإيمان.

قال الله عز وجل: ﴿وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلاَّ عِندَنَا خَزَآئِنُهُ وَمَا نُنَزِّلُهُ إِلاَّ بِقَدَرٍ مَّعْلُومٍ﴾[٣].

والمشاهد للصفات الفعلية واحد من جملة الأفعال لا يدري بما يواجهه المدبر ولا ما ينزل عليه المقدر في كل نفس.

ومن هذا المقام نطق الصادق الأمين الممكن في النبوة المكين بالخوف وقال: «يا مقلب القلوب ثبت قلبي على دينك»[٤].

---

(١) سورة النحل (الآية: ٥٠).
(٢) سورة النمل (الآية: ٨٨).
(٣) سورة الحجر (الآية: ٢١).
(٤) أخرجه الترمذي في السنن (٢١٤، ٣٥٢٢)، ابن ماجة في السنن (١٩٩)، أحمد في المسند (٣/١١٢)، =

[٢٤١/ أ] لأن الشرك والكفر والبدع والزيغ والضلال والظلم والعصيان/ كثير في هذا العالم الإنساني والجني ومن التوفيق وما عسى أن يقع المؤمنون في الكافرين وما يقع الصالحون وأهل الاستقامة في الزائغين وأهل الذكر في الغافلين وهداهم وضلالهم ومخالفتهم صادر كما قدمنا مع كل نفس.

فالمشاهد لذلك المقام الإحساني من الخوف قد خالطه رعب ما يشاهد ويخاف أن يطرأ عليه مع الطرفات ما يهلكه ومن هذا المقام قال سري السقطي:

إني لأنظر إلى أنفي في اليوم كذا وكذا مرة مخافة أن يكون قد اسود لما أخاف من العقوبة.

وورد في صورة العرش أن العرش ليئط من خوف الله أطيط الرحل الجديد بالراكب.

فهذا الأطيط عبارة عن انفعال المأمور والمفعول على الدوام لما يصدر عليه وعلى من حوى تقليب المقلب وتصريف المدبر.

فهذا الخوف في هذا المقام يشمر أطراف القائم فيه من جوانبه ويفيض أجناحه وحواشيه في كل ناحية ويشاهد الموجودات كلها منكمشة منقبضة في أنفسها فلا يسكن إلى شيء ولا يطمئن بحال ولا عمل ولا ينظر إلى الملك الحي.

وقد ورد في صفة الكروبيين: أنهم من أعظم الملائكة وهم صفوف متراصون[١] وليس [٢٤١/ ب] منهم واحد ينظر في وجه من إلى جانبه ولا يكلمه وكذلك/ إسرافيل ناظر شاخص ينتظر متى يؤمر.

فكذلك كل من في الملك منقبض منكمش في هذا المقام مراقب للأمر. فاعلم ذلك.

فصل

اعلم أن بتصحيح الخوف يخلص التوحيد من دقائق الشرك الخفي والجلي وذلك أن الخوف فيه تشبيه وتمويه على العقول تحسب العقول أن الأشياء المخوفة هي المهلكة فيقع في الشرك. قال الله عز وجل: ﴿وَإِيَّايَ فَارْهَبُونِ﴾[٢]، [وقال][٣]: ﴿إِيَّايَ فَاتَّقُونِ﴾[٢] فأمر بالخوف منه وحده وإذا أمر بالخوف منه وحده لم يجز أن يخاف سواه.

= الحاكم في المستدرك (٢/ ٢٨٨)، ابن أبي شيبة في المصنف (١٠/ ٣٦)، الطبراني في الكبير (١/ ٢٢٤)، ابن أبي عاصم في السنة (١/ ١٠٤).

(١) في الأصل: متواصون. وهو تحريف.

(٢) سورة البقرة (الآية: ٤٠، ٤١).

(٣) ما بين المعقوفين زيادة للفصل بين الآيات.

فالواجب تحقيق الخوف من الله وحده فإن الأشياء لا تفعل الأشياء بوجه فكيف يخاف من لا يفعل شيئاً وقد نهى الله عز وجل عن خوف غيره لأن ذلك شرك فقال: ﴿إِلاَّ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنْهُمْ فَلاَ تَخْشَوْهُمْ وَٱخْشَوْنِي﴾[1].

والنهي يدل على تحريم المنهي عنه والخوف من غير الله من عمل الشيطان وضعف اليقين ودقائق الشرك الخفي، قال الله عز وجل في تحقيق الخوف من الله وتخليصه وتوحيده له: ﴿ٱلَّذِينَ قَالَ لَهُمُ ٱلنَّاسُ إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدْ جَمَعُواْ لَكُمْ فَٱخْشَوْهُمْ﴾[2].

ثم أثنى على الموحدين بتحقيق الخوف منه وإخلاصه له دون من سواه فقال: ﴿فَزَادَهُمْ إِيمَاناً﴾[2] إلى قوله لهم: ﴿فَلاَ تَخَافُوهُمْ﴾[3] ذكرهم ذلك أن لا/ فاعل إلا الله [٢٤٢/ أ] فقالوا: ﴿حَسْبُنَا ٱللَّهُ﴾[4]. أي لا نخاف سواه.

ثم أخبر أن الخوف من غيره من عمل الشيطان فقال: ﴿إِنَّمَا ذَٰلِكُمُ ٱلشَّيْطَانُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَاءَهُ﴾[5].

ثم نهاهم عن خوف غيره فقال: ﴿فَلاَ تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ﴾[5].

أي اعلم أن ذلك من شرط الإيمان فقال: ﴿إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾[5].

فصـــل

فإن قلت فإن الله عز وجل قد قال: ﴿حَافِظُواْ عَلَى ٱلصَّلَوَاتِ وَٱلصَّلاَةِ ٱلْوُسْطَىٰ وَقُومُواْ لِلَّهِ قَانِتِينَ﴾[6].

ثم ذكر الخوف من العدو فقال: ﴿فَإنْ خِفْتُمْ فَرِجَالاً أَوْ رُكْبَاناً﴾[7].

فاعلم أن القرآن لا يتناقض وإنما معنى الخوف في لقاء العدو الخوف من الله أن يسلطهم على المؤمنين كما قال: ﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَسَلَّطَهُمْ عَلَيْكُمْ﴾[8].

فإن العدو قد صح في عقيدة الإيمان أنه لا يتحرك حركة إلاّ بقدرة الله فإنه لا فاعل سوى الله وحده فالموقن إنما يشاهد الكل بيد القدرة يسلط من يشاء وينصر من يشاء.

---

(١) سورة البقرة (الآية: ١٥٠).
(٢) سورة آل عمران (الآية: ١٧٣).
(٣) جاءت في الأصل: فاخشوهم. وهو سهو.
(٤) سورة آل عمران (الآية: ١٧٣).
(٥) سورة آل عمران (الآية: ١٧٥).
(٦) سورة البقرة (الآية: ٢٣٨).
(٧) سورة البقرة (الآية: ٢٣٩).
(٨) سورة النساء (الآية: ٩٠).

فإن قلت فإن النبي ﷺ كان يحرس حتى نزل قول الله: ﴿وَٱللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِ﴾[١].

فاعلم أن هذا حجة عليك، إنما كان يخاف قبل نزول الآية ربه تسليطه حتى أمنه من التسليط، قال الله عز وجل: ﴿فَلَا تَخْشَوُا۟ ٱلنَّاسَ وَٱخْشَوْنِ﴾[٢].

[٢٤٢/ ب] وهذا نزل في مواطن الحكم للحكام والقيام فيه بالقسط[٣] ولا يفعل/ ذلك إلا خائف من الله وحده خالص التوحيد من دقائق الشرك.

فإن قلت: فربما يذم الإنسان ويلام من الخوف.

فاعلم أن الله قد أثنى على الخائفين منه وحده فقال: ﴿وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَآئِمٍ﴾[٤].

وأعظم الناس درجة في الخوف من الله وحده أهل الصدق في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وهو أعظم الجهاد.

فإن قلت: الآمر بالمعروف والناهي عن المنكر يخاف عليه القتل أو الهوان والضرب.

فقد أعلمتك أن الموحد في الخوف إنما يخاف التسليط من المسلط جل جلاله لأن نواصي الكل بيده فإن سلط عليه الهلاك في ذاته فهلك بحق كان من الذين قال الله عز وجل فيهم: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشْرِي نَفْسَهُ ٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِ ٱللَّهِ﴾[٥].

ومن الذين أثنى الله عليهم وذم من أذاهم وقتلهم في قوله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ وَيَقْتُلُونَ﴾[٦] أي والذين يقتلون ﴿ٱلَّذِينَ يَأْمُرُونَ بِٱلْقِسْطِ مِنَ ٱلنَّاسِ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾[٦].

فقرنهم مع الأنبياء لأنهم على مناهجهم، والأشبه فالأشبه بهم.

فإن قلت: فإن الله نهى عن إلقاء اليد إلى التهلكة.

فاعلم أن هذا لا يتناقض وموضع الإلقاء باليد إلى التهلكة هو عموم لم يأمر الله به [٢٤٣/ أ] فيقول الله له:/ أنا المهلك في هذا الموضع وفي سواه ولم آمرك بإلقاء اليد إلى التهلكة فأنت مذموم فحقيق[٧] أن أهلكك، ولا تخف سواي في كل حال. والمتحقق في التوحيد في هذا المقام سواء عنده الذرة أو الخلق كلهم لأنه هو الفاعل في الذرة وعلى يدها وفي الخلق

(١) سورة المائدة (الآية: ٦٧).
(٢) سورة المائدة (الآية: ٤٤، ٥٤).
(٣) في الأصل: بالسقط. وهو تحريف.
(٤) سورة المائدة (الآية: ٥٤).
(٥) سورة البقرة (الآية: ٢٠٧).
(٦) سورة آل عمران (الآية: ٢١).
(٧) في الأصل: فحيق. وهو تحريف.

وعلى أيديهم فقط تسلط شررة من النار فيهلك بها ويقبض الخلق كلهم فلا يقدرون معه على إذابة شيء. فالكمال في هذا المقام عند المحققين به أن لا يبقى في القلب من خوف المخلوقين كلهم مثقال ذرة ولا أقل ولا أكثر ويحصل في القلب خوف الخالق وحده.

وبذلك أثنى على العباد المكرمين: ﴿وَهُمْ لا يَسْتَكْبِرُون يَخَافُونَ رَبَّهُم مِن فَوْقِهِمْ﴾(١) فأخبر أنهم يخافون ربهم وحده ليس في قلوبهم مثقال ذرة من خوف سواه وبهذا أثنى الله على الأولياء الأصفياء المتشبهين بالملأ الأعلى فقال: ﴿أَلاَ إِنَّ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهِ لاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ﴾(٢).

ليس معنى الآية أنهم لا يخافون الله وإنما معنى الآية أنهم لا يخافون سواه ألا تراه كيف وصفهم في الآية الأخرى بعد هذه الآية بالخوف فقال: ﴿ٱلَّذِينَ آمَنُواْ وَكَانُواْ يَتَّقُونَ﴾(٢) والتقوى/ هي الحذر، والحذر هو الخوف. [٢٤٣/ ب]

فإن قلت: إن موسى عليه السلام قد قال فيه: ﴿فَخَرَجَ مِنْهَا خَآئِفاً يَتَرَقَّبُ﴾(٣).

حين أجمع آل فرعون على قتله.

فاعلم أنه إنما يخاف تسليطه كما تقدم فلم يخف إلا الله ولم يخف فرعون ففرّ من تسليط الله والمواطن التي أمره الله أن يفرّ منها إليه ففرّ بأمر الله إلى الله ألا تراه كيف قال بعد ذلك: ﴿رَبِّ نَجِّنِي مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّالِمِينَ﴾(٣). لمّا علم أنه لا منجي سواه ولا مسلط سواه وكذلك قوله: ﴿وَلَهُمْ عَلَيَّ ذَنْبٌ فَأَخَافُ أَن يَقْتُلُونِ﴾(٤). إنما أراد بهذا الكلام استخراج ما عند الله من القضاء فيه وهل يسلطهم عليه أم لا فلما قال له: ﴿لاَ تَخَافَآ إِنَّنِي مَعَكُمَآ أَسْمَعُ وَأَرَىٰ﴾(٥).

فصار لأمره واستأمن ولو خافهم دون الله لبقي على الحال الأول، وكذلك جرى له في العصا فقال له: ﴿أَلْقِهَا يَا مُوسَىٰ﴾(٦) [وقال](٧): ﴿فَلَمَّا رَآهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَآنٌّ وَلَّىٰ مُدْبِراً﴾(٨). أي خائفاً من الله كأنه قال له ما هذا الفعل العظيم من فعلك يا رب فخاف منه فقال له: ﴿خُذْهَا وَلاَ تَخَفْ﴾(٩). فأخذها ولو خافها لما أخذها فلما أَمَّنَهُ وأظهر له حكماً آخر أخذها/ وهو مستأمن(١٠) لأنه كان في مقام التعليم فأراه كيف يصنع إذا أرسله إلى فرعون [٢٤٤/ أ]

(١) سورة النحل (الآية: ٤٩، ٥٠).
(٢) سورة يونس (الآية: ٦٢، ٦٣).
(٣) سورة القصص (الآية: ٢١).
(٤) سورة الشعراء (الآية: ١٤).
(٥) سورة طه (الآية: ٤٦).
(٦) سورة طه (الآية: ١٩).
(٧) زيادة للفصل بين الآيات.
(٨) سورة النمل (الآية: ١٠).
(٩) سورة طه (الآية: ٢١).
(١٠) في الأصل: وامستأمن. وفيه سقط وتحريف.

فلما أرسله إلى فرعون وقد أمنه من قتله بأيديهم وتحقق ذلك صار آمناً فلما ألقى السحرة عصيهم وحبالهم ورأى ما رأى من فعل الله في الحبال والعصي ﴿فَأَوْجَسَ فِي نَفْسِهِ خِيفَةً مُوسَىٰ﴾[1] وليس بالخوف الكلي لأنه مثبت بتأمين الله له حين أرسله فلما شاهد من الحبال والعصي ما شاهد قال: وما هذا الفعل الآخر يا رب فأمنه أمناً ثانياً فقال: ﴿قُلْنَا لَا تَخَفْ إِنَّكَ أَنتَ الْأَعْلَىٰ * وَأَلْقِ مَا فِي يَمِينِكَ﴾[1].

فمضى لما أمره ولم يخف أحداً وكذلك لو أظهر له ألف فعل لم يخف في الكل إلاّ الله وتسليطه لأنه مشاهد للصفات المخوفة المظهرة للأفعال وخوف الدنيا والفقر فيها من دقائق الشرك الخفي والخوف من الله وحده في كل حال هو التوحيد.

أما الخوف الإحساني فليس وراءه مقام لأنه عن مشاهدة تجلي الصفات الذاتية مقام الحاضرين العارفين والمحبين والمحبوبين والراضين والروحانيين وجميع سكان الحضرة العلية والروضة القدسية على اختلاف مقاماتهم وأحوالهم/ [٢٤٤/ ب] وأسرارهم مجالسة للحق في مقعد صدق نزلوا بعرصة التعظيم فأدبتهم الهيبّة بآداب المصفي المعلم في مقام التعليم بين يدي المعلم المتكلم الحكيم فخوف هؤلاء لا يعرفه إلاّ من على شمة منه أوقف خوفهم رعب الجلال وهيبة العظمة والكمال وفزع العزة والكبرياء والتعالي، ودهش الملك من رفعة المتعالي فسعة خوفهم على قدر ما تجلى لهم من عظمة الصفات التي هي على سعة الذات فهذا خوف لا يوزن ولا يقدر قدره لأنه يوازي ما تجلى له كما طلبه بعض العارفين في دعائه فقال: اللهم ارزقني من الهيبة لك والتواضع والذلة في نفسي ما يوازي ما أنت عليه[2] من الجلال والعزة والعظمة.

وكما ظهر لهم في هذا المقام من صفة حنان أو رحمة وجمال فإنها في مهابة الجلال والعزة والعظمة فلذلك هابه المحبون والعارفون والراضون وأنواع المقربين.

واختلفت أنواع الخوف عندهم باختلاف المقامات فخوف المقرب خوف الإبعاد وأن لا يرى أهلاً لتلك الحضرة العلية فيطرد. وخوف الناظر المشاهد خوف الحجاب/ [٢٤٥/ أ] وأن تغلق في وجهه لأن بصيرته لا تصلح للتنزه في ذلك العجب العجاب. وخوف المحب والمستأنس خوف الانقطاع عن المحبوب المؤانس فلا يكلم ولا يجالس لما خالط قلبه من الحب لغيره

---

(١) سورة طه (الآية: ٦٧، ٦٨، ٦٩).

(٢) جاءت العبارة على النحو التالي: ما يوازي ما (تجلى له كما طلبه) أنت عليه. فحذفت ما بين القوسين لعدم مناسبته للسياق.

والوسواس. وخوف البغض والتبديل لإشرافه على أسرار الجليل وإظهار لنفسه من خارج الغليل. وخوف العالم والعارف خوف ظهور الأحوال من أجل ظهور سوء أدب أو قلة تناصف. وخوف الراضي المسرور خوف السخط المنغص الكدور من أجل التبرم بشيء من التقدير والكراهة لأمر من أمور التدبير. وخوف القائم المشتاق خوف الزوال والفراق من اجل قلة وفاء عهد في المحبة أو نقض ميثاق. وخوف الزاهد في الكون الوجيه المبسوط خوف الإذلال المورث للسقوط من أجل تخطي رقاب الكون وأنه محظوظ.

وهكذا طبقات أهل عليين والرفيق الأعلى مخاوفهم لازمة لهم وقابضة بالأدب أنفسهم عنهم فيشربون الصافي الزلال على بساط الأنس خالصاً من كدورات النفس تناهيك ثم ناهيك من مخاوف تعلم آداب الحضرة العلية بغير تعلم ولا دربة أُولئك المقربين/ وحزب الله [٢٤٥/] المفلحون فلا تعلم نفس ما أخفي لهم من قرة أعين جزاءً بما كانوا يعملون.

وهذا الخوف الذي هو الإجلال والهيبة لا يزال أبداً ولا في الجنة لأن هيبة العزة لا تزول وهو المعني بقول القائل:

ومنك بدا حب بعز تمازجا بماء وصال كنت أنت وصلته

ولم يبق وراءه إلا الزيادة منه وخوف ما في نفس الملك لهم لأن سعة علمه فيهم وفي غيرهم لا يشاهدها إلا هو سبحانه فخافوا كيف نزولهم في نفسه.

الشعبة الثامنة والأربعون: الرَّجــاء

أما كون الرَّجاء من الإيمان فبيّن جداً لأنه في نفسه إيمان كما قال تعالى: ﴿فَمَن كَانَ يَرْجُواْ لِقَآءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلاً صَالِحاً وَلاَ يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَداً﴾[(١)].

ولا فرق بين رجاء اللقاء والإيمان باللقاء لأنه إذا رجا لقاء ربه فقد أمن بلقائه لقوله سبحانه: «أنا عند ظن عبدي بي»[(٢)].

والظن اليقين ولأن الرجاء ضد اليأس والقنوط اللذين هما كفر كما قال تعالى: ﴿لاَ يَيْأَسُ مِن رَوْحِ ٱللَّهِ إِلاَّ ٱلْقَوْمُ ٱلْكَافِرُونَ﴾[(٣)]، ﴿وَمَن يَقْنَطُ مِن رَّحْمَةِ رَبِّهِ إِلاَّ ٱلضَّآلُّونَ﴾[(٤)].

---

(١) سورة الكهف (الآية: ١١٠).

(٢) أخرجه أحمد في المسند (٢/ ٣١٥)، ابن حجر في الفتح (٢/ ٣٨٤)، الزبيدي في الإتحاف (٥/ ٥)، المنذري في الترغيب (٢/ ٣٩٣)، السيوطي في الدر المنثور (١/ ١٤٩).

(٣) سورة يوسف (الآية: ٨٧). (٤) سورة الحجر (الآية: ٥٦).

[٢٤٦/ أ] فإذا كان ضد الرجاء كفراً وضلالاً فهو في نفسه إيمان وهدى/ والشواهد عليه تطول.

اعلم أن مقام الرجاء يقتضي ثلاثة أشياء:

راج: وهو العبد.

ورجاء: وهو حال العبد.

ومرجو: وهو الله جل جلاله.

وحد الرجاء الطمع في المرجو وحسن الظن والأمل في المرجو، والطمع فقر حاضر.

فالرجاء الفقر إلى الله جل جلاله فلذلك كان الفقر أشرف المقامات، والرجاء والخوف فَرْقَدانِ[١] لا يجوز افتراقهما.

يكسر الرجاء شدة الخوف كي لا يخرج إلى الانهماك وأماني النفس فيعتدل الإيمان والأعمال في كفة الميزان ويحصل من مجموعهما حالة تسمى الإشفاق، كما أن الشفق هو الحمرة الممتزجة من ظلام الليل وضياء النهار لا هي ليل خالص ولا نهار خالص.

واعلم أن الرجاء على ثلاثة أقسام:

قسم في مقام الإسلام وعالم الحس،

وقسم في مقام الإيمان وعالم الغيب.

وقسم في مقام الإحسان.

فأما القسم الأول في مقام الإسلام وعالم الحس: فإن أمور هذا العالم على قسمين: دينية، ودنياوية.

فأما الدنياوية منها وهي المقيمة لعيشه: فإن الباري تعالى قد قسم أرزاق الخلائق على أنواع كثيرة: فمنهم من رزقه مالاً، ومنهم من رزقه صناعة، ومنهم من شغله بالدين وجعل [٢٤٦/ ب] رزقه من حيث/ لا يحتسب. ومنهم من أحوجه إلى الخدمة مع الخلق. ومنهم من أحوجه إلى السؤال، ومنهم نجار وغير ذلك.

فيدخل العبد في أمور معاشه على الوجه الذي يُسر له كما أمره العِلم من هذه الوجوه المتقدمة راجياً لفضل الله ورحمته وحده قاطعاً طمعه ورجاءه من جميع الخلق لعلمه أنهم لا يضرون ولا ينفعون أحداً في رزقه ولا أنفسهم.

---

(١) الفَرْقدان: نجمان في السماء لا يغربان ولكنهما يطوفان بالجدي. وقيل: هما كوكبان قريبان من القطب. وقيل: هما كوكبان من بنات نَعْشٍ الصُّغْرَى.

ويجعل بدل الرجاء والطمع فيهم الرجاء والطمع في الله فعاش بينهم حميداً عزيزاً برجائه لربه وطمعه فيه لأنه إن أعطاه مولاه مالاً فمن فضله ورحمته وإن أعطاه صناعة وكسباً فبتعليمه وتيسيره، وإن أخدمه مع الخلق بأجره فبالقوة التي أعطاه مولاه ينفعهم كما ينفعونه، وإن أحوجه إلى السؤال لما في أيديهم وكان صادقاً فطناً لحقه الذي جعله الله في أيديهم وما يلزمهم من حقوق السائل المسلم الصادق.

وذلك لحكمة من الله سبحانه فلا يتحرك حركة إلاّ طامعاً[1] في فضل الله راجياً له قاطعاً طمعه ورجاءه من الخلق كلهم قلبه مع ربه بالرجاء وبدنه مع الخلق متصرف.

فصـــل

وأما الأمور الدينية في مقام الإسلام: فإنها على ضربين: أوامر، ونواهي.

الأوامر أمر بالحسنات، والنواهي/ نهي عن السيئات. [٢٤٧/]

وقد قرن الله الرجاء في كتابه مع النوعين: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ آمَنُواْ وَٱلَّذِينَ هَاجَرُواْ وَجَاهَدُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ أُوْلَـٰئِكَ يَرْجُونَ رَحْمَةَ ٱللَّهِ﴾[2].

فقرن الرجاء مع العمل، وقال: ﴿إِنَّ رَحْمَةَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾[3].

فقرن الرحمة المرجوة بالإحسان والحسنات.

وهكذا العمل الصالح أبداً مقرون مع الرجاء، وقال سبحانه في المنهيات: ﴿وَمَن تَقِ ٱلسَّيِّئَاتِ يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمْتَهُ﴾[4].

فاعلم أن الرحمة المرجوة الوقاية من السيئات وترك المنهيات، فامتثل الراجي العمل الصالح واجتنب العمل السَّيىء راجياً أن ينجيه الله من العذاب ويكرمه بالثواب دون أن يعول على أعماله ويعتقد أنها تنجيه إنما يكون راجياً في ربه لا في عمله.

وبذلك وصف الله العمال وأثنى عليهم للاقتداء بهم فقال: ﴿أَمَّنْ هُوَ قَانِتٌ آنَآءَ ٱللَّيْلِ سَاجِداً وَقَآئِماً يَحْذَرُ ٱلآخِرَةَ وَيَرْجُوا رَحْمَةَ رَبِّهِ﴾[5].

---

(١) في الأصل: طعاماً. وهو تحريف.

(٢) سورة البقرة (الآية: ٢١٨) وقد وقع خلط في الآية نظير سهو من الناسخ إذ جاءت على هذا النحو: «إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات أُولٰئك يرجون رحمة الله».

(٣) سورة الأعراف (الآية: ٥٦).

(٤) سورة غافر (الآية: ٩).

(٥) سورة الزمر (الآية: ٩).

ولم يقل يرجو عمله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَٱلَّذِينَ هَاجَرُوا۟ وَجَاهَدُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أُو۟لَـٰٓئِكَ يَرْجُونَ رَحْمَتَ ٱللَّهِ﴾[1].

ولم يقل يرجون أعمالهم، وإنما العمل سبب من عند الله وهو خلق من جملة المخلوقات.

[٢٤٧/ ب] فكما يعتقد المؤمن أن الخلق لا يضرون ولا ينفعون فكذلك/ لا يعتقد في عمله أنه ينجيه وينفعه، وإنما الأعمال براآت من أتى بها نجي وأعطي ومن لم يأت بها لم يكن له براءة توجب له عطاء. فافهم.

وتصديق ذلك كله قول النبي ﷺ: «لن ينجي أحدكم عمله».

فهذا هو الفوز من العذاب، وقال في الثواب: «لن يدخل أحدكم الجنة بعمله».

قالوا: ولا أنت يا رسول الله؟ قال: «ولا أنا إلا أن يتغمدني الله برحمة منه وفضل»[2].

فهذا كله لئلا يرجو أحد مخلوقاً فإن الرجاء يأتي من التوحيد مخلص للإيمان من دقيق الشرك لأنه تعليق القلب بالله وحده وطمعه[3] فيه وقطع طمعه من المخلوقين إنما يليق الطمع والرجاء فيمن بيده ملكوت كل شيء، وفي مثله فليطمع الطامعون.

فهذا معنى خروج القلب عن العمل لا أنه تهاون بالعمل وكيف والله تعالى يقول: ﴿ٱدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾[4]. و ﴿إِنَّمَا تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾[5]. و ﴿وَتِلْكَ ٱلْجَنَّةُ ٱلَّتِىٓ أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾[6]. [و] ﴿وَيُنَجِّى ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ بِمَفَازَتِهِمْ﴾[7].

[٢٤٨/ أ] فالنجاة من العذاب والفوز بالثواب لا يكون من الله إلا بواسطة الأسباب/ التي هو جعلها ونصبها، وهي الوظائف الدنياوية. فافهم.

ومن رأى غير ذلك وترك الأعمال واتكل على الرجاء فهو مرجيء خبيث مبتدع مارق، ومتمن مغرور جاهل، وهذا ليس من الرجاء في شيء.

---

(١) سورة البقرة (الآية: ٢١٨).

(٢) أخرجه البخاري في الصحيح (٨/ ١٢٢)، مسلم في الصحيح (صفات المنافقين ب ١٧ رقم ٧١)، أحمد في المسند (٢/ ٤٨٢)، البخاري في الأدب (٤٦١)، الهيثمي في المجمع (١٠/ ٣٥٦).

(٣) في الأصل: طعمه. وهو تحريف.

(٤) سورة النحل (الآية: ٣٢).

(٥) سورة التحريم (الآية: ٧).

(٦) سورة الزخرف (الآية: ٧٢).

(٧) سورة الزمر (الآية: ٦١).

وفقنا الله وإياكم لما يحبه ويرضاه.

فقد تبين مما قدمنا أن تحقيق الرجاء ملخص التوحيد للّه عز وجل وأنه باب عظيم من التوحيد لأن الرجاء هو الطمع في المرجو وتأمل القلب لما يحصل منه في المستقبل وقد أصفقت الأخبار وأجمعت أهل العقول على ذم الطامع في غير الله؛ لأن الطمع في غير الله شرك من حيث توهم أن أحداً يفعل شيئاً ويعطي ويمنع ولذلك ظهرت قوة توحيد الراجين الموحدين الذين يرون أن لا فاعل إلا الله في مواطن الامتحان والتخويف، قال الله عز وجل: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُواْ ٱلْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُم مَّثَلُ ٱلَّذِينَ خَلَوْاْ مِن قَبْلِكُم مَّسَّتْهُمُ ٱلْبَأْسَآءُ وَٱلضَّرَّآءُ وَزُلْزِلُواْ حَتَّىٰ يَقُولَ ٱلرَّسُولُ وَٱلَّذِينَ آمَنُواْ مَعَهُ مَتَىٰ نَصْرُ ٱللَّهِ﴾[1].

لما زلزلهم بالمخوفات في مواطن المهلكات من أفعاله الصادة عن صفاته حتى اشتد خناقهم فكاد يحصر سياقهم، هاج الرجاء فيهم،/ ودار من قلوبهم على ألسنتهم وظواهرهم [٢٤٨/ فقال: ﴿مَتَىٰ نَصْرُ ٱللَّهِ أَلاَ إِنَّ نَصْرَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ﴾[2].

فاعتدلوا بالرجاء ولم يتحرقوا بالخوف وتمنوا اللقاء.

وهكذا الرجاء أخو الخوف وقرينه يثبته ويعينه فظهر منهم قوة توحيد الرجاء حين انقطع طمعهم من جميع الأشياء فقصدوا إلى عين الحق فقالوا: ﴿مَتَىٰ نَصْرُ ٱللَّهِ﴾[1]؟

فعلموا أنه لا ناصر سواه وكذلك أخبر عنهم في آية أخرى في قوله: ﴿فَلَمَّا جَاوَزَهُ هُوَ وَٱلَّذِينَ آمَنُواْ مَعَهُ قَالُواْ: لاَ طَاقَةَ لَنَا ٱلْيَوْمَ بِجَالُوتَ وَجُنُودِهِ﴾[2].

فانتدب أهل حسن الظن بالله وحسن الظن أفضل مقامات الرجاء لأنه يقين في نفسه وتوحيد ولو ساء ظنهم لهلكوا كما قال الآخرون: ﴿لاَ طَاقَةَ لَنَا ٱلْيَوْمَ بِجَالُوتَ وَجُنُودِهِ﴾[2].

بل أخبر عنهم بقوله: ﴿قَالَ ٱلَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُمْ مُّلاَقُواْ ٱللَّهِ كَمْ مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ مَعَ ٱلصَّابِرِينَ﴾[2].

وحسنوا ظنهم الذي هو ثقتهم بالله وأنه ينصرهم فكان عند ظنهم به.

ثم لمّا كان الالتقاء في قوله: ﴿وَلَمَّا بَرَزُواْ لِجَالُوتَ وَجُنُودِهِ﴾[3].

مدوا طمعهم وأملهم لمولاهم موحدين له بالرجاء الصرف الخالص فقالوا له دون

---

(١) سورة البقرة (الآية: ٢١٤).
(٢) سورة البقرة (الآية: ٢٤٩). (٣) سورة البقرة (الآية: ٢٥٠).

[٢٤٩/ أ] سواه متضرعين: ﴿رَبَّنَآ أَفْرِغْ/ عَلَيْنَا صَبْراً وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ﴾[١].

أي فإنا لا نرجو سواك ناصراً كما لا نخاف إلاّ تسليطك.

فحقق ظنهم فقال: ﴿فَهَزَمُوهُم بِإِذْنِ اللَّهِ﴾[٢].

وقيل كما قالوا هم: ﴿كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللَّهِ﴾[٣].

وبضد هذا الوصف هم المنافقون لما فقدوا التوحيد وحسن الظن والرجاء كانوا منافقين مشركين فقال الله عز وجل: ﴿إِذْ جَآءُوكُم مِّن فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ الأَبْصَارُ وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِاللَّهِ الظُّنُونَا﴾[٤].

فقررهم على ما علم الله من ظنونهم به ورجائهم فيه ثم قال: ﴿هُنَالِكَ ابْتُلِيَ الْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا زِلْزَالاً شَدِيداً﴾[٤].

ثم أخبر عن سوء ظن المنافقين به بقوله: ﴿وَإِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ مَّا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ إِلاَّ غُرُوراً﴾[٤].

فأساءوا الظن بالله وقطعوا رجاءهم منه فأشركوا وهلكوا ثم جعل يرد الآيات في أوصافهم إلى قوله: ﴿لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا اللَّهَ وَالْيَوْمَ الآخِرَ﴾[٥].

هكذا تقدير الكلام فأخبر أن الراجين بضد المنافقين بتخليص التوحيد في مقام الرجاء.

[٢٤٩/ ب] فالرجاء ألاّ ترجو أحداً من خلق/ الله ولا تطيع فيه صغيراً كان أو كبيراً ديناً أو آخرة أزلاً وأبداً معلق القلب في كل شيء بالله منقطع القلب من التعلق بغير الله فصار قلبه فارغاً من كل شيء ليس فيه مثقال ذرة من الرجاء والطمع في مخلوق وامتلأ قلبه وتعلق بالله وحده.

فبذلك تنتفي دقائق الشرك الخفي، قال الله عز وجل لنبيه عليه الصلاة والسلام: ﴿قُل لاَّ أَمْلِكُ لِنَفْسِي ضَرًّا وَلاَ نَفْعاً﴾[٦].

ولما نزلت: ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ الأَقْرَبِينَ﴾[٧]. نادى قرابته واحداً بعد واحد يقول: «يا بني فلان انظروا لأنفسكم ويا بني فلان».

---

(١) سورة البقرة (الآية: ٢٥٠).
(٢) سورة البقرة (الآية: ٢٥١).
(٣) سورة البقرة (الآية: ٢٤٩).
(٤) سورة الأحزاب (الآية: ١٠، ١١، ١٢).
(٥) سورة الأحزاب (الآية: ٢١).
(٦) سورة يونس (الآية: ٤٩).
(٧) سورة الشعراء (الآية: ٢١٤).

وقال: «يا عباس بن عبد المطلب لا أغني عنك من الله شيئاً ويا صفية عمة محمد لا أغني عنك من الله شيئاً ويا فاطمة بنت محمد لا أملك لك من الله شيئاً»[1].

فأخرجهم إلى أن يعلقوا قلوبهم بالحق ويعملوا له وحده وأسلمهم إلى المرجو الحق سبحانه فيكون كل واحد متعلقاً بالله وحده فرداً لفردٍ.

فالرجاء مقام عظيم يبعث على الأعمال وتحقير للأعمال في أعين العمال.

وفقنا الله وإياكم لما يحبه ويرضاه.

أما المقام الثاني من الرجاء في مقام الإيمان:

فأول/ ما يقع عليه فِكره من الغيب نفسه فيجدها كما قال الله تعالى أمّارة بالسوء كارهة [٢٥٠/ أ] لفعل الخير جبانة فيه مائلة إلى الهوى والإعراض عن ربها.

ثم تجدها مرحومة بأسباب الآخرة كما قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلنَّفْسَ لَأَمَّارَةٌۢ بِٱلسُّوٓءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّيٓ﴾[2].

فلما ظهرت الرحمة فيها على ما هي عليه من السوء قوي رجاء العبد في الراحم لها بالإيمان الذي لو أجمع الخلق كلهم أن يدخلوه في قلب عبدٍ باجتهاد منهم ما قدروا على ذلك، ولا الإنسان بنفسه لأنه لا يملك من باطنه شيئاً مع كراهية النفس في الخير وأمرها بالسوء.

فكتب الله الإيمان في باطن العبد برحمته وزينه وحببه والزينة محبوبة.

وكرّه الكفر والفسوق والعصيان، والمكروه مبغوض.

فمن الرجاء في عالم الغيب مجاهدة العدو إبليس ومخالفة النفس فيما يدعوان إليه فإن ذلك من أعمال القلوب المقرونة بالرجاء.

ومن الرجاء ما أمد الإيمان به من التوفيق والهداية كي يقوى ويثبت فإذا نظر المؤمن إلى فعل الله اللطيف الرحيم به في هدايته للإيمان قوي رجاؤه في رحمة الله ورجاء أن يختم له بالإيمان والتوفيق كما هداه أولاً.

والخاتمة أيضاً أول ما يلوح/ له من الغيب بعد النفس من أحوال الآخرة. [٢٥٠/ ب]

---

(١) أخرجه البخاري في الصحيح (٤/ ٨)، (٦/ ١٦٠)، مسلم في الصحيح (الإيمان ٣٥١)، أبو عوانة في المسند (١/ ٩٥)، ابن حجر في الفتح (٥/ ٣٨٢)، الطحاوي في معاني الآثار (٣/ ٢٨٦).

(٢) سورة يوسف (الآية: ٥٣).

وكذلك ينظر إلى الكفر وكيف صرفه الله عنه وكرهه إليه حتى كرهه فيرجو أن يصرفه عنه في خاتمته ويحسن ظنه به في ذلك ويقول: ما فعل بي مولاي هذا إلاّ وهو يريد أن يرحمني فيمتلىء قلبه بتباشير الرجاء ويرغب إلى الله ألاّ يجعل الإيمان عنده عادة[١] في كل وقت كما قال: ﴿وَيَدْعُونَنَا رَغَباً وَرَهَباً﴾[٢].

والرغب: هو الرجاء والرهب هو الخوف.

وفي كراهية الكفر رجاء عظيم لأن الكراهية للشيء إبعاد لَهُ عن محل الإيمان.

وهما ضدان، والضدان لا يجتمعان في محل واحد ولا يدخل أحدهما على الآخر ما دامت الكراهية الضدية بينهما.

وفي معرفة العبد بالكفر رجاء عظيم لأن بالأضداد تتبين الأشياء فتنفصل بها بعضها من بعض.

فلما عرفه بالكفر وهداه لمعرفته عرفه كيف يجتنبه كما قال: ﴿وَهَدَيْنَاهُ ٱلنَّجْدَيْنِ﴾[٣].

فإن ظهر له عند الخاتمة فتنة تثبت بهداية الله الذي هداه وعرفه بالماضي وبتوفيقه في الحال وفي وجوب العبد لسوء الخاتمة رجاء عظيم لأن من خاف على زوال شيء منه اغتبط به.

[٢٥١/ أ] / وهذا كله من أسباب التثبيت على الإيمان ومن الرجاء في القلب فينشط الباطن والجوارح لفعل الطاعات فينطلق اللسان بالشهادة بلا كلفة، ولو ألقى مكانه سوء ظن أو يأس لأثمر ذلك انغلاق الباطن وضيق الصدر وكسل الجوارح.

ألا ترى أن الخلق لو اجتمعوا على أن يطلقوا لسان العبد بالشهادة ما قدروا على ذلك وأن ينشطوا قلبه للصلاة، قال الله تعالى: ﴿وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلاَّ عَلَى ٱلْخَاشِعِينَ﴾[٤].

بل هي أثقل على تاركها من الجبال ـ أعني الصلاة ـ وذلك من الكسل الباطن لفعلها وكراهية لها.

ومن الرجاء العظيم تجريد الإيمان وإدامة خلقه في القلب فإن المؤمن لا يستغني طرفة عين عن خلق الإيمان في قلبه في كل نفسٍ لأنه كالأعراض التي لا تبقى زمنين.

والعبد ربما عصى وغفل وأعرض عن مولاه وهو يصنع به في باطنه هذا الصنع الكريم فيطمع العبد في حسن الخاتمة لأن كل امتدادة في نفسها خاتمة لأن بإتيان مثلها في الإمداد

---

(١) في الأصل: عادية. وهو تحريف.
(٢) سورة الأنبياء (الآية: ٩٠).
(٣) سورة البلد (الآية: ١٠).
(٤) سورة البقرة (الآية: ٤٥).

تد تمت هي في نفسها فيقول العبد إذا عمل معي هذا وأنا في حال القوة والمعصية والإعراض والغفلة فعسى أن/ يفعل ذلك معي في حال الضعف في سكرات الموت إذا [٢٥١/ ب] اضطررت إليه غاية الاضطرار وكرهت ما كنت عليه من العصيان وتمنيت التوبة وأني لم أكن عصيته قبل ذلك طرفة عين، وقال النبي ﷺ: «لا يموتن[1] أحدكم إلاّ وهو يحسن الظن بالله».

فهذا رجاء عظيم في حق كل مذنب عند الموت فكيف بالمطيعين المتقين؟

ثم إذا نظر الراجي إلى القبر وفتنته وسؤال الملكين له عن الربوبية والرسالة هل هي حق أم لا؟ فينظر إلى قلبه عند ذلك إن اعترضه خاطر سوء في الربوبية والرسالة فيود أن لو خرَّ من السماء ولا يرد عليه ذلك.

أوْ لَوْ قال له قائل: إن الله ليس بحق موجود أو النبي والرسول ليس بحق أو ينسب الرسول إلى كذب لظهر عليه من تغيره وغضبه عليه ما يسفك به دمه ويسعى في هلاكه إن قدر.

فيقول هكذا يفعل معي بكرمه في الآخرة عند المساءلة إن شاء الله. فيقوى رجاؤه. وإن كان مخلطاً حين أظهر منه النصرة له ولرسوله في قلبه ولسانه في الدنيا ثم بعد السؤال نعيم القبر أو عذابه.

فيجد الراجي [ما][2] قد أرصد الله له/ بعد موته في الدنيا، جماعة من المؤمنين [٢٥٢/ يغسلون جسده ويحملونه على أعناقهم، ويدعوا إليه من الأئمة الصالحين وجماعة من المؤمنين من يصلي عليه فيقومون قياماً على أرجلهم راغبين إلى الله له شافعين فيه أن يقيه من عذاب القبر وأهواله وأن يؤنس وحشته وغربته.

وقليل ما يرد الكريم جماعة من المؤمنين.

هذا إن شاء الله للمذنبين فكيف بنفس تتلقى بالروح والريحان والمغفرة والرضوان: ﴿تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ ٱلْمَلَآئِكَةُ أَلاَّ تَخَافُواْ وَلاَ تَحْزَنُواْ﴾[3].

فكذلك إن ترك قرابة وأولاداً أو إخواناً يدعون له في قبره ما ذكروه مع ما يرجو من

(١) في الأصل: يمت وهو تحريف والحديث أخرجه مسلم في الصحيح (٢٢٠٥، ٢٢٠٦) أبو نعيم في الحلية (٨/ ١٢٠)، ابن ماجة في السنن (٤١٦٧)، أحمد في المسند (٣/٢٩٣)، الخطيب في تاريخ بغداد (١٤/٣٤٨)، المنذري في الترغيب (٤/٢٦٩).

(٢) ما بين المعقوفين زيادة يقتضيها السياق. (٣) سورة فصلت (الآية: ٣٠).

رحمة الله الذي هو خير من الكل بل هذا كله منه.

فهذا من حال العبد يوجب الرجاء الكثير ويقوي العزم على فعل الطاعات.

ثم ينظر الراجي بعد ذلك في مقام الحشر والبعث من القبور في عالم الإيمان وقيام الناس على أرجلهم إجلالاً لرب العالمين ومحاسبته إياهم في أهوال الموقف كلها فيجد لذلك كله ملك يوم الدين الرؤوف الرحيم بالمؤمنين ولا يشك في أنه خير له في المحاسبة من كل أحد ولو كان المحاسب له والده وأرحم الناس به لأنه عند المحاسبة كريم متجاوز.

[٢٥٢/ ب] ألا تراه يأمر بالسماح/ والعفو والصفح فيما بينهم ويثني عليهم بفعل ذلك فقال: ﴿وَٱلْكَاظِمِينَ ٱلْغَيْظَ وَٱلْعَافِينَ عَنِ ٱلنَّاسِ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾[١]. ويقول: ﴿وَلَمَن صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَٰلِكَ لَمِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ﴾[٢]. [وقال][٣]: ﴿وَإِذَا مَا غَضِبُواْ هُمْ يَغْفِرُونَ﴾[٢]. ويقول: ﴿ٱدْفَعْ بِٱلَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا ٱلَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُۥ عَدَٰوَةٌ كَأَنَّهُۥ وَلِيٌّ حَمِيمٌ﴾[٤].

فتراه يكون لما يأمر به من المخالفين؟ تعالى وجل عن ذلك أكرم الأكرمين. ولقد وصف الله عبداً من عباده في معرض الثناء عليه وهو يوسف الصديق حين أخرجه أخوته على صغر سِنِّه والصغير مرحوم ففرقوا بينه وبين أخيه وأمشوه على قدميه حافياً وأبكوه وأجاعوه وأعطشوه ثم ألقوه في ظلمات الجب ثم باعوه على عياقة[٥] وجهه وحسن صورته وحرية نفسه بالبخس اليسير، وأوحشوا منه أباه وعرضوه إلى السجن والفتن.

ثم إن أباهم لما ظفر بهم واعترفوا بين يديه قال لهم: ﴿لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ ٱلْيَوْمَ يَغْفِرُ ٱللَّهُ لَكُمْ﴾[٦].

فأزال عن قلوبهم اليوم خجلة الحياء من أفعالهم القبيحة وخشية العتاب بأقواله السمحة المليحة ثم زادهم بقوله: ﴿يَغْفِرُ ٱللَّهُ لَكُمْ﴾[٦].

فرغ عنهم لومة اللائمين لأنهم لم يؤذوا إلاّ الغافر ولا يلومهم سواه بَرّ ولا فاجر.

[٢٥٣/ أ] ثم/ زادهم بياناً آخر بقوله: ﴿وَهُوَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ﴾[٦].

أي هو أرحم بكم مني فهذا فعل عبد من عباده المحسنين فكيف بخالق الإحسان والمحسنين؟ مع ما صح وثبت من شغل المصطفى المختار ﷺ في تلك المواطن كلها بأمته.

(١) سورة آل عمران (الآية: ١٣٤).
(٢) سورة الشورى (الآية: ٣٧، ٤٣).
(٣) زيادة للفصل بين الآيات.
(٤) سورة فصلت (الآية: ٣٤).
(٥) أي جمال وجهه عليه السلام.
(٦) سورة يوسف (الآية: ٩٢).

فتراه يُرَدُّ خائباً على سعة جاهه وقبول شفاعته[١] وهو القائل المصدق[٢] الصادق: «أمتي أمة مرحومة لا عذاب عليها في الآخرة عذابها في الدنيا الزلازل والفتن»[٣].

وهو عليه السلام في نفسه رحمة صرف كما قال: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾[٤].

وقد أمره الله بالاستغفار لأمته فقال: ﴿وَٱسْتَغْفِرْ لِذَنبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَاتِ﴾[٥].

أيأمره بما لا يريد أن يفعله أو يأمره بالاستغفار لهم فلا يستغفر لهم، فقد صح استغفاره لهم وهي شفاعته التي اختبأها لهم إلى يوم القيامة.

وكذلك أبوه وأبونا إبراهيم عليه السلام فدعا لهم في زمانه قبل خلقهم فقال: ﴿رَبَّنَا ٱغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ وَلِلْمُؤْمِنِينَ يَوْمَ يَقُومُ ٱلْحِسَابُ﴾[٦].

وهو أيضاً ذو جاه عظيم ومقام في الخلة كريم، وأمة محمد أبناؤه وأحباؤه وأتباعه على دينه الحنيف، وكذلك نوح عليه السلام في قوله: ﴿رَّبِّ ٱغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ وَلِمَن دَخَلَ بَيْتِيَ مُؤْمِناً وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَاتِ﴾[٧].

قال النبي صلى الله/ عليه وسلم: «شفاعتي لأهل الكبائر من أمتي»[٨]. [٢٥٣/ ب]

أترونها للمتقين المصطفين؟ إنما هي للمخلطين والمتلوثين فإذا نظر الراجي بإيمانه إلى موطن القيامة وأهوالها وشدائدها وأري من المحاسب فيها ومن الشافع وأن رجلاً واحداً من أمته يشفع يوم القيامة في عدد ربيعة ومضر.

هذا رجل واحد كريم فكيف بجملة الأبدال والأوتاد[٩] والشفعاء الرحماء الأكابر[١٠]

---

(١) في الأصل: شهادته. والتصويب من هامش المخطوط.
(٢) في الأصل: المصدفق. وهو تحريف.
(٣) أخرجه أبو داود في السنن (٤٢٧٨)، الحاكم في المستدرك (٤/ ٤٤٤).
(٤) سورة الأنبياء (الآية: ١٠٧).
(٥) سورة محمد (الآية: ١٩).
(٦) سورة إبراهيم (الآية: ٤١).
(٧) سورة نوح (الآية: ٢٨).
(٨) أخرجه أبو داود في السنن (٤٧٣٩)، الترمذي في السنن (٢٤٣٦)، أحمد في المسند (٣/ ٢١٣)، البيهقي في السنن الكبرى (٨/ ١٧).
(٩) هذه الألقاب الصوفية ما أنزل الله بها من سلطان وقد سبق الكلام عليها في أكثر من موضع وسيأتي أيضاً في مواضع أخرى.
(١٠) في الأصل: الأكباد. وهو تحريف.

على كثرتهم من أول الإسلام إلى يوم الميعاد مثل:

الصديق الرحيم، والفاروق الكريم، وعثمان الحليم، وعلي العليم، وبقية العشرة العدول، وابنا فاطمة البتول، وأهل السابقة المهاجرين، والأنصار، وخيار التابعين، والمطهرات المكرمات أمهات المؤمنين، وسائر العلماء العمال الأولياء إلى يوم الدين.

وورد في الصحابة رضي الله عنهم: أن أبا بكر يعطى باب الجنة فيقال له أدخل من شئت برحمة الله واصرف من شئت بعدل الله ويعطى الميزان لعمر فيقال له ثقل ميزان من شئت برحمة الله وخفف ميزان من شئت بعدل الله ويعطى الصراط لعثمان فيقال له: جوز من شئت برحمة الله واترك من شئت بعدل الله، ويعطى الحوض لعلي فيقال له:/ اسق من شئت [٢٥٤/ أ] برحمة الله واترك من شئت بعدل الله[1].

فهذه الأربعة مواطن هي أعظم مواطن القيامة.

فأعطيت لأربعة لعظم جاههم وهناك تظهر شفاعتهم في محبيهم.

وورد في فاطمة الزهراء بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم وعليها: أنها سميت فاطمة من أجل أنها فطمت محبيها من النار.

وهكذا أمهات المؤمنين، فكيف يكون رقتهن على المحبين لهن البارّين لهن الراضين عنهن والمصلين عليهن متى ما ذكروهن فكيف تكون قلوبهن على أولادهن ولا يخفى على ذي عقل شفقة الأم على ولدها وفداؤها له بنفسها فهكذا يشفع الرجال والنساء للرجال والنساء من هذه الأمة حتى يظهر يوم القيامة من رحمة الله وفضله ما لا يخطر على بال، والكل من عند الله الكريم.

وورد أن الكعبة تحشر يوم القيامة كالعروس المحلاة والحجاج متمسكون بأذيالها فتقول لمحمد عليه الصلاة والسلام شأنك بباقي أمتك فقد كفيتك الحجاج فتسير بهم إلى الجنة وهم متعلقون بها.

وأعظم من ذلك كله أن أمة محمد عليه الصلاة والسلام يقامون في الحشر مقام الشهود والعدول على من سواهم من الأمم حين ينكرون على الرسل رسالتهم، قال النبي ﷺ:

---

(١) سبحان الله العاصم من الزلل ثم إني لأعجب من هذا الشيخ الجليل كيف يشيب اعتقاده بمثل هذا وهو الذي يعلم قول الملائكة يوم القيامة: رب سلم سلم، فمن هؤلاء على جلالة قدرهم بالنسبة للملائكة والأنبياء فالله لنا وله نسأل المغفرة بكرمه آمين.

«أكرموا الشهود/ فإنهم تستخرج بهم الحقوق»[1]. [٢٥٤/ ب]

فتنكر الأمم على الأنبياء نبوتهم فتُدْعَى أمة محمد فتشهد للأنبياء على الأمم فيقبل شهادتهم، ومن تقبل شهادته فهو عدل والعدل مكرم غير مهان بلا شك.

قال الله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ﴾[2]. مع ما ثبت وصح في القرآن أن الله يجزي بالحسنة عشراً إلى سبعمائة إلى ما لا يحصى ﴿وَاللَّهُ يُضَاعِفُ لِمَن يَشَاءُ﴾[3]. ويجزي بالسيئة مثلها إن أخذ بها ويعفو ويصفح ﴿إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ الْفَضْلُ الْمُبِينُ﴾[4]. والرجاء القوي المبين. جعلنا الله وإياكم من عباده المؤمنين وختم لنا ولكم بخواتم الصالحين المكرمين في عافية آمين، آمين.

وصلى الله على محمد خاتم النبيين وعلى آله وسلم تسليماً.

فصــــل

وأما المقام الثالث من الرجاء في مقام الإحسان:

فهناك الأنفاس ولا تكال الصبابات إلى البحار وهو على ضربين لأن الصفات على ضربين: فعلية، وذاتية.

فأما الفعلية:

فإن الإحسان فعل اسمه المحسن والإكرام مقتضى اسمه الكريم المكرم والستر عن الستير الستار والعفو عن العفو والغفران عن الغفور والرحمة عن الرحمٰن الرحيم، وحسن الصنعة وإتقانها عن المصور الحكيم،/ وهكذا سائر الأسماء والصفات أوجد عن مقتضى [٢٥٥/ أ] جميع الأسماء والصفات ما يليق بمعنى كل اسم وصفة.

فمقتضى الأسماء هي أفعالها فإذا نظر الراجي في العالم كله وصدوره عن أسمائه الحسنى رأى الخير والصلاح والحسن والجمال والرحمة قد عَمَّ الوجود ولم يقع الكفر والضلال والقبيح فيه إلا كنقطة في البحر أو كجوهرٍ واحدٍ بالإضافة إلى جميع جواهر العالم.

(١) أورده ابن الجوزي في العلل المتناهية (٢/ ٢٧٥)، الخطيب في تاريخ بغداد (٥/ ٩٤)، ابن حجر في تلخيص الحبير (٤/ ١٩٨)، ابن حجر في لسان الميزان (١/ ٣١٤).

(٢) سورة البقرة (الآية: ١٤٣).

(٣) سورة البقرة (الآية: ٢٦١).

(٤) سورة النمل (الآية: ١٦).

فإن القبيح الذي هو العصيان إنما ظهر في الوجود على أيدي الجن والإنس المخالفين منهم وجميع العالمين من عباد الله طائعون محسنون والباري يجري على الكل في كل نفس الإكرام والإجلال والإحسان والإفضال، ولم يُرَ منه قط طرفة عين إلا الحسن الجميل. أكرمهم بعبوديته(١) وقربهم من نفسه. هكذا أشخاص العالم كله حتى جهنم بمن فيها من الإملال وأنواع العذاب كل شخص منهم وكل عضو منها منعم عليه غير معذب مشفى متنعم بالانتقام من الكفرة الفجرة المخالفين لمولاهم.

فما عسى أن يقع بنو آدم والشياطين في جميع العالمين: ﴿وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَكِن كَانُواْ هُمُ ٱلظَّالِمِينَ﴾(٢).

فإذا رأى الراجي في مقام الإحسان ما أجرى الله على جميع خلقه من الإحسان والإكرام اتسع رجاؤه على قدر سعة ملك الله/ [٢٥٥/ ب] وعباده(٣) وما يجري عليه وعليهم من إلطافه وإحسانه وإحسان الملوك الكرام وأهل الفضل والإنعام لرعيتهم، وعبيدهم على قدر مراتبهم وشرف منازلهم وانتشار أياديهم وكرمهم، فما بالك بسيد العالمين وإياه فليرجو الراجون، وفي مثله فليطمع الطامعون وإلى معروفه تمتد آمال الآملين.

وهو القائل سبحانه: «يا عبادي لو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم قاموا في صعيد واحد فأعطيت كل واحد مسألته ما نقص ذلك مما عندي إلا كما ينقص المخيط إذا أدخل البحر»(٤).

وفي الحديث: «إن الله خلق مائة رحمة كل رحمة منها طباق السماوات والأرض»(٥).. الحديث.

قيل إن هذه المائة رحمة هي مقتضى اسمه الرحمٰن الرحيم، وكل رحمة منها قد ملأت الوجود كله كامتلاء البحر بمائه والجو بهوائه فكيف بسائر الأسماء ما علم منها وما لم يعلم.

---

(١) في الأصل: بخدمته. فأثبت ما هو أنسب منها.

(٢) سورة الزخرف (الآية: ٧٦).

(٣) في الأصل: عحدامه. فاستبدلتها بما هو أولى منها.

(٤) أخرجه الترمذي في السنن (٢٤٩٠)، الحاكم في المستدرك (٤/ ٢٤١)، الزبيدي في إتحاف السادة المتقين (٥/ ٦٠)، في الإتحافات السنية (٢٩٤، ٢٩٥).

(٥) أخرجه أحمد في المسند (٤/ ٣١٢)، الحاكم في المستدرك (١/ ١٥٦)، الطبراني في المعجم الكبير (٦/ ٣٠٧)، الهيثمي في المجمع (١٠/ ٢١٤).

الضرب الثاني من الرجاء في مقام الإحسان وهو رجاء الصفات الذاتية:

فإنه مقام الروحانيين وخاصة العلماء العارفين، وكما تقدم في الرجاء فمنه وعنه يصدر. فهو بالإضافة إليه كلا شيء ألا تسمع إلى قول الحملة ومن حول العرش من الحافين والروحانيين ﴿رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَّحْمَةً وَعِلْماً﴾[1].

أتراهم يعنون بقولهم: «وسعت» سعة الطرفية/ الجسمانية؟ حاشاهم من ذلك هل يعنون إلاّ سعة الصفات والأسماء[2] مثل العفو والحلم والسمح واللطف والرحمة وغير ذلك من صفاته الرضوانية الحنانية والرحمانية. [٢٥٦/ أ]

ولقد ورد في الأخبار عن معاوية بن أبي سفيان رحمه الله وكان حليماً أنه قال يوماً لجلسائه: إني لآنف أن يكون في الوجود سَفَهٌ لا يسعه حلمي.

ولذلك كان يؤذى في وجهه ولا ينتصر لنفسه وهو في رتبة الملك على قدرته على الانتصار.

فإذا كان عبد ضعيف مخلوق يقول هذا مع أن صفته مخلوقة ضعيفة مثله، فما ظنك بمن صفاته على سعة عظمته وهي غير مكتسبة ولا مخلوقة ولا تلحقه في ذاته مشقة الغضب فيزيلها بكظم الغيظ ولا يُعصى كرهاً فيزيل الإكراه بتعذيب من أكرهه. كما ورد في الصحيح عن الله عز وجل: «يا عبادي إنكم لن تبلغوا ضري فتضروني، ولن تبلغوا نفعي فتنفعوني».

فالباري لا يُضر بالمعصية ولا ينفع بالطاعة فطالبته الملائكة العارفون بلطيف التملّق والدعاء والتواضع والإخبات وقولهم: ﴿رَبَّنَا﴾[3] بمقتضى صفة الرحمة التي لا بد لها أن تفعل مقتضاها في الوجود وهو صدور الرحمة عن الرحمٰن الرحيم وبمقتضى اسمه الغفور فقالت: ﴿فَٱغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُواْ وَٱتَّبَعُواْ سَبِيلَكَ﴾[3]. إلى آخر/ المعنى لا سيما وهو الرحمٰن الرحيم. [٢٥٦/ ب]

وهذان الاسمان يدلان على كثرة رحمته وعظيم سعتها لأن فعيل في اللغة للتكثير، ورحمان الذي هو على وزن فعلان بناؤه أعجب شيء في هذا المعنى لأنه لا يقال غضبان إلا لمن امتلأ غضباً ولا سكران إلاّ لمن امتلأ سكراً، وعطشان إلاّ لمن امتلأ عطشاً، ورحمان مخصوص بالباري فهو يدل على سعة رحمة ذاته وعظمتها.

---

(١) سورة غافر (الآية: ٧).

(٢) في الأصل: والأخلاق. فأثبت ما يليق بالباري سبحانه.

(٣) سورة غافر (الآية: ٧).

وكذلك صفة العفو، والحلم، وجميع الصفات الحُسنى فلو عصاه العرش وما حوى من جميع العالمين حتى لا يكون في العالمين من يطيعه طرفة عين بأنواع العظائم وأجناس الكبائر وواجهوه بما لا يليق به ونسبوا إليه ما لا يحسن، كان مخالفتهم له في ذلك كله على الكشف لا على الغيبة وقاموا على هذا أبد الآبدين ودهر الداهرين ما استطاعوا أن يستخفوه وأن يغضبوه فيغيروا حسن صفته[1] وسعة حلمه جل الواحد الأحد الذي لا يشبهه أحد.

قال الله جل جلاله وتقدست أسماؤه: ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ﴾[2]. وقال: ﴿ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمَاوَاتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ﴾[3].

[٢٥٧/ أ] فأخبر أنه استوى على/ العرش بصفة الرحمة لتدبير الخليقة والذي تجلى للعرش ما حوى من الرحمة ليس منتهى الصفة بل ستر عن العرش والكل من صفة الرحمة الحنانية ما لو أظهر لهم منها أكثر مما أظهر لتدكدك العرش والكل من قواعده وانخرم النظام وهلك الكل بسعة الرحمة ولم يكن ذلك استواء وبطل معنى الاستواء فلم يكن العدل في حق المخلوقات إلا أن تجلى لها من الرحمة ما تحتمل. فافهم.

هذا في الاستواء فإذا نظر الراجي في مقام الإحسان إلى صفات المرجو وما هو سبحانه عليه اتسع رجاؤه بقدر ما علم من صفات المرجو فلم يرج إلا تجلي صفات الرحمة وكان طلبه إياها ولم ير في ذلك كله سواها.

فأمله وطمعه معلق به في كل حال فهو المطلب الكامل فوق كل كمال وإليه تنتهي مطالب العلماء والعمال، وبه تشبع مطامع الطامعين وتزول حاجة الفقراء إليه والسؤال.

لأنه يغني عن كل شيء ولا يغني عنه شيء، وفي الخبر: الطمع فقر حاضر.

فرجاؤهم هو فقرهم إليه.

وليس في الأحوال أشرف من الفقر إلى الغني الحميد فإذا افتقروا إليه بالطمع فيه [٢٥٧/ ب] وأعطاهم نفسه أغناهم به/ وشد حاجتهم فلم يبق لهم حاجة لأن الذي أعطوا ليس وراءه نهاية ولا غاية ولا مرمى فلم يبق لهم عنده حاجة إلا المزيد من تجلي الصفات الباطنة عنهم فيطمعون أن يرقيهم إلى الرتبة العالية ليدركوا منها وفيها ما غاب عنهم مما طمعوا فيه.

ففقرهم الذي هو الرجاء من هذا الوجه لا يزول أبداً.

---

(١) في الأصل: خلقه. فاستبدلتها بما هو مناسب له سبحانه.

(٢) سورة طه (الآية: ٥).

(٣) سورة السجدة (الآية: ٤).

فأهل مقامات عليين يرجون المزيد من كل وجه من وجوه القرب والكرامة ممن حاز رتب الفضل والسيادة.

فالخائفون يرجون بأمانيهم من كل أنواع المخاوف التي خافوها وهابوها حين تجلى لهم ما تجلى من الجلال والهيبة والعظمة مما تجلى لهم من صفات الحلم والرحمة والحنان فاعتدل خوفهم ورجاؤهم.

والخوف يؤدبهم أحسن تأديب والرجاء يقربهم بالبسط أرفع تقريب.

جعلنا الله وإياكم منهم في يسر وعافية آمين آمين.

وصلى الله على محمد وآله وسلم.

الشعبة التاسعة والأربعون: المحبة لله

أما كون المحبة من الإيمان فلا تحتاج إلى استشهاد وبيان لأن ضد الحب البغض.

فمن أبغض الله كفر بعداوته له والآيات والأخبار في كون المحبة من الإيمان كثيرة، قال الله عز وجل: / ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ﴾[1] ويغني من ذلك كله قوله تعالى: ﴿مَن كَانَ عَدُوًّا لِّلَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَرُسُلِهِۦ وَجِبْرِيلَ وَمِيكَىٰلَ فَإِنَّ ٱللَّهَ عَدُوٌّ لِّلْكَٰفِرِينَ﴾[1]. [٢٥٨/أ]

فأطلق عليهم الكفر بضد المحبة.

اعلم أن الناس قد تكلموا في تحديد المحبة وأكثروا فيه واختلفوا لدقة معناها حتى أنكرها قوم ينتسبون إلى العلم ولا علم عندهم حين جهلوا هذا القدر من الدين.

وحدّ الحب ـ إن شاء الله ـ يبين من معنيين وهو: الثبوت، والصفاء.

فيقول: الحب هو الودّ الثابت الصافي مأخوذ من الودّ وهو العود الثابت والوتد في الأرض.

الصافي: أي الخالص من الكدر والشوب للمحبوب مأخوذ من حبب الأسنان وهو بياضها وصفاؤها من الصفرة وشوب الألوان المغيرة للبياض.

ومنه الحبّة وجمعها حبوب، والحبة بذور البقول أيضاً تثبت في الأرض بغرز فيها فتفرع وتثمر، كذلك المحبة في القلب ثابتة وتتفرع عنها أغصانها على الجوارح.

ويقال أيضاً: أحب الرجل بالمكان، أقام به وثبت.

(١) سورة البقرة (الآية: ٩٨، ١٦٥).

والحباحب: ذباب له شعاع عجيب بالليل.

وصفاء نور المحبة الثابتة في القلوب أعجب.

وحباب الماء معظمه، وكذلك يعظم الحب في القلب بعظم المحبوب في القلب [٢٥٨/ ب] ويثبت فيه حتى لا يرى/ المحب ولا يسمع إلاّ محبوبه وإن كان على تباعد جسمه، ومثل هذا كثير.

فالود إرادة ثابتة ساكنة في القلب صافية من محبة غيره إلا ما يجب أن يحب هو فإن ذلك يكون حباً له.

فإذا فهمت هذا علمت أن المحب يريد للمحبوب الخير الدائم اللأزم الذي لا يزول، الصافي من جميع الشر مع إرادة سكون المحبوب وثبوته في سويداء القلب والحدقة إن قدر على ذلك.

وكذلك ترى المحب يطلب الاتصال بالمحبوب حتى يود لو قدر أن يدخله في باطنه، بل يطلب الاتحاد به حتى يكون هو هو، وهذا الاتحاد المتناهي هو العشق المفرط.

فهذا يبين لك معاني الحب كله إن شاء الله على اختلاف أحوال المحب والمحبوب.

فصـــل

اعلم أن مقام الحب يقتضي ثلاثة أشياء:

محب: وهو العبد.

وحب: وهو حال العبد.

ومحبوب: وهو المأمور بحبه كائناً ما كان.

والحب على ثلاثة أضرب:

ضرب في مقام الإسلام، وضرب في مقام الإيمان، وضرب في مقام الإحسان.

فأما الضرب الأول في مقام الإسلام وعالم الحس: فهو حب الله على ما أردف العبد وأسدى إليه من نعمه كما ورد في الخبر: «أحبوا الله لما يغذوكم به من نعمه»[1].

[٢٥٩/ آ] ويحب من الأمور/ الظاهرة ما أمر بحبه والأمور الظاهرة: دينية ودنياوية.

فأما الدنياوية: فيحب من المواطن ما أحب الله وأمر بحبه وهو كل مكان يطاع الله فيه

(١) ياتي تخريجه بعد قليل.

ويذكر مثل المساجد كما ورد في الخبر: «أحب البقاع إلى الله مساجدها، وأبغض البقاع إلى الله أسواقها»(١).

فيحب المساجد ويفضلها في حبه على جميع بقاع الأرض ويخص بأرفع الحب منها الثلاثة مساجد: المسجد الحرام، ومسجد النبي عليه الصلاة والسلام، والمسجد الأقصى.

ويحب حلق الذكر، ومجالس العلم النافع.

فهذا حبٌّ محمود يثاب العبد عليه، ويحب من مساكنها ما ليس فيه سرف فإن الله لا يحب الإسراف والمسرفين.

وحدّ الإسراف ما أخرج من الاقتصاد والتواضع الذي هو سكنى الأنبياء والأولياء العلماء إلى حد التطاول والرغبة والزينة المذمومة.

ويحب من اللباس ما يزين به للّه كما قال: ﴿خُذُواْ زِينَتَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ﴾(٢).

وهو ما ستر العورة وردّ الحر والبرد ولم يخرج إلى الإسراف المبغوض عند الله.

وكذلك من الطعام والشراب وهو الحلال.

ومن النساء ما أعان على دين الله لا ما أخرج وجرّ إلى اقتحام المهالك.

وعلى الاختصار ينظر كل ما كان من الدنيا للّه فيحبه ولا يتجاوزه إن قدر فإن تجاوزه فليستغفر الله فإن حب [الدنيا](١)(٣)س كل خطيئة/ ثم يحب صلاح الدنيا بالدين والعدل [٢٥٩/ ب] ونزول الأمطار وحسن الحال والرخاء للناس.

ولا يكون ممن يحب الفساد والفتن والغلاء كالحكار وشبهه.

روى معاذ عن رسول الله ﷺ أنه قال: «بئس العبد المحتكر إن أرخص الله الأسعار حزن وإن أغلاها فرح»(٤).

وفي لفظ آخر: «إن سمع برخص ساء وإن سمع بغلاء فرح».

فالمحب في هذا المقام الظاهر الدنياوي يحب رخص الأسعار ونزول رحمة الأمطار والأمن فهو يحب الخير للخلق كله لبني آدم والأنعام والنبات.

---

(١) أورده العجلوني في كشف الخفا (١/ ٤٦٨)، ابن حجر في الفتح (٤/ ٤٤٩).

(٢) سورة الأعراف (الآية: ٣١).

(٣) ما بين المعقوفين يتطلبه السياق.

(٤) أورده المنذري في الترغيب والترهيب (٢/ ٥٨٣)، التبريزي في المشكاة (٢٨٩٧)، ابن عدي في الكامل (٢/ ٥٣٠).

لأن بالأمطار وبالأمن صلاح بني آدم والدنيا والدين.

وما أحب من مباحات الدنيا بطبعه لا يخرجه من الحب ما لم يكن حراماً.

كان رسول الله ﷺ أحب اللحم إليه الذراع، وكان يحب من الشراب الحلو البارد، وكان يحب الدبّاء، وكان يحب النساء، والطيب، والأولاد، وكان يحب فاطمة ابنته رضي الله عنها حبّاً شديداً وسائر أولاده وحفيديه الحسن والحسين، وكان يحب من المباحات أشياء وهو رأس المحبين لكنه لم يكن يحب شيئاً يلهيه عن ذكر الله ولا ما فيه إسراف، فإن ذلك يخرج عن أن يكون نعمة بل يخرج إلى أن يكون نقمة، وفي الخبر: «أحبوا الله لما أردفكم به/ من نعمه ـ ويغذوكم به من نعمه ـ»[1]. [٢٦٠/ أ]

فكل نعمة نازلة بالعبد يحب العبد ربه عليها، وذلك حب الإحسان كما ورد في الخبر: «جبلت القلوب على حب من أحسن إليها»[2].

والباري جل جلاله قد أحسن إلينا في كل شيء صنعه بنا في حسن صورنا وتركيب خلقتنا في أحسن تقويم، وكذلك في تحسين أشخاص العالم كله لأنه أحسن كل شيء خلقه وحسنها عائدة منفعته علينا لأنها لبني آدم سخرت ومن أجله خلقت، وكذلك كل نعمة نعمنا بها، ونقمة صرفها.

فإذا رأى العبد أن الله قد أحسن إليه في كل شيء والقلب مجبول على حب من أحسن إليه أحبه على قدر إحسانه إليه، ولكن الغفلة والجهل والعمى غلبتنا[3] وأظلمت على قلوبنا.

وترى الإنسان إذا أحسن إليه عبدٌ مثله وأعطاه منفوعاً أحبه بقلبه على ذلك.

فكذلك إذا بين للعبد إحسان الله إليه أحبه على جميع أفعاله لأنه قد أحسن إليه بها.

ومن أحب شيئاً أحب كل شيء يتعلق به حتى كلبه كما قال الشاعر:

أحــب لحبهـا الســودان حتــى أحــب لحبهــا ســود الكــلاب

هذا لأن محبوبه كان أسود فإن قلت كيف يحب العبد ربه في جميع أفعاله على العموم والكفر، والجهل والمخالفة لأفعال/ الله؟ فكيف تجب على ذلك؟! [٢٦٠/ ب]

(١) أخرجه الترمذي (٣٨٧٩)، الحاكم في المستدرك (٣/ ١٤٩)، الطبراني في الكبير (٣/ ٣٩)، أبو نعيم في الحلية (٣/ ٢١١)، الخطيب في تاريخ بغداد (٤/ ١٦٠).

(٢) أخرجه أبو نعيم في الحلية (٤/ ١٢١)، الخطيب في التاريخ (٤/ ٢٧٧)، ابن الجوزي في تذكرة الموضوعات (٦٨)، الشوكاني في الفوائد المجموعة (٨٢)، العجلوني في كشف الخفا (١/ ٣٩٥).

(٣) في الأصل: غلبه. وهو تحريف.

فاعلم أن لها وجهين مرة بنظر من العباد، ومرة من الله.

في النظرين يختلف الأمر فإنك إذا نظرت مثلاً إلى الجهل علمت أن صاحبه لا يدرك شيئاً، ولا يتقنه ولا يحكمه.

فإذا نظرت إلى الجهل، وإلى الحكمة في خلقه قال لك الجهل بلسان الحال: اعلم أن صفة الباري منزهة عن صفة الجهل فإنه لو كان جاهلاً ما خلق شيئاً ولا صدر منه فعل متقن محكم.

فقد دلك الجهل على معرفة الباري سبحانه وعلى أن كل شيء منه صدر وبعلمه أتقنه وأحكمه كما دلك العلم سواء.

وكذلك الكفر الذي هو جحد الإلهية يقول لك بلسان الحال: لو أن الباري يكون باطلاً ولا يكون موجوداً لم يكن رب ولا مربوب ولا موجد ولا موجود.

فأرشدك الكفر إلى غاية الإيمان كما أرشدك الإيمان.

وأيّ حسن مثل هذا.

وكذلك الشرك يقول لك بلسان الحال: لو كان مع الله شريك أو ند أو صاحبة أو ولد لكان ناقصاً متحيزاً محتاجاً إلى مكان يحمله. ولو كان كذلك لفسدت السماوات والأرض ومن فيهن ولم يكن رب ولا مربوب

وهكذا كل شيء ولو تتبعت لك تبيين هذا في الأشياء كلها المتضادة/ لطال الكلام [٢٦١/ أ] وغرضنا الاختصار. فاستعن بالله في نظرك بعينك. وقال أهل المعرفة: استحسان الكون على العموم دليل على صحة المحبة، واستحسانه على الخصوص يؤدي إلى فتن وظلمات؛ لكن يحتاج إلى نظر سديد لأنه صراط جديد يتبين منه إحسان الله إلى العقول.

أما الأمور الدينية:

فإنها ضربان: أوامر، ونواهي.

فيحب الله على إحسانه إليه في أن صرف لسانه عن كلمة الكفر، وأطلقه بالتوحيد، وأن أطلق جوارحه في فعل شرائع الدين وصرفها عن المخالفات فإن ذلك أعظم الإحسان إليه في هذا العالم.

ويحب دين الإسلام وعلوه وظهوره وظهور المسلمين على الكفر والكافرين فإنه ما خلق شيئاً في هذا العالم أحسن من الحسنات واجتناب السيئات ولذلك سماها حسنات.

والاجتناب للمنهيات حسنة من أعظم الحسنات.

فأي شيء أحسن من ذكر الله وطاعته فيحب ذكر الله ويطلق به لسانه، ومن أحب شيئاً أكثر من ذكره ويحب طاعته ويدخل فيها ومن أحب شيئاً أطاعه.

ويحب اجتناب معاصيه ويهرب منها، ومن أحب شيئاً أحب أن لا يعصيه وهرب من عصيانه ويستعين على ذلك بالنظر في حسن الدين وجماله فرضاً فرضاً/ ونفلاً نفلاً حتى يبين له الحسن فيه والإحسان من الله في هدايته إليه فإن الحسن والجمال سبب الحب والإحسان. [٢٦١/ ب]

فالهداية إليه من أعظم النعم وقد جبلت القلوب على حب من أحسن إليها وأنعم عليها[1].

ومثال ذلك على الاختصار أن تنظر في جمال التعبد للإله الكبير فلا شيء أجمل من تعبد العبد للسيد ولا شيء أجمل من اجتناب العبد لمن هو عبد، ولا شيء أجمل من الإقرار للسيد بالسيادة لا سيما إذا كان أهلاً لها، ولا شيء أقبح من إضافتها لمن لا يستحقها.

فيتبين بهذا جمال معنى «لا إله إلا الله» فيحبها العبد ويقر بها حتى تكون أحب إليه من سمعه وبصره.

وكذلك ينظر في جمال الطهارة للتأهب بها للدخول على الملك ثم جمال الصلاة ركناً ركناً بين يدي العزيز الكبير.

هكذا جمال الزكاة، وزوال البخل، والتزكية والطهارة من رذائل البخل.

وهكذا الصيام وجماله وما فيه من كسر الشهوات البهيمية والتشبه بالصفات الملائكية في العفة.

وكذلك الجهاد وما فيه من عز الإسلام، والحج وغير ذلك حتى يتبين جماله ويحبه القلب فما خلق الله أجمل من الدين ولذلك/ قال: ﴿حَبَّبَ إِلَيْكُمُ ٱلْإِيمَانَ وَزَيَّنَهُۥ فِي قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ ٱلْكُفْرَ وَٱلْفُسُوقَ وَٱلْعِصْيَانَ﴾[2]. [٢٦٢/ أ]

فيحب الدين ويحب الله على إحسانه إليه به.

فعلى هذا لا يرى شيئاً [إلا][3] أحب الله به وفيه ديناً كان أو دنيا.

---

(١) في الأصل: وانعم وعليها. فالواو زائدة على السياق فحذفتها.

(٢) سورة الحجرات (الآية: ٧).

(٣) ما بين المعقوفين زيادة يقتضيها السياق.

فصـــل

وأما المقام الثاني من المحبة في مقام الإيمان: فأول ما يقع عليه نظره من الغيب نفسه الفانية في جسده ولا شيء أحب إليه ممن أحسن إلى نفسه فيجد الباري تبارك وتعالى قد كتب الإيمان في باطنه وأحسن إليه بهدايته النفس لقبوله وأنعم عليه بأن جعله من المؤمنين ولم يجعل باطنه محلاً للكفر به.

وينظر بإيمانه إلى الآخرة ويرى بهداية العلم ونور اليقين ما أعد الله فيها للمؤمنين وما يحسن الله فيها إلى كل مؤمن بأنواع الإحسان والأيادي الأخراوية التي لا يقدر على وصفها أحد من الخلق ويرى بإيمانه ما يصرف الله عن المؤمنين من أنواع العذاب والإهلاك الأخراوي التي[1] لا تقوم لها الجبال فلا يصفه أحد إلاّ وهو أعظم من وصفه فلا يرى فيها نجاة إلاّ بالإيمان ولا إحسان إلا لمؤمن فيعلم قدر إحسان الله إليه فيحبه على قدر إحسانه إليه بالإيمان إذ قد علم أن ذرة من الإيمان إذا وهبت لعبد وإن كان عاصياً قد يخرج/ من دار [٢٦٢/] الهوان ولو بعد طول الأزمان ولا يخلد فيها كل الأحيان، من أجل تلك الذرة من الإيمان.

ثم تدخله تلك الذرة بعد الخروج من النار إلى سكنى دار سقفها عرش الرحمٰن.

فصح وثبت بالبرهان أن تلك الذرة منه لا وزن ولا قدر لقيمتها في المعنى ولو اجتمع جميع العالمين أن يقدروا قدرها لعجزوا عن ذلك إذ وصل قدرها عند الله أن تنجي من الخلود في جهنم وتورث الخلود في بحبوحة دار الكرامة والنظر إلى وجه الله الكريم فهذا إحسان من المحسن إلى من أعطاه تلك الذرة لا يعلم قدرها إلا المحسن بها لا إله إلا هو فإذا علم المؤمن هذا أحب الإيمان وخلطه بلحمه ودمه وكان أحب إليه من نفسه فكثر إيمانه واستنار وصفا وأبصر المؤمنات فيشتاق إلى الغيب ويحب الدار الآخرة ويؤثرها على الدنيا ويساق إلى الإحسان الذي كل إحسان فيه كلا شيء.

وقد مدح الله أهل هذا المقام فقال: ﴿كَلَّا بَلْ تُحِبُّونَ ٱلْعَاجِلَةَ * وَتَذَرُونَ ٱلْآخِرَةَ﴾[2].
أي تذرون حب الآخرة التي فيها النعيم المقيم والإحسان الدائم الكريم والتي يظهر فيها النعيم المقيم ويُرى المولى السيد العظيم.

فإن قوي الإيمان اشتاق إلى الموت وهو أول/ المؤمنات وتأهب له وربما تمناه إن كان [٢٦٣/ أ] صادقاً من أجل أنه يدخل إلى دار الإحسان فيتذكر الموت مع الأحيان المدخل إليها، وقد

(١) في الأصل: الذي. وهو تحريف.
(٢) سورة القيامة (الآية: ٢٠، ٢١).

قال الصديق للفاروق رضي الله عنهما: إن حفظت وصيتي لم يكن غائب أحب إليك من الموت. قال الله تعالى: ﴿فَتَمَنَّوُا الْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾[1]. فمن قصر عن هذه الدرجة فإنه يحب الموت من وجه آخر لأنه يحسن إليه من أجل أنه ينبهه من الغفلة ويذكره بالدار الآخرة فيجعله من الذاكرين ويرقق قلبه ويخشعه.

وذلك كله إحسان عظيم من الله يجده أهل التخشع في حال تخشعهم.

وهكذا أيضاً القبر له فيه إحسان عظيم إذا تذكره وخاف من هوله ورجى نعيمه فيرقق قلبه ويخشعه أيضاً ويجعله من المنيبين إلى الآخرة.

فأي إحسان أعظم من هذا لأهل الإيمان.

وهكذا كل هول من أهوال الآخرة من البعث وما بعده إذا تذكره المؤمن المحب للآخرة والناظر إليها بإيمانه نفعته جميع أهوالها وذكرته وأخشعته وولدت عنده الزهد والإنابة والانكسار والإخبات وكل وصف محمود من التعب.

فعلى هذا لا ينظر بإيمانه إلى موجود من موجودات الآخرة إلا وله فيها إحسان ديني وأُخراوي يجد ذلك/ في قلبه وباطنه وظاهره في الحال ويوصله إلى كل فضيلة من المقامات [٢٦٣/ ب] والأحوال فيبصر كل موجود من الآخرة إحساناً له ولذلك إذا غفل المحب عن ذكر الآخرة وما فيها من نعيم أو عذاب وعدم الخوف أحزنه ذلك وفزع فلا تستقيم أحواله حتى يتذكر النار وأهوال الدار الآخرة لما فيها وهذا لِمَا يجد من إحسان الله لباطنه يذكره بذلك فإن كان محباً للدار الآخرة بصدق يثبت قلبه أبداً فيها وسكن جسده في الدنيا لا فكرة له إلا في الآخرة وكيف يكون الحال فيها.

وهذا هو الحب الذي الودُّ مأخوذ من الوتِد[2] وهو العود الداخل في الأرض. فقلبه ثابت في الآخرة وجسده في الدنيا. وروت عائشة رضي الله عنها عن إمام المتقين ورأس المحبين ﷺ أنه كان يكثر التفكر في تعرف الفاني من الباقي.

والفاني والباقي في أحد الوجهين هو الدنيا والآخرة وفي الوجه الثاني الباقي هو الله والفاني الأشياء كلها

ألا كل شيء ما خلا الله باطل

فإذا علمت هذا فاعلم أن صاحب هذا المقام لا ينظر بإيمانه وتذكره إلى موجود في

---

(١) سورة الجمعة (الآية: ٦).

(٢) في الأصل: الود. وهو تحريف (راجع لسان العرب لابن منظور ٤٧٩٤) الشعب.

الآخرة مفزعاً أو غيره إلا أحب الله تعالى به لأن الله يفزعه به ويرهبه ويخوفه ويزعجه إليه ويقربه إليه/ بالمرغب فيه والمشتهى المستلذ فلا يرى من محبوبه شيئاً إلا في حبه به وفيه. [٢٦٤/ أ]

فالكل إحسان من الله للمؤمن والقلوب مجبولة على حب من أحسن إليها.

فلو علم الإنسان هذا المقام من الإحسان لرأى أن كل إحسان دونه كلا شيء.

مَنَّ الله علينا وعليكم بالإيمان وجعلنا وإياكم ممن أحسن إليه في كل شيء في يسر وعافية آمين.

وصلى الله على سيدنا محمد وآله وسلم.

فصـــل

وأما المقام الثالث من المحبّة في مقام الإحسان: فهو الغاية القصوى من المحبة وهو حب الله لما هو عليه ولما هو أهل له.

وهذا المقام الإحساني هو حب متولد عن الرؤية كما ورد في الخبر: «الإحسان أن تعبد الله كأنك تراه»[1].

فأثبت له معنى من الرؤية فإذا رأته القلوب باليقين والعقول والبراهين انكشف لهم جمال الأسماء الحسنى والصفات العلى فأحبوه لأنه أهل أن يحب الجمال فهو سبحانه يحب نفسه ويحبه كل من رآه لذاته ولما هو له أهل.

ولأنه غاية اللذات العقلية الروحانية لأن كل منفعة منه، فهو المحبوب بكل وجه وبكل معنى.

وعند العموم من هذا الحب مقام حب السماع وهو مقام حسن شريف وذلك أن من سمع/ بشخص عظيم القدر كريم له خصال شريفة وفضائل جمة أحبه ضرورة كما يحب الآن [٢٦٤/ ب] حاتم طيىء على كرمه، وعنترة على شجاعته وهما ميتان لم يشاهدا، وكحب الصحابة والفضلاء.

والباري سبحانه قد وصف نفسه بما هو له أهل وأخبرت عنه الرسل فآمن به الخلق وأحبوه لما سمعوا عنه بما هو عليه من الصفات الكريمة فهم يحبونه الحب المغرض الذي لا يثبت الإيمان إلاّ به وذلك أنهم لا يريدون الإلهية لسواه ولا يحبونها إلا له فتأبى قلوب

(١) جزء من حديث أخرجه البخاري وغيره وسبق تخريجه في أكثر من موضع.

الموحدين أن يحبوا الألوهية لغيره ويحبها له سبحانه وحده.

فكل مؤمن والحمد لله فله مقام من الحب وقد أثبت النبي ﷺ الحب لنعيمان وكان يقع في الحدود فسبه رجل فنهى عن سبه وقال: «إنه يحب الله ورسوله»[1]. وأثبت له الحب لكن ابتلي بهوى النفس وكان ذلك خلطاً في صفاء الحب الذي منع أبا بكر وعمر وغيرهما من الوقوع فيما وقع هو فيه.

وهذا المقام الأول هو فرض المحبة.

وأما فضل المحبة فإن ذلك فضل زائد على الفرض يختص به من يشاء الذي بيده البسط والقبض يتولد ذلك بالحب عن رؤية الجمال وكشف حسن الكمال. ومن رأى شيئاً جميلاً كاملاً أحبه شاء أم أبى لا محالة. والذين استدلوا عليه/ [٢٦٥/ أ] بآياته وراقبوه في عباداتهم ورأوه بالعلم فأحبوه حباً زائداً على حب السماع والإيمان.

فأعلاهم رتبة في ذلك الذين تحررت نفوسهم من رق الأغيار فرفعت عن قلوبهم الحجب والأستار فلحظوا سبحات الوجه الجميل فأحرقهم لهيب الحب المتوقد في صميم الغليل وأطارهم رفرف الشوق المقلق المزعج إلى حضرة الجليل فأحبوه حين رأوه شاءوا أم أبوا وذلوا له وخضعوا لجماله.

وكل من أحب شيئاً لجماله ذل له وخضع، والخضوع والذل هو التعبد للمحبوب.

ويقال: إن الأرواح الزكية حياتها في التجلي والاستتار لأنها حدثت عن معاني أوصاف الباري تبارك وتعالى فهي ألطف الموجودات وأشرفها فهي تشتاق وتنزع إلى معادنها التي عنها صدرت لأنها في أجسادها في دار الدنيا كالغريب عن وطنه قلبه معلق بالوطن حتى ترجع إليه فليس لها راحة إلاّ في لقاء مولاها.

وكذلك ورد في الخبر عن النبي عليه الصلاة والسلام: «لا راحة لمؤمن دون لقاء ربه»[2].

فهذه الأرواح الشريفة قد عجل لها في مقام المعرفة والمحبة للقاء الكريم لأنه قد صح وثبت: أنه من تقرب من الله شبراً تقرب منه ذراعاً ومن تقرب منه ذراعاً تقرب منه باعاً.

فهؤلاء المقربون إلى ربهم أبداً ناظرون لجماله وكماله ملاحظون فأحبوه الحب الخالص عن/ [٢٦٥/ ب] رؤية الجمال فاستولى عليهم ذكره وغلب عليهم حين ذاقوا خالص لذيذ الحب

(١) راجع جامع المسانيد (٢/ ٧٧٣).
(٢) ذكره الألباني في السلسلة الضعيفة برقم (٦٦٣).

فأنساهم خالص أحب كل شيء سوى المحبوب.

قال أبو بكر الصديق رضي الله عنه: من ذاق شيئاً من خالص محبة الله ألهاه ذلك عما سواه.

وقال الله عز وجل: «إني لا أطّلع على قلب عبد فأجد الغالب عليه ذكري إلا كنت سمعه الذي يسمع به وبصره الذي[1] يبصر به ويده التي يبطش بها ورجله التي يمشي عليها وقلبه الذي يعقل به».

ومن هذا الباب دخل المحبوب في مقامات التوحيد الخاصية من الغيبة والحضور والفناء والبقاء وغير ذلك من مقامات التوحيد التي لا توجد إلاّ بعد مقامات المحبة.

فعلامات المحبة استيلاء ذكر المحبوب على القلب والجوارح والذكر جلاء القلب كما ورد في الخبر: «إن هذه القلوب تصدأ كما يصدأ الحديد».

قيل فما جلاؤها؟ قال «ذكر الله»[2].

فالذكر يجليه كما تجلى المرآة فتتجلى فيه الصور المحادثة المقابلة لها.

فكذلك القلب إذا صفا دبخالص الحب واستولى عليه الذكر وجلاه نور الاستيلاء فصار وجهاً بلا قفا وتجلى فيه المحبوب فحيث ما نظر لم ير إلا محبوبه فبه يسمع وبه يبصر وبه يتكلم وبه يتحرك ويسكن، وبه في كل شيء قد أفرد محبوبه بالذكر وتوجه نحوه في كل شيء.

قال الله عز وجل عن إبراهيم الخليل بعدما/ ترقى عن حب كل أفل أدنى: ﴿وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ ٱلسَّمَاوَاتِ وَٱلْأَرْضَ حَنِيفاً﴾[3]. وقال الله عز وجل: ﴿وَٱجْعَلُواْ بُيُوتَكُمْ قِبْلَةً﴾[4]. [٢٦٦/ أ]

وفي الخبر الصحيح: «سيروا سبق المفردون». قيل: وما المفردون يا رسول الله؟ قال: «هم المستهترون بذكر الله»[5].

(١) في الأصل: التي. وهو تحريف.

(٢) أورده الشهاب في المسند (١١٧٨)، التبريزي في المشكاة (٢١٦٨)، الخطيب في تاريخ بغداد (١١/ ٨٥)، الزبيدي في إتحاف السادة المتقين (٤/ ٤٦٥)، الذهبي في الميزان (٥٠٣٩).

(٣) سورة الأنعام (الآية: ٧٩).

(٤) سورة يونس (الآية: ٨٧).

(٥) أورده الزبيدي في إتحاف السادة المتقين (٧/ ٢٥٣، ٢٥٤)، المتقي الهندي في كنز العمال (٣٩٣٣).

والاستهتار: هو إفراد المذكور مقروناً بالافتخار والاعتزاز بذكره لا سيما إذا كان المذكور عظيم القدر جليل الخطر يستحقر كل شيء عظيم وجليل في جنبه.

فهؤلاء هم الذين أحبوه لما هو عليه من جلالة القدر وعظيم الرفعة وهم على درجات فمنهم: المحبون المشتاقون حالهم القلق والحزن والحنين ولزوم الباب والتأوه والأنين كما قيل: رب نظرة أورثت حزناً طويلاً. يحزنهم الستر لأنه[1] فراق، ويقلقهم التجلي بحرقة الاشتياق. فعذابهم عذاب ليس كالعذاب لأنهم مغرمون بجمال سيد الأحباب، قال الشاعر:

وما في الأرض أشقى من محب ... وإن وجد الهوى حلو المذاق
تراه باكياً في كل حال ... مخافة فرقه أو لاشتياق

فأناخوا بباب الحبيب وتملقوا بمناجاة القريب المجيب يسمعون كلامه ويراقبون أعلامه فإذا تجلى لهم عاشوا، وإذا سترهم عنه طاشوا لأن محبوبهم شيء عظيم لا يصبر عنه من وصف له فتحقق وصفه، فكيف بمن رآه بقلبه وأبصره، ويستفرغون الجهد/ في طلب [٢٠/ ب] وصله بعبادة القلوب والأجساد ولم يدخروا منهم شيئاً حتى تفطرت منهم الأقدام والأكباد فأسرارهم مشغولة بذكره، وقد خالطهم العجب العجيب من حبه لا يرون شيئاً ولا يكلمون مخلوقاً إلا ببعض قلوبهم كما قال بعض التابعين: إن لي ثلاثين سنة ما كلمت أحداً بجملة قلبي.

طلبتهم عين الجمع بالمولى الحق، وهمهم الفرار من الخلق كي لا يستفزهم الفرق.

ومنهم: المحبوبون المأخوذون عن أنفسهم المنعمون بروح نسيم أنسهم المغيبون وراء الحجاب والأستار، المكشوف لهم عن الغيب والأسرار لأن من قربه شبراً أطلعه على أسراره وأحضره معه من وراء حجبه وأستاره[2].

ومقام المحبوب أعلى وأتم من مقام المحب وأعظم لأنه اجتمع له مقامان: مقام المحب ومقام المحبوب.

إلا أن الغالب عليه مقام المحبوب.

---

(١) في الأصل: لأنهم. وهو تحريف.
(٢) مثل هذا الكلام لا يجب السكوت عليه بل يجب التنبيه على أنه من زلات المؤلف غفر الله لنا وله ومن أجلى ما ورد فيه للرد عليه قوله سبحانه حكاية عن نبيه ﷺ وهو من هو ﴿وَلَوْ كُنتُ أَعْلَمُ الْغَيْبَ لَاسْتَكْثَرْتُ مِنَ الْخَيْرِ وَمَا مَسَّنِيَ السُّوءُ﴾ [الأعراف ١٨٨] وفي هذا القدر كفاية لمن سطعت عليه أنوار الهداية. والله أسأل حسن الختام بالموت على دين الإسلام.

كما أن المحب أيضاً محبوب لكن الغالب عليه مقام المحب، وفي هذا المقام أعني مقام المحبوب درجات الخلة والاصطفاء.

وكذلك اطلع الخليل إبراهيم على الأسرار، قال الله عز وجل: ﴿وَكَذَٰلِكَ نُرِيٓ إِبۡرَٰهِيمَ مَلَكُوتَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾(١).

فاعلم أنه أراه ملكوت السماوات والأرض لأنه خليل الله.

وبعد ذلك مقام الحبيب الذي هو الغالب على مقام محمد عليه الصلاة والسلام، ويعطي كل من أُهِّلَ له على مقدار ما قسم له منه كان نبياً أوْ ولياً.

والخليل/ هو الذي تخلل الحب أسراره، وتخللت أسراره الغيب. [٢٦٧/ أ]

والحبيب: من شغف الحب قلبه بكثرة تجاوزه مقداره فظهر منهم مقام الإدلال، وأقسموا على محبوبهم بجاههم عند ذي الجلال(٢).

وفي هذا المقام ظهر بسط المصطفى عليه الصلاة والسلام في مواطن القنط حين انبسط لطلب الشفاعة للخلائق أجمعين لما انقبض بأسباب القبض العظيمة جميع العالمين.

فأهل هذه المقامات الثلاث: مقام محب، ومحبوب، وحبيب هم الذين لا تعلم نفس من غير نفوسهم ما أخفي لهم فطوبى لهم وهنيئاً لهم.

نفعنا الله بمحبتهم، ولا جعل حظنا وصفهم.

فصـــل

واعلم أن هذا المقام من الحب المتولد عن الرؤية إنما هو رؤية العقل والعلم لأن الله لا يُرى بالبصر في الدنيا ولا حبه من نحو حب المستحبات الحسيات وإنما هو حب روحاني عقلي وإيماني يقيني وجماله سبحانه لا يشبهه جمال، وكماله ليس مثله كمال فإن ذاته لا تحويه الأمكنة، ولا تحيط بوصف عظمته جميع الألسنة، ولا يبليه ولا يغيره طول ممر الأزمنة. فهو الواحد في رتبة الإلهية الذي ليس فوق رتبته رفعة درجة فيرتقي إليها فيزول عنه نقص الرتبة التي كان فيها وعبيده كلهم ـ أعني جميع المخلوقات ـ على حسنهم ودرجاتهم بالإضافة إليه ناقصون/ وفي الارتقاء إلى معالي الأمور مرتفعون وفي السبق إلى مقامات [٢٦٧/ ب] التمكين والمكانة أبداً متلونون وفي قبول فيض الجود والكرامة وطلب الفضل والزيادة أبداً متغيرون.

(١) سورة الأنعام (الآية: ٧٥).

(٢) من المعلوم أنه لا قسم بغير الله سبحانه وأسمائه وصفاته وما جاء في السنة. وما سوى ذلك فهو شرك.

والرب مشرف على الكل وعالي على الجميع قد جاوز نهايات النهايات وفاق غايات الغايات في علو الرتب والدرجات فهو سيد العالمين وإله الخلق أجمعين وحُسن أياديه وفيض جوده وكرمه جارٍ عليهم أبد الآبدين.

والممالك بأجمعها على كثرتها يصرفها بيده في أطوار التصوير من أعظم المخلوقات إلى الذرة وأصغر منها في التقدير، ويركب بإتقان الحكمة ولطيف العلم أجزاء الكبير منها والصغير، وينفذ بصره في كل الموجودات فيبصر العظيم والحقير، فجواهر العالم كله على اختلاف عوالمه وجميع أشخاصه ناطقة بالحال والمقال مدة بقائهم في الآباد والآزال بالثناء عليه فلكل جوهرة شخص لسان تثني به عليه وتنزهه وتقر بالعجز بما هي[1] عليه.

هذا حال جميع المخلوقات أبد الآبدين تنطق بالثناء عليه في كل حركة ونفس بثناء لا يشبه الثناء الذي كان في النفس الذي قبله لأنه قد ظهر له في النفس الثاني من حسنه وشرف قدره أكثر مما كان ظهر له فما عسى أن يصف لسان واحدٍ من بين هذه الألسنة على[2]/ [٢٦٨/ أ] كثرتهم واختلافهم في الأزمنة والأمكنة.

فهو جمال لا يشبه أنواع الجمال وكمال فاق جميع رتب الكمال.

فكيف لا يُحب ضرورة شاء الخلق أم أبوا فهو المحبوب كوناً أحب شرعاً أو لم يحب فكل من سمع به أحبه فكيف بمن رآه بقلبه وعرفه.

فإذا سمعت القلوب ما ذكر عنه في الشرع المنقول وأبصرت بنظرها في المعقول أحبنه فذلت له وخضعت واستعبدها بذل الحب فازدادت حين رفعها الله، من تواضع لله رفعه الله فينقاد بذل الحب ويعرج بترفع الرب في مقام القرب وتزداد بكشف الحجب ويشرب في حياض الحب فيجد طعم الفرات العذب فسكران وصاح ومثبت وماح وفانٍ عن نفسه وباق بعينيه عن أنسه، وأحوالهم كثيرة لا تحصى وأسرارهم خفية لا تستقصى إلاّ أن كلهم بذلك محبور فرح مسرور فغنمهم بمحبوبهم أعلى من نعيم الجنة، وعطاؤهم من بحر صفاء المنة.

لكن وإن اختلفت أنواعهم فتجمعهم ثلاثة أنواع:

النوع الأول: المحب المتقرب.

الثاني: المحبوب المقرب.

الثالث: الحبيب المحب.

(١) في الأصل: هو. وهو تحريف.

(٢) جاءت مكررة بآخر ص: [٢٦٧/ ب] وأول ص: [٢٦٨/ أ] فحذفت التكرار.

وكلهم محبوب، وحبيب، ومحب إلاّ أن المقامات بعضها أرفع من بعض.

فالحب: متلون طائر برفرف الشوق.

والمحبوب: ساكن متمكن مستأنس بالحق.

والحبيب: متسع بين ظهراني الخلق لا يؤنسه كونهم، ولا يوحشه فقدهم[1].

والكلّ لم يبق لهم حاجة من الحاجات إلاّ المزيد من تجلي الصفات/ الغائبات، [٢٦٨/ ب] والرب لا يتجلى بنوع واحد من التجلي بل مرة يتجلى بصفة الجمال، ومرة بشرف الكمال، ومرة برفعة التعالي، والأخرى بسعة الرحمة، ومرة بصفة[2] العطف والمنة، ومرة بصفة العفو والحنان، ومرة بصفة الجود والإحسان، ومرة بصفة جمال العدل، وأخرى بصفة الفضل، ومرة بصفة العزة، ومرة بصفة[3] الغيرة، ومرة بصفة الكبرياء، وأخرى بعدم الشبه للأشياء، ومرة بصفة الشكر، والحمد، والثناء، ومرة بلطيف العلم، وأخرى بعظيم الحلم، وهكذا يتجلى بمعاني أسماء لا تحصى.

وهم يتلونون في معاني أسمائه الحسنى فلكل معنى منها حب، وذوق لهم عذب، وكل معنى في نفسه لا يتناهى والمعاني في سعة الكثرة لا تتناهى فجمعهم يتزايد والتجلي لا ينقطع سرمداً.

فصـــل

فإذا كان مع مولاه بهذه المثابة فحينئذ يحسن منه فيحبه فيبدل سيئاته حسنات، ويتداركه في مواضع هلكاته.

ولذلك ترى المحب ربما فعل القبيح فيحسن عند المحبوب لأن المحبوب محب له أيضاً[1] وفي مثل ذلك أنشدوا:

ويقبـــح مـــن ســـواك الفعـــل عنـــدي فتفعلـــه فيحســـن منـــك ذاكـــا

وفي مثل هذا ورد الخبر عن زيد بن أسلم: «إن الله يحب العبد حتى يبلغ من حبه له أن يقول له اصنع ما شئت فقد غفرت لك».

---

(١) جاءت العبارة في الأصل على هذا النحو: لا يوحشه كونهم ولا يؤنسه فقدهم. وهو قلب للعبارة. فضبط العبارة على النحو المبين. ولله الحمد والمنّة.

(٢) جاءتا في الأصل: بوصف. وهو تحريف.

(٣) أرى أن هذا استدلال في غير موضعه وإن جاز بين العبيد فلا ينسحب هذا على أمر من أمور العبادة.

[٢٦٩/ أ] وفي[1]/ الصحيح من الحديث في قصة حاطب: أن عمر بن الخطاب قال لرسول الله ﷺ: دعني أقطع عنقه فإنه قد نافق. فقال له رسول الله ﷺ: «وما يدريك لعل الله قد اطلع على أهل بدر فقال: اعملوا ما شئتم فقد غفرت لكم»[2].

وما حدّث به رسول الله ﷺ إلاّ والأمر كذلك.

وإلى هذه اللطيفة من أحوال المحبين والمحبوبين أشار المحققون في قولهم: استحسان الكون على العموم دليل على صحة المحبة واستحسانه على الخصوص يؤدي إلى حيرة وظلمات.

فإذا فهمت هذا فالمحبون هم الفائزون الشاكرون الراضون، ومن أوصافهم: التوكل بالاعتماد والتسليم والتفويض بجميع الأمور إلى محبوبهم، قال الله عز وجل: ﴿فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَوَكِّلِينَ﴾[3].

فتوكل المحبين سكونهم إلى وعد[4] محبوبهم لأن من أحب شيئاً لا يريد فراقه ولأن الفرقة تشتيت. وكثرة النظر في الأسباب تشتت القلب من المحب، ولذلك قال الله عز وجل لحبيبه محمد ﷺ: ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلاً﴾[5]. فأمره جل جلاله بالسكون إليه وتفويض الكل إلى تدبيره ثم أعلمه أنه ليس للمخلوق إلاّ قلب واحد إن اشتغل بشيئين أو [٢٦٩/ ب] أشياء قاطعة عنه تشتت وافترق عن محبوبه فقال:/ ﴿مَا جَعَلَ ٱللَّهُ لِرَجُلٍ مِّن قَلْبَيْنِ فِي جَوْفِهِ﴾[5].

ومن أغرب ما سمع في هذا المعنى:

أن رجلاً مرّ بجارية على عين فأعجبته فجعل ينظر إليها ولا يلتفت إلى سواها فأمرته أن يرد بصره عنها. فقال لها: وكيف وقد امتلأ كلي بكِ؟ فقالت له: كيف لو رأيت الجارية الأخرى التي وراءك في العين الأخرى فإنها أجمل مني. فالتفت وصرف بصره فلم ير شيئاً.

---

(١) جاء هذا الحرف مكرراً بآخر ص: [٢٦٨/ ب] وأول ص: [٢٦٩/ أ] فحذفت التكرار.

(٢) أخرجه أبو داود في السنن (الجهاد ب ١٠٧)، الترمذي في الجامع الصحيح (٣٣٠٥)، البيهقي في السنن الكبرى (١٤٦/٩)، الشافعي في المسند (٣١٦). وهذا أيضاً استدلال في غير موطنه فإن حاطباً رضي الله عنه فعل ما فعل وهو لا يظن أنه معصية وكان لا يراه قبيحاً.

(٣) سورة آل عمران (الآية: ١٥٩).

(٤) جاءت في الأصل: وعيد. وهو تحريف.

(٥) سورة الأحزاب (الآية: ٣، ٤).

فقالت له: ما أحسن الصدق وأقبح الكذب ألم تقل أقبلت عليك بكلي فإليك عني. فنظر إليها فاحتجبت عنه ولم ير شيئاً.

فالمحبون هم المتوكلون المفوضون المسلمون المستسلمون الساكنون بطمأنينة السكينة عند محبوبهم ومن أوصافهم: العلم الكامل، والمعرفة التامة بمعروفهم، قال النبي ﷺ: «إن الله عليم يحب كل علم وعليم» على وزن فعيل للتكثير. وقال إمام الأمة وعليم الملة علي بن أبي طالب رضي الله عنه: من لا يعرف ما يحب فإنما يمازج نفسه.

والجهل بعيد من أوصاف القدوس جل جلاله.

فالمحبون هم العارفون، والمعرفة إنما تكون بالتدبر في آيات كلام الحبيب، والفكر والنظر في مصنوعات الحكيم.

فقلوبهم مشحونة بالأفكار وعَقولهم جائلة مستغفرة بالنظر والاعتبار، وقال قائلهم:

/ مررت على الديار ديار ليلى أقبل ذا الجدارَ وذا الجدارا [٢٧٠/
فما حب الديار أثار قلبي ولكن حب من سكن الديارا

فالمحبون هم المعتبرون المتدبرون الناظرون المتفكرون العالمون العارفون.

ومن أوصافهم: الإحسان، قال الله عز وجل: ﴿وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾[1].

والإحسان: «أن تعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك»[2].

وقال الله عز وجل: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَمَعَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾[3].

والمعية: توجب القرب، والرؤية: توجب المحاضرة، والمطالعة، والمشاهدة، والمكاشفة، والمراقبة، والحياء، والمجالسة إلى غير ذلك من أوصافهم.

فالمحبون هم المراقبون، المستحيون، المعاينون، المحاضرون، المشاهدون، المكاشفون، المطالعون، المجالسون ﴿فِي مَقْعَدِ صِدْقٍ عِندَ مَلِيكٍ مُّقْتَدِرٍ﴾[4].

والمجالسون هم المخاطبون، والمحدثون، وأهل الأنس فهم المستأنسون.

فصل

ومن أوصافهم وأدل دليل على كون المحبة بين أعطافهم حب لقاء الحبيب، الودود، جل جلاله.

---

(١) سورة المائدة (الآية: ٩٣).
(٢) سبق تخريج الحديث في أكثر من موضع.
(٣) سورة العنكبوت (الآية: ٦٩).
(٤) سورة القمر (الآية: ٥٥).

وقال النبي ﷺ: «من أحب لقاء الله أحب الله لقاءه»(١).

فهم المستوحشون من الدنيا وأبنائها الفارون إلى الخلوات عنها وعن أهلها الغرباء فيها [٢٧٠/ ب] المسافرون المقلعون عنها الباكون على الرجوع إلى أوطانهم منها قال النبي ﷺ: / «لا راحة لمؤمن دون لقاء ربه»(٢).

ولولا ما عجل لهم من معنى هذا اللقاء الكريم في الدنيا في صلواتهم منها وقرة العين فيها وفي خلواتهم لطارت أرواحهم من أجسامهم صعداً وتلفت، وتفتّت أكبادهم بالشوق كمداً، قال الله عز وجل: ﴿أَلَمْ يَرَوْاْ إِلَى ٱلطَّيْرِ مُسَخَّرَٰتٍ فِي جَوِّ ٱلسَّمَآءِ مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلَّا ٱللَّهُ﴾(٣).

وفي الخبر: «إنما نسمة المؤمن طير تعلق من ثمار الجنة»(٤).

وقال النبي عليه الصلاة والسلام في تعجيل اللقاء الكريم في الدنيا لهم: «أرحنا بها يا بلال»(٥).

وقال: «وجعلت قرة عيني في الصلاة»(٦).

ومن أوصافهم: متابعة الحبيب محمد ﷺ في أعماله ومقامات باطنه وأحواله وقد كان عليه الصلاة والسلام مؤثراً لله على كل شيء ومستحقراً في جنب مولاه كل حي ومؤثراً للآخرة الباقية على هذه الدنيا الفانية. وقال الله عز وجل: ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ﴾(٧).

أثبت لهم في هذه الآية حباً في أولها بقوله: ﴿إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ﴾(٨).

---

(١) أخرجه البخاري في الصحيح (٨/ ١٣٣)، مسلم في الصحيح (الدعاء والذكر ١٤، ١٥، ١٦)، الترمذي في الجامع الصحيح (١٠٦٦)، النسائي في المجتبى (٤/ ٩، ١٠)، ابن ماجة في السنن (٤٢٦٤).

(٢) ذكره الألباني في سلسلة الأحاديث الضعيفة (٦٦٣).

(٣) سورة النحل (الآية: ٧٩).

(٤) أخرجه مالك في الموطأ (٢٤٠)، النسائي في المجتبى (٤/ ١٠٨)، ابن ماجة في السنن (٤٢٧١)، أحمد في المسند (٣/ ٤٥٥).

(٥) أخرجه الطبراني في الكبير (٦/ ٣٤٠)، أحمد في المسند (٥/ ٣٦٤).

(٦) أخرجه الطبراني في الصغير (١/ ٢٦٢)، ابن الجوزي في تذكرة الموضوعات (١٢٥)، العقيلي في الضعفاء (٤/ ٢٤٠)، ابن حجر في الفتح (١١/ ٣٤٥).

(٧) سورة آل عمران (الآية: ٣١).

(٨) سورة آل عمران (الآية: ٣١).

ثم أعلمهم أنه يثيبهم على الاتباع لحبيبه حباً ثانياً زائداً على حبهم الأول في قوله: ﴿يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ﴾[1] وفي زيادة الحب على الحب ليشتد الحب وإذا اشتد الحب ظهرت آثاره على المحب وثبت أعلامه على المحبوب ولذلك/ ظهرت الباء الثانية في الفعل الثاني الزائد [٢٧١/ أ] عن الحب في قوله: ﴿يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ﴾[1] ولم يخف الباء فيه بالإدغام ولولا أن الباء ظهرت بتسكين الجزم لها لأتلف الحب أهلها والسكون هدوء وطمأنينة ومودة، فلذلك كان الأئمة الأعلام المحبون المتبعون للنبي عليه الصلاة والسلام أهل تودد وطمأنينة، وأهل سكون، وهم أحب أهل خلق الله في الله وفي رسول الله [ﷺ] وقد عوتب الجنيد على ترك الحركة فقال: ﴿وَتَرَى ٱلْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ ٱلسَّحَابِ﴾[1].

وهكذا قال أهل المعرفة: لكل حرف وحركة وسكون من حروف القرآن علوم وأسرار وفهوم لا تنقضي أبداً.

فأهل هذا المقام ظهرت على أجسامهم قوة أحوالهم وأعمالهم المحبة حتى لم يُشك أنهم محبون لكن لما كان قوله: ﴿يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ﴾[2] حب من الله لهم جذبهم حبه لهم إليه سبحانه وأوقفهم بالتثبت معه والتمكن في حبه. والثبات والوقوف ترك الحركة وهو حزم والحزم قطع للحركة وتسكين لها، وليس في أحوال الخلق أرفع من درجة التمكين وإنما ورثوا ذلك باتباعهم الممكن المكين في حب رب العالمين محمد سيد المرسلين فإنه كان أحب الخلق في الله وكان أثبت في حبه وأرزن من الجبال الرواسي صلوات الله وسلامه عليه وعلى أتباعه إلى يوم الدين.

فصل

فإن قلت: فإن قوله: ﴿يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ﴾[3] مخصوص بالله ومن حب الله لهم وحب الله بائن من حب/ الخلق وأنت إنما وصفت حب المحبين للمخلوق. [٢٧١/ ب]

فاعلم أن الأمر كما قلت وحبه لهم جذبهم إليه كما تقدم وبحبه لهم تأثر الحب عندهم وزاد لأن صفاته فعالة في الوجود ولا يحب العبد خالقه حتى يحبه خالقه فيحبه فهم زاد الحب عندهم وتأثرت بواطنهم بالحب كما أن مشيئتهم عن مشيئته: ﴿وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ﴾[4].

---

(١) سورة النمل (الآية: ٨٨).
(٢) سورة آل عمران (الآية: ٣١).
(٣) سورة آل عمران (الآية: ٣١).
(٤) سورة الإنسان (الآية: ٣٠).

فصـــل

قوله: ﴿يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ﴾[1] كانوا محبوبين لله لا بد ولا محالة ومجذوبين إليه من الأشياء القاطعة بلا شك وبذلك أخرجهم من الظلمات إلى النور، وهو أخرجهم إليه وتولاهم فكانوا في كنفه وتحت توليه، ولما تولاّهم صاروا في ملك قبضته قبضهم عن الأغيار، وأكرمهم بنفسه، وإذا قبضهم عنده فقد استمسكوا بالعروة الوثقى، وإذا استمسكوا بالعروة الوثقى لم يكن لهم زوال ولا خروج من القبضة لأن العروة الوثقى لا انفصام لها: ﴿فَمَن يَكْفُرْ بِٱلطَّٰغُوتِ وَيُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ﴾[2] الآية. ﴿ٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يُخْرِجُهُم﴾[2] الآية. لا سيما الإخراج الكلي، والولاية الخاصية فحالهم في هذا المقام حال الحوت في الماء إن خرج توقف عن التنفس وكاد يتلف.

وكذلك المحبوبون لا يستطيعون الخروج من عند محبوبهم ولا الالتفات إلى المواضع والأغيار له كما جرى للحوت إذا خرج من الماء.

فصـــل

[٢٧٢/ أ] فإن قلت: كيف/ أقبلت الأنبياء على الخلق ومخاطبتهم وعلى الأكل والشرب والنكاح والأولياء الأكابر الذين وصفت.

فاعلم أن الله جل جلاله وتقدست أسماؤه يقول: ﴿وَأَقْسِطُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ﴾[3].

فمن أوصافهم القسط، والقسط: هو العدل، والعدل: وضع الأشياء مواضعها التي أمر الله بها، وإعطاء الحق لكل ذي حق فيشاهدون الأشياء ويباشرونها لأن الله منزه عن مباشرة الأشياء وملامستها فلا بد لهم من مباشرة المخلوقين لتوصيل الحق إلى كل ذي حق ولإخراجهم ودعوتهم إلى النور الحق من ظلمات الخلق.

فصـــل

فإن قلت: فإن ذلك الرجوع نزول من أعلى إلى أسفل وذلك انحطاط ونقص في وجه.

---

(١) سورة آل عمران (الآية: ٣١).

(٢) سورة البقرة (الآية: ٢٥٦، ٢٥٧).

(٣) سورة الحجرات (الآية: ٩).

فاعلم أن ذلك كمال وزيادة، ألا ترى إلى قوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ﴾[(١)].

فالحب من الله لازم لهم في حال قسطهم والحب يتأثر عن حبه لهم في قلوبهم فالمحبة لا تفارقهم وكلما أخرجوا مخلوقاً من ظلمة الخلق إلى نور الحق أو أوصلوا حقاً إلى ذي حق تعدى الفعل منهم إلى غيرهم وأحبهم الله على ذلك، وازدادوا حباً فيه إلى حبهم، وازداد جذبهم إلى الله بحبه لهم.

فالحب لا يفارقهم والمشاهدة لازمة لهم فإنهم مربوطون مزممون بزمام العروة الوثقى التي لا انفصام لها لأن المحبوب الذي/ أحبوه لا يبطل أبداً ولا يزول ولا يحول. [٢٧٢/ ب]

فلذلك لم يكن لها انفصام وربما كان غفلة هؤلاء المذكورين ونومهم جماماً وزيادة لهم في المستقبل.

فصـــل

قال الله عز وجل في صفة الممكن المكين محمد عليه الصلاة والسلام: ﴿ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّىٰ * فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَىٰ﴾[(٢)].

فبالدنو والقرب تمكن واستمسك بالحق وبالتولي كان أبداً في إعطاء الحقوق ومشاهدة الخلق والمتولي مستمسك بالعلو وإن كان في السفل. فافهم.

وأنشد بعض المحبين المحبوبين في مثل هذه الحالة فقال:

تــــراك تــــرثــــي للــــذي قلبــــه معلــــق فــــي مخلبــــي طــــائــــر

لا سيما وكل من ذكرنا من المحبوبين الخوف والحذر محيط بهم أن لا ينقطعوا عن محبوبهم أو يغيبوا عنه أو يميلوا إلى سواه، فهم مع الخلق كالماشي حافياً بين الشوك فلا أحد أكثر خوفاً وحذراً من أهل المحبة.

وخوفهم في حال محبتهم أحلى من كل حلو لأنهم يخافون أن يفوتهم محبوبهم أو يفتروا عنه أو يزيلوا عنه فلو فقدوا الخوف لهلكوا فالخوف يقبضهم عن الأشياء وهم مع الأشياء لأن من طبع الخوف القبض، ولا سيما مصاحبة أهل الكمال ومشاهدتهم فإنها زيادة.

وقد قال النبي ﷺ في أكمل النسوان عائشة/ الصديقة بنت الصديق الكامل صلوات الله [٢٧٣/ أ] على جميعهم: «ما نزل عليَّ الوحي وأنا في لحاف امرأة منكن غيرها».

---

(١) سورة الحجرات (الآية: ٩).

(٢) سورة النجم (الآية: ٨، ٩).

فنسب ذلك لكمالها وجعله من فضائلها، وأهل الكمال المذكورون من كان عند الواحد مثل ما عند الآخر فكل واحد منهم لا يحب أن ينقطع عن محبوبه أو يكون الآخر قالاً عن الآخر فيفيض الآخر عليه مما عنده فيزيد هذا وهذا، أو يكون الشيء المفعول أو المشاهد محبوباً لله ويأمر الله أو يكون الشيء المشاهد والمباشر عدواً لله ومبغوضاً عند الله فيباشر بتطهيره وإزالته من ملك الله كالكفر والمناكير المغيرة: ﴿قَاتِلُوهُمْ يُعَذِّبْهُمُ ٱللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ﴾[١].

وهكذا المقسطون إذا وضعوا كل شيء في موضعه لم ينقصوا من كمال الحب بل يزيدون.

وكذلك ورد في الخبر ما ورد من فضل الإمام العادل وأنه أعظم الناس درجة وأحب الخلق إلى الله والخلق كلهم أئمة على جوارحهم، واسترعوا عليها[٢] لكن أكثرهم جَوَرَة، وفي الخبر: «كلكم راع وكلكم مسؤول عن رعيته»[٣].

لكن الجور أهلك الكل فإذا فهمت ما تعمدهم علمت أن الراعي والإمام كلما كثرت رعيته وعظم ملكه وكان من المقسطين كان أفضل الناس وأقربهم إلى الله وأعظمهم/ درجة [٢٧٣/ ب] وأكثرهم حباً وذلك لسر عظيم النور من المعرفة الخاصية ولاح لك به معنى القرب من الربوبية بالمعنى والرتبة والصفات لا بالمكان وتقارب الذوات ويفهم بالحقيقة معنى قول النبي ﷺ: «إن الله خلق آدم على صورته»[٤].

فإن الله جل جلاله وتقدست أسماؤه غني عن العالمين يوصف نفسه (. . .)[٥].

«ليس الغنى عن كثرة العرض لكن الغنى غنى النفس»[٦].

---

(١) سورة التوبة (الآية: ١٤).

(٢) في الأصل: عليه. وهو تحريف.

(٣) أخرجه البخاري في الصحيح (٢/٦)، (٣/١٩٦)، أبو داود في (الخراج ب ١)، الترمذي في الجامع (١٧٠٥)، أحمد في المسند (٣/ ٥).

(٤) أخرجه مسلم في الصحيح (البر والصلة ١١٥)، أحمد في المسند (٢/ ٢٤٤)، الحميدي في المسند (١١٢٠)، ابن أبي عاصم في السنة (١/ ٢٢٨).

(٥) موضع النقط كلمة لم أتبين قراءتها وهذا رسمها (الريه).

(٦) أخرجه البخاري في الصحيح (٨/ ١١٨)، مسلم في الصحيح (الزكاة ب ٤٠ رقم ١٢٠)، الترمذي في الجامع الصحيح (٢٣٧٣)، ابن ماجة في السنن (٤١٣٧)، أحمد في المسند (٢/ ٢٤٣)، الحميدي في المسند (١٠٦٣).

لا يشغله تدبير ملكه ولا يتعبه بل يشاهد نفسه ويشاهد ملكه وتصرفه، وسواء عنده وجوده أو عدمه.

وكذلك إعطاء خلفائه وأحبائه معنى من التخلق بأوصافه فأعطاهم الغنى به وبحبه والإقبال عليه عن كل شيء لأنه الماسك لهم عنده بحبه لهم ثم عطف بهم على الأشياء فأقبلوا عليها بتنفيذ أوامره كما يصنع هو في ملكه وكل ذلك له ومن عنده وهذا معنى عظيم من الإحصاء الذي ندب إليه رسول الله ﷺ في قوله: «إن لله تسعة وتسعين اسماً مائة إلا واحد الله وتر يحب الوتر من أحصاها دخل الجنة»[1].

فقرب إلى الاتصال والتخلق بأوصاف الإله على[2] قدر طاقة الإنسان.

وأعظم الناس رتبة أكثرهم اتصافاً وتخلقاً بالأسماء الحسنى والصفات/ العلى وفي هذه [٢٧٤/ المسألة تخبط الناس واختلفوا في الغنى والفقر أيهما أفضل؟

فمن مخطىء غاية الخطأ يفضل الأعراض الدنياوية القاطعة عن الله.

ومن مصيب في بعض ومقصر في بعض.

ونحن إن شاء الله نكشف الحق في هذه المسألة حتى يتبين لكل منصف غير متعسف.

فصـــل

الغنى على ضربين، والفقر على ضربين.

فأما الضرب الأول من الغنى فهو غنى النفس: والضرب الثاني في كثرة المنقولات والممتلكات ووجودها في يد الغني وتملكه لها وتصرفه فيها.

وهذا على الكمال الأرفع ليس إلاّ للإله الحق وهو الغني بنفسه عن العالمين، وهو الغني بكثرة المماليك التي لا حصر لها ولا نهاية لكثرتها وبادئها أبد الآبدين فهو رب العالمين ومالك الملك والخلق أجمعين.

فأما الوصف النفساني الذي هو غنى النفس فهو لازم للغني الحق رب العالمين قبل وجود الكون وبعد وجوده وبعد إعدامه إن شاء إعدامه بعد وجوده.

---

(١) أخرجه البخاري في الصحيح (٣/٢٥٩)، مسلم في الصحيح (الذكر والدعاء ٦)، الترمذي في الجامع الصحيح (٣٥٠٦)، ابن ماجة في السنن (٣٨٦٠)، البيهقي في السنن الكبرى (١٠/٢٧)، أحمد في المسند (٢/٢٥٨).

(٢) في الأصل: الاتصاف بأوصاف الإله (وأخلاقه) فحذفت ما بين القوسين.

فأما الضرب الثاني وهو وجود المتملكات في ملك الغني: فإن ذلك في حق الله الغني سواء وجوده وعدمه لا يستغني به ولا يفتقر إليه إن أعدمه/ بل هما شيئان لا يترجح أحدهما على الآخر.

وإذا فهمت هذا فهمت معنى حديث النبي ﷺ: «ليس الغنى عن كثرة العرض إنما الغنى غنى النفس»(١).

فإن «ليس» في اللسان العربي والنطق الخفي للنفي و «إنما» في اللسان أيضاً للحصر كقوله عز وجل: ﴿إِنَّمَا ٱللَّهُ إِلَـٰهٌ وَاحِدٌ﴾(٢). أي حصرت الألوهية والوحدانية له لا لسواه ومنعتها من غيره.

فالغنى بالحقيقة غنى النفس، وغنى الأسباب وفقرها في حق الباري سيان لأن الفقر هو عدم الأسباب فوجودها وعدمها في حقه سواء وإلى المعنى الواحد أشار بعض العارفين وقَصَّر بي الآخر فقال: الغنى أفضل من الفقر لأنه صفة الحق.

فقال له عارف آخر: فالله غني بالأسباب إذاً ـ فانقطع ولم ينطق بحرف.

فصل

ومن أجل هذه الشبهة كفر القائلون بقدم العالم لأنهم يقولون: إن الأشياء معلولات الله وهي معه كالعلة مع المعلول والظل مع الشخص لو زالت عنه لطرأ عليه نقص في صفاته فصار عندهم لا يكمل إلاّ بها.

وجعلوا الفقر النفساني من صفاته تعالى وجل لأنه إذا كمل بها أو بوجودها ولم يستغن عن كونها فقد افتقر إليها.

[٢٧٥/ أ] وجعلوا الفقر من صفته/ نفسه وجعلوا الغنى بالأعراض ووجود الأسباب من صفاته وقد خطأهم النبي ﷺ فقال: «كان الله ولا شيء معه»(٣).

فأثبت الغنى النفساني عن جميع الأشياء للغني الحميد جل جلاله.

وقال في حديث آخر: «كان الله ولم يكن شيء غيره»(٤).

---

(١) سبق تخريجه قبل قليل.

(٢) سورة النساء (الآية: ١٧١).

(٣) أخرجه البخاري في الصحيح (٤/ ١٢٩)، (٩/ ١٥٢).

(٤) أخرجه البيهقي في السنن الكبرى (٩/ ٣)، الطبراني في معجمه الكبير (١٨/ ٢٠٥ م)، الحاكم في المستدرك (٢/ ٣٤١)، العجلوني في كشف الخفا (٢/ ١٨٩).

فنفى الغنى بالأغيار عن العزيز الجبار قبل وجود الأغيار ثم لمّا أوجد جل وعز الغنى العرضي قرب المماليك ووسع المملوكات من جميع الموجودات وفرض عليهم العبادة.

ثم أعلم الكل أنه غني عنهم وعن عبادتهم فقال: ﴿وَمَن جَاهَدَ فَإِنَّمَا يُجَاهِدُ لِنَفْسِهِ إِنَّ ٱللَّهَ لَغَنِيٌّ عَنِ ٱلْعَالَمِينَ﴾[1]. وقال جل وعز: ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ غَنِيًّا حَمِيداً﴾[2]. أي كان في أزله كما قال النبي ﷺ: «كان الله ولم يكن شيء غيره».

فقوله: ﴿كَانَ ٱللَّهُ غَنِيًّا حَمِيداً﴾[2] إشارة إلى كونه القديم قبل إيجاده الأشياء فأثبت لنفسه الغنى في الأول وقوله: ﴿وَمَن جَاهَدَ فَإِنَّمَا يُجَاهِدُ لِنَفْسِهِ إِنَّ ٱللَّهَ لَغَنِيٌّ عَنِ ٱلْعَالَمِينَ﴾[3] إشارة إلى الوقت فأثبت لنفسه الغنى عن الكل فاستوى عنده الوجود والعدم.

فهذا هو الغنى على الإطلاق.

فإن وجد من الأغنياء المخلوقين المتصفين بالغنى المخلوق ومن جعل/ له معنى من [٢٧٥/ هذا الوصف حتى يستوي عنده وجود الشيء وعدمه فقره وغناه فهو الكامل على الحقيقة.

فصـــل

فإن قلت: وهل يوجد ذلك أم لا؟

فاعلم أنه لا يوجد على الكمال إلاّ في المال عند صفوة الرجال المتصفين بالكمال.

ومعنى ذلك أن غنى الآخرة أفضل من فقرها والأغنياء بمعنى الآخرة هم ملوك الجنة، وفقراء أهل الجنة آخر من يدخلها، وأغنياؤهم أول من يدخلها.

وقد ورد في صفة الأبدال أنهم ملوك أهل الجنة.

فصـــل

أغنى أهل الجنة في الأعراض أكثرهم ملكاً وأعظمهم حولاً، وأكثرهم غنى الغنى النفساني أكثرهم إيثاراً للنظر إلى الله، وأرغبهم وأحرصهم على المقام في المشاهدة لمن ليس كمثله شيء، والخروج بالتجرد عن القصور والتمتع بالحور العين فيعطيهم نفسه فَغنَاهم به عن كل شيء لا يشبه ولا يقاس به شيء.

(١) سورة العنكبوت (الآية: ٦).
(٢) سورة النساء (الآية: ١٣١).
(٣) سورة العنكبوت (الآية: ٦).

فصـــل

إذا ردهم على الأغيار لقضاء الحقوق وقضاء الأوطار وأراهم ما أعطاهم وما أغناهم به من المماليك والأمصار علموا أن في ذلك رضاه فاتبعوا رضوانه فرأوا بعلمهم برضاه ما في نفسه فكان ذلك زيادة رؤية فرجعوا به إلى الملك وأفاضوا بجودهم على المماليك كما أفاض عليهم مليكهم فكانوا مع الأشياء/ بالله والله معهم لأنهم موحدون يرون أن الله منفذ لكل [٢٧٦/ أ] شيء لا يحتجبون عنه في شيء فهم خارجون عن الأشياء وهم مع الأشياء، وقال النبي ﷺ لعلي: «يا علي إن الله تخلى لك في مماليكك وأزواجك وأهلك ولا يشغلك ذلك عن ربك»[١].

أو كما قال النبي ﷺ في هذا المعنى: «رأيت ربي في أحسن صورة»[٢].

أي لم يشغلني حسن الصورة عن المصور.

فالغنى الكامل في الجنة إذا اشتهى النظر نظر ولا يحجب عن شيء لأن بصائرهم كانت متيقظة نافذة في الدنيا في كل شيء.

وأغنى الناس في الآخرة محمد بن عبد الله رسول الله [ﷺ] والأنبياء والأولياء ثم يترتب الغنى إلى آخر من يدخل الجنة.

فالغني في الآخرة أفضل من الفقير بلا شك لأن الذي في أدنى درجة فقير بالإضافة إلى ما فوقه لأن الذي فوقه أعظم ملكاً وأوسع حولاً وأكثر نظراً منه وهكذا إلى أعلاهم درجة.

وأما الفقر بالحقيقة فهو لأهل النار في الآخرة فإنهم متملكون بيد المعذبين لهم مساكين بين أيديهم لم يملكوا من أنفسهم شيء ولا أعطوا من الأشياء قليلاً ولا كثيراً بل الأشياء كلها عليهم قد خسروا ربهم وخسروا الجنة وخسروا أنفسهم وأهليهم وخسروا كل شيء. فليس هم/ من أهل الغنى في شيء فالفقر في الآخرة شر بلا خير. [٢٧٦/ ب]

فصـــل

وأما أحكام الدنيا فإن الدنيا خلقت للعبادة ولم تخلق للتنعم والرفاهية ولأنها قاطعة عن الله وعن الدار الآخرة.

---

(١) هذه هي النظرات والأقوال الصوفية التي كثيراً ما تردد وغالباً ما بث كثيراً منها غلاة الشيعة فنسأل الله لنا ولكم السلامة.

(٢) الطبراني في الكبير (١/ ٢٩٦)، الخطيب في التاريخ (٨/ ١٥٢)، البغوي في شرح السنة (٧٢٥)، السيوطي في الدر المنثور (٣/ ٢٤).

فالفقر فيها والزهد أفضل بلا شك لأنه شعار الأنبياء.

ولا عبادة أفضل من الفقر إلى الله. ومن جهل هذا وقال بخلافه فقد صرح بحبه للدنيا، وقد صح أن النبي ﷺ خُيِّر [بين][1] أن يكون نبياً عبداً أو نبياً ملكاً فاختار التعبد واختار الفقر على الغنى ولا كلام لأحد مع رسول الله ﷺ.

وما جاء نبي ولا رسول من عند الله إلا بالتحذير من الدنيا والتزهيد فيها.

ولا يوجد لواحد منهم بوجه أنه أتى بالترغيب فيها والاستكثار منها وجعلوا حبها رأس كل خطيئة. فأي كلام لأحد مع هذا.

فصـــل

فإن قلت: فأين ما قدمت في صفة الخلفاء والرعاة؟

فاعلم أن من هنا دخلت الشبهة على الخلق وقد أعلمتك أن ذلك في الجنة ومثال ذلك أن غنى الدنيا العرض الحال فيه بخلاف حال الآخرة وذلك أن متملكات الآخرة موجودة أبداً بأيدي مالكها ويزادون منها أبداً فهم في اتساع ومزيد من الغنى والمتملكات أبداً فملكهم واقف يزيد/ ولا يفنى ولا ينقص وغنى الدنيا وأموالها العرضية يذم صاحبها ويلام إذا حبسها [٢٧٧/] بيده ولم يخرجها بالإنفاق لها في سبيل الخير وإنما يمدح بافتقاره منها وفقده لها فإذا أخرجها من يده لا على ما يمسك فالمدح إنما يقع على الغنى في الدنيا على ما ينفق لا على ما يمسك.

ولا يمدح أيضاً على تمتعه بالشهوات والاتساع في اللذات فإن ذلك مُشْغِلٌ لا محالة عن الله والدار الآخرة وما شغل عن ذلك فهو مذموم فإذا وجدنا في الدنيا خليفةً وراعياً مقسطاً في رعيته فلا يكون ذلك إلا أن يكون حاله حال الفقر وعيشه عيش الفقراء يرى أنه مستخلف في ما أعطي للاختبار لم يملك ماله كما ملك أهل الجنة لما أعطوا فإنهم ملكوه حقيقة لا يخرج من أيديهم أبداً.

قال النبي ﷺ: «ليس لك من مالك إلاّ ما أكلت فأفنيت أو لبست فأبليت أو تصدقت فأمضيت». وما سوى ذلك فللوارث.

فالدنيا عارية عند أهلها مختبرون بها فالمقسط فيها حاله حال الفقير وإن كان غنياً لأنه خازن أمين.

---

(١) ما بين المعقوفين يتطلبه السياق.

ألا ترى أن أغنياء الناس في الدنيا إنما هم الملوك، لم يسم ما بأيديهم أنه مالهم وإنما سماه بيت مال المسلمين.

[٢٧٧/ ب] فهو مالهم ينفق في حوائجهم ومنافعهم فإذا كان المالك فقير النفس فأكل مال/ المسلمين وأنفقه في أغراضه فقد أتلفه.

وربما زاد الفقر عليه حتى يأخذ ما بأيديهم زائداً إلى ما عنده من بيت مالهم.

فأي فضل في هذا؟

فإن كان غنى النفس منزهاً عن أكل حقوق الخلق الذي هو رجس وقف بحاله على حال المقسطين وأعطى بالعدل كل ذي حق حقه فكان فقيراً في صورة غني كالأنبياء والخلفاء.

وكذلك أيضاً من وجد من الفقراء الصادقين الذين ليس بأيديهم شيء إنما هم فقراء في صورة الأغنياء بالتعفف والقناعة.

قال الله عز وجل: ﴿لِلْفُقَرَآءِ ٱلَّذِينَ أُحْصِرُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ لاَ يَسْتَطِيعُونَ ضَرْباً فِي ٱلأَرْضِ يَحْسَبُهُمُ ٱلْجَاهِلُ أَغْنِيَآءَ مِنَ ٱلتَّعَفُّفِ﴾(١).

فنسب إلى الجهل من ظن أنهم أغنياء وغفل عن كونهم فقراء.

فصل

وإنما نسبنا الرعاة إلى الفقر في الدنيا لأن الدنيا دار الصبر، والصبر مُرٌّ ومشقة وهم يمنعون أنفسهم من التمتع الكثير في الدنيا الذي هو صفة أهل الإتراف ودار الخوف من غناهم ومن الحساب عليه وعلى ما ملكوا من الرعايا ومن الأموال، ويلذون بذكر الموت والانتقال منها، وباكون وخائفون من أن تقطعهم الدنيا عن الله والدار الآخرة. ومن هذه حاله فهو فقير مسكين.

[٢٧٨/ أ] وقيل/ إن عمر بن عبد العزيز كان يجامع أهله ولا ينفك حتى يبل صدر امرأته بدموعه من خشية الله وهو خليفة الله في أرضه.

فهذا فقير في صورة غني ومسكين في صورة ملك.

وكذلك جميع الأنبياء والأكابر من الأولياء والخلفاء فهؤلاء أيضاً في الملك ولم يقطعهم عن الله والدار الآخرة الملك لكن حالهم حال الفقير.

---

(١) سورة البقرة (الآية: ٢٧٣).

فهم منسوبون إلى الفقر حتى يبلغوا إلى دار الغنى والملك.

وأعجب من هذا كله أن الدنيا كلها بما فيها من أولها إلى آخرها أقل عند الله من جناح بعوضة وعمرها كلها في عمر الآخرة أقل من نفسٍ بل لا يتجزأ.

فأي اسم أولى بالدنيا وأحوالها الفقر أم الغنى؟!

فصــــل

وأما الذي يتخبط ويتبع شهواته ويبخل ويمسك ولا ينفق متملكاته فإنه هالك بماله فلا يسأل عن حاله.

قال الله عز وجل: ﴿وَأَنفِقُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا تُلْقُواْ بِأَيْدِيكُمْ إِلَى ٱلتَّهْلُكَةِ﴾[1].

نزلت في ترك الإنفاق في سبيل الله فوصف أن إمساك المال وترك إنفاقه مهلكة.

فإن أمسكه للكبر والطغيان حق عليه الخسران ﴿كَلَّآ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَيَطْغَىٰٓ * أَن رَّءَاهُ ٱسْتَغْنَىٰٓ﴾[2].

فحال الفقر بكل وجه في الدنيا أحسن وأفضل من الغنى.

فإن أردت الشفاء البين في ذلك فإن الفقر على نوعين كما تقدم في الغنى: فقر من المال وفقر نفساني.

فالفقر إلى الله والغنى/ بالله أخوان لا يفترقان ولا يترجحان. [٢٧٨/ ب]

والفقر إلى الخلق والمال والغنى بالخلق أخوان لا يفترقان ولا يترجحان على قدر فقره بقلبه إلى ماله يكون غناه به وعلى قدر فقره إلى ربه يكون غناه به.

فاثنان محمودان، واثنان مذمومان.

فالغنى بالمال الدنياوي يولد الاستغناء به والاستغناء عن الله لأن صاحبه يطغى به والطاغي غني عن الله ويولد الفقر إلى المال لأنه طالب للزيادة منه فاغر فاه يقول: هل من مزيد.

وهذان هما الفقر المنسي والغنى المطغي وكلاهما مستعاذ بالله منه.

وعلى ضده فقير إلى الله غني به، الواحد ممدوح بإجماع والثاني مذموم بإجماع.

---

(١) سورة البقرة (الآية: ١٩٥).

(٢) سورة العلق (الآية: ٦، ٧).

ثم لنفرض غنياً طاغياً ظالماً لا يمتنع من الظلم بماله ونفسه وأعوانه، وفقيراً مفسداً لا يمتنع من سرقة وحرابة وفساد في طلب المال من أجل الفقر.

فالغني الطاعن أكثر عصياناً وأعظم إثماً لأنه قد يظلم أُمَّةً من الأمم في ساعة واحدة فيعصي الله في تلك الساعة ما لا يعصي الفقير المفسد في عمره كله فالغنى شر منه.

ثم لنفرض غنياً صالحاً يعمل الصالحات في ماله، وفقيراً صالحاً انقطع إلى ربه ووصل إلى مولاه بحاله؛ هذا يتمتع بماله، وهذا يتصبر على إقلاله، الواحد أشبه بالأنبياء لأن الأنبياء ليسوا متنعمين بالدنيا/ والشهوات وإنما يأخذون منها البُلغة. [٢٧٩/ أ]

قال النبي ﷺ: «إن عبيد الله ليسوا بالمنعمين».

فالعبودية في دار العبادة أفضل بلا شك وإنما الإتراف في الآخرة والأشبه بالأنبياء حين الأفضل بلا شك.

والواحد يحاسب، والآخر يحاسب وربما نوقش، والواحد سابق إلى الجنة والآخر متأخر عنه، والسابق هو المقرب، والمقرب أرفع درجة من المتأخر بلا شك.

فإن قلت: فإن الغني قد أنفق ماله في مرضاة الله.

فاعلم أن الفقير ترك المال وطلبه لمرضاة الله.

وهذا كله الذي ذكرناه إنما هو في الحلال، وأما الحرام فعذاب، والشبهة حساب وعتاب أو عذاب مع الحساب والعتاب.

والتارك ناج من هذا كله وسالم منه فهو أفضل بلا شك لأنه سابق إلى الجنة، والسابق مقرب كما تقدم.

فإن قلت: فإن الغني ربما أخرج ماله كله لله فله الفضل.

فاعلم أنه إذا أخرج ماله كله لم يقع عليه اسم غني وإنما حصل بذلك الفعل في الفقر وإذا فعل ذلك فحينئذ يلحق بالفقراء الزاهدين التاركين.

فإن قلت: فإن إنفاق المال وكسبه من الحلال محمود.

فاعلم أن ترك المال وكسبه لله أحمد.

فلنفرض رجلين أحدهما قد اشتغل بكسب المال وحفظه وإنفاقه في سبيل الله جمعه لله وحبسه لله وأنفقه لله.

[٢٧٩/ ب] / ورجل ترك كسب المال للّه ولم يمسكه لئلا يشغله عن الله، ولم ينفقه لاشتغاله بالله ووقوفه للمشاهدة مع الله.

فيهما فرقان لأن الأعمال كلها إنما هي أسباب للوصول إلى الله والمشاهدة والكون يتبعه.

فالواحد في الطريق، والآخر قد جاوز الطريق.

فإن قلت: فلنفرض غنياً قد استوى عنده الغنى والفقر.

فلنفرض أيضاً فقيراً استوى عنده الفقر والغنى فهو هو استوى عنده الحالان فلأي شيء يمسكه والدنيا لم يؤمر فيها بالإمساك ولا هي دار إمساك فإن أمسكه للغير فليس له فيه شيء فهو إذن فقير منه لا ينسب إليه منه شيء كما تقدم في الخلفاء والرعاة.

فالفقر في الدنيا بكل وجه خير وأفضل، والغنى في الآخرة بكل وجه خير وأفضل.

ومن وجه آخر أن الغني في الدنيا ينقلب في الآخرة لأن المكثرين هم الأسفلون وهم الآخرون وهم أشد حساباً.

وأول من يدخل النار هم أشد أهل النار عذاباً كما صحت به الأخبار حتى في الكفار.

قال الله عز وجل: ﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ خَيْرٌ لِّأَنفُسِهِمْ إِنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ لِيَزْدَادُوٓاْ إِثْمًا﴾[(١)]. فهم أشد عذاباً.

فالمقسطون العادلون في الدنيا إنما كانوا مقسطين وعادلين وفاضلين من أجل أنهم كانوا فقراء. فحالهم حال الفقراء وإن كانوا في صورة الأغنياء.

[٢٨٠/ أ] وإذا ثبت [أن خير الناس وأعلاهم][(٢)]/ درجة إمام عادل فلا شك أن دليل الخطاب أن شر الناس وأقلهم درجة إمام جائر، وفي الخبر: «كلكم راع وكلكم مسؤول عن رعيته»[(٣)].

فإذا كان الراعي كثير الرعية جائراً لغناه فيهم فهو شر الخلق بلا شك لأنه المفلس الذي قد قتل هذا وأخذ مال هذا وضرب هذا وفعل بهذا فيأخذون من حسناته إن كانت له حسنات ويُطرح عليه من سيئاتهم ولا بدّ لهم من سيئات.

فخرج من مجموع هذه الأدلة[(٤)] كلها أن الغنى على الحقيقة إنما هو غنى النفس، وأن

---

(١) سورة آل عمران (الآية: ١٧٨).

(٢) ما بين المعقوفين استنبطه من سياق الكلام حيث سقط بعض سطر من آخر الصفحة رقم [٢٧٩/ ب].

(٣) سبق تخريج الحديث قبل قليل.

(٤) في الأصل: الملة. وهو تحريف.

الفقر على الحقيقة إنما هو فقر النفس.

ومن كل واحدٍ محمود ومذموم فالغنى بالله عن غيره الذي هو غنى النفس محمود في غاية الحمد وممدوح في نهاية المدح وكلاهما من فضل الله.

والفقر إلى الله في كل شيء محمود في غاية الحمد وممدوح في غاية المدح وهما أخوان لا يفترقان وكفتا ميزان عدل لا يميلان ولا يترجحان.

والغنى عن الله وليس أنه هو الذي هو غنى النفس الطاغية مذموم في غاية الذم.

والفقر إلى غير الله في كل شيء مذموم في غاية الذم.

وكلاهما مستعاذ بالله منهما.

فصـــل

نفس الشيء وجوده، والوجود على ضربين: مستفاد، وغير مستفاد.

[٢/ ب] فالمستفاد لا يستغني عن المستفيد طرفة عين/ لأن قوام وجوده به.

والغنى: مشتق من غني الرجل غنًى فهو غنيٌّ إذا اكتفى واجتزأ بالشيء عن غيره.

والفقر: مشتق من قولك: افتقر الرجل إذا احتاج إلى الشيء ولم يستغن عنه.

فالوجود كله محتاج إلى الغنى الحق لأن نفس وجوده في كل نفس فالفقر طبْعه وأصله لأن أصله العدم.

والغنى مستعار له من غيره فتسميته بالغنى مجاز لا حقيقة.

وإنما الغنى المطلق من جميع الوجوه للمنزه عن الحاجات المكتفي بوصفه عن المكان وعن ما يلزم المخلوقات من ضروب الحدث وأنواع الضرورات الذي يفيض غناه على غيره فتكتفي به جميع الموجودات.

فالمعنى الواحد من قوله: غني يغنى غناءاً وأغناه إذا أغنى غيره وأفاض عليه الغنى فهو الغني بالحقيقة وحده.

فالفقر وصف الخلق وواجب تسليم صفات الحق للحق لازم التزم صفات الخلق للحق لأن غنى الخلق المستفاد من الغنى الحق مستفاد أيضاً وجوده، وغير قائم ومكتف بنفسه جوهراً كان أو عرضاً.

فقد عاد غنى المخلوق فقراً بلا شك إذ غناه محتاج إلى إدامته.

وله في اللسان العربي معنى مورد كقولك: أفقر الرجلُ الرجلَ دابته، إذا أعاره ظهرها وأغناه بذلك فكفاه عن المشي والتعب.

فإن ادعى/ المستعير العارية لنفسه كان متشبعاً بما لا يملك كلابس ثوبي زور. [٢٨١/ أ]

وإنما كانا ثوبي زور لأنه ظالم من وجهين ومُدَّعٍ في شيئين.

ادعى شيء غيره وادعاه لنفسه.

والزور كذب والكذب قبيح.

فدعوى الغنى للمخلوق حقيقة غير جميل، ودعواه للفقر أجمل من كل جميل فلا شيء أجمل على جميع العبيد القريب منهم والبعيد من نسبة الفقر إلى الغني الحميد.

وكذلك ورد في الخبر: «الفقر أزين على المؤمن من العِذَار[1] الحسن على خَدِّ الفرس الجواد»[2].

وأجود من ذلك الجمال المنسوب إليهم تطاول الغنى الحق وإشرافه بأوصاف الغنى عليهم وتطاوله بغناه عليهم ومدحه نفسه بذلك إليهم لائح للعقول في قوله عز وجل: ﴿يَآ أَيُّهَا ٱلنَّاسُ أَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱللَّهُ هُوَ ٱلْغَنِيُّ ٱلْحَمِيدُ﴾[3]. وفي قوله: ﴿وَٱللَّهُ ٱلْغَنِيُّ وَأَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ﴾[4]. وفي قوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَغَنِيٌّ عَنِ ٱلْعَالَمِينَ﴾[5]. [وفي قوله][6]: ﴿إِن تَكْفُرُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِيٌّ عَنكُمْ﴾[7].

و «لا أحد أحب إليه المدح من الله من أجل ذلك حمد نفسه»[8].

والله غيور على صفاته فليلزم كل مخلوق فقره ولا يتعدى طوره وقدره.

---

(١) العِذَارُ: استواء شعر الغلام. يقال ما أحسن عِذَارهُ. أي خط لحيته. والعِذارُ: الذي يَضُمُّ الخطام إلى رأس البعير والناقة. والعِـذَارُ: سِمَةٌ في مَوْضِع العِذَارِ. (وهو المقصود هنا). وقال أبو علي في التذكرة: العِذَارُ سمةٌ على القفا إلى الصدغين (لسان العرب).

(٢) أخرجه الطبراني في معجمه الكبير (٧/ ٣٥٣)، وأورده الألباني في الضعيفة (٥٦٤)، العجلوني في كشف الخفا (٢/ ١٣١)، ابن الجوزي في تذكرة الموضوعات (١٧٨).

(٣) سورة فاطر (الآية: ١٥).

(٤) سورة محمد (الآية: ٣٨).

(٥) سورة العنكبوت (الآية: ٦).

(٦) زيادة للفصل بين الآيات.

(٧) سورة الزمر (الآية: ٧).

(٨) أخرجه البخاري في الصحيح (٦/ ٧٤)، مسلم في الصحيح (التوبة ب ٦ رقم ٣٣، ٣٤)، الترمذي في الجامع الصحيح (٣٥٣٠)، أحمد في المسند (١/ ٣٨١).

فهمنا الله وإياكم عنه آمين.

وصلى الله على محمد وصحبه وسلم.

الشعبة الموفية خمسين: حُبّ الرسول عليه الصلاة والسلام

أما كون هذه الشعبة فبين لا يحتاج إلى دليل، قال الله عز وجل: ﴿قُلْ إِن كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ/ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ﴾[1] إلى قوله: ﴿وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا﴾[1] [٢٨١/ ب] إلى قوله: ﴿مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾[1].

فتهدد على ذلك وتوعد فقال: ﴿فَتَرَبَّصُوا حَتَّىٰ يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ﴾[1].

وفي الخبر الصحيح عن أنس قال: قال رسول الله ﷺ: «لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحب إليه من والده وولده والناس أجمعين»[2].

وفي الناس جميع الأنبياء والرسل والأولياء.

وعنه أيضاً في الصحيح قال قال رسول الله ﷺ: «ثلاث من كن فيه وجد حلاوة الإيمان: من كان الله ورسوله أحب إليه مما سواهما»[3] الحديث.

فقرن الله حبه مع حبه وزاد له مَزِيَّةً على ذلك على سائر المخلوقات لقوله: «مما سواهما» وما سوى الله ورسوله هو جميع الخلق من نبي أو ملك أوْ وَلي جَلَّت رتبته أو علت منزلته، ومن نعيم الجنة، ومن الأهل والقرابات ومن نفس الإنسان ومن كل شيء.

فلما أمره الله بهذه المرتبة وجب كونها شعبة مفردة من شعب الإيمان بنفسها.

ووجب له مزيّة في الحب على سائر الخلق لا يثبت إيمان أحد ولا يقبل إلا بكون هذه الشعبة التي هي حب الرسول من إيمانه.

ألا ترى رهبان بني إسرائيل كانوا يحبون أنبياءهم ورسلهم ويعبدون الله ولم ينفعهم

---

(١) سورة التوبة (الآية: ٢٤).

(٢) أخرجه البخاري في الصحيح (١/ ١٠)، مسلم في الصحيح (الإيمان ب ١٦ رقم ٧٠)، النسائي في المجتبى (٨/ ١١٤)، ابن ماجة في السنن (٦٧)، أحمد في المسند (٣/ ٢٠٧).

(٣) أخرجه النسائي في المجتبى (الإيمان: ب ٤٠)، الطبراني في المعجم الكبير (٨/ ٣١٤)، ابن كثير في البداية والنهاية (١٠/ ٣٣١).

شيء من ذلك لعداوتهم محمداً عليه الصلاة والسلام وهم مقرون بأنه نبي.

/ فيا له من شخص ما أكرمه على ربه وأعظم منزلته عنده وأحبه إليه حين لم يرض [٢٨٢/ أ] دين أحد إلا بحبه ولا قبله إلا مقروناً بحبه.

فصـــل

اعلم أن هذا الباب على ثلاثة أقسام:

قسم في مقام الإسلام.

وقسم في مقام الإيمان.

وقسم في مقام الإحسان.

فأما الظاهر في مقام الإسلام: فحبه عليه الصلاة والسلام باللسان وإظهار ذلك على الجوارح بالنصر له ودينه وسننه، وكثرة الثناء عليه، والصلاة والدعاء له، والغلظة باللسان والمعاداة لمن عاداه، وعادى طريقته واتباع سننه في الأعمال، ومخالفة الأهواء، والبدع المخالفة لسننه.

هذا هو حبه ظاهراً في مقام الإسلام وعالم الجسد كما قال عليه الصلاة والسلام: «من أحب سنتي فقد أحبني، ومن أحبني كان معي في الجنة»[1].

وأما حبه في مقام الإيمان: فهو وده بالقلب حتى يكون أودّ إليه من كل شيء سوى الله عز وجل كما قال عليه الصلاة والسلام: «وجد حلاوة الإيمان من كان الله ورسوله أحب إليه مما سواهما»[2].

وأما حبه في مقام الإحسان: فهو أن ينظر العقل إلى تشريف الله له وما آتاه من الفضيلة والكرامة ورفعة المنزلة على جميع المخلوقات فيعظمه ويوقره ويعززه ويلحظ ذاته الباطنة والظاهرة بعين التعظيم والتوقير فإنه معظم موقر في جميع العوالم من أسفل العالم إلى أعلاه إلى محله الكريم الذي هو قاب قوسين أو أدنى.

فإذا فهمت هذا/ ولا بد من ذكر شيء من محاسن هذا الشخص الكريم وجمال ذاته [٢٨٢/ ب]

---

(١) راجع مختصر تاريخ ابن عساكر (٣/ ١٤٥).

(٢) أخرج نحوه مسلم في الصحيح (الإيمان ٦٧)، النسائي في المجتبى (٨/ ٩٤)، أحمد في المسند (٣/ ١٠٢)، الترمذي في الجامع الصحيح (٢٦٢٤)، ابن ماجة في السنن (٤٠٣٣)، البخاري في الصحيح (١/ ١٠)، (٩/ ٢٥).

الظاهرة والباطنة حتى يتبين وجوب حبه ظاهراً وباطناً وفي كل عالم ومقام.

فإن الحسن والجمال والإحسان سبب المحبة.

فأول ذلك: أن القلوب مجبولة على حب من أحسن إليها وقد أحسن الرسول عليه الصلاة والسلام إلينا بأن كان سبب الإيمان للجميع فهو فرض الإسلام وشرع الدين وفتق العقول بالهداية وأطلق الألسنة.

بل هو سبب كل خير ظاهراً وباطناً لأنه رحمة عامة في أصل خلقته فَهِمُ ذلك من فهمه وجهله من جهله كما قال تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾[١].

وسترى إن شاء الله ما يأتي [من][٢] ذلك مبيناً في صورة خلقته عليه الصلاة والسلام.

فأما جمال شخصه الكريم الظاهر الذي هو جسده الطيب الطاهر فإن الله خلق آدم عليه السلام وولده أجمعين على صورة حروف اسمه عليه الصلاة والسلام كي لا يرى بالبصر إلاّ اسمه[٣].

ولذلك من أحب شيئاً لا يرى إلا صورته.

فجعل الميم من محمد ﷺ هي الرأس.

وجعل الحاء من حروف اسمه هي اليدان.

وجعل الميم الثانية من اسمه هي البطن.

وجعل الدال هي الفخذان والساقان والقدمان.

وهكذا صورته في الخط القديم (محمد) وعلى هذه الصورة صورة أهل الجنة رجالاً/ ونساءً، وولداناً كي يرى اسمه في كل مكرم ومحبوب فيعم حبه كل شيء برؤية اسمه. [٢٨٣/ أ]

---

(١) سورة الأنبياء (الآية: ١٠٧).

(٢) زيادة يقتضيها السياق.

(٣) هذا ضرب من الغلو ليس عليه دليل من الشرع ومعلوم أن له ﷺ خمسة أسماء ثم إن الحروف يختلف رسمها من خط إلى خط فالنسخ غير الرقعة غير الثلث غير الديواني غير الفارسي غير الكوفي وهكذا في رسم خطوط العربية الكثيرة فما بالكم باللغات غير العربية ومعلوم أن الخطوط مرت بمراحل كثيرة في رسمها فلما اقتصر شيخنا على رسم واحد وقد انقرض أيضاً هذا الرسم من الرسوم الحديثة. ثم إنه سوف يدافع بعد قليل عمن يدخل النار من البشر وهم على رسم اسمه كما زعم إلا أن دفاعه جاء واهياً فلنا وله نسأل الله العفو والمغفرة برحمته آمين آمين.

وإنما خرجت البهائم، والنبات، والآلات، والمعادن، والجواهر، والأثاث، وسائر الأشخاص عن هذه الصور المحمدية من أجل أنها مستخدمة مملوكة لبني آدم مخلوقة من اجلهم كي لا يستخدم اسم الحبيب ولا يستذل.

فصـــل

فأما الكفار والمخالفون فإنهم في الباطن ممسوخون منكوسون فلذلك لم تحبه بواطنهم ولو كانت بواطنهم في أحسن تقويم لأحبوه كما أحبه غيرهم من المؤمنين[١].

وأما في الظاهر فإنهم يحبون هذا الاسم شاءوا أم أبوا لأنهم خلقوا على الفطرة فأحب بعضهم بعضاً في دار الدنيا وظواهرهم على أصل الفطرة وبواطنهم ممسوخة.

فإذا كانت الآخرة ظهر عليهم المسخ الباطن وتغيرت خلقتهم الظاهرة وتشوهت صورهم كما وردت الأخبار والآيات بتشويه خلقة الكفار وانتكاسها فقال عز وجل: ﴿أَفَمَن يَمْشِي مُكِبًّا عَلَى وَجْهِهِ أَهْدَىٰ أَمَّن يَمْشِي سَوِيًّا﴾[٢].

وقال عز وجل: ﴿وَهُمْ فِيهَا كَالِحُونَ﴾[٣].

روى أبو سعيد أن رسول الله ﷺ قال في تفسيرها: «تشويه النار فتقلص شفته العليا حتى تبلغ وسط رأسه وتسترخي شفته السفلى حتى تبلغ سرته»[٤].

وفي حديث/ آخر: «إن الكافر ليسحب لسانه الفرسخ والفرسخين»[٥]. [٢٨٣/ ب]

أي تشويه ونكس يشبه هذا.

ومع هذا كله فقد ثبت أن ضرساً من أضراسه مثل أحد.

فإذا كان كل ضرس من أضراسه كأحد وشفته في أوسط رأسه والأخرى في سرته

---

(١) هذا القول مع فارق التشبيه يشبه قول اليهود بأن غير اليهود حيوانات خلقهم الله على هيئة بني آدم ليليقوا بخدمة اليهود. وعلى كل حال فمثل هذه الهنات من المؤلف لا يقلل من قدر الكتاب الذي أجاد فيه مؤلفه رحمه الله تعالى.

(٢) سورة الملك (الآية: ٢٢).

(٣) سورة المؤمنون (الآية: ١٠٤).

(٤) أخرجه الترمذي في الجامع الصحيح (٢٥٨٧)، أحمد في المسند (٣/ ٨٨)، أبو نعيم في حلية الأولياء (٨/ ١٨٢)، المنذري في الترغيب والترهيب (٤/ ٤٨٦)، التبريزي في المشكاة (٥٦٨٤).

(٥) أخرجه الترمذي في الجامع الصحيح (٢٥٨٠)، المنذري في الترغيب والترهيب (٤/ ٤٨٤)، التبريزي في مشكاة المصابيح (٥٦٧٦)، الذهبي في ميزان الاعتدال (٨٦٩٦).

ولسانه يسحب أميالاً أمامه فأنّى تشبه هذه الصورة الخلقة الإنسانية المصورة على صورة محمد ﷺ؟

وورد أن المنكرين يحشرون أمثال الذر فهذا مسخ.

وفي الصحيح: «أن أبا إبراهيم يرد في صورة ذيخ» وقد مسخ الله بني إسرائيل ظاهراً في الدنيا قردة وخنازير.

فأظهر حالهم الباطن ومآلهم عاجلاً فقال: ﴿وَجَعَلَ مِنْهُمُ ٱلْقِرَدَةَ وَٱلْخَنَازِيرَ﴾(١).

وقد ورد في الصحيح أيضاً: أن الفأرة مسخ.

وورد أيضاً أن أهل النار ممسوخون منهم على صورة الحيات، والقردة، والخنازير، والكلاب، والشياطين، وغير ذلك من الحيوانات.

وكما ورد في الروافض أنهم كلاب أهل النار.

لا سيما من ختم له بالكفر فإذا ظهرت الآخرة ظهرت معاني البواطن على الظواهر فانتكسوا وردوا في أسفل سافلين بعد أن كانت ظواهرهم في أحسن تقويم.

قال الله تعالى: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ * ثُمَّ رَدَدْنَاهُ أَسْفَلَ سَافِلِينَ﴾(٢).

وقال: ﴿وَلَوْ نَشَآءُ لَمَسَخْنَاهُمْ عَلَىٰ مَكَانَتِهِمْ﴾(٣).

[٢٨٤/ أ] فافهم هذا فإنه/ لا يبقى على جمال صورة هذا الاسم الكريم المحمدي إلا أهل الجنة فيحب بعضهم بعضاً لبقاء هذه الصورة المكرمة فيهم رجالاً ونساءً.

فليس فيها مسكن ولا قصر ولا موضع إلا وصورة هذا الاسم فيه. ومحبته شائعة في الجميع.

فكل ما في الآخرة والجنة مما هو على غير هذه الصورة فإنه مملوك مستخدم لمن هو على صورة هذا الاسم من لباس وقصور، ومراكب، وأنهار، وأشجار، وغير ذلك من سائر المتحولات.

وقد ألف في حسن صورة جسد نبينا محمد ﷺ تواليف وثبتوا فيها ما ظهر لهم من حاله فإن رسول الله ﷺ أجمل العالمين صورة خلقه الله كذلك لأجل الحب له عليها.

---

(١) سورة المائدة (الآية: ٦٠).

(٢) سورة التين (الآية: ٤، ٥).

(٣) سورة يس (الآية: ٦٧).

فإن الجمال محبوب لئلا يقع بصر أحد من الخلق على شيء من جسده فيكرهه أو يذمه فيعود بذلك كافراً. فافهم.

وحُسن يوسف عليه السلام وغيره جزء من حسنه لأنه على صورة اسمه خلق كما تقدم.

ولولا أن الله ستر جمال صورة محمد ﷺ بالهيبة والوقار وأعمى عنه آخرين لما استطاع أحد النظر إليه بهذه الأبصار الدنياوية الضعيفة.

وقد وقعت لعائشة رضي الله عنها إبرة في ظلمة الليل في بيتها فرأتها وأبصرتها بنور ضياء وجه محمد ﷺ.

وفي الصحيح: أن وجهه كان مثل الشمس، ومثل البدر، وعلى قدر ما يستطيع كل احد أن ينظر إليه ﷺ.

/ ومنهم من لم يكن يملأ عينيه منه، وروى أنس وغيره في صفته عليه الصلاة والسلام [٢٨٤/] قال: كان رَبْعَةً من القوم ليس بالطويل البائن ولا بالقصير المتردد.

هذا لأن القصير يحقر، والبائن جداً في الطول يُمل ويستثقل.

وليس بالأبيض الأمهق[1]، ولا بالآدم.

لأن السمرة فيها سواد، والأبيض الأمهق شبيه بالأبرص، وذلك كله مكروه.

ليس بجعد قطط ولا سبط.

والجعودة شبيه لشعور السودان، والسبوطة مثل شعر الروم وليس من الجمال الكامل.

هذا كله كي لا يكره شيء منه، وكذلك ورد أنه مات وليس في رأسه عشرون شعرة بيضاء.

أي مات ولم يظهر عليه الشيب ببياض رأسه ولحيته، والنساء يكرهنه من الرجال ولا وصل منه حد الهرم المستثقل الذي كان يتعوذ منه في حياته.

فانظر كيف لم يظهر عليه شيء من الأشياء التي تظهر على أهل الهرم كي لا يكره ولا يستثقل منه شيء فيكون ذلك كفراً.

فجماله رحمة عظيمة بالرجال والنساء دنيا وآخرة.

---

(١) أي شديد البياض.

وكان بعيد ما بين المنكبين.

هذا ليعظم في النفوس ويكبر في الصدور فيحب، وضد ذلك مكروه مستحقر.

[٢٨٥/ أ] وفي الحديث: ما مسست ديباجة ولا حريرة/ ألين من كف رسول الله ﷺ.

وهذا لأن الحروشة والخشونة مستقلة مكروهة في اليد.

ولا شممت رائحة من مسكةٍ ولا عنبرة أطيب من رائحة رسول الله ﷺ.

هذا لأن الريح [غير][1] الطيب مكروه وكان ريحه أطيب من المسك والعنبر لئلا يساويه أحد في الطيب لا مسك ولا غيره فيحب ريح كل شيء كريحه فيساويه في الحب لمساواته في الطيب.

وكان ضليع الفم.

أي عظيم الفم، هذا لأن صغر الفم وضيقه مستقبح جداً.

وكان أشكل العينين.

يعني طويل شق العينين، هذا أيضاً لأن ضيق العينين ودقها عيب ومكروه في الجمال.

وكان منهوش العقبين.

يعني قليل لحم العقب وهو أجمل شيء في الرجال، وإنما يستحسن كثرة اللحم في الأعقاب والمواخر في النساء.

وعلى الاختصار فإن وصفه وخلقه في أحسن صورة وأجمل تركيب.

فلا يقع بصر عليه ولا يسمعه أحد إلا أحبه ولم يكن فيه شيء تعثر فيه العين ولا ما يعاب ويكره.

لأن من كره شيئاً منه وعابه فهو كافر، حتى أن المرأة قد شربت بوله ولو وجدت له طعم البول لما أدخلته جوفها ولكرهته.

[٢٨٥/ ب] وقالت عائشة رضي الله عنها: كنت أدخل الخلاء بعد خروج رسول الله ﷺ/ فأجد رائحة المسك.

وكذلك منيه عليه الصلاة والسلام كانت عائشة رضي الله عنها تفركه وما ورد في

---

(١) ما بين المعقوفين جاء موضعه بياض في الأصل فأضفت ما يناسب السياق.

الأخبار من غسله فإنما ذلك على وجه التنظيف للثياب كما كان يغسل يده عليه الصلاة والسلام تنظفاً.

هذا خصوص له دون غيره(١).

وكذلك في موته لم يظهر عليه شيء يكرهه مما يظهر على الأموات بل كان طيباً حياً وميتاً.

وكذلك ثيابه كان يعجبه الدون من الثياب وذلك لأنه في دار العبودية فكان يلبس فيها ما يوافق لبذاذة العبودية فكان بذلك في أجمل صورة في دار الزهد والتعبد.

وقد قال الفقهاء رضوان الله عليهم: من قال إن ثوب النبي [ﷺ] وسخ يريد بذلك عيبه قتل كفراً لا حداً.

فقد تبين أنه خلق في أجمل صورة ولباسه، وأموره كلها أجمل الأمور كي يحب.

فإن الجمال محبوب ولا يكره فيكون ذلك كفراً.

فهذا اختصار وصفه ظاهراً فجاءت صفاته وأعضاؤه الظاهرة في غاية الحسن والجمال المحبوب منزهة عن كل شيء دق أو جل من الشين والعيب المكروه.

فصـــل

وأمّا جمال ذاته الباطنة وروحه المقدس فمن ذا الذي يصفه من المخلوقين وقد أثنى عليه رب العالمين فقال: / ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾(٢). ولا أعظم مما عظم الله فالخلق [٢٨٦/ أ] صفات ذاته الباطنة.

وقد روت عائشة رضي الله عنها في الصحيح في تفسير قوله: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾(٢). قالت: كان خلقه القرآن.

والقرآن هو النور المبين الذي منه يستمد كل نور في الوجود.

والقرآن هو الجامع للأسماء والصفات الربانية القائمة لجميع الأشياء، أوجد الله عن كل معنى من معاني أسمائه وصفاته القديمة معاني محدثة بها في العالمين.

فأوجد العلم عن معنى علمه، والرحمة عن رحمته، والنور عن نوره، والكرم عن كرمه، والحلم عن حلمه، وهكذا جميع أسمائه وصفاته.

(١) هذا التخصيص ليس عليه دليل.

(٢) سورة القلم (الآية: ٤).

فخلق نور محمد وذاته الباطنة عن معاني القرآن، وخلق كل صفة محمودة فيه.

والقرآن جامع لمعاني[١] الكتب كلها المهيمن عليها، ولذلك يسمى قرآناً، والقُرء هو الجمع فهو جامع لكل نور وخير وبركة وحسن وجمال ومنه تستمد جميع العوالم.

وقد ورد في الأخبار أن أول ما خلق الله نور محمد عليه الصلاة والسلام.

يعني ذاته النورانية الباطنة.

وروي عنه عليه الصلاة والسلام أن الله خلق الأرواح قبل الأجساد.

وقال عليه الصلاة والسلام: «كنت نبياً وآدم بين الماء والطين»[٢].

وقال: «أنا أول الأنبياء خلقاً وآخرهم بعثاً».

[٢٨٦/ ب] وروي عن عالم الأمة/ علي بن أبي طالب رضي الله عنه أنه قال: إن الله تعالى حين شاء تقدير الخليقة وذَرْءَ البرية وإبداع المبدعات نصب الخلق في صور كالهباء قبل دَحْو الأرض ورفع السماء وهو في انفراد ملكوته وتوحد جبروته فأشاع نوراً من نوره فلمع قبس من ضيائه فسطع ثم اجتمع النور في وسط تلك الصور الخفية فوافق ذلك صورة نبينا محمد ﷺ. فقال الله عز وجل: أنت المختار المنتخب وعندك مستودع نوري وهدايتي. ثم أخفى الخليقة في غيبه وغيبها في مكنون علمه. ثم نصب العوالم وبسط الزمان ومرج الماء وأثار الزبد وأهاج الريح وطفا عرشه على الماء فسطح الأرض على ظهر الماء ثم أنشأ المليكة من أنوار ابتدعها وأنوار اخترعها وقرر بتوحيده نبوة محمد ﷺ فشهرت في السماء قبل مبعثه في الأرض ـ يعني نبوته ـ.

ثم ذكر كلاماً كثيراً تركته لطوله ثم قال: ولم يزل الله يخبؤ النور تحت الزمان إلى أن فَضَّلَ محمداً طاهر القنوات.

ثم قال رضي الله عنه: فدعى الناس ظاهراً وباطناً وندبهم سراً وإعلاناً واستدعى عليه الصلاة والسلام التنبيه على العهد الذي قدمه إلى الذّر قبل النسل فمن وافقه قبس من منباح النور المتقدم/ اهتدى إلى سره واستبان واضح أمره. ومن التبسته الغفلة استخصه السخط. [٢٨٧/ أ]

فقد أعلمك رضي الله عنه أن النبي ﷺ عقدت له النبوة قبل كل شيء وأنه دعى الخليقة

---

(١) في الأصل: المعاني. والألف في أوله زائدة فحذفتها.

(٢) أخرجه الحاكم في المستدرك (٢/ ٦٠٩)، ابن أبي شيبة في المصنف (١٤/ ٢٩٢)، ابن الجوزي في تذكرة الموضوعات (٨٦)، العجلوني في كشف الخفا (٢/ ١٩١)، المتقي الهندي في كنز العمال (٧/ ٣١٩)، (٧/ ٣٢١)، الزبيدي في إتحاف السادة المتقين (١/ ٤٥٣).

عند خلق الأرواح وبدءِ الأنوار أن الله كما دعاهم أخر في خلقة جسده آخر الزمان ومن هذا المعنى قوله تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَاقَ ٱلنَّبِيِّينَ﴾(١) إلى قوله: ﴿لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ وَلَتَنصُرُنَّهُ﴾(١) إلى آخر المعنى.

فقد آمن الكل به فهو آدم الأرواح ويعسوبها، كما آدم أبو الأجساد وسببها.

وكذلك ورد في الأخبار: أن نور السماوات من نور محمد، ونور القلم من نور محمد، ونور العرش من نور محمد، ونور اللوح، والعقل، ونور المعرفة، والبهاء، والشمس، والقمر، ونور الأبصار من نور محمد ﷺ(٢).

وقال سهل بن عبد الله التستري في كتاب التفسير له في قوله: ﴿وَلَقَدْ رَآهُ بِٱلْأُفُقِ ٱلْمُبِينِ﴾(٣).

قال: الأفق المبين ما وراء الدنيا والآخرة أي رأى ربه في عبادته له قبل بدء الخلق بألف عام بطبائع الإيمان ومكاشفة الغيب بالغيب بالعمود الكثيف الذي خلق الله منه العرش والكرسي وجميع الأنوار أي رآه كيف خَبَّرَ عنه في قوله: ﴿وَلَقَدْ رَآهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ﴾(٤)، [وفي قوله](٥): ﴿وَهُوَ بِٱلْأُفُقِ ٱلْأَعْلَىٰ﴾(٤).

فقد تبين أن نور الوجود وجماله وخيره في الباطن والظاهر إنما استمد ويستمد من نور ذاته الباطنة، وقد سماه سراجاً منيراً في قوله: ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ/ شَاهِداً وَمُبَشِّراً وَنَذِيراً وَدَاعِياً [٢٨٧/ إِلَى ٱللَّهِ بِإِذْنِهِ وَسِرَاجاً مُّنِيراً﴾(٦).

كما قال في الشمس: ﴿وَجَعَلَ ٱلشَّمْسَ سِرَاجاً﴾(٧).

فذاته شمس الوجود منها يستمد جماله ونوره وحسنه كل موجود.

فكما أن الأبصار تستمد من أشعة الشمس المنبثة من القرص إلى أقطار العالم فيرى بنورها ويظهر ويبين كل شيء فكذلك تستمد العقول والبصائر والذوات من ذات المصطفى [ﷺ] النورانية التي هي شمس الوجود وسراجه، فافهم.

---

(١) سورة آل عمران (الآية: ٨١).

(٢) هذا من المغالاة في حبه ﷺ وقد نهى عن ذلك وعلله بأنه قاد النصارى إلى عبادة عيسى عليه السلام.

(٣) سورة التكوير (الآية: ٢٣).

(٤) سورة النجم (الآية: ٧)، (الآية: ١٣).

(٥) ما بين المعقوفين زيادة للفصل بين الآيات.

(٦) سورة الأحزاب (الآية: ٤٥، ٤٦).

(٧) سورة نوح (الآية: ١٦).

فأول ما خلق الله نوره عليه الصلاة والسلام في البدء فكان بذرة الوجود وأقرب موجود وهو مقام الحبيب من الحبيب ثم نشأ عنها الوجود كله كما تنشأ الشجرة عن البزرة حتى كملت الموجودات الكليات.

ثم خلق آدم وولده والنور يمد الكل من الأصل حتى ظهر جسده الطاهر في أجزاء الدنيا وكمال الخلق كما تظهر ثمرة الشجرة بعد كمالها. فهو الأول والآخر وعليه تقوم الآخرة لأنه الآخر كما عنه نشأت الأوائل لأنه الأول كما بظهور منزلته وعظيم شرفه ظهرت رتبته ومنزلته على المنازل، وظهر دينه على الدين كله فكان هو الظاهر كما بتوسله وخفي أسراره في مقامات شفاعته خفيت أسراره مع حبيبه في غيب الغيب بدخوله عليه وحده كما يدخل الملك.

[٢٨٨/ أ] / فكان هو الشفيع للكل، والمطلع على السر والمحدث في الغيب والمتوسل بالوسائل لخليله في الغيب عن الكل لا يقوم ذلك المقام غيره شفاعة الغيب ورحمة للكل.

فكان هو الباطن في درجات الحب وغيب القرب فكان أولاً وآخراً وظاهراً وباطناً.

أول في الخلقة والتقدمة وآخر في البعثة ورجوع الكل إليه وانتظارهم ليومه.

وظاهر في المنزلة وباطن في الوسيلة.

فصــــل

انظر إلى قوله تعالى: ﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِي نَزَّلَ ٱلْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِۦ لِيَكُونَ لِلْعَٰلَمِينَ نَذِيرًا﴾[١].

والعالمون هم جميع الخليقة فقد وازن الخليقة وآمن الكل به في الأولية والآخرية وانتقال النور في جميع العالم من صُلب إلى صُلب. فافهم.

وانظر إلى قوله تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ ٱلْقُرْءَانُ جُمْلَةً وَٰحِدَةً﴾[٢].

كذلك مع قوله عليه الصلاة والسلام: «قدر الله مقادير الخلائق قبل أن يخلقهم بخمسين ألف سنة»[٣].

فقد أنزل عليه أيضاً في ليلة القدر حين قدرت المقادير والخلق في ظلمة ليل العدم

(١) سورة الفرقان (الآية: ١).

(٢) سورة الفرقان (الآية: ٣٢).

(٣) أخرجه الترمذي في الجامع الصحيح (٢١٥٦)، أحمد في المسند (٢/ ١٦٩)، العجلوني في كشف الخفا (١/ ٣١١).

ففي تلك الليلة أنزل عليه القرآن حين انفصالها بظهور فجر يوم الإيجاد والإنشاء حين بدء نوره قبل الأشياء فأضاءت الأضواء بانفجار أنواره عليه الصلاة والسلام المقتبسة من نور القرآن وإلى عبادته الأولى الإشارة في حقائق قوله تعالى: ﴿قُلْ إِن كَانَ لِلرَّحْمَـٰنِ وَلَدٌ فَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْعَـٰبِدِينَ﴾[1]. رداً على من نسب إلى الله الولد.

معنى ذلك/ لو كان للّه ولد كما تزعمون فأنا كنت أحق بذلك من غيري لأني أول [٢٨٨/ ب] العابدين لأني أول مخلوق ولست أدعي أني ولده بل أنا عبده فكيف تنسبون إلى غيري البنوة وهو لم يشهد من القرب منزلتي، ولا من المكانة مكانتي ولا من الأولية أوليتي.

وانظر أحاديث الإسراء أيضاً، والآيات الواردة فيه، فقد ركب البراق، ورقا المعراج، وركب الرفرف، وجاوز مقامات الأملاك والأنبياء إلى أن كان قاب قوسين أو أدنى.

فإنما صعد عليه الصلاة والسلام إلى مقامه الأول الذي هو بدء النور الذي خلقه منه العرش من نوره الأول الذي ليس بينه وبين الله واسطة للوجود كله.

ومن هذا تفهم حديث قتادة الذي ورد: أن الله يجلس محمداً ﷺ على العرش لاستغنائه هو جل جلاله عن العالمين فيقعده مكان الربوبية ويهب ملكه له لاستغنائه عن الكل فيكون مشرفاً على الوجود كله لأن الوجود من نوره ومن جماله استنار[2]. فإذا فهمت هذا كله على الإجمال علمت أن كل حسنٍ في الوجود وكل جمال فمن نوره يستمد.

وليست تظهر منزلته عليه السلام التي ظهرت لأهل العلم إلا في الآخرة لعموم الخلق وعموم العلماء.

فهو أفضل الخليقة وهو رحمة للعالمين وعليه أسبغت/ جوامع النعم وخلعت حُلل الجود والكرم وكان فضل الله عليه عظيماً.

وهو الملقن المحامد والثناء على ما أوتي من النعم والفضائل فقيل له: محمد على

---

(١) سورة الزخرف (الآية: ٨١).

(٢) إن العقل ليصيبه الذهول وإن القلب ليصيبه الاضطراب حتى لا أستطيع أن أجد ما أقوله أو أرد به على مثل هذا الكلام فإن القلم يكاد يتحجر في يدي على الورق من هول ما هو مسطور. ومن أعجب العجب أنه ردّ على نفسه بما هو مشروع فيما تلا ذلك من عبارات لا تشوبها شائبة. وإني لأسأل نفسي: هل مثل هذا القول يصدر منه أم هو مدسوس في كتابه؟ إن العقل لا يكاد يصدق أن مثل هذا الرجل الذي هو بهذا العلم والغيرة على التوحيد والذي ضمنه هذا الكتاب سابقاً ولاحقاً يقول مثل هذا القول. ونسأل الله حسن الختام.

وزن مفعل أي مفعل بالمحامد يحمد على ما أعطي.

وقيل له: أحمد على وزن أفعل، أي أحمد من غيره فكان أكثر الخلق حمداً فلذلك كان لواء الحمد بيده، والذي يستظل تحته كل حامد، واللواء هو الراية، والعلم، فتكون علماً لما جعلت عليه من حرب أو غيره فيعلم الناس ويريهم موضع الأمير وكونه ماشياً أو قائماً تحتها أو أمامها.

وقال النبي ﷺ: «لكل غادر لواء عند استه يعرف به»[1].

وخص الغادر أنه عند استه وهو سوءَته لأنه يعلم ويعرف بسوآت الغادر وقبح غدراته.

فلواء الحمد أيضاً بإمامة محمد عليه الصلاة والسلام للكل.

وبمقاماته الشريفة التي يحمده عليها الأولون والآخرون في المقام المحمود منصوب على رأس محمد عليه الصلاة والسلام على رأسه تاج الوقار والهيبة من أجل توقيره لربه وإجلاله له، وتوقير الله له وإجلاله له حين خصه بما لم يخص به أحداً.

وعليه حُلل الكرامة وهي خلعات الجود من الملك المعبود في المقام المحمود فألبسه بذلك حلل الثناء والمحامد فكان لباساً لم يلبسه أحداً غيره.

وتحته البراق العظيم يلوح لونه في آفاق عرصات القيامة كما يلوح البرق بين/ السماء والأرض ينورها بمركبه العظيم العالي الذي خُصّ به وحده في رجليه نعلان من نور يسمع صريرهما بين الخافقين والكل راغبون إليه في الشفاعة لاتساع جاهه وعظيم منزلته عند حبيبه[2].

فهذا جمال لا يوازيه جمال وكمال لا يدانيه كمال فهو حبيب رب العالمين وسيد المخلوقين، قال الله عز وجل: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾[3].

---

(١) أخرجه مسلم في الصحيح (الجهاد ب ٤ رقم ١٥)، الترمذي في الجامع الصحيح (١٥٨١)، أحمد في المسند (١/ ٤١٧)، الخطيب في تاريخ بغداد (١١/ ٣٨٤)، البغوي في شرح السنة (١٠/ ٧٣)، التبريزي في مشكاة المصابيح (٣٧٢٧)، الهيثمي في مجمع الزوائد ومنبع الفوائد (٥/ ٣٣٠)، البخاري في الصحيح (٤/ ١٢٧)، البيهقي في السنن الكبرى (٨/ ١٦٠)، ابن حجر في الفتح (١٢/ ٣٣٨).

(٢) سبق أن علقت على مثل هذا القول ولا أحد ينكر قدر منزلته ﷺ وما أعده له من نعيم مقيم أما تفصيل ذلك فلا يعلمه إلا الله وقد أجمله ﷺ بقوله: (فيها ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر) فكان في قوله ذلك كل الكفاية عن ما لم يثبت عنه ﷺ.

(٣) سورة الأنبياء (الآية: ١٠٧).

فهو المرحوم به العالم بنص هذه الآية فإن شئت أن تفهم كونه رحمة للخلائق فاعلم مع ما تقدم أنه حبيب الله المخصوص بمقام المحبة العظمى فكل قلب وروح أحبه من جميع الخلائق انقلب مع روحه الكريم في غيب الغيب كما قال: «الأرواح جنود مجندة فما تعارف منها ائتلف وما تناكر منها اختلف»(١).

فانتقلت أرواح العالم كله بالمحبة له وكان أمير الأرواح كلها وسيدها واجتمعت على محبته كاجتماع النحل على يعسوبها وهو ملك النحل الجامع لها.

فاجتمعت الأرواح على حبه وعلى دينه وتوحيده وحب خالقه إذ هو الداعي إلى التوحيد في الأزلية لجميع الأرواح وفي كل مكان فكان ذلك من الأرواح إجماعاً واجتماعاً عليه والإجماع في الإيمان والتوحيد يثبت الرحمة كما ورد في الخبر: «الجماعة رحمة والفرقة عذاب»(٢).

فرحم الكل به صلوات/ الله عليه وسلامه إلا من شذ وأبى أن يقبل الرحمة وهم الكفار به وهم أقل في العالمين من الذرة في الوجود كله. [٢٨٩/ أ]

فإذا تحققت هذا كله علمت أنه رحمة للعالمين وأن كل خير ونور وبركة شاعت وظهرت في الوجود أو ظهر من أول الإيجاد إلى الآخرة إنما هو سببه ﷺ.

فوجب حبه لإحسانه للكل ويحسن أنه في كل مقام وموطن فقد أحسنت ذاته لجميع الوجود وتجلى جمالها في جميع جهات العالم. فالويل لمن خاب منه وخسر، وقد ورد عن بعض عصاة بني إسرائيل: أنه عصى الله عمره كله ومقته أهل زمانه لكثرة عصيانه وقلة فعله للخير واجتنابه فمات فأعلم الله أنه من أهل الجنة وأن الله قد غفر له ذنوبه فسُئل عن سبب مغفرته فقال: إنه فتح التوراة يوماً فرأى فيها اسم محمد مكتوباً فقبله ومسح به وجهه تبركاً به وحباً له فغفر الله له جميع ذنوبه من أجل تعظيمه اسم محمد [ﷺ] حبيب الله.

فحبه أحسن الحسنات، والناس في حبه مقامات ودرجات فأحبهم فيه أتبعهم لسنته في الظاهر والباطن والمقامات والأحوال لقوله عليه الصلاة والسلام في حديث أنس قال: قال

(١) أخرجه البخاري في الصحيح (٤/ ١٦٢)، مسلم في الصحيح (البر والصلة ١٥٩، ١٦٠)، أبو داود في السنن (٤٨٣٤)، أحمد في المسند (٢/ ٢٩٥)، الطبراني في المعجم الكبير (٦/ ٣٢٣)، البغوي في شرح السنة (١٣/ ٥٧)، أبو نعيم في الحلية (١/ ١٩٨).

(٢) أخرجه أحمد في المسند (٤/ ٢٧٨)، ابن أبي عاصم في السنة (١/ ٤٤)، المنذري في الترغيب والترهيب (٢/ ٧٨)، الألباني في الصحيحة (٦٦٧)، الشوكاني في الفوائد المجموعة (٥٠٢)، ابن الجوزي في تذكرة الموضوعات (١٥).

رسول الله ﷺ: «من أحب سنتي فقد أحبني ومن أحبني كان معي في الجنة»[١].

[٢٨٩/ ب] فهذا أفضل الحب لأنه[٢]/ يوجب الجوار معه في مقامات الجنان والرفيق الأعلى.

وأقلهم رتبة في الحب المتلطخ أمثالنا في أوساخ المعاصي والمخالفات المتعلق بمجرد حب القلب القاسي كما تقدم في حب الإسرائيلي العاصي وحبه نافع على كل حال وليس مثله عمل من الأعمال.

جعلنا الله وإياكم من خاصة أحبابه في عافية شاملة في الدنيا والآخرة. آمين. آمين.

ومن علامات حبه كثرة الصلوات عليه صلى الله عليه وعلى آله أفضل الصلوات وأزكاها وأطيبها وإنما هي صلاة جامعة لأنواع الآلاء والإنعام ودائمة بدوام ذي الجلال والإكرام آمين. آمين، والحمد لله رب العالمين.

الشعبة الحادية والخمسون: الحب في الله

أما كون هذه الشعبة من الإيمان فبين جداً فمن ذلك ما ورد أن: «أوثق عرى الإيمان الحب في الله والبغض في الله»[٣].

وعن أبي ذر أن رسول الله ﷺ قال: «أفضل الأعمال الحب في الله والبغض في الله»[٤]. فجعل ذلك أفضل أعمال الإيمان.

وروى أنس قال: قال رسول الله ﷺ: «لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه»[٥].

---

(١) راجع تهذيب تاريخ ابن عساكر (٣/ ١٤٥).

(٢) جاءت هذه الكلمة مكررة بآخر الصفحة رقم [٢٨٨/ ب] وأوّل الصفحة [٢٨٩/ ب] فحذفت التكرار.

(٣) أخرجه ابن أبي شيبة في المصنف (١١/ ٤٨)، (١٢/ ٣٢٩)، في الإيمان له أيضاً (١٣٤)، السيوطي في الدر المنثور (٦/ ١٨٧)، بنحوه عند: مسلم في الصحيح (الإيمان: ٢٤٠)، الحاكم في المستدرك (٢/ ٤٨٠)، ابن حجر في فتح الباري (١/ ٤٧)، الزبيدي في الإتحاف (٢/ ٢٥٧).

(٤) أخرجه أبو داود في السنن (٤٥٩٩)، والمنذري في الترغيب والترهيب (٤/ ٢٤)، ابن حجر في فتح الباري (٤٧١١)، التبريزي في مشكاة المصابيح (٣٢)، العجلوني في كشف الخفا (١/ ١٧٧).

(٥) حديث صحيح أخرجه البخاري في الصحيح (١/ ١٠)، مسلم في الصحيح (الإيمان ب ١٧ رقم ٧١)، والترمذي في الجامع الصحيح (٢٥١٥)، النسائي في المجتبى (٨/ ١١٥)، أحمد في المسند (٣/ ١٧٦)، الدارمي في السنن (٢/ ٣٠٧)، أبو عوانة في المسند (١/ ٣٣)، ابن ماجة في السنن (٦٦).

وقوله: «ثلاث من كن فيه وجد حلاوة الإيمان: من كان الله ورسوله أحب إليه مما سواهما ومن أحب عبداً لا يحبه إلا لله..»[1]/ الحديث. [٢٩٠/ أ]

والشواهد على هذا كثيرة جداً.

فصــــل

اعلم أن هذا الباب ينتظم فيه ثلاثة أشياء:

محب: وهو العبد.
وحب: وهو حاله.
ومحبوب: وهو على أنواع كثيرة وهم المؤمنون عموماً وخصوصاً.

وهو على ثلاثة أقسام:

قسم في عالم الدنيا ومقام الإسلام.
وقسم في عالم الآخرة ومقام الإيمان.
وقسم في مقام الإحسان.

فأما القسم الأول في عالم الدنيا ومقام الإسلام: فيحب العبد أهل الإسلام على إسلامهم ويحب لهم الصلاح في دينهم ودنياهم ويود أن لو كانوا في غاية من صلاح الدين وغاية من العافية الدنياوية حتى لا يصيبهم فيها مكروه، وبذلك ينتفي عنه الحسد وغير ذلك من الصفات المهلكة.

وميزان ذلك أن ينظر ما يحب لنفسه في ظاهر دنياه من أمور دينه ودنياه فيحب ذلك لغيره من المؤمنين هذا ميزان عدل.

وأما القسم الثاني في مقام الإيمان: فيحب كل مؤمن بعالم[2] الغيب من الملائكة وأهل البرزخ من النبيين والمؤمنين فيكثر الصلاة على الملائكة والنبيين، ويكثر الدعاء لسائر المؤمنين بالمغفرة والرحمة وأن ينور الله قبورهم[3] ويونس وحشتهم ويفرج كروبهم.

---

(١) حديث صحيح أخرجه البخاري في صحيحه (١/ ١٠، ١٢)، (٩/ ٢٥)، مسلم في الصحيح (الإيمان ٦٧)، النسائي في المجتبى (٨/ ٩٤)، أحمد في المسند (٣/ ١٠٣)، أبي نعيم في الحلية (١/ ٢٧).

(٢) في الأصل: في عالم الغيب والصواب ما أثبته لاقتضاء السياق له.

(٣) في الأصل: قلوبهم والقول فيه كما في التعليق السابق.

وميزان ذلك أن ينظر كيف يحب أن يكون في الآخرة إذا قدم عليها فليحب ذلك لكل مؤمن فيها ويدعو لهم بذلك فهذا ميزان عدل لا جور فيه.

[٢٩٠/ ب] وأما القسم الثالث/ في مقام الإحسان: فهو أن ينظر إلى إرادة الله في الأزل لأهل الإيمان به وتخصيصهم بالهداية وإكرامهم بالولاية وحبه لهم فيحبهم لحب الله لهم لا لغرض ولا لعرض بل لأنهم أحباء الله وأولياؤه وينظرهم بعين التوقير والإجلال كما أجلهم الله [و][(١)] وقرهم ويكرمهم كما أكرمهم الله وهذا ميزان عظيم في تعظيم حرمات المؤمنين كلهم على اختلاف أنواعهم.

فإذا فهمت هذا فاعلم أن المحبوبين على أنواع كثيرة:

فأول تلك الأنواع ملائكة الله الكرام صلوات الله عليهم وسلامه على جميعهم: هم أحباء الله وخزانه فوجب حبهم لمعنيين، أحدهما: كثرة إحسانهم إلى الخلق، والثاني: لذواتهم وما خلقوا به من كمال الطاعة والعفة، وحسن الهيئة وكمال الصورة.

فأما حبهم لذواتهم فإن الله يقول فيهم: ﴿لَا يَعْصُونَ ٱللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾[(٢)]. ﴿يُسَبِّحُونَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ لَا يَفْتُرُونَ﴾[(٣)]. وقال: ﴿بِأَيْدِي سَفَرَةٍ * كِرَامٍ بَرَرَةٍ﴾[(٤)]. فوصفهم بأحسن وصف وأجمل نعت.

قال علي رضي الله عنه: إن للّه ملائكة لو أن ملكاً أُهبط إلى الدنيا ما وسعته لعظم خلقته وكثرة أجنحته، ومنهم لو كلفت الجن والإنس أن تصفه ما وصفته لبعد ما بين منكبيه [٢٩١/ أ] ولحسن تركيب صورته، ومنهم من لو ألقي في نقرة إبهامه جميع مياه/ الدنيا لوسعتها ولو ألقيت السفن في دموع عينيه لجرت دهر الداهرين[(٥)].

فهذا بحر لا يدرك غوره إلاّ أنه قد لاح وبين للعقول وإن لم يشاهدوا بالأبصار فضل

---

(١) ما بين المعقوفين ساقط من الأصل والسياق يقتضيه.
(٢) سورة التحريم (الآية: ٦).
(٣) سورة الأنبياء (الآية: ٢٠).
(٤) سورة عبس (الآية: ١٥، ١٦).
(٥) ملائكة الرحمٰن خلق عظيم لا يعلم عظم خلقته ولا كنه جوهره إلا خالقه سبحانه وتعالى ونؤمن به ولا نعلم عنه إلاّ ما أعلمنا به نبينا ﷺ في ما صح عنه من الأحاديث وأمَّا ما وراء ذلك فينبغي على المؤمن أن يقف عن الخوض فيه وفي ما جاء عن النبي ﷺ عنهم كفاية لأنه غاية ما أراد الله أن يعرفنا به عنهم. والله أعلم.

ذواتهم المنيرة وجمال صفتهم حتى شبهت النسوة يوسف الكريم الجميل بهم فقلن: ﴿مَا هَٰذَا بَشَراً إِنْ هَٰذَا إِلاَّ مَلَكٌ كَرِيمٌ﴾(١).

ثم وقد تبين لكل كامل العقل وناقص حسن أخلاقهم ورقة قلوبهم ورحمتهم لأهل الأرض وشفقتهم عليهم في قوله عز وجل: ﴿ٱلَّذِينَ يَحْمِلُونَ ٱلْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ آمَنُواْ رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَحْمَةً وَعِلْماً فَٱغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُواْ وَٱتَّبَعُواْ سَبِيلَكَ وَقِهِمْ﴾(٢) إلى آخر المعنى.

فقد جمعوا كل فضيلة فهم في غاية الفضل والحسن والجمال.

وأما حبهم لإحسانهم إلينا وقد جبلت القلوب على حب من أحسن إليها؛ فهم عباد الملك وخدام الملكوت وهم في العالم كالقوى في جسد ابن آدم ولو زالت عنه القوى لهلك من ساعته، وكذلك الأملاك هم المحركون للعالم المتصرفون له بإذن الله وقوته فليس يأتينا خير إلاّ على أيديهم.

فمنهم المصورون لنا في الأرحام، ومنهم النافخون فينا الأرواح، ومنهم الحافظون لنا من بين أيدينا ومن خلفنا ومن جميع جهاتنا، ومنهم كتبة كرام يسترون علينا المساوىء ويذكرون المحاسن، ومنهم موكلون بالأرض يمسكونها لنا لنستقر عليها، وكذلك الجبال، والبحار،/ والرياح، وآخرونَ بالنبات، والأمطار، والكواكب، والأفلاك يدبرونها [٢٩١/ بالسماوات والأرضين، وخزنة الجنة، والنار، وعلى الجملة والاختصار ليس في العالم مغرز إبرة إلاّ وهو معمور بهم ومنهم وتصلنا منفعتهم وإحسانهم في مقاماتهم في منافع الأبدان والأديان كمنفعة جبريل الأمين القوي المكين لنا ومحبته فينا وكذلك هو أحبهم إلينا إذ هو السفير بالوحي إلى الأنبياء فكان هدى الخليقة على يديه صلوات الله وسلامه عليه.

وكمنفعة ميكائيل الرحيم الموكل بالأرزاق ومخازن الإنفاق على جميعنا في جميع الآفاق.

وكمنفعة إسرافيل الموكل بالأرواح الموصل لها بقوته ولطفه إلى الأشباح.

وعلى الجملة فليس بيننا منفعة إلاّ على يدي ملك كريم فحبهم واجب لذواتهم وإحسانهم فمن حبهم كثرة السلام والصلاة عليهم صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين كما يحب ربنا ويرضى.

---

(١) سورة يوسف (الآية: ٣١).

(٢) سورة غافر (الآية: ٧).

والنوع الثاني من المحبوبين في الله الأنبياء والرسل من بني آدم: وهم إخوان نبينا محمد عليه الصلاة والسلام وشركاؤه في النبوة والرسالة وعددهم مائة ألف نبي وأربعة وعشرون ألف نبي كلهم كريم فاضل في نفسه في أحسن الأحوال وأكمل الطاعات ولذلك كانوا قدوة لأنهم/ أكمل الخلق إيماناً وأحسنهم أخلاقاً وأفضلهم حسناً وجمالاً في أنفسهم وأفعالهم فوجب أيضاً حبهم لذواتهم وحبهم لإحسانهم إلى الخلق ومنفعتهم لهم وشفاعتهم. [٢٩٢/ أ]

فأولهم أبونا آدم خلقه الله في أحسن تقويم، ونفخ فيه من روحه، وأسجد له ملائكته فكان إماماً لها، وعلمه علم الأسماء؛ فحسنه وجماله في علمه وشرف ذاته عظيم إمامته لا يدانيه جمال وهو سبب النسل والذرية إلى يوم القيامة وهو الان في البرزخ كل من مرّ به من السعداء فرح به ومن رآه من الأشقياء بكى عليه وحزن.

وكذلك الأنبياء عليهم السلام كلهم رُحماء أحرص شيء على الهداية ومن إحسانهم إلى هذه الأمة أنّا كنا مخلوقين وهم مبشرون برسولنا وداعون لنا كنوح [عليه السلام] حين يقول في دعائه: ﴿رَّبِّ ٱغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ وَلِمَنْ دَخَلَ بَيْتِيَ مُؤْمِناً وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَاتِ﴾[١]. فأجمل، ودعاؤه مقبول.

وكإبراهيم [عليه السلام] حين قال: ﴿رَبَّنَا ٱغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ وَلِلْمُؤْمِنِينَ يَوْمَ يَقُومُ ٱلْحِسَابُ﴾[٢] [وقال][٣]: ﴿رَبَّنَا وَٱبْعَثْ فِيهِمْ رَسُولاً مِّنْهُمْ يَتْلُواْ عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَابَ وَٱلْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ﴾[٤] الآية. فدعا لنا بكل خير. وإسماعيل ابنه [عليه السلام] يؤمن على دعائه.

[٢٩٢/ ب] وموسى عليه السلام كيف أظهر حبه في هذه الأمة حتى قال: / اللهم اجعلني من أمة محمد.

وعيسى عليه السلام بشر بمحمد[٥] [ﷺ] وأمته وحضَّ[٦] على اتباعه ولا سيما وقد صح أنه ينزل فينا وينصرنا على عدونا الدجال وينفعنا [الله به][٧] غاية النفع.

وكما ينصرنا وينفعنا في نزلته إلى الأرض كذلك نفعنا ونصرنا هو وجميع الأنبياء كلهم قبل مبعثه بالقول والدعاء والوصاية والبشارة.

---

(١) سورة نوح (الآية: ٢٨).
(٢) سورة إبراهيم (الآية: ٤١).
(٣) ما بين المعقوفين زيادة توضيحية.
(٤) سورة البقرة (الآية: ١٢٩).
(٥) في الأصل: محمد والسياق يقتضي ما أثبت.
(٦) في الأصل: خط. وهو تحريف والصواب ما أثبت.
(٧) زيادة يتطلبها السياق.

فوجب علينا حب الجميع لذواتهم وما هم عليه من الفضيلة والجمال والحسن والكمال ولكثرة إحسانهم إلينا وإلى سائر المؤمنين من أممهم ومن محبتهم كثرة الصلاة عليهم صلى الله على نبينا وعلى الجميع منهم أفضل صلاة وسلم تسليماً.

النوع الثالث من المحبوبين أصحاب النبي [ﷺ] وأهل بيته: وبذلك يتم إيمان العبد ويبرأ من النفاق فيجب أن يخص بالحب أهل بيت النبي عليه الصلاة والسلام كفاطمة الزهراء، وأمها، وبنتها، وبعلها، وأعمام النبي ﷺ، وقراباته.

فإن لأهل بيت النبي مزية على الناس لا يدرى قدرها.

كذلك أزواجه المطهرات أمهات المؤمنين فمن حب الجميع كثرة الصلاة والسلام عليهم والترحم والدعاء متى ذكروا سراً وإعلاناً.

وكذلك أصحابه الكرام كالصديق، والفاروق، وذي النورين، وعلي، وباقي العشرة، وسائر المهاجرين والأنصار/ وغير ذلك من الصحابة والفضلاء الأخيار. [٢٩٣]

روى عبد الله بن مغفل قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «الله، الله في أصحابي لا تتخذوهم غرضاً بعدي ومن أحبهم فبحبي أحبهم ومن أبغضهم فببغضي أبغضهم، ومن آذاهم فقد آذاني، ومن آذاني فقد آذى الله، ومن آذى الله فيوشك الله أن يأخذه، ومن يأخذه فيوشك أن لا يفلته»[1].

ومن إجماع أهل الحق من أحب أبا بكر فقد أقام الدين، ومن أحب عمر فقد أوضح السبيل، ومن أحب عثمان فقد استنار بنور الله، ومن أحب علياً فقد استمسك بالعروة الوثقى.

ومن قال الحسن في أصحاب محمد ﷺ فقد بريء من النفاق.

وفي الصحيح: «آية الإيمان حب الأنصار وآية النفاق بُغْضُ الأنصار»[2].

ومناقبهم وفضائلهم كثيرة كل ذلك ينبيء على فضل ذواتهم وكرم طباعهم وما خصوا به.

---

(١) أخرجه الترمذي في الصحيح (٣٨٦٢)، أحمد في المسند (٥/ ٥٤، ٥٧)، أبو نعيم في حلية الأولياء (٨/ ٢٨٧)، البغوي في شرح السنة (١٤/ ٧٠)، الخطيب في تاريخ بغداد (٩/ ١٢٣).

(٢) حديث صحيح أخرجه البخاري في الصحيح (١/ ١١)، (٥/ ٤٠)، ابن حجر في الفتح (١/ ٦٢)، أحمد في المسند (٣/ ١٣٠)، البغوي في شرح السنة (١٤/ ١٦٨)، الألباني في الصحيحة (٦٦٨)، السيوطي في الدر المنثور (٣/ ٢٧٠).

والذي يجمع لك المعنى في ذلك الإجمال والاختصار أنهم اختارهم الله لصحبة حبيبه المختار فلو علم الله خلقاً أحسن، وأفضل، وأجمل منهم لاختصهم بصحبة حبيبه الذي لا يعدله شيء عنده فكذلك الصحابة لا يعدل بهم شيء، وذلك أن الفضل في المنازل إنما هو بالعلم والعمل به/ الموافق لرضى الله والتخلق بأوصاف العلم. [٢٩٣/ ب]

فأعلم الناس بعد الرسل الصحابة لأنهم كانوا في الوقت الذي تجلى الله ونزل من[1] كلامه لهذا العالم حين مبعث النبي ﷺ فمقامهم من المعرفة والعلم مقام من تعرف الله إليه وتجلى له وعلمه، ومن نظر الله إليه وأقبل عليه وتجلى له لا يقدر أحد قدر ما جعل في باطنه وظاهره من هذه البركات وفضائل العلم والصفات وأنواع الخيرات. فافهم.

فأما العمل فالصحابة أطوع الخلق لأن أفعالهم عن أمر الله لهم على لسان نبيه في كل نازلة تنزل بهم، ولا يأمر إلاّ بما يحب ويرضى فأطاعوه فيما أمرهم فوافقوا رضوانه على مشاهدة المخاطبة ومكاشفة نزول الأمر.

فهم أعظم الناس منزلة وجاهاً وأوجب مدحاً وثناءً فوجب حبهم لذواتهم وما هم عليه من جمال الفضائل وكريم حسن الطبائع والمنازل.

ووجب أيضاً حبهم لإحسانهم إلى كل من يأتي بعدهم فلهم على الكل مِنَّةٌ دائمة إلى يوم القيامة فإنهم كانوا العون والأنصار لدين الله حتى ظهر واستقر فلولاهم ما ظهر، ومنهم أُخذ.

وهم سنوا السنن فلهم أجرها وأجر من عمل بها.

فلولاهم[2] لكنا كفاراً من لدن التابعين/ إلى يوم الدين. [٢٩٤/ أ]

فحبهم واجب لا ينكره إلاّ خاسر.

فمن حبهم الدعاء لهم والرضى عنهم والترحم عليهم إذا ذكروا سراً وإعلاناً، والكف عما شجر بينهم فرضي الله عن جميعهم أفضل الرضوان في كل حين وأوان.

ونسأل الله الكريم أن يرزقنا حبهم وشفاعتهم وأن يعصمنا من الإذاية لهم والوقيعة في واحد منهم. آمين.

وصلى الله على محمد وآله.

---

(١) في الأصل: (بكلامه) وما أثبته أولى وأوضح.

(٢) يقصد بسببهم وكذا كل ما ورد منه بهذا اللفظ إنما أراد به السبب ليس إلاّ لما ظهر من حرصه الشديد على إخلاص التوحيد لله سبحانه وتعالى.

النوع الرابع من المحبوبين في الله أولياء الله وأوتاده في أرضه:

وهم العلماء بالله وبدين الله المبلغين الدين إلى الأمة والمرحوم بهم الخلق في كل عصر ولولاهم لمات الدين فحبهم واجب والدعاء لهم والترحم عليهم مندوب إليه ومرغب فيه فهم فضلاء كرام في أنفسهم وهم بالعلم في أجمل صورة وهم زينة الأرض وجمالها والجمال محبوب وأي فضيلة لمن لم يكن عنده علم.

ووجب حبهم أيضاً لإحسانهم إلى الخلق لإحياء دين الله وتوصيله وكفاهم أنهم ورثة الأنبياء.

وأعظم العلماء رتبة الأبدال[1] لأنهم العلماء بالله والدار الآخرة.

وإنما سموا أبدالاً لأنهم أبدال للنبيين وقلوبهم على قلوب الأنبياء كما شبه النبي ﷺ أبا بكر بإبراهيم [عليه السلام]، وعمر بنوح [عليه السلام]، وعلياً بهارون [عليه السلام]، وأبا ذر بعيسى [عليه السلام] في زهده نجباء الصحابة/ ومنهم من هو القطب الذي يضاهي [٢٩٤/ الخضر عليه السلام ويجاريه في العلم والأحوال وهو رحمة الله وغياث الأمة وهو زمانه في الاعتبار بدلاً من النبي عليه الصلاة والسلام ووارث بعض ومقاماته في الأحوال.

وبعد القطب الأوتاد الأربعة وهم في نواحي الأرض وجهاتها الأربع كالجبال الرواسي تمسك الأرض أن تميد بكثرة الفساد والمعاصي فتمحو حسناتهم ظلم الظالم وعصيان العاصي عن وجه الأرض وهم في الاعتبار بمنزلة الخلفاء الأربعة بعد النبي عليه الصلاة والسلام.

وبعدهم في الرتبة الأبدال الستة وهم في الاعتبار بمنزلة باقي العشرة.

وبعدهم في الرتبة النقباء الأربعون وهم في الاعتبار بمنزلة الأربعين أهل الدار.

وبعدهم في الرتبة النجباء وعددهم ثلثمائة بمنزلة عدد أهل بدر في الاعتبار.

وبعد ذلك الصالحون المفترقون في البلاد.

فإذا مات قطب ورث خير الأربعة مقامه وورث خير الصالحين الستة مقام الرابع،

---

(١) كلمة الأبدال من الألفاظ والمصطلحات والرتب الصوفية التي ليس لها أساس صحيح من الدين ولا يعرف الإسلام من الرتب غير ما هو ظاهر وهي رتبة الإسلام وما خلا ذلك فعلمه عند ربي إذ يقول سبحانه وتعالى: ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ﴾ [سورة الحجرات: ١٣] وهم درجات فقال ربي عز وجل: ﴿ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ وَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ بِإِذْنِ اللَّهِ ذَٰلِكَ هُوَ الْفَضْلُ الْكَبِيرُ﴾ [سورة غافر: ٣٢] فقسمهم لنا على ثلاثة أنواع وعند ربي =

وورث خير الأربعين مقام السادس، وورث خير الثلاثمائة[1] مقام الميت من الأربعين، وورث خير الصالحين مقام الميت من الثلاثمائة.

فهكذا عددهم من أول الإسلام إلى آخر الدنيا. فبهم ترحم الأرض وهم الشافعون في دفع الشدائد ونزول الأمطار، وغير ذلك.

[٢٩٥/ أ] وهم أهل الكرامات وخرق العوائد فإذا/ أراد الله خراب الدنيا لم يبق أحداً منهم.

جعلنا الله وإياكم من المحبين لهم ونفعنا بانتشار الفوائد من قلوبهم علينا، ولا جعلنا من المنكرين لهم ولا عليهم آمين.

وصلى الله على محمد [وسلّم تسليماً].

النوع الخامس من المحبوبين في الله سائر المؤمنين:

تحبهم لما ظهر منهم من الإيمان والإسلام وتحب لهم ما تحب لنفسك.

قال الله عز وجل: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾[2].

فإن كان فيهم العصيان والمخالفة والظلم وغير ذلك فتكره منهم ذلك وتبغضهم عليه فقط وتحب لهم التوبة كما تحبها لنفسك. وتدعو لهم وتحبهم على ما ظهر منهم من الإيمان والطاعة فقط. وكما تحب الستر على عيوبك فلتحب الستر لهم على عيوبهم ولا تحب أن تسمع الفاحشة فيهم وتدعو لجماعتهم بالصلاح والتوبة والرحمة.

وهذه كلها أعمال صالحة بها ينتفي الحسد والغل ولا بد من هذا إما في الدنيا وإما في الآخرة ولا تدخلوا الجنة إلا على صورة الحب في الله، قال الله عز وجل: ﴿وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ إِخْوَاناً عَلَى سُرُرٍ مُّتَقَابِلِينَ﴾[3].

ومن أفضل الأعمال سلامة الصدر للأمة وبذلك صار الأبدال أبدالاً.

تاب الله علينا وعلى جميع العاصين والعاصيات ورحمنا وإياهم في الدنيا وفي الموت [٢٩٥/ ب] وفي الآخرة آمين. آمين. وصلى الله على محمد/ وآله وسلم.

= علمهم اليقيني أما نحن فنحكم بالصلاح لمن استقام على الإسلام الظاهر وبغيره لمن حاد عنه والله لنا ولكم نسأل التقوى وحسن الختام.

(١) في الأصل: الثلاثة وما أثبته هو ما يناسب السياق الذي يريده المؤلف رحمنا الله وإياه لا ما أعتقده أو أوافق عليه.

(٢) سورة الحجرات (الآية: ١٠). (٣) سورة الحجر (الآية: ٤٧).

النوع السادس من المحبوبين في الله وهم الأصحاب والأخلاء والأصدقاء:

وقد جعل الله الصديق من الأقارب وضمه إليهم فقال: ﴿لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ﴾[١]: ﴿أَن تَأْكُلُوا مِنْ بُيُوتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ آبَائِكُمْ﴾[١] إلى قوله: ﴿أَوْ صَدِيقِكُمْ﴾[١].

فختم بالصديق وجعل الصداقة رحماً وقرابة وفيه وردت أخبار المتحابّين في الله.

والأخوة الخاصة في الله ولا بد لكل أحد من خليل وصديق في كل عصر وأوان.

وقد آخى النبي ﷺ بين أصحابه وحالف بين المهاجرين والأنصار وكان يرث هذا هذا، وهذا هذا كالأقارب، وميراثه موجود في كتاب الله عز وجل في قوله: ﴿وَالَّذِينَ عَقَدَتْ أَيْمَانُكُمْ فَآتُوهُمْ نَصِيبَهُمْ﴾[٢].

حتى نزلت: ﴿وَأُولُوا الْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللَّهِ﴾[٣].

فهي عند مالك وغيره منسوخة إلا أبا حنيفة فإنه يورث بها وحكمها باق عنده.

والمؤاخاة في الله عمل عظيم لا يعدل به شيء من أراد الإشراف على فضائلها فلينظر ما ألّف العلماء في باب الصحبة والأخوة ولو لم يكن فيها إلاّ أن الصاحب يموت وربما نسيه أقاربه وصاحبه لا ينساه فهو أحب من الأقارب.

وإن كان الراحد أرفع درجة من الآخر رفعه إلى درجته/ في الجنة ولا تطيب نفسه [٢٩٦/ حتى يكون مثله في الدرجة.

ولما آخى النبي ﷺ علياً رضي الله عنه فصلى ليلة فقال له: «أبشر يا علي فإني ما سألت الله شيئاً إلا سألت لك مثله»[٤].

وقال له في حديث آخر: «أنت معي في قصري في الجنة مع فاطمة ابنتي في أعلى درجة في الجنة»[٥].

---

(١) سورة النور (الآية: ٦١). وقد قدم فيها وأخر ففصلت كل جزء بين قوسين لظني أن مراده بالتقديم توضيح السياق الذي يريده بأسلوب إنشائي فاستعار جزء الآية، ثم استأنف ذكرها.

(٢) سورة النساء (الآية: ٣٣). (٣) سورة الأنفال (الآية: ٧٥).

(٤) أطراف هذا الحديث بنحوه عند: الطبراني في معجمه الكبير (٧/٣٦٩)، الهيثمي في مجمع الزوائد (٩/ ١١٢)، ابن عساكر في تهذيب تاريخ دمشق (٤/ ٨٨)، ابن عدي في الكامل (٤/ ١٦٥٤).

(٥) أطرافه عند: ابن الجوزي في العلل المتناهية (١/ ٢١٥)، السيوطي في الدر المنثور (٤/ ٣٧١)، ابن عساكر في تهذيب تاريخ دمشق (٦/ ٢٠٣).

فكذلك دعا لأبي بكر لما كان صاحبه فقال: «اللهم اجعل أبا بكر معي في درجتي في الجنة»[١].

فهكذا ينبغي أن يكون الأخ مع أخيه والصاحب مع صاحبه لا يريد لنفسه شيئاً إلاّ أراده له.

إلاّ أن هذا الباب اليوم قليل.

نسأل الله الكريم أن يرزقنا من الأصحاب ومن كل شيء أفضل شيء إنه على كل شيء قدير.

وصلى الله على محمد وعلى آله وسلم تسليماً.

الشعبة الثانية والخمسون: البغض في الله

أما كونه من الإيمان فقد تقدم في باب الحب في الله وأن أوثق عرى الإيمان الحب في الله والبغض في الله وكذلك في حديث أبي ذر قال: قال رسول الله ﷺ: «أفضل الأعمال الحب في الله والبغض في الله»[٢].

فجعل البغض في الله أفضل الأعمال وجعله علي رضي الله عنه من دعائم الإيمان فقال في حديثه الطويل: الإيمان/ على أربعة دعائم: على الصبر واليقين والعدل والجهاد. [٢٩/ ب]

ثم قال: والجهاد على أربع شعب: الأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر، وسِباب الفاسقين، والصدق في المواطن.

فجعل سباب الفاسقين شعبة من الإيمان.

والشواهد عليه كثيرة جداً وقد قال الله أصدق القائلين: ﴿لاَ تَجِدُ قَوْماً يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلآخِرِ يُوَآدُّونَ مَنْ حَادَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوٓاْ آبَاءَهُمْ أَوْ أَبْنَآءَهُمْ﴾[٣] الآية.

وقال: ﴿يَا أَيُّهَا ٱلَّذِينَ آمَنُواْ لاَ تَتَّخِذُواْ عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَآءَ﴾[٤] إلى آخر الآية.

---

(١) أطراف هذا الحديث عند: أبي نعيم في حلية الأولياء (١/ ٣٣)، السيوطي في جمع الجوامع (٩٩٣٨)، السيوطي أيضاً في الدر المنثور (٣/ ٢٤٢)، الزبيدي في إتحاف السادة المتقين (٧/ ٦٨)، المتقي الهندي في كنز العمال (٣٢٦٢٥).

(٢) أخرجه أبو داود في السنن (٤٥٩٩)، المنذري في الترغيب والترهيب (٤/ ٢٤)، ابن حجر في فتح الباري (١/ ٤٧)، العجلوني في كشف الخفا (١/ ١٧٧).

(٣) سورة المجادلة (الآية: ٢٢).

(٤) سورة الممتحنة (الآية: ١).

فصــل

اعلم أن هذا الباب على ثلاثة أقسام:

قسم في عالم الحِس ومقام الإسلام.

وقسم في عالم الغيب ومقام الإيمان.

وقسم في مقام الإحسان.

فأما القسم الأول في مقام الإسلام: فأن تبغض كل كافر بالله في مشارق الأرض ومغاربها والعصاة والعتاة وتبغض أفعالهم وهذا يحتاج إلى تفصيل يأتي إن شاء الله.

وأما القسم الثاني في مقام الإيمان: فأن تبغض كل كافر في دار البرزخ من الفراعنة والطغاة وتبغض إبليس وجنوده الذين هم في عالم الغيب وتبغض أفعالهم.

وأما القسم الثالث في مقام[1]/ الإحسان: فأن تنظر إلى بغض الله لهم في الأزل [٢٩٧/ أ] وغضبه عليهم ولعنه إياهم وإبعادهم عن قربه ومحل كرامته فتبغضهم في ذلك موافقة له لأجل عصيانهم له لا لعرض ولا لغرض.

فإذا فهمت هذا فاعلم أن هذا الباب ينتظم من ثلاثة أشياء:

مُبْغِض: وهو العبد المؤمن.

وبُغْض: وهو حاله.

ومُبْغَض: وأصنافهم كثيرة وأنواعهم مختلفة.

فأول الأصناف وأولاهم بالبغض والعداوة إبليس وبنوه عليه لعنة الله: وهو الذي عادى أبانا آدم عليه السلام وعادى بنيه وأخرجه[2] وإياهم من الجنة ومن الإسلام والإيمان ومن الطاعات والأعمال الصالحات وأوقعهم في البليات والمهلكات الأبديات.

وحارب الله وخاصمه بعداوته فقال بعد مخاصمته لربه: ﴿لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ * ثُمَّ لَآتِيَنَّهُمْ مِّنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ﴾[3]. إلى آخر المعنى.

وقد فرض الله علينا عداوته وأمرنا بها فقال: ﴿إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَاتَّخِذُوهُ عَدُوًّا﴾[4].

---

(١) عبارة: في مقام. مكررة بآخر صفحة [٢٩٦/ ب]، وأول صفحه [٢٩٧/ أ] فحذفت التكرار.

(٢) في الأصل: وأخرجهم وهو تحريف والسياق يقتضي ما أثبته.

(٣) سورة الأعراف (الآية: ١٦، ١٧). (٤) سورة فاطر (الآية ٦).

ولولا جهل بني آدم بعداوته ما أطاعه أحد ولا توبع ولبقي العدو في نار الحسد يتلظى حتى ينقل من الدنيا إلى نار لظى.

فإن البغض للعدو إبعاد له ونفي له عن محل القرب من مبغضيه.

ومن أبغض شيئاً لا يحب أن يراه ولا يسمع حديثه ولا يهنأ عيشاً حتى يحتجب عنه.

[٢٩٧/ ب] / هذه صورة البغض والعداوة الكلية.

لكن إنما تحول عندنا في صورة الحب تحيله وخداعه فأَنِست النفوس مجالسته وانشرحت لاستماع(١) وساوسه بجهلها بالعدو والصديق فكان ما كان من قضاء الله على عدو الله.

فإنه لم تجر معصية في العالم إلاّ على يدي شيطان يوسوس ويأمر بها فإن عدم القلب بغض الموسوس والنفور عنه والإبعاد له تصور عنده ناصحاً محباً.

وبهذه الحيلة دخل على أبينا آدم في الجنة لكنه عليه السلام لم يكن لها عودة أبداً ولم يلدغ من جحر مرتين لأنه مَيَّزَهُ غاية التميز فجعله عدواً حقاً وأبغضه بغضاً صدقاً لنفوذ بصره في المشكلات وتمييزه ومعرفته بالعدو من الصديق وبذلك وصف الله ال متقين في قوله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ إِذَا مَسَّهُمْ طَٰٓئِفٌ مِّنَ ٱلشَّيْطَٰنِ تَذَكَّرُوا۟ فَإِذَا هُم مُّبْصِرُونَ﴾(٢). وهذا يستدعي معرفة الخواطر التي هي سهام العدو. وقد تقدم ذكرها في باب الجهاد هنالك.

عصمنا الله وإياكم من الفتن وأسبغ علينا وعليكم سوابغ المنن بمنه وفضله. آمين. آمين. وصلى الله على محمد وآله وسلم.

[٢٩٨/ أ] **أما الصنف الثاني من المبغوضين فهم أخوان الشياطين من أنواع الكفار المناصبين/ بالعداوة للأنبياء في جميع الأعصار**: إن الله لا يحب الكافرين ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ عَدُوٌّ لِّلْكَٰفِرِينَ﴾(٣).

ومنهم طغاة وفراعنة وكبار وصغار فيخص كل واحد من البغض بقدر فرعنته وعداوته للّه ولرسوله عموماً وخصوصاً وإن كان الكل أعداء.

لكن ليس فرعون، وعَاقر [الناقة]، ونمروذ، وأبو جهل، ومن قاربهم كغيرهم من مساكين الكفار ومن لا ذكر له.

ويبغض الكل على العموم يجري وذلك كله عملَ صالح يؤجر العبد عليه.

---

(١) تكرر بالأصل حرفي اللام والألف (لا) فحذفت التكرار.

(٢) سورة الأعراف (الآية: ٢٠١). (٣) سورة البقرة (الآية: ٩٨).

وفي تذكرة القلب للأعداء الكفار ومشاهدته إياهم علم غريب لمن وفق له فإنهم يقومون مقام الأنبياء والملائكة في الهداية فإن الله قد سماهم أئمة يدعون إلى النار فهم أئمة إنس وجن منصوبون للإفتاء في الشر كالأنبياء والملائكة في الطرف الثاني من الخير.

فالموفق للخير إذا سمع ذكرهم وشاهدهم بقلبه وتذكر أخبارهم عمل بضد ما يدعون إليه وما عملوا به وأبغضهم وهرب بقلبه وعمله من طريقهم فكانوا أئمة في الخير ففي مشاهدتهم ظاهراً وباطناً فائدة عظيمة لأنه بالضد تتبين الأشياء.

والعارف لا يوحشه شيء بل يرى سروره في كل شيء فصار ذكر العداوة والبغض عنده سروراً وفرحاً. فافهم.

/ **الثالث من المبغوضين أهل الأهواء والبدع المخالفون لأهل السنة في العقائد والأعمال**: وأصنافهم أربعة كل صنف ينقسم على ثماني عشرة فرقة ومجمل عددهم في اثنين وسبعين فرقة كما جاء في الحديث. [٢٩٨/ ب]

الصنف الواحد الخوارج وعلى رأسهم: الذي قال لرسول الله ﷺ: اعدل يا محمد فإنك لم تعدل.

وقال فيه رسول الله ﷺ: «يخرج من ضئضىء هذا قوم يقرؤون القرآن ليس قراءتكم إلى قراءتهم بشيء»[1].

وقال فيهم: «يمرقون من الإسلام مروق السهم من الرمية»[2]. والمروق هو الخروج.

ومنهم الذين خرجوا على عَلِيّ وسموا بالحرورية: وأصنافهم كثيرة لا تنقطع إلى يوم القيامة كما روى علي رضي الله عنه في الصحيح قال: سمعت رسول الله ﷺ: «يأتي في آخر الزمان قوم حدثة الأسنان سفهاء الأحلام يقولون من قول خير البرية يمرقون من الإسلام كما يمرق السهم من الرمية لا يجاوز إيمانهم حناجرهم فإذا لقيتموهم فاقتلوهم فإن في قتلهم أجراً لمن قتلهم يوم القيامة»[3].

وقال في حديث آخر: «لئن أدركتهم لأقتلنهم قتل عاد»[3].

فانظر بغضر النبي ﷺ فيهم.

---

(١) أخرجه البيهقي في دلائل النبوة (٦/ ٤٢٦).

(٢) أخرج البخاري نحوه في الصحيح (٦/ ٨٤).

(٣) أخرجه البخاري في الصحيح (٤/ ٢٤٤)، (٦/ ٢٤٣)، أبو داود في السنن (٤٧٦٧)، البيهقي في السنن الكبرى (٨/ ١٨٧).

ومذاهبهم مختلفة: منهم من يكفر الناس بالذنوب، ومنهم من يحلل المحرمات ويحرم المحللات، وأشياء أخر تبلغ إلى ثماني عشرة كما قدمنا.

[٢٩٩/ أ] / **الصنف الثاني هم المعتزلة**: وهم أصناف، القدرية. وقال عليه الصلاة والسلام فيهم: «القدرية مجوس هذه الأمة إن مرضوا فلا تعودوهم وإن ماتوا فلا تشهدوهم»[(١)].

فانظر صورة هذا البغض الذي أمر به ما أعظمه.

وقال في حديث آخر فيهم: «حق على الله أن يلحقهم بالدجال».

ومذاهبهم مختلفة تبلغ إلى ثمانية عشر.

والصنف الثالث المرجئة: الذين يقولون إن الإيمان قول بلا عمل وأصنافهم مختلفة أيضاً متشعبة تبلغ أيضاً إلى ثماني عشرة فرقة فمنهم من ينتقص الشيخين، ومنهم من ينتقص علياً، ومنهم من ينتقص عثمان، ومنهم من ينتقص جبريل عليه السلام، ومعاوية، وأهل الشورى، وينسبون إلى الصحابة ما لا يليق بهم.

فبغضهم واجب من أوجب الواجبات وكلها في النار كما ورد في الحديث.

والصنف الرابع من المبغوضين أهل العصيان والفساد من عصاة [أهل] السنة[(٢)]: وهم على ضربين: مجرم ومعترف.

[/ ب] / فالمجرم: مثل الظلمة الباغين على الفساد، والمفسدين في الأرض: ﴿وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾[(٣)].

وورد في الخبر: لو قتل رجل في المشرق ظلماً ورضي به آخر بالمغرب لكان شريكه في الوزر.

ومثل العصاة المجاهرين وقطّاع الطريق على المسلمين والمنتهكين حرم المؤمنين، والمستخفين بطاعة الله وأولياء الله المتطاولين على الضعفاء وأهل عبادة الله فهؤلاء كلهم يجب هجرانهم وبغضهم على ما هم عليه من الفساد.

---

(١) رواه أبو داود في السنن (٤٦٩١)، ابن أبي عاصم في السنة (١/ ١٤٩)، الحاكم في المستدرك (١/ ٨٥)، البخاري في التاريخ (٢/ ٣٤١) ابن الجوزي في العلل المتناهية (١/ ١٤٦)، السيوطي في اللآلىء المصنوعة (١/ ١٣٤)، البيهقي في السنن الكبرى (١٠/ ٢٠٣)، العجلوني في كشف الخفا (١/ ٥٣٤)، المنذري في الترغيب والترهيب (١/ ٢٠٣).

(٢) جاءت العبارة في الأصل (من عصابة السنة) فضبط السياق وأضفت ما يلزم بين المعقوفين.

(٣) سورة آل عمران (الآية: ٥٧).

وأما الصنف المعروف المتواضع من العصاة: فإن كان عندهم صلاح وفساد أُحب منهم الصلاح وأبغض منهم الفساد ويدعى لهم بالتوبة منه وتظهر لهم الغلظة والشدة وتبطن لهم الرحمة والشفقة في مواطن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

وأما النفس الأمّارة بالسوء المخالفة: فيجب حربها[1] والشدة في ذات الله عليها حتى تنقمع ورؤيتها بعين المقت لها وأن ليس في الوجود شر منها ولا أعدى للعبد منها.

فإن قلت: كيف تكون نفس الإنسان عنده شراً من الكفرة والشياطين؟

فاعلم علماً حقاً وتيقن نفساً صدقاً أن كل عدو في الوجود على اختلاف أنواعهم إنما أَضَرَّ بهم على الحقيقة أنفسهم.

فالشيطان هو أهلك نفسه وكذلك كل كافر وعاص باستحسان رأي/ نفسه. [٣٠٠/ أ]

فالشيطان لا يأخذ الإنسان قهراً وغلبة فيرميه في المخالفة، إنما يلقي إليه وحياً وكلاماً فتقبل النفس عليه وتستحسنه وتقبله وتعمل به أو بخاطرها المذموم فهي أضرت بنفسها والشيطان أضر بنفسه فيما جنى ووسوس.

وكذلك كل كافر أو عاص في الوجود إنما يهلك نفسه بنفسه.

وإذا كان فرعون في الهاوية فما يضرك كونه فيها إذا لم تعمل[2] عمله الذي يدخل الهاوية.

فإذا عملت ما يضرك في الآخرة أو يقيم عليك حداً في الدنيا يؤذيك الخزي والعار.

فمن أضر عليك من نفسك.

فنفس الإنسان شر للإنسان من كل شيء وأضر له من كل شيء. فافهم هذا.

فإنه لا شيء أنفع للإنسان[3] في هذا الباب من معرفة النفس ورؤيتها شراً من كل شيء.

وقد حوم كثير من العلماء على هذا الغرض ولم يصب كثير منهم إلا أطرافاً منه فاجعل هذا مرآة لمعرفة النفس تنظرها فيه بهذه العين فتبرأ من الكبر ومن كثير من المهلكات.

---

(١) في الأصل: حرصها. والمناسب ما أثبت وأحسبه تحريف.

(٢) في الأصل: تعلم. وهو تحريف.

(٣) عبارة (أنفع للإنسان) ليست من الأصل وجاء موضعها كلمة لا تقرأ هذا رسمها (سعى لسكـلا) فحذفت الكلمة من الأصل وأضفت ما يفيد المعنى ووضعت رسم الكلمة بالهامش كما سبق.

وانظر أعداءك الذين يأمرونك من غيرها فإن ضرك عدو مثل أن يشتمك أو يضربك ويؤذيك فتؤجر أو تصبر فيحسن خلقك أو يقتلك فتدخل الجنة أو يغتابك، فهم في ضرهم لك نافعون، ونفسك بضد ذلك وإنما غرضها/ تنفيذ هواها وإهلاكها إن تركت. [٣٠٠/ ب]

قال الله عز وجل شاهداً لهذا المعنى فأخبر عن إبليس حين ظهرت الحقائق الآخرة وتبين كل أحد هذا المعنى فقال: ﴿فَلَا تَلُومُونِي﴾[(١)] فإني ما عملت لكم شيئاً ﴿وَلُومُوٓا أَنفُسَكُم﴾[(١)] أي التي عملت الشر.

فلم يكذبه الباري في ذلك ولا أكذبه أحد وكذلك ورد عن الله في صحيح ما أخبر عنه فقال: «إنما هي أعمالكم ترد عليكم فمن وجد خيراً فليحمد الله ومن[(٢)] وجد غير ذلك فلا يلومن إلا نفسه».

فرفع اللائمة عن إبليس وغيره من الخلق بحرف النفي وأوجبه بالاستثناء للنفس وأوقعه عليها والشواهد على هذا كثيرة.

فترك الرضى عن النفس ومقتها ورؤيتها أقل من كل نفس في الوجود واجب على من عرف نفسه وذلك هو حب لها وتشكره هي على ذلك إذا ظهرت لها حقائق الأشياء إما عاجلاً وإما آجلاً.

مَنَّ الله علينا وعليكم بمعرفتها وتاب علينا ونجانا من غوايتها ورحم نفوسنا رحمة لا نشقى معها أبداً في عافية شاملة بمنّه وفضله. آمين. آمين.

وصلى الله على محمد وعلى آله وسلم تسليماً.

الشعبة الثالثة والخمسون: الحيـاء

[٣٠١/ أ] / أما كون الحياء من الإيمان فمنصوص في الحديث الصحيح قال النبي ﷺ لرجل من الأنصار وهو يعظ أخاه في الحياء فقال: «دعه فإن الحياء من الإيمان»[(٣)].

---

(١) سورة إبراهيم (الآية: ٢٢).

(٢) جاءت العبارة بالأصل على النحو التالي: فليحمد الله إلاّ نفسه ومن. فحذفت عبارة إلاّ نفسه لزيادتها على أصل الحديث.

(٣) أخرجه البخاري في الصحيح (١/ ١٢)، (٨/ ٣٥)، أبو داود في السنن (٤٧٩٥)، النسائي في المجتبى (٨/ ١٢١)، أحمد في المسند (٢/ ٥٦)، البخاري في الأدب المفرد (٦٠٢)، أبو نعيم في تاريخ أصبهان (١/ ٢٣٠)، حلية الأولياء (٦/ ٣٥١).

وقال: «الإيمان بضع وسبعون شعبة والحياء شعبة من الإيمان»[(١)].

فصل

اعلم أن الحياء من أعظم شعب الإيمان وهو على ثلاثة أقسام:

قسم في مقام الإسلام.

وقسم في مقام الإيمان.

وقسم في مقام الإحسان. وينتظم من ثلاثة أشياء:

مستحيي: وهو العبد.

وحياء: وهو حاله.

ومستحيا منه: وهو الرب أو مَن يجب أن تستحي منه.

والحياء: هو التستر والاحتشام أمام النظر، ولذلك غطى النبي ﷺ فخذه حين دخل عليه عثمان رضي الله عنه وقال: «ألا أستحيي من رجل تستحيي منه الملائكة»[(٢)].

فأما القسم الأول في مقام الإسلام وعالم الحس ظاهراً: فإن أعمال الجوارح الظاهرة تنقسم على ثلاثة أقسام:

قسم نهى الله عنه وهو المعاصي.

وقسم أمر الله به وهي الطاعات.

وقسم يخص العبد في مباحاته ومعيشته وكسبه.

والإنسان مأمور بالحياء في ذلك كله.

فأما المعاصي: فالحياء واجب فيها وفي غاية الحسن لأن المعاصي سوأة فإذا واقعها العبد بجوارحه كشف ستر الحياء عنه فزال وظهرت السوءات، ولذلك قيل: «إذا لم تستح فاصنع/ ما شئت»[(٣)]. [٣٠١/ ب]

ومن ذلك الخبر الوارد: «لا يزني الزاني حين يزني وهو مؤمن، ولا يسرق حين يسرق

---

(١) أطرافه عند: مسلم في الصحيح (الإيمان ٥٧)، النسائي في المجتبى (٨/ ١١٠)، البخاري في الأدب (٥٩٥)، عبد الرزاق في المصنف (٢٠١٠٥)، الهيثمي في مجمع الزوائد (١/ ٣٧).

(٢) أخرجه التبريزي في مشكاة المصابيح (٦٠٦٠).

(٣) أطراف هذا الحديث عند: ابن أبي حاتم في العلل (٢٥٣٨)، ابن حجر في تلخيص الحبير (٤/ ٢٠٠)، الطبراني في المعجم الكبير (١٧/ ٢٣٦).

وهو مؤمن . . »[1] الحديث إلى آخره.

فالإيمان المرتفع عنه حين المعاصي هو شعبة الحياء[2] فإن الزاني إذا كشف عورته للزنا إنما يكشفها في خلوة عن أعين الناس حياءً منهم وإنما قل حياؤه من الله لقلة علمه بنظر الله إليه.

وكذلك السارق وأنواع المعاصي.

فلو استوى حياؤه من الله مع حيائه من الناس لم يقع في المخالفة.

والحياء من الناس في المعاصي حسن وهو معنى الخبر الوارد: «[الحياء] خير كله»[3].

فإن العبد إذا استحى من الخلق أن يفتضح عندهم أو يعيَّر بارتكاب النقائص، أو يفتضح عند الحكام فيضرب ظهره أو تقطع يده، وأن يطاف به على جماعات من الناس أو غير ذلك من الفضائح المسموعة المنظور إليها، فكيف عن الرذائل؟

من أجل ذلك حسن جداً وبقيت مروءته غير ساقطة.

وقيل: استحيي من الله كما تستحيي من الرجل الصالح.

ومن هذا المعنى يكون المؤمن للمؤمن كالبنيان المرصوص يشد بعضه بعضاً فإن المؤمنين إذا استحيى بعضهم من بعض وقف كل أحد على حده ولم يهتك ستر حرمة أخيه المؤمن في حريم ولا مال ولا شيء.

وظهر حسن الحياء وجماله لأنه في غاية الحسن كما ورد في الخبر: الحياء في كل شيء حسن وهو في النساء أحسن.

---

(١) أخرجه البخاري في الصحيح (٣/١٧٨)، (٧/ ١٣٦)، (٨/ ١٩٥)، مسلم في الصحيح (الإيمان ب ٢٤ رقم ١٠٠، ١٠٥)، أبو داود في السنن (٤٦٨٩)، الترمذي في الصحيح (٢٦٢٥)، النسائي في المجتبى (٨/ ٦٤، ٦٥، ٣١٣)، ابن ماجة في السنن (٣٩٣٦).

(٢) هذه نكتة لطيفة ولفتة جميلة غير أني أظن أنه ليس عليها دليل يقويها ولكنها فائدة طيبة في شرح الحديث.

(٣) ما بين المعقوفين سقط من الأصل والحديث أخرجه مسلم في الصحيح (الإيمان ٦١)، أبو داود في السنن (٤٧٩٦)، أحمد في المسند (٤/ ٤٢٦)، الهيثمي في مجمع الزوائد (٨/ ٢٦)، الطبراني في الكبير (١٨/ ١٧١)، ابن أبي شيبة في المصنف (٨/ ٢٣٥)، البخاري في التاريخ (٣/ ٣٠)، أبو نعيم في الحلية (٢/ ٢٥١).

وإنما كان في النساء أحسن/ من أجل أن الحياء ستر كما قدمنا والمرأة كلها عورة فإذا [٣٠٢/ أ] كانت كثيرة الحياء في العفة وقصرها في كن الصيانة ولم تتبرج تبرج الجاهلية فإن خرجت في حوائجها كانت في ستر الحياء في مشيتها وملبسها وبذاذة هيئتها حتى ترجع إلى كنّها وكانت ممن ذكر الله في قوله: ﴿قُل لِّأَزْوَاجِكَ وَبَنَاتِكَ وَنِسَآءِ ٱلْمُؤْمِنِينَ يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِن جَلَٰبِيبِهِنَّ﴾[١] الآية.

وإن قل حياؤها لبست أحسن ثيابها وتبرجت في تطوافها وتعرضت بكشف محاسنها ومالت وأمالت فظهرت قباحتها بزوال جمال ستر الحياء.

وفي مثلها ورد الخبر: «نساء كاسيات عاريات مائلات مميلات لا يدخلن الجنة ولا يجدن ريحها..»[٢] الحديث.

فقد عمّ الحياء الرجال والنساء والصغار والكبار، فإن الصغير إذا استحيى من الكبير وقره وعظمه فكان الحياء مؤدباً له أحسن تأديب، والكبير إذا استحيى من سنه أن يسقط من منصب ذوي الأسنان لم يقع فيما يقع فيه الشباب.

وأقبح شيء شيخ تشبه بصبي في أمور الخذلان.

فالحياء من الخلق حياء من الله لأنهم شهوده في أرضه.

فإذا علم العبد أن الله رقيب على جوارحه كلها وعباده شهود عليه واستحيى منه ومن شهوده حفظ جوارحه وقبضها عن المنهيات فلا يلوح له في المحسوسات شيء من المنهيات إلاّ ذكره الحياء من الله فقبضه عن/ الذنب وحفظه من الوقوع فيه وكان الحياء من الله ستراً [٣٠٢/ ب] مسبلاً على العبد فمنعت به الجوارح مما لا ينبغي فكان به العبد في حفظ صيانة الحياء في أحسن صورة.

فصـــل

وأما قسم الطاعات: فإن الحياء فيها أيضاً واجب وذلك أن العبد أمر بفعل الواجبات في أوقاتها ومواطنها على أكمل وجوهها بقدر طاقته ووسعه، وعلم أن أعماله معروضة على ربه وصاعدة إليه مع الكرام الكاتبين كل يوم غدوة وعشية لأنها قربات يتقرب بها إلى الملك الأكبر ويهديها إليه ليتقرب بها إليه.

ولو أن ملكاً من ملوك الدنيا أمر رجلاً أن يعمل له عملاً ويتقنه ويأتي به في وقت

(١) سورة الأحزاب (الآية: ٥٩).
(٢) أخرجه مالك في الموطأ (٩١٣).

معلوم لبادر إلى عمله لئلا يذهب الوقت فيقع في خلف الوعد، وكان يعمله في أحسن صورة حياءً من الملك أن يواجهه بشيء فيه نقص أو بشيء حقير، ولو أمكنه أن يبيع نفسه وينفقها على عمل ذلك الشيء كي يكون مما يصلح للملوك لفعل.

فكيف بالباري تعالى ملك الملوك الذي تعرض عليه الأعمال والقربات بكرة وعشية بل يراها في كل وقت وحين.

فإذا فكر العبد في عرض الأعمال على الله عز وجل استحيى منه أن يتركها وأن يخلط فيها ما ليس منها، ومن النقص والتقصير فيها.

[٣٠٣/ أ] وكما يستحيي العبد من الله أن يراه حيث نهاه فكذلك أيضاً يستحيي منه/ أن يفقده حيث أمره وأن يواجهه بعمل قبيح ويتذكر عرضها عليه في كل يوم وليلة فيوجب له الحياء أن لا يهدي إلى الملك الأكبر إلاّ ما يليق به سبحانه ويعتذر من التقصير في حقه سبحانه.

ألا ترى إلى الملائكة كيف قالت في مقام الحياء من التقصير: «سبحانك ما عبدناك حق عبادتك». لأنك مستحق أكثر من هذا لعظيم قدرك.

فالحياء يوجب تحقير العمل من العبد وإن جل ويورث الإخلاص والحمد والاجتهاد في تحسين الأعمال المفروضة ليلاً ونهاراً على ذي الجلال، مَنَّ الله علينا بكثرة الحياء منه في كل شيء بمَنِّه وفضله. آمين. وصلى الله على محمد وآله.

وأما القسم الثالث من الحياء في أمور المعايش والمكاسب المباحات:

فإن العبد يحتاج فيها إلى مخالطة الخلق فيحتاج إلى الحياء ومعاملتهم به كي لا تسقط مروءته وإن لم يعاملهم ويخالطهم بالحياء نسب إلى القحة والرذائل.

ومن فضائل الحياء في المباحات: ترك الإسراف في طلب الدنيا وزينتها فإن دار الدنيا دار عبادة، فإذا تخلق بأخلاق المسرفين والمترفين فقد خرج من زيّ العبودية وتزيا بزي الحرية وتشبه بالسادة في دار العبودية الدنيا.

وقد أمر أن يكون عبداً فيها حتى ينقل إلى لبس الحرير والذهب والفضة والأسورة والتيجان والمراكب العالية والقصور وغير ذلك.

[٣٠٣/ ب] فإن طلب النزوة في دار الدنيا والإسراف من المباني/ والملابس اللينة الرقاق وفرش الديباج والحرير وستر الحيطان وغير ذلك من زخارف الدنيا المباحة فقد قل حياؤه في دار العبودية.

ألم تسمع إلى حديث النبي ﷺ، روى أبو سعيد عن النبي ﷺ أنه قال: «استحيوا من الله حق الحياء».

قلنا: يا نبي الله إنّا نستحيي من الله والحمد لله. قال: «ليس ذلك ولكن الاستحياء من الله حق. الحياء: أن تحفظ الرأس وما وعى، والبطن وما حوى، وتذكر الموت والبلا، ومن أراد الآخرة ترك زينة الدنيا وآثر[1] الآخرة على الدنيا فمن فعل ذلك فقد استحيى من الله حق الحياء».

فالحياء من فضول الزينة في دار العبودية فضيلة مثوبتها في الآخرة على الدرجات من كل زينة وفضيلة في الجنات.

والحياء في ترك المنهيات وامتثال الطاعات فريضة فقد عمّ الحياء جميع الأمور كلها المحسوسة فهو خير كله.

مَنَّ الله علينا وعليكم به. آمين. آمين.

وصلى الله على محمد وآله وسلم تسليماً.

فصـــل

وأما المقام الثاني من الحياء في عالم الغيب ومقام الإيمان: فإن أول ما يقع عليه بصر الإيمان في عالم الغيب نفس الإنسان ثم الملكان الكاتبان، ثم جميع الملائكة الذين عمروا ملك الله كله والملكان ناظران أبداً إلى همة النفس فإذا رأت الهمة بالخطيئة قالت: أي رَبِّ/ [٣٠٤/ أ] عبدك فلان همّ بخطيئة.

فإذا علمت النفس أن عليها أعياناً ناظرة في الغيب والملكوت استحيت لا سيما مع الصالحين من عباد الله وهم الملائكة.

وهذا الباب يستدعي الكلام في معرفة النفس.

فأوجب ذلك الكلام فيها، وذلك أن نفس الإنسان كما قال ذو النون بسيطة منبسطة على الأشياء كانبساط نور الشمس على كل شيء.

فإن جوهر النفس والروح ليس كثيفاً كالجسد بل بسطها كانبساط الذوات الروحانية

---

(١) في الأصل: آثرك. وهو تحريف والحديث في سنن الترمذي (٢٤٥٨)، مسند أحمد (١/ ٣٨٧)، مستدرك الحاكم (٤/ ٣٢٣)، حلية الأولياء (١/ ٣٥٨)، الطبراني الكبير (٣/ ٢٤٦)، الصغير (١/ ١٧٧)، الترغيب والترهيب (٥/ ٥٥)، كشف الخفا (١/ ١٣٨).

ولانبساطها تتصرف بالخواطر والأفكار في جميع العالم بلا مسافة فلا يردها شيء، وتتغلغل إلى علو العالم وسفله.

فالوجود لها كالمرآة للصور، ومثال ذلك:

أنك لو قدّرت نفسك قائماً في بيت يكون كله صقيلاً كالمرايا المنصوبة أو بيت من زجاج ذي ألوان شتى صافٍ لتجلت صورتك قائماً في كل مرآة منها في البيت كله.

فلو حركت يدك وأنت قائم في البيت تحرك مثالك في جميع المرايا، أو فمك، أو عينك أو شيئاً دَقّ أو جل منك.

وورد في الخبر أن العرش جوهر يتلألأ ملأ الكون ولكل أحد مثال منطبع في العرش وكذلك الموجودات كلها تحت العرش كالمرايا أيضاً ما خلا الأرض.

ألا ترى أن الكواكب تثقب أجرام الأفلاك والأهوية حتى تنطبع صورها في المحالّ وفي الأماكن الصقيلة ولا/ تردها إلا الأرض الكثيفة فإذا فهمت هذا علمت أن الإنسان متحمل بنفسه وذاته في الوجود كله فإن الوجود معمور بالحياة والأملاك. [٣٠٤/ ب]

فإذا تحرك العبد في عمل من الأعمال انطبعت مثالاته في المرايا فأبصره كل أحد في مقامه بلا مسافة ولا كلفة إلاّ أن يستر الله العبد في حين المعصية بإشغالهم عن رؤيته كما يشتغل الجالس عما يفعل جليسه فلا يبصره وهو معه إذا كان مفكراً غائباً عنه بذهنه.

وقد قال النبي ﷺ لبلال: «إني سمعت خشف نعليك في الجنة»[1].

ورأى موسى ليلة الإسراء قائماً في قبره يصلي، ورآه في العالم العلوي عالم السماوات.

فكذلك ملك الموت ﷺ قائم في مقامه ويتجلى في ساعة واحدة لكل من يموت في مشارق الأرض ومغاربها في تلك الساعة.

وكل أحد منهم رأى ملك الموت حين تجليه لهم في مرائي أنفسهم فقبضها ولم يبرح من مقامه فكذلك نفس الإنسان منبسطة في العالم كما تقدم.

فانظر كيف يكون حالنا عند المعاصي، فإنا لله وإنا إليه راجعون على مصيبة العصيان فليس مثلها مصيبة فإذا علمت النفس هذا قبضها الحياء في نفسها من عمار الملكوت وأسرعت إلى التوبة من كل ما سلف لها ببركة/ الحياء، وسارعت إلى محو الزلة وستر [٣٠٥/ أ]

---

(١) أخرجه أحمد في المسند (٢/ ٤٣٩)، ابن عساكر في تهذيب تاريخ دمشق (٣/ ٣١٠).

الفضائح المكشوفة لأهل الملكوت فإن العبد إذا أذنب الذَّنبَ نكت في قلبه نكتة سوداء فيسود بها باطن العبد فينظره[1] أهل الملكوت أسود عاصياً ولو ظهر سواد الذنوب على ظواهرنا لهرب منا وافتضحنا عند الناظرين.

فكيف لا يستحي العبد من الكرام الكاتبين والملائكة علواً وسفلاً وهو مكشوف لهم.

فصــــل

ثم بعد ذلك من المغيبات: الموت، والقبر، والحشر، والميزان، والحساب، وسائر مواطن القيامة.

فإذا فكر العبد في تلك المواطن كلها وخشي الفضيحة في الموت وما بعده استحى فيقول: كيف تكون فضيحتي عند رسل الله إليّ في الموت وفي القبر وعلى رؤوس الخلائق إذا كشف عنا غطاء الدنيا وعلم أني عبد سوء فيزعجه الحياء إلى ستر الفضائح بالتوبة وتحسين الحال بالأعمال الحسنة.

وورد في الخبر: «لكل غادر لواء عند استه يعرف به يوم القيامة»[2] يعرف بسوءاته. وكيف بالفضيحة عند الميزان، والصراط، والحوض، إذا لم يكن له ما يستر سوءاته من خفة وزن، وزلّة، طرد عن الحوض، ودخول نار، وكيف يكون افتضاحه عند سكانها وتعيير أهل النار له، والعرض على الله في عالم الآخرة والقيامة إلى غير ذلك فإذا ذكر العبد ذلك استحيى من كل شيء ظاهراً وباطناً.

جعلنا الله من أهل الحياء وسترنا في الدنيا/ والآخرة آمين، آمين. [٣٠٥/ ب]

وصلى الله على محمد وآله الطيبين الطاهرين وسلم تسليماً.

أما القسم الثالث من الحياء في مقام الإحسان: فاعلم أن ذلك المقام من أعلى المقامات وأشرفها فإذا تذكر العبد مقام ربه وحيطته به وقربه منه وتذكر مخالفاته ومن واجه بها أخذه من الحياء ما يجل وصفه عن الألسن فتذوب النفس وتخنس وتنكسر وتذوب الروح ويعرق الجسد، ويود أن لم يكن شيئاً مذكوراً فيقول الستر بأي شيء[3] أقف بين يديه وبأي

---

(١) في الأصل: فينضره. وهو تصحيف.

(٢) أخرجه البخاري في الصحيح (٤/ ١٢٧)، (٩/ ٣٢)، مسلم في الصحيح (الجهاد ١١، ١٢، ١٣، ١٤، ١٦)، أحمد في المسند (١/ ٤١١)، البيهقي في السنن الكبرى (٨/ ١٦٠)، (٩/ ١٤٢)، الخطيب في تاريخ بغداد (١١/ ٣٨٤)، ابن عدي في الكامل (٢/ ٥٢٧).

(٣) في الأصل: جد. وهو تحريف.

لسان أذكره وبأي بصر أنظر إليه فيرجع طرفه خاسئاً وهو حسير أي كليل قصير عن الامتداد إلى تلك الحضرة العلية وقد واقع ما واقع.

فلولا علمه في هذه الحالة بعظيم حلم الله وكشف ستره وأنه قدر عليه تلك المخالفة لذاب كما يذوب الملح في الماء.

فالحياء يوجب له تبقية الستر الذي هو موضع نظر الله وتصفية القلب والرغبة إليه بالذلة والانكسار في محو الذنوب والعيوب بالعفو والصفح وتظهر جوارحه حياء من أن يقف بجسده في طاعة الله متلوثاً بالذنوب.

هذه حالة الحياء إذا كان العبد ذاكراً لذنوبه.

وأما إن كان ناسياً لها لاشتغاله بالطاعة فينظر في مقام الإحسان[1] إلى عظمة ربه فيستحي من تقصيره/ في عظيم حق الله وأن يراه متزيناً لأحد من خلق الله أو طامعاً في أحد من عباده وأن يذكر نعم الله عليه استحيى من كثرة نعم الله عليه وقلة شكره فيزعجه الحياء عن المبادرة إلى الشكر وإذا نظر في مقام الإحسان إلى بر الله به وإكرامه إياه ورفعته وحبه له وتقريبه إياه وجعله من المؤمنين وتخصيصه له بما خصه من ذكره وكتابه واصطفائه لكلامه واختياره إياه على علم منه بعيوبه وذنوبه كما قال: ﴿وَلَقَدِ ٱخْتَرْنَاهُمْ عَلَىٰ عِلْمٍ عَلَى ٱلْعَالَمِينَ﴾[2] أي على علم بما هم عليه من النقصان والعيوب النفسانية ومواجهة الله له بالستر وإظهار الجميل وإخفاء العيوب على عظيم قدر الله وحقارة النفس فيقول السر بالحياء في ذلك المقام الإحساني لا إله إلا الله الرب على ما هو عليه من جلالة القدر وعظيم الخطر ينزل إليّ من جلالة عظمته إلى سهولة رحمته وكريم لطفه فخاطبني بكلامه وأظهر عليّ أنواع الإكرام. وكلما واجهته بمخالفة وغفلة وتقصير وتثاقل عن مسارعة في طاعته واجهني سبحانه بخلافها وإلقاء الكف عليّ في مقام الحضور، وبصره فيّ نافذ وأنا على ما أنا عليه. [٣٠٦/ أ]

فيأخذه إذ ذاك من الحياء ما لا يعلمه إلاّ الله فحينئذ يخوض/ العبد في بحر المعرفة معرفة النفس فيعرف بها الرب فيعرف ما هو وبين يدي من هو وفي حضرة من هو ومن يخاطب ومن أقبل عليه على حقارته وقلة نفسه فتتجلى له صفة الأمر له بكلامه العزيز الا يعصيه ثم عصاه. [٣٠٦/ ب]

ثم ينجلي له عظيم الحلم حين عصاه فأسبل عليه الستر وأظهر المحاسن وكتم العيوب

---

(١) جاءت في الأصل: الإنسان. وهو تحريف.

(٢) سورة الدخان (الآية: ٣٢).

وأمر بالتوبة ووعد المغفرة ولم يغلق باب الرجوع إليه والاستكانة والإنابة.

وهكذا لا يخوض السر بحراً من المعرفة بوصف[1] من أوصاف الله الكرام إلا فاض منه بحر من الغرق في الغيب عن مشاهدة أوصاف النفس اللئام فيخاطبه كل وصف من أوصاف النفس بلسان الحال والمقال: انظر ما عملت مع ربك وما عمل معك فلكل وصف لسان يخاطب في داخل الجنات في مقابلة كل وصف منها يتجلى له وصف من أوصاف الرحمٰن بضروب الإحسان والستر والامتنان فيزداد حياءً على حياءٍ واستجداء على استجداء وإخباتاً على إخبات.

فيقول الستر يا ليتني كنت نسياً منسياً ولم أكن شيئاً مذكوراً فإن مثلي لا يستأهل ولا يستحق ولا يصلح لمشاهدة هذه الحضرة العلية.

فلا يزال كذلك فيما لا يعلمه إلا الله من أسرار المعرفة ومقامات الحضور حتى تفنى وتغيب أوصاف العبد حين قوبل بها أوصاف الرب.

فلاح له حينئذ مقام آخر من الحياء وليس له اسم يقع عليه أقرب من أن يقال:/ حياء [٣٠٧/ الأدب وهو الحياء من مشاهدة الصفات في مواقف الحضور ومجالس القرب وليس بعده مقام إلاّ الزيادة منه.

والتهاون في أنواع حياء الأدب على ممر تجلي الصفات الغائبات فلكل تجلٍّ صفة حياء تدهش وتؤدب. ولكل حياء ثواب يكرم ويقرب.

مَنَّ الله علينا وعليكم بما مَنَّ به على أوليائه وأصفيائه في الدنيا والآخرة، ويسر، وعافية. آمين. آمين.

وصلى الله على محمد خاتم النبيين وعلى آله وسلم تسليماً كثيراً.

الشعبة الرابعة والخمسون: حسن الخلق

أما كون حسن الخلق من شعب الإيمان فبين جداً إلا أنها من كمال الإيمان وفضائله.

روى أبو هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «أكمل المؤمنين إيماناً أحسنهم خلقاً»[2].

---

(١) جاءت في الأصل: فيوصف. وهو تحريف.

(٢) أخرجه أبو داود في السنن (٤٦٨٢)، أحمد في المسند (٢/ ٢٥٠)، الدارمي في السنن (٢/ ٣٢٣)، الحاكم في المستدرك (١/ ٣)، أبو نعيم في الحلية (٩/ ٢٤٨)، ابن حجر في فتح الباري (١٠/ ٢٥٨)، =

فجعل [حسن][(١)] الخلق كمال الإيمان.

وروى أبو ذر قال: قلت يا رسول الله: أي المؤمنين أفضل؟ قال: «أحسنهم خلقاً».

فجعل حسن الخلق أفضل الإيمان.

وروى أبو أمامة قال: قال رسول الله ﷺ: «أنا زعيم» أو قال: «ضمين ببيت في ربض[(٢)] الجنة لمن ترك المراء وإن كان محقاً، وببيت في وسط الجنة لمن ترك الكذب وإن كان مازحاً، وببيت في أعلى الجنة لمن حسن خلقه».

[٣٠٧/ ب] فجعل حسن الخلق أعلى الإيمان يُعلى إلى/ أعلى الدرجات وشواهده كثيرة.

فأما معنى الخُلق: فإنه اتصاف العبد وتحمله الأوصاف التي أمر الشرع بالاتصاف بها حيلة كانت في العبد أو رياضةً وكسباً.

وقد أكثر الناس القول في معنى حسن الخلق فمن بين مصيب، ومقصر، ومخطىء.

والذي يحققها ويفسرها حديث عائشة رضي الله عنها في الصحيح حين سئلت عن تفسير قوله تعالى: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾[(٣)]. فقالت: كان خلقه القرآن.

أي خلقه بأوصاف الربوبية[(٤)] فإن القرآن هو الجامع لصفات الباري تعالى.

فصل

اعلم أن هذه الشعبة تنقسم إلى ثلاثة أقسام:

قسم منها في مقام الإسلام وعالم الحس.

وقسم في عالم الغيب ومقام الإيمان.

= البخاري في التاريخ (٢/ ١٣٠)، الهيثمي في مجمع الزوائد (٤/ ٣٠٣)، ابن حجر في المطالب (٢٥٤١).

(١) ما بين المعقوفين ساقط من الأصل والسياق يقتضيه.

(٢) جاءت في الأصل: ربط وهو تحريف والحديث أخرجه أبو داود في السنن (٤٨٠٠)، البيهقي في السنن الكبرى (١٠/ ٢٤٩)، الطبراني في المعجم الكبير (٨/ ١١٧)، المنذري في الترغيب والترهيب (١/ ١٣١)، الهيثمي في مجمع الزوائد (١/ ١٥٧)، ابن حجر في فتح الباري (١٣/ ١٨١).

(٣) سورة القلم (الآية: ٤).

(٤) يريد أن الباري سبحانه أعطاه من صفات الرحمة والرأفة والكرم والجود والبر والإحسان وما إلى ذلك ما يليق برتبة النبوة.

وقسم في مقام المشاهدة والإحسان.

فأما القسم الأول في مقام الإسلام: فإن العبد لا يخلو من ثلاثة أشياء وهي: الأوامر، والنواهي، ومعاشرة الخلق.

وتحتاج في ذلك كله إلى خلق حسن.

فأما قسم المنهيات: فيحتاج إلى خلق واحد وصفة واحدة تجمع له كل فضيلة وهي العفة والصيانة.

فإذا كان العبد متخلقاً بالعفة عن الرذيلة فقد حسن خلقه وعظم قدره وصان دينه ونفسه وانتفت عنه أخلاق الرذالة والسفالة كلها فكان نزيه النفس بالعفة.

وأما قسم الأوامر: / فالمأمورات يحتاج فيها إلى[1] خلق واحد وهو الإقدام على فعل [٣٠٨/ أ] الطاعات دون غلو ولا إفراط فلا يضيع من المفروضات شيئاً على قدر طاقته.

فإن ذلك من شجاعة الباطن وقوته، وضده الجبن والضعف.

فإذا كان العبد شجاع الباطن قوي العزم لم تكبر عليه أمور الطاعة وانتفى عنه صفات الجبن والكسل والتفريط وكل صفة مذمومة في هذا الباب قال الله عز وجل شاهداً على هذين الخلقين اللذين هما الصيانة والإقدام: ﴿يَآ أَيُّهَا ٱلَّذِينَ آمَنُواْ قُوٓاْ أَنفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَاراً﴾[2]. أي عفوها وصونوها عن كل قبيح يوجب الحري بدخول النار.

وقال: ﴿ٱلَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ﴾[3]. قيل في التفسير: العزائم، فإن احتاج العبد إلى رخصة في موضعها أخذها فإن ذلك أيضاً من العزم فإن كل شيء إذا كان في موضعه حسن.

فصـــل

وأما قسم معاشرة الخلق: فيحتاج إلى أربعة أخلاق تجمع الفضائل كلها في هذا الباب مع الخلق وهي: الحلم، والبسط، والعدل، والإحسان.

فبالحلم: تحتمل الأذى والجفاء وتكظم الغيظ وتداري الناس وتكون متأدباً وينفى عنه الطيش والحدة وغير ذلك من أضداد[4] الحلم.

---

(١) في الأصل: إلاّ. وهو تحريف.
(٢) سورة التحريم (الآية: ٦).
(٣) سورة الزمر (الآية: ١٨).
(٤) جاءت في الأصل: اضطداد. وهو تحريف.

[٣٠٨/ ب] وبالبسط: يكون إلفاً مألوفاً مفشياً للسلام واسع الصدر قليل الغل والحقد متواضعاً/ ملاعباً وممازحاً بالحق للأهل والإخوان غير متكبر ولا مُعْجَبٍ إلى غير ذلك من أضداد البسط المحمود.

وبالعدل: يستقيم حاله فينصف من نفسه ويكون منصفاً، والإنصاف من النفس من أعظم الأخلاق الإيمانية ويأمر غيره بالإنصاف إذا رأى عنده انحرافاً أو غشاً، وينفي عنه بذلك صفات الحيل والمداهنة والخديعة والمكر وبخس الحقوق وأضداد العدل والنَّصَفِ كلها.

فإن الملق في الدين معصية والغضب في الله محمود وهو من العدل لأنه توفية لحق الله.

وكذلك النصح من الدين ولا بد فيه من قوة وشدة في الله فإن رسول الله ﷺ كان لا يغضب لنفسه فإذا انتهكت حرمة من حرم الله لم يقم لغضبه شيء وهو أحسن خلق الله خلقاً.

فهذا الغضب الذي هو لله والشدة جمال على الوجه ونور في القلب.

والغضب للنفس بغير الحق ظلمة في القلب وقبح وجمرة تتوقد في الوجه والجسد.

وأما الإحسان: فبه تملك الكل فيحسن معاشرة عياله وأهله في الإنفاق وغير ذلك، ويحسن إلى ملك اليمين بالرفق مع البهائم والحيوان وبالإحسان يعفو ويصفح ويكرم من أكرمه فإن زاد الإحسان فوصل من قطعه، وأعطى من حرمه، وعفى عمن ظلمه فقد عظم [٣٠٩/ أ] حظه وكان ممن قال الله: ﴿وَمَا يُلَقَّاهَآ إِلاَّ ٱلَّذِينَ/ صَبَرُواْ وَمَا يُلَقَّاهَآ إِلاَّ ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ﴾[١].

وممن قال الله في هذه الآية: ﴿خُذِ ٱلْعَفْوَ وَأْمُرْ بِٱلْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْجَاهِلِينَ﴾[٢]. مع قوله: ﴿ٱدْفَعْ بِٱلَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾[٣]. الأربع كلمات تجمعن محاسن الأخلاق كلها في أمور الدنيا والدين وقد ورد في تفضيلها: «أن تصل من قطعك وتعطي من حرمك وتعفو عن من ظلمك».

ففي قوله: ﴿خُذِ ٱلْعَفْوَ وَأْمُرْ بِٱلْعُرْفِ﴾[٢] معنى البسط كله الذي هو السمح والتنزل إلى كل أحد في أخلاقه ومعاشرته بما يليق به أي: خذ العفو من أخلاق الناس وأسقط ما وراء ذلك، وفي قوله: ﴿وَأْمُرْ بِٱلْعُرْفِ﴾[٢] هو العدل وإنصاف كل أحد من حقه لأن الأمر بالمعروف والعرف المعتاد يقتضي توفية الحقوق دنيا وديناً ﴿وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْجَاهِلِينَ﴾[٢] يقتضي الحلم والعفو والصفح وما في معناه. وفي قوله: ﴿ٱدْفَعْ بِٱلَّتِي هِيَ أَحْسَنُ ٱلسَّيِّئَةَ﴾[٣]

(١) سورة فصلت (الآية: ٣٥).
(٢) سورة الأعراف (الآية: ١٩٩).
(٣) سورة المؤمنون (الآية: ٩٦).

يقتضي الإحسان والمداراة ومقابلة الشيء بالإحسان إلى ما في معنى ذلك فمن استعمل هذه الخصال الستة في ظاهره فقد جمع الأخلاق الحسنى وهي: العفة[1]، والإقدام، والحلم، والبسط، والعدل، والإحسان.

حسن الله خُلقنا كما حسن خَلقنا وعاملنا وإياكم في الدنيا والآخرة بمقتضى سمحه وعفوه وإحسانه. آمين. آمين.

وصلى الله على محمد وآله وسلم.

أما المقام الثاني من/ حسن الخلق في مقام الإيمان: فإن أول ما يقع عليه بصر الإيمان [٣٠٩/ ب] من المغيبات نفس الإنسان فينظر فإن كان طبعه الله بغريزة حسنة غرزها فيه فليشكر الله وليسع بالرياضة في تتميمها وتكميلها فإنها ليست تكمل إلا بالشرع.

قال النبي ﷺ: «بعثت لأتمم مكارم الأخلاق»[2].

فالشرع مراتب وفيه ينظر وما كان فيه من خلق سيىء أخذ في الرياضة لزوالها واكتساب ضدها وقد ندب الشرع إلى رياضة النفس واكتساب الأخلاق الحسنة والرضاع بغير الطباع.

فصل

فإن قلت فإن النفس حَرُونة مجبولة على الخلق السيىء فكيف يحسن أخلاقها وترتاض؟ فاعلم أن المؤمنات كلها الغيبيات التي يقع عليها بصر الإيمان إذا نظر الإيمان إليها بصدق كانت له رائضة ومؤدبة ومعينة أحسن رياضة وأعظم تأديب.

فأول ذلك الملائكة والشياطين فيجعلهما مرآتين في الغيب فينظر بإيمانه وعقله إلى أخلاق الشياطين من الإبانة والنفور عن الحق والاستكبار والعجب والعناد والجرأة في الباطن والتصميم عليه والجرم والحدة والحيلة والمكر والخديعة والخبث والغش والازدراء بالأقدار الرفيعة، وغير ذلك من أخلاق الشياطين المهلكة الرذيلة الدنيئة/ والتي يأمر بها ويحض [٣١٠/ أ] عليها من حقد وحسد وغل وبخل وكفر نعمة وغير ذلك مما يطول ذكره.

فيجتنبها ولا يقبلها ويأخذ في قلعها من باطنه.

---

(١) جاءت العبارة في الأصل على النحو التالي: الأخلاق الحسنة وهي الا العفة. فحذفت الزيادة لتوضيح المعنى.

(٢) أخرجه مالك في الموطأ (٩٠٤)، القاضي عياض في الشفا (١/ ٢٠٧)، والسيوطي في الدرر المنتثرة في الأحاديث المشتهرة (٥٨).

ثم ينظر إلى المرآة الأخرى وهي ذوات الملائكة وهم على نوعين: ملائكة رحمة، وملائكة عذاب.

ويستمع إلى ما تأمر به من أخلاقها الكريمة من التواضع والانقياد للحق والنفور عن الباطل والعفة والكرم والنزاهة عن الرذائل والحياء والبر للرب وذوي الأقدار والاستغفار للخلق والخدمة لهم والعطف عليهم والدعوة لهم إلى الله والغلظة في الله والشدة على إبليس وجنوده والتعزز على الطغاة والجبابرة والتكبر عليهم بالحق إلى غير ذلك من أخلاقهم القاصرة وصفاتهم القاهرة.

وبذلك أمر النبي ﷺ فقيل له: ﴿جَاهِدِ ٱلْكُفَّارَ وَٱلْمُنَافِقِينَ وَٱغْلُظْ عَلَيْهِمْ﴾[١]. وقال في أصحابه: ﴿أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ﴾[٢]. [وقال][٣]: ﴿أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلْكَافِرِينَ﴾[٤].

فيتخلق بذلك كله وقد تقدم ذكر غضبه لله في مقام الإسلام فليكن كذلك أيضاً على إبليس وجنوده. وصفات النفس المهلكة باطناً حتى يستقيم حاله وأمره ظاهراً وباطناً.

واعلم أن التماوت والتذلل في غير موضعه من أسوأ الخلق وهو أنوثية لا سيما من أخلاق الرجال المتصفين بأخلاق/ الكمال. [٣/ ب]

وهاهنا غلط كثير من الناس فظنوا أن الملق والمداهنة من حسن الخلق وعدوا ذلك مداراة.

وليس كذلك فإن المداراة ما سلم فيها الدين والمداهنة والملق ما سلمت فيه الدنيا ولم يسلم ونقص فيه الدين.

وكذلك انعكست عليهم أشياء كثيرة فرأوا المنكر معروفاً والمعروف منكراً وداهنوا عليه نفوسهم وجوارحهم ورضوا به.

ومعاذ الله أن يكون هذا حسن خلق وجبريل عليه السلام هو عدو اليهود من أجل أنه يأتي بالرحمة ويأتي في العذاب في مواطنها وهو أحب الملائكة إلى أهل الحق.

فإذا نظر العبد في مقام الإيمان إلى أوصاف الملائكة والشياطين فيتّصف بالمحمود ويفر عن المذموم كان كاملاً[٥] في حسن الخلق.

(١) سورة التحريم (الآية: ٩).
(٢) سورة الفتح (الآية: ٢٩).
(٣) ما بين المعقوفين زيادة لإيضاح المعنى.
(٤) سورة المائدة (الآية: ٥٤).
(٥) في الأصل: كلاماً. وهو تحريف.

ثم إن المؤمنات كلها في عالم الغيب مُعينة له ورايضة غاية الرياضة فإن أقرب موجود له بعد الملائكة من الغيب حالة الموت فإذا تذكر الموت هدم صفات البهائم وكسرها من نفسه ونقص حرصه الكلي وجرأته على اقتحام المهالك التي هي صفات السباع المؤذية وانكسرت حدة غضبه على الخلق بغير حق وذلك من أخلاق الكلاب وزال بذكر الموت والآخرة عنه الغفلة والبلادة والسهو والذهول الذي هو أخلاق الحمير والبهائم.

وكذلك/ إذا نظر ببصر إيمانه إلى جميع المؤمنات في القيامة وأهوالها ومواطنها، [٣١١/ أ] والجنة، والنار، والميزان، والصراط، وعظائمها كسر ذلك حدته وكبره وأورثه أخلاق الخضوع والخشوع والرحمة وارتفاع الهمة عن الخسيس الفاني ولا يرى ببصر إيمانه شيئاً غائباً إلاّ كان له رابطاً أحسن رياضة ومكسباً له الأخلاق الحسنة ومزيلاً عنه أخلاق السهو المهلكة. مَنَّ الله علينا وعليكم بذلك في عافية. آمين. آمين.

وصلى الله على محمد وآله.

فصـــل

وأما القسم الثالث من حسن الخلق في مقام الإحسان[1]: فهناك العجب العجاب ومعناه يرجع إلى الإحصاء والتعبد بمعاني أسماء الله الحسنى كما ورد في الخبر: «إن لله تسعة وتسعين اسماً مائة[2] إلاّ واحداً الله وتر يحب الوتر من أحصاها دخل الجنة».

ومعنى الإحصاء لها الحفظ لها والاتصاف بالقيام بمعانيها[3] والتعبد بها والتخلق بمعانيها على حسب ما أمر القرآن به من التعبد ونهى عنه من الخروج عن التعبد بها.

فإن القرآن هو الجامع للأسماء والصفات وهو معنى الخبر الذي روت عائشة رضي الله عنها في قوله: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾[4]. قالت: كان خلقه القرآن.

فأخلاق النبي ﷺ من القرآن مأخوذة فكان ينظر إلى أوصاف باريه وأخلاقه فيقتدي بها ويتعبد له بها على حسب ما أمر.

---

(١) جاءت في الأصل: الأجساد. وهو تحريف.

(٢) في الأصل: اسماً من مائة فحذفت الزائد من السياق والحديث أخرجه البخاري في الصحيح (٣/ ٢٥٩)، (٩/ ١٤٥)، مسلم في الصحيح (الذكر والدعاء ٦)، الترمذي في الجامع الصحيح (٣٥٠٦)، ابن ماجة في السنن (٣٨٦٠)، أحمد في المسند (٢/ ٢٥٨)، الحاكم في المستدرك (١/ ١٦)، أبو نعيم في الحلية (٣/ ١٢٢).

(٣) جاءت في الأصل: (وبمعانيها) فحذفت الزيادة.

(٤) سورة القلم (الآية: ٤).

[٣١١/ ب] وقد روي عن عائشة عنه عليه الصلاة/ والسلام في ذلك خبر روت عنه أنه قال: «تخلقوا بأخلاق الرجاء في الله».

فإذا نظر العبد في مقام الإحسان إلى مقام الباري تعالى بالموجودات وصنيعه معهم وكيف فاضت معاني الأسماء والصفات في جميع الأشياء وتعبد بمعانيها واتصف بما أمره به من ذلك كان كماله وكمال إيمانه على قدر تخلقه واتصافه وتعبده بها.

قال الله عز وجل: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ فَٱدْعُوهُ بِهَا﴾[١].

والدعاء هو العبادة بالأقوال والأفعال والأوصاف.

وأذكر لك معنى مختصراً من معاني ذلك إن شاء الله تعالى لتستدل به على غيره فإن هذا بحر لا يدرك غوره ولا يشرح في أسفار عدة بل المخلوقات كلها في الدنيا والآخرة متلونة متعددة بمعاني الأسماء والصفات لا ينقضي ذلك ولا يتم أبد الآبدين ودهر الداهرين.

وورد في الخبر: «إن الله تعالى خلق مائة رحمة كل رحمة منها طباق السماوات والأرض»[٢].. الحديث فقيل إن معناها خلق عن معنى اسمه الرحمٰن الرحيم مائة رحمة وكما خلق عن معنى اسمه الرحمٰن أنواع الرحمة التي ملأت الوجود كله فكذلك خلق بمعنى اسمه الرحيم أنواع العلوم والمعارف التي لا تحصى ولا تنقضي على ممر الآباد والدهور.

[٣١٢/ أ] وكذلك الحكم عن الحكيم، وكذلك الحلم عن الحليم، وكذلك الرأفة عن الرؤوف/ والعزة عن العزيز، والعفو عن العفو، والغفران عن الغفور، والكرم عن الكريم، والجود عن الجواد، والنور والبيان عن النور المبين، والكلام والمنطق عن المتكلم، وكذلك كل اسم وصفة.

فإذا فهمت هذا علمت أن من أسمائه المؤمن فسماك مؤمناً بل فرض عليك الاتصاف بالإيمان وأوصافه لتكون مؤمناً حقاً، وعذب عذاب الأبد من أبى أن يتصف بذلك.

وكذلك اسمه السلام فندبك إلى أن تكون مسلماً سالم الصدر سالم الجانب من كل قبيح فتسلم ويسلم منك كل شيء ويدخلك دار السلام مخلداً في السلامة والأمن.

وكذلك من أسمائه الرحمٰن الرحيم فأمرك أن تكون رحيماً.

---

(١) سورة الأعراف (الآية: ١٨٠).

(٢) أخرجه أحمد في المسند (٤/ ٣١٢)، الحاكم في المستدرك (١/ ٥٦)، الطبراني في المعجم الكبير (٦/ ٣٠٧)، الهيثمي في مجمع الزوائد (١٠/ ٢١٤)، ابن أبي حاتم في العلل (٢١٤٩)، ابن حجر في فتح الباري (١٠/ ٤٣٢)، السيوطي في الدر المنثور (٣/ ١٣٠).

وكذلك رؤوفاً وكريماً وجواداً ومحسناً وعفواً غفوراً وعزيزاً به وغنياً به وكبير القدر به ومتكبراً على أعدائه.

فإن اعترضك شبهة في بعض الأسماء فاسأل أهل العلم بها فإن هذا باب لا ينخرم أبداً ولا يعترض عليه إلاّ من جهله.

مثال ذلك أن من أسمائه سبحانه خادع المنافقين قال الله عز وجل: ﴿يُخَادِعُونَ ٱللَّهَ وَهُوَ خَادِعُهُمْ﴾(١).

فإن قلت: كيف الاتصاف بهذا الاسم؟

فاعلم أن الحرب خدعة فالخداع مع الأعداء في مواطنه من أحسن الأخلاق والأوصاف فاستعن/ بالله يُعِنْك. [٣١٢/ ب]

وارجع إلى قول عائشة رضي الله عنها: كان خلقه القرآن. يعني رسول الله ﷺ.

وانظر إلى كل لفظة من القرآن فإنها تدل على وصف واسم من أسماء الله ويأمر بالتعبد بها خبراً كان أو أمراً. الا ترى إلى قوله تعالى: ﴿إِنَّ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ وَأَوْلَادِكُمْ عَدُوًّا لَّكُمْ فَٱحْذَرُوهُمْ﴾(٢) فأمرك بأن تتخلق بصفة الكيس حتى لا تخدع فتكون حذراً.

وقال: ﴿وَإِن تَعْفُوا۟﴾(٣) فأمرك بخلق العفو: ﴿وَتَصْفَحُوا۟﴾(٣) فأمرك بالتخلق بالصفح عن الزلل ﴿وَتَغْفِرُوا۟﴾(٣) فأمرك بالتخلق بصفة إسقاط الحقوق، والغفران والستر وترك الاستقصاء. ثم نبهك أن ذلك من أوصافه فقال: ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾(٣). ثم قال: ﴿إِنَّمَآ أَمْوَٰلُكُمْ وَأَوْلَٰدُكُمْ فِتْنَةٌ﴾(٣) فنبهك على أن تكون متخلقاً بصفة الفطنة والذكاء ولا تفتتن بالفتنة فتقطعك عما فطنك إليه وهو قوله: ﴿وَٱللَّهُ عِندَهُۥٓ أَجْرٌ عَظِيمٌ﴾(٣) ثم نبّه وأمر بصفة العفة عن القبيح والاتصاف بالكرم الذي هو التقوى فقال: ﴿فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ مَا ٱسْتَطَعْتُمْ﴾(٤) وحذر من الانبتات بقوله: ﴿مَا ٱسْتَطَعْتُمْ﴾(٤) فإن المنبت لا ظهراً أبقى ولا أرضاً قطع.

ثم أمر العبد أن لا يكون أصم الباطن فإن ذلك من أخلاق البهائم والموات فقال: ﴿وَٱسْمَعُوا۟﴾(٤)، ثم أمر بأخلاق الانقياد والتواضع للحق فقال:/ ﴿وَأَطِيعُوا۟﴾(٤) ثم أمر [٣١٣/ أ] بالجود والكرم، فقال: ﴿وَأَنفِقُوا۟ خَيْرًا لِّأَنفُسِكُمْ﴾(٤) ثم نهى عن أخلاق الشح والبخل فقال:

(١) سورة النساء (الآية: ١٤٢).
(٢) سورة التغابن (الآية: ١٤).
(٣) سورة التغابن (الآية: ١٤، ١٥).
(٤) سورة التغابن (الآية: ١٦).

﴿وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾[(١)].

وهكذا كل آية وكلمة في القرآن لمن تدبرها أي نوع كانت.

مثل قوله: ﴿يُوصِيكُمُ ٱللَّهُ فِيٓ أَوْلَٰدِكُمْ لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ ٱلْأُنثَيَيْنِ﴾[(٢)] إلى آخرها.

أمر الله فيها بالعدل وهو صفة من صفاته، ونهى عن الجور وبخس الحقوق الذي هو الظلم من أوصافه.

وكذلك قوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِذَا طَلَّقْتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَطَلِّقُوهُنَّ لِعِدَّتِهِنَّ﴾[(٣)] إلى آخر المعاني من السورة. أمر بالأخلاق الحسنة من التثبت ومن الإبقاء وترك الإضرار وغير ذلك.

وإنما نبهتك على هذه الآيات لأن معاني الأخلاق فيها أخفى من غيرها وهي في غيرها أبين كي لا تظن أن في القرآن كلمة إلاّ وفيها أمر بخلق حسن وأوصاف لا تتناهى فإن القرآن صفة من صفات الله وفيه شرح لنا معاني أسمائه وصفاته القائمة بالموجودات كلها.

فعلم الأسماء والصفات أعظم العلوم وأرقها وأوسعها وليس يمكن الكلام في هذا المختصر على ذلك.

[٣١٣/ ب] فاستعن بالله يعنك، واستهده يهدك، وليس في/ الأسماء ما لم يؤمر العبد بالاتصاف بمعانيه إلا اسم الله جل جلاله. فإنه لم يوجد عن معناه ألوهية أمر بالاتصاف بها كما أوجد عن الرحمٰن الرحمة وعن العليم العلم، وغير ذلك.

ومن أحصى من علم الأسماء شيئاً فقد دخل الجنة بذوق معانيها في الدنيا على قدر إحصائه لها بل الجنة نبذة من معاني الأسماء والصفات ألا ترى إلى قول النبي ﷺ: «من أحصاها دخل الجنة»[(٤)].

تدخلها حالاً بالمعنى ومآلاً بالحقيقة إن شاء الله تعالى.

ولا يدخل أحد الجنة حتى يحصيها ويتخلق بمعانيها مثال ذلك أن النبي ﷺ قال: «لا يدخل الجنة [من كان في قلبه][(٥)] مثقال ذرة من كبر».

---

(١) سورة التغابن (الآية: ١٦).

(٢) سورة النساء (الآية: ١١). (٣) سورة الطلاق (الآية: ١).

(٤) جزء من حديث صحيح رواه البخاري في الصحيح (٣/ ٢٥٩)، (٩/ ١٤٥)، مسلم في الصحيح (الذكر والدعاء/ ٦).

(٥) ما بين المعقوفين ساقط من الأصل والحديث عند مسلم في الصحيح (الإيمان ب ٣٩ رقم ١٤٧، ١٤٩)، الترمذي في الجامع الصحيح (١٩٨٨، ١٩٩٩)، أبي داود في السنن (٤٠٩١)، ابن ماجة في السنن (٥٩، ٤١٧٣)، ابن حجر في الفتح (١٠/ ٢٥٩، ٢٦٠، ٤٩٠).

فمن كان من أهل الكبر وهو من أهل الإسلام ودخل النار لأجل كبره فقد ذل في نفسه وتصاغر وتواضع وافتقر للّه الكبير ذلاً وتصاغراً وافتقاراً لا يعلم قدره إلا الله لأن ذلك فاته في الدنيا. فإذا ذل غاية الذل للعزيز وتواضع للكبير أخرج منها ودخل الجنة. فافهم.

فليس يدخلها إلاّ حتى يتخلق بالأخلاق الحسنة.

فكذلك آدم عليه السلام في قوله: ﴿وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا﴾[1] المخلوقة كان في أحسن صورة وخلق فقال بعد الإحصاء:/ ﴿وَقُلْنَا يَا آدَمُ اسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ﴾[2] ثم [٣١٤/أ] لما خدعه الشيطان ولم يحفظ الوصاة ونسي العهد كان ذلك سقوطاً عن التخلق باسم الحافظ والاتصاف بصفة الحفظ للوصية والأمر عن التخلق بأوصاف الذاكر الذي لا ينسى فأطاع عدوه فخرج بذلك من الجنة ثم رجع إلى الاتصاف باسم التوّاب فتاب الله عليه.

وبقي حافظاً للوصية وذاكراً للعهد فلم يقدر إبليس عليه بعدها بشيء.

فمن أحصى الأسماء وجد أذواق الجنة وأشرف على معاني درجاتها فإنها مائة درجة على عدد الرحمة التي عن اسمه الرحمٰن الرحيم، وعلى معاني الأسماء، والصفات. وهذا علم غريب مخصوص بأهله.

فهمنا الله وإياكم ووفقنا لما يحبه ويرضاه.

فصــــل

واعلم أن أهل الجنة إذا دخلوها وكملت أخلاقهم وأوصافهم وتجلى لهم ربهم بمعاني الأسماء الحسنى والصفات العلى وتخلقوا بمعانيها وهي فعالة في الوجود أبداً وفي ذواتهم فيتصفون بمعانيها المخلوقة ويترقون في الاتصاف والتخلق أبداً فهم يطلبون الانتهاء في الكمال من ذلك لأن أوصافهم مخلوقة قاصرة عن أوصاف الباري القديمة[3] فهم أبداً طالبون الزيادة ومتصفون بالكمال حالاً بعد حال ووقتاً بعد وقت/ والباري يخلع عليهم ويلبسهم [٣١٤/ ب] خلع الحسن والكمال والجمال والإنعام والإفضال والإكرام والإجلال والإعزاز، وسائر معاني الأسماء والصفات أبد الآبدين ودهر الداهرين فمن اشتهى لبسة لبسها ومن تمنى صورة تقلدها ودخلها.

وورد في الخبر: «إن في الجنة سوقاً ما فيها بيع ولا شراء إلا الصور من الرجال

(١) سورة البقرة (الآية: ٣١).
(٢) سورة البقرة (الآية: ٣٥).
(٣) كذا قال وأرى أن لو كان قال الأزلية لكان أولى، والله أعلم.

والنساء فإذا اشتهى الرجل صورة دخل فيها».

فتلك الصور من اتصف بها يدرك بذلك ما لم يدرك من الزيادة والترقي أبد الآبدين.

لا حرمنا الله وإياكم دخول الجنة وجعلنا الله وإياكم من أهلها في يسر وعافية بمنه وكرمه. آمين. آمين.

وصلى الله على محمد وآله.

الشعبة الخامسة والخمسون والسادسة والخمسون: الإحسان

وهو على مقامين فلذلك صار شعبتين لأن النبي ﷺ قد جعله شيئين في حديث جبريل عليه السلام حين سأله عن الإحسان فقال: «أن تعبد الله كأنك تراه». فهذا مقام.

«فإن لم تكن تراه فإنه يراك»[1]. هذا مقام آخر.

فأما كونه من الإيمان فبين لأنه في نفسه تصديق بالنظر إلى الله في الحال أو تصديق بأن الله ينظر إليه إلا أنه ثمرة الإيمان وأعلاه وخالصه فوقع عليه اسم الإحسان/ كما أن الإسلام فروع الإيمان وهو إيمان لكن وقع عليه اسم الإسلام. فافهم. [٣١/ أ]

فصل

نتكلم أولاً على الشعبة الأدنى إلينا وهو علمنا أن الله يرانا:

فنقول: هي على ثلاثة أقسام:

قسم في مقام الإسلام.
وقسم في مقام الإيمان.
وقسم في مقام الإحسان نفسه.

فأما القسم الأول في مقام الإسلام ظاهراً: فإن الأمور في عالم الحس ثلاثة:

معاصي، وطاعات، ومباحات المعايش.

فأما قسم المعاصي على اختلاف أنواعها: فإن العبد مأمور بأن يعلم أن الله يراه فإذا هَمَّ بمعصية وعلم أن الله يراه ويبصره على أي حالة كان وأنه ﴿يَعْلَمُ خَآئِنَةَ ٱلْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِي

---

(١) بعض حديث أخرجه البخاري في الصحيح (٦/ ١٤٤)، البيهقي في السنن الكبرى (١٠/ ٢٠٣)، ابن خزيمة في الصحيح (٢٢٤٤)، ابن حجر في فتح الباري (٨/ ٥١٣)، أحمد في المسند (١/ ٣١٩).

﴿ٱلصُّدُورُ﴾(١) كف عن المعصية ورجع عنها، وإنما الإنسان يذهل عن نظر الله إليه فينسى حين المعصية أنه يراه.

أو يكون جاهلاً فيظن أن الله بعيد منه بكونه على العرش وهو في الأرض ولا يتذكر ويعلم أنه يحرك جوارحه حين العمل المعمول فينسى ذلك.

أو يجهل فيقع في المعصية ولو علم وتحقق أن والده أو رجلاً كبيراً يراه حين المعصية لكف عنها بحصول البرهان الإحساني عنده وهو البرهان الذي أوتيه ورآه يوسف عليه السلام في مراودة امرأة العزيز إياه، وهذا البرهان كما قيل فيه من الأقوال / فإلى هذا المعنى يرجع [٣١٥/ ب] وهو الحقيقة فيه وإن الله يقول: ﴿وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِ وَهَمَّ بِهَا لَوْلَآ أَن رَّءَا بُرْهَانَ رَبِّهِ﴾(٢).

فأضاف البرهان إلى الرب سبحانه.

والبرهان هو قيام الدليل الواضح القطعي(٣) بأن الله موجود(٤) حق وأنه ناظر إلى كل شيء ومصرف لكل شيء ومحركه ومسكنه.

فمن أراه الله هذا البرهان عند جميع المنهيات صرف عنه السوء والفحشاء في جميع المنكرات كما قال تعالى في الآية: ﴿كَذَٰلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ ٱلسُّوٓءَ وَٱلْفَحْشَآءَ﴾(٢).

ونقصانه من المعاصي حين العصيان رحمة عظيمة به لا له أو عصى على تجرؤه وهتك حرمة نظرة الله إليه وهو يعلم ويرى أنه ينظر إليه لكان عصيانه بقلة المبالاة وهتك حرمة نظرة كفراً أشد من كل عصيان في الوجود.

قال النبي ﷺ: «لا يزني الزاني حين يزني وهو مؤمن»(٥).

يعني أنه مؤمن بنظر الله إليه أو نظره إلى الله.

ولذلك ترى العاصي إذا تاب من المعصية وتذكر معاصيه وذكر أن الله كان يراه في حين عصيانه أخزي واستحيى من قلة حيائه من نظر الله إليه.

---

(١) سورة غافر (الآية: ١٩).
(٢) سورة يوسف (الآية: ٢٤).
(٣) في الأصل: العظمى. وهو تحريف.
(٤) كذا بالأصل والأولى أن يقول: واجد. والله أعلم.
(٥) أخرجه البخاري في الصحيح (١٧٨/٣)، (١٣٦/٧)، (١٩٥/٨)، مسلم في الصحيح (الإيمان ب ٢٤ رقم ١٠٠، ١٠٥)، أبو داود في السنن (٤٦٨٩)، الترمذي في الجامع الصحيح (٢٦٢٥)، النسائي في المجتبى (٦٤١٨)، ابن ماجة في السنن (٣٩٣٦).

فصل

[٣١٦/ أ] **وأما قسم الطاعات في هذا المقام الإسلامي**: فإن الطاعات كلها/ يستغربها الإنسان والإحسان واجب فيها للحديث الوارد فيها: «الإحسان أن تعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك»[١].

ولا بد من علمها[٢] والإخلاص فيها، فإذا علم العبد أن الله موجود[٣] حق وتبرهن عنده أنه يراه عبده لا محالة إلاّ أن يكون زنديقاً جاحداً لا يقر برب.

فإن كان مقرًا بوجوده فترك العبادة فإنما تركها تهاوناً لنقصان البرهان الإحساني عنده.

هذا حال المضيعين للفرائض بجهلهم بقدر الأمر وقدر أمره لأنه لا يعرف قدره وقدر آمره إلا من قد شم روائح الإحسان البرهانية والدلائل العقلية القطعية.

فإذا علم قدر الآمر وقدر نَظَرِه إليه سارع إلى آمره على قدر طاقته فيعترضه في العبادة شوائب الرياء والعجب والتزين والآفات المفسدة للعمل فيحتاج حينئذ في العبادة إلى الإخلاص، والإخلاص محتاج إلى مقام الإحسان لا غنى له عنه لأنه إذا علم أن الله يراه في حين تزينه لعبد مثله وهو وإياه[٤] فقير لا يملك شيئاً استنكف من ذلك وأخلص العبادة لربه فجعل سمع الله مكان سمع المخلوقين وبصره مكان بصرهم فصار يتزين لمولاه الذي ينظر إليه ويراه، والذي كل شيء في جنبه كلا شيء.

[٣١٦/ ب] فإن غلبه القضاء/ وزل عن مقام الإحسان ووقع في مشكل يبطل العبادة سارع إلى الاستغفار والرجوع إلى مقام الإحسان.

هكذا دأبه في جميع المأمورات فيسلم من السمعة والرياء للمخلوقين ويسلم من العجب وغيره بمعرفته بقدر مولاه واستحقاره كل عبادة في حقه وعظيم قدره سبحانه.

فصل

أما القسم الثالث من المباحات والكسبيات: فإن ذلك محل الغفلة والسهو عن هذا

(١) سبق تخرج الحديث في أول الشعبة.
(٢) في الأصل: عملها. وهو تحريف.
(٣) سبق أن علقت على ذلك القول بأن الواجد أولى. والله أعلم.
(٤) جاءت العبارة في الأصل: مثله ومن إياه. فضبط السياق وغيرت وأضفت ما يلزم ليكون المعنى أكثر وضوحاً من ذي قبل.

المقام الإحساني فإذا تذكر العبد أن الله يراه في تصرفه وأنه أمره باتباعه[1] والإقبال عليه وقلة الإعراض عنه استحيى أن يراه مكباً على الخسيس الفاني مستغرقاً في الاشتغال به عن ذكره وعن الإقبال على ما يقطع عنه وعن الآخرة فيدخل في الأشياء وقلبه مقبل بالذكر على مولاه متذكراً أن الله يراه كأن يفرغ قلبه من أمور الدنيا على قدر نظره إلى نظر مولاه إليه فيقبضه ذلك عن الاستكثار الملهي والاشتغال والاسترسال بالكلية في أمور الدنيا فيكون متكسباً بنية صالحة وهي العون على طاعة الله وذكره إذ لا غنى له عن معيشة فإن الله أمره أن يمشي في أرضه ويأكل من رزقه.

فيمشي بالله ويكسب للّه ويتحرك للّه ويسكن للّه لأن نيته في اكتسابه الاستعانة على/ [٣١٧/ أ] الذي تحقق وتبرهن عنده أنه يراه وأنه المحرك له في جميع حالاته من اكتساب أو غير اكتساب.

فقد عم الإحسان جميع الأوامر الحسية الظاهرة.

ومن أجل قلة هذه الشعبة في الجم الغفير كان التكاثر والطغيان والإقبال على الدنيا والتهاون بالأوامر والنواهي.

عصمنا الله وإياكم بمنه وتوفيقه في كل حال. آمين. آمين.

وصلى الله على محمد وآله وسلم تسليماً كثيراً.

أما المقام الثاني من الإحسان في عالم الغيب ومقام الإيمان: فإن العبد إذا فكر في مواطن الآخرة من موت، وقبر، وحشر، وعرض، وحساب، وغير ذلك، وعلم أنه معروض على الله في ذلك العالم ومواطنه تهيأ لذلك العرض كما ورد في الخبر: تهيّأوا للعرض الأكبر. وهو العرض على الله، فيتزين للآخرة بزينة أهل الآخرة ما استطاع ويتوب من الفاضحات عند الله ويرغب في كل وقت إلى سيده ومولاه أن لا يهتك ستره في تلك المواطن، ولا يكشف له فيها عيباً لا سيما إذا قرأت النفس: ﴿إِذَا ٱلشَّمْسُ كُوِّرَتْ﴾[2] إلى قوله: ﴿عَلِمَتْ نَفْسٌ مَّآ أَحْضَرَتْ﴾[3]. اي ما أحضرت بما يصلح للعرض على الله جل جلاله. وما أشبهها من السور والآيات فيعلم حقيقاً أنها من المثيبات.

فإذا كان ذاكراً للعرض على الله في مواطن/ الآخرة أسرع إلى ما يليق بكل موطن منها [٣١٧/ ب] مثل أن يذكر الجنة والنار ويعلم أن الله ناظر إليه في ذلك العالم فإن كان يراه يصلح لسكنى

(١) في الأصل: بالتبابة. وهو تحريف.

(٢) سورة التكوير (الآية: ١).

(٣) سورة التكوير (الآية: ١٤).

الجنة وإلاّ طرحه في النار وإن كان يصلح للشرب من الحوض وإلاّ رده عنه وإن كان يصلح للكرامة والظل في عرصات القيامة وإلاّ أهين وترك للأهوال(١).

وهكذا جميع المواطن أوّلها الموت وآخرها الاستقرار في الجنة فيسارع إلى الإصلاح ما استطاع.

نسأل الله الكريم أن لا يكشف أستارنا وعيوبنا، وأن يجعلنا من أهل كرامته وعنايته دنيا وآخرة في عافية بمنه وفضله.

وصلى الله على محمد خاتم النبيين وعلى آله وسلم تسليماً.

فصـــل

وأما المقام الثالث من الإحسان في مقام الإحسان وهو مقامه بالحقيقة وما بعده فرع عنه: فإن العبد إذا علم أن سره موضع نظر الله منه وجب عليه تصفية سره لمولاه وإصلاح ذلك وتنقيته مما يكره الله أن يراه وينظر إليه في قلوب أوليائه.

فيزيل الصفات المهلكات ويطهر منها ويتصف بالمحمودات حتى يجعل سره كالمرآة المجلوة لتجلي النظر من الله فيه. فيعتقد أوّلاً اعتقادات أهل السنة لا يضمر خلافها ويستحي من الله/ أن ينظر إليه وهو يضمر خلاف ما يظهر للناس. [٣/أ]

ثم بعد ذلك يطهر من كل صفة مهلكة ويجلوه بكل منجية على قدر استطاعته ويكون همه لسره أكثر من ظاهره كما ورد في الخبر: «إن الله لا ينظر إلى صوركم ولكن ينظر إلى قلوبكم»(٢).

وقال ابن مسعود: السرائر، السرائر ألا حين يخفين على الناس وهن عند الله بوادٍ.

فإذا أخذ العبد في ذلك في مقام الإحسان وفرغ قلبه لمولاه قرب الله جل جلاله منه لأن الخبر قد صح أنه قال: «من تقرب مني شبراً تقربت منه ذراعاً»(٣) إلى آخر المعنى.

فتبين له قرب الله منه فيحصل في مقام أهل العلم بالله بلا تعلم من خلق بل بتعليم الله وتجليه لقلبه فحينئذ يسمع ما لم يسمع قبل ذلك ويفهم ما لم يفهم، ويحس بقرب الله منه

---

(١) في الأصل: الأهوال. وهو تحريف.

(٢) أخرجه مسلم في الصحيح (ص ١٩٨٧)، ابن ماجة في السنن (٤١٤٣)، أحمد في المسند (٢/ ٢٨٥)، البغوي في شرح السنة (١٤/ ٣٤١)، أبو نعيم في الحلية (٤/ ٩٨).

(٣) أخرجه بنحوه أحمد في المسند (٢/ ٤١٣)، القاضي عياض في الشفا (١/ ٣٩٧)، المنذري في الترغيب والترهيب (٤/ ١٠٤)، الخطيب في تاريخ بغداد (١١/ ١٥).

لأنه أقرب إلى الروح من حياته وإلى البصر من بصره وإلى كل شيء من نفس ذلك الشيء بقرب لا يليق إلا به لا يشبه قرب المخلوقين فحينئذ لا يقدر العبد أن يشير إلى الله بخاطر ولا فكر ولا أن ينظر إليه بحركة سره إلى جهة من الجهات لأنه ليس في جهة ولا مكان[١] إنما هو متجل يراه اليقين بغير حلول ولأن الإشارة هو يشير بها سبحانه وهو أقرب إلى الإشارة من الإشارة فيكتفي/ السر بنظر الله إليه ويتبرأ هو من نظره وتأمله ويرجع بصر السر من العبد [٣١٨/ ب] نفسه في نفسه حتى ينسى بشغله بنظر الله إليه هو فهو الناظر وحده سبحانه.

ومن هاهنا دخل العارفون إلى مقامات من القرب وأسرار من المعرفة لا تحتمل العموم ذكرها لبلادتهم وقلة فهمهم وقد تكلم فيها فأنكرت على المتكلمين فيها غير أن الحاصل في هذا المقام بالعلم يعلم أن الأشياء كلها قرب الله منها كقرب العالم من معلوماته فالمعلوم متصور في مرآة العلم بغير حلول ولا هو طرف لها فيخبت العالم به القائم بمعلومه المحيط به فإن تحرك اللسان منه بالذكر أو خطر خاطر بالقلب علم أن الله هو الذاكر وهو المذكور بالحقيقة لأنه مجري الذكر بقدرته وكلامه وهو أقرب إلى الذكر من الذكر وقد كان أبو يزيد[٢] وغيره من العلماء يقول في مناجاته كلاماً مع ربه تكلُّ عنه أفهام الجماهير وتحير فيه عقول الحذاق من غير أهل هذه العلوم لقلة شغلهم بها واشتغالهم بطريق آخر غيرها.

مَنَّ الله علينا وعليكم بالفهم عنه والعصمة من الجهل والإنكار وجعلنا من المحبين العارفين الأخيار أهل الإشراف والأسرار. آمين. آمين.

وصلى/ الله على سيدنا محمد وآله وسلم تسليماً. [٣١٩/]

الشعبة السادسة والخمسون: الإحسان أيضاً

وهو قوله: «أن تعبد الله كأنك تراه»[٣]. وقد تقدم الكلام على قوله: «فإن لم تكن تراه

(١) من المعلوم أن الله عز وجل في السماء حيث عرفنا هو سبحانه وأخبرنا نبيه ﷺ أما الكلام هنا فهو على سبيل المجاز ومما سبق حرص المؤلف رحمنا الله وإياه على التوحيد الخالص مما يفيد أنه يعلم ذلك تماماً والله أعلم.

(٢) هو: طيفور بن عيسى بن شروسان أبو يزيد البسطامي، الزاهد، شيخ الصوفية المشهور الشائع الذكر المتوفى سنة (٢٦١) وله مؤلفات منها: معارج التحقيق في التصوف، ورسائل أخرى. وله ترجمة في: ديوان الإسلام (٤٧٩)، سير أعلام النبلاء (١٣/ ٨٦)، شذرات الذهب (٢/ ١٤٣)، طبقات الصوفية (٦٧)، حلية الأولياء (١٠/ ٣٣)، المنتظم (٥/ ٢٨)، وفيات الأعيان (٢٤٥)، ميزان الاعتدال (٢/ ٣٤٦).

(٣) حديث صحيح رواه البخاري وغيره وقد سبق تخريجه في أكثر من موضع.

فإنه يراك». لأنهما حالتان وشعبتان.

اعلم أن هذه الشعبة على ثلاثة مقامات أيضاً: مقام الإسلام، والإيمان، والإحسان. فالإحسان مقامه واحد ولكن لما كانت العبادة ظاهراً وباطناً وافترقت العوالم في الظواهر والبواطن انقسم الإحسان على حسب العوالم والمشاهدات كسائر شعب الإيمان لها.

وأما المقام الأول في الظاهر وهو مقام الإسلام: فإن العبادة كما تقدم والأمور في الظاهر على ثلاثة أضراب: أوامر، ونواهي، ومباحات.

وهذا المقام الذي هو: «أن تعبد الله كأنك تراه» هو بعكس المقام الآخر الذي تقدم وهو: «فإن لم تكن تراه فإنه يراك». لأن ذلك المتقدم الله ناظر فيه إليك وهذا الثاني أنت ناظر فيه إلى الله وبينهما اشتراك وارتباط لكن هكذا وقع التفسير في الشرع بينهما.

فإذا كان العبد ناظراً إلى الله كان في مقام المراقبة فلا يرى شيئاً في هذا العالم الظاهر إلاّ رآه حادثاً عن القدرة الأزلية.

[٣/ ب] / فإن رأى معصية أو أسبابها علم ان الله خالقها ومنشئها وأنها صدرت عن اسمه الفاتن[1] المبلي بها المختبر لعباده فسبق نظره إلى القادر الفاتن بها، إذ هو في مقام المراقبة والعبرة فيغيب عنها بعبرته ومراقبته لاستدلاله بالصنعة على الصانع، والفتنة على الفاتن المبلي: ﴿ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلْمَوْتَ وَٱلْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً﴾[2].

ولا موت أشد من العصيان، ولا حياة أطيب من الطاعة وحياة الأديان.

وفي مثل هذا المقام قال القائل: ما رأيت شيئاً إلا رأيت الله بعده ومعه.

فيعصمه الله بالهروب من المفعول إلى الفاعل فهذا دأبه في كل فتنة منهي عنها ما دام في هذا المقام لأنه أعطي نفاذ البصر. وورد في الخبر: «إن الله يحب البصر الناقد»[3].

فصل

فأما قسم الطاعات الإسلامية: فإذا تلبس العبد بعملها في مقام الإحسان في نفس العمل وتوجه إلى بارئه فكان الله مواجهه كما ورد في الخبر الصحيح عن النبي ﷺ: «إذا كان

(١) كذا قال وأرى أنه لا يجب أن يصفه سبحانه بذلك كما لا يجب وصفه بالماكر وإن كان عز وجل خير الماكرين.

(٢) سورة الملك (الآية: ٢).

(٣) موضوع وذكره الفتن في تذكرة الموضوعات (١٨٨)، والزبيدي في إتحاف السادة المتقين (١٠/ ١٠٥).

أحدكم يصلي فلا يبصق قبل وجهه فإن الله قبل وجهه إذا صلى»[1].

وإذا كان ناظراً أحدكم إلى مولاه مناجياً ومحادثاً ومراقباً في أي عبادة كانت غاب عن العبادة وعن العباد فسلمت/ عبادته من كل آفة تدخل على من ليس في هذا المقام فيعرج [٣٢٠/ أ] سره ويسبق إلى المعبود ويصل إليه قبل عروج العبادة ورفعها بل أسرع من طرفة العين فكان بوصف الذين قال فيهم: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَهُمْ لَهَا سَابِقُونَ﴾[2].

قيل فيها أقوال: قيل: إن اللام بمعنى إلى، أي هم إليها سابقون.

وقيل: إن اللام بمعنى الباء، أي هم بها سابقون.

وهذا يكون قبل الدخول في فعلها والتلبس بها.

وأما في حين فعلها فاللام باقية على أصلها كما تقول: سبق فلان لفلان إذا تقدمه وجاء قبله.

قال الله عز وجل: ﴿إِنَّ الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُم مِّنَّا الْحُسْنَىٰ﴾[3] أي تقدم.

وما دام العبد في هذا المقام من السبق الإحساني لو أتى بأعمال الثقلين مثلاً ما نظر إلى العمل نظرة واحدة ولا التفت إليه لأن نظره سابق إلى المعبود.

وكذلك إذا عرف مقام الإحسان سارع إلى طاعته قدر وسعه.

فهذا حال المحب[4] الذي يعبد الله كأنه يراه في أنواع المأمورات.

فصـــل

وأما المباحات وجميع أنواع التصرف في الكسب: فإن العبد إذا تحرك أو سكن في التلبس بها رأى في هذا المقام الإحساني أن الله محركه ومسكنه ورأى الأفعال كلها صادرة/ [٣٢٠/ ب] عن الله تعالى فيتحرك بالله ويسكن به وله ويعطي لله لأنه ناظر إليه ويأخذ من الله لأنه المعطي له ويسمع من الله وهذه حالة ما دام العبد فيها كان ذاكراً حاضراً كان في السوق أو في الخلاء.

(١) أخرجه البخاري في الصحيح (١/ ١١٢)، مسلم (المساجد ٥٠)، النسائي في المجتبى (٢/ ٥١)، البيهقي في السنن الكبرى (٢/ ٣٩٣)، البغوي في شرح السنة (٢/ ٢٨٤)، مالك في الموطأ (١٩٤).

(٢) سورة المؤمنون (الآية: ٦١).

(٣) سورة الأنبياء (الآية: ١٠١).

(٤) في الأصل: المحبين. وهو تحريف.

فإن لحقته الغفلة والذهول عن هذا المقام سارع إلى الاستغفار والتوبة من غفلاته وجهالاته وجاهد نفسه على الاعتبار والرجوع إلى مقام النظر والمشاهدة.

مَنَّ الله علينا وعليكم برحمته. آمين. آمين.

وصلى الله على محمد وآله وسلم تسليماً.

فصـــل

وأما المقام الثاني من الإحسان في مقام الإيمان: فإن الناظر إذا نظر إلى الآخرة واعتبر عظم قدرها وأن الدنيا فيها كأصبع أدخلته في اليم كما ورد في الخبر وعلم بالاعتبار أنها أفعال الله نصبها في باطن الدنيا لقدوم الخلق عليه في تلك المواطن ونفسه متعبدة بالإيمان والاعتبار بتلك العظائم فيكبر قدر الصانع عنده على قدر عظم المصنوعات.

فأول ما ينظر إلى ملك الموت فيرى ملكاً واحداً مُهاباً عظيماً مهولاً له من الأعوان كثير وهو يتولى قبض أرواح الخلائق في المشارق والمغارب في البر والبحر فلا يشغله روح عن قبض أرواح واحد/ من جملة عبيد الملك الحق فيقول: هذا فعل هذا الملك الواحد فيعلم أن الأرواح إذا رأته تزهق وتخرج من الأجساد ولا تلبث وأنه يجذبها بقو. ذاته وشدة قواه من المشارق والمغارب كما يجذب المغناطيس قطع الحديد إليه، وكما صعق عليه الصلاة والسلام عند رؤية جبريل حين رآه سد الأفق فتغير منه قدر المستعبد له جل جلاله. [٣٢/ أ]

وهكذا يمشي في المؤمنات شيئاً شيئاً كالملكين السائلين في القبور بأيديهما مرازب الحديد لو ضرب بواحدة منها جبل لصار دكاً فكيف بأجسادهما وقوتهما وهما يسألان كل من يقبر في المشارق والمغارب ومن يموت في ساعة كما يقبض ملك الموت الأرواح في ساعة بل أمرهما أعظم وأهول من ملك الموت.

وكذلك النافخ في الصور وجميع أنواع الملائكة وعظم مجالها في الغيب فيرى أمراً عظيماً لا تصفه الألسن لأن عظمهم يرجع على عظمته، كالوصع[١] وهو الطير الصغير.

وكذلك الكل منهم فيرى من مقام الإحسان بالاعتبار قدر المسخر الجبار لجميعهم القهار لأنواعهم.

---

(١) جاء في الأصل: الوصغ بالغين المعجمة والصواب بالعين المهملة، والوَصْعُ والوَصَعُ والوَصِيعُ: الصغير من العصافير. وقيل الصغير من أولاد العصافير. وقيل هو طائر كالعصفور، وقيل يشبه العصفور الصغير في صغر جسمه، وقيل أصغر من العصفور. (لسان العرب).

وهكذا يتذكر وينظر إلى المحشر وسعة تلك الأرض المفروشة التي أمدت حتى أخذت أكناف السماوات والأرضين كلها لقيام جميع الخلق/ في صعيد واحد على ذلك البساط [٣٢١/ ب] العظيم الذي يسع الخلق والأملاك النازلين فيه فيرى منه قدر الباسط الذي نزلت الملائكة من هيبته فيه وكيف يحاسبهم في حالة واحدة فلا يشغله شيء عن شيء وكذلك يتذكر الميزان الذي كفتاه طباق السماوات والأرض والأملاك الخادمة له فسيرى منه قدر ناصبه للعدل والقسط والرحمة والفضل وكذلك يتذكر الصراط وارتفاع قناطره على متن جهنم ويتذكر الحوض العظيم حوض محمد عليه الصلاة والسلام وشعبه وكثرة كؤوسه وحياض الأنبياء ويتذكر الجنة والنار وما هما عليه من العظم وما فيهما من العجائب والعظائم فيعتبر بها قدر الصانع لها فيمر على جميع المؤمنات في الغيب ويرى نفسه ويعلم أنها معروضة في تلك المواطن كلها ويشاهد ربه فيها كما ورد:

«إنكم ترون ربكم كما ترون الشمس ضحى ليس دونها سحاب وكما ترون القمر ليلة البدر»[1].

على ذلك العالم وجلالته فيتأهب للقاء الله ومشاهدته في تلك المواطن على قدر استطاعته وجهده في عالم الإيمان يرى من مقام النظر الإحساني فيه ما لا يرى في هذا العالم الدنياوي من معاني الربوبية/ وعظم قدرها فإن قدر عالم الدنيا وعجائبها بالإضافة إلى الآخرة [٣٢٢] كالنقطة الواحدة في البحار الواسعة بل أقل.

مَنَّ الله علينا وعليكم بالتوفيق في كل حال. آمين. آمين.

وصلى الله على محمد وآله وسلم.

فصـــل

وأما المقام الثالث من الإحسان في مقام الإحسان نفسه وهو مقامه بالحقيقة: فإن الناظر فيه يجمع الموجودات كلها ظاهراً وباطناً والأوائل والأواخر في نظره فيراها كلها مع العرش العظيم وما كان وما يكون وإن عظمت وكبرت في مقام الاعتبار كالجري الذي لا يتحرى بالإضافة إلى الموجد لها مع كونها باقية على عظمها وكثرتها فهام عقله في ساحة التعظيم وانفتحت له أبواب من معرفة العليم العظيم ووجد شمّة من أحوال أهل المعرفة فإن أعطي منها حالاً واحداً في عمره كله فليشكر الله وذلك أنه لا يرى الله بالحقيقة حتى يغاب

(١) هذا الحديث أخرجه بنحوه أحمد في المسند (٣/ ١٦)، ابن أبي عاصم في السنة (١/ ١٩٩، ٢٨٣)، البغوي في شرح السنة (٢/ ٢٢٤)، الزبيدي في إتحاف السادة المتقين (١٠/ ٥٥٣)، الدارمي في السنن (٢/ ٣٢٦)، ابن حجر في فتح الباري (١١/ ٤٤٥).

عن الأشياء باستحقارها بالإضافة إلى عظمة الله وقد ورد عن النبي ﷺ في أحاديث الإسراء وما رأى من الآيات الكبرى وقال: «قربت إلى سيد العرش فأبصرت أمراً مهولاً». ثم قال [٣٢٢/ ب] بعد ذلك كله: «ولم أرَ عند رؤية ربي أحداً/ من خلقه».

سواء كانت الرؤية رؤية قلب أو عين، وقد رأيت بعض الفقهاء سأل عن هذه المسألة بعض المتكلمين في هذا الشأن فقال له: لأي شيء صعد النّبي ﷺ في المعراج وقطع مسافات عليين لرؤية ربه وسماع كلامه أوليس الله معه في الأرض أقرب من حبل الوريد؟ وقد سألت عن هذه المسألة دهراً فلم أجد من يشفيني فيها.

فقال له المسؤول: إن الشيء المرئي إنما يظهر في المحل الذي يظهر فيه على قدر موجودات ذلك المحل، فالنبي عليه الصلاة والسلام أخرج من هذا العالم إلى الملكوت الأعلى ليشاهد الآيات الكبرى التي لا يسع شيء منها في عالم الدنيا فيظهر له صانع العالم على قدر العالـم وعجائبه ويتدرب على مشاهدة كل عالم حتى وصل إلى العرش فرأى فيه عظمة الحامل[1] له واستولى عليه التعظيم حتى رفعه التعظيم إلى المُسْتَوْلِي الأعلى، واقتطعه عن جميع الأشياء فتجلى الله له في كل موطن على قدر ذلك الموطن.

فأعجب السائل بذلك وزال ما كان يجد في نفسه من ذلك الخاطر.

وهكذا النظر في مقام الإحسان بالاعتبار إذا رأى السماوات والأرضين بما فيهن وما [أ] بينهن ظاهراً وباطناً/ في الكرسي كحلقة ملقاة في أرض فلاة من حلق الدِّرع، والكرسي، والجنات، والنار، وسائر المخلوقات في العرش كحلقة ملقاة في أرض فلاة بالإضافة، والأشياء باقية على صورها وعظمها.

ومشى في الاعتبار إلى الموجد للكل الذي لا يشغله وجود الخلق وإن كثروا وعظموا لِعِظَم قدره الذي لا يشبهه قدر، قد استوى عليه التعظيم ولاحت له لوائح البروق ولوامع الأنوار وطوالع المشاهدات، وهام في أودية الفناء والبهاء والغيبة والحضور وتحير في فسحة العظمة وساحة الإجلال فإن كان من أهل الأحوال وجد ذوقاً من أحوال الأشياخ المكرمين أهل المعرفة الدارجين على مسالك المصطفى وسيد الأنبياء وقد أنشد قائلهم فقال:

فلـو كنـت مـن أهـل الـوجـود ... لغبت عن الأكوان والعرش والكرسي

ومن هذا المقام الإحساني دخلوا إلى ذلك فوجوده ذوقاً[2] وحالاً.

كما أدركناه نحن عِلماً وبين الحال والعلم زيادة كبيرة.

---

(١) أي الماسك له عن الزوال.

(٢) جاءت بالأصل: ووقاً. وهو تحريف.

وإنّا مقطوعون بالغفلة عن الأحوال وهم ركبوا مراكب السرعة والمسابقة إلى الخيرات على مناهج التقوى والسير إلى الآخرة عن أعراض الدنيا بالإعراض عن الدنيا كما ركب النبي عليه الصلاة والسلام/ البراق إلى عالم البرزخ وصعدوا بالفكر في طريق المعقولات، ونازلوا [٣٢٣/ ب] بالعمل الصالح وقطع الشواغل عن سني الدرجات كما ارتقى النبي عليه الصلاة والسلام المعراج في عالم السماوات، وأُيِّدُوا بروح الإيمان الروحاني كما ركب النبي عليه الصلاة والسلام أجنحة الملائكة وجناح التأييد وأيدهم بروح منه وطارت بهم رفارف الشوق طلباً للقرب من الحق كما ركب النبي ﷺ الرفرف المدلى. ودنا منهم الجبار لأنه وعد بكلامه أنه من أتاه يمشي أتاه هرولة. كما دنا الجبار من المصطفى: ﴿فَتَدَلَّى * فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَى﴾[١].

و «أوْ» هاهنـا بمعنى الواو، أي فكان قاب قوسين وأدنى لأن الله لا يشك في شيء.

فيذيقهم حلاوة الوجد ويخرجهم الوجد إلى الوجود ويذهلهم عن وجود الأشياء وعن وجود الوجد والوجود لما سمع قوله: ﴿أَنَّ ٱللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ ٱلْمَرْءِ وَقَلْبِهِۦ﴾[٢].

فيصير العبد صاحب الحال منهم عند نفسه كما لم يكن: ﴿كَمَا بَدَأْنَآ أَوَّلَ خَلْقٍ نُّعِيدُهُۥ﴾[٣].

فيفنى ما لم يكن ويبقى ما لم يزل.

فهؤلاء هم أهل الأحوال الذين درجوا على مناهج المصطفى وورثوا بعض مقاماته ظاهراً وباطناً فلم يكن عروج المصطفى/ وإخباره عن كل ما رأى لأمته إلاّ للإيمان بذلك كله [٣٢٤/ أ] والاقتداء به، والكل يأخذ ما قدّر له.

فمن الخلق من لم يأخذ من ذلك إلا التصديق به وهو خير كبير، ومنهم من علم ذلك ولم يجده حالاً وهم ساداتنا في الدنيا والآخرة وعند الله يحتسب الفقر والإفلاس من أحوالهم ومقاماتهم.

نفعنا الله بمحبتهم ولا حرمنا بشؤمنا[٤] الكون معهم آمين. آمين.

وصلى الله على محمد وآله وسلم.

---

(١) سورة النجم (الآية: ٨، ٩).

(٢) سورة الأنفال (الآية: ٢٤).

(٣) سورة الأنبياء (الآية: ١٠٤).

(٤) كذا قال وكان أولى أن يقول بسيئاتنا ولنا وله نسأله المغفرة بكرمه ورحمته آمين.

الشعبة السابعة والخمسون: الذكـر

أما كون الذكر من الإ مان فبين جداً لأنه تجديد الإيمان بالمؤمن به بعد تجديد لأنه إذا ذكر المذكور تجدد الإيمان به.

فالذكر إيمان على إيمان وتجديد له وزيادة إيمان على إيمان ومن ذلك حديث عبد الله بن بشر: أن رجلاً قال لرسول الله ﷺ: إن شرائع الإسلام قد كثرت عليّ وإني قد كبرت فأخبرني بشيء أتشبث به. فقال: «لا يزال لسانك رطباً بذكر الله»[(١)].

فسأله عن الشرائع الإيمانية فدله على أفضلها.

وروى أبو الدرداء أن رسول الله ﷺ قال: «ألا أنبئكم بخير أعمالكم لكم وأزكاها عند مليككم وأرفعها في[(٢)]/ درجاتكم وخير من إعطاء الذهب والفضة، وأن تلقوا عدوكم فتضربوا أعناقهم ويضربوا أعناقكم؟». [٣٢٤/ ب]

قالوا: وما ذاك يا رسول الله؟ قال: «ذكر الله».

فأعلم عليه الصلاة والسلام أن خير أعمال الإيمان الذكر.

وروى أبو سعيد الخدري قال: سُئل رسول الله ﷺ أي العبادة أفضل درجة عند الله يوم القيامة؟ قال: «الذاكرون الله كثيراً».

قيل: يا رسول الله صلى الله عليك ومن المغازي في سبيل الله؟

قال: «لو ضرب بسيفه حتى ينكسر ويختضب دماً كان الذاكر أفضل»[(٣)].

فأعلم عليه الصلاة والسلام أن الذكر[(٤)] من العبادات الإيمانية وأنه أفضلها.

---

(١) أخرجه الترمذي في الجامع الصحيح (٣٣٧٥)، ابن ماجة في السنن (٣٧٩٣)، أحمد في المسند (١٨٨/٤)، البيهقي في السنن (٣٧١/٣)، الحاكم في المسدرك (٤٩٥/١)، البخاري في التاريخ (٤١٦/١)، أبو نعيم في حلية الأولياء (٥١/٩).

(٢) كلمة (في) مكررة بآخر الصفحة [٣٢٤/ أ] وأول الصفحة [٣٢٤/ ب] فحذفت التكرار والحديث أخرجه: الترمذي في الجامع الصحيح (٣٣٧٧)، أحمد في المسند (١٩٥/٥)، ابن ماجة في السنن (٣٧٩٠)، الحاكم في المستدرك (٤٩٦/١)، أبو نعيم في حلية الأولياء (١٢/٢)، البغوي في شرح السنة (١٥/٥).

(٣) أخرجه مسلم في الصحيح (٢٠٦٢)، الترمذي في الجامع الصحيح (٣٣٧٦)، أحمد في المسند (١١٤/٢)، البغوي في شرح السنة (١٧/٥)، النووي في الأذكار (١٩).

(٤) في الأصل: الذاكر. وهو تحريف.

فصــــل

اعلم أن الذكر على ثلاثة أضرب:

ضرب في مقام الإسلام الظاهر.

وضرب في مقام الإيمان الباطن.

وضرب في مقام الإحسان باطن الباطن.

فأما القسم الأول في مقام الإسلام: فإن الأمور الظاهرة الحية ثلاثة: أمر، ونهي، ومباح.

والإنسان متصرف فيها بجسده، والجوارح في الجسد سبعة والمخصوص منها بالذكر: اللسان هو المبين المفصح بالكلام.

والأذكار على أنواع فمنها: البسملة في/ أوائل الأشياء، ومنها التهليل، ومنها [٣٢٥/ أ] التسبيح، ومنها التكبير، ومنها التحميد، ومنها الاستغفار، ومنها التبري من الحول والقوة، ومنها السلام عند تلقي المسلمين، ومنها التلاوة، ومنها الدعاء، ومنها الاستعاذة، ومنها الاسترجاع، ومنها الصلاة على النبي ﷺ.

ولكل نوع منها مكان من العبادة، وذوق، ومعنى.

فأما النهي: فإن أسرف العبد عليه ورآه أي نوع كان وذكر الله وما أوعد عليه حَجَزَهُ الذكر عنه فهذا من أفضل الذكر فالذكر للمتواعد يوجب ترك المنهي عنه ويخوف منه فصار الذكر عاصماً من الوقوع في المعاصي.

فأعظم به قدراً كما ورد في الحديث المشهور: «سبعة يظلهم الله تحت عرشه في ظله يوم لا ظل إلاّ ظله». فذكر منهم: «ورجل دعته امرأة ذات منصب وجمال فقال إني أخاف الله رب العالمين»[1].

فهذا القول من الذكر في هذا الموطن أفضل العبادة.

وأما الأوامر: فإن العبد إذا أراد فعل الطاعة فذكر من المعبود بها سارع إلى فعلها وكان الذكر سبباً لفعلها.

---

(١) أخرجه البخاري في الصحيح (١/ ١٦٨)، (٢/ ١٣٨)، (٨/ ١٢٦)، مسلم في الصحيح (الزكاة ب ٣ رقم ٩١)، الترمذي في الجامع الصحيح (٢٣٩١)، النسائي في المجتبى (٨/ ٢٢٢)، أحمد في المسند (٢/ ٤٣٩)، ابن خزيمة في الصحيح (٣٥٨)، البغوي في شرح السنة (٢/ ٣٥٤)، الخطيب في تاريخ بغداد (١٢/ ٢٣٩)، الربيع بن حبيب في المسند (١/ ١٥)، التبريزي في مشكاة المصابيح (٧٠١).

وكذلك إذا تذكر وذكر ما وعد الله من ثوابها أزعجه عن المسارعة في فعل الخيرات وصار الذكر سبباً لفعل الخيرات كلها.

[٣٢٥/ ب] / وأما المباح: فإنه محل الغفلة، وورد في الخبر: ذاكر الله في الغافلين كالمقاتل عن الفارين.

وقد نهى الله الإنسان أن يكون غافلاً وأمره أن يذكره في كل الأحيان فقال: ﴿ٱذْكُرُوا ٱللَّهَ ذِكْراً كَثِيراً﴾[١]. وقال: ﴿ٱلَّذِينَ يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَاماً وَقُعُوداً وَعَلَى جُنُوبِهِمْ﴾[٢]. فأثنى عليهم بذلك وذم أهل الغفلة.

فعلى العبد إذا دخل محل الغفلات أن يذكر ويعزم على الذكر فيكون كالمقاتل عن الفارين، وكالحي بين الأموات. فإن غفل وغلبه محل الغفلة فليتذكر من ذلك أن ربه ليس بصفة الغافلين، وأنه مخلوق ضعيف محل الغفلة وهي صفته وليقل: سبحان من لا يغفل.

ولو جاز أن يغفل لتدكدك الكل من الممالك عن قواعده فينزهه عن صفته فتعود غفلته ذكراً وتذكره بمقام عظيم من المعرفة.

فإذا أكل أو شرب قال: سبحان من ليس صفته هكذا سبحان من لا يطعم.

وإذا نام قال: سبحان من لا ينام ولا ينبغي له أن ينام.

ولو نام كيف كان يكون الحال؟

وإذا جامع قال: سبحان من لا يتزوج إلى شيء الغني عن كل شيء.

[٣٢٦/ أ] وإذا تحرك أو سكن قال: سبحان من لا يتحرك/ ولا يسكن ولا يحل الأمكنة.

وهكذا يذكر كل شيء في مقام الذكر بصفة الغني الحميد قبل فعل الشيء أو معه أو بعده فيكون له كل شيء ذكراً، وتذكراً، ويوقعه الذكر في مقام المعرفة. وليجعل لكل نوع من أنواع الذكر في محله فإذا ابتدأ بشيء قال: بسم الله الرحمٰن الرحيم، وإذا تلبس به قال لا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم. وإذا صعب عليه الشيء استغاث بالدعاء وطلب من الله تسهيله، وإذا سهل عليه قال: الحمد لله رب العالمين. وإذا أصابته مصيبة قال: إنّا لله وإنّا إليه راجعون. وإذا وقع في ذنب أو جهل عليه استغفر الله. وإذا رأى شيئاً مخوفاً مفزعاً استعاذ بالله. وإذا رأى أسباب الشركة وكثرة الأشياء وحد الله. وإذا رأى أمراً عظيماً قال: الله

(١) سورة الأحزاب (الآية: ٤١).

(٢) سورة آل عمران (الآية: ١٩١).

أكبر، ورأى كل شيء عظيم حقيراً بالإضافة إليه كلا شيء. وإذا رأى عجباً قال: سبحان الله وتعجب من قدرة الله. وإذا رأى الهداية والسنن الصالحة تذكر الهادي عليه الصلاة والسلام فصلى على محمد ﷺ.

وهكذا في كل شيء يقابل الشيء بما يشاكله من الذكر.

وكذلك وضع الشارع الأذكار كل ذكر في موضعه حتى أنه ﷺ كان في حركاته إذا صعد/ على علوٍ وأشرف كبر وهلل فكان يتذكر شرف الله على الموجودات وعلوه عليها [٣٢٦/ ب] بالرتبة والرفعة وكان عليه السلام إذا أسهل قال: «الحمد لله». لأن السهل الوطي يذهب التعب الذي يكون في الوعر وذلك نعمه فوجب الشكر.

فكذلك إذا صعد العبد من سفل إلى علو فليقل: «لا حول ولا قوة إلا بالله»، وإذا كان في خفض وانحطاط فليقل: سبحان الله.

وكذلك يضع كل شيء في موضعه فيكون ذاكراً في كل الأحيان بأحسن الأذكار وكان الذكر محكماً متقناً لصدوره عن الحكمة العلمية.

وإن كان التزم ذكراً من الأذكار أي نوع كان في أحواله كلها فجائز وحسن وكلها فاضل ولكل واحد منها معنى في نفسه.

فمعنى البسملة: التبرك باسم الله المبارك وإن نوى بالبسملة في أول الفعل الحركة والسكون بالله ابتدى وباسمه ابترك.

ومعنى التهليل إقرار بالعبودية وإفراد له.

ومعنى الحمد الثناء على المعبود والشكر له.

ومعنى التسبح التبرئة له والتعجب من غرائب قدرته.

ومعنى التكبير: الإعظام للمعبود والإجلال له.

ومعنى الاستغفار التوبة والاعتذار.

ومعنى التبرىء الذي/ هو لا حول ولا قوة إلا بالله الاستعانة بالله. [٣٢٧/ أ]

ومعنى الاستعاذة الالتجاء بالله.

ومعنى (. . .)[1] الاعتصام بالله.

---

(١) جاء موضع النقط كلمة غير مفهومة المعنى وهي (الدو) وأظن المراد: الدنو. وسقطت النون سهواً والله أعلم.

ومعنى الصلاة على النبي ﷺ الحنو والعطف من الله عليه.

ومعنى التلاوة والقراءة الاتباع للمتلو.

ومعنى الاسترجاع السلو والعزاء برؤية الملك لله.

ومعنى إفشاء السلام التحية ورفع الإذاية.

ومعنى تركها على أهل الكفر والأهواء التأنيب والإعزار للإسلام.

ولكل واحد من هذه الأذكار تأثير حسن في القلب عجيب والعبد متقلب طول ليله ونهاره في الأمر والنهي والمباح، وتتلون عليه الأذكار بتلون الأحوال.

وفقنا الله وإياكم للذكره وجعلنا ممن ذكره عنده بأطيب الذكر في الدنيا والآخرة. آمين. آمين.

وصلى الله على محمد وآله وسلم تسليماً.

فصـــل

وأما المقام الثاني من الذكر في مقام الإيمان: فإنه سر لأن النفس والقلب غيب في الجسد والمؤمنات بها كلها غيب.

فيذكر العبد إذا نظر إلى الإيمان الذي جُعل في باطنه وكيف حببه الله إليه وصرف عنه الكفر فيهيج في السر ذكر الآلاء والنعماء والمنن.

وهذا الذكر يثمر جميع أنواع الخيرات في الباطن من الخوف والرجاء والشكر والصبر وحب المولى والإخبات له وغير ذلك/ من أنواع العبادات الباطنة. [٣٢٧/ ب]

ثم يجد بعد ذلك أول غائب بعد النفس إبليس، والملائكة كُلٌّ يوحى إليه ويذكره بما يليق بكل واحد منهم فيتذكر قلبه الخير والشر فيبصر سبيل الرشد والغيّ كما قال تعالى: ﴿تَذَكَّرُواْ فَإِذَا هُم مُّبْصِرُونَ﴾[1].

ثم يتذكر من المغيبات بعد ذلك الموت فيذكر هاذم اللذات كما أمر النبي ﷺ فيورثه ذلك الحزن وتحقير الدنيا في عينه إلى غير ذلك من الأحوال الشريفة.

ثم يتذكر القبر وأحواله فيثمر له رقة القلب والإنابة، وغير ذلك.

---

(١) سورة الأعراف (الآية: ٢٠١).

ثم النفخ في الصور وأهوال الموقف، ومواطن الآخرة، من حوض، وميزان، وصراط، وجنة، ونار، وحساب، وغير ذلك.

فلا يمر بشيء من المؤمنات إلاّ أورثه ذلك حالاً وذكره كيف يكون الحال في ذلك الموطن فيثمر له ذكر الآخرة أنواعاً من الخيرات لا تحصى، وذكر الآخرة ذكر لله لأنها أفعاله المذكرة به.

وهذا الذكر إذا حصل في القلب زالت الغفلة عنه وابتهل اللسان بالذكر متضرعاً إلى الله أن ينجيه مما يخافه في الآخرة وأن يؤتيه مما يرجى فيها.

فليكن هم العبد للذكر فإنه إذا حصل في القلب طرد عنه الغفلة واستقام الذكر الظاهر باللسان.

عمر الله قلوبنا وقلوبكم بالذكر النافع وختم لنا ولكم/ بخير وعافية. آمين. آمين. [٣٢٨/ أ]

وصلى الله على محمد وآله وسلم.

فصــــل

وأما المقام الثالث من الذكر في مقام الإحسان: فهو إفراد المذكور جل جلاله وفي أهله ورد الخبر الصحيح روى أبو هريرة قال: كان رسول الله ﷺ يسير في طريق مكة فمر على جبل يقال له جُمْدَان[١] فقال: «سيروا هذا جمدان سبق المفردون».

قالوا: وما المفردون يا رسول الله؟ قال: «الذاكرون الله كثيراً»[٢].

وفي رواية أخرى: «الذين يستهترون بذكر الله».

فضيع الذكر عنهم أثقالهم ويأتون يوم القيامة خفافاً وهذا الذكر يجلو القلب ويصفيه ويذكي العقل.

---

(١) قال أبو بكر بن موسى: جُمْدَان: جبل بين ينبع والعيص على ليلة من المدينة، وقيل: جمدان وادٍ بين ثنية غزال وبين أَمَج، وأَمَج من أعراض المدينة. ثم ذكر الحديث الوارد هنا ثم قال (أي ياقوت): قلت أنا: ولا أدري ما الجامع بين: سبق المفردين ورؤية جمدان، ومعلوم أن الذاكرين الله كثيراً والذاكرات سابقون وإن لم يروا جمدان ولم أرَ أحداً ممن فسر الحديث ذكر في ذلك شيئاً. (معجم البلدان).

(٢) أخرجه مسلم في الصحيح (الذكر والدعاء ب ١ رقم ٤)، المنذري في الترغيب والترهيب (٢/ ٣٩٩)، البغوي في التفسير (٥/ ١٩٥)، الألباني في الصحيحة (٣/ ٣٠٦، ١٣١٧)، المتقي الهندي في الكنز (١٧٧٤).

وورد في الخبر: «إن القلوب تصدأ كما يصدأ الحديد».

قيل: فما جلاؤها؟ قال: «ذكر الله»[(١)].

ومنه دخل الأكابر إلى علوم المشاهدة والأسرار المكتوبة وراء الحجب والأستار[(٢)]، وهو على ثلاثة أضرب:

فأما الضرب الأول: فهو ذكر الله بأفعاله كلها وهو أن يفرد في مقام الإحسان العالم كله فيراه مُلكاً واحداً لملكٍ واحد فيتذكر العبد بذلك شرف المستعبد له وقيوميته.

فإن رأى حدثاً ذكره بالقديم وبشرف القديم ونزاهته. وإن رأى عجزاً أو ضعفاً أو نقصاناً في الوجود ذكره بالقوي القادر والكامل وشرفه ونزاهته. وإن رأى/ متحيزاً محبوساً [٣٢٨/ ب] في حيزه ذكره بالواجد[(٣)] الذي لا يتقيد بالحدود. وإن رأى تواضعاً وذلاً ذكره بالكبير العزيز.

وعلى الإجمال والاختصار فلا يرى شيئاً إلاّ مصنوعاً قابضاً عن القدرة فيتذكر منه شرف المذكور ونزاهته عما هي الحوادث عليه وشرف فضله وفيض جوده على جميع الحدثان.

وهذه أذكار تثمر عجائب العلوم والأسرار.

وأما الضرب الثاني من إفراد الذكر في مقام الإحسان: فهو مقام من الذكر عجيب وهو ذكر العبد ذكر الله له بكل ما ذكره به فيتذكر كيف ذكره سبحانه في نفسه وفي الملأ الأعلى بذكره القديم حتى جعل من الذاكرين له التالين لكتابه.

ويتذكر كيف ذكره بكل وصف به من الإيمان والإسلام حتى جعله من المؤمنين والمسلمين ولولا ما ذكره بذلك في نفسه بكلامه ما آمن ولا أسلم ولا ذكر.

وكذلك ذكره بكل ما حوله من رزق أو نعمة أو شيء من أمور الدنيا والآخرة في نفسه كما قال لبعض أنبيائه: إن أتتك فُولة مسوسة فاعلم أنني ذكرتك بها.

فيقول الذاكر في نفسه من أنا في كثرة عباد الله ومن لي أنا على حقارتي حتى ذكرني

---

(١) ذكره ابن الجوزي في العلل المتناهية (٢/ ٣٤٧)، ابن عدي في الكامل في الضعفاء (١/ ٢٥٨)، الذهبي في الميزان (١٩١٨).

(٢) ما كان ينبغي لمثله وهو على هذه المنزلة من العلم والنظر الدقيق والتوحيد أن يقول مثل هذه العبارة غفر الله لنا وله وعفا عنا وعنه آمين.

(٣) في الأصل: الموجود. فأثبت الأولى.

في نفسه الإله العظيم القدر بأن جعلني من عباده وذكرني/ بكل شيء أجراه عليّ من أنواع [٣٢٩/ أ] الآلاء والنعم الدينية والدنياوية.

فهذا ذكر يولد المغفرة وا نرح بالمعبود والرجاء وغير ذلك مما لا يحصى من مقامات العارفين.

وكذلك إذا تذكر مخالفاته وأن الله ذكره بها في نفسه وعلمه مخالفاً له تولد عنه خوف الخاتمة والحياء، والانكسار، والذل، والتوبة، وغير ذلك.

فإذا تذكر العبد هذا المقام كيف ذكره مولاه بجميع ما ذكره به من توفيق لذكره واصطفاء بكلامه وكيف جعله من الخائفين له الراجين في فضله وكل نعمة ديناً ودنيا على جلال قدره إذ هو رب العالمين وسيد الخلق أجمعين كاد يطير من الفرح والفخر بمولاه.

والضرب الثالث من إفراد الذكر في مقام الإحسان: هو ذكر وجود الباري وحده مفرداً وليس وراءه مقام من الذكر، وهو ذكر الاستيلاء والغلبة. وذلك أن يشتغل القلب بذكر الله وحده دون أفعاله حتى يغلب ذكره على ذكره للأشياء، وهذا معنى قول الله عز وجل: «إني لا أطلع على قلب عبد فأجد الغالب عليه ذكري إلاّ كنت سمعه الذي يسمع به وبصره الذي يبصر به ورجله التي يمشي بها ويده التي يبطش بها وعقله الذي يعقل به وإلاّ اتجرت له من وراء كل تاجر».

جعل الهم هماً/ واحداً فكفاه الله كل هم وكان قرة عينه وتولاه بنفسه. [٣٢٩

وهذا هو الولي حقيقة ـ أعني ولاية الخصوص ـ لأن الله مولاه فكان الولي به يسمع وبه يبصر وبه يتحرك ويسكن ويتقلب في كل أحواله. وهؤلاء هم الذين كان ثواب ذكرهم العلم بالله الذي لا يصفه واصف ولا يكتبه في الأوراق عارف.

جعلنا الله وإياكم من أوليائه في عافية في الدنيا والآخرة. آمين بفضله.

وصلى الله على محمد وآله وسلم تسليماً كثيراً.

الشعبة الثامنة والخمسون: العلم

أما كون العلم من شعب الإيمان فبين لا يحتاج إلى دليل لأن جميع الأعمال الإيمانية ظاهراً وباطناً إن لم تكن بعلم وإلاّ فهي باطل فهو الفرض العام الواجب على كل مسلم.

قال النبي عليه الصلاة والسلام: «طلب العلم فريضة على كل مسلم»(١). وفي

(١) أخرجه ابن ماجة في السنن (٢٢٤)، الطبراني في معجمه الكبير (١٠/ ٢٤٠)، ابن الجوزي في العلل =

الصحيح عن معاذ: تعال بنا نؤمن ساعة. أي نتذاكر علم الإيمان فسمي علم التذكر إيماناً.

والشواهد عليه كثيرة جداً.

فصل

اعلم أن العلم ينقسم على ثلاثة أقسام:

قسم ظاهر في مقام الإسلام وعالم الحس.

وقسم باطن في مقام الإيمان وعالم الغيب.

[٣٣٠/ أ] وقسم في/ مقام الإحسان وهو العلم بالله.

فأما القسم الظاهر فهو على ثلاثة أقسام: علم بالأوامر الشرعية.

وعلم بالنواهي الشرعية.

وعلم بالمباحات الدنياوية ومدارك الحواس الضرورية العقلية.

أما علم الأمر: فهو علم الفرائض والسنن والفضائل.

وأما علم النهي: فهو علم الحرام والكراهة والتنزيه.

وأما علم المباحات: فهو العلم بالدنيا وأهلها وكيفية آداب المخالطة واكتساب المعيشة.

وهذه الأقسام الثلاثة تُعلم من الشرع وطريقها السمع وأما مدارك الحواس والعلوم الضرورية فقد اشترك فيها الحيوان العاقل فلا يحتاج إلى اكتساب، وإنما مقصدنا الكلام على الشريعة هنا فقد عم العلم الظواهر كلها فلا يجوز لأحد أن يعمل عملاً إلاّ بعلم.

وقد ورد في الحديث عن سلمان أنه قد قيل له: قد علمكم نبيكم حتى الخراءة. فقال: أجل.

فعلم الأمر الظاهر موجود في كتب الفقه كالعلم بالاستنجاء والطهارة، والصلوات، وما يتعلق بها، واختلاف أنواعها، والزكاة وأنواعها، والصوم وأنواعه، والحج، والجهاد، وغير ذلك من الأوامر.

وأما علم النهي: فالعلم بالمحرمات كلها على اختلاف أنواعها كالعلم بما يفسد

= المتناهية (١/ ٥٤: ٦٢)، ابن عدي في الكامل في الضعفاء (٦/ ٢٠٩١)، الخطيب في تاريخ بغداد (١٠/ ٣٧٥).

الطهارة والصلاة والصوم والحج/ والجهاد والعلم بالحدود والأنكحة المحرمة والأطعمة [٣٣٠/ ب] المحرمة والأشربة المحرمة، وأبواب الربا، والأخذ والعطاء، وغير ذلك كالعلم بالمكروه كله وذلك موجود كله في كتب الفقه.

وأما علم المباح وأمور الدنيا: فكالعلم بالنكاح لأنه ليس بواجب، والصيد، وآداب الأكل والشرب، والجماع والمخالطة كلها ومعرفة الدنيا وأبنائها، وأسبابها. وهذا كله مشحون به الكتب. ومن هذه العلوم ما يلزم العبد تعلمه وهو عليه فرض عين، ومنها ما لا يلزم إلاّ أن يشاء وإذا نزلت به النازلة طلب علمها وعملها بعلم.

مثال ذلك أن علم الطهارة والصلاة وما أشبه ذلك فرض عليه معين. وعلم القضاء ليس بواجب عليه فإن ابتلي بالقضاء وجب عليه أن لا يقضي إلاّ بعلم؛ وهكذا كل شيء. فإذا أراد العبد أن لا يتحرك حركة إلا بعلم وجد ذلك في العلم لأن العلم واسع جداً.

مثال ذلك إن أراد أن يسبح في نهر فيقول هل للسباحة أصل في العلم أم لا؟ فيجدها مصنوعاً عليها.

أو مثل أن يريد أن يمشي في السوق للكسب، أو للجلوس، أو للذكر فيجد لذلك كله أصلاً في العلم.

ومثل أن يريد أن يمازح صاحبه/ أو أهله مزاحاً فيجد ذلك في العلم. [٣٣١/أ]

حتى لو أراد أن يرسل ولده يلعب أو يلعب هو مع أقرانه بحق لوجد ذلك في العلم.

قال الله تعالى: ﴿أَرْسِلْهُ مَعَنَا غَداً يَرْتَعْ وَيَلْعَبْ﴾(١) وقرىء بالنون، لكن مع سعة العلم قد ترك الناس العمل به وآثروا العمل بالجهل.

وأصول العلم ثلاثة: الكتاب، والسنة، والإجماع. وما استنبط من هذه الأصول فهو مردود إليها لأن الفرع من الأصل.

فعليكم باتباع العلم في جميع حركاتكم وسكناتكم فهو العصمة من الجهل والعار في الدنيا والآخرة.

مَنَّ الله علينا وعليكم باتباعه في الدنيا والآخرة. آمين. آمين.

وصلى الله على محمد خاتم النبيين وعلى آله الطيبين وسلم تسليماً.

---

(١) سورة يوسف (الآية: ١٢).

فصــــل

وأما القسم الثاني من العلم وهو العلم بالباطن:

فهو العلم بالنفس وأخلاقها وخواطرها، والعلم بالشيطان وخواطره، والملك وخواطره، وما يفسد الأعمال والعقائد والقلوب من رياء وعجب وغير ذلك من الصفات المهلكات وما يصلحها من نية وإخلاص، وغير ذلك من الصفات المنجيات.

وهذا العلم واجب على كل مسلم وفرض عليه فرض عين.

[٣٣١/ ب] فإن العلم بالشيطان والملك مثلاً إن لم يأخذ علم ذلك من الشرع ويعتقد/ فيهم ما أمره الشرع وإلاَّ ضَلَّ إن اعتقد مذاهب الملحدة التي تعتقد في الجن أنها أخلاط السوداء وغير ذلك من المعاني وأنها ليست بأشخاص سوى صفات الأنفس. وكذلك الملائكة يعتقدون أنها القوى والنفوس الحيوانية والعقول الإنسانية. وكذلك أمور الآخرة كلها من أمر الموت وما بعده من برزخ وسؤال قبر ونعيمه وعذابه وبعث ونشر وسؤال وميزان وحوض وصراط وجنة ونار وجميع أمور الآخرة الواجب على العبد أن يعلم ذلك ويأخذ علمه من الكتاب والسنّة ولا يأخذ علمه من آراء الملاحدة الذين يرون أن الموت إنما هو انحلال تركيب الجسد فقط ولا يرون عذاب القبر ولا نعيمه وينكرون بعث الأجساد والجنة والنار ويرونها هنا فقط. وغير ذلك من أمور الآخرة فضلوا عن العلم كما قال الله تعالى: ﴿وَإِنَّ كَثِيراً لَيُضِلُّونَ بِأَهْوَآئِهِمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾[(١)].

فواجب على العبد أن يضمر في باطنه علم الإيمان، ويتعلم ما يجيب به الملكين ويضمره في نفسه، ويتعلم أمور الآخرة ويفكر فيها حتى يحصل له العلم واليقين بها.

وقال النبي ﷺ: «تعلموا اليقين»[(٢)].

والخواطر تطرأ على القلب أسرع من طرفة العين والعلم ثبات القلب وصلاحه.

[٣٣٢/ أ] ويسأل الله في كل وقت/ الثبات على العلم النبوي وأن لا يضله عنه.

ألا تسمع لقول الراسخين: ﴿رَبَّنَا لاَ تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا﴾[(٣)].

---

(١) سورة الأنعام (الآية: ١١٩).

(٢) أخرجه أبو نعيم في حلية الأولياء (٦/ ٩٥)، الزبيدي في إتحاف السادة المتقين (١/ ٤٠٩).

(٣) سورة آل عمران (الآية: ٨).

والهدى هو العلم. وقال النبي ﷺ «يا مقلب القلوب ثبت قلبي على دينك»[1]. سأله الثبات على علم الدين الذي جاء به وأرسله به وهداه إليه.

فإذا فهمت هذا علمت أن القلب لا يستغني عن العلم طرفة عين لأن كل شيء يطرأ عليه وفيه فيجب عرضه على العلم النبوي فيتصوره القلب كما أمره العلم النبوي. فهذا هو الغرض الواجب تعلمه فإن العقل قائده الشرع في أمور الآخرة لا يستغني بنفسه عنه.

ثم بعد ذلك ينظر العقل ويفكر في أمور الآخرة ويطلب علمها والشغل به وبقدر إيثاره لعلم الآخرة واشتغاله به يكون من علماء الآخرة الممدوحين.

فالعقل يؤمن بما أخبر به العلم النبوي لأنه من مجوزات العقول السليمة. فالعقل يخبره ولا يخيله ويخيل ما أمره العلم النبوي أن يخيله في عالم الغيب أيضاً ويوجب ما أوجبه ويحيل ما أحاله.

وهذه المدارك الثلاثة هي مدارك العقل وعلومه لا يردها إلاّ المتصفون بالحمق القائلون في الآخرة: ﴿لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ ٱلسَّعِيرِ﴾[2]. فقولهم: ﴿لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ﴾[2] أي لو كنا نؤمن ونصدق، وقولهم: ﴿أَوْ نَعْقِلُ﴾[3] أي نعقل/ علم الشرع [٣٣٢] الذي أمرنا به في الدنيا فلم نعقله بل رددناه.

قال الله عز وجل: ﴿وَمَا يَعْقِلُهَآ إِلاَّ ٱلْعَالِمُونَ﴾[4]. وقد كانوا في ظاهر الدنيا عقلاء علماء العقل المشترك لكن العقل المكتسب العلمي من الأنبياء لم يكن عندهم منه شيء فكانوا كما قال الله تعالى فيهم: ﴿أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ إِنْ هُمْ إِلاَّ كَٱلأَنْعَامِ﴾[5]. ثم حطهم عن رتبة الأنعام فقال: ﴿بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلاً﴾[5].

فصـــل

وأما القسم الثالث من العلم في مقام الإحسان: فهو العلم بالله الذي لا تدركه الحواس وطريقة السمع.

---

(١) أخرجه الترمذي في الجامع الصحيح (٢١٤، ٣٥٢٢، ٣٥٨٧)، ابن ماجة في السنن (١٩٩)، أحمد في المسند (٣/ ١٢٢)، الحاكم في المستدرك (٢/ ٢٨٨)، ابن أبي عاصم في السنة (١/ ١٠١)، البغوي في شرح السنة (١/ ١٦٥).

(٢) سورة الملك (الآية: ١١).

(٣) جاءت هذه الآية مكررة فحذفت التكرار.

(٤) سورة العنكبوت (الآية: ٤٣).

(٥) سورة الفرقان (الآية: ٤٤).

والعقل عند أكثر العلماء وعند طائفة منهم العمل بالعلم أيضاً طريق إلى العلم فمدارك العقل والشرع العلمية ثلاثة:

معرفة ما يجب لله سبحانه.

ومعرفة ما يجوز عليه.

ومعرفة ما يستحيل عليه.

فالذي يجب له: الوجود الثابت الذي لا بُدّ منه، والبقاء الدائم أزلاً وأبداً، والكمال المنزه بالصفات الكاملة. فهذه الثلاث واجبة له عقلاً وشرعاً.

● فأما وجوب الوجود الثابت عقلاً: فإن فعلاً لا يستغني عن فاعل وقد وجدت الأفعال ضرورة فوجب وجود الفاعل عقلاً ضرورة.

وأما وجوبه شرعاً فقوله: ﴿آمِنُوا بِاللَّهِ﴾[1]. فأوجب الإيمان بوجوده ثم أمر بالنظر والاعتبار في غرائبه ليعلم ما أمر بالإيمان به.

[٣٣٣/ أ] ● وأما/ وجوب البقاء له عقلاً أزلاً وأبداً: فبطلان التسلسل في العقل فإنه لو كان محدثاً لوجب افتقاره إلى فاعل وهكذا أبداً يتسلسل حتى يضطر العقل إلى قديم واجب له القدم ضرورة، وإذا ثبت قدمه استحال عدمه.

● وأما وجوب ذلك شرعاً فقوله: ﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلاَّ وَجْهَهُ﴾[2] أي أزلاً وأبداً. وقوله: ﴿هُوَ الْأَوَّلُ وَالْآخِرُ﴾[3]، و ﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ * وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ﴾[4]، وغير ذلك.

● وأما وجوب الكمال له عقلاً بالصفات الكاملة: فقيام الدليل بأنه واحد ولو كانا اثنين لم يصح منهما وجود الأفعال. فكماله أن يكون واحداً، وقيام الدليل على علمه وقدرته لوجود إتقان واستحالة وجودها من عاجز وغير عالم وكذلك سائر صفاته.

● وأما وجوب ذلك شرعاً: فقوله عز وجل: ﴿وَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ﴾[5]، [وقوله][6]: ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلاَّ اللَّهُ لَفَسَدَتَا﴾[7] [وقوله][6]: ﴿وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾[8]،

---

(١) سورة النساء (الآية: ١٣٦).
(٢) سورة القصص (الآية: ٨٨).
(٣) سورة الحديد (الآية: ٣).
(٤) سورة الرحمٰن (الآية: ٣٦، ٣٧).
(٥) سورة البقرة (الآية: ١٦٣).
(٦) زيادة توضيحية ليست من أصل المخطوط.
(٧) سورة الأنبياء (الآية: ٢٢).
(٨) سورة الحجرات (الآية: ١٦).

[وقوله][(١)]: ﴿وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾[(٢)]، وغير ذلك من آيات الصفات، والأحاديث الواردة في أسمائه وصفاته.

وأما معرفة ما يجوز له سبحانه: فثلاثة وهي: إيجاد العالم بعد العدم، وإعدامه بعد الوجود، وإعادته بعد العدم وترك إيجاده وإعادته.

● وأما جواز ذلك في العقل: فقيام الدليل على حدث العالم بعد عدمه كما أوجده بعد عدمه فكذلك يعدمه إن شاء لأن وجوده ليس/ بواجب بنفسه بل بغيره وإذا أعدمه إن شاء [٣٣٣/ ب] فيعيده إن شاء كما أوجده بعد العدم أولاً.

● وأما إخبار الشرع عن جواز ذلك: فقوله: ﴿يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ﴾[(٣)] [و][(١)] ﴿وَهُوَ ٱلَّذِي يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ﴾[(٤)] و ﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ﴾[(٥)] و ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَفْعَلُ مَا يَشَآءُ﴾[(٦)] [و][(١)] ﴿ويُرِيدُ﴾[(٧)] وغير ذلك من الأخبار الشرعية عن أحوال العالم. والباري قادر لا يعجزه شيء.

وأما معرفة ما يستحيل عليه جل جلاله: فثلاثة: العدم، والمثل، والنقائص.

● فأما استحالة عدمه أولاً وآخراً في العقل فلو لم يكن الفاعل لم يكن فعل، وقد وجدت الأفعال فاستحال عدم الفاعل. وكذلك يستحيل عدمه في المستقبل لاستحالة عدم القدم ودليله من الشرع قوله عز وجل: ﴿أَمْ خُلِقُوا۟ مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ ٱلْخَالِقُونَ﴾[(٨)]. أي من غير خالق، وغير ذلك.

وأما استحالة مماثلته للأشياء: من العقل: فإنه لو كان مثلها لوجب له ما يجب لها ولجاز عليه ما يجوز عليها وذلك بطلان الحقائق في انقلاب الواجب جائزاً والواجب مستحيلاً. ومن الشرع: قوله: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَيْءٌ﴾[(٩)] و ﴿وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌ﴾[(١٠)] وغير ذلك.

---

(١) زيادة توضيحية ليست من أصل المخطوط.
(٢) سورة البقرة (الآية: ٢٨٤).
(٣) سورة يونس (الآية: ٤).
(٤) سورة الروم (الآية: ٢٧).
(٥) سورة الرحمٰن (الآية: ٢٦).
(٦) سورة الحج (الآية: ١٨).
(٧) يريد قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ﴾ الحج الآية (١٤).
(٨) سورة الطور (الآية: ٣٥).
(٩) سورة الشورى (الآية: ١١).
(١٠) سورة الإخلاص (الآية: ٤).

وأما استحالة النقائص عليه: من العقل: فإنه لو كان ناقصاً للزمته الآفات ولم يجب له التقديس والتبرئة. والإله لا يكون موقوفاً ناقصاً. ودليله من الشرع: قوله عز وجل: [٣٣٤/ أ] ﴿سُبْحَانَ رَبِّكَ رَبِّ ٱلْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾[(١)]، [وقوله][(٢)]: / ﴿وَمَا رَبُّكَ بِغَافِلٍ﴾[(٣)]، [وقوله][(٢)]: ﴿لاَ يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ﴾[(٤)]، وغير ذلك.

فصـــل

واعلم أن العقل أشرف موجود وبه تكتسب الفضائل بتوفيق الله تعالى ورحمته وله طرق إلى العلوم وأعوان لا يستغني عنها فمن طرقه وأعوانه الحواس الخمسة التي هي:

السمع المدرك للأصوات على اختلافها. والبصر المدرك للألوان وسطوح الأجساد وهيئاتها. واللمس المدرك للملموسات وأنواعها. والذوق المدرك للطعوم وأنواعها. والشم المدرك للروائح وأنواعها.

فهذه أعوانه في الظاهر التي يقتنص بها الفوائد.

وله في الباطن أعوان أخر:

● فمنها القوة المتخيلة: وهي التي تنطبع فيها أمثلة الصور المحسوسة المدركة بالحواس المتقدمة الذكر.

● ومنها القوة الحافظة: التي تحفظ وتحصي ما يدرس العبد من العلوم السمعية والصور المرئية المحفوظة وهي التي آفتها النسيان.

● ومنها القوة الذاكرة: يتذكر العقل بها ما حفظ وتخيل فتشاهده كما قيل: اذْكُرْ غائباً تَرَهُ، ولولا الذكر ما شاهده ولا رآه.

● ومنها القوة الظنية الوهمية: المتصرفة في الجسمانيات المحليات وبعض الممكنات وأكثرها كذب كما ورد في الخبر: «الظن أكذب الحديث».

● ومنها القوة الفكرية: الجائلة في المعقولات.

ومدارك هذه القوى المتقدمة كلها فتميز بين: الواجب، والجائز، والمستحيل.

---

(١) سورة الصافات (الآية: ١٨٠).

(٢) زيادة للإيضاح.

(٣) سورة الأنعام (الآية: ١٣٢)، هود (الآية: ١٢٣)، النمل (الآية: ٩٣).

(٤) سورة سبأ (الآية: ٣).

فيحدث عن ذلك القوة الإيمانية/ المصدقة بالغائبات المخبر عنها أو المكذبة الجاحدة. [٣٣٤/ ب]

فإذا نظر العقل بحواسه في المحسوسات علم أن ربه ليس من قبيل المحسوسات ولا يدرك بالحواس. وكذلك ينظر في القوة المتخيلة فيعلم أنه ليس من قبيل المتخيلات ولا يدرك بالخيال لأن المتخيل إنما هو صورة للمحسوس. وكذلك ينظر في القوة الحافظة فيعلم أن ربه لا يحصر ولا يحاط به فيضبط ويزم كسائر المحفوظات والمزمومات. وكذلك يتذكر ما حفظ وتخيل ورأى فيعلم أنه ليس من قبيل ما تذكر وعهد من المعهودات. وكذلك ينظر في الوهمية الظنية فيعلم أنه ليس من قبيل المتوهمات. وينظر بالفكرية فيلحق كل شكل بشكله فيستدل على ربه ويعلم أنه مخالف لجميع المدركات فيصدق بالقوة الإيمانية أنه واجد[١] ليس كالموجودات، ويجحد بالمكذبة أن يكون مثل شيء من المحدثات فأوجب لله ما يجب وجوز عليه ما يجوز وأحال عنه ما يستحيل.

وله في كل قوة منها فائدة عظيمة من حيث أنه ينفي عن الله أنه ليس متوهماً، ولا محسوساً، ولا متخيلاً، ولا محبوساً مخالطاً به إلى أمثال ذلك.

وأما طريق العمل: فإن طائفة من خيار العلماء تقول: إن من عمل بالعلم وأخلص عَلّمه الله من لدنه علماً. وله دلائل من القرآن والسنّة:

/ قال الله جل جلاله: ﴿إِن تَتَّقُواْ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّكُمْ فُرْقَانًا﴾[٢]. وفي الخبر: «من عمل [٣٣٥] بما علم ورثه الله علم ما لم يعلم»[٣].

إلا أنه لا بد لصاحب هذا المقام أن يورد ذلك على أدلة الكتاب والسنة فإن كان مما يجب أو يجوز على الله قبله وصدق به وإن كان مما يستحيل عليه نفاه وجحده.

مَنَّ الله علينا وعليكم بتوفيقه وهدايته وأيدنا وإياكم بروح متصل الإمداد من عنده في الدنيا والآخرة بمنه وفضله. آمين.

وصلى الله على محمد خاتم النبيين وسلم تسليماً.

---

(١) في الأصل: موجود، وأثبت الأولى.
(٢) سورة الأنفال (الآية: ٢٩).
(٣) ذكره ابن الجوزي في تذكرة الموضوعات (٢٠)، الشوكاني في الفوائد المجموعة (٢٨٩)، الألباني في الضعيفة (٤٢٢)، العجلوني في كشف الخفا (٢/ ٣٦٥).

الشعبة التاسعة والخمسون: اليقيـن

أما كون اليقين من الإيمان فبيّن لأن الإيمان لا يثبت إلاّ به فإنه حقيقة الإيمان وأساسه.

وقال النبي ﷺ لأبي هريرة: «اذهب بنعلي هاتين فمن لقيت من وراء هذا الحائط يشهد أن لا إله إلا الله مستيقناً بها قلبه فبشره بالجنة»[١]. فذكر يقين القلب في الإيمان.

وقال علي رضي الله عنه: الإيمان على أربع دعائم: على الصبر، واليقين، والعدل، والجهاد. فجعله دعامة الإيمان به يثبت.

ولذلك قال ابن مسعود: اليقين الإيمان كله. لأن بثباته يثبت الإيمان وبزواله زوال الإيمان وبه يطمئن القلب ويسكن.

قال الله عز وجل لإبراهيم عليه السلام: ﴿أَوَلَمْ تُؤْمِن قَالَ بَلَىٰ وَلَـٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِي﴾[٢].

واليقين هو المطالعة والمعاينة وإن شئت قلت المكاشفة والمشاهدة للشيء المصدق به وهو على ثلاثة أضرب:

ضرب في عالم الحس ومقام الإسلام.
وضرب في عالم الغيب ومقام الإيمان.
وضرب في عالم الغيب ومقام الإحسان.

أما الضرب الأول فهو اليقين بالأنبياء والرسل وما جاءت به الشرائع الإسلامية:

فإنهم شرعوا الشرائع في عالم الحس كما أخبروا عن الغيب وهم ظاهرون مع الخلق ولا يثبت الإيمان إلاّ باليقين بأنهم أنبياء.

فصـــل

اعلم أن طريق اليقين بهم على ضربين:

أحدهما: يقين التواتر.

---

(١) أخرجه مسلم في الصحيح (الإيمان ٥٢)، أبو عوانة في المسند (١/ ١٠)، المتقي الهندي في كنز العمال (١١٢).

(٢) سورة البقرة (الآية: ٢٦٠).

والثاني: يقين المعجزة.

فأما التواتر: فقد تواتر بنقل الكافة عن الكافة وجود الأنبياء في الدنيا فلا يشك أحد أن نبينا محمداً ﷺ بعث بمكة وهاجر إلى المدينة ومات بها وأنه المدفون المزور الآن قبره بالمدينة. وكذلك سائر الأنبياء المتقدمين قبله وإن لم يشاهد قبورهم فقد تواتر بنقل الأمم من اليهود والنصارى وغيرهم أنهم كانوا بعثوا في الدنيا إلى الخلق كنوح وهود وشعيب إلى عيسى عليه السلام. / كالتواتر بوجود مكة والعراق والشام وغير ذلك وإن لم يدخلها [٣٣٦/ أ] الإنسان ولا شاهدها بل أيقن بذلك بتواتر النقل عن وجودها. فكذلك يوقن بتواتر النقل عن وجود الأنبياء وبعثهم إلى الأمم.

وأما يقين المعجزة: فإنهم لما طولبوا بيقين ما أتوا به وادعوه من الأنباء أتوا بالمعجزات الخارقة للعادة ظاهراً للحس فحصل اليقين بهم من جهة المعجزة أنهم أنبياء مرسلون. فإذا ثبت أنهم أنبياء مرسلون وجب اتباعهم في الشرائع الإسلامية وغيرها والعمل بذلك على اليقين فمن حصل له اليقين بوجودهم ومعجزاتهم ثبت له أن الإسلام حق بلا شك فهو يعمل على بينة وبصيرة أي يعمل على يقين بالمعبود وأنه ثبات على أعمال الإسلام وعلى ترك المنهيات وإن لم يعمل ويترك على يقين لم ينفعه ذلك. وكذلك سائر المباحات الدنياوية لا يثاب على شيء ينوي به الصلاح إن لم يكن موقناً فقد تبين أن اليقين داخل في الأمور الشرعية كلها المتعبد بها الإنسان.

فصـــل

وأما الضرب الثاني من اليقين في مقام الإيمان وعالم الغيب: فإنه اليقين بالدار الآخرة، قال الله عز وجل: ﴿وَهُمْ بِٱلْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ﴾(١).

وهو مقام عزيز وهو على درجات وأقل درجة منه/ ما ثبت بـ الإيمان واطمأن به [٣٣٦/ ب] القلب. وذلك أن الأنبياء لما ثبتت نبوتهم بالمعجزات الخارقة المعادات علمت العقول بالبراهين القاطعة الضرورية أنهم صادقون في كل ما أخبروا به غيباً كان أو شهادة، وتبرهن عند العقول أنهم لا يكذبون ولا يجوز عليهم الكذب. فكل ما أخبروا عنه فهو كما أخبروا من غير زيادة ولا نقصان لأنهم عن الله أخبروا: ﴿وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ ٱللَّهِ حَدِيثاً﴾(٢).

(١) سورة لقمان (الآية: ٤).
(٢) سورة النساء (الآية: ٨٧).

فأيقنت القلوب بكل ما أخبروا به من أمور الغيب وانتفى عنها الريب في أنهم أنبياء[1]. ن النبي إنما معناه الخبير والمخبر فإنه يخبر بالغيبيات التي اطلع عليها. لولا ذلك ما نبىء ولا سمي نبياً لأنه لم يكن نبياً لنفسه فإن أحداً لا يشك أن النبي إنسان وإنما كان نبياً بالخبر واليقين بالحقيقة إنما وقع بالخبر الذي أتى به النبي والشرع الذي شُرع ومن شرع الأنبياء الإخبار عن الغيوب.

فقد حصل بحمد الله اليقين بالأنبياء من هذا الوجه وثبت به الإيمان لكل مؤمن والحمد لله وهو أول درجة من اليقين ووراءه درجات من علم اليقين بما يتفاضل الموقنون كما ورد في الخبر: «ليس المخبر كالمعين»[2]. كما قال الموقن: لو كشف الغطاء/ ما ازددت يقيناً. وكما قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه في صفة الموقن: أنه ينظر إلى الآخرة من وراء ستر رقيق. [٣٣٧/ أ]

وإنما توصل إلى هذا المقام بكثرة ترداد الفكر والنظر في أمور الآخرة والتفهم لكتاب الله عز وجل الذي هو اليقين، وأخبار الرسول التي هي وحي. قال الله عز وجل في القرآن: ﴿إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ * وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ﴾[3] إلى قوله: ﴿وَإِنَّهُ لَتَذْكِرَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ﴾[3] إلى قوله: ﴿لَحَقُّ الْيَقِينِ﴾[3]. أي إذا تحققت الشيء على ما هو به فقد أيقنت به كما قال الله عز وجل في الذاريات: ﴿فَوَرَبِّ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِنَّهُ لَحَقٌّ مِّثْلَ مَا أَنَّكُمْ تَنطِقُونَ﴾[4] وقال في سورة النور: ﴿يَوْمَئِذٍ يُوَفِّيهِمُ اللَّهُ دِينَهُمُ الْحَقَّ وَيَعْلَمُونَ أَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ الْمُبِينُ﴾[5]. أي يوقنون أن الله حق إذا كشف الغطاء ورأوا أن القوة لله جميعاً.

وبذلك سميت القيامة الحاقة لأنها تحقق الأشياء الغائبة عند مبصريها إذا قامت ولا يشك في شيء منها.

فعلم اليقين موجود في القرآن والسُّنة وإذا قرأ التالي الآية من القرآن والحديث من السنة وتفهم ما أخبرت به لاحت له دلائل علم الآخرة وحصل له اليقين قال الله عز وجل: ﴿لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ الْيَقِينِ * لَتَرَوُنَّ الْجَحِيمَ﴾[6].

---

(١) جاء بعدها عبارة: أم لا ورأيت أنها زائدة تجعل المعنى لا يصل إلى الذهن بسرعة فحذفتها.

(٢) ذكره الفتني في تذكرة الموضوعات (٢٠٤)، العجلوني في كشف الخفا (٢/ ٢٣٦)، ابن عدي في الكامل في الضعفاء (١/ ٢٠٣)، أحمد في المسند (١/ ٢٧١)، الخطيب في تاريخ بغداد (٣/ ٣٦٠).

(٣) سورة الحاقة (الآية: ٤٠ ـ ٥١).

(٤) سورة الذاريات (الآية: ٢٣).

(٥) سورة النور (الآية: ٢٥).

(٦) سورة التكاثر (الآية: ٥، ٦).

وهذا المقام الناس/ فيه على حالين من الكشف: [٣٣٧/ ب]

كشف علمي مأخوذ من الكتاب والسنة وبراهين العقل المكتسب من الأنبياء.

وكشف آخر من قبيل الرؤيا مخصوص به أهل الكشوفات.

وذلك من نوع كشف مريم ابنة عمران حين رأت الملك فتمثل لها بشراً سوياً ولم تكن بنبية ولا رسولاً لأن المرأة لا تكون إماماً. ومن قبيل قول الصحابي يوم أحد وهو أنس بن النضر عم أنس حين لقي سعد بن معاذ فقال له: إلى أين يا سعد؟ [فقال][1]: إني أجد ريح الجنة دون أحد.

فهذا عبد أخبر عن وجده حين كشف له عن الآخرة فوجد ريحها. كما وجد يعقوب ريح يوسف عليهما السلام على مسافة بعيدة. وأمثال هذا في أخبار المكاشفين الموقنين يطول ذكرها.

وقد رأى النبي ﷺ الجنة والنار في عرض الحائط وقال: «الجنة أقرب إلى أحدكم من شسع نعله والنار كذلك»[2].

وكما ينظر الميت إلى الآخرة والأملاك حوله ولم يزل عن مكانه والناس حوله جلوس لا يرون ما يرى حين كشف له الغطاء. فإن الآخرة غيب في باطن الدنيا كما النفس غيب في الجسد. فكما يعلم يقيناً أن النفس تحرك الجسد وتظهر أسرارها فيه وعليه لأنه ملكها فكذلك الآخرة زوج الدنيا هي المحركة لها والقائمة بها فيها تظهر أسرارها وأحكامها فإذا نظر/ الناظر وفكر في الآيات والأحاديث واشتغل بالفكر والإقبال على الآخرة نظر إلى [٣٣٨/ أ] الآخرة فرآها غيباً في الدنيا كما ينظر إلى نفسه غيباً في الجسد فيوقن بها.

فعليك بطلب علم اليقين.

جعلنا الله وإياكم من الموقنين أهل السعادة في الدنيا والآخرة. آمين. آمين.

وصلى الله على محمد وآله وسلم تسليماً.

فصل

وأما الضرب الثالث من اليقين في مقام الإحسان: فهو اليقين بالله جل جلاله والناس

(١) ما بين المعقوفين زيادة يقتضيها السياق.

(٢) أخرجه البخاري في الصحيح (٨/ ١٢٧)، أحمد في المسند (١/ ٣٨٧)، البيهقي في السنن الكبرى (٣/ ٣٦٨)، الخطيب في تاريخ بغداد (١/ ٣٨٨)، أبو نعيم في حلية الأولياء (٧/ ١٢٥)، ابن حجر في فتح الباري (١١/ ٣٢١)، التبريزي في مشكاة المصابيح (٢٣٦٨)، المتقي الهندي في الكنز (٤٣٠٥٥).

فيه درجات على قدر نفوذ بصائرهم في مقامات المشاهدة فأولى درجة منه: ما ثبت به الإيمان وانتفى به الريب. وبعدها: ما يقوى به الإيمان من البراهين العقلية النظرية. وبعدها ما نزلت من السكينة في قلوب المؤمنين وهو مزيد من الله لمن شاء من عباده وكشف لبصائر الموقنين فينظروا إليه في ملكوت الغيب بنوره الذي به ظهر كل موجود قال النبي ﷺ: «إن الله خلق الخلق في ظلمةٍ ثم ألقى عليهم نوره فمن أصابه من ذلك النور اهتدى ومن أخطأه ضل».

فتفاضل الموقنين والمبصرين على قدر ما أصابهم من ذلك النور وكشف لهم منه، قال الله عز وجل: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ ٱللَّيْلُ وَٱلنَّهَارُ وَٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ﴾[1].

فالليل ظلمة به تخفى الأشياء ولا تظهر فينعدم عن الأبصار فهو دليل على العدم وعلى [٣٣٨/ ب] الإلهية/ الباطلة فقد دل الليل على وجود الباري، كما دل النور الذي هو النهار والشمس والقمر، ذلك أن الليل يعدم الأشياء عن الأبصار ويخفيها وينام الخلق فيه ولا يبقى لهم حس فيقول لو كان الإله عدماً وباطلاً لم يوجد فعل ولا موجود لأنه لا ظلمة أخفى من العدم، والعدم ليس بشيء فكيف يوجد شيئاً وقد ظهرت الأشياء ووجدت فعلم أن الصانع لها موجد[2] حق فقد دل الظلام على وجوده سبحانه دلالة قطعية.

وأما النهار والأنوار فهي أجلى وأوضح. وذلك أن النهار الذي هو الضياء به تظهر الأشياء وتبين وتُرى لأن الضياء على سطوح المُبصرات وهو يجليها وهو متصل بالأبصار المبصرة للألوان وصور الأشياء.

وذلك الضياء قابض عن قرص الشمس فإن القرص سبب له فلولا النور[3] لم تظهر الأشياء.

فالنور هو شدة ظهور الوجود وغاية وضوحه وبه ظهرت الأشياء كما تقدم: ﴿ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَاوَاتِ وَٱلْأَرْضِ﴾[4] به ظهرت الأشياء ووجدت ولو لم يكن موجداً لما ظهرت أبداً ولا وجدت فلو قدر عدمه وغيبه عن الوجود طرفة عين لانعدم الوجود بأسره في تلك الطرفة ولم

---

(١) سورة فصلت (الآية: ٣٧).

(٢) في الأصل: موجود فاستبدلت الكلمة بالأولى منها كما بينت سابقاً.

(٣) كذا قال وإنما مقصده بسبب النور وقد تكلمت في أكثر من موضع على حرصه رحمنا الله وإياه على تحرير التوحيد من كل شبهة.

(٤) سورة النور (الآية: ٣٥).

يكن أبداً. كما لو قدرت كسوفاً عظيماً يأتي بغتة فيكسف الشمس كلها ولا يبقي شيئاً من/ [٣٣٩/ أ] النيرات لما ظهر شيء من الأشياء ولانعدمت الأشياء من الأبصار.

فبالحقيقة إنما يرى على الأشياء النور الذي يظهرها. وكذلك بالحقيقة لا ترى العقول في الوجود إلاّ نور الأنوار الذي به ظهرت الأشياء كلها وبه تُرى الأشياء كلها وبه ترى الأشياء وتبصر.

والأشياء كلها أصلها لا من شيء ليس من طبعها ووصفها ظهور بنفسها فطبعها الرجوع على التلاشي والعدم الذي هو أصلها ووجود الباري وكونه وإرادته يمنعها من التلاشي ويظهرها بكونه موجداً فهو الظاهر حقيقة وكل شيء ما خلا الله باطل.

وقد أخبر الله عن رأس الموقنين وإمام المشاهدين إبراهيم الخليل عليه السلام فقال: ﴿إِنِّيٓ أَرَاكَ وَقَوْمَكَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ * وَكَذَٰلِكَ نُرِيٓ إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ ٱلسَّمَاوَاتِ وَٱلْأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ ٱلْمُوقِنِينَ﴾(١).

ثم أخبر عن مشاهدته وسداد نظره ومكاشفته فقال: ﴿فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ ٱلَّيْلُ رَأَىٰ كَوْكَباً قَالَ هَٰذَا رَبِّي فَلَمَّآ أَفَلَ﴾(١) أي غاب وذهب ﴿قَالَ لَآ أُحِبُّ ٱلْآفِلِينَ﴾(١) ثم كذلك في القمر والشمس ثم كذلك في جميع المفطورات فقال: ﴿وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ ٱلسَّمَاوَاتِ وَٱلْأَرْضَ حَنِيفاً وَمَآ أَنَاْ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾(١) به شيئاً من الأشياء لأنها أفلت زائلة ذاهبة أزلاً وأبداً وإنما وجهت وجهي للفاطر لها من العدم الذي هو أصلها وليس بمفطور/ ولا آفل فلم [٣٣٩/ ب] يغب عن الوجود أزلاً ولا يغيب أبداً.

فملكوت السماوات والأرض الذي أراه سبحانه هو رؤيته عليه السلام ملكه سبحانه للأشياء وكيف قامت به لا بأنفسها: ﴿قُلْ مَنْ بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ﴾(٢). فالكل بيده يزمه ويظهره ويجيد ملكه وهي صنعته للأشياء بالقدرة. فكان يرى الصانع في الصنعة ظاهراً به لا بنفسها.

وتقول العرب: ملكت العجين أملكه ملكاً إذا أجدت عجنه وصنعت عجينة.

فملكوت الله للأشياء هو صنعه لها وكيفية قيامه بها بالصنعة والإيجاد والإنشاء وإظهاره لها به لا بأنفسها.

---

(١) سورة الأنعام (الآيات: ٧٤، ٧٥، ٧٦، ٧٩).

(٢) سورة المؤمنون (الآية: ٨٨).

فهذه مكاشفة الموقنين ومشاهدة الموحدين وهم فيها درجات على قدر ما قسم لهم من ظهور النور المبين لا يرى سبحانه إلا بنوره ولا يشهد إلا بحضوره[١].

وانظر إلى إمام المعتبرين الخليل عليه السلام كيف سلك هذا المسلك في نظره القويم فلم ينظر إلاّ إلى الكوكب ولم ينظر إلى غيره من الأشياء المجسمة وإن كثرت في عينه لأن الكوكب بنوره وهو واضح وجوداً منها لأن الوجود هو الظهور والنور أشد ظهوراً من غيره من الأجساد فهو ظاهر في نفسه وظهر به غيره.

ثم لمّا أفل أنف منه وارتقى إلى القمر الذي هو أشد ظهوراً منه ثم إلى الشمس التي هي أكمل/ نوراً ثم لمّا رأى الأفول والتغير لازماً للكل تبرأ من الكل وتوجه بنظره إلى الذي لم يأفل ولا يأفل أبداً. [٣٤٠/ أ]

فصـــل

إذا فهمت ما تقدم وتحققت فاقرن إليه تلاوة كلام الله الذي نزله إلى صدرك حتى حفظته وأنطق به لسانك وأعلمك كيف تتلوه[٢] فإنه هو يلقي التلاوة في قلبك وينطق به لسانك فكلامه في قلبك ولسانك وهو أقرب إليك منك ﴿فَٱسْتَمِعْ لِمَا يُوحَىٰٓ﴾[٣].

وإنما سُمي العبد تالياً والتالي في لسان العرب: هو التابع فسمي القارىء تالياً لأنه تالٍ أي تابع أي يتلو بعد أن ألقى المتلو عنه وهو المحرك لسان عبده بالتلاوة.

فإذا كان هو المخاطب لك وأنت مناج له في مقام المناجاة والمجالسة[٤] فاجعل جسدك المخلوق من الجبلّات والطوائر الأربع بمنزلة الجبل، وباطنه الخفي في الستر عن الحواس الوادي الأيمن والوادي في لسان العرب: ما اختفى من الأرض وهو من جانب الباطن الأيمن: ﴿أَصْحَابُ ٱلْيَمِينِ مَآ أَصْحَابُ ٱلْيَمِينِ﴾[٥]. وهو محل الإيمان: «والحكمة

---

(١) يريد رؤيا الروح بالإعظام له لا رؤيا الذات الربانية تعالى الله عن ذلك ففي الدنيا لا يراه أحد كما وردت بذلك الأخبار.

(٢) في الأصل: واعلم كيف يتلوه. وهو تحريف.

(٣) سورة طه (الآية: ١٣).

(٤) يقصد جلسات الخلوة بالنفس والتفكر في ملكوت المولى عز وجل.

(٥) سورة الواقعة (الآية: ٨، ٢٧).

يمانية والإيمان يمان»[1] ﴿فَأَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ مَا أَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ﴾[2]، ﴿وَالسَّمَاوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ﴾[2]. وفيه البقعة المباركة الحافظة للكتاب المبارك: ﴿وَهَذَا كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ﴾[3]. وبه كانت مباركة من الشجرة وهي في هذا الاعتبار شجرة التوحيد في هذا المقام برؤية كل شيء من الله وبالله هي/ الكلمة الطيبة التي ﴿أَصْلُهَا ثَابِتٌ﴾[4] أي راسخ في [٣٤٠/ ب] سر السر ﴿وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاءِ﴾[4] [و] ﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ﴾[5].

فاجعل لسانك من ورائك وفي قلبك ﴿وَاتْلُ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِن كِتَابِ رَبِّكَ﴾[6]، و ﴿فَاسْتَمِعْ لِمَا يُوحَىٰ﴾[7] فستنادى ويغشاك من نور المتجلي لك في كلامه وينالك من شهاب قبس ضيائه ما يوضح لك الحق المبين.

قال جعفر بن محمد الصادق رضي الله عنه: والله لقد تجلى الله لخلقه في كلامه ولكن أكثرهم لا يعلمون. أو كما قال. وقال عز وجل: ﴿لَوْ أَنزَلْنَا هَذَا الْقُرْآنَ عَلَى جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُ خَاشِعاً مُّتَصَدِّعاً مِّنْ خَشْيَةِ اللَّهِ﴾[8]. ثم قال: ﴿وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾[8].

هذان الطريقان اللذان هما النظر المتقدم وسماع كلام الله هما طريق اليقين وفيهما يوجد الحق المبين. وباليقين تفاضل الناس وهي أعز ما نزل من السماء وفيه تظهر أعلام القدرة وتخرق العوائد لمن أريد به طريقها، فيه مشوا على الماء وفي الهواء[9] وذلت لهم السباع والهوام ورأوا الآيات وعجائب الكشف والكرامات وتعبر عن حال مكاشفة اليقين بالسنات وهي حالة بين النوم عن الدنيا واليقظة بالآخرة. والناس في الدنيا نيام بالإقبال عليه

---

(١) أخرجه البخاري في الصحيح (٤/٢١٧)، مسلم في الصحيح (الإيمان ٨٢، ٨٤)، أحمد في المسند (٢/٢٣٥)، البيهقي في السنن الكبرى (١/٣٨٦)، الطبراني في الكبير (١١/٣٢٩)، الحميدي في المسند (١٠٤٩)، أبو عوانة في المسند (١/٥٩).

(٢) سورة الزمر (الآية: ٦٧).

(٣) سورة الأنعام (الآية: ٩٢).

(٤) سورة إبراهيم (الآية: ٢٤).

(٥) سورة فاطر (الآية: ١٠).

(٦) سورة الكهف (الآية: ٢٧).

(٧) سورة طه (الآية: ١٣).

(٨) سورة الحشر (الآية: ٢١).

(٩) ما كان ينبغي لعالم جليل مثله أن يقول مثل هذا الكلام أو أن يعلق بتوحيده مثل هذه الشوائب وهو الذي ينادي ويدعو في كتابه إلى التمسك به ولكن لكل جواد كبوة ولكل عالم زلة وصلى الله على من عصمه ربه بعصمته وحفظه بحفظه ورعاه برعايته والله نسأل حسن الختام بالموت على دين الإسلام اللهم آمين.

[٣٤١/ أ] فإذا ماتوا عنها بالموت أو الانقطاع إلى الله والدار/ الآخرة وهم فيها في حالة بين حالتين وتحسبهم فيها أيقاظ وهم رقود عنها بالمكاشفة أبداً باليقين حالة أهلها كالسِّنَة بين النوم واليقظة.

وقال الله عز وجل: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَكَانُواْ يَتَّقُونَ * لَهُمُ ٱلْبُشْرَىٰ فِي ٱلْحَيَاةِ ٱلدُّنْيَا﴾(١).

والفرقان هو الذي جزأ التقوى من البشرى والبشرى هي(٢) الرؤيا الصالحة.

والرؤيا على ضربين: رؤيا النوم المعهود، ورؤيا المكاشفة. قال النبي عليه الصلاة والسلام: «لم يبق بعدي من النبوة إلاَّ المبشرات»(٣). وقد قال الله عز وجل في مشاهدة النبي عليه الصلاة والسلام ومكاشفته للغيب ليلة الإسراء: ﴿وَمَا جَعَلْنَا ٱلرُّؤْيَا ٱلَّتِيٓ أَرَيْنَاكَ إِلَّا فِتْنَةً لِّلنَّاسِ﴾(٤). فسماها رؤية. قال ابن عباس رضي الله عنه: هي رؤيا عين أُريها رسول الله ﷺ ليلة الإسراء.

وذكر النبي عليه الصلاة والسلام حديث الإسراء وما رأى إلى آخره ثم قال: «ثم نزلت فاستيقظت فإذا أنا بمكة». فذكر في الصحيح: أنه نزل من مقام العلو الذي رقا إليه بالمعراج وغيره وأنه استيقظ حين شاهد هذا العالم لأنه قد كان نام عنه بالخروج منه والإقبال على غيره.

وروى مسلم والبخاري أيضاً عن مالك بن أبي صعصعة قال: قال النبي ﷺ: «بينا أنا [٣٤٠/ ب] عند البيت» أو قال: «في الحطيم بين/ النائم واليقظان إذ جاءني ثلاثة نفر»(٥).

فعبر عن حالةٍ بين حالتين وهو السبات الذي هو كالسِّنة فإن المفكر والناظر في الفرق بين العالم الفاني والباقي والدنيا والآخرة حالة بين حالتين فإذا فهمت هذا لم يشكل عليك شيء من أمر المكاشفة وخرق العوائد لأنها من عالم الملكوت المتصل بعالم الملك والناس في الكشف على أنواع شتى كل مكاشف ومنادى بما أريد به.

---

(١) سورة يونس (الآية: ٦٣، ٦٤).

(٢) جاءت في الأصل: هو. وهو تحريف.

(٣) أخرجه البخاري في الصحيح (٩/ ٤٠)، البغوي في شرح السنة (١٢/ ٢٠٢)، ابن حجر في فتح الباري (١٢/ ٣٧٥)، الألباني في الصحيحة (٤٧٤)، المتقي في الكنز (٤١٤١٨، ٤١٤٥).

(٤) سورة الإسراء (الآية: ٦٠).

(٥) أخرجه البخاري في الصحيح (٤/ ١٣٣)، مسلم في الصحيح (١٥٠)، أحمد في المسند (٤/ ٢٠٧)، أبو عوانة في المسند (١/ ١١٦)، ابن عدي في الكامل (٣/ ٩٣٠)، (٦/ ٢٤٢٠).

وقال الجنيد: مشى قوم باليقين على الماء ومات آخرون بالعطش وهم أرجح منهم يقيناً[١].

رزقنا الله وإياكم مبرة الموقنين وجعلنا من أهل اليقين التام في عافية كاملة من جميع المحن في الدنيا والآخرة بمنه وكرمه. آمين. آمين.

وصلى الله على محمد وعلى آله الطيبين وسلم تسليماً.

الشعبة الموفية ستين: كراهية الكفر بالله

وهو والإيمان بالله قرينان لا يفترقان.

فأما دليل كونه من الإيمان فبين: قال الله عز وجل: ﴿حَبَّبَ إِلَيْكُمُ الْإِيمَانَ وَزَيَّنَهُ فِي قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ الْكُفْرَ وَالْفُسُوقَ وَالْعِصْيَانَ﴾[٢]. وقال: ﴿فَمَن يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِن بِاللَّهِ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَىٰ﴾[٣]. فقرنه بالإيمان معاً إذ هما لا يفترقان.

وفي الصحيح عن أنس: «ثلاث من كن فيه وجد حلاوة/ الإيمان: من كان الله ورسوله أحب إليه مما سواهما، ومن أحب عبداً لا يحبه إلا لله، ومن يكره أن يعود في الكفر بعد إذ أنقذه الله منه كما يكره أن يلقى في النار»[٤]. [٣٤٢/ ٢أ]

فذكر أن هذه الشعبة التي هي كراهة العود في الكفر بها توجد حلاوة الإيمان التي هي أعلى المقامات.

فصـــل

اعلم أن الكفر على ضربين: كفر هو الجحود والشرك. وكفر هو كفر النِّعم.

---

(١) هذا كلام الجنيد والجنيد منا على العين والرأس ولكنا أمرنا آن نعبد الله عز وجل بما صح عن نبينا ﷺ والكل يعرف أنه قد دُسَّ على حديث رسول الله ﷺ فكيف بالإمام الجنيد. وإن صح مثل هذا عن الجنيد رحمه الله فيحتمل أن يكون على سبيل المجاز لا على الحقيقة والله لنا وللجنيد وللمؤلف ولوالدينا ولأبنائنا ولزوجاتنا ولإخواننا ولسائر المسلمين نسأل حسن الختام والموت على دين الإسلام. آمين آمين.

(٢) سورة الحجرات (الآية: ٧).

(٣) سورة البقرة (الآية: ٢٥٦).

(٤) أخرجه النسائي في المجتبى (الإيمان ب ٤)، الطبراني في المعجم الكبير (٨/ ٣١٤)، أبو نعيم في تاريخ أصبهان (٢/ ٧١).

وفي الصحيح في صفة النساء: «يكفرن الإحسان ويكفرن العشير»(١).

وقال الله عز وجل: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ بَدَّلُواْ نِعْمَةَ ٱللَّهِ كُفْراً﴾(٢).

فإذا فهمت هذا فاعلم أن كراهة الكفر على ثلاثة أضرب:

ضرب في مقام الإسلام.
وضرب في مقام الإيمان.
وضرب في مقام الإحسان.

ولما كانت نعم الله قد شملت الوجود كله ظاهراً وباطناً كما قال تعالى: ﴿وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُ ظَاهِرَةً وَبَاطِنَةً﴾(٣). والباري سبحانه وتعالى هو المنعم بها وهو الحق المبين الموجود الذي لا بد منه ولا غنى عنه. وجب أن لا يكفر به ولا يجحد وجوده ولا تكفر نعمه ظاهراً وباطناً.

فأما الضرب الأول في مقام الإسلام: فالواجب على العبد أن يكفر بكل ما يدعى من دونه من إله وأن يكره ذلك كله ويكره العود والدخول في ذلك كله أين كان ومن كان. وإذا تلبس بأفعال الطاعة لله كره أن يضيف شيئاً منها إلى غير الله وأن يشرك فيها غيره. ويكره/ [٣٤٢/ ب] العصيان والمخالفات لله فإن ذلك كفر النعم.

وقال النبي ﷺ: «سباب المسلم فسوق وقتاله كفر»(٤). وقال الله عز وجل: ﴿وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ ٱلْكُفْرَ وَٱلْفُسُوقَ وَٱلْعِصْيَانَ﴾(٥).

وكذلك يكره أن يضيف شيئاً من نعم الله الظاهرة إلى غير الله فإن ذلك من دقائق الشرك. بل يرى كل شيء من الله وقلبه مطمئن إليه ولسانه شاكر له غير كافر.

وإذا تلبس بالمباحات والكسبيات فلا يريد بها غير الله ولا يطغى بها ويستكبر وليكره

---

(١) أخرجه البخاري في الصحيح (١/ ١٤)، (٢/ ٤٦)، النسائي في المجتبى (٣/ ١٤٨)، البيهقي في السنن (٣/ ٣٢١)، مالك في الموطأ (١٨٧).

(٢) سورة إبراهيم (الآية: ٢٨).

(٣) سورة لقمان (الآية: ٢٠).

(٤) أخرجه البخاري في الصحيح (١/ ١٩)، (٨/ ١٨)، (٩/ ٦٣)، مسلم في الصحيح (الإيمان ب ٢٨ رقم ١١٦)، الترمذي في الجامع الصحيح (١٩٨٣، ٢٦٣٥)، النسائي في المجتبى (٧/ ١٢٢)، ابن ماجة في السنن (٦٩، ٣٩٣٩، ٣٩٤٠)، أحمد في المسند (١/ ٣٨٥)، البيهقي في السنن الكبرى (١/ ٣٠٩)، البغوي في شرح السنة (١/ ٧٦).

(٥) سورة الحجرات (الآية: ٧).

ذلك كله فإنه من كفر النعم ودقائق الشرك.

فقد عم كراهة الكفر العود فيها جميع الظواهر كلها جليها ودقيقها.

وكذلك يكره كلام الملاحدة والجلوس معهم والأخذ من مراسلتهم بالإدلال والتأنس بهم فإن ذلك كله سائق إلى الكفر. قال الله عز وجل: ﴿يَآ أَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ ٱلْيَهُودَ وَٱلنَّصَارَىٰٓ أَوْلِيَآءَ﴾[1]. وقال: ﴿لَّا يَتَّخِذِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلْكَافِرِينَ أَوْلِيَآءَ﴾[2]. وإنما أمر بالكراهة لمذاهبهم في هذه الآيات.

وإذا كره العبد كل كفر في بلاد الكفر كلها وهو في موضعه جالس وورد أن ذلك كله عاد إيماناً بالله حتى لا يوجد كفر به أُجر على ذلك وكان من أكبر الحسنات. كما أنه لو أحب ذلك واستحسنه لكان كفراً. فالواجب على العبد أن يكره كل شرك في الوجود وأن يكره العود فيه بلسانه وقلبه وجوارحه/ كما يكره أن يلقى في النار. [٣٤٣/ أ]

عصمنا الله وإياكم من جميع أنواع الكفر ومن النار في كل حال من أحوال الدنيا والآخرة. آمين. آمين.

وصلى الله على محمد وآله وسلم تسليماً.

فصـــل

وأما الضرب الثاني من هذا المقام في مقام الإيمان: فإن الآخرة غيب وقلب العبد محل الإيمان وهو غيب أيضاً وقد أمر العبد بالإيمان بالآخرة وترك الكفر بها والكراهة من وصف القلب.

فيكره الكفر بشيء من أمور الآخرة والشك في شيء منها ولا يطمئن إلى الخواطر الرديئة الدالة على الشك والكفر بالآخرة فإنها ترد على القلوب فتنة واختباراً. بل ينفر عنها ولا يقبلها ويكره ذلك ويتبرأ منه ،يطمئن بقلبه إلى ضدها فبذلك يجد حلاوة الإيمان وطمأنينة الأمن من حيرات الشكوك والكذ . ويكره أن يعتقد في الموت وما بعده من قبر وبرزخ وحشر وميزان وسؤال وصراط ، جنة ونار وغير ذلك من أمور الآخرة ومذاهب الملاحدة وأن يجحد شيئاً من ذلك فيكون مؤمناً كما أمر.

(١) سورة المائدة (الآية: ٥١).
(٢) سورة آل عمران (الآية: ٢٨).

فصـــل

وأما الضرب الثالث من هذا المقام في مقام الإحسان: فهو كراهة الكفر في غيب الغيب فإن الخواطر طارئة على القلوب اختباراً. ألا ترى إلى كراهة النبي عليه الصلاة والسلام للكفر في هذا المقام والاستغاثة إلى الله بالدعاء فقال: «يا مقلب القلوب ثبت قلبي على دينك»[1]. / حين شاهد الوجود كله بين أصبعين يقلبه كيف شاء. [٣٤٣/ ب]

فهو أعظم الناس كراهية للكفر وهو سيد الأولين والآخرين وكذلك الراسخون في العلم حيث قالوا: ﴿رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا﴾[2]. لما كرهت قلوبهم الزيغ استغاثوا إلى الله في صرفه عنها وحين شاهدوا من مقام الإحسان تصريفه للوجود كله وتقليبه إياه. وكراهة ذلك يدل على أمر عظيم وهو اغتباطهم بالله الذي لا مثل له، وبدينه الذي لا دين أحسن منه. فعلى قدر ما يكون الشيء نفيساً يكون الاغتباط به وكراهة الزوال عنه في الحال وفي المآل. فلذلك كره المؤمنون الكفر في الحال وفي الخاتمة قبل حلولها فاستغاثوا إلى الله في سؤال الثبات حالاً ومآلاً عند الخاتمة. فدل ذلك على عظم كراهتهم للكفر بالله والاغتباط بمولاهم.

وكذلك ينبغي للعبد أن يكره ويردّ ما يَرِدُ على القلوب والعقول من خواطر التشبيه والتجسيم ويود أن لو قدر أن يصف ربه وينزهه عما وصف هو نفسه ونزهه.

وقد قال النبي ﷺ لأصحابه حين سألوه عما يكرهون مما يجدون في نفوسهم مما يرد عليها اختباراً من الله ومن العدو فقال: «أوجدتموه؟! ذلك محض الإيمان الحمد لله الذي رد كيده إلى الوسوسة».

[٣٤٤/ أ] فجعل كراهية ذلك كله محض الإيمان ولا سيما وقد صح في العقول/ وثبت أن من كفر بالله فقد خسر خسران الأبد؛ خسر نفسه والجنة وعباد الله المؤمنين وأعظم من ذلك كله خسر ربه وحق عليه العذاب الشديد والنكد المؤبد. فيحق أن يكره الكفر ويستغاث إلى الله في كل حين في صرفه عساه يصرفه عن العبد ولا يوقعه فيه أبداً حالاً ولا مآلاً إذ يصرف عن جوار السيد العظيم الذي لا مثل له ولا يقدر أحد قدره ولا يصف الواصفون أجمعون ولو خلدوا أبد الآبدين مقدار ذرة مما هو عليه ربنا جل جلاله من شرف القدر ونزاهة النفس

---

(١) أخرجه الترمذي في الجامع الصحيح (٢١٤، ٣٥٢٢، ٣٥٨٧)، أحمد في المسند (٣/ ١١٢)، ابن ماجة في السنن (١٩٩)، الحاكم في المستدرك (٢/٢٨٨)، الطبراني في الكبير (١/ ٢٣٤)، ابن أبي شيبة في المصنف (١٠/ ٣٦)، ابن أبي عاصم في السنة (١/ ١٠١).

(٢) سورة آل عمران (الآية: ٨).

فكيف لا يغتبط به سبحانه وهو على ما هو عليه ولولا فضل الله ورحمته وحنانه وكرمه ما استحق بصر من الأبصار المخلوقة أن يمتد إلى النظر إلى حضرة جلاله ولا يتنعم في حسن جماله صيانة لذلك الكمال الأرفع وإكراماً لذلك الجمال الذي حاز المحاسن أجمع.

وقال بعضهم في مجاز القول من الشعر:

أشتاقه فإذا بدا أطرقت من إجلاله
لا خيفة بل هيبة وصيانة لجماله

لكن كرمه وحسن أياديه وصنائعه وتحننه وكريم صفاته فاضت بالجود قبل القبض على المحسن والمسيء وبسطهم بأنعامه وأفضاله حتى طمع فيه كل أحد. وفي مثله فليطمع الطامعون.

لا فرق الله/ بيننا في حال من الأحوال وجعلنا وإياكم من حزبه وألبسنا وإياكم ثوب [٣٤٤/ ب] عافيته ومننه ولا أزال عنا وعنكم لباس العافية في الدنيا والآخرة آمين. آمين.

وصلى الله على محمد وعلى آله وسلم تسليماً.

الشعبة الحادية والستون: الإمامة

أما كون الإمامة من الدين والإيمان فبين لا خفاء به فإن فيها معنى التوحيد الذي هو الاجتماع والاجتماع اتحاد والافتراق كثرة والتوحيد هو الإيمان لأن النبي عليه السلام أمر بطاعة الأمير ففي طاعته طاعة الرسول وطاعة الرسول طاعة الله.

وقد ثبت في الصحيح عن علي قال سمعت رسول الله ﷺ يقول: «يخرج قوم من أمتي يقرؤون القرآن ليس قراءتكم إلى قراءتهم بشيء، ولا صلاتكم إلى صلاتهم بشيء؛ يقرؤون القرآن يحسبون أنه لهم وهو عليهم لا تجاوز صلاتهم تراقيهم يمرقون من الإسلام كما يمرق السهم من الرمية لو يعلم الجيش الذين يصيبونهم ما قضي لهم على لسان نبيهم ﷺ لنكلوا عن العمل»[١]. وذكر الحديث.

وإنما خرجوا من الدين وسموا خوارج لخروجهم على طاعة الأمير فأدّى بهم ذلك إلى الخروج عن الدين. فكيف لا تكون الإمامة ورؤيتها من أعظم شعب الإيمان.

وروى مسلم/ عن عبد الله بن أبي رافع مولى رسول الله ﷺ: أن الحرورية لما خرجت [٣٤٥/ أ]

(١) أخرجه مسلم في الصحيح (الزكاة ١٥٦)، أبو داود في السنن (٤٧٦٨)، البغوي في شرح السنة (١٠/ ٢٣٠)، عبد الرزاق في المصنف (٨٦٥٠)، المتقي الهندي في كنز العمال (٣٠٩٥٩، ٣١٥٥٥).

وهو مع علي رضي الله عنه قالوا: لا حكم إلا للّه. فقال علي رضي الله عنه: كلمة حق أريد بها باطل إن رسول الله ﷺ وصف ناساً يمرقون من الدين إني لأعرف صفتهم في هؤلاء. وذكر باقي الحديث.

فخرجوا من الدين وقد رأوا الحكم للّه وحده فلم ينفعهم ذلك.

فصل

من شرائط الإمامة الذكورية والإسلام والحرية والعقل والنسب القرشي والعدالة والكفاية في تدبير الأمور وتنفيذها والعلم.

فأما الذكورية: فلأن المرأة عورة لا تباشر الأمور بنفسها ولا يجوز لها التقدم أمام القوم للاقتداء بها. وفي الخبر: ذل قوم تدبرهم امرأة.

وأما الإسلام: فإن الكفر لا يعلو الإسلام وذلك نقيض الدين، قال الله عز وجل: ﴿لَاَّ يَتَّخِذِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلْكَافِرِينَ أَوْلِيَآءَ﴾[1].

وأما الحرية: فإن العبد ناقص بالرق غير مقبول الشهادة وفي ذلك قلب الحكمة في جعل المملوك ملكاً.

وأما العقل: فلأن الأحمق غير مخاطب بشيء والتكليف ساقط عنه.

وأما النسب القرشي: فلقول الله تعالى: ﴿يَآ أَيُّهَا ٱلَّذِينَ آمَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَكُونُواْ مَعَ ٱلصَّادِقِينَ﴾[2]. وهم قريش لقول الله عز وجل في آية أخرى: ﴿لِلْفُقَرَآءِ ٱلْمُهَاجِرِينَ ٱلَّذِينَ أُخْرِجُواْ مِن دِيَارِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضْلاً مِّنَ ٱللَّهِ/ وَرِضْوَاناً وَيَنصُرُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُ أُوْلَـٰئِكَ هُمُ ٱلصَّادِقُونَ﴾[3]. ولقول النبي ﷺ: «قدموا قريشاً ولا تقدموها»[4]. [٣٤/ ب]

وأما العدالة: فذلك من كمال الإمامة لأنه جعل للاقتداء به ونصب للتأسي بهديه فينبغي له أن يكون أفضل الناس في وقته. وقال النبي ﷺ: «اقتدوا باللذين من بعدي أبي بكر وعمر»[5].

---

(١) سورة آل عمران (الآية: ٢٨).

(٢) سورة التوبة (الآية: ١١٩).

(٣) سورة الحشر (الآية: ٨).

(٤) أخرجه الشافعي في المسند (٢٧٨)، ابن أبي عاصم في السنة (٢/ ٦٣٧)، الخطيب في تاريخ بغداد (٢/ ٦١)، القاضي عياض في الشفا (٢/ ٧٩)، العجلوني في كشف الخفا (٢/ ١٤٠).

(٥) أخرجه الترمذي في الجامع الصحيح (٣٦٦٢)، ابن ماجة في السنن (٩٧)، أحمد في المسند =

وأما الكفاية: فلأنه نصب لتدبير الخلق الكثير ولا ينضبط له أمورهم إلا أن يكون ذا نجدة ومنة في نفسه ورأيه ولا يلحقه جبن ولا خور عن إقامة الحدود وضرب الرقاب والجهاد وغير ذلك.

وأما العلم: فلأنه يحكم أمور الناس فيجب عليه أن لا يكون جاهلاً فينفذ الأمور بالجهل وذلك ضلال، قال الله عز وجل لخليفته في أرضه داود [عليه السلام]: ﴿يَا دَاوُدُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي ٱلْأَرْضِ فَٱحْكُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِٱلْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ ٱلْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾[1].

فإذا اجتمع في الإمام هذه الخصال فهو الكامل الفاضل الواجب حقه والاقتداء في جميع الأشياء به لبراءته عن الظلم والنقائص.

فصل

فإن عدمت شروط العدالة الكاملة في الإمام وظهر منه ظلم وإذاية فليصبر على ذلك حتى يأتي أمر الله وليدع له بالصلاح فإن في صلاحه صلاح المسلمين. ولا يخرج عليه بالسيف فإن ذلك خروج عن الدين إلا إن ظهر منه كفر أو شيء عظيم يجب خلعه به فلأهل/ [٣٤٦] الحل والعقد خلعه ونصب غيره من الأئمة القرشيين. فالطاعة للإمام دين يدان لله به.

فإذا ثبت هذا فاعلم أن هذا المقام على ثلاثة أضرب: الضربان واجبان والثالث فضيلة. على عدد مقامات الإسلام، والإيمان، والإحسان الثلاثة.

فأما الضرب الأول الظاهر في مقام الإسلام: فواجب على العبد أن يطيع الإمام في ما أمره به من طاعة لله ولا يخرج عليه بالسيف وأن يطيعه فيما كان شأن الإمام وذلك الدنانير والدراهم والمكيال والميزان والصلاة والخطب والأعياد، والأحكام، والدعوة إن دعاه أجابه، وإن لم يدعه فلا يتكلف ما لم يدع إليه.

فهذا كله في الإمام الذي وجبت له الإمامة بالشرع واتفق أهل العلم أنه إمام.

فصل

وأما الضرب الثاني في مقام الإيمان: فهو اعتقاد إمامته بالقلب الذي هو محل الإيمان

= (٥/ ٣٨٢)، البيهقي في السنن الكبرى (٥/ ١٢)، الحاكم في المستدرك (٣/ ٧٥)، أبو نعيم في الحلية (٩/ ١٠٩)، البغوي في شرح السنة (١٤/ ١٠١)، البخاري في التاريخ (٨/ ٢٠٩).

(١) سورة ص (الآية: ٢٦).

كما دخل في طاعته بظاهر جسده ويبغض من خرج عن طاعته وقام عليه. وقال سهل بن عبد الله: من لا يرى السلطان في زمانه فهو زنديق. يعني لا يعتقد إمامته.

وقد تقدم ذكر الأحاديث التي وردت في الخوارج فذلك كاف في اعتقاد الإمامة.

فصل

وأما الضرب الثالث في مقام الإحسان: فإن ذلك فضيلة تعين على اعتقاد أن الإمامة مخصوص بها أهل/ الاعتبار في حكمة الله وفعله للأشياء، وذلك أن الله تعالى جعل الإمام [٣٤٦/ ب] في الأرض آية[١] عظيمة على توحيده لأنه جعله خليفة على خلقه بدلاً منه.

فليعتبر الإنسان الإمامة فيرى وجه الحكمة فيها فإنها من التوحيد.

وذلك أن الخلق خلقوا في الدنيا وأعدادهم كثيرة لا تحصى وإرادتهم مختلفة في جميع الأنواع. فلو كان الناس مسيبين بغير إمام لاختلفت الآراء والأهواء واختلف الناس وآذى بعضهم بعضاً وأدى ذلك كله إلى فساد العالم وقتل بعضهم بعضاً وسرقت أمتعتهم وقطع طريقهم وغصب أبكارهم ونسائهم، وغير ذلك. فجمع الله الكل على إمام واحد يخوفهم بالسوط والحبس والسيف والقطع والتنكيل وغير ذلك فاستقام أمرهم ورجع الكل شيئاً واحداً وأصلح الله بالسلطان الدنيا والدين جميعاً كما صلح بالوحدانية كل شيء: ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَا﴾[٢]. فهو آية عظيمة على توحيد الله.

فصل

فإذا فهمت هذا وجب عليك الإيمان بخلافة أبي بكر رضي الله عنه في زمانه فهو أهل لها وأحق بها. وكذلك عمر رضي الله عنه استخلفه الصديق بعده وهو أهل لها وأحق بها. كذلك عثمان رضي الله عنه استخلفه أهل الشورى والعدل بنظرهم/ وهو لها أهل وقتل [٣٤٧/ أ] مظلوماً. وكذلك علي رضي الله عنه إمام عدل وهو أهل لها وأحق بها. ولا تنظر إلى مقاتلته فإنهم بغاة، قال النبي عليه الصلاة والسلام في عمار: «تقتله الفئة الباغية»[٣]. وكان من أصحاب علي رضي الله عنهما.

---

(١) في الأصل: إنه. وهو تحريف.

(٢) سورة الأنبياء (الآية: ٢٢).

(٣) أخرجه مسلم في الصحيح (الفتن ٧٠، ٧٢)، أحمد في المسند (٢/ ١٦٤)، البيهقي في السنن الكبرى (٨/ ١٨٩)، الطبراني في الكبير (١/ ٣٠٠)، البغوي في شرح السنة (٤/ ١٥٤)، ابن أبي شيبة في =

وتحسن الظن بعائشة أم المؤمنين رضي الله عنها فإنها إنما قصدت إطفاء نار الفتنة فلم تقدر على ذلك.

وتحسن الظن بسائر الصحابة وتعتقد فيهم أنهم قصدوا الخير اجتهادهم وإن أخطأوا في الاجتهاد وتلتمس لهم أحسن المخارج.

ثم كذلك الأمر في الحسن وهو خلع نفسه لسيادته وخوفه على دينه وإرادته الإصلاح بين المسلمين.

ثم كذلك الأمر في قريش إلى يوم القيامة باق.

ويلحق بهذا الباب الإيمان بالمهدي فإنه إمام عظيم في زمانه وظهوره وقت اضطراب أمور الناس وحاجتهم إلى إمام يجتمعون إليه ويبايعونه. فوجب القيام بحقه والنصر له وقد صحح الترمذي حديث المهدي وأنه يملأ الأرض قسطاً وعدلاً كما ملئت جوراً وظلماً.

ونظر عَليٌّ إلى ابنه الحسن رضي الله عنه فقال: إن ابني هذا سيد كما سماه رسول الله ﷺ وسيخرج من صلبه رجل يسمى باسم نبيكم يشبهه في الخُلق ولا يشبهه في الخَلق يملأ الأرض عدلاً.

/ فهذا نص أن أخلاقه كأخلاق النبي [ﷺ] وأفعاله صادرة عن أخلاقه فأفعاله كأفعال [٣٤٧/ النبي [ﷺ] وهو رجل عظيم وإمام كريم رتبة إمامته مقصورة عليه لا يطمع فيها كل أحد لشبه أفعاله وأخلاقه بأفعال النبي ﷺ وقال النبي ﷺ في القيام إلى الصلاة: «لا تقوموا حتى تروني»[(١)]. يعني حتى تروا شخصي إذا توجهت إلى الصلاة فقوموا إلى الصلاة يقول هذا للمصلين وفيه إشارة إلى حسنة غريبة إلى معنى المهدي أن لا تقوموا مع كل من يدعي الهداية ويدعو الناس إلى الاقتداء به فإن الإمام في الصلاة إنما وضع للاقتداء به والائتمام به فقال: لا تقوموا حتى تروا صورتي التي تشبه أخلاقي وأفعالي والمحكم لشريعتي في الخلق ولا يشبهني في الخلق فإن هذا الشخص الذي أظهر الله فيه أخلاق نبيه [ﷺ] وصفته وجرت

= المصنف (١٥/ ٢٩١)، البيهقي في دلائل النبوة (٦/ ٤٢٠)، الخطيب في تاريخ بغداد (٢/ ٢٨٢)، الهيثمي في مجمع الزوائد (٧/ ٢٤٢)، ابن حجر في المطالب العالية (٤٤٧٩)، وفي تلخيص الحبير (٤/ ٣٤)، البخاري في التاريخ (٣/ ٣٩).

(١) أخرجه البخاري في الصحيح (٢/ ٩)، الترمذي في الجامع الصحيح (١٤٣، ١٩٥)، أحمد في المسند (٥/ ٢٩٦)، البيهقي في السنن الكبرى (٢/ ١٩)، أبو عوانة في المسند (٢/ ٢٨)، ابن حجر في فتح الباري (٢/ ٣٩٠)، العقيلي في الضعفاء (٣/ ٢٩١)، ابن عدي في الكامل (٥/ ١٩٧٤)، الزبيدي في إتحاف السادة المتقين (٣/ ١٨٠).

أفعاله على وفق أفعاله واجب نصره والقيام معه وحبه.

جعلنا الله وإياكم من عباده الصالحين وحزبه المهتدين. آمين. آمين.

وصلى الله على محمد وعلى آله الطيبين وسلم تسليماً.

الشعبة الثانية والستون: الإيمان بفناء هذا العالم الدنياوي

[٣٤٨/ أ] وهو موته عند موت الخلق أجمعين والنفخة الأولى، أما كونه من شعب الإيمان/ فلا يحتاج إلى دليل لإجماع أهل الإيمان والشرائع عليه ولا يكذب به إلا زنديق دهري.

والذين يقولون بقدم العالم ولا يرون فناءه لقدمه عندهم فيرون دوام الدنيا ودوام النسل فيه إلى غير نهاية. وذلك تكذيب [منهم](١) للكتاب والتبيين قال الله عز وجل: ﴿وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِ فَصَعِقَ مَن فِي ٱلسَّمَاوَاتِ وَمَن فِي ٱلْأَرْضِ إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُ﴾(٢) أي الملائكة مثل ملك الموت وغيره ثم يموتون بعد ذلك. قال الله عز وجل: ﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ﴾(٣) و ﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُۥ﴾(٤).

وأما الأحاديث فأكثر من أن تحصى، وروى ابن عمر قال: خرج علينا رسول الله ﷺ يوماً وبيده كتابان فقال: «أتدرون ما هذان الكتابان»؟ قلنا: لا يا رسول الله إلاّ أن تخبرنا. فقال للذي في يده اليمنى: «هذا كتاب من رب العالمين فيه أسماء أهل الجنة وأسماء آبائهم وقبائلهم فلا يزاد فيهم ولا ينقص منهم». ثم قال للذي في شماله: «هذا كتاب من رب العالمين فيه أسماء أهل النار وأسماء آبائهم وقبائلهم ثم أُجمل على آخرهم فلا يزاد فيهم ولا ينقص منهم أبداً»(٥).

وذكر أنه أُجمل على آخرهم ونفى الزيادة الأبدية فيهم كما زعمت الملاحدة.

ويلحق(٦) بهذا الباب الإيمان بالأشراط المتقدمة بين يدي النفخة الأولى وهي شعبة إيمان أيضاً من الإيمان لكنه من أشراط الساعة وعلاماتها/ فقرنته بها في باب واحد. [٣٤٨/ ب]

---

(١) ما بين المعقوفين ليس من الأصل وزدته لزيادة التوضيح.

(٢) سورة الزمر (الآية: ٦٨).

(٣) سورة الرحمٰن (الآية: ٢٦). (٤) سورة القصص (الآية: ٨٨).

(٥) أخرجه الترمذي في الجامع (٢١٤١)، أبو نعيم في الحلية (٥/١٦٨)، أحمد في المسند (٢/١٦٧)، التبريزي في مشكاة المصابيح (٩٦)، السيوطي في الدر المنثور (٦/٣)، البغوي في التفسير (٦/١١٧).

(٦) جاءت بالأصل: تلحيق. وهو تحريف.

روى عبد الملك بن حبيب مرفوعاً عن ابن عباس رضي الله عنه قال: سمعت عمر بن الخطاب رضي الله عنه يقول: «سيكون قوم من هذه الأمة يكذبون بالرحم ويكذبون بالدجال ويكذبون بطلوع الشمس من مغربها». فذكر الحديث إلى آخره إلى قوله: «فلئن أدركتهم لأقتلنهم قتل عاد وثمود»[١].

قال عبد الملك: من كذب شيئاً مما ذكر عمر في حديثه استتيب فإن تاب وإلا قتل.

وقد صحت الأحاديث في الأشراط وأجمعت الأمة على الإيمان بها وإنما خصص الإيمان بهذه الأشياء من أجل أنها منذرة بقيام الساعة وإتيان الآخرة التي وجب الإيمان بها إيمان بالآخرة. ألا ترى أن الناس يؤمنون عند طلوع الشمس من مغربها فلا يقبل إيمانهم كالذي لا يقبل إيمانه حين رؤية الآخرة بالموت.

والأشراط كثيرة منها: خروج نار بأرض الحجاز تضيء أعناق الإبل ببصرى، وخروج كنز من ذهب يحسر عنه الفرات، وظهور الدجالين، وكثرة الزلازل، وقبض العلم، ورفع القرآن، وتقارب الزمان، وكثرة الفتن والهرج وهو القتل، وكثرة المال حتى لا يوجد من يقبله، وتطاول الناس في البنيان، وتلد الإماء ساداتها، وفتح قسطنطينة العظمى ـ مدينة الروم ـ بالتكبير/ والتهليل على سورها، وخروج الدجال، وظهور المهدي، ونزول عيسى [٤٩ ب] في وقته، وخسف بالبيداء وجزيرة العرب، وخسف بالمشرق، وخسف بالمغرب، وتخريب البيت مكة، والدجال[٢]، والدابة، وطلوع الشمس من مغربها، وفتح السد، وخروج يأجوج ومأجوج، والريح يرسلها الله عز وجل فتقبض روح كل مؤمن، وفساد أحوال الخلق، ورجوع الناس إلى دين آبائهم، وعبادة اللات والعزى، وتكليم السباع للإنس، وعذبة سوط الرجل إياه وشراك نعله، وفخذه، ويكلمهم الشجر والحجارة، وغير ذلك.

وإنما ظهرت هذه الآيات الخارقة للعادات من أجل أن الساعة كالحامل المثقل التي قربت ولادتها فيظهر منها أثر الولادة، وكذلك الساعة إذا قربت ظهرت آياتها وعلاماتها.

فصـــل

اعلم أن القيامة والساعة عامة وخاصة.

فالعامة: هي النفخة الأولى في الصور حين يصعق الخلق ويموت الكل فلا يبقى إلاّ الله.

---

(١) ذكره الزبيدي في إتحاف السادة المتقين (٢/ ٣٧٠).

(٢) ذكر الدجال قبل هذه المرة بالسطر الذي قبله وأظن أنه تكرر عليه سهواً.

والخاصة: هي الموت في حق كل إنسان وفي الخبر: من مات قامت قيامته.

وبين يدي الموت والمعاينة يرى كل إنسان معاني الأشراط والفتن.

ففي الموت تكلم الناس الأشياء الصامتة والجوارح مخبرة تشهد وتنطق بعمله وتظهر له الأشياء ومن يدعوه إلى غير الله ويفتنه.

[٣٤٩/ ب] وفي الحديث: «إنكم تفتنون [في القبور][١] قريباً من فتنة/ المسيح الدجال»[٢].

وروى مسلم في صحيحه عن أبي سعيد قال: لما رجع رسول الله ﷺ من غزوة تبوك سألوه عن الساعة فقال رسول الله ﷺ: «لا تأتي مائة سنة وعلى الأرض نفس منفوسة اليوم»[٣]. فهذه قيامة ذلك القرن وإنما هو موت أهله.

وفي الصحيح عن عائشة رضي الله عنها قالت: كان الأعراب يسألونه عن الساعة فينظر إلى أحدث إنسان منهم فيقول: «إن يعش هذا لم يدركه الهرم حتى قامت عليكم قيامتكم»[٤]. يعني الموت.

فالموت قيامة مستمرة من أول الدنيا إلى آخرها فإن الموت مكتوب على أهلها مذ خلقوا فيها.

فصـــل

فأما القيامة العامة التي تعم كل من يقوم عليها فهي النفخة الأولى وفيها الفائدة العظمى التي يكون العبد بها مؤمناً.

اعلم أن هذا العالم الظاهر خلقه الله للفناء كما خلق العالم الأخراوي للبقاء وذلك أن العالم إنما خلق من أجل بني آدم كما قال الله تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِي خَلَقَ لَكُم مَا فِي ٱلْأَرْضِ جَمِيعاً﴾[٥] من حيوان ونبات ومعدن وكذلك البحر وغيره كما قال: ﴿سَخَّرَ لَكُمُ ٱلْبَحْرَ﴾[٦]

---

(١) جاءت العبارة على النحو التالي: إنكم تفتون مثل أقريبا. فأضفت ما سقط وحذفت ما زاد.

(٢) أخرجه أحمد في المسند (٦/ ٨٩، ٣٤٥).

(٣) أخرجه مسلم في الصحيح (فضائل الصحابة ب٥٣ رقم ٢١٩)، ابن أبي شيبة في المصنف (١٥/ ١٦٩)، الحاكم في المستدرك (٤/ ٤٩٩)، الهيثمي في مجمع الزوائد (١/ ١٩٧).

(٤) أخرجه مسلم في الصحيح (ص٢٢٦٩)، أحمد في المسند (٣/ ٢١٣، ٢٦٩)، ابن حجر في الفتح (١٠/ ٥٥٧).

(٥) سورة البقرة (الآية: ٢٨).

(٦) سورة الجاثية (الآية: ١٢، ١٣).

و ﴿سَخَّرَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ وَٱلنُّجُوم﴾[(١)]، ﴿وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي ٱلسَّمَاوَاتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ جَمِيعاً مِّنْهُ﴾[(٢)]. فهذه نصوص أن العالم لم يخلق لذاته بل من/ أجل غيره. [٣٥٠/ أ]

فأول ما خلق الله العالم فلمّا كمل وتم خلق بني آدم وجعلهم خلقاً فيه من أجل ذلك قدم خلقه قبل خلق الخلفاء.

وروى مسلم في صحيحه عن أبي هريرة قال: أخذ رسول الله ﷺ بيدي فقال: «خلق الله التربة يوم السبت، وخلق فيها الجبال يوم الأحد، والشجر يوم الإثنين، والمكروه يوم الثلاثاء، والنور يوم الأربعاء» يعني النيرات والعلويات «وبثّ فيها الدواب يوم الخميس، وخلق آدم بعد العصر يوم الجمعة في آخر الخلق آخر ساعة من النهار فيما بين العصر إلى الليل»[(٣)]. فهذا نص جلي.

وكذلك إذا نظرت بالعقل وجدت الأمر لبني آدم فإن الحيوان كله إنما خلق للتسخير والركوب والأكل والمنافع لبني آدم عليه السلام. وكذلك النبات كله لم يخلق إلا لعيش الحيوانات التي تعود منفعتها على بني آدم ولعيش بني آدم. وكذلك المعادن والحجارة والأرض. وكذلك البحر والهواء، وتلك النار والماء والسحاب والأفلاك إنما تحركت من أجل الليل والنهار اللذين هما معايش وسكن لبني آدم وللفصول لأربعة التي بها قوامهم.

فعلى بني آدم حنّت العلويات وإليه صحدت واستقرت عندهالسفليات.

فكان العالم كالقلب من الجسد/ الذي هو موضع الفكر وتمبير الجسد، وكذلك ورد: [٣٥٠/ ب] إذا صلح القلب صلح الجسد وإذا فسد فسد الجسد.

فما دام الإيمان بالله والصلاح في الخلفاء الآدميين بقي جارياً على هذا النظام. وإذا فسد دين الخلفاء الآدميين ولم يبق في الأرض من يقول الله قامت القيامة على الكل رفي كلّ من عليها لأن الدين كان المراد من الكل فإذا انقطع لم يكن في إدامة هذا العالم فائدة، قال النبي عليه الصلاة والسلام: «لا تقوم الساعة حتى تعبد اللات والعزى ويرجع الناس عن دين إبراهيم»[(٤)].

---

(١) سورة النحل (الآية: ١٢). (٢) سورة الجاثية (الآية: ١٣).

(٣) أخرجه مسلم في الصحيح (٢١٤٩)، أحمد في المسند (٣٢٧/٢)، البيهقي في السنن الكبرى (٣/٩)، الحاكم في المستدرك (٤٥٠/٢)، البخاري في التاريخ الكبير (٤٣/١)، التبريزي في مشكاة المصابيح (٥٧٣٤)، السيوطي في الدر المنثور (٤٣/١)، ابن كثير في التفسير (٩٩/١)، الألباني في الصحيحة (١٨٣٣)، القرطبي في التفسير (٣٨٤/٦).

(٤) ذكره ابن حجر في فتح الباري (٧٦/١٣).

روى مسلم في صحيحه في حديث طويل رواه عبد الله بن عمر فذكر فيه: قال رسول الله ﷺ: «يخرج الدجال في أمتي فيمكث أربعين» لا أدري أربعين يوماً أو شهراً أو سنة.

«فيبعث الله عليه عيسى ابن مريم كأنه عروة بن مسعود فيطلبه فيهلكه ثم يمكث الناس سبع سنين ليس بين اثنين عداوة ثم يرسل الله ريحاً من قبل الشام فلا تبقي على وجه الأرض أحداً في قلبه مثقال ذرة من خير أو إيمان إلاّ قبضته حتى لو أن أحدكم دخل في كبد جبل لدخلت عليه حتى تقبضه». سمعته من رسول الله ﷺ قال: «فيبقى شرار الناس في خفة الطير وأحلام السباع لا يعرفون معروفاً/ ولا ينكرون منكراً فيتمثل لهم الشيطان فيقول: ألا تستحيون؟ فيقولون: وما تأمرنا؟ فيأمرهم بعبادة الأوثان وهم في ذلك دارٌ رزقهم حسن عيشهم ثم ينفخ في الصور»[1]. وذكر باقي الحديث. فنص في هذا الحديث أن الساعة لا تقوم وفي الأرض مؤمن. [٣٥١/ أ]

وفي الموطأ عن أبي الأحوص عن عبد الله أن رسول الله ﷺ قال: «لا تقوم الساعة إلا على شرار الخلق»[2]. [وقال:][3] «لا تقوم الساعة حتى لا يقال في الأرض الله الله»[4].

والأخبار في هذا كثيرة.

فهذا يدلك أن الساعة لا تقوم إلاّ على أهل الكفر فإن الكفر سبب فساد هذا العالم فإن ابن آدم قَلْبُ العالم فإذا فسد القلب فسد الجسد. فإن الكفر والعصيان هما الفساد بعينه. فقد بان وظهر أن العالم إنما خلق من أجل بني آدم فإذا ذهب بنو آدم فسد هذا العالم وبقاؤه بين النفختين للأمد الذي قدّره الله إنما ذلك حتى تثبت الأجساد في الأرض فيبعثون بالقيامة الأخرى للبقاء أبداً.

---

(١) أطراف هذا الحديث عند مسلم في الصحيح (الفتن ١١٦)، أحمد في المسند (٢/ ١٦٦)، الحاكم في المستدرك (٤/ ٥٥٠)، ابن حجر في الفتح (١٣/ ١٠٤)، المتقي الهندي في الكنز (٣٧٧٤٥).

(٢) أخرجه مسلم في الصحيح (الفتن ب ٢٧ رقم ١٣١)، ابن ماجة في السنن (٤٠٣٩)، أحمد في المسند (١/ ٣٩٤)، الحاكم في المستدرك (٤/ ٤٤١)، الخطيب في تاريخ بغداد (٤/ ٢٢١).

(٣) ما بين المعقوفين زيادة للإيضاح.

(٤) أخرجه مسلم في الصحيح (الإيمان ب ٦٦ رقم ٢٣٤)، الترمذي في الجامع (٢٢٠٧)، النسائي في المجتبى (الفتن ٣٥، ٢٢٠٧) أحمد في المسند (٣/ ١٠٧)، أبو عوانة في المسند (١/ ١٠١)، البغوي في شرح السنة (١٥/ ٨٩)، ابن حجر في الفتح (١٣/ ٨٥، ٢٨٧).

فصــــل

واعلم أن لأهل التيقظ والإقبال على الله حالة شريفة من أمور القيامة وهم أهل الانتباه من نوم الغفلة الدنياوية وأهل الحياة الحقيقية الذين أماتوا أنفسهم في ذات الله قبل الموت وبادروا بالتأهب للقاء الله فهم مشاهدون/ للقيامة وأحوالها وهم أهل الفناء عن الدنيا [٣٥١/ ب] والاشتغال بها فأقاموا باليقين قيامتهم قبل أن تقوم عليهم فكانوا كما قال النبي ﷺ لابن عمر: «وعد نفسك من أهل القبور».

فهؤلاء جاءهم الموت وهم قد لاقوا معانيه وغصصه كما ورد في الموت: أنه أشد من ألف ضربة بالسيف. فكذلك ترك هوى من محبوبات النفس أصعب عليها من ألف ضربة بالسيف.

فالموت يخفّف لهم وهم سابقون إلى لقاء الله قال الله تعالى: ﴿فَتَمَنَّوُاْ ٱلْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾[١].

واعلم أن المجاهد في سبيل الله يخفف عليه الموت من أجل ملاقاة العدو ومشاهدته للموت كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ كُنتُمْ تَمَنَّوْنَ ٱلْمَوْتَ مِن قَبْلِ أَن تَلْقَوْهُ فَقَدْ رَأَيْتُمُوهُ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ﴾[٢].

كذلك أهل الجهاد الأكبر المعنيون بقوله: ﴿وَٱلَّذِينَ جَاهَدُواْ فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا﴾[٣] مشاهدون للموت وذائقون غصصه ومتحملون مرارته وهم في الدنيا من مفارقة الهوى والمحبوبات والصبر على المكروهات. والموت بالحقيقة إنما هو مفارقة الدنيا والمحبوبات كلها.

وأهل هذه الحالة الشريفة في هذه الأعصار غير موجودين في الأمصار ولم يُشاهد منهم إلاّ أخبارهم في الكتب.

نفعنا الله وإياكم بذكرهم ولا جعله حجة علينا بكرمه فإنه ليس عندنا من أحوالهم إلا فهمها فقط.

وصلى الله على محمد وعلى آله وسلم تسليماً.

---

(١) سورة البقرة (الآية: ٩٤).

(٢) سورة آل عمران (الآية: ١٤٣).

(٣) سورة العنكبوت (الآية: ٦٩).

الشعبة الثالثة والستون

[٣٥٢/ أ] / الإِيمان بدار البرزخ وأحواله وبقاء الأرواح فيه، وعذابه، ونعيمه، وسؤال منكر ونكير، وجميع أحوال دار البرزخ

أما كون هذه الشعبة من الإيمان فبين لأنه تصديق بالغيب الذي أخبرت به الرسل وذكره القرآن في آيات كثيرة والإجماع قد اتفق على ذلك من أهل السنة، والمكذب به كافر زنديق.

والبرزخ: مكان، وزمان، وحال.

أما المكان: فمن القبر إلى عليين تَعْمُره أرواح السعداء، ومن القبر إلى سجين تعمره أرواح الأشقياء.

وأما الزمان: فهو مدة بقاء الخلق فيه من أول من مات أو يموت من الجن والإنس إلى يوم يبعثون.

وأما الحال: فإمّا معذب، أو منعم، أو محبوس حتى يتخلص بالسؤال من الملكين الفاتنين.

هذا كله الإيمان به واجب والأخبار قد تواترت به والقرآن قد أفصح به والعقل مجوز له غير محيل له.

والبرزخ معناه: الحاجز بين الشيئين.

ولما كانت دار الدنيا دار العبادة والفناء والآخرة دار الجزاء والبقاء أبداً كان البرزخ دار نزول لأهل دار الدنيا حتى يلتحق أجمعهم بين الدنيا والآخرة الباقية.

فدار البرزخ إذاً ليس بدار فناء دائم بل هو محل لا بدّ من الانتقال منه ومن أجل ذلك كان نعيم الأرواح وعذابها فيه لأنها تشاهد الدار الآخرة الباقية بما فيها من عظيم الثواب [٣٥٢/ ب] والعقاب فيتنعم بذلك أو يتعذب/ على حسب الحال.

فصـــل

وأول أحوال البرزخ تلقي الملائكة حين خروج الروح من الجسد البشري [بالإكرام][1]

---

(١) ما بين المعقوفين ساقط من الأصل والسياق يقتضيه وقد بين سقوطه قول المؤلف بعد ذلك بقليل: كل أحد من الإكرام أو الهوان.

أو بالهوان فمن بين فارح محب للرحلة من دار الفناء ومن بين كاره على قدر ما يشاهده كل أحد من الإكرام أو الهوان.

ومعنى ذلك أن الرسل لما جاءت بالشرائع من عند مرسلها انقسم الخلق إلى: قابل ومكرم لأمر الله، وإلى رادٍ ومؤذٍ لأنبياء الله وأوامر الله.

فلما حان الرحيل من هذه الدار إلى الآخرة جوزي الفريقان وفاقاً على أعمالهم لأن الآخرة جزاء على ما تقدم في دار الدنيا فافهم.

ثم بعد ذلك سؤال الملكين الفاتنين في القبر ومعنى ذلك أن الخلق في التزام الشرائع وقبول الإيمان لا بد لهم من الاختبار لأمر الله ومن النظر فيه في أمر الرسل وما جاءت به وهو المعبَّر عنه بأول الواجبات عند عرض الشرائع على العقول. فيعتقد كل واحد في قلبه وسره على حسب ما قدر له حين تعرضهم أفكار النظر والفكر فيما جاءت به الرسل من أمور الغيب فمن بين منكر جاحدٍ أو شاكٍّ مرتاب ومن بين مؤمن مصدق وموقن مطمئن ثابت.

هذه حال الكل مدَّة الدنيا من أول ما وجبت عليهم الواجبات إلى حين الموت.

فلمّا حصل الخلق في الآخرة فتنوا بالجزاء عن عقائدهم/ وأحوالهم جزاءً وفاقاً. [٣٥٣/]

وكذلك يقول الملكان للمسؤول: قد علمنا إن كنت لمؤمناً، ولا دريت ولا تليت، وعلى الشك جئت وعليه مت. على حسب اختلاف الخلق في الدنيا.

ثم بعد ذلك يفتح لكل عبد باب إلى الجنة وباب إلى النار ينظر إلى مقعده منهما.

ومعنى ذلك أن الرسل جاءت من عند الله وفتحت للعقول أبواب دين الإسلام حين عرضته على العقول وحين وجوب الواجبات. وأمرت بالدخول فيه وفتحت بالذكر للجزاء على ذلك لمن التزم أبواب الجنة للعقول وأمرت بالإعراض عن الكفر وفتحت أبوابه للعقول بالذكر لفتحه وجزاء عاقبته. وأمرت بالتزام الطاعات وترك المعاصي وذكرت للعقول أن من التزم الطاعات ودخلها جوزي بالجنة ودخلها ومن أعرض وأبى وقع في الكفر ودخل النار.

فكان ذلك الذكر كله فتحاً وإظهاراً لأبواب الجنة والنار.

ولهما ـ أعني الجنة والنار ـ فمن بين داخل مفتوح له بدخوله في الإسلام والشرائع ومن بين خارج جاحد فيقال للعبد ذلك الوقت هذا مقعدك من الجنة أو النار أبدلك[١] الله به مقعداً من الجنة أو النار كما صنع هو بنفسه في دار الدنيا فافهم.

(١) في الأصل: أو بدلك. وهو تحريف.

[٣٥٣/ ب] ثم بعد ذلك يُوسع له قبره ويشرح له صدره، وذلك جزاء/ انشراح صدره بالإسلام واتساعه لقبوله أو يضيق عليه كالزج[١] جزاءً بحرج صدره وضيقه عن قبول الإيمان والشرائع.

فيفتح لكل أحد مدّ بصره، فالكافر لم يمتد بصره إبهامه [لإهماله][٢] في أمور الربوبية والآخرة فيرى واحداً فلذلك كان قبره أضيق الضيق، وأما المؤمن فيفتح له على قدر مدِّ بصره واتساع إيمانه وتجافي روحه عن دار الغرور وإقباله على ربه والدار الآخرة. فافهم.

ثم يقترن بكل أحد جزاء عمله إن خيراً فخيراً وإن شراً فشراً.

ولشرح تلك المعاني التي هي جزاء الأعمال طول كثير وأذكر منها طرفاً يسيراً يستدل به على غير ذلك إن شاء الله.

وورد في الحديث: «إنما نسمة المؤمن طير تعلق من ثمار الجنة»[٣].

وكذلك كانت نسمة المؤمن الذاكر هاهنا تطير بالأفكار وتسرح بالنظر والاعتبار وتقطف بالذكر من أغصان الحكمة والأذكار في جولانها في الملك والملكوت.

وورد في الحديث: «إن أغراس الجنة سبحان الله والحمد لله ولا إله إلا الله والله أكبر»[٤].

وكذلك سائر الأذكار فافهم.

وورد في بعض الحديث: «إن من أدخل على مؤمن سروراً خلق الله من ذلك السرور ملكاً يدخل عليه في قبره ويؤنسه إلى يوم القيامة»[٥].

[٣٥٤/ أ] فانظر لما كان السرور يطيب قلب المؤمن ويزيل همه ويؤنسه/ كان الجزاء على ذلك في محل الوحشة موافقاً لعمل العبد فدخل عليه ملك في أحسن صورة لأن السرور أحسن شيء.

---

(١) الزُّجُّ: الحديدة التي تركب في أسفل الرُّمح،.. والزج تركز به الرمح في الأرض (لسان العرب).

(٢) زيادة ليست في الأصل يقتضيها السياق.

(٣) أخرجه النسائي في المجتبى (٤/ ١٠٨)، ابن ماجة في السنن (٤٢٧١)، أحمد في المسند (٣/ ٤٥٥)، أبو نعيم في الحلية (٩/ ١٥٦)، البخاري في التاريخ الكبير (٤/ ٣٠٥).

(٤) أخرجه الطبراني في معجمه الكبير (١٠/ ٢١٤)، المنذري في الترغيب (٢/ ٤٢٥).

(٥) أخرجه الحاكم في المستدرك (٤/ ٢٧٠)، الطبراني في الصغير (٢/ ٥١)، المنذري في الترغيب (٣/ ٣٩٤)، ابن الجوزي في العلل المتناهية (٢/ ٢٤)، أبو نعيم في تاريخ أصبهان (١/ ١٢٨)، (٢/ ٢٢٥).

فاستدل بهذا كله على سائر الأعمال حسنها وقبحها فإن الله يقول: ﴿سَيَجْزِيهِمْ وَصْفَهُمْ إِنَّهُ حَكِيمٌ عَلِيمٌ﴾(١).

فيبقى كل أحد فيما قدِّر له ناظراً إلى دار الخلود التي ترد منها على أهل البرزخ معاني العذاب والنعيم فيفزع الكافر من هول ذلك المنظر فيقول: «رب لا تقم الساعة». ويفرح المؤمن لما يرى من عظيم دار الخلود فيقول: «رب أقم الساعة». وهما كالنائمين لأن النوم أخو الموت.

وورد في الحديث أنه يقال للمؤمن: «نم نومة العروس الذي لا يوقظه إلاّ أحب أهله إليه».

وقد سمى الله النوم وفاة في قوله: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِي يَتَوَفَّاكُم بِٱلَّيْلِ﴾(٢). وفي قوله: ﴿ٱللَّهُ يَتَوَفَّى ٱلْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا﴾(٣).

فكأن النائم يرى في منامه المرائي الحسنة المؤنسة المنعمة المفرحة. فكذلك المؤمن الميت السعيد بما يرى ويشاهد من دار الخلود. وكما أن النائم يرى المرائي المفزعات ويتردى من الجبال العاليات ويجزع من الحيات والأهوال الفاظعات فكذلك من يشاهد من الأموات دار الخلود النار الكبرى مع ما يتّصل بالفريقين ويباشر كل واحد منهم في ذاته من النعيم والعذاب.

فصــــل

/ فإن قلت إن الميت إذا مات انحلت أجزاؤه في أعيننا ولا يشاهد من هذا كله شيئاً [٣٥٤/ب] ولا نعلم الأرواح أين صارت وهل هي باقية أم حالها حال الأجساد سوى الإيمان بما ورد من الأخبار فيها؟

فاعلم يا أخي أنك لو تفكرت وتذكرت في الوجود والآيات والأخبار مستعيناً بالله لعلمت. ألا ترى أنك إذا فكرت الآن ونظرت في أهل بلدك كلهم بل في جميع البلدان في المشارق والمغارب وما فيها من الحيوان والإنسان تعلم يقيناً أن لكل واحد روحاً قد سرت في العالم وهي غيب عنا لا نراها ولا نشاهدها بأبصارنا وكذلك في العالم من أرواح الجن والملائكة ما لا يحصى والكل سارٍ في الوجود متصرف لا يزاحم أحد أحداً ولا يُضيق عليه. فنعلم أنها موجودة ولسنا نشاهد بالبصر من ذلك كله شيئاً.

---

(١) سورة الأنعام (الآية: ١٣٩).

(٢) سورة الأنعام (الآية: ٦٠).

(٣) سورة الزمر (الآية: ٤٢).

فكذلك إذا خرجت الأرواح من الأجساد وبقيت في عالم البرزخ منعمة ومعذبة ولا نشاهدها بأبصارنا بل بالعلم وكما[1] تشاهد الرجل نائماً إلى جنبك وتعلم قطعاً أن كل نائم في مشارق الأرض ومغاربها في كل ليلة تخرج أرواحهم إلى عالم النوم بتوفي الباري لها، والأجساد كلها ملقاة على الأرض ليس فيها إلاّ التنفس وتلك/ الأرواح تسرح في العالم وهي [٣٥٥/أ] موجودة حية حتى ترجع بالانتباه إلى عالم اليقظة. فكذلك الأموات أجسادهم في قبورهم ساكنة وأرواحهم في الملك منعمة أو معذبة وهي متصلة بالقبور والأجساد كاتصال روح النائم بجسده إلى يوم يبعثون.

فإن قلت: فإن أجساد الأحياء غير منحلة ولم تخرج الأرواح في النوم منها بالكلية وأجساد الأموات منحلة ولا نشاهد لها حساً.

فاعلم يا أخي أن الأرواح لمّا كانت حين الحياة الدنيا في أجسادها متطلعة على الحواس إلى عالم الدنيا فكانت آثار الروح ودلائله تظهر في الجسد ظهوراً واضحاً لإقباله على الجسد في عالم الدنيا فلما توجه بالموت إلى عالم الآخرة أدبر عن الدنيا بالكلية فخفيت حركاتها بالكلية عن أهل هذه الدار الدنيا كما صح في[2] الحديث عن العلاء أن رسول الله ﷺ قال: «ألم تروا الإنسان إذا مات شخص بصره»؟ قالوا: بلى. قال: «فذلك حين يتبع بصره نفسه»[3].

فهو ناظر مستغرق مجذوب بالكلية إلى الآخرة محدد النظر مجتمع التوجه إلى الآخرة، والآخرة تجذبه إليها في الباطن كل الجذب فحركات الكل وآثارهم وإحساسهم أخراوية فلا يدرك أهل الدنيا ما تحس الأرواح والأجساد من نعيم وعذاب/ لأن الآخرة لا [٣٥٥/ب] تدرك بالحواس. فالجسد في الغيب والروح متصل به اتصالاً حقيقياً لأن المؤالفة التي كانت بينهم في الدنيا توجب الاتصال بينهما في البرزخ وتمنع من افتراقهما بالكلية فافهم.

فقد ورد في صفة العلماء الأموات مع الخلق الأحياء أن أعيانهم مفقودة وأمثالهم في القلوب موجودة. فكيف بالجسد مع الروح الذي قد وقعت المؤالفة بينهما في دار الدنيا وانطبعت صورة الجسد في ذات الروح انطباع الصور في المرآة الصافية المشفة التي هي وجه من جميع وجوهها، وظاهرها وباطنها الذي تتجلى الصور في جملها ويتصور فيها.

فلذلك لزم كل روح جسده في قبره يسرح حيث سرح هو وينصرف وهو متصل به

---

(١) في الأصل: كلما. وهو تحريف.

(٢) جاءت في الأصل: عن. وهو تحريف.

(٣) أخرجه مسلم في الصحيح (الجنائز ٩)، البيهقي في السنن الكبرى (٣/ ٣٨٥)، عبد الرزاق في المصنف (٦٠٦٩)، القرطبي في التفسير (١٥/ ٢٦١)، المتقي الهندي في كنز العمال (٤٢١٧١).

كالنائم إلى جنبك كالحصاة الملقاة والروح متصل به وهو متصرف في عالم المنام حتى إن النائم ربما يرى أنه يجامع المرأة في بلد بعيد من موضع جسده ويركب الفرس ويمشي في موضعه الذي فيه جسده ويفرح ويسير ويفزع ويتعذب في نومه والجالس على رأسه لا يشاهد ذلك. لا سيما: و «القبر روضة من رياض الجنة أو حفرة من حفر النار»[1]. و «القبر أول منزل من منازل الآخرة»[2]. والآخرة غيب فأحوال القبر أيضاً غيب وليست من أحوال الدنيا المحسوسة ولذلك لم يظهر فيها نار ولا روضة/ لأن ذلك كله في باطن القبر غيب وليس في ظاهره. [٣٥٦/أ]

وكذلك إقعاد الميت وسؤاله وجميع أحواله غيب إنما ذلك في باطن الدنيا التي هي [بخلاف][3] الآخرة.

فصـــل

اعلم يا أخي أن الأرواح إذا قبضت بالموت لا تخرج إلا بأجساد لطيفة وهي باطن هذه الأجساد الكثيفة وبها يعمر البرزخ إلى يوم تتركب عليها هذه الأجساد المنحلة وتلك الأجساد اللطيفة هي الأسورة، والنسم التي ورد ذكرها في الحديث وهي الطير: «إنما نسمة المؤمن طير تعلق من ثمار الجنة»[4]. وورد: «إن أرواح الشهداء في حواصل طير خضر، وأرواح المؤمنين في حواصل طير بيض، وأرواح الكفار في حواصل طير سود»[5].

فسماها في الحديث نسماً وطيراً وليست بطير غربة كما زعم كثير من الخلق.

وقد ذكرها النبي ﷺ في حديث العزل حين استشاره أصحابه في العزل فقال: «ما عليكم ألا تفعلوا ذلك فإنها ليست نسمة كائنة كتب الله أن تخرج إلا هي خارجة»[6] فسماها

---

(١) أورده ابن الجوزي في تذكرة الموضوعات (٢١٦)، الزبيدي في إتحاف السادة المتقين (٦/ ٣٠١)، الهيثمي في مجمع الزوائد (٣/ ٤٦)، المنذري في الترغيب (٤/ ٢٣٨).

(٢) أخرجه أحمد في المسند (١/ ٦٣)، الحاكم في المستدرك (٤/ ٣٣٠)، البخاري في التاريخ (٨/ ٢٢٩)، العجلوني في كشف الخفا (٢/ ١٣٦)، المنذري في الترغيب والترهيب (٤/ ٣٦١).

(٣) ما بين المعقوفين سقط من الأصل والسياق يقتضيه.

(٤) أخرجه النسائي في المجتبى (٤/ ١٠٨)، ابن ماجة في السنن (٤٢٧١)، أحمد في المسند (٣/ ٤٥٥)، أبو نعيم في الحلية (٩/ ١٥٦)، البخاري في التاريخ (٤/ ٣٠٠٥)، الربيع بن حبيب في المسند (٢/ ٦٨).

(٥) أخرجه الترمذي في الجامع الصحيح (١٦٤١)، أحمد في المسند (٦/ ٣٨٦)، المنذري في الترغيب (٢/ ٣١٦).

(٦) أخرجه البخاري في الصحيح (٣/ ١٩٤)، (٥/ ١٤٨)، (٩/ ١٤٨)، أبو داود في السنن (٢١٧٢)، أحمد =

نسماً. وقال في الحديث الآخر: «إنما نسمة المؤمن طير وأرواح المؤمنين في حواصل طير».

ومعنى في حواصل طير، من الحصول أي هي حاصلة فيها كما تقول: النفس حاصلة في الجسد، وسميت طيراً لسرعة سيرها ولطافة حركتها. فافهم فهمنا الله وإياك.

فصل

[٣٥٦/ب] ومن حقائق الإيمان بهذا الباب أن يعد العبد نفسه من/ أهل القبور ويجعل الجسد للروح كالقبر ويغيب فيه بالخلوة والإخلاص عن الخلق ويعلق الروح بالعالم الأخراوي العلوي فيسري ويطير مع النفس في الملكوت بالفكر ويتنعم بأنواع الذكر فيكون في روضة من رياض الجنة تأوي إلى ربه في كل حال. كما ورد في أرواح السعداء من أهل البرزخ: تأوي إلى قناديل معلقة تحت العرش.

ومثلهم من المقربين في الدنيا الذي قال: طلبت لنفسي موضعاً في الملك فلم أجد فضربت خيمتي في إزاء العرش.

جعلنا الله وإياكم من السعداء في الدنيا والآخرة. آمين. آمين.

وصلى الله على محمد وآله وسلم تسليماً.

الشعبة الرابعة والستون

الإيمان بالبعث من القبور، وبعث الأجساد مع الأرواح، وخروجها من دار البرزخ إلى دار الخلود

أما كونها من الإيمان فبين لا يحتاج إلى دليل لأن الله قد نسب جاحد ذلك إلى الكفر فقال: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَءِذَا كُنَّا تُرَٰبًا وَءَابَآؤُنَآ أَئِنَّا لَمُخْرَجُونَ﴾[1]. ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ هَلْ نَدُلُّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ يُنَبِّئُكُمْ إِذَا مُزِّقْتُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ إِنَّكُمْ لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ﴾[2].

= في المسند (٦٨/٣)، مالك في الموطأ (٥٩٤)، أبو نعيم في الحلية (١٤٦/٥)، البغوي في شرح السنة (١٠٣/٩)، ابن حجر في الفتح (١٧٠/٥)، البيهقي في السنن الكبرى (٢٢٩/٧)، التبريزي في مشكاة المصابيح (٣١٨٦).

(١) سورة النمل (الآية: ٦٧).

(٢) سورة سبأ (الآية: ٧).

والسنة والإجماع قد أصفقا على ذلك.

اعلم أن البعث هو إثارة الشيء وتحريكه/ وإخراجه من موضع إلى آخر. ولما كانت [٣٥٧/أ] دار البرزخ دار انتقال ورحلة ولم تكن دار دوام وكانت الآخرة هي البقاء الدائم والخلود السرمدي فلذلك وجب انحلال الأجساد الدنياوية في دار البرزخ كي ينشأ نَشْأً آخر أكبر وأفخم مما هي عليه فتعمر الدار العظمى التي هي دار البقاء الأبدي بأجساد عظيمة باقية. فتنحل الأجساد وتأكلها الأرض في البرزخ والقدرة تصرفها في العفن وتطحن أجزاءها حتى تعود كما كانت أول مرة فينزل الله الماء من تحت العرش كمني الرجال فينبت الأجساد به بغير واسطة آدمي بل كما خلق آدم عليه السلام. فلذلك لا تفنى تلك الأجساد كما لم يفن جسد آدم [عليه السلام] لأن الله صورها بقوته وقدرته للبقاء بغير واسطة.

وكل ما خلق الله بواسطة الذكر والأنثى لا بد أن يفنى أو يطرأ عليه زيادة في البعث كأجساد الأنبياء التي لا تأكلها الأرض لا بد أن يزاد فيها حتى يكون الكل على صورة آدم الذي خلقه الله بيده أول مرة أو على صورة من خلقه للبقاء في الدار الباقية الآخرة من أهل الشمال فتكون الأجساد كلها باقية كما أن أرواحها ونفوسها باقية كبقاء أجساد الكواكب والنيرات وأجرام الأفلاك والسماوات التي صورها الله بقدرته بغير نسل فلا تفنى ولا تنحل إلا أن يريد صانعها تبديلها وإفناءها فأجساد الآدميين/ تفنى وتأكلها الأرض كما صح عن [٣٥٧/ النبي ﷺ في حديث أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «ما بين النفختين أربعون ثم ينزل من السماء ماء فينبتون كما ينبت البقل وليس من الإنسان شيء إلا يفنى إلا عظم واحد وهو عجب الذنب منه يركب الخلق يوم القيامة»(١).

فقد بين النبي عليه الصلاة والسلام في هذا الحديث صورة البعث غاية البيان في قوله: «كما ينبت البقل» يعني في كل سنة وينبت بالماء النازل عليه ويحيى لأن بزوره في الأرض وهي الحبة التي هي في النبات كعحب الذنب من الإنسان.

وفي الحديث: «فينبتون كما تنبت الحبة في حميل السيل»(٢).

والحبة إذا نزل عليها الماء جذبت غذاءها من الأرض والماء (...)(٣) وكان منها

---

(١) أخرجه البخاري في الصحيح (١٥٨/٦، ٢٠٨)، مسلم في الصحيح (الفتن ب ٢٨ رقم ١٤١)، ابن حجر في الفتح (٥٥١/٨)، المنذري في الترغيب والترهيب (٣٨٣/٤)، التبريزي في مشكاة المصابيح (٥٥٢١).

(٢) راجع المراجع السابقة.

(٣) في الأصل كلمة غير واضحة المعنى هذا رسمها: (ومستات) وأظن أنها: يقتات لكن المعنى لا يفيد أنها المقصودة في السياق.

النبات. وكذلك عجب الذنب حبة نسل بني آدم إذا فني الكل منهم ونزل عليه الماء الذي هو من جنسه ماء كمني الرجال فتنبت به الأجساد للبعث والحياة الباقية.

وروى أبو رزين العقيلي قال قلت: يا رسول الله كيف يعيد الله الخلق؟ وما آية ذلك في خلقه؟ فقال: «أما مررت بوادي قومك جدباً ثم مررت به يهتز خضراً؟» قلت: نعم. قال: «فتلك آية الله في خلقه: ﴿كَذَٰلِكَ يُحْيِي ٱللَّهُ ٱلْمَوْتَىٰ﴾»[1].

وقال عز وجل: ﴿وَنَزَّلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً مُّبَٰرَكاً فَأَنۢبَتْنَا بِهِۦ جَنَّٰتٍ وَحَبَّ ٱلْحَصِيدِ ۝ وَٱلنَّخْلَ بَاسِقَٰتٍ لَّهَا طَلْعٌ نَّضِيدٌ ۝ رِّزْقاً لِّلْعِبَادِ وَأَحْيَيْنَا بِهِۦ بَلْدَةً مَّيْتاً﴾[2] ثم قال: ﴿كَذَٰلِكَ ٱلْخُرُوجُ﴾[2] أي خروج الأجساد من الأرض بالبعث إذا نزل عليها الماء الذي هو من جنسها كمني الرجال. [٣٥٨/أ]

فعجب الذنب إذا نزل عليه هذا الماء المذكور جذب إليه كل ما انحل من الجسد في العالم في حال الحياة والموت فإن ذلك كله محفوظ وجواهر مصونة في خزائن العالم التي هي الأصول: الأرض، والماء، والهواء، والنار. وقال الله عز وجل: ﴿قَدْ عَلِمْنَا مَا تَنقُصُ ٱلْأَرْضُ مِنْهُمْ وَعِندَنَا كِتَٰبٌ حَفِيظٌ﴾[3]. فيجذب ذلك كله عجب الذنب بإذن الله كما يجذب حجر الماس الحديد فيرد كل شيء أخذ من الجواهر شيئاً إلى عجب الذنب فيركب عليه خلق الأجساد مرة ثانية كما خلق منه أول مرة.

قال النبي عليه الصلاة والسلام: «كل ابن آدم تأكله الأرض إلا عجب الذنب منه خلق وفيه يركب»[4].

وقد ضرب الله عز وجل لإبراهيم عليه السلام مثلاً في بعث الأجساد أراه فيه صورة اليقين حين سأله ذلك فقال: ﴿رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِي ٱلْمَوْتَىٰ قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِن قَالَ بَلَىٰ وَلَٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِي قَالَ فَخُذْ أَرْبَعَةً مِّنَ ٱلطَّيْرِ فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ﴾[5] أي اضممهن إليك على قراءة من

---

(١) أخرجه أحمد في المسند (٤/١١)، ابن أبي عاصم في السنة (١/ ٢٩٠)، البيهقي في الأسماء والصفات (٥٠٧).

(٢) سورة ق (الآية: ٩، ١٠، ١١).

(٣) سورة ق (الآية: ٤).

(٤) أخرجه مسلم في الصحيح (الفتن ب ٣٨ رقم ١٤٢)، أبو داود في السنن (٤٧٤٣)، أحمد في المسند (٢/ ٣٢٢)، ابن أبي عاصم في السنة (٢/ ٤٣٣)، الربيع بن حبيب في المسند (٢/ ٧١)، النسائي في المجتبى (٤/ ١١١).

(٥) سورة البقرة (الآية: ٢٦٠).

قرأ بضم الصاد أي أملهنَّ إليك بضم التعليم والأشلاء والنداء كما تعلم جوارح الصيد فتنزجر إذا زجرت وتأتي إذا دعيت.

فهذا مثل ضربه الله له والمراد به الممثل به وهي الأصول الأربعة التي هي: الأرض/ [٣٥٨/ب] والماء والهواء والنار المتركب والمخلوق عنها جميع ما في هذه الدار الدنياوية من الأجساد الحيوانية والنباتية والمعدنية.

فيقول سبحانه لخليله إبراهيم [عليه السلام] كما أنك إذا دعوت الطير الأربعة فأتتك وأجابتك حية أو مقطعة على قراءة من قراء بكسر الصاد من قوله: ﴿فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ﴾[1] أي قطعهن فكذلك إذا دعوت أنا هذه الأصول الأربعة التي هي أسرع إجابة إليّ من الطير إليك إذا دعوتها من الجبال فأتاك كل واحد أو كل جزء من الجبل الذي جعلته عليه ﴿سَعْيًا﴾[2] أي جرياً كذلك الجبلّات الأربع التي خلقت منها الأجسام كلها إذا دعوت كل واحد وكل جزء من مكانه أجابني وأسرعَ فركبت منها جميع الأجساد كذلك فعلت من أول الدنيا إلى آخرها فكذلك أفعل في النشأة الآخرة إذا رجع كل جزء وجوهر إلى أصله أدعوه مرة ثانية فيجيبني كما أجابني أول مرة بل الإجابة آخراً أهون على المخلوق من هذه الأربعة من الإجابة أولاً لأنه قد تعود الإجابة وعرف طريق الدعوة إلى باريه وداعيه.

قال الله عز وجل: ﴿وَهُوَ الَّذِي يَبْدَؤُا الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ﴾[3]. الهاء في قوله ﴿عَلَيْهِ﴾[3] عائدة على المخلوق العود أهون عليه من البدء لأن الكل على الله هين/ ولا [٣٥٩/. يجوز أن يكون شيء أهون عليه من شيء جل الله عن ذلك فلو كان شيء أهون عليه من شيء للحقه في الصعب مشقة ووجد في السهل راحة وذلك في حقه مستحيل. قال الله عز وجل: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَمَا مَسَّنَا مِن لُّغُوبٍ﴾[4]. ولذلك قال عز وجل في آخر المثل: ﴿وَاعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾[5]. لا يمتنع عليه ولا يعجز قدرته شيء حكيم في صنعه يحكم الأشياء ويزمها ويتقنها فيحل الأجساد إذا شاء ويركبها بحكمته إذا شاء للبقاء تركيباً لا ينحل بعده لأنه خلقها للبقاء كما خلقها أولاً للفناء فلذلك انحلت أولاً.

---

(١) سورة البقرة (الآية: ٢٦٠).
(٢) سورة البقرة (الآية: ٢٦٠).
(٣) سورة الروم (الآية: ٢٧).
(٤) سورة ق (الآية: ٣٨).
(٥) سورة البقرة (الآية: ٢٦٠).

فصل

انقسم المنكرون لبعث الأجساد إلى أقسام ثلاثة:

● فمن قائل باستحالة ذلك واستبعاده وهم الكفار العمي الذين قالوا: ﴿ذَٰلِكَ رَجْعٌ بَعِيدٌ﴾[١]. رد الله عليهم قولهم ونبههم لو فطنوا فقال: ﴿أَفَلَمْ يَنظُرُوا إِلَى السَّمَاءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَاهَا وَزَيَّنَّاهَا وَمَا لَهَا مِن فُرُوجٍ * وَالْأَرْضَ مَدَدْنَاهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ﴾[٢] الآية. يقول عز وجل من قدر على إيجاد العالَم من عدم إلى وجود على عظم العالم وكثرة عجائبه كيف تعجزه أجسام لطيفة وأشباح ضعيفة إن هذا لهو العمى البين والجهل العظيم من قائله.

[٣٥٩/ب] ● القسم الثاني من/ الملحدة زعمت أن الأرواح تبعث فقط لأن الأجسام قد تغذت من أجسام أُخر حيوانات ونبات فأكل جسم جسماً فلو أُعيدت لكان في ذلك إبطال أجسام أخر والله تعالى يقول: ﴿وَإِذَا الْوُحُوشُ حُشِرَتْ﴾[٣]. وفي الحديث: «يؤتى بها أوفر ما كانت». يعني البهائم، فتأولوا البعث على رأيهم وأخرجوه عن مقصوده وهذا جهل عظيم من منتحليه. فإن الأجساد لا تأكل ولا تتغذى إلا بأجزاء مقدرة لها وأقسام مقسومة في الأجساد المأكولة تأخذها منها ولا تنقص الأجسام المأكولة ولا تبطلها. فإن الإنسان إذا أكل مثلاً طائراً بجملته[٤] إنما يأخذ منه فضلاً زائداً على ذات الطائر قدر للأكل له فيه ولا يبطل ذات الطائر بجملته. كالإنسان يخرج من المني من جملة جسد الوالدين ولم ينقص منهما شيئاً فإن ذلك شيء زائد فيهما قد قدر أن يخلق منه ما شاء الله من الأولاد ولا تبطل أجسام الوالدين.

وهكذا أجسام المأكولات لكل أكل في مأكوله شيء مقدر في ذاته يتغذى به ويتصور منه جسمه فيأخذه ويرمي المأكول سوياً لا ينتطل من ذاته عضو.

قال النبي عليه الصلاة والسلام: «إن اللقمة تنبت اللحم»[٥]. أي تغذيه وتربيه بما يعطيه من الشيء المقدر له فيها. ولم يقل عليه الصلاة والسلام/ إن اللقمة بجملتها هي اللحم فإن بالمشاهدة نرى أن اللقمة يؤخذ الغذاء منها ما قدر للعبد فيها ويرمي سائرها في التفل والفضلات.

---

(١) سورة ق (الآية: ٣).

(٢) سورة ق (الآية: ٦، ٧).

(٣) سورة التكوير (الآية: ٥).

(٤) جاءت في الأصل على هذا الرسم (بحمله) وبدون نقط وهو تحريف.

(٥) أورد الزبيدي في إتحاف السادة المتقين (٦/ ٨).

وكالذي يوقد مثلاً ألف مصباح من مصباح واحد فتتقد كلها ولا تبطل ذات المصباح.

فكذلك إذا حصل الغذاء في الجسم تشابه وخلق الله النَّشْءَ والإشباع والنمو بقدرته والغذاء سبب ليس بيده شيء ثم يرمى في الفضلات.

وهكذا في البعث الآخر يأمر الله كل شيء أخذ من شيء شيئاً فيرد ذلك الشيء الزائد عنده ويبقى كل شيء كاملاً كما قدره الله وأحكمه. فيعيد الأجسام كما أنشأها وقدرها أول مرة ولا يبطل شيء شيئاً.

فهذا بين لا خفاء عليه إلا على من أعمى الله بصيرته.

● القسم الثالث المنكرون لبعث الأجسام قالوا: لو بعثت هذه الأجسام لكانت مثل ما كانت في دار الدنيا تحتاج إلى غذاء كغذاء الدنيا وتحتاج إلى بول وغائط وتشيب وتهرم إلى غير ذلك من أحوال أجساد أهل الدنيا والآخرة منزهة عن هذا كله.

وهذا أيضاً جهل منهم فإن الآخرة عندنا غذاؤها وأخبارها كلها ليس مساوياً بالكلية لأمور الدنيا بل هو أطيب وألطف وليس فيها شيء من الرجس، وهي كلها حياة وليس فيها فناء ـ أعني الجنة ـ/ وقد شبه الله أجسام أهل الجنة باللؤلؤ والياقوت والمرجان فقال: ﴿إِذَا رَأَيْتَهُمْ حَسِبْتَهُمْ لُؤْلُؤاً مَنْثُوراً﴾[1]. وقال: ﴿كَأَنَّهُنَّ الْيَاقُوتُ وَالْمَرْجَانُ﴾[2]. [٦٠ ب]

وهذه الأجسام في الدنيا لا يسرع إليها الفناء ـ أعني اللؤلؤ والياقوت والجواهر النفيسة ـ مع حقارتها لأنها من الدنيا الحقيرة.

فكيف بأجسام الآخرة التي هي الحيوان وياقوتها ولؤلؤها رطب حي لا يفنى ولا يتغير بل يزيد أبداً عياقة وجدة وحسناً وحياة على ممر الأزمان والأوقات وقد خلق الله أجسام الفلك العلوي لنا آية وأجسام الكواكب فيها أيضاً كذلك خلقها كلها في غاية الاعتدال بحيث لا تفنى مع سرعة حركتها وطول أعمارها إلا إذا أراد مبدعها إفناءها أو تبديلها.

وأجسام الآخرة ألطف وأجل من أجسام الفلك والنيرات لأنها حية معتدلة ليس فيها من الموت والانحراف قليل ولا كثير.

وقالت أيضاً هذه الطائفة: الأجساد إذا هيئت وكملت خلقتها فاضت عليها الأرواح كما تفيض الصّور في المرايا، فلو أعيدت الأجسام لفاضت إليها عند كمال خلقها أرواح غير أرواحها.

---

(١) سورة الإنسان (الآية: ١٩).

(٢) سورة الرحمٰن (الآية: ٥٨).

وهذا جهل بل هو كفر فإن الروح ليس يقبض إلى الجسد الذي يفيض إليه إلا بأمر الآمر وإرادة المريد الحق سبحانه ولو/ كان كما زعموا لفاضت إليه الأرواح حيث تفيض [٣٦٠/ب] على كُرْهٍ منه ولا يقدر على ردها عن ذلك.

تعالى الله عن قول الزائغين المبطلين ولو كان قولهم صحيحاً لما فاض روح من الصور إلا إلى جسده الذي عمره في الدنيا لأنه قد حصلت بينهما من الألفة والعلاقة وتصورت صورة الجسد ومثاله في ذات الروح بحيث لا تفيض إلا إلى جسده ولا يعرف طريقاً إلاّ طريق جسده.

فإذا كان عند البعث بعث الله كل روح إلى جسده وقرنه به وقاما جميعاً إلى الجزاء أو الثواب الأبدي.

ولا يجوز أيضاً أن يدخل روح في غير جسده الذي عمر به الدنيا وأطاع الله أو عصاه فإن الله لا يعذب جسداً لم يعصه ولا يجازي إلا من أطاعه أو عصاه، قال الله تعالى: ﴿مَن يُحْيِي ٱلْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ﴾[1].

فهذا نص أنه يحيي الأجساد الدنياوية بعينها لا غيرها وإنما سمي الجزاء جزاء من أجل أنه لشيء متقدم وعلى شيء متقدم.

فصــــل

ومن البعث الروحاني حياة الأرواح والقلوب بالإيمان والعلم وانتباهها من الغفلات، قال الله عز وجل في ذلك: ﴿أَوَمَن كَانَ مَيْتاً فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُوراً يَمْشِي بِهِ فِي ٱلنَّاسِ﴾[2].

ولا موت أشد من الجهل والكفر، كذلك لا حياة أكمل من الإيمان/ والعلم. [٣٦١/أ]

وعن ابن عباس رضي الله عنه في قوله: ﴿ٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ يُحْيِي ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا﴾[3].

قال: يلين قلوباً بعد قسوتها فيجعلها مخبتةً منيبةً.

وإلاّ فقد علم إحياء الأرض بالمطر مشاهدة.

وقوله: ﴿ٱعْلَمُوٓا۟﴾[3] تنبيه أن الله يحيي القلوب الميتة بالعلم والحكمة والشواهد على

---

(١) سورة يس (الآية: ٧٨).

(٢) سورة الأنعام (الآية: ١٢٢).

(٣) سورة الحديد (الآية: ١٧).

هذا كثيرة في أقوال الحكماء والعلماء والآيات والأخبار.

وفي الحديث: «مثل ما بعثني الله به من الهدى [والعلم][1] كمثل الغيث الكثير أصاب أرضاً»[2]. الحديث إلى آخره.

فالعلم كالمطر إذا نزل على القلوب حييت الأرواح به من موت الجهل واهتزت الجوارح بالنبات العملي وانبعث الجهلة على فعل الخيرات.

ومثل العبد نفسه في يوم البعث قبل يوم البعث وصار حاله كقول القائل:

رأى الأمر يفضي إلى آخر فصيَّر آخره أولا

أحيا الله قلوبنا وقلوبكم بحياة طيبة من عنده وحشرنا وإياكم في زمرة المتقين في يوم البعث وحملنا وإياكم على العافية في جميع أمور الدنيا والآخرة. آمين. آمين.

وصلى الله على محمد وآله وسلم تسليماً.

الشعبة الخامسة والستون

الإيمان باليوم الآخر وهو يوم القيامة الذي يكون فيه بعث الأجساد وغيره من الكائنات الأخراوية

/ فأما كونها من الإيمان فإن الله يقول: ﴿إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَاجِدَ ٱللَّهِ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ﴾[3].

وسؤال جبريل للنبي عليهما السلام عن الإيمان فقال: «فأخبرني عن الإيمان»؟ قال: «أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر»[4].

والإجماع من أهل الإيمان عليه ومقداره خمسون ألف سنة يظهر في كل نفس من الخمسين ألف سنة من الأمور العظيمة ما لا يقدر قدره إلا الله.

---

(١) ما بين المعقوفين جاء موضعه بياض وأكملته من المصادر السابقة.

(٢) أخرجه البخاري في الصحيح (١/ ٣٠)، ابن حجر في التغليق (٨٠، ٨١)، في فتح الباري (١/ ١٧٥)، البغوي في شرح السنة (١/ ٢٨٧)، المنذري في الترغيب والترهيب (١/ ٩٩).

(٣) سورة التوبة (الآية: ١٨).

(٤) جزء من حديث الإسلام والإيمان والإحسان الذي رواه البخاري في الصحيح (١/ ٢٠)، (٦/ ١٤٤)، مسلم في الصحيح (الإيمان ١، ٥، ٧)، أبو داود في السنن (السنة ب ١٦)، الترمذي في الجامع (٢٦١٠)، ابن ماجة في السنن (٦٣، ٦٤، ٤٠٤٤)، النسائي في المجتبى (الإيمان ب ٥، ٦).

وأوله النفخة الثانية في الصور. وآخره الاستقرار في الجنة أو النار.

فصـــل

اعلم أن الكلام في هذا الباب يستدعي الكلام في حدث العالم وأن العالم في حكم الجوار لصانعه إيجاده وإعدامه وتبديله وتصريفه كيف شاء.

فإذا كان من المجوزات العقليات وقد أخبر الله سبحانه بتبديله، وخبره حق وصدق لا يجوز خلافه كما قال: ﴿يَوْمَ تُبَدَّلُ ٱلْأَرْضُ غَيْرَ ٱلْأَرْضِ وَٱلسَّمَاوَاتُ﴾[1] الآية، و ﴿إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنشَقَّتْ﴾[2] وغير ذلك من الآيات فقد وجب التصديق به.

وذلك لا يكون إلاّ في يوم القيامة فيه تظهر الآيات والحوادث العظام فهو اليوم العظيم كما قال تعالى: ﴿أَلَا يَظُنُّ أُوْلَٰٓئِكَ أَنَّهُم مَّبْعُوثُونَ لِيَوْمٍ عَظِيمٍ﴾[3].

وذلك أن الله جل جلاله لما خلق العالم وأكمله ورفع العلوي منه في محله ووضع السفلي ورتب الموجودات في أكمل/ [٣٦٢/ب] الترتيب والاستواء والعدل باستوائه على العرش فجرى العالم كله على سننه وعَرْفه التي خلقه الله لها وعليها في الملك والملكوت.

ولم يظهر ولا يخفى للعالم كله من صفات موجده إلاّ بمقدار ما يحتمل ويصح جريه به على العرف والعادة التي أريد منه.

وستر عن الجميع من قدرته وإرادته وعظمة تجليه ما لو أظهره لانخرم النظام الذي أريد منه.

وكان تدبيره سبحانه ذلك في أصل التدبير لجميع المخلوقات أن تجري على هذا الحكم والعرف إلى وقت معلوم.

فإذا أتى الوقت وانقضى الأمد أجراه على سنة أخرى فإذا جاء الأجل المسمى وأراد الجليل جل جلاله التنزل بصفات الحكمة والعدل والرحمة إلى كرسي الحكم وفصل القضاء والجزاء تجلى لهذا العالم بأسره من معاني أسمائه وصفاته ما لم يعهده العالم قبل ذلك فلم يحمل ذلك فظهر في العالم كله من الحوادث والتبديلات ما نطقت به الأخبار والآيات.

[٣٦٣/أ] فأول ما ظهر فعل ذلك التجلي في العرش العظيم الذي ليس في المخلوقات مثله فلم يحتمل العرش ذلك على عظمته فكاد أن ينهد ويتلاشى فلولا ما زاده سبحانه من الاتساع

---

(١) سورة إبراهيم (الآية: ٤٨).
(٢) سورة الانشقاق (الآية: ١).
(٣) سورة المطففين (الآية: ٤، ٥).

والقوة والعظمة لذهب وجوده لكن قواه زادت اتساعاً وأمده/ بالجملة أضعافاً مضاعفة فصار [٣٦٣/ب] حملته ثمانية بعد أن كان يحمله أربعة، قال الله عز وجل: ﴿وَيَحْمِلُ عَرْشَ رَبِّكَ فَوْقَهُمْ يَوْمَئِذٍ ثَمَانِيَةٌ﴾(١).

ثم ظهر فعل ذلك التجلي وأثره في سائر المخلوقات فنزلت الحبات واتسعت على السماوات وسرت أمام التجلي فيها حتى أزلفت وقربت من المتقين فعادت العلويات السماويات جنان وتشققت السماوات وتنزلت الأملاك صَفًّا صَفًّا من مقاماتها وانتثرت النجوم إلى غير ذلك مما يظهر ذلك اليوم في عين العرش.

وكذلك ظهر في شمال العرش فانجلى لجهنم من صفات الغضب والشدة فضاقت على الخزان وفار بعضها على بعض حتى خرجت على الأرضين وسرت في العالم حتى صارت الأرضون والبحار ناراً.

وكذلك طارت الأرواح إلى جميع الأجساد بما تجلى من معاني عظمة الكلام الذي لم يعهد مثله.

وامتدت الأرض تواضعاً أمام التجلي والهيبة حتى أخذت أكناف السماوات والأرضين كلها فصارت فراشاً لجميع الخلق ملك أو إنس أو جن أو حيوان. وتفجرت البحار بامتدادها. قال الله عز وجل: ﴿يَوْمَ تَشَقَّقُ ٱلسَّمَآءُ بِٱلْغَمَامِ وَنُزِّلَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ تَنزِيلًا﴾(٢) وهذا الغمام هو الذي يأتي فيه رب العزة ويجيء كما قال: ﴿هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن يَأْتِيَهُمُ ٱللَّهُ فِي ظُلَلٍ مِّنَ ٱلْغَمَامِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ﴾(٣).

فأخبر سبحانه أن السماء تشقق بالغمام الذي يأتي فيه رب العزة.

وورد في تجلي معاني الغضب في شمال العرش والسفليات في حديث الشفاعة في الصحيح ما يقول آدم وغيره من الأنبياء [عليهم السلام] إذا سُئل الشفاعة: «إن ربي غضب اليوم غضباً لم يغضب قبله مثله»(٤).

فهذا نصّ صريح ورد في الحديث الصحيح أنه تجلى للعالم من صفات الغضب ما لم يظهر قط في الموجودات منذ خلقه الله إلى ذلك اليوم.

فلذلك تكدكدت الأرض دكاً دكاً، وكورت الشمس والقمر، وانتثرت النجوم،

(١) سورة الحاقة (الآية: ١٨).
(٢) سورة الفرقان (الآية: ٢٥).
(٣) سورة البقرة (الآية: ٢١٠).
(٤) أخرجه أبو عوانة في المسند (١/ ١٧١).

وتفجرت البحار إلى غير ذلك.

ألا ترى إلى قوله عز وجل: ﴿فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُۥ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُۥ دَكًّا﴾[1].

ولو كان ذلك لغير الجبل أو للأرض كلها لتدكدكت وقامت القيامة وبتجلّي عظيم عدله في يوم القيامة كان شدة الحساب ووضع الموازين القسط ونصب القناطر الصراطية ويتجلى عظيم صفات الفضل أكثر مما عهد يكون ما يكون ذلك اليوم من الغفران والصفح والتجاوز والسمح وظهور الرحمة التي لا توصف.

فبذلك التجلي العظيم لم يثبت العالم على العرف والعادة المعهودة فصارت سنة أخرى وذهبت سنة الفانية/ الدنيا في جميع العالم. فافهم. [٣٦٤/أ]

فإن من أجل ذلك المجيء والتجلي كان وقوف الخلائق في ذلك اليوم قياماً على أقدامهم لم يبق أحد من الخلق إلا قام على ساق الإجلال: ﴿يَوْمَ يَقُومُ ٱلنَّاسُ لِرَبِّ ٱلْعَالَمِينَ﴾[2].

وقامت الملائكة فيه صفاً صفاً وقام الوجود كله على ساق إجلالاً لسيده بالحقيقة والمعنى.

فصـــل

فإن قلت: فأين يسع هذا الخلق كله والملائكة في هذه الأرض؟

فاعلم أن الأرض إذا انشقت عن الأجساد ثم أُمدت أمام التجلي والهيبة أخذت في امتدادها إلى أرجاء سماء الدنيا في كل ناحية من الآفاق، وذلك مسيرة خمسمائة عام أخرى، وذلك ألف سنة في كل ناحية من الآفاق.

فقامت الخلائق ونزلت ملائكة السماء الدنيا وغيرها من الملائكة الأرضية أيضاً في ذلك البساط العظيم وفي امتدادها تفجرت البحار ثم مدت أيضاً كما يمدّ الجلد العكاظي كما ورد في الحديث. فزاد امتدادها إلى أكناف الأرض الثانية وأرجاء السماء الثانية وهي أعظم وأوسع من السماء الأولى فتنزل في ذلك البساط ملائكة السماء الثانية.

وكذلك تمتد من أرجاء سماء إلى سماء حتى تأخذ أكناف الأرضين وأرجاء السماوات كلها فينزل أهل كل/ سماء إذا انشقت بهم الغمام فيما يليه من ذلك البساط فتكون الأرض بساطاً للعالم كله قد عمت أرجاء السماوات وأكناف الأرضين فتقوم الملائكة صَفًّا صَفًّا في ذلك البساط العظيم. [٣٦٤/ب]

---

(١) سورة الأعراف (الآية: ١٤٣).
(٢) سورة المطففين (الآية: ٦).

ألم تسمع إلى قول الله عز وجل: ﴿فَٱنشَقَّتِ ٱلسَّمَآءُ فَهِيَ يَوْمَئِذٍ وَاهِيَةٌ * وَٱلْمَلَكُ عَلَىٰ أَرْجَآئِهَا﴾[١].

فإذا قدرت امتداد الأرض في جميع الآفاق من كل ناحية حتى تأخذ أرجاء السماوات كلها وأكناف الأرض، ظهر لك اتساعها وقيام الخلائق عليها صفاً صفاً مع تراصّهم وحتى لا يجد العبد منفذاً، ولاح معنى قوله: ﴿يَا مَعْشَرَ ٱلْجِنِّ وَٱلإِنسِ إِنِ ٱسْتَطَعْتُمْ أَن تَنفُذُواْ مِنْ أَقْطَارِ ٱلسَّمَاوَاتِ وَٱلأَرْضِ فَٱنفُذُواْ لاَ تَنفُذُونَ إِلاَّ بِسُلْطَانٍ﴾[٢].

أي بحجة، فيقف الخلق ما شاء الله إلى[٣] ما شاء الله حتى يدعون إلى الحساب.

أظلنا الله وإياكم في ظله يوم لا ظل إلا ظله، [آمين. آمين][٤].

وصلى الله على محمد وآله وسلم تسليماً.

الشعبة السادسة والستون

الإيمان بالحساب ووقوعه على حسب أحوال الخلائق وعلى ما أراده الله من الخفة والتيسير لمن شاء والمناقشة والشدة لمن شاء

أما كون هذه الشعبة من الإيمان فبين لإجماع أهل الشرائع عليه قال/ الله عز وجل: [٦٥] ﴿إِنِّي عُذْتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُم مِّن كُلِّ مُتَكَبِّرٍ لاَّ يُؤْمِنُ بِيَوْمِ ٱلْحِسَابِ﴾[٥]. وقال: ﴿فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَاباً يَسِيراً﴾[٦].

وعن عبد الله أن رسول الله ﷺ قال: «أول ما يقضى بين الناس يوم القيامة في الدماء ثم يُسألون عن الصلاة».

وقال تعالى وأقسم: ﴿فَوَرَبِّكَ لَنَسْأَلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ * عَمَّا كَانُواْ يَعْمَلُونَ﴾[٧].

---

(١) سورة الحاقة (الآية: ١٦، ١٧).
(٢) سورة الرحمٰن (الآية: ٣٣).
(٣) جاءت في الأصل: في. والأولى ما أثبته.
(٤) ما بين المعقوفين درج عليه المؤلف من أول المصنف فأحسب أنه سقط في هذا الموضع فأضفته تبركاً.
(٥) سورة غافر (الآية: ٢٧).
(٦) سورة الانشقاق (الآية: ٨).
(٧) سورة الحجر (الآية: ٩٢، ٩٣).

فصـــل

اعلم أن الحساب مقام عظيم من أعظم مقامات الآخرة والناس فيه متفاوتون في اليسير والمناقشة على قدر منازلهم وعلى حسب الأعمال.

فيسأل الرسل عن تبليغ الرسالة إلى الخلق، قال الله عز وجل: ﴿يَوْمَ يَجْمَعُ ٱللَّهُ ٱلرُّسُلَ فَيَقُولُ مَاذَآ أُجِبْتُمْ قَالُواْ لَا عِلْمَ لَنَآ إِنَّكَ أَنتَ عَلَّٰمُ ٱلْغُيُوبِ﴾(١).

وقال سبحانه: ﴿يَا عِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ءَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ ٱتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَٰهَيْنِ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾(٢) الآية.

ويسأل الكافرين عن الإيمان والتوحيد وإجابة المرسلين فلا يؤخذ لهم أيمان ولا إجابة فيؤمر بهم إلى النار ولا يُسألون عن سائر الأعمال فيدخلون النار بغير حساب ـ أي على أعمالهم ـ وهو المعنى بقوله: ﴿وَلَا يُسْـَٔلُ عَن ذُنُوبِهِمُ ٱلْمُجْرِمُونَ﴾(٣).

[٣٦٥/ب] وقد أشكلت هذه المسألة والآيات على كثير من الناس وليس فيها/ إشكال ولا اختلاف ولأن السؤال يقع أولاً عن الأصل وهو الإيمان والتوحيد فلا يوجد، فلا يحتاجون إلى سؤال عن الفرع.

قال الله عز وجل بعد ذكر الكفار: ﴿فَوَرَبِّكَ لَنَسْـَٔلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ * عَمَّا كَانُواْ يَعْمَلُونَ﴾(٤).

وورد في الصحيح من تفسيرها عن قول: لا إله إلا الله فإذا لم يوجد لهم توحيد لم يُسألوا عن سائر الذنوب والأعمال مصداق ذلك من القرآن قوله: ﴿وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ أَيْنَ شُرَكَآءِي﴾(٥) الآية. وقوله: ﴿أَهَٰٓؤُلَآءِ إِيَّاكُمْ كَانُواْ يَعْبُدُونَ﴾(٦). و: ﴿وَقِيلَ ٱدْعُواْ شُرَكَآءَكُمْ فَدَعَوْهُمْ فَلَمْ يَسْتَجِيبُواْ لَهُمْ﴾(٧).

وأمثاله كثيرة وهذا كله سؤال عن التوحيد والمعبودات فقط.

لكن كل منهم تحيط به خطيئاته ويجازى بها ويشاهدها كلها صغيراً وكبيراً.

ويُسأل المؤمنون عن التوحيد وجميع الأعمال وعن العمر فيما أفني والشباب فيما أبلي

(١) سورة المائدة (الآية: ١٠٩).
(٢) سورة المائدة (الآية: ١١٦).
(٣) سورة القصص (الآية: ٧٨).
(٤) سورة الحجر (الآية: ٩٢، ٩٣).
(٥) سورة فصلت (الآية: ٤٧).
(٦) سورة سبأ (الآية: ٤٠).
(٧) سورة القصص (الآية: ٦٤).

وعن الأموال من أين اكتسبت وفيما أنفقت، وعن العلم ما عمل فيه وعن ما دق وجل. فلا يبقى أحد إلاّ حوسب وسُئل.

روى أبو هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «لتؤدن الحقوق إلى أهلها يوم القيامة حتى ليقاد للشاة الجلحاء من القرناء ويُسأل الحجر الذي/ انكب على الحجر ويُسأل الحجر لِمَ [٣٦٦/أ] نكأ رِجْل الرَّجُل»(١).

فهذا كله في مقام واحد لجميع الخلائق فلا يشغل سريع الحساب شأن عن شأن فينظر كل عبد إلى جميع أعماله دقيقها وجليلها في حالة واحدة معمولة من ذاته وقائمة بذاته وتنشر عليه دواوين الأعمال مفرقة على أوقات الأعمار نشراً واحداً فيرى جميع عمره كيوم واحد احتوى على أعوام وجمعات تحت ضمن الشهور وإياماً تحت ضمن الجمع(٢)، وساعات ضمن الأيام وأنفاساً تحت ضمن الساعات.

فينظر أعماله كلها ديناً ودنيا وخيراً وشراً مسطرة في اليوم الفلاني عمل كذا وفي الساعة الفلانية عمل كذا كل عمل مرتبط بالوقت الذي عمل فيه ولا يستطيع أحد أن ينكر منه حرفاً واحداً فيشاهد العبد هذا كله مؤمناً كان أو كافراً.

قال الله تعالى في معنى ذلك: ﴿وَكُلَّ إِنسَانٍ أَلْزَمْنَاهُ طَائِرَهُ فِي عُنُقِهِ وَنُخْرِجُ لَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ كِتَاباً يَلْقَاهُ مَنْشُوراً * اقْرَأْ كِتَابَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيباً﴾(٣).

فينظر كل أحد جميع أعماله منشوراً على جميع عمره وفي حالةٍ واحدة يسأل كل واحد بكلامه العزيز والمخاطبة واحدة كما أنه يقول الآن للوجود كله كن فيكون عن كلمته/ [٣٦٦/ب] والوجود على اختلافه واختلاف أحواله لا يخرج عن ضمن تلك الكلمة الواحدة. ولا يشغله شيء من الوجود عن شيء بل يفهم كل شيء من الوجود من كلمته ما يليق به فيتكون على مقتضى ما فهم من الكلمة الواحدة.

وكذلك الحساب يوم القيامة يكلم الرب الخلق في سؤاله إياهم في حال واحدة ويلقى كل واحد ما قدّر له من يسر وهو العرض أو شدة وهي المناقشة.

فأما أهل التيسير فيدخلون الجنة بغير حساب إنما هو العرض فقط وإنما يلقى الحساب

(١) أخرجه مسلم في الصحيح (البر والصلة ب ١٥ رقم ٦٠)، الترمذي في الجامع الصحيح (٢٤٢٠)، أحمد في المسند (٢/ ٢٣٥، ٣٠١، ٣٧٢). البيهقي في السنن الكبرى (٦/ ٩٣)، البخاري في الأدب (١٨٢)، العقيلي في الضعفاء (١/ ٢٨٥)، المنذري في الترغيب (٤/ ٤٠١)، التبريزي في مشكاة المصابيح (٥١٢٨).

(٢) في الأصل: الجميع. وهو تحريف.

(٣) سورة الإسراء (الآية: ١٣، ١٤).

أهل المناقشة ومن نوقش الحساب عذب. لأن المناقشة في نفسها عذاب.

روت عائشة رضي الله عنها قالت: قال رسول الله ﷺ: «ليس أحد يحاسب إلاّ هلك»(١). قلت: يا رسول الله جعلني الله فداك أليس الله يقول: ﴿فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ * فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَاباً يَسِيراً﴾(٢)؟ قال: «ذاك العرض من نوقش الحساب هلك».

وفي رواية أخرى: «ليس ذاك الحساب إنما هو العرض، من نوقش الحساب يوم القيامة عذب»(٣).

فصـــل

أعظم الناس خفّة في الحساب وأقلهم حساباً أهل الورع في الدنيا وأهل المحاسبة للنفس والمتقون، فإنهم حاسبوا أنفسهم في الدنيا فلم يبقَ لهم إلاّ العرض على الملك المحاسب فقط.

[٣٦٧/أ] / وإنما مثل ذلك مثل رجل عمل لملك عملاً أخرجه إليه فإن حاسب نفسه قبل رجوعه إلى الملك ووضع كل شيء موضعه الذي أمر به الملك أتى الملك فعرض عليه عمله فوجده كما أمر الملك فلم يكن له شيء يتوقف فيه ولا يناقش عليه فكان حسابه كله يسيراً كلا حساب وإنما هو عرض. وإن خلط في عمله وعمل برأيه وظلم نفسه وغيره فإذا رجع إلى الملك ووقف على عمله سُئل وحوسب وكان أمره على ما أراد الملك.

فإذا فهمت ما تقدم فالناس في الإيمان بالحساب على ضربين ضرب غافل عن محاسبة نفسه في الدنيا فيترك الأمر مهملاً إلى يوم القيامة. وهذا حالنا وحال الجمّ الغفير. وضرب آخر نبهت عقولهم بالبعثة اليقينية فجعلوا الآخر أولاً فهم مشاهدون للآخرة باليقين ووافقون بين يدي الله فحاسبوا أنفسهم في كل يوم وليلة على ما سلف لهم من العمر فأدّوا الحقوق إلى أهلها واستغفروا وتابوا من المخالفات واستذكروا لمكانها بالاستغفار والحساب وتهيأوا وترتبوا للعرض على الله ولم يأخذوا الأمر بالجزاف.

فأعلاهم درجة في ذلك المقربون وأهل التوكل الذين لا حساب عليهم في الآخرة ولا

---

(١) أخرجه البخاري في الصحيح (٦/ ٢٠٨)، (٨/ ١٣٩)، مسلم في الصحيح (الجنة ب ١٨ رقم ٨٠)، ابن حجر في فتح الباري (٨/ ٦٩٧)، المنذري في الترغيب والترهيب (٤/ ٣٩٦)، التبريزي في مشكاة المصابيح (٥٥٤٩)، السيوطي في الدر (٦/ ٣٢٩).

(٢) سورة الانشقاق (الآية: ٧، ٨).

(٣) أخرجه مسلم في الصحيح (الجنة ١٨ رقم ٧٩).

عقاب لأنهم لاقوا ربهم في الدنيا/ باليقين ولم يكن لهم راحة دون لقائه في الطاعات [٣٦٧/ب] والمناجاة فأوقفهم على القليل والكثير من أعمالهم ونبههم على ما سلف من أعمارهم بالإلهام في أسرارهم وأخبتوا في مشاهدته وتنبيهه لهم بمحاسبته وتزلزلت أرضهم بخوف الوعيد وبعثرت مُخَبَّآت[1] أسرارهم فأخرجت الجوارح أثقال ما عملت حين اعترفت وأقرت بما كسبت وحدثت بجميع ما عملت ولم تكتم شيئاً مما اجترحت حين ألهمها بوحي الإلهام ذو الجلال والإكرام فصدرت إلى ربها عن مخالفها ورأت جميع أعمالها قائمة بذاتها: ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْراً يَرَهُ * وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ﴾[2].

وقد كان الصالحون يحاسبون أنفسهم في آخر النهار وعند النوم على ما سلف من نهارهم وعند الفجر على ما سلف من ليلهم فيتوبون ويستغفرون من الذنوب والتقصير في كل يوم وليلة ويحمدون على الطاعة والتوفيق

وقد كان عمر بن الخطاب رضي الله عنه يحاسب نفسه ويضربها بالدُّرَّة.

والمراد منه بالدرة سوط التخويف والوعيد.

وعلى هذا درج أهل التحقيق من العلماء والعارفين والأولياء والصادقين في القرون الممدوحة قبل هذه الأزمنة التي ماتت فيها القلوب والأفئدة ومن استوفى الحساب في الدنيا وترك الدنيا وتوكل في جميع أموره على الله/ واشتغل به دون من سواه دخل الجنة عند [٣٦٨] مفارقته الدنيا بالموت بغير حساب ولا عذاب، نعم ودخل جنة النعيم بالذكر والطاعات والعلم والمكاشفات قبل يوم الحساب فلا يجمع عليهم حسابين ولا خوفين، قال الله تعالى في مثل هذه الأحوال الكريمة: ﴿ٱلَّذِينَ تَتَوَفَّاهُمُ ٱلْمَلَآئِكَةُ طَيِّبِينَ يَقُولُونَ سَلَامٌ عَلَيْكُمُ ٱدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾[3]. فأخبر أنهم يدخلون جَنَّة البرزخ عند الوفاة فافهم.

والناس بعد هذا في الحساب درجات في الجنة في اليسر والثقل والعسر وأطول الناس حساباً أكثرهم أموالاً وذنوباً وأخفهم حساباً أقلهم مالاً وذنوباً، وفي الحديث: «يدخل الفقراء الجنة قبل الأغنياء بخمس مائة عام وأربعين خريفاً»[4].

فهذا يدل على خفة الحساب على الفقراء وشدته على الأغنياء من قبل الأموال.

---

(١) في الأصل: محيات. وهو تحريف.

(٢) سورة الزلزلة (الآية: ٧، ٨).

(٣) سورة النحل (الآية: ٣٢).

(٤) أخرجه الترمذي في الجامع الصحيح (٢٣٥٣)، أحمد في المسند (٢/ ٥١٣)، أبو نعيم في الحلية (٧/ ٩١)، ابن ماجة في السنن (٤١٢٢)، ابن أبي شيبة في المصنف (١٣/ ٢٤٦).

وأما ثقله على أهل السيئات فدليله قوله تعالى: ﴿فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ * فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَاباً يَسِيراً﴾(١).

والأخذ باليمين لا يكون إلا في الحسنات فإن الحسنات لا تكون من جهة الشمال ولا يكتبها صاحب الشمال فافهم.

فصـــل

واعلم أن الشيء الذي يقع عليه الحساب على ثلاث درجات:

درجة في مقام الإسلام الظاهر: فيُسأل عن أعماله الظاهرة الدينية والدنياوية وعمره الظاهر وشبابه وحياته الجسمانية فيما أبلاها.

[٣٦٨/ب] **والدرجة الثانية في مقام الإيمان**: وهو ما يضمر العبد/ من العقيدة عقيدة أهل السنة في أمور الإيمان والآخرة وما تصر عليه النفس أو تضمر من النيات في جميع الأعمال، وأعمال القلوب كالكبر والعجب والرياء وسائر الصفات المهلكات. وأعمال القلوب التي يؤاخذ بها العبد ويُسأل عنها، قال الله عز وجل: ﴿وَإِن تُبْدُواْ مَا فِي أَنفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ يُحَاسِبْكُمْ بِهِ ٱللَّهُ﴾(٢).

اختلف في نسخها على قولين وكلا القولين فيها سائغ. فإن من الذنوب ما يؤاخذ العبد بها وإن لم تظهر على الجوارح فإنها عمل من أعمال القلب يتم في القلب دون ظهوره على الجوارح كالإصرار، والعجب، والكبر، والرياء، وغير ذلك. ومن الأعمال ما لا يتم [إلا](٣) في القلب لا يظهره على الجوارح فهذا معفو عنه. قال النبي عليه الصلاة والسلام: «عفي عن أمتي ما حدثت بها نفوسها ما لم تعمل به وتتكلم»(٤). وفي الحديث: «لا يدخل الجنة من كان في قلبه مثقال حبة خردل من كبر»(٥).

---

(١) سورة الانشقاق (الآية: ٧، ٨).

(٢) سورة البقرة (الآية: ٢٨٤).

(٣) زيادة يتطلبها السياق.

(٤) أورده ابن الجوزي في زاد المسير (٤/ ٢٠٤)، الزبيدي في إتحاف السادة المتقين (٧/ ٢٩٢).

(٥) أخرجه مسلم في الصحيح (الإيمان ب ٣٩ رقم ١٤٧، ١٤٩)، أبو داود في السنن (٤٠٩١)، ابن ماجة في السنن (٥٩، ٤١٧٣)، الترمذي في الجامع الصحيح (١٩٩٨، ١٩٩٩)، الحاكم في المستدرك (١/ ٢٦)، أحمد في المسند (١/ ٣٩٩)، البخاري في التاريخ الكبير (١/ ٢٦)، ابن حجر في الفتح (١٠/ ٢٥٩).

ودليل المعنيين في الكتاب والسنّة كثير لمن تدبرها ونظر في الأخبار.

والدرجة الثالثة في مقام الإحسان: مثل العلم بالله فلا يتوهم ربه ولا يتخيله ولا يشك فيه فإنه مسؤول عن جميع ذلك وعن جميع الخطرات التي لا تليق بالباري سبحانه.

وضبط هذا المقام الإحساني ومقام الإيمان أن يعلم أن الأعمال على ضربين:

ضرب لا يتم إلا بإخراجه/ على الجوارح فهذا معفو عنه إذا لم يخرج على الجوارح. [٣٦٩/أ]

وضرب يتم في الباطن دون أن يخرج على الجوارح فهذا معفو عنه ما لم يعقد عليه وينفذ في الباطن.

فعلى العبد أن يناقش نفسه ويقيس أعماله في الظاهر والباطن في كل وقت ويعلم أنه مسؤول عن ذلك كله. فبذلك يخف الحساب في الآخرة ويكون العرض دون المناقشة.

مَنَّ الله علينا وعليكم باليسر في جميع أحوال الدنيا والآخرة بكرمه. آمين. آمين.

وصلى الله على محمد وآله وسلم تسليماً.

الشعبة السابعة والستون: الإيمان بالميزان أنه حق وعدل

أما كون الميزان والوزن من الإيمان فإن الإجماع من أهل السنّة على الإيمان به وقد نطق القرآن والسنّة به، قال الله عز وجل: ﴿وَنَضَعُ ٱلْمَوَازِينَ ٱلْقِسْطَ لِيَوْمِ ٱلْقِيَامَةِ﴾[١]، ﴿فَأَمَّا مَن ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُۥ﴾[٢]. وغير ذلك.

وروى أبو هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «كلمتان حبيبتان إلى الرحمٰن خفيفتان على اللسان ثقيلتان في الميزان. سبحان الله العظيم سبحان الله وبحمده»[٣].

وروى عبد الله بن عمرو بن العاص قال قال رسول الله ﷺ: «إن الله سيخلص رجلاً من أمتي على رؤوس الخلائق فينشر عليه تسعة وتسعين سجلاً كل سجل مدّ البصر ثم يقول له: أتنكر من هذا شيئاً؟ أظلمك كتبتي الحافظون؟ فيقول: لا يا رب. فيقول: لك عذر؟ فيقول:

---

(١) سورة الأنبياء (الآية: ٤٧).

(٢) سورة القارعة (الآية: ٦).

(٣) أخرجه البخاري في الصحيح (١٠٧/٨)، (١٩٩/٩)، مسلم في الصحيح (الذكر والدعاء ب ١٠ رقم ٣١)، الترمذي في الجامع الصحيح (٣٤٦٧)، ابن ماجة في السنن (٣٨٠٦)، أحمد في المسند (٢/ ٢٣٢)، ابن أبي شيبة في المصنف (١٠/ ٢٨٩).

لا يا رب. فيقول: بلى إن لك عندنا حسنة وإنه لا ظلم عليك اليوم فيخرج بطاقة فيها: أشهد [٣٦٩/ب] أن لا إله إلا الله، وأشهد/ أن محمداً عبده ورسوله. فيقول: احضر وزنك. فيقول يا رب ما هذه البطاقة مع هذه السجلات؟ فيقول: إنك لا تظلم. قال: فتوضع السجلات في كفة والبطاقة في كفة فطاشت السجلات وثقلت البطاقة. فلا يثقل مع اسم الله شيء»[١].

فذكر في الحديث كفتي الميزان.

وروى أبو الدرداء أن رسول الله ﷺ قال: «ما من شيء أثقل في الميزان من حسن الخلق». ودلائله كثيرة.

وورد في الخبر: كفتاه طباق السماوات والأرض.

فإذا فهمت هذا فاعلم أن الوزن عام في كل شيء ودلائله في الوجود أوضح من الشمس فإن الموازين إنما وضعت لمعرفة مقادير الأشياء فهي واسطة لتعريف مقادير الأشياء.

والباري تعالى يعرف مقادير الأشياء كلها ويزنها ويعلم وزنها من الذَّرة فما دونها وما فوقها ويتعالى عن الجزاف فليس عنده شيء جزافاً، قال الله عز وجل: ﴿وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلاَّ عِندَنَا خَزَآئِنُهُ وَمَا نُنَزِّلُهُ إِلاَّ بِقَدَرٍ مَّعْلُومٍ﴾[٢]، ﴿وَأَنبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ شَيْءٍ مَّوْزُونٍ﴾[٢].

وقال: ﴿شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُ لاَ إِلَـٰهَ إِلاَّ هُوَ وَٱلْمَلاَئِكَةُ وَأُوْلُواْ ٱلْعِلْمِ قَآئِماً بِٱلْقِسْطِ﴾[٣].

والقسط هو الميزان كما قال: ﴿وَنَضَعُ ٱلْمَوَازِينَ ٱلْقِسْطَ لِيَوْمِ ٱلْقِيَامَةِ﴾[٤] ﴿وَزِنُواْ بِٱلْقِسْطَاسِ ٱلْمُسْتَقِيمِ﴾[٥].

فقد عم الوزن والميزان كله وأظهر الله لنا في هذه الدار الميزان والمكيال المحسوس والمعقول ليظهر لنا مقادير الأشياء ولنتعامل بها ونستدل/ على موازين الآخرة ونؤمن بها. [٣٧٠/أ]

وفي الحديث الصحيح: «أخرجوا من النار من في قلبه مثقال من إيمان ونصف مثقال من إيمان ووزن شعيرة ووزن ذرة ومثقال حبة خردل وأدنى أدنى من مثقال حبة من

---

(١) أخرجه الترمذي في الجامع الصحيح (٢٦٣٩)، الحاكم في المستدرك (١/ ٦، ٥٢٩)، البغوي في شرح السنة (١٥/ ١٣٤)، التبريزي في مشكاة المصابيح (٥٥٥٩)، الألباني في الصحيحة (١٣٥)، المتقي الهندي في كنز العمال (١٠٩، ١٤٢١).

(٢) سورة الحجر (الآية: ١٩، ٢١).

(٣) سورة آل عمران (الآية: ١٨).

(٤) سورة الأنبياء (الآية: ٤٧).

(٥) سورة الشعراء (الآية: ١٨٢).

خردل من إيمان»(١). فقد عمّ الوزن والميزان الوجود كله والبواطن والظواهر.

وقال عمر بن الخطاب رضي الله عنه: «حاسبوا أنفسكم قبل أن تحاسبوا وزنوها قبل أن توزنوا». فوصف أن النفوس تُوزن.

فصـــل

اعلم أن الوزن قد عمّ المقامات الثلاثة: مقام الإسلام والإيمان والإحسان.

فإن الإنسان بجسده، ونفسه، وروحه، روحه في مقام الإحسان في العلو وجسده في مقام الإسلام في السفل ونفسه واسطة في مقام الإيمان.

ويميل الإنسان بجملته فيخف أو يثقل علواً وسفلاً بأعماله وعقائده وعلومه.

فإن قلت: كيف أزن ولست أرى ميزاناً؟ فاعلم أن هذه بلادة وغفلة. ألست ترى الوزن في الوجود كله عاماً والقسط قد شمل العوالم. فترى الموجودات منها فوق، وتحت، ويمين، وشمال، وأمام، وخلف، وظاهر، وباطن، وخفيف، وثقيل، وجسماني، وروحاني، وعلو، وسفل، وليل، ونهار، وحركة، وسكون، وخير، وشر. وقد علم كل شيء من ذلك مقامه لا يتعداه واعتدل بذلك الوجود كله.

فلو نقص شيء من ذلك لظهر الميل في الوجود فكذلك فإن نفسك وأعمالك ظاهراً وباطناً.

زيادة بيان: ورد في صفة/ الميزان أن إحدى كفتيه ظلام والأخرى نور. [٣٧٠/ب]

وورد أيضاً: كفتاه طباق السماوات والأرض.

الخير كله في كفة النور، والشر كله في كفة الظلام، والسماوات كل ما علا وارتفع، والأرض كل ما سفل واتضع.

فهاتان الكفتان قد شملتا العلويات والسفليات.

وهو الميزان العظيم ميزان الله العظيم قد وسعت كفتاه كل شيء في الوجود وكل عمل.

فإذا جمع الله الخلائق يوم القيامة صار الحسن كله من علم وإيمان وخلق وعمل خير

(١) أخرجه ابن أبي عاصم في السنة (٢/ ٤٠٣)، الزبيدي في إتحاف السادة المتقين (١/ ١٣٩)، (٧/ ٢٥٦)، (٨/ ٥٦٢)، (١٠/ ٥٦٦).

في كفة النور من أعمال جميع الخلائق، وصار السوء كله من جهل وكفر وخلق سوء وغل قبيح في كفة الإظلام.

فمن لم يكن عنده إلا الشر الصرف والكفر الخالص خلت كفة النور من خيره وحسنه فلم يكن له فيها أثر فثقلت به كفة الظلام إلى أسفل سافلين فلم يظهر لهم إقامة وزن لأن كفة النور لم يكن فيها مثقال حبة خردل من خير ولا أدنى من ذلك فكان من الذين قال الله فيهم: ﴿أُولَـٰئِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِآيَاتِ رَبِّهِمْ وَلِقَآئِهِ فَحَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فَلاَ نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَامَةِ وَزْناً﴾[1].

وإقامة الوزن إنما هو لمن له في الكفتين نصيب وهؤلاء هم المرادون بقوله: ﴿وَأَمَّا مَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ﴾[2] يعني كفة النور ﴿فَأُمُّهُ هَاوِيَةٌ﴾[2] [وقال][3]: ﴿وَمَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ فَأُوْلَـٰئِكَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُم فِي جَهَنَّمَ خَالِدُونَ﴾[4].

[٣٧١/أ] ومن لم يكن عنده إلا الخير الصرف كالأنبياء/ ومن يدخل الجنة بغير عذاب من المقربين الذين وزنوا أنفسهم فقد[5] خلت كفة الظلام من شرهم وثقلت كفة النور ورجحت بثقل اليقين ورزانة الخلق وأعمالهم فرفعتهم كفة النور إلى عليين.

ومن جاء بالحسنات والسيئات من كل شيء ظاهر وباطن من الخير والشر اتزنت حسناته وسيئاته في كفتي النور والظلام فمن رجحت حسناته على سيئاته بفضل الله سَلِمَ من العذاب وكان من المفلحين والتحق بالفائزين الأولين من المقربين السابقين.

ومن رجحت سيئاته وخفت حسناته وأراد الله تعذيبه وتنفيذ الحكم والوعيد فيه دخل النار وبقي فيها بمقدار ثقل سيئاته حتى يقتص منه.

فكلما[6] اقتص منه من عمل عمله سقط عنه شيئاً شيئاً فكفة الحسنات التي فيها حسناته ولو مثقال حبة خردل أو أقل يمنعه أن يميل كل الميل وأن يهوي إلى الهاوية التي هوى إليها من ليس له في كفة الحسنات حسنة فكلما أقبض منه في عمل خفت كفة السيئات منه وسقط قصاصه مع الأنفاس والساعات وثقلت كفة الحسنات إلى أن تخف إلى الغاية التي ترجح بها كفة النور فترقى إلى الجنة ويلتحق بأهلها.

---

(١) سورة الكهف (الآية: ١٠٥).
(٢) سورة القارعة (الآية: ٨، ٩).
(٣) زيادة للفصل بين الآيات.
(٤) سورة المؤمنون (الآية: ١٠٣).
(٥) في الأصل: في. وهو تحريف.
(٦) في الأصل: فكما. وهو تحريف.

فصـــل

قال الله عز وجل: ﴿كَلَّآ إِنَّ كِتَابَ ٱلْفُجَّارِ لَفِي سِجِّينٍ﴾[1] و ﴿إِنَّ كِتَابَ ٱلْأَبْرَارِ لَفِي عِلِّيِّينَ﴾[1]. وقال النبي ﷺ: «هل يكب الناس على مناخرهم في نار جهنم إلا حصائد ألسنتهم»[2].

فإذا أردت أن ترى صورة الوزن هاهنا فانظر/ إلى نفسك في هذا العالم ما علا فوقك [٣٧١/ب] نور كله وسمو وارتفاع إلى الله وإلى الدار الآخرة والجنة. وما سفل من الدنيا إلى أسفل سافلين غفلة وعصيان وجهل وظلام إلى سجين ونار جهنم. والعبد قائم بينهما موزون بحركاته وسكناته في الخير والشر ﴿فَأَمَّا مَن طَغَىٰ وَءَاثَرَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا﴾[3] ولم ينه النفس عن الهوى كتبت أوزاره في سجين لأنه ليس له للسيئات في العلو سبيل وتقلبت به أوزاره ومال به جوره إلى النار وأسفل سافلين لا سيما من كفر فإن الأعمال متعلقة بذات العبد تجذبه من سجين إلى نفسها حيث هي مكتوبة ألا ترى إلى قول النبي ﷺ: «هل يكب الناس على مناخرهم في النار إلاّ حصائد ألسنتهم»[4].

والإكباب إنما هو على الوجه لأن ذنوب الإنسان خارجة من الوجه فيرتسم في سجين فتجذبه إلى نفسها فيثقل معها سفلاً.

فإن قلت: وأي علاقة بين العمل وبين العبد؟ فاعلم أن العبد لا يذنب ذنباً إلا نكت في قلبه نكتة سوداء ويتصور ذلك العمل في ذات العبد صورة مصورة ألا تراه إذا ذكره أبصر عمله كما عمله وصورته أيضاً مكتوبة في قبضة الشمال وسجين فهي كصورة في مرآتين المرآة الواحدة سجين والأخرى ذات العبد فتجذبه بذلك المعنى المتصور إلى محلها فإن كان للعبد عمل آخر يجذبه إلى العلو ويمنعه من الثقل بالكلية إلى أسفل/ وإلاّ صار في الهاوية [٣٧٢/أ] يهوي أبداً بقلبه وباطنه فيها حتى ينتقل جسده إليها. قال الله عز وجل: ﴿وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ ٱلسَّمَآءِ﴾[5] لأنه ليس فيها ما يمسكه عن الهوى به من إيمان ولا خير مكتوب في علو ﴿فَتَخْطَفُهُ ٱلطَّيْرُ أَوْ تَهْوِي [بِهِ][6] ٱلرِّيحُ فِي مَكَانٍ سَحِيقٍ﴾[5].

---

(١) سورة المطففين (الآية: ٧، ١٨).

(٢) أخرجه أحمد في المسند (٥/٢٣٦)، الترمذي في الجامع الصحيح (٢٦١٦)، ابن ماجة في السنن (٩٧٩٣)، المنذري في الترغيب والترهيب (٣/٥٢٩).

(٣) سورة النازعات (الآية: ٣٧، ٣٨).

(٤) راجع تخريجات الحديث السابق.

(٥) سورة الحج (الآية: ٣١).

(٦) ما بين المعقوفين سقط من الأصل.

ومن ارتفعت همته إلى الله والدار الآخرة وهو في العالم وإن ارتسمت حسناته في عليين رجحت به همة العلو وارتقى وخفت أوزاره بالذكر والتوبة وفعل الخيرات والإقبال على الله عز وجل، قال الله عز وجل: ﴿كَلَّآ إِنَّ كِتَابَ ٱلْأَبْرَارِ لَفِي عِلِّيِّينَ﴾[١].

وهي أيضاً مصورة في قلبه وذاته ومكتوبة في عليين كصورة في مرآتين فتجذبه إلى محلها. فافهم.

فإن أذنب ذنباً نكت في قلبه ومال بقدر صغر الذنب وكبره لأن هذا الميزان العدل ترجحه الخردلة والذرة من حيث هو عدل فعلى العبد أن يسارع إلى الاستغفار ومحو الذلة وقطع تلك العلاقة فيلتحق بالأولين.

والخلق بين هذين المقامين المتقدمين درجات لا يحصيها إلاّ علام الغيوب والمطلع على مقادير الحسنات والذنوب.

فهذا ميزان ينظر العبد فيه ويزن نفسه كما أمر ويرى هل هو مؤثر لله والدار الآخرة على الهوى والدنيا ويؤثر الحسنات على السيئات والذنوب والعلم على الجهل وجميع الأضداد أو هو بضد ذلك أو هو مستو بينهما أو هل ترجح بعض على/ بعض وفضل الله في [ب] كتب الحسنة بعشر أمثالها وأكثر من ذلك لا يؤدي شكره على ذلك أبداً.

عاملنا الله وإياكم في الدنيا والآخرة بفضله ولا عاملنا بعدله فيهلكنا. آمين. آمين.

وصلى الله على محمد وآله وسلم تسليماً.

الشعبة الثامنة والستون: الإيمان بالشفاعة

أما كون الشفاعة من الإيمان فإن الإجماع من أهل السنة على الإيمان بذلك وقد نطق بها القرآن والسنة. قال الله عز وجل: ﴿قُل لِّلَّهِ ٱلشَّفَاعَةُ جَمِيعاً﴾[٢]. وقال عز من قائل: ﴿وَكَم مِّن مَّلَكٍ فِي ٱلسَّمَاوَاتِ لاَ تُغْنِي شَفَاعَتُهُمْ شَيْئاً إِلاَّ مِنْ بَعْدِ أَن يَأْذَنَ ٱللَّهُ لِمَن يَشَآءُ وَيَرْضَىٰ﴾[٣]. وقال عز وجل: ﴿مَن ذَا ٱلَّذِي يَشْفَعُ عِندَهُ إِلاَّ بِإِذْنِهِ﴾[٤]. وهم الملائكة والأنبياء والصديقين وأهل الجاه على مقادير مراتبهم ومنازلهم.

---

(١) سورة المطففين (الآية: ١٨).
(٢) سورة الزمر (الآية: ٤٤).
(٣) سورة النجم (الآية: ٢٦).
(٤) سورة البقرة (الآية: ٢٥٥).

فصـــل

اعلم أن الشفاعة عامة في الدنيا والآخرة والظاهر والباطن.

فأما شفاعة الظاهر فإن الخلق خلقوا في الدنيا لا يعلمون شيئاً ولا يهتدون سبيل مراشدهم المنجية من العذاب فلولا إرسال الأنبياء إليهم لكانوا ضالين قال الله تعالى: ﴿وَكُنتُمْ عَلَىٰ شَفَا حُفْرَةٍ مِّنَ ٱلنَّارِ فَأَنقَذَكُم مِّنْهَا﴾[1]، أي محمد ﷺ. وكذلك كل أمة بنبيها فالشفاعة الظاهرة وهي بالحقيقة الباطنة/ هي إخراج الأنبياء الخلق من الكفر إلى الإيمان [٣٧٣/أ] ومن الجهل إلى العلم ومن المعصية إلى الطاعة.

فقد عمت شفاعتهم الخلق صلوات الله عليهم أجمعين ولم يبق أحد إلا دخل فيها لأنهم على أيديهم نجا من نجا.

وكذلك العلماء والمذكرون والهادون يشفعون فمن أخرجوه من الجهل إلى العلم ومن المخالفة إلى التوبة والطاعة وهو لا يشعر فإذا صار إلى الآخرة تبين للكل أنهم نجوا من النار على أيدي الأنبياء والهادين.

إنما هي أعمالكم ترد عليكم ومن أخرجه أحد بمجرد الحب فإن الحب عمل من الأعمال الباطنة متصل بالمحبوب كالسبب والحبل يخرجه الشافع به فافهم.

والشفاعة في الدنيا والآخرة على ثلاثة أقسام: الملائكة، والأنبياء، والمؤمنون أهل الجاه، كما ورد في الحديث فيشفع النبيون والملائكة والمؤمنون. والشفاعة بالحقيقة كلها لله عز وجل كما قال جل وعلا: ﴿قُل لِّلَّهِ ٱلشَّفَاعَةُ جَمِيعاً﴾[2].

فصـــل

فأما شفاعة الملائكة فقد نطق بها القرآن والسنة كما تقدم وقال الله عز وجل فيهم: ﴿ٱلَّذِينَ يَحْمِلُونَ ٱلْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ آمَنُواْ رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَّحْمَةً وَعِلْماً فَٱغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُواْ﴾[3] إلى آخر المعنى.

وفي آية أخرى: ﴿وَيَسْتَغْفِرُونَ لِمَن فِي ٱلأَرْضِ﴾[4].

فيتضرعون لله بالشفاعة بقولهم: ﴿رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَّحْمَةً﴾[3] إلى آخر المعنى.

---

(١) سورة آل عمران (الآية: ١٠٣).
(٢) سورة الزمر (الآية: ٤٤).
(٣) سورة غافر (الآية: ٧).
(٤) سورة الشورى (الآية: ٥).

[٣٧٣/ب] فهذه شفاعتهم لنا في كل وقت صلوات الله وسلامه/ عليهم أبد الآبدين.

أما شفاعة الأنبياء والمؤمنين فقد تقدم ذكرها فهذه شفاعة الكل منهم في الدنيا.

فصـــل: في شفاعة محمد ﷺ

اعلم أن النبي ﷺ بعث والخلق كلهم في ظلمة وعمى فأول من أخرج من الخلق وشفع فيه عَلِيٌّ وخديجة وأبو بكر وبلال والسابقون إلى الإيمان به ثم لم يزل نوره يخرج الخلق من الظلمات بواسطة وغير واسطة إلى يوم القيامة.

وأما شفاعته في الآخرة فهي في ثلاثة مواطن: الأولى شفاعة الموقف وهي عامة في أهل الموقف في المقام المحمود لا يقوم ذلك أحد غيره كما ورد في الحديث أنهم يأتون آدم فيردهم إلى نوح ونوح إلى إبراهيم، وإبراهيم إلى موسى وموسى إلى عيسى [عليهم السلام] فكلهم لا يراها لنفسه حتى يأتوا محمداً عليه الصلاة والسلام فيشفع لهم في إزاحتهم من موضعهم إلى ما شاء الله لأنه أوسع جاهاً من جميع الخلق.

روى أبو هريرة قال: أتي رسول الله ﷺ يوماً بلحم فرفع إليه الذراع وكانت تعجبه فنهش فيها نهشة فقال: «أنا سيد الناس يوم القيامة وهل تدرون لِمَ ذلك يجمع الله الأولين والآخرين في صعيد واحد فيسمعهم الداعي وينفذهم البصر وتدنو الشمس فيبلغ الناس من الهم والكرب ما لا يطيقون ولا يحتملون فيقول بعضهم لبعض ائتوا آدم فيأتون آدم عليه السلام فيقولون له أنت أبو البشر خلقك الله بيده ونفخ فيك من روحه وأمر الملائكة [٣٧٤/أ] فسجدوا لك اشفع لنا/ إلى ربك ألا ترى ما نحن فيه» وذكر الحديث بطوله إلى قوله: «فيأتون محمداً [ﷺ] فيقولون أنت رسول الله وخاتم الأنبياء قد غفر الله لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر فاشفع لنا إلى ربك ألا ترى ما نحن فيه». قال رسول الله ﷺ: «فأنطلق فآتي تحت العرش فأقع ساجداً لربي ثم يفتح عليّ ويلهمني من محامده وحسن الثناء عليه ما لم يفتحه على أحد قبلي ثم يقول يا محمد ارفع رأسك وسل تعطه واشفع تشفع»[1] إلى آخر الحديث.

ولما كان الأمر عظيماً في يوم عظيم وظهرت فيه عظائم الأمور وغضب الرب فيه غضباً لم يغضبه قبل ذلك خاف كل أحد ممن عظم جاهه وكبر قدره على نفسه فرد الأمر إلى من هو أوسع جاهاً وأعظم قدراً منه ولم يكن ذلك إلاّ محمد عليه الصلاة والسلام لأنه سيد الكل سئل في وقت الغضب ومواطن الشدائد فلا يرد في شيء لأنه إمام الكل في النبوة الأولى وفي

---

(١) أخرجه البخاري في الصحيح (٤/ ١٦٣)، مسلم في الصحيح (ص ١٤٨)، (الإيمان ٣٢٧)، الترمذي في الجامع الصحيح (٢٤٣٤)، أحمد في المسند (٢/ ٤٣٥)، الحاكم في المستدرك (٤/ ٥٧٣)، البخاري في التاريخ (٧/ ٤٠٠).

خلقة الأرواح قبل الأشباح كما قال عليه الصلاة والسلام: «أنا أول الأنبياء خلقاً وآخرهم بعثاً».

فحينئذ أقرّ الكل بنبوته وإمامته فكان إماماً للجميع فإذا رجع الأمر من الدنيا إلى الآخرة كما كان أول مرة صار إماماً وشافعاً للكل فلهذا كانت شفاعة الموقف موقوفة عليه فيشفع للكل يتقدم ويتبعه كل ذي فوز قال النبي ﷺ: «أنا أول من يقرع باب الجنة»(١).

لأنه إمام الجميع ومتقدمهم. فافهم.

فصـــل

وأما المقام الثاني من شفاعته عليه السلام: فإنه خاص لأهل الذنوب ومن دخل النار كما قال عليه الصلاة والسلام: «شفاعتي لأهل الكبائر/ من أمتي»(٢). [٣٧٤/ب]

وهؤلاء هم الذين تعلقوا بالنبي عليه الصلاة والسلام بمجرد الحب ولم يكن لهم في الدنيا أعمال يتبعون بها سننه وطاعته فيتبعونه في الموقف إلى الجنة كما اتبعوه في الدنيا فلما لم يكن لهم ذلك أوبقتهم أوزارهم فيتعلقون به بالحب فيخرجهم به من النار ومن شدائد الكرب. وروى أنس قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إذا كان يوم القيامة شفعت فأقول يا رب أدخل الجنة من كان في قلبه خردلة فيدخلون ثم أقول أدخل الجنة من كان في قلبه أدنى شيء»(٣). قال أنس: كأني أنظر إلى أصابع رسول الله ﷺ يقلله.

وفي رواية أخرى عن أنس: «فأقول رب أمتي أمتي فيقول انطلق فمن كان في قلبه مثقال من إيمان فأخرجوه منها فأنطلق فأفعل ثم أرجع إلى ربي فأحمده بمثل تلك المحامد ثم أخر ساجداً فيقال له يا محمد ارفع رأسك وسل تعطه واشفع تشفع فأقول أمتي أمتي فيقال انطلق فمن كان في قلبه نصف مثقال من إيمان فأخرجوه منها فأنطلق فأفعل ثم أرجع إلى ربي فأحمده بمثل تلك المحامد ثم أخر ساجداً فيقال لي يا محمد ارفع رأسك واسأل تعطه واشفع تشفع فأقول أمتي أمتي فيقال انطلق فمن كان في قلبه مثقال حبة من خردل من إيمان

(١) أخرجه النسائي في المجتبى (الإيمان ٣٣١)، ابن حجر في فتح الباري (١١/ ٤٣٦)، أبو عوانة في المسند (١/ ١٠٩)، ابن أبي شيبة في المصنف (١٤/ ٩٥)، الزبيدي في إتحاف السادة المتقين (١٠/ ٤٩٧).

(٢) أخرجه أبو داود في السنن (٤٧٣٩)، الترمذي في الجامع الصحيح (٢٤٣٦)، أحمد في المسند (٣/ ٢١٣)، البيهقي في السنن الكبرى (٨/ ١٧)، الطبراني في الكبير (١/ ٢٣٢)، ابن أبي عاصم في السنة (٢/ ٣٩٩).

(٣) أخرجه البخاري في الصحيح (٩/ ١٧٩)، المتقي الهندي في كنز العمال (١٣٣).

فأخرجوه منها فأنطلق فأفعل». وذكر الحديث إلى آخره. فهذه شفاعته الخاصة في أهل الذنوب.

فصـــــل

[٣٧٥/أ] **أما المقام الثالث من شفاعة الآخرة فإنها في الجنة**: وهي/ دائمة وهو مقام الوسيلة التي لا تنبغي إلاّ لمحمد عليه الصلاة والسلام.

روى أبو سعيد الخدري في الصحيح أن رسول الله ﷺ قال: «إذا سمعتم النداء فقولوا مثل ما يقول وصلوا علي فإنه من صلى علي صلى الله عليه بها عشراً ثم سلوا لي الوسيلة فإنها منزلة في الجنة لا تنبغي إلا لعبد من عباد الله وأرجو أن أكون أنا هو فمن سأل لي الوسيلة حلت عليه الشفاعة»[1].

وهي مشتقة من التوسل الذي هو الطلب والدعاء والتشفع.

فالنبي عليه الصلاة والسلام في الجنة في قربه من الله بمنزلة الوزير من الملك في درجة الوسيلة يتوسل ويشفع في قضاء الحاجات ورفع الدرجات ويستأذن في الزيارة العلية والنظر إلى الوجه الكريم وفتح أبواب حظائر القدس، وغير ذلك.

وهو أول من يتقدم إلى الزيارة وأول من ينظر إلى الله وأول كل شيء فيتوسل لنفسه ولغيره. ولا يَرد على الخلق في الجنان خير إلا على يديه ﷺ. فإنه أول من يرتقي بارتقائه ويزيد بزيادته كل من في الجنة. فافهم فهمنا الله وإياك.

[فصـــــل]

أما شفاعة الأنبياء عليهم السلام: فيشفعون أيضاً بجاههم في العقبى فمن أحبهم واستحق العقاب بأوزاره من أممهم كما يفعل بنبينا محمد عليه الصلاة والسلام بأهل الكبائر من أمته.

وكذلك الأملاك والمؤمنون كما ورد في الحديث فيشفع النبيون، والملائكة، والمؤمنون.

---

(١) في الأصل: الشافعة. وهو تحريف والحديث أخرجه: البخاري في الصحيح (١٥٩/١)، مسلم في الصحيح (الصلاة: ١٠)، أبو داود في السنن (٥٢٢)، الترمذي في الجامع الصحيح (٢٠٨)، النسائي في المجتبى (٢/ ٢٣)، أحمد في المسند (٦/٣)، البيهقي في السنن الكبرى (١/ ٤٠٨)، عبد الرزاق في المصنف (١٨٤٢)، مالك في الموطأ (٦٧).

[٣٧٥/ب] / وفي الحديث: «أئمتكم شفعاؤكم»(١).

وقال عليه الصلاة والسلام: «يدخل الجنة بشفاعة رجل من أمتي عدد ربيعة ومضر»(٢).

وقال رسول الله ﷺ: «رب أشعث أغبر مدفوع بالأبواب لو أقسم على الله لأبره»(٣).

لا سيما الأبدال، والفقراء، والصالحون فإن لهم جاهاً كثيراً في الدنيا والآخرة. تدفع بدعائهم الشدائد وبهم ينصر الخلق ويمطرون ومن دعوا له في الدنيا أفلح ومن شفعوا له في الآخرة شُفعوا فيه.

وكذلك العلماء المذكرون والداعون إلى الله الآمرون بالمعروف والناهون عن المنكر.

ومن أحب أهل الخير ولم ينتقصهم فقد وصل بينه وبينهم بسبب وهو الحب وتعلق بهم بذلك السبب فإن أغرقته ذنوبه ولم ينجه اقتداؤه بهم في الدنيا شفعوا فيه في الآخرة بذلك السبب. فيشفع النبيون والملائكة والمؤمنون حتى لا يبقى أحد في النار ممن بينه وبين الخلق وصلة سبب فيخرج الله بعد ذلك من قال: لا إله إلا الله وتعلق بالتوحيد فقط وليس بينه وبين مخلوق سبب، وهم - والله أعلم - أهل الأهواء والبدع من مات منهم على التوحيد لأنهم ليس لهم عمل يكتب في ديوان القبول لمخالفتهم السنن فأعمالهم محبطة وأهل السُّنة مبغضون لهم ومعادون وهم كذلك. فانقطعت الأسباب بينهم وبين الخلق وبقي لهم التوحيد المجرد من مات منهم عليه فيخرجهم الله به من النار، فإنه لا يخرج من النار/ في العقبى إلا [٣٧٦/أ] من خرج منها في الدنيا. فافهم.

قال النبي عليه الصلاة والسلام في حديث الشفاعة الطويل [الذي](٤) رواه أبو سعيد الخدري قال: «فيشفع النبيون والملائكة والمؤمنون فيقول الجبار: بقيت شفاعتي، فيقبض قبضة من النار فيخرج أقواماً قد امتحشوا فيلقون في نهر بأفواه الجنة الحياة فينبتون في حافته كما تنبت الحبة في حميل السَّيل قد رأيتموها إلى جانب الصخرة فما كان إلى الشمس منها

(١) أورده الزبيدي في إتحاف السادة المتقين (٣/ ١٧٥).

(٢) أخرجه الترمذي في الجامع الصحيح (٢٤٣٨)، الحاكم في المستدرك (٣/ ٤٠٥)، ابن أبي شيبة في المصنف (١٢/ ١٥٣)، البيهقي في دلائل النبوة (٦/ ٣٧٨)، الطبراني في الكبير (٨/ ٣٣٠)، أبو نعيم في الحلية (١٠/ ٣٠٥).

(٣) أخرجه مسلم في الصحيح (البر والصلة ب ٤٠ رقم ١٣٠، الجنة ب ١٣ رقم ٤٨)، البغوي في شرح السنة (١٤/ ٢٦٩)، الخطيب في تاريخ بغداد (٣/ ٢٠٣)، المنذري في الترغيب والترهيب (٤/ ١٥٢).

(٤) ما بين المعقوفين سقط من الأصل والسياق يقتضيه.

كان أخضر وما كان منها إلى الظل كان أصفر».

قال رجل: يا رسول الله كأنك رعيت الغنم بالبادية. «فيخرجون كأنهم اللؤلؤ فيجعل في رقابهم الخواتم فيدخلون الجنة فيقول أهل الجنة: هؤلاء عتقاء الرحمٰن أدخلهم الله الجنة بلا عمل عملوه ولا خير قدموه فيقال لهم: لكم ما رأيتم ومثله معه».

وفي حديث آخر: «فأقول ـ يعني رسول الله ﷺ ـ يا رب ائذن لي في من قال: لا إله إلاّ الله قال: ليس ذلك لك» أو قال: «إليك لكن وعزتي وكبريائي وعظمتي لأخرجن من النار من قال لا إله إلاّ الله»[١].

قال: أشهد على الحسن أنه حدثنا به عن أنس.

فلا يبقى في النار إلا من حبسه القرآن أي وجب عليه الخلود وهم أهل الشرك الذين حقت عليهم كلمة العذاب. قال الله عز وجل: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ﴾[٢].

[٣٧٦/ب] والحكمة في ذلك أن المشرك والكافر ادعيا على الباري/ ونسب إليه ما ليس له ولا يليق به. فتبرأ الله من ذلك وتنزه عنه وبعد منه وكذلك ادعى الكافر والمشرك على المخلوق المحدث ما ليس له ونسب إليه ما لا يليق به من الربوبية فانقطع بالكلية من الله وتبرأ الله منه بالكلية فلم يبق بينه وبين الباري سبب ولا علاقة يخرجه بها من النار ولأن معاني الشرك والكفر ليس لها في صفات الباري جل وعلا أصل فالجهل ليس لله ولا الكذب ولا الظلم ولا صفات الكفر التي هي ضد صفات المؤمنين. والله الطيب والطاهر القدوس، والشرك نجس رجس، والله نور، والكفر ظلمة، والشرك ظلم، والظلم ظلمات، وغير ذلك من ضد صفات المؤمنين التي أمرهم الله أن يتخلقوا بها ويتعبدوا له بها. والمشركون لم يتخلقوا بصفات القدوس الطاهر من الإيمان والعلم والنور وغير ذلك بل بخلافه والخلاف لا يقرب من خلافه بوجه.

فلذلك انقطع ما بينهم وبين الباري تبارك وتعالى فكانوا ظالمين للمخلوقات حين ادعوا عليها من الربوبية ما ليس لها بوجه من الوجوه لأن المخلوق لا يعود أبداً خالقاً ولا تنقلب الحقائق بوجه أبداً فكانت مظلمة لا تُغفر. فأفهم فهمنا الله وإياك ونسأل الله الكريم أن يجعلنا وإياكم من أهل الجاه عنده والكرامة في الدنيا والآخرة.

---

(١) أخرجه أبو عوانة في المسند (١/ ١٨٤)، البغوي في التفسير (٤/ ١٧٧).
(٢) سورة النساء (الآية: ٤٨).

وصلى الله على محمد/ وآله وسلم تسليماً. [٣٧٧/أ]

الشعبة التاسعة والستون: الإيمان بالصراط

أما كون هذه الشعبة من الإيمان فإن الإجماع من أهل السنة والشرائع قد انعقد عليه ومن لم يؤمن به فهو عند جميعهم مارق أو زنديق فاسق.

وقد نطقت به الآيات والأخبار الصحاح عن رسول الله ﷺ فوجب الإيمان به.

فصـــل

اعلم أن دلائل الصراط وآياته في الوجود أبين من الشمس الصابحة[1] وقد عمت دلائله الوجود كله ظاهراً وباطناً فمن آياته ودلائله في الوجود طرق الأقدام في بسيط الأرض فليس يمشي أحد ولا يهتدي إلا على طريق وسبيل ولولا ذلك/ وكذلك جري المياه [٣٧٧/ب] وانصبابها في الأنهار وحركات الرياح والأفلاك والشمس والقمر والكواكب الكل من ذلك جار على طريق محدود لا يتعداه وكذلك جري الغذاء في الأجسام من موضع إلى آخر وجري المخلوق في سبيل الخلقة ليس شيء يجري إلا على سبيل لا يتعداه، وكذلك نزول الأمر من السماء ونزول الملائكة وصعودها وصعود الأمر من أسفل إلى علو كل على طريق وسبيل منصوب له.

قال الله عز وجل: ﴿وَٱلسَّمَآءِ ذَاتِ ٱلۡحُبُكِ﴾[2].

أي الطرق يعني طرق الأمر النازل والملائكة النازلة والصاعدة، وكذلك القناطير، والجسور المنصوبة؛ لأخطأ الناس مراشدهم وضلوا عن مرادهم.

قال الله عز وجل: ﴿ٱلَّذِي جَعَلَ لَكُمُ ٱلۡأَرۡضَ مَهۡداً وَجَعَلَ لَكُمۡ فِيهَا سُبُلاً لَّعَلَّكُمۡ تَهۡتَدُونَ﴾[3].

والسبيل في اللغة هو الطريق والصراط، فالسُبل قد مدت في الأرض من قطر إلى قطر ومن مكان إلى مكان وكذلك الشوارع في داخل البلدان من موضع إلى موضع ومن بيت إلى بيت. فلا ينصرف حيث ينصرف إلاّ على طريق وشارع يهتدي عليه إلى مقصوده.

وكذلك جري السفن في البحار من موضع إلى آخر إنما تجري بتقدير علامات الجبال

---

(١) في الأصل: الصاحبة. وهو تحريف.

(٢) سورة الذاريات (الآية: ٧).

(٣) سورة الزخرف (الآية: ١٠).

والكواكب فتقدر لها طرق من موضع إلى موضع يجري على ذلك إلى مقاصده في الأرض على الأماكن الوعرة والأنهار الصعبة دال على صراط جهنم الأخراوي المضروب على متنها.

وكذلك الوجود كله لا بد فيه من طريق مسلوك عليه إلى المقاصد حساً وعيناً.

فدلائل الصراط قد عمت الوجود كله ظاهراً وباطناً وخصَّ الصراط المضروب على متن جهنم بالإيمان به لعظمه وكبر قدره لأنه ممر إلى دار السعادة الأبدية والشقاوة الأبدية فهو أعظم الطرق وأكبر السبل وذلك أن الله يجمع الأولين والآخرين يوم القيامة في صعيد واحد فلا بد لهم من طريق ينصرفون عليه إلى مستقرهم من الدارين فمنهم من ينزل به هذا الطريق إلى دار الشقاوة/ ومنهم من يثبت عليه حتى يخلص إلى دار السعادة فكان أعظم الطرق لنصبه لمشي الكل عليه فافهم. [٣٧٨/أ]

روى أبو هريرة عن النبي ﷺ قال: «يجمع الله الناس ليوم القيامة فيقول من كان يعبد شيئاً فليتبعه فيتبع من كان يعبد الشمس الشمس ويتبع من كان يعبد القمر القمر ويتبع من كان يعبد الطواغيت الطواغيت وتبقى هذه الأمة فيها منافقوها ويضرب الصراط بين ظهراني جهنم فأكون أنا وأمتي أول من يجيز ولا تتكلم يومئذ إلا الرسل»[(١)] وذكر الحديث.

وفي حديث آخر: «فيأتيهم ربهم فيتبعونه ويضرب جسر جنم». قال رسول الله ﷺ: «فأكون أول من يجيز» قال: «فيتبعونه كما اتبعت كل أمة ما كانت تعبد كذلك يتبع الموحدون ربهم».

فصــــل

اعلم أن هذا الصراط المضروب على متن جهنم في عالم الإيمان والدار الآخرة هو باطن الصراط المشروع والمسنون في الدنيا للسلوك والقصد إلى الله وإلى طاعته.

قال الله عز وجل: ﴿إِنَّكَ لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ * عَلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾[(٢)].

أي الطريق الذي حد القرآن والسنة لأهل الإيمان وهذا الصراط المشروع في الدنيا لا يظهر للحواس وإنما يظهر للعقول معنًى مشروعاً وصراطاً منصوباً وما كان في الدنيا معنًى

(١) أخرجه البخاري في الصحيح (٨/١٤٧)، مسلم في الصحيح (الإيمان في إثبات رؤية المؤمنين)، ابن أبي عاصم في السنة (١/٢٠٧)، أحمد في المسند (٢/٢٧٥)، الطبري في التفسير (٢٥/٤٤)، السيوطي في الدر المنثور (٦/٢٩٠).

(٢) سورة يس (الآية: ٣، ٤).

يظهر في الآخرة حساً وعقلاً. قال الله عز وجل: ﴿قُلْ هَٰذِهِۦ سَبِيلِيٓ أَدْعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِي﴾[(١)]. وقال: ﴿وَأَنَّ/ هَٰذَا صِرَٰطِي مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُواْ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ﴾[(٢)]. [٣٧٨/ب]

والصراط المضروب على متن جهنم لم يرد فيه نص صحيح أنه من حديد ولا من حجر ولا من تراب غير أنه جسر مضروب على متن جهنم ومن زعم ذلك فليأت ببرهان واضح وسلطان بيّن على ذلك ولا يقدر على ذلك.

فالصراط في الآخرة هو باطن صراط الإسلام وباطنه يظهر في الآخرة حساً كما ذكر ظاهره معنى. ويضرب على متن جهنم للمشي عليه كما ضُرب هاهنا هذا الصراط للمشي عليه إلى طاعة الله والقصد إلى الله في كل شيء. ومن زل عليه هنا زل على حقيقته هناك ومن استقام هنا استقام هناك.

وفي الصحيح: قال رجل لابن مسعود رضي الله عنه: ما الصراط المستقيم؟ قال: تركنا محمد (ﷺ) في أدناه وطرفه في الجنة وعن يمينه جواد وعن يساره جواد وثَمَّ رجال يدعون من مَرَّ به فمن أخذ تلك الجوادات انتهت به إلى النار ومن أخذ على الصراط انتهى به إلى الجنة ثم قرأ ابن مسعود: ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِي مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُواْ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ﴾[(٣)].

فهذا بيان ليس بعده بيان، انظر إلى قوله في هذا الحديث: تركنا محمد [ﷺ] في أدناه وطرفه في الجنة. وانظر قوله: فمن أخذ في تلك الجوادات انتهت به إلى النار ومن أخذ على الصراط انتهى به إلى الجنة. وهل يجوز الناس في العقبى على الصراط/ إلاّ إلى الجنة؟ [٣٧٩/أ] وهل سقط عنه من سقط إلاّ إلى النار؟

وفي الموطأ عن عبد الله أن رسول الله ﷺ قال: «ضرب الله مثلاً صراطاً مستقيماً وعن جنبي الصراط سوران فيهما أبواب مفتحة وعلى الأبواب ستور مرخاة وعند رأس الصراط داع يدعو يقول: استقيموا ولا تعوجوا، وفوق ذلك داع يدعو كل ما هَمّ عبد أن يفتح شيء من تلك الأبواب قال: ويحك لا تفتحه فإنك إن تفتحه تلجه»[(٤)].

---

(١) سورة يوسف (الآية: ١٠٨).
(٢) سورة الأنعام (الآية: ١٥٣).
(٣) سورة الأنعام (الآية: ١٥٣).
(٤) أخرجه أحمد في المسند (١٨٢/٤)، الحاكم في المستدرك (٧٣/١)، الطحاوي في مشكل الآثار =

ثم فسره النبي ﷺ فأخبر أن الصراط الإسلام - يعني صراط الدين والسنة - وقال النبي عليه الصلاة والسلام في الصراط في العقبى «فأكون أول من يجيز».

فكذلك هو أول من شرع الشرائع في التقدير والمبعث الدنياوي وهو أول سالك عليه.

وقال أيضاً عليه الصلاة والسلام: «ولا يتكلم يومئذ إلا الرسل» أي على الصراط «ودعوى الرسل يومئذ اللهم سلم سلم».

وكذلك لم يشرع الشرائع في الدنيا ولا ضرب الصراط والسُّبل إلا الرسل ليسلم الناس من الضلال والوقوع في النار ولذلك يقول في العقبى: «اللهم سلم سلم».

ومن شرع طريقاً من رأيه فقد ابتدع وضل واتبع سبيل الشيطان وزل عن الشرع فكذلك يزل في العقبى وكذلك طرق المعاصي وهي كلها الجواد التي مثلها رسول الله ﷺ في الخط في الحديث الذي رواه عبد الله قال: خط لنا رسول الله ﷺ خطاً/ فقال: «هذا سبيل الله» ثم خط عن يمين ذلك الخط وعن شماله خطوطاً فقال: «هذه سبل على كل سبيل منها شيطان يدعو إليها»[1]. ثم قرأ: ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيماً فَٱتَّبِعُوهُ وَلاَ تَتَّبِعُواْ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِ﴾[2]». [٣٧٩/ب]

فهذه السبل التي عن يمين الصراط وشماله هي التي زاحمت الصراط وضيقت جوانبه حتى صار أحد من السيف وأرق من الشعر لأن الشياطين تدعو إلى الجانبين في كل نفس إلى طرقها يميناً وشمالاً وتجذب الخلق عن الصراط فيفر المؤمن بقلبه وظاهره من تلك الطريق ويبقى على الصراط مستقيماً وهي تزاحمه وتضيق عليه يميناً وشمالاً وهو يمشي على ما حد له وشرع فصار أحدّ من السَّيف وأرق من الشعر. فافهم.

وورد أيضاً أن في حافتي الصراط في العقبى كلاليب وخطاطيف معلقة مأمورة بأخذ من أُمرت به كذلك تجذبه في الدنيا خطاطيف الوساوس والشهوات والمحرمات والشبهات فتجذبه عن الاستقامة على صراط الدين. فافهم.

= (٤٢٣/٢)، التبريزي في مشكاة المصابيح (١٩١، ٢٩٢)، المتقي الهندي في كنز العمال (٩٢١)، المنذري في الترغيب والترهيب (٣٤٤/٣)، السيوطي في الدر المنثور (١٥/١)، ابن كثير في التفسير (٤٣/١)، الطبري في التفسير (٥٨/١)، ابن الجوزي في زاد المسير (١٥٢/٣).

(١) أخرجه الدارمي في السنن (٦٧/١)، ابن أبي عاصم في السنة (١٣/١)، مجمع الزوائد (٢٢/٧)، أبو نعيم في تاريخ أصبهان (٦٦/٢).

(٢) سورة الأنعام (الآية: ١٥٣).

فصـــل

فإذا فهمت هذا فلا يكن همك إلاّ كيف تمشي على الصراط هاهنا، وكيف سرعتك في الجري إلى الخيرات والمسابقة والهروب عن المخالفات..

فمن ذلك تكون السرعة في المشي على الصراط في العقبى.

فمن الناس من يجوز كالبرق ومنهم من[1]/ يجوز في عدد كثير من السنين. [٣٨٠/أ]

قال النبي عليه الصلاة والسلام في الصحيح: «ترسل الأمانة والرحم فيقومان جنبي الصراط يميناً وشمالاً فيمر أولكم كالبرق». قيل: أي شيء كالبرق؟ قال: «ألم تروا إلى البرق كيف يمُر ويرجع في طرفة عين، ثم كمر الريح، ثم كمر الطير، وشد الرجال تجري بهم أعمالهم على قدرها ونبيكم قائم على الصراط يقول رب رب سلم سلم، حتى تعجز أعمال العباد حتى يجيء الرجل فلا يستطيع السير إلا زحفاً»[2].

وذلك العجز من العجز عن الهروب من المخالفات والعجز عن المسارعة للطاعات والسير على مناهج التقوى وكذلك ورد في الأخبار: أن قناطير الصراط جسوره صعود واستواء ونزول عن الاستواء، وأن له حافتين، وأنه مزلة مدحضة.

وكذلك الصراط الشرعي الذي أمر المؤمن أن يمشي عليه هاهنا لا يثبت على الاستقامة عليه إلا الأفراد ولا يعلو ويسرع قطع عقباته إلاّ المخفون من الذنوب والدنيا.

وهو مضروب على متن جهنم أي على ظهرها. وكذلك هذا الصراط الشرعي مضروب على ترك المنهيات والمحرمات. قال النبي ﷺ: «حفت النار بالشهوات»[3]. وورد في بعض الأخبار: أنه يصعد في قنطرة الصراط ويستوي عليها وينزل عن الاستواء إلى قنطرة ثانية وعظم ارتفاعها على قدر ذلك/ المقام العظيم. [٣٨٠/ب]

وكذلك كان العبد في الدنيا إذا لاح له المنتهى وهو على هذا الصراط الشرعي يفر عنه بقلبه إلى العلو بالتضرع والدعاء إلى ربه والهرب إلى العالم العلوي الذي هو السماوات

(١) «من» تكرر بآخر ص [٣٧٩/ب]، أول ص [٣٨٠/أ] فحذفت التكرار.

(٢) أورده التبريزي في مشكاة المصابيح (٥٥٧٦).

(٣) جزء من حديث: أخرجه مسلم في الصحيح (الجنة المقدمة ١)، الترمذي في الجامع الصحيح (٢٥٥٩)، أحمد في المسند (٢/ ٢٦٠)، الدارمي في السنن (٢/ ٣٣٩)، البغوي في شرح السنة (١٤/ ٣٠٦)، الخطيب في تاريخ بغداد (٨/ ١٨٤)، ابن عدي في الكامل (٥/ ١٧٩٦)، العجلوني في كشف الخفا (١/ ٤١٦).

ليرقى عن الآفات ولعله يثبت في العلو ثم ينزل بالتواضع لله إلى الأرض.

هكذا في جميع الأعمال الطاعات والمنهيات إذا نفر عنها هرب إلى ربه وإن وقع في محظور وزل بادر بالإقلاع والهروب إلى الله وإلى الرجوع إلى الصراط الذي زل عنه.

قال الله عز وجل: ﴿وَإِن مِّنكُمْ إِلاَّ وَارِدُهَا كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ حَتْماً مَّقْضِياً ثُمَّ نُنَجِّي ٱلَّذِينَ ٱتَّقَواْ﴾[1].

والمتقي هو الفار عن المنهي النافر عنه وإن اختطفته الخطاطيف الشيطانية الشهوانية المحرمة أبصرها فرماها بشهب الذكر والرد والكراهة لها والبعد فسلم من خدشها[2] على الصراط في العقبى وإن خدشته فهرب منها نجا.

وفي الحديث: «فمخدوش ناج ومكردس في النار».

فإذا وقع العبد وزل عن هذا الصراط الشرعي في المعاصي والغفلات والأهواء فليسرع التوبة والإقلاع والرجوع فإن التوبة تجذبه إلى النجاة في العقبى كما تجذبه المعاصي إلى النار.

[٣٨١/أ] ثبتنا الله وإياكم في الدنيا والآخرة على صراطه المستقيم/ ولا[3] جعلنا ممن ضل عن سبيله وزل عن طريقه. [آمين. آمين][4].

وصلى الله على محمد وآله [وسلم تسليماً كثيراً].

الشعبة الموفية سبعين

الإيمان بالحوض المورود حوض محمد عليه الصلاة والسلام

أما كون هذه الشعبة من الإيمان فإن الإجماع على ذلك من أهل الشرائع، والمكذب به مارق وقد نطقت به الآيات والأخبار فوجب الإيمان به.

قال الله عز وجل: ﴿إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ ٱلْكَوْثَرَ﴾[5]. والحوض من الكوثر.

---

(١) سورة مريم (الآية: ٧١، ٧٢).

(٢) في الأصل: خشدها. وهو تحريف.

(٣) جاءت مكررة بآخر ص [٣٨٠/ ب] وبأول ص [٣٨١/ أ] فحذفت التكرار.

(٤) ما بين المعقوفين زدته للتأمين على الدعاء وكذا قد اعتاده المؤلف من أول الكتاب.

(٥) سورة الكوثر (الآية: ١).

وقال النبي عليه الصلاة والسلام: «أنا فرطكم على الحوض»[(١)].

وقال: «منبري على حوضي».

وعن أنس قال: قال رسول الله ﷺ: «بينا أنا أسير في الجنة إذا بنهر حافتاه قباب الدر[(٢)] المجوف، قلت: ما هذا يا جبريل؟ قال: هذا الكوثر الذي أعطاك ربك فإذا طينه» أو قال: «طيبه مسك أذفر»[(٣)]. والحوض هو مصب الماء ومجتمعه.

وروى أبو ذر قال: قلت يا رسول الله ما آنية الحوض؟ قال: «والذي نفس محمد بيده لآنيته أكثر من عدد نجوم السماء وكواكبها في الليلة الظلماء من شرب منه لم يظمأ، آخر ما عليه يشخب فيه ميزابان من الجنة عرضه مثل طوله ما بين عمان إلى أيلة وماؤه أشد بياضاً من اللبن وأحلى من العسل»[(٤)].

وفي حديث آخر عن أنس عن النبي ﷺ: «إن/ قدر حوضي ما بين أيلة وصنعاء من [٣٨١/ب] اليمن وإن فيه من الآنية كعدد نجوم السماء»[(٥)].

وعن أبي برزة قال: سمعت رسول الله ﷺ لا مرة، ولا ثنتين، ولا ثلاثاً، ولا أربعاً، ولا خمساً يقول: «تردون على الحوض فمن كذب به فلا سقاه الله منه».

ولا بد لكل مؤمن أن يشرب منه ويتطهر وإن دخل النار.

وفي الصحيح عن جابر: «أن قوماً يخرجون من النار بعد أن يكونوا فيها فيخرجون كأنهم عيدان السماسم فيدخلون نهراً من أنهار الجنة فيغسلون فيه فيخرجون كأنهم القراطيس».

---

(١) أخرجه البخاري في الصحيح (٨/ ١٤٨، ١٥٠، ١٥٨)، (٩/ ٥٨)، مسلم في الصحيح (الفضائل ٢٥، ٢٦، ٣٢)، ابن ماجة في السنن (٤٣٠٦)، أحمد في المسند (١/ ٢٥٧)، البيهقي في السنن الكبرى (٤/ ٧٨).

(٢) لفظتي: قباب الدر ـ تكررتا بالأصل فحذفت التكرار.

(٣) أخرجه أحمد في المسند (٣/ ٢٠٧)، ابن حجر في الفتح (٧/ ٢١٧)، التبريزي في مشكاة المصابيح (٥٥٦٦)، المنذري في الترغيب والترهيب (٤/ ٥١٧)، الزبيدي في الإتحاف (١٠/ ٤٩٨).

(٤) أخرجه الترمذي في الجامع الصحيح (٢٤٤٥)، مسلم في الصحيح (الفضائل ٣٦)، أحمد في المسند (٥/ ١٤٩)، ابن أبي شيبة في المصنف (١١/ ٤٤٢)، ابن أبي عاصم في السنة (٢/ ٣٣٤).

(٥) أخرجه البخاري في الصحيح (٨/ ١٤٩)، ابن أبي عاصم في السنة (٢/ ٣٢٧)، ابن عدي في الكامل (٣/ ١١٦١)، ابن عبد البر في التمهيد (٢/ ٢٩٨)، المتقي الهندي في الكنز (٣٩١٥٠).

ومثال ذلك في الدنيا العلم والعمل به. فتعلم العلم وفهمه شرب، والعمل به تطهر واغتسال.

وفي الحديث: «مثل ما بعثني الله به من الهدى والعلم كمثل الغيث الكثير أصاب أرضاً فكان منها بقعة قبلت الماء فأنبتت الكلأ والعشب الكثير، وكانت منها أجادب أمسكت الماء فنفع الله بها الناس وشربوا، وسقوا، وزرعوا، وأصاب منها طائفة أخرى إنما هي قيعان لا تمسك ماء ولا ينبت كلأ، فذلك مثل من فقه في دين الله ونفعه ما بعثني الله به وعَلِمَ وعَمِل، ومثل من لم يرفع بذلك رأساً ولم يقبل هدى الله الذي أرسلت به»[1].

وروى هذا الحديث أبو موسى في الصحيح، فهذا نص في الشرب والسقي وغير ذلك.

[٣٨٢/أ] وفي الحديث: «مثل[2]/ الصلوات الخمس كمثل نهر عذب بباب أحدكم يقتحم فيه كل يوم خمس مرات فما ترون ذلك يبقي من درنه»[3].

فهذا مثال التطهير وكذلك سائر الأعمال المقربة إلى الله كلها تطهير.

فصـــل

اعلم أن الحوض دلائله في الوجود كثيرة فكل حوض حسن كريم في عالم الحس دليل على ذلك وقد يستعمل الملوك والأكابر في الدنيا الحياض الواسعة المتقنة الكبيرة لعظم أقدارها في الدنيا، وذلك دليل على حياض الآخرة.

والعرب تسمي الماء حوضاً، وكل ماء طيب عذب بارد في عالم الحس دليل على مياه حياض الآخرة إلاّ أن هذا الحوض العظيم المورود في الآخرة لا يشبهه حوض لأنه صنعة الرب الكريم وله طول عظيم وعرض عريض واسع.

---

(١) أخرجه البخاري في الصحيح (١/ ٣٠)، ابن حجر في الفتح (١/ ١٧٥)، ابن حجر في تغليق التعليق (٨٠، ٨١)، البغوي في شرح السنة (١/ ٢٨٧)، التبريزي في مشكاة المصابيح (١٥٠).

(٢) تكرر هذا اللفظ بآخر ص [٣٨١/ ب] وأول ص [٣٨٢/ أ] فحذفت التكرار.

(٣) أخرجه مسلم في الصحيح (المساجد ٢٨٤)، الدارمي في السنن (١/ ٢٦٧)، أحمد في المسند (٢/ ٤٢٦)، البيهقي في السنن الكبرى (٣/ ٦٣)، ابن أبي شيبة في المصنف (٢/ ٣٨٩)، أبو عوانة في المسند (٢/ ٢٠)، المنذري في الترغيب والترهيب (١/ ٢٣٤)، الهيثمي في مجمع الزوائد (١/ ٢٨٩)، السيوطي في الدر المنثور (٣/ ٣٥٤)، البغوي في شرح السنة (٢/ ١٧٥)، المتقي الهندي في كنز العمال (١٨٩٣١).

فإن حوض كل أحد على قدره وعلى قدر المحل والموطن.

وفي الحديث أن عرضه مثل طوله. وورد أنه مسيرة شهر. وفي خبر: كما بين الحجر الأسود والكوفة. وفي خبر آخر: كما بين مقامي إلى عمان، أي كما بين المدينة وعمان. وفي خبر: كما بين خَرْبا ودرّاج.

وقد قيل في معنى ذلك: إن الحوض له طول وعرض وزوايا وأركان فيكون اختلاف هذه المسافات التي في الحديث على حساب ذلك، والحقيقة في ذلك ـ والله أعلم ـ أن هذا الماء المبارك والنهر العظيم له ثلاث مراتب:

[٣٨٢/ب] / المرتبة الأولى: الحقيقية في الجنة وفي جوار الرب الكريم كما ثبت في الصحيح عن أنس قال: [قال رسول الله ﷺ]: «بينا أنا أسير في الجنة إذا أنا بنهر حافتاه قباب الدّر المجوف. قلت: ما هذا يا جبريل؟ قال: هذا الكوثر الذي أعطاك ربك فإذا طينه» أو قال «طيبه مسك أذفر»[١].

وعن معاوية أن رسول الله ﷺ قال: «في الجنة بحر الماء، وبحر العسل، وبحر اللبن، وبحر الخمر، ثم تشقق الأنهار بعد»[٢].

المرتبة الثانية: الحوض الذي في القيامة ماؤه من أنهار الجنة كما قال عليه الصلاة والسلام: «يصب فيه ميزابان من الجنة أحدهما ذهب والآخر فضة».

المرتبة الثالثة: هي مياه العلم التي جاء بها صلوات الله وسلامه عليه فروي مَن شربها [مِن][٣] رواة العلم ومتعلموه ومعلموه إلى يوم القيامة على حسب درجاتهم في الشرب والفهم والذوق.

وميزاباه الكتاب والسنة جاء بهما جبريل ومحمد عليهما السلام خرجت على أفواههما صلوات الله وسلامه عليهما.

وعن أبي هريرة في الصحيح أن رسول الله ﷺ قال: «ما بين بيتي ومنبري روضة من رياض الجنة ومنبري على حوضي»[٤].

---

(١) سبق تخريج الحديث بأول الشعبة فراجعه في موضعه السابق.

(٢) أخرجه أحمد في المسند (٥/٥)، ابن عدي في الكامل (٢/ ٥٠٠)، المنذري في الترغيب والترهيب (٤/٥١٨)، السيوطي في الدر المنثور (٦/ ٤٩)، ابن كثير في التفسير (٧/ ٢٩٦).

(٣) زيادة لإيضاح المعنى.

(٤) أخرجه البخاري في الصحيح (٢/ ٧٧)، (٣/ ٢٩)، (٨/ ١٥١)، (٩/ ١٢٩)، مسلم في الصحيح (الحج =

فقد أعلمك أن منبره على حوضه حالاً ومآلاً لأنه موضع كلامه ومخاطبته للخلق بالعلم الذي آتاه الله وحيث ما كان صلوات الله عليه فهو على منبر النور العالي/ [٣٨٣/أ] الدرجات درجات البروز والترفع والإكرام لقدره الكريم صلوات الله وسلامه عليه.

وقد كان في حياته يرد عليه الخلق والوفود وهم عطاش من العلم فيشربون ويروون بتعلمهم من رسول الله وروايتهم وأخذهم عنه فينصرفون إلى أهليهم فيسقون غيرهم هكذا إلى أن توفي عليه الصلاة والسلام.

وقد كان هو عليه الصلاة والسلام بحراً عظيماً من العلم كان العلم ينصب عليه وينزل من قباب العرش وحافات السماوات وعلو الجنات فيعلم العباد ويسقيهم من الماء المبارك إلى أن توفي عليه الصلاة والسلام.

فصــــل

فمن روي بالعلم الشرعي وارتوى بالفهم فقد شرب ووجد حلاوة العلم النافع الذي لا شيء أحلى منه ولا ألذ منه ووجد برد اليقين المحض.

ومن استعمل العلم فقد تطهر باستعماله العلم واغتسل به.

وفي الصحيح: «إن أمتي يدعون يوم القيامة غراً محجلين من آثار الوضوء»[1].

وقال الله عز وجل: ﴿خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ﴾[2] الآية.

وقال عليه الصلاة والسلام: «من حج هذا البيت ولم يرفث ولم يفسق رجع كيوم ولدته أمه»[3]. يعني طاهراً مطهراً.

فاستعمال العلم تطهير أجمل وأحسن من كل تطهير واغتسال. وكذلك تعلم العلم

= ب ٩٢ رقم ٥٠٠، ٥٠٢)، الترمذي في الجامع الصحيح (٣٩١٥)، مالك في الموطأ (١٩٧)، النسائي في المجتبى (٢/ ٥٣)، أحمد في المسند (٢/ ٢٣٦)، البيهقي في السنن الكبرى (٥/ ٢٤٧)، عبد الرزاق في المصنف (٥٢٤٣)، الحميدي في المسند (٢٩٠)، البغوي في شرح السنة (٢/ ٣٣٨)، الطحاوي في مشكل الآثار (٤/ ٦٩).

(١) أخرجه البخاري في الصحيح (١/ ٤٦)، مسلم في الصحيح (الطهارة ٣٥)، أحمد في المسند (٢/ ٤٠٠)، أبو عوانة في المسند (١/ ٢٢٤)، البغوي في شرح السنة (١/ ٤٢٥)، ابن حجر في الفتح (١/ ١٣٥).

(٢) سورة التوبة (الآية: ١٠٣).

(٣) أخرجه النسائي في المجتبى (٥/ ١١٤)، ابن ماجة في السنن (٢٨٨٩)، أحمد في المسند (٢/ ٤١٠)، البيهقي في السنن الكبرى (٥/ ٦٧)، أبو نعيم في الحلية (٧/ ١٤٣).

الإيماني لذاته أحلى من كل حلو وصفاؤه أنور من كل لبن ونقيه أبرد على الكبد من كل ثلج ما لم يغير/ طعمه ولذته بالهوى والابتداع والآراء الفاسدة وإرادة غير الله به فإن ذلك كله [٣٨٣/ب] سبب لطرد المنافقين والمبتدعين والمتكبرين عن الحوض فمن بدل هنا وغير ذِيدَ عن الحوض في المحشر كما ورد في الأحاديث.

فصـــل

لعلك(١) تشتهي أن تعرف مسافة الحوض الكريم وعظم قدره ومعاني الأحاديث الواردة في حدود مسافاته فهذا كما(٢) كَلَّ أكثر الناس عن فهمه والكلام فيه.

فاعلم أن الله بعث نبيه عليه الصلاة والسلام ليسقي الناس من هذا الماء الكريم الذي أُرسل به وهو النبي العربي جاء بلسان عربي مبين وجزيرة العرب هو المبعوث فيها وقد أحاطت بجزيرة العرب قبائل من بني آدم من جميع جهات الأرض كالسوان، والأحابيش، والنوبة، والقبط، وكالروم، وفارس، وغير ذلك من القبائل في أقطار الأرض.

وجزيرة العرب بين الأمم حَدَّها من المدينة المكرمة إلى أرض الحجاز إلى ديار اليمن، وقربت من أرض فارس، وكذلك من ناحية الشام مما يقرب منه.

ونزل القرآن والشرع بألسنتها فكان الحوض على مقدار مسافة جزيرة العرب فكل من دخل دين محمد [ﷺ] وشرعه من أي القبائل كان لا بد أن يتعلم من اللسان العربي وإن كان أعجمياً مقفولاً ولو كلمة: / «لا إله إلا الله محمد رسول الله»، وفاتحة الكتاب وما يصلي به [٣٨٤/أ] ويفهم به دينه ولو كان حيث ما كان من البلاد البعيدة من جزيرة العرب فلا بد أن يتعلم من لغة اللسان العربي ما يشرب به من ماء العلم المبعوث به محمد عليه الصلاة والسلام.

قال الله عز وجل: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلاَّ بِلِسَانِ قَوْمِهِ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ﴾(٣).

وأرسل رسولنا إلى كافة الخلق فوجب عليهم أن يتعلموا كلمة: «لا إله إلاّ الله محمد رسول الله» وما يقيموا به دينهم بلسان نبيهم فحيث ما كان العبد وإن بعد فمن جزيرة العرب تعلم ومن ماء الحوض الذي هو على سعتها شرب.

وجزيرة العرب قدرها مسيرة شهر فيكون الحوض في المحشر على قدر ما كان في الدنيا.

---

(١) في الأصل: لعل. وهو تحريف.

(٢) كذا في الأصل. وأظن أن أصلها: كمال. وأسقط الناسخ اللام من آخره عن سهو منه. والله أعلم.

(٣) سورة إبراهيم (الآية: ٤).

وكذلك النبي عليه الصلاة والسلام يبعث بين الحرمين كما ورد عنه ذلك. فافهم فهمنا الله وإياك.

والناس في الشرب درجات ومن شرب لم يظمأ لكنهم طالبون للزيادة من الشرب لأن لذته لا يصفها الواصفون ولا يقدر حلاوته المقدرون فهم شاربون أبداً ديناً وأخرى.

سقانا الله وإياكم من حوض نبيه الكريم ديناً وأخرى وأزلاً وأبداً ولا يفتننا وإياكم عن ديننا وعصمنا وإياكم من الزيغ والزلل ولا أهلكنا وإياكم بالعطش في/ مواطن الشرب. [٣٨٤/ب] آمين. آمين.

وصلى الله على سيدنا محمد وآله وسلم تسليماً.

الشعبة الإحدى وسبعون
والثانية وسبعون
الإيمان بالجنة، والإيمان بالنار

رأينا أن نقرن بينهما في باب واحد لأنهما قرينتان أبداً في الذكر وقال النبي عليه الصلاة والسلام: «اذكروا العظيمتين الجنة والنار». فقرن بينهما في الذكر والعظم.

فأما كونهما من شعب الإيمان فإنهما الآخرة حقيقة والقرآن والسنة إنما وردا بالدار الآخرة وليس يحتاج في ذلك إلى إقامة دليل لعموم أدلته قرآناً وسنّة وإجماعاً.

فصـــل

اعلم أن الجنة والنار داران كل واحدة منهما ضد الأخرى فما في هذه من أنواع الإكرام والنعيم فله في هذه ضده من الخزي والعذاب الأليم.

فالواحدة نور والآخرة ظلمة، وهذه أنس وحسن محض وهذه وحشة وفزع وقبح محض، وهذه راحة ولذة وسرور محض وهذه مشقة وتنغيص وكرب محض. وليس في هذه شيء من الخير إلاّ وفي هذه ضده من الشر. وهما مخلوقان قبل خلق الدنيا وقد زعم قوم من أهل البدع لا عقول لهم أنهما غير مخلوقتين الآن إذ لا فائدة لخلقهما قبل دخولهما عندهم ولم يتفطنوا لجهلهم بالشرع للفائدة من خلقهما قبل الدنيا وهي[1] الفائدة العظيمة لو عقلوا.

(١) في الأصل: ومتى. وهو تحريف.

/ وذلك أن الدنيا إنما خلقت منهما جميعاً تنزلت الرحمة التي من الجنة وأنواع الخير [٣٨٥/أ] والفتح، وصعدت من دار الغضب أنواع الشر والقبح في نفسها فامتزج المعنيان فكان منهما الدنيا. فلم تكن الدنيا جنة صرفاً ولا ناراً صرفاً، قال الله عز وجل: ﴿مَّا يَفْتَحِ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ مِن رَّحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا﴾[١]. وقال للجنة: «أنتي رحمتي أرحم بك من أشاء».

وقال النبي عليه الصلاة والسلام: «إن الله خلق مائة رحمة أنزل منها إلى الأرض واحدة وأمسك عنده تسعة وتسعين فإذا كان يوم القيامة قبض هذه إلى تلك فرحم بها عباده المؤمنين»[٢].

وإنما يقبض هذه الرحمة التي قام بها هذا العالم وكان بها كل خير وحسن فيها فإذا ميز الله الخبيث من الطيب من كل شيء من الدنيا فيزول المزج وتفسد دار الدنيا الممتزجة من الحسن والقبح فيجعل الخبيث بعضه على بعض فيركمه جميعاً فيجعله في جهنم ويجعل الطيب كله في الجنة فيعود كل شيء إلى أصله الذي خرج منه فيفنى وجود الدنيا ويُبقي الآخرة كما كانت أول مرة.

ورد في الحديث: «إن الله يقول في الدنيا ميزوا ما كان لي منها وألقوا سائرها في النار». فالماء والنور والطيب والجمال والخير كله من الجنة والخبيث والنار وكل شر فمن جهنم.

قال النبي ﷺ: «الحمى من فيح جهنم»[٣]، «الحمى حظ كل مؤمن من النار»[٤].

/ وقال عليه الصلاة والسلام: «ناركم هذه التي توقدون جزء من سبعين جزءاً من نار [٣٨٥/ب] جهنم». فهذا نص أن هذه النار من جهنم.

وقال: «إن النار اشتكت إلى ربها فقالت: يا رب أكل بعضي بعضاً فأذن لي أن أتنفس

---

(١) سورة فاطر (الآية: ٢).

(٢) أخرجه أحمد في المسند (٤/ ٣١٢)، الحاكم في المستدرك (١/ ٥٦)، الطبراني في الكبير (٦/ ٣٠٧)، ابن أبي حاتم في العلل (٢١٤٩)، ابن حجر في الفتح (١٠/ ٤٣٢)، السيوطي في الدر المنثور (٣/ ١٣٠)، ابن كثير في التفسير (٣/ ٤٧٩)، السيوطي في جمع الجوامع (٤٨٢٧)، الهيثمي في مجمع الزوائد (١٠/ ٢١٤)، الزبيدي في إتحاف السادة المتقين (١٠/ ٥٥٧).

(٣) أخرجه البخاري في الصحيح (٤/ ١٤٦)، (٧/ ١٦٧)، الحاكم في المستدرك (٤/ ٤٠٣)، مسلم في الصحيح (السلام ٧٨، ٧٩، ٨٠، ٨١، ٨٤)، ابن ماجة في السنن (٣٤٧١)، أحمد في المسند (١/ ٢٩١)، الدارمي في السنن (٢/ ٣١٦)، البغوي في شرح السنة (١٢/ ١٥٣).

(٤) أورده الألباني في الصحيحة (١٨٢١)، ابن الجوزي في تذكرة الموضوعات (٢٠٦).

فأذن لها بنفسين نفس في الشتاء ونفس في الصيف فأشد ما تجدون من الحر فمن السعير، وأشد ما تجدون من البرد فمن الزمهرير»[١].

وهذا نص أن الحر والبرد اللذين قام بهما وجود الدنيا مع الماء النازل من محل الرحمة من جهنم والشواهد على هذا في الكتاب والسنة لا تحصى وحلها يطول.

فإذا فهمت هذا علمت أن دلائل الجنة والنار في الوجود عامة فلا يقع بصر الإنسان على شيء إلاّ وله فيه عبرة وذكرة بالجنة والنار فالنور والذهب والفضة والحرير إذا رآها الإنسان تذكر بها، واعتبر نور الجنة وذهبها وفضتها وحريرها.

وإذا رأى لبناً وعسلاً وماءً وخمراً نظر بها ما في الجنة.

وإذا رأى الأبكار والولدان والخدم الحسان تذكر ما في الجنة.

وإذا رأى بساتين الدنيا وجناتها وثمارها وفواكهها ومراكبها تذكر ما في الجنة.

وهكذا كل شيء يذكر بدار الجنة، وإذا رأى النعيم من مرئي أو مسموع أو مركوب أو مسكون أو مأكول أو مشروب أو منكوح أو ملبوس أو مزين اعتبر بذلك الدار التي انتزع منها.

وإذا رأى ما في الدنيا من ظلام، وحر، وزمهرير، وسموم، تذكر بها ما في جهنم منها.

وإذا رأى العقارب والحيات والقيود والأغلال والسجون والزبانية والكلاب والصديد والعذاب/ والشائكات والمر والكربة كله وجميع أنواع الشر تذكر بها جهنم وما أعد الله فيها. [٣٨/أ]

فلا يرى شيئاً إلا اعتبر منه الدار الآخرة وحصل له اليقين وكان من العلماء الراسخين.

فصـــل

إذا فهمت هذا فاعلم أن الجنة خرجت من معانيها وتطلعت إلى هذا العالم الدنياوي على بابين.

---

(١) أخرجه مسلم في الصحيح (المساجد ١٨٦)، أحمد في المسند (٢/ ٤٨٢)، مالك في الموطأ (١٦)، القرطبي في التفسير (٣/ ٣٢٠).

فأما البابان من الجنة:

● **محسوس**: وهو ما يخرج من الغيب وينزل من العلو من الماء والنور والرياح الطيبة والأهوية الملذة وكل خير وحسن ظاهر.

● **والثاني**: ما ينزل من معاني الدين كلها كالذكر والتلاوة والعلوم والفهوم والنعيم بالصلوات وأنواع العبادات والمكاشفة اليقينية ووجود طعم الإيمان والأحوال الشريفة كلها.

قال النبي ﷺ: «إذا رأيتم رياض الجنة فارتعوا»[1]. يعني حلق الذكر.

وروى عن الله عز وجل أنه قال: «معشر الصديقين تنعموا بذكري فإنه لكم في الدنيا نعيم وفي الآخرة جزاء».

وعن النبي ﷺ أنه قال: «لا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم كنز من كنوز الجنة»[2].

وفي [رواية][3]: «إن سبحان الله والحمد لله ولا إله إلا الله والله أكبر غراس الجنة»[4].

فالحسنات كلها [من أي][3] نوع كانت من قبيل الجنة وعليها تقسم الجنة لأهلها والنعيم بها من نعيم الجنة. فافهم.

وأما البابان من النار:

● **فالأول**: ما ظهر حساً من النار في هذا العالم الدنياوي وما ظهر من نفسها من الحر والبرد والفيح وجميع أنواع المؤذيات مثل:/ العقارب والحيات وأنواع الشر والظلمات [٣٨٦/ب] كلها.

● **والثاني**: أنواع الكفر والجهل والمعاصي كلها.

وروينا عن بعض علماء الآخرة أنه كان جالساً مع أناس جادلهم فرأى شررة من جهنم

---

(١) أخرجه ابن حبان في المجروحين (٢/ ٢٥٢)، الزبيدي في إتحاف السادة المتقين (٥/ ١٧٣).

(٢) أخرجه البخاري في الصحيح (١/ ١٥٩)، مسلم في الصحيح (الدعاء والذكر ب ١٣ رقم ٤٤، ٤٥، ٤٧)، أحمد في المسند (٥/ ١٥٦)، الطبراني في الكبير (١٩/ ٤٢١)، الهيثمي في مجمع الزوائد (١٠/ ٩٨)، البغوي في شرح السنة (٥/ ٦٨).

(٣) ما بين المعقوفين زيادات يقتضيها السياق.

(٤) أخرجه البخاري في الصحيح (٨/ ٣٧٣)، مسلم في الصحيح (الذكر والدعاء ب ١٠ رقم ٣٢)، أحمد في المسند (٤/ ٣٥٦)، الطبراني في الكبير (٦/ ٢٩٥)، الهيثمي في مجمع الزوائد (١٠/ ٩٠)، ابن حجر في فتح الباري (١١/ ٢٠٧)، المنذري في الترغيب (٢/ ٤٢٤).

طارت فنزلت على قلب واحد منهم فظهر منه في الحال من الغضب والحقد والتغير ما بهت الحاضرين(١).

فهذه أربعة أبواب منها تطلعت الآخرة إلى الدنيا وبها تمدها في كل نفس.

فالجنة والنار ظاهرتان باليقين للموقنين مثل بطونهما في عالم الدنيا مثل بطون نفس الإنسان في جسده كما لا ينظر إلى الجسد حركة ولا سكون إلا من النفس وهي المحركة المسكنة للدنيا.

قال النبي ﷺ: «الجنة أقرب إلى أحدكم من شسع نعله والنار [مثل ذلك](٢)».

وقد رآها عليه الصلاة والسلام في صلاة الكسوف وهو قائم يصلي في باطن الدنيا في عرض الحائط.

فأما أوصاف الجنة والنار وما أعد الله فيهما للأخيار والأشرار فلا تحيط بها الأخبار وقد ورد في القرآن والسنة من أوصافهما ما لا يحصره فهم ولا يلحقه وَهْم فمن أراد فهم بعض معانيها فعليه بقراءة القرآن وما ذكر الله في أوصاف هذه وهذه، وما ذكر النبي ﷺ في أوصافهما من الأخبار والآثار.

[فصـــل]

وما عسى أن يقال في دار سقفها عرش الرحمٰن الذي هو مرآة لتجلي أنوار نور الأنوار فيفيض على من دونه في كل الجهات والأقطار/ أنواع البصائر والأبصار وجمال الحجب [٣٨/أ] والأستار وضياء الشمس والأقمار وكل حسن وجمال وصف أو يوسف في دار القرار ومحل الصالحين والأبرار وتحته الدرجات والمراتب والقصور والمنازل والرياضات والبساتين تجري تحتها البحار والأنهار من العسل المصفى والخمر الذي هو عن إذهاب العقول مبرأ.

وأما الكوثر المطرز على أحجار الياقوت واللؤلؤ والزبرجد واللبن المحض والأنوار الذي طعمه أبداً لا يغير.

---

(١) هذا خبر لاحت عليه علامات الوضع وفي ما صح عن رسول الله ﷺ وما أنزل الله عز وجل في كتابه من وصف للنار وأحوال أهلها ما فيه الكفاية لمن خاف مقام ربه وكنت أتمنى أن لا يورد المؤلف في كتابه مثل هذه الأخبار، والله لنا وله نسأل العفو والغفران بكرمه آمين.

(٢) ما بين المعقوفين سقط من الأصل وأثبته من مراجع الحديث وقد أخرجه: البخاري في الصحيح (٨/ ١٢٧)، أحمد في المسند (٢/ ٥٣٦)، ابن أبي شيبة في المصنف (٥/ ٢٩٩)، مالك في الموطأ (٢٠٨)، ابن الجوزي في زاد المسير (٤/ ٢٤)، ابن حجر في فتح الباري (٧/ ٢٢٣)، الهيثمي في مجمع الزوائد (٣/ ٩٣).

وأرض ذلك السقف مفروش مبسوط سعته على قدر سعة عرش المحيط.

وفي ذلك الفراش الأقاليم المقلة والمدائن الآمنة الممهدة كل أقليم لملك من الملوك وكل سكانها ملوك سعة إقليم كل ملك من ملوكها على قدر سعة أبصارها وبصائرها، تسرح في مروج سهولها دواب تضع حوافرها في مواقع أبصارها سرعتها كالبرق الخاطف تجول براكبها على أقاليم ملكه وما فيه من المشاهد والمواقف فلا يسأل[1] عن شيء إلا وهو عليه واقف ويدرك أقصاه وأدناه كما يدرك العارف المعارف: ﴿وَيُدْخِلُهُمُ ٱلْجَنَّةَ عَرَّفَهَا لَهُمْ﴾[2].

وفي كل أقليم من أقاليمها من العمارة والسكنى والخيام والخدور والأسِرة والستور والحلي واللباس والأفراح والأعراس والراحة والانشراح والأبكار والانبطاح والولدان والخدم الملاح والسريات والأحرار والناعمات الأبكار والزوار/ والمنشآت الجوار في [٣٨٧/ب] الأنهار وخاطرات في كل البراري والفرح والسرور واللذة والحبور وسماع القينات والحور وحياة الروح والريحان والنعيم بينهم والرضوان ومن كل ما اشتهت النفوس وتمنت، ما لا عين رأت ولا أذن سمعت، وأعظم من ذلك وأكبر ما لا يخطر على قلب بشر.

جعلنا الله وإياكم برحمته من أهلها في عافية. آمين آمين.

وصلى الله على محمد وآله وصحبه وسلم.

[فصـــل]

وأما الدار الأخرى جهنم العظمى فإنها مظلمة سوداء بتوقد نيران الغضب وترمي بشررها من كثرة اللهب وما ظنك بدار تغمقت من الزَّحمة وأخلاق زبانيتها وعمارها والقساوة والغلظة وهيبة مناظرها كلها والكراهة والوحشة وليس توصف بشيء إلا وهي أعظم منه وإنما تفهم صفاتها مما أعد الله فيها بمضادتها لدار النعيم.

فما في هذه من المؤنسات في هذه ضدها من الموحشات وهكذا الأضداد كلها فاسْتَقْرِ ما ذكر في كل واحدة منهما وقس الو حدة بالأخرى على اعتبار الضد والمخالفة.

نسأل الله الكريم البر الرحيم أن لا بعلنا من أهل النار وأن يعتقنا منها بكلمة التوحيد في عافية شاملة في الدنيا والآخرة. آمين َمين.

وصلى الله على محمد وآله وسلم.

---

(١) في الأصل: يشذ. وهو تحريف.
(٢) سورة محمد (الآية: ٦).

الشعبة الثالثة والسبعون: الإيمان بالنظر إلى وجهه الكريم

[٣٨٨/أ] / أما كونه من الإيمان فإن الإجماع من أهل السُّنة والشرع منعقد على الإيمان[١] بذلك، وقد نطق القرآن والأحاديث الصحاح عن النبي ﷺ فوجب الإيمان به ولا ينكره إلاّ أهل الزيغ المارقين من الدين.

قال الله عز وجل: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَاضِرَةٌ * إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ﴾[٢]. وقال: ﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ﴾[٣]. وهي النظر إلى وجه الله الكريم.

وفي الصحيح عن أبي هريرة: أن ناساً قالوا: يا رسول الله هل نرى ربنا يوم القيامة؟ فقال رسول الله ﷺ: «هل تمارون في القمر ليلة البدر ليس دونه سحاب»؟ قالوا: لا. قال: «تمارون في رؤية الشمس ليس دونها سحاب»؟ قالوا: لا. قال: «فإنكم ترونه كذلك»[٤]. وذكر الحديث.

وعن جابر بن عبد الله قال: كنا جلوساً عند رسول الله ﷺ إذ نظر إلى القمر ليلة البدر فقال: «إنكم سترون ربكم عياناً كما ترون هذا القمر لا تضامون في رؤيته فإن استطعتم أن لا تغلبوا على صلاة قبل طلوع الشمس وصلاة قبل غروبها فافعلوا»[٥].

وعن أبي سعيد الخدري قال: قلنا يا رسول الله هل نرى[٦] ربنا؟ قال: «هل تضارون في رؤية الشمس إذا كان ضحى» الحديث.

وعن ابن عمر قال: قال رسول الله ﷺ: «إن أدنى أهل الجنة منزلة من ينظر في ملكه مسيرة ألف سنة، وإن أكرمهم على الله من ينظر إلى وجهه غدوة/ وعشية»[٧]. وقرأ رسول [٣٨٨/ب]

---

(١) جاءت في الأصل: منعقد عليه على الإيمان. فحذفت الزائد.

(٢) سورة القيامة (الآية: ٢٢، ٢٣).

(٣) سورة يونس (الآية: ٢٦).

(٤) أخرجه البخاري في الصحيح (١/ ٢٠٤)، الترمذي في الجامع الصحيح (٢٥٤٩)، الدارمي في السنن (٣٢٦)، البيهقي في السنن الكبرى (١٠/ ٤٢)، ابن حجر في فتح الباري (٢/ ٢٩٢).

(٥) أخرجه البخاري في الصحيح (٩/ ١٥٦)، مسلم في الصحيح (المساجد ٢١١)، أبو داود في السنن (٤٧٢٩)، الترمذي في الجامع (٢٥٥٤)، ابن ماجة في السنن (١٧٧)، أحمد في المسند (٤/ ٣٦٠)، البيهقي في السنن الكبرى (١/ ٣٥٩).

(٦) في الأصل: ترون. وهو تحريف.

(٧) أخرجه الترمذي في الجامع الصحيح (٣٣٣٠)، أحمد في المسند (٣/ ٢٧، ٧٦)، مسلم في الصحيح =

الله ﷺ: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَاضِرَةٌ * إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ﴾(١).

والشواهد على ذلك كثيرة جداً ودلائل ذلك في العقول بينة فإن الأفعال دلت على وجود الباري تعالى وأثبتت أنه موجود حق فقد رأته العقول بالعلم موجود بلا شك، وكل موجد صح وثبت وجوده ولم يكن عدماً جاز في العقول رؤيته بالبصر، فإن العدم الذي لا وجود له(٢).

وقد أخبر الباري تعالى ورسوله عليه السلام برؤيته بالبصر فوجب ظهور ذلك لا محالة وإنما امتنعت رؤيته بالأبصار في الدنيا لضعفها عن إدراكه، ولذلك قال عز وجل: ﴿لَّا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ ٱلْأَبْصَارَ﴾(٣). إذ الإدراك هو الإحاطة واللحوق، والضعيف لا يطيق القوي العظيم، ولا يلحق العائب النزيه، وإن الأبصار لضعفها لا تلحق بالأشياء المحسوسة وإن دقت الأشياء وصغرت إلا البعض والجزء ولا تلحق الكل لقصور حاسة البصر.

مثال ذلك: أن الدرهم أو الخروبة مثلاً أو أقل منها أو أكثر لا تدرك حاسة البصر منه إلاّ جهة واحدة إذا أطلعتها على المرء ويغيب عنها غير ذلك من الشيء هذا ما يصنع في الأشياء الحقيرة وفيها أيضاً وصف آخر من الضعف وذلك أنها لا تطيق حمل الشعاع الكثير والنور العظيم.

/ مثال ذلك: نور البرق الخاطف والشمس لو أدامت النظر إليها لطمست من أجل ضعفها ولا ترى ما غاب عنها ويصير الباطن بخلاف ذلك تتغلغل إلى باطن الشيء وتدركه بحقائقه إذا استقام النظر وترى بالاستدلال ما غاب بما حضر فإذا كانت الآخرة قويت الأبصار وكانت أنوارها وقواها وإداراكاتها من نوع تلك الدار قويت على إدراك النور العظيم فإن الأبصار تكون في الآخرة نافذة قوية على الإحاطة فيما اطلعت عليه كنفوذ البصائر وإحاطتها. [٩١]

قال النبي ﷺ: «إن أدنى أهل الجنة منزلة لمن ينظر إلى جناته وأزواجه ونعيمه وخدمه وسرره مسيرة ألف سنة يرى أقصاه كما يرى أدناه»(٤).

فهذا بصر نافذ في الأسرة وجميع الملك ظاهره وباطنه ولا يغيب عنه شيء ويستوي

= (الإيمان ٣١١)، أبو نعيم في الحلية (٥/ ٨٧)، البغوي في شرح السنة (١٥/ ٢٣٢).
(١) سورة القيامة (الآية: ٢٢، ٢٣).
(٢) كذا صاغ المؤلف رحمنا الله وإياه عبارته وإن كنت لأودُّ لو صاغها على غير هذا النحو. فالله لنا وله نسأل المغفرة والرحمة آمين.
(٣) سورة الأنعام (الآية: ١٠٣).
(٤) راجع تخريجات الحديث الذي قبله.

عنده القريب والبعيد بخلاف بصر الدنيا لقوله عليه الصلاة والسلام: «يرى أقصاه كما يرى أدناه».

فصـــل

فإذا فهمت ما تقدم علمت أن البصر النافذ لا يرى في جهة وقد كان النبي ﷺ لما دخل الجنة ليلة الإسراء ورأى الآيات الكبرى بما كشف له من عالم الملكوت والآخرة وحصل له من نور تلك الدار في بصره يرى من خلفه كما يرى من أمامه فثبت عنه عليه الصلاة والسلام أنه قال: «أترون هاهنا قبلتي فوالله ما يخفى عليَّ ركوعكم ولا سجودكم وإني لأراكم من وراء ظهري»(١).

والبصر القاصر لا يرى إلاّ في جهته، والباري لا يرى في جهة بل كما بعلمه الآن لا في جهة ولا في حد كذلك إذا كملت الأبصار في الآخرة تراه إذا تجلى لها لا بحد ولا في جهة فإن البصر هناك تابع للعلم فما أدركه العلم حقيقة أدركه البصر كذلك حقيقة وكشفاً.

والباري سبحانه يرى في الدنيا بالعلم ويرى في الآخرة بالعلم والبصر جميعاً فأعلى أهل الجنة منزلة ونعيماً وأكثرهم لذة أكثرهم نظراً إلى الله وهو النعيم الذي لا مثله نعيم.

والناس في ذلك درجات على قدر نظرهم بعلومهم في الدنيا إلى الله والتفاتهم بالقلوب إلى مولاهم ورغبتهم في العلم بالله والإيثار له والاشتياق إليه والمراقبة له فمن كان قلبه ونظره معلقاً بالعلم بالله والمراقبة لتجليه كان جسده وحاسته ظاهرة تابعاً لعلمه وبصره تابعاً لبصيرته.

فكان كثرة نعيمه في الآخرة برؤية مولاه الذي كان باطنه وظاهره معلقاً بالمراقبة والالتفات إلى مولاه في دار الدنيا وكان أعظم همه ورغبته في ذكر سيده والاهتمام به والعلم به والخروج والانقطاع من الأشياء إليه وإلى مناجاته/ والحضور معه في الصلاة وغير ذلك. [٣٩٠/أ]

فمن كان كذلك كان ثوابه في الآخرة الاتصال بعليين والنظر إلى رب العالمين. وعلى قدر رغبة العبد في الشهوات والتمتع بالأمور الهوائية وقِلَّة اهتمامه ونظره بالخروج من الهوى إلى ربه يكون نظره إلى ربه في الآخرة على قدر ما كان التفاته في الدنيا إليه ويكون أكثر زمانه في الآخرة إن كان سعيداً مستغرقاً في التمتع بالحور والقصور وغير ذلك.

والكل حسن وبعضه أحسن من بعض وقد بيّن النبي ﷺ في الحديث المتقدم ذكره حيث قال: «إن أدنى أهل الجنة منزلة لمن ينظر إلى جناته وأزواجه ونعيمه وخدمه وسرره

---

(١) أخرجه مالك في الموطأ (١٦٧).

مسيرة ألف سنة وإن أكرمهم على الله من ينظر إلى وجهه غدوة وعشية»[١].

فوصف هذا بالنظر إلى الملك ووصف هذا بالنظر إلى الملك والزيارة في الجنة لها أوقات ومواسم وعلى قدر الشغل بالله وبغيره والباري يتجلى في كل مرة يراه أولياؤه فيها بصفة من صفاته. فمرة بصفات الكمال، ومرة بنعوت الجمال، وأخرى بمحاسن الكمال، ومرة بأوصاف الرحمة والحنان، ومرة بصفة الكرم والامتنان، ومرة بصفة العلم، وأخرى بصفة الحلم هكذا أبد الآبدين ودهر/ الداهرين وأسماؤه وصفاته لا تتناهى أبداً ويحدث [٣٩٠/ب] تجليه أبداً في الملك من الحسن والجمال والنعيم والمحبة والسرور والبركة والنور والزيادة والخيرات ما لم يكن قبل ذلك فيه.

فصـــل

فعلى هذا يكون نعيم الجنة على ضربين: روحاني، وجسماني.

الروحاني: نعيمه الفرح والسرور والحبور والتلذذ برؤية الله ورضاه إلى غير ذلك.

والجسماني: التمتع بالحور والقصور والمأكول والمشروب إلى غير ذلك من نعيم الجنان.

وكذلك عذاب جهنم على ضربين: روحاني، وجسماني.

الروحاني: عذاب الحجاب عن الرب جل جلاله والناس من لقائه ورضاه إلى غير ذلك.

والجسماني: عذاب النار واختلاف أنواع عذاب جهنم.

جعلنا الله وإياكم من أهل السعادة وخلدنا وإياكم في محل الكرامة، ولا جعلنا من أهل الشقاوة وعصمنا من دخول جهنم برحمته. آمين. آمين.

وصلى الله على محمد [وسلم تسليماً كثيراً][٢].

فصـــل

كان عليه الصلاة والسلام إذا قفل [من سفر] يقول: «الحمد لله الذي هدانا لهذا وما كنا لنهتدي لولا أن هدانا الله، اللهم أنت الحامل على الظهر، والخليفة في الأهل، والصاحب

(١) أخرجه الترمذي في الجامع الصحيح (٣٣٣٠)، أحمد في المسند (٣/ ٢٧، ٧٦)، مسلم في الصحيح (الإيمان ٣١١)، أبو نعيم في الحلية (٥/ ٨٧)، البغوي في شرح السنة (١٥/ ٢٣٢).

(٢) ما بين المعقوفين زيادة ليست على الأصل.

[٣٩١/أ] في السفر»[١]. فالمعية/ المصاحبة. وبالإعراض عن الله إلى غيره تكون المفارقة من المعية ألا تسمع إلى قوله: ﴿أَمْ لَهُمْ آلِهَةٌ تَمْنَعُهُم مِّن دُونِنَا لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَ[٢] أَنفُسِهِمْ وَلَا هُم مِّنَّا يُصْحَبُونَ﴾[٣].

إلَه: معبود. فإذا تألّه القلب لغير الله فارقه.

فصـــل

فإن قلت: فإن المعية فيها بعض إشكال فما معناها؟ فاعلم أن معناها بيّن في حديث الإحسان في قول النبي ﷺ: «الإحسان أن تعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك»[٤].

فذكر الرؤية فيها تكون المعية برؤية الله جل جلاله في الدنيا بالمعرفة والعلم.

وكذلك لا يصاحب أحدٌ أحداً حتى يكون بينهما معرفة ورؤية.

فما دام القلب عالماً بالله ناظراً بالمعرفة إليه زال حجاب الجهل به، وإذا انكشف الحجاب حصلت المعية فرأى القلب الباري قائماً بكل شيء محيطاً بكل شيء فيراه في كل شيء وبكل شيء أقرب إلى كل شيء من نفس كل شيء بقرب لا يشبه تداني الذوات بعضها من بعض، لا بملامسة، ولا بمماسة، ولا بملاصقة بل بقرب الإحاطة وإدراك القيومية وإمساك الجملة بعظيم القوة وعزيز القدرة.

وهو في قربه بعيد من كل شيء لا ببعد المسافة والمفاصلة ولا تباعد الجد والمفارقة بل ببعد النزاهة الذي ليس مثله في نزاهة/ النفوس نزاهة. [٣/ب]

فقد ثبت أن المعية للمحسنين وإذا رآه العبد وعرفه أحبه الحب الكامل، أحبه لذاته أي لأنه أهل أن يحب ﴿وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾[٥]، ومن أحب شيئاً أكثر من ذكره، واتقى أن يحال دونه وخاف أن يزول عنه أو يفوته.

وتقواه توجب له تأكيد المعية ﴿إِنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ﴾[٦]، ومن أحب شيئاً صبر عليه وبه

---

(١) أورده الزبيدي في إتحاف السادة المتقين (٤/٣٢٨).
(٢) جاء هذا اللفظ في الأصل: نصرهم. وهو سهو من الناسخ.
(٣) سورة الأنبياء (الآية: ٤٣).
(٤) أخرجه البخاري في الصحيح (٦/١٤٤)، البيهقي في السنن الكبرى (١٠/٢٠٣)، ابن خزيمة في الصحيح (٢٢٤٤)، ابن حجر في فتح الباري (٨/٥١٣)، أحمد في المسند (١/٣١٩).
(٥) سورة آل عمران (الآية: ١٣٤). (٦) سورة البقرة (الآية: ١٩٤).

﴿وَٱللَّهُ مَعَ ٱلصَّابِرِينَ﴾(١)، فصبره يؤكد المعية وهكذا أنواع المقامات الإحسانية فحينئذ يكون باطن المحسن وجهاً بلا قفا على سُنة إبراهيم الحنيف [عليه السلام] حيث قال: ﴿وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ ٱلسَّمَاوَاتِ وَٱلأَرْضَ حَنِيفاً﴾(٢)، أي مائلاً عن الجملة إليه.

فحينئذ يجد مولاه في كل شيء حيث ما أحب ويذكره في كل شيء وبكل شيء ويؤثر ذكره على ذكر كل شيء.

قال الله عز وجل في تحقيق هذه المعية المذكورة: «أنا مع عبدي ما ذكرني وحيث ما طلبني وجدني»(٣). لأنه يراه في كل شيء فلا يفارقه في شيء.

وقال عز وجل: ﴿وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ وَمَا تَتْلُواْ مِنْهُ مِن قُرْءَانٍ وَلاَ تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلاَّ كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُوداً إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ﴾(٤).

وقال: «إني لا أطلع على قلب عبد فأجد الغالب عليه ذكري إلا كنت سمعه الذي يسمع به وبصره الذي يبصر به ويده التي يبطش بها ورجله التي يمشي عليها...» الحديث إلى آخره.

فهذا/ معنى المعية الإحسانية والصحبة الربانية فمن كان هنا مع مولاه كان في العقبى [٢٩٢] مع مولاه مؤثراً له على كل شيء لأنه ليس كمثله شيء ويكون ما أعطي من نعيم الجنة من شكله ومثله فلا يكون شيء من مملكاته إلا مذكراً بمن ليس كمثله شيء لأن الآخرة جزاء على الأعمال والأحوال جزاءاً وفاقاً كما قال عز وجل: ﴿مَنْ جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرُ أَمْثَالِهَا﴾(٥). فالمثلية في المجاز مستقصاة في كل شيء.

زيادة بيان

اعلم أنه قد أمر الله العباد بالمعرفة به والعلم والعمل والعبادة له وأمرهم أن يتوجهوا له وأن يريدوا وجهه بكل حركة وسكون فإذا كان العبد كذلك كان جزاؤه على حركاته وسكناته كلها كذلك فيرى الله في كل شيء كما كان متوجهاً له في كل شيء لأنه على مثل وصفه مجازى: ﴿سَيَجْزِيهِمْ وَصْفَهُمْ إِنَّهُ حَكِيمٌ عَلِيمٌ﴾(٦).

---

(١) سورة البقرة (الآية: ٢٤٩).

(٢) سورة الأنعام (الآية: ٧٩).

(٣) أخرجه أحمد في المسند (٢/ ٥٤٠)، ابن حجر في تغليق التعليق (١٨٩٨)، المنذري في الترغيب والترهيب (٢/ ٣٩٤)، السيوطي في الدر المنثور (١/ ١٤٩).

(٤) سورة يونس (الآية: ٦١).

(٥) سورة الأنعام (الآية: ١٦٠).

(٦) سورة الأنعام (الآية: ١٣٩).

فصـــل

فإذا كان العامل والعابد والعالم والذاكر إنما يطلب من الله ولا يطلب الله كان جزاؤه موقوفاً على مثل طلبه.

والمقربون طلبوا الجار قبل الدار وأصحاب اليمين طلبوا الجار قبل الدار فلذلك اختلفت أحوال الخلق ونظرهم ونعيمهم.

فصـــل

[٣٩٢/ب] فإن قلت: فكيف لا تحجب الأشياء إذا كان العبد[1] فيها/ عن الله؟

فاعلم أنه كما يكون العامل هنا والعابد والذاكر متلبساً بالعمل والعبادة والذكر ويخرج بقلبه عن النظر والالتفات إليها فيغيب بالمعبود في العبادة وبالمعمول له عن العمل وبالمذكور عن الذكر، وبالركوع له والسجود له عن الركوع والسجود وهو ملابس لذلك كله متنعم بذكره وعبادته لمولاه كذلك يكون في العقبى إذا جوزي المثل بالمثل وهذا لا إشكال فيه ولا سيما من كان أكثرُ عمله في الدنيا المسير بباطنه في المعلومات والمعقولات والنظر والاستدلال بالبراهين والآيات.

فليس شيء من الأشياء إلا وهو دليل له على الله غير قاطع له عن الله فإذا لاح له جمال الله وجلاله في كل شيء رغبه فآثره على كل شيء فالذي له في الدنيا بالمعنى يكون له في الآخرة بالكشف والعيان.

فاحرص أن تكون ذاتك الباطنة وجهاً بلا قفا ومن كان باطنه وجهاً بلا قفا لم ينظر إلى موجده في جهة ولا يتوجه إليه في جهة دون جهة فإنه منزه مقدس عن أن يطلب في الجهات رفيع منيع عن لحاقه بخواطر الأوهام وتنبيه الإشارات، عزيز قوي قيد كل شيء مخلوق [٣٩٣/أ] وحيَّره، وقهر كل عقل،/ عرف الكل قدره فلا يقدر أحد أن يتعدى حده وطوره فالوجوه في توجهها له خاضعة والبصائر في نظرها إليه خاسئة حاسرة. كَلَّت وعجزت عن الإحاطة به الفهوم والعلوم وعنت الوجوه للحي القيوم.

فصـــل

فإن قلت: قد تبين لي أن بالمعرفة والعلم يُرى الله في الدنيا ويرى بهما في الآخرة على الكشف والعيان وطريق المعرفة صعب.

---

(١) في الأصل: البعد. وهو تحريف.

فاعلم أنه هيّن يسير على من يسره الله له والطريق إلى الله أسهل وأهون مما يتوهمه الجاهلون فطريقها[١] أيسر من طريق الدنيا واتباع الهوى باضعاف كثيرة واتباع الهوى هو الصاد عن سبيل العلم والمعرفة بالله فقط.

فصـــل

اعلم أن الهوى على ضربين:

هوى عقلي: وهي الآراء المجردة التي ضل بها الخلق قال الله عز وجل: ﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ ٱتَّبَعَ هَوَاهُ﴾[٢]. [وقال][٣]: ﴿وَإِنَّ كَثِيراً لَّيُضِلُّونَ بِأَهْوَآئِهِمْ﴾[٤].

وهوى نفساني: [وهو][٥] الحاجب عن طريق الله.

والهوى مشتق من قولك: هَوِيَ الرجل يَهْوَى هوياً. إذا أحب.

والحب على ضربين كما تقدم في الهوى لأنه هو حب عقلي، وهوى الاستحسان الرأي، فهوى العقل وحبه واستحسانه.

وحب نفساني: وهو إرادة الشيء المستحسن المشتهى فإذا استحكم الهوى ضل المتصف به في كل مذهب، قال الله عز وجل: ﴿كَٱلَّذِي ٱسْتَهْوَتْهُ ٱلشَّيَاطِينُ فِي ٱلْأَرْضِ حَيْرَانَ﴾[٦].

أي ذهبت به في كل مذهب فصار حيران أي ضل وإذا ضل تردى في المهاوي/ الهاوية [٣٩٣/١] لأن لفظ الهوى يعطي ذلك تقول: هوى الرجل يهوي هوياً.

ومنه الهاوية، وتقول: تهاوت الناقة براكبها إذا أهوت به وبركت.

فكل من ضل أو كفر أو زاغ أو مات قلبه فإنما ضلّ بالهوى العقلي والنفسي فكل من استحسن شيئاً بعقله وهويه بقلبه اتبعه واتخذه إلهاً من دون الله.

وفي الخبر: الهوى إلّه معبود.

ولم يبق شيء من المخلوقات إلا وقد عبد من دون الله وأصل ذلك ما ذكرت لك.

---

(١) أي الآخرة.
(٢) سورة القصص (الآية: ٥٠).
(٣) زيادة لتوضيح المعنى.
(٤) سورة الأنعام (الآية: ١١٩).
(٥) ما بين المعقوفين ليس من الأصل.
(٦) سورة الأنعام (الآية: ٧١).

فصــل: طريق الهدى والمعرفة غير طريق الهوى والضلال

فأول ذلك والأصل المعمول عليه الذي لا بد منه، والمصاحب لكل وجه من وجوه الهدى والخير طلب الهدى من الله عز وجل فإنه لا هادي سواه، ألا ترى إلى قول إمام المهتدين إبراهيم الخليل [عليه السلام] حين نظر فكر واستدل على بارئه فقال في استصحاب نظره في الأصنام ثم في الكوكب ثم في القمر ثم في الشمس ثم في الجملة: ﴿لَئِن لَّمْ يَهْدِنِي رَبِّي لأَكُونَنَّ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلضَّالِينَ﴾(١).

فإذا حصل العبد هذا وعول عليه فإن الهدى يكون شيئاً منها النظر والتدبر والفكر في شيئين وهما الوجود كله والاستدلال به على مُوجده.

والوحي الذي هو في نفسه هدى، والوحي هو الكتاب والسنة التي هي حديث النبي ﷺ لأنه ما ينطق عن الهوى إن هو إلا وحي يوحى.

[٣٩٤/أ] قال الله عز وجل في حصول الهدى بعد النظر/ في المخلوقات في قصة إبراهيم [عليه السلام]: ﴿وَحَآجَّهُ قَوْمُهُ قَالَ أَتُحَآجُّوٓنِّي فِي ٱللَّهِ وَقَدْ هَدَانِ﴾(٢).

وقال في الوحي: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحاً مِّنْ أَمْرِنَا مَا كُنْتَ تَدْرِي مَا ٱلْكِتَابُ وَلاَ ٱلإِيمَانُ وَلَـٰكِن جَعَلْنَاهُ نُوراً نَّهْدِي بِهِ مَن نَّشَـآءُ مِنْ عِبَادِنَا﴾(٣).

● ومن أسباب الهدى: اتباع الهادي محمد عليه الصلاة والسلام على طريقته، قال الله عز وجل فيه: ﴿وَإِنَّكَ لَتَهْدِيَ إِلى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾(٣).

وقال: ﴿وَإِن تُطِيعُوهُ تَهْتَدُواْ﴾(٤).

● ومن أسباب الهدى: إسلام شارح للصدر، قال الله عز وجل: ﴿فَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلإِسْلاَمِ﴾(٥).

وعلامة الشرح ذكرها رسول الله ﷺ قال: «إن النور إذا وقع في القلب انشرح له الصدر». فسُئل: وهل لذلك من علامة؟ قال: «نعم، التجافي عن دار الغرور، والإنابة إلى دار الخلود والتأهب للموت قبل نزول الموت»(٦).

---

(١) سورة الأنعام (الآية: ٧٧).
(٢) سورة الأنعام (الآية: ٨٠).
(٣) سورة الشورى (الآية: ٥٢).
(٤) سورة النور (الآية: ٥٤).
(٥) سورة الأنعام (الآية: ١٢٥).
(٦) أخرجه الحاكم في المستدرك (٤/ ٣١١)، السيوطي في الدر المنثور (٣/ ٤٤)، الزبيدي في إتحاف السادة المتقين (٩/ ٣٢٧).

وهذه أسباب للهدى: وتنوير للعقول والقلوب بأنوار الله بلا شك.

● ومن أسباب الهدى: إيمان بصدق، قال الله عز وجل: ﴿وَمَن يُؤْمِنْ بِاللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُ﴾[1]. وهذا شرط شرطه الله بكرمه على نفسه فقوله: ﴿مَن يُؤْمِنْ بِاللَّهِ﴾[2] شرط وجوابه فعل الهدى ﴿يَهْدِ قَلْبَهُ﴾[2] والشرط مع المشروط.

● ومن أسباب الهدى: التقوى، قال الله عز وجل: ﴿الٓمٓ * ذَٰلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ﴾[3]. وقال: ﴿إِن تَتَّقُوا اللَّهَ يَجْعَل لَّكُمْ فُرْقَانًا﴾[4]. والقرآن هو النور الذي يمشي به في الظلمات: ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ وَيُعَلِّمُكُمُ اللَّهُ﴾[5].

● ومن أسبابه: ترك الفسوق، قال الله عز وجل/: ﴿وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ [٣٩٤/ب] الْفَاسِقِينَ﴾[6]، ﴿يُضِلُّ بِهِ كَثِيرًا وَيَهْدِي بِهِ كَثِيرًا وَمَا يُضِلُّ بِهِ إِلَّا الْفَاسِقِينَ﴾[7].

● ومن أسبابه: الصبر على ما أمر به العبد وعن ما نهي عنه ولما قضي على العبد، قال الله عز وجل: ﴿وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُم مُّصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ﴾[8]. ثم قال: ﴿أُولَٰئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ﴾[8]. فخصصهم بالهدى.

● ومن أسبابه: خوف الزيغ والتضرع في طلب الهدى والثبات عليه في كل وقت، قال الله في سورة الحمد التي[9] يتلوها العبد آناء الليل وأطراف النهار في مفروضاته ونوافله: ﴿اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾[10]. وقال مادحاً للراسخين أولي الألباب في قولهم بالخوف: ﴿رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا﴾[11].

● ومن أسبابه: الاعتصام بالله وبالكتاب والسنّة، قال الله عز وجل: ﴿وَمَن يَعْتَصِم بِاللَّهِ فَقَدْ هُدِيَ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾[12]. والعصمة والاعتصام مأخوذ من الامتناع والتمنع:

---

(١) سورة التغابن (الآية: ١١).
(٢) سورة التغابن (الآية: ١١).
(٣) سورة البقرة (الآية: ١، ٢).
(٤) سورة الأنفال (الآية: ٢٩).
(٥) سورة البقرة (الآية: ٢٨٢).
(٦) سورة المائدة (الآية: ١٠٨).
(٧) سورة البقرة (الآية: ٢٦).
(٨) سورة البقرة (الآية: ١٥٥، ١٥٧).
(٩) في الأصل: الذي. وهو تحريف.
(١٠) سورة الفاتحة (الآية: ٦).
(١١) سورة آل عمران (الآية: ٨).
(١٢) سورة آل عمران (الآية: ١٠١).

﴿وَٱللَّهُ يَعۡصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِ﴾[١] ﴿سَـَٔاوِيٓ إِلَىٰ جَبَلٖ يَعۡصِمُنِي مِنَ ٱلۡمَآءِ﴾[٢].

● ومن أسبابه: الألفة والاجتماع على الحق وترك الفرقة والبدعة، وذكر الله ونعمه وشكره على نعمه كلها، قال الله عز وجل: ﴿وَٱعۡتَصِمُواْ بِحَبۡلِ ٱللَّهِ جَمِيعٗا﴾[٣] الآية إلى قوله: ﴿كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمۡ ءَايَٰتِهِۦ لَعَلَّكُمۡ تَهۡتَدُونَ﴾[٣].

[٢٩٥/أ] ● ومن أسبابه: الرضى عن الله واتباع رضوانه، قال الله/ عز وجل: ﴿قَدۡ جَآءَكُم مِّنَ ٱللَّهِ نُورٞ وَكِتَٰبٞ مُّبِينٞ * يَهۡدِي بِهِ ٱللَّهُ مَنِ ٱتَّبَعَ رِضۡوَٰنَهُۥ سُبُلَ ٱلسَّلَٰمِ وَيُخۡرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذۡنِهِۦ وَيَهۡدِيهِمۡ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ﴾[٤].

● ومن أسبابه: ترك الظلم، قال الله عز وجل: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾[٥].

● ومن أسبابه: ترك العوائد المضرة والتقليدات المضلة، قال الله عز وجل: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱتَّبِعُواْ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ قَالُواْ بَلۡ نَتَّبِعُ مَا وَجَدۡنَا عَلَيۡهِ ءَابَآءَنَآ﴾[٦] [وقال][٧]: ﴿أَوَلَوۡ كَانَ ءَابَآؤُهُمۡ لَا يَعۡلَمُونَ شَيۡـٔٗا وَلَا يَهۡتَدُونَ﴾[٨].

● ومن أسبابه: الإنابة إلى الله عز وجل: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُضِلُّ مَن يَشَآءُ وَيَهۡدِيٓ إِلَيۡهِ مَنۡ أَنَابَ﴾[٩]. أي من أناب إليه، والإنابة حقيقة التوبة والرجوع إلى الله.

● ومن أسبابه: المجاهدة للنفس والعدو ظاهراً وباطناً في الله، قال الله عز وجل: ﴿وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ فِينَا لَنَهۡدِيَنَّهُمۡ سُبُلَنَا﴾[١٠]. ومع الهداية تكون المعية الإحسانية كما أخبرتنا الآية في قوله: ﴿وَإِنَّ ٱللَّهَ لَمَعَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾[١١].

● ومن أسبابه: العدل والحكم بالحق، قال الله عز وجل: ﴿فَٱحۡكُم بَيۡنَ ٱلنَّاسِ بِٱلۡحَقِّ﴾[١٢][وقال][١٣]: ﴿وَلَا تُشۡطِطۡ وَٱهۡدِنَآ إِلَىٰ سَوَآءِ ٱلصِّرَٰطِ﴾[١٤].

---

(١) سورة المائدة (الآية: ٦٧).
(٢) سورة هود (الآية: ٤٣).
(٣) سورة آل عمران (الآية: ١٠٣).
(٤) سورة المائدة (الآية: ١٥، ١٦).
(٥) سورة الأنعام (الآية: ١٤٤).
(٦) سورة لقمان (الآية: ٢٠).
(٧) زيادة لفصل الآيات ولإيضاح المعنى.
(٨) سورة المائدة (الآية: ١٠٤).
(٩) سورة الرعد (الآية: ٢٧).
(١٠) سورة العنكبوت (الآية: ٦٩).
(١١) سورة العنكبوت (الآية: ٦٩).
(١٢) سورة ص (الآية: ٢٦).
(١٣) زيادة لإيضاح المعنى وفصل الآيات.
(١٤) سورة ص (الآية: ٢٢).

● ومن أسبابه: الصدق والاقتصاد والإيقان: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ كَذَّابٌ﴾(١)، و ﴿مُسْرِفٌ مُّرْتَابٌ﴾(١).

● ومن أسبابه: ترك أسباب الضلال كلها وهي ضد أسباب الهدى والهروب والتطهر منها مثل: السرف، والكذب، والشك، واستحباب العمى على الهدى والجور، والصد عن سبيل الخير ومن صَدَّ صُدَّ،/ والفسق، والظلم وأعدادها كثيرة. [٣٩٥/ب]

● ومن أسبابها: التصديق بالآيات والقدر والكرامات، قال الله عز وجل: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِ ٱللَّهِ لَا يَهْدِيهِمُ ٱللَّهُ وَلَهُمْ﴾(٢).

● ومن أسبابه: الاقتداء بالأئمة المهتدين والأولياء الراغبين إلى الله عز وجل وإلى الدار الآخرة، قال الله عز وجل: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِي آمَنَ يَا قَوْمِ ٱتَّبِعُونِ أَهْدِكُمْ سَبِيلَ ٱلرَّشَادِ﴾(٣).

● ومن أسباب الضلال والعمى عن الهدى: اتباع أضداد الأئمة الراغبين إلى الله مثل الفراعنة والجبارين قال الله عز وجل: ﴿وَأَضَلَّ فِرْعَوْنُ قَوْمَهُ وَمَا هَدَىٰ﴾(٤). [وقال](٥): ﴿وَمَآ أَمْرُ فِرْعَوْنَ بِرَشِيدٍ﴾(٦).

والفرعون: من تفرعن وتجبر ودعا إلى نفسه وتعظيمه بالحال والمعنى وإن ادعى الإسلام.

● ومن أسباب الضلال والعمى عن الهدى: اتباع شياطين الإنس والجن وقبول زخرف القول والوسواس منهم قال عز وجل: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَادِلُ فِي ٱللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّبِعُ كُلَّ شَيْطَانٍ مَّرِيدٍ * كُتِبَ عَلَيْهِ أَنَّهُ مَن تَوَلَّاهُ فَأَنَّهُ يُضِلُّهُ وَيَهْدِيهِ إِلَىٰ عَذَابِ ٱلسَّعِيرِ﴾(٧).

● ومن أسبابه: ترك الإكباب على غير الله وترك التوجه إلى الخسيس الفاني ورفع الهمة إلى الله عز وجل وهي الاستقامة، قال الله عز وجل: ﴿أَفَمَن يَمْشِي مُكِبًّا عَلَىٰ وَجْهِهِ أَهْدَىٰ أَمَّن يَمْشِي سَوِيًّا عَلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾(٨).

● ومن أسبابه: النظر والاعتبار في مصنوعات الجبار وجولان الأفكار في كل شيء

---

(١) سورة غافر (الآية: ٢٨، ٣٤).
(٢) سورة النحل (الآية: ١٠٤).
(٣) سورة غافر (الآية: ٢٨).
(٤) سورة طه (الآية: ٧٩).
(٥) زيادة لفصل الآيات وتوضيح المعنى.
(٦) سورة هود (الآية: ٩٧).
(٧) سورة الحج (الآية: ٣، ٤).
(٨) سورة الملك (الآية: ٢٢).

[٣٩٦/أ] وأن الموجودات كلها/ هي آيات الله ودلائله الدالة عليه الهادية لمن استهداها إلى الله، قال الله عز وجل: ﴿إِنَّ فِي ٱلسَّمَاوَاتِ[1] وَٱلْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِّلْمُؤْمِنِينَ * وَفِي خَلْقِكُمْ﴾[2] إلى قوله: ﴿تِلْكَ آيَاتُ ٱللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِٱلْحَقِّ﴾[2]. فأخبر أنها آيات وقال: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَاوَاتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ خَلَقَهُنَّ ٱلْعَزِيزُ ٱلْعَلِيمُ﴾[3] إلى قوله: ﴿لَّعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾[3]. وقال: ﴿خَلَقَ ٱلسَّمَاوَاتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ تَعَالَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ * خَلَقَ ٱلْإِنسَانَ مِن نُّطْفَةٍ﴾[4].

ثم جعل يسرد الآيات فذكر الأنعام وما فيها من الآيات، والخيل والبغال والحمير إلى قوله: ﴿وَلَوْ شَآءَ لَهَدَاكُمْ أَجْمَعِينَ﴾[5].

ثم سرد ذكر الماء وما أنبت به والليل والنهار والشمس والقمر والنجوم والألوان المختلفة والبحار وحيواناته ومنافعه والفلك الجارية فيه والرياح والجبال والأنهار والطرق الهادية والعلامات والنجوم ثم ذكر الهداية بها وبالآيات وذكر في أثنائها أنها للعقلاء آيات ولأهل الفكر والذكر.

وقال في غير ما آية من القرآن عند ذكر المخلوقات إنها آيات لقوم يسمعون، ولأولي الأبصار، ولأولي الألباب، والحِجر، والنُّهى، واليقين، وغير ذلك مما يكثر تعداده، يدل ذلك كله على نفسه.

ومدح المتذكرين والمتفكرين والعالمين والعاقلين والناظرين في المخلوقات. وفي [٢/ب] مدحهم بذلك ذم لمن لم يتفكر ولا تذكر ولا نظر/ وشبههم بالدّواب والأنعام فقال: ﴿إِنَّ شَرَّ ٱلدَّوَآبِّ عِندَ ٱللَّهِ ٱلصُّمُّ ٱلْبُكْمُ ٱلَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ﴾[6]. ومثله كثير.

وقال في الآية الجامعة لجميع الأشياء التي لا يشذ عنها شيء دق أو صغر من البعوضة والذرة إلى ما فوقها من المخلوقات والملك والملكوت فقال: ﴿أَوَلَمْ يَنظُرُواْ فِي مَلَكُوتِ ٱلسَّمَاوَاتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا خَلَقَ ٱللَّهُ مِن شَيْءٍ﴾[7]. فأمر بإطلاق النظر في كل شيء.

فهذا هو الجود كله أمر الله وحثَّ على النظر والفكر فيه وقال في النظر في آيات الوحي: ﴿كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِّيَدَّبَّرُوٓاْ آيَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَابِ﴾[8] ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ

(١) جاء قبلها كلمة (خلق) وهي زيادة سهو من الناسخ.
(٢) سورة الجاثية (الآية: ٣ ـ ٦).
(٣) سورة الزخرف (الآية: ٩، ١٠).
(٤) سورة النحل (الآية: ٣، ٤).
(٥) سورة النحل (الآية: ٩).
(٦) سورة الأنفال (الآية: ٢٢).
(٧) سورة الأعراف (الآية: ١٨٥).
(٨) سورة ص (الآية: ٢٩).

ٱلْقُرْآنَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَآ﴾[١].

فقد تبين بما ذكرنا أن الله قد أمرنا بالتفهم والتذكر والتدبر والنظر وهي أسباب الهداية فأولئك الخيرة هم[٢] من أهل العقل والفهم والمعرفة والذكر والحياة الطيبة فقد فتح الله الأبواب والطرق البادية إليه على عدد كل شيء.

وبترك ذلك تكون حماراً بليداً تحمل الأسفار ولا تدري ما فيها وميتاً يمشي بحياتك الجسمانية تظن أنك حي وأنت ميت الباطن أعمى أصم أبكم وأنت تتقلب في الآيات الناطقة لا تراها ولا تسمع ولا تنطق بحكمة وتنطق بالقرآن ولا يجاوز حناجرك لأنك لا تسمع إلا الأصوات ولا ترى إلا الحروف. / وكذلك ترى عجائب المخلوقات بحاسة رأسك ولا ترى [٣٩٧/أ] ما فيها من الآيات: ﴿وَكَأَيِّن مِّنْ آيَةٍ فِي ٱلسَّمَاوَاتِ وَٱلْأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ﴾[٣].

فصـــل

فقد تبين بما جلينا أن الله يوجد ويرى في كل شيء وبكل شيء وفي كل عمل صالح فإن آيات الله أكثر من جواهر العالم وأعراضهم أضعافاً مضاعفة لأن في كل جوهر وعرض وجسم آيات لا تحصى فاستعن بالله يُعِنْكَ واطلب مولاك بصدق تجده حيث ما أحببت كما قال عز وجل فيما روى عنه [رسولُ الله ﷺ]: «أنا مع عبدي ما ذكرني وحيث ما طلبني عبدي وجدني»[٤].

فإذا كنت كذلك كنت وجهاً بلا قفا وصحت لك المعية الإحسانية بعون الله وهدايته واطلب مولاك وسافر إليه سفر الروحانيين واقتد بأبيك إبراهيم الخليل عليه السلام متكلاً على توفيقه وهدايته. ألا تراه عليه السلام كيف قال مخبراً لقومه عن سفره إلى ربه لعلهم يقتدون به فقال: ﴿إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَىٰ رَبِّي سَيَهْدِينِ﴾[٥].

---

(١) سورة محمد (الآية: ٢٤).

(٢) جاءت في الأصل على هذا النحو: فأولئك الخيرة أن يكون من. وفيه زيادة وسقط فحذفت الزيادة وأثبت السقط على حسب ما هو مبين ويقتضيه السياق.

(٣) سورة يوسف (الآية: ١٠٥).

(٤) أخرجه أحمد في المسند (٢/ ٥٤٠)، ابن حجر في تغليق التعليق (١٨٩٨)، الزبيدي في إتحاف السادة المتقين (٣/ ١٤٢)، السيوطي في الدر المنثور (١/ ١٤٩)، السهمي في تاريخ جرجان (٤٧٨).

(٥) سورة الصافات (الآية: ٩٩).

فإياك أن تفهم من هذا السفر والذهاب قطع المسافات الجسمانية فالموت أقرب إليك وإلى كل موجود منك إليك وإلى كل موجود فترتقي في عالم الخيال وآفاق الوهم والظن الكاذب الزلال، وانظر بالأدب والوقار فإن من لم يتأدب في نظره بالآداب سدت في وجهه/ [٣٩٧/ب] الأبواب ورد إلى سياسة الدواب وقد ذم الله عندنا فرعون بسوء النظر الوهمي والخيال والظن الكاذب الجسماني فقال: ﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَا هَامَانُ ٱبْنِ لِي صَرْحاً لَّعَلِّيَ أَبْلُغُ ٱلْأَسْبَابَ * أَسْبَابَ ٱلسَّمَاوَاتِ فَأَطَّلِعَ إِلَى إِلَٰهِ مُوسَىٰ وَإِنِّي لَأَظُنُّهُ﴾(١).

فانظر ما أجهله وما أجفاه وما أبلد قلبه وأسوأ أحواله، عماه جهلة الخيال والوهم والحسيات والفرعنة والطغيان على طلب الله بالطلوع في البنيان فهو إمام المُخْسَئِينَ.

ومن يتوهم أن الله جالس في السماء من المتخيلين ورأس كل جاف قليل الأدب من المتكبرين وقد أحسن العارف حيث قال في ذم الوهم والظن حيث يقول:

تاه الخلائق في عمياء مظلمة ... ولم يعرفوا غير الإشارات
بالظن والوهم نحو الخلق مطلبهم ... إلى الهوا يناجون السماوات
والرب بينهم في كل منقلب ... محل حالاتهم في كل ساعات
ما أن خلوا منه طرف العين لو عقلوا ... ولا خلا منهم في كل أوقات

جعلنا الله وإياكم من أهل السعادة آمين.

[وصلى الله على محمد وآله وصحبه وسلم تسليماً](٢).

الشعبة الرابعة والسبعون: إماطة الأذى عن الطريق

[٣٩٨/أ] أما كونها من شعب الإيمان/ فإنه نص في الحديث المروي في شعب الإيمان قال النبي عليه الصلاة والسلام: «الإيمان بضع وسبعون شعبة أعلاها شهادة أن لا إله إلاّ الله، وأدناها إماطة الأذى عن الطريق»(٣).

وهذا لفظ يحتمل الظواهر والبواطن لعموم لفظ الطريق ظاهراً أو باطناً إذ الطريق

---

(١) سورة غافر (الآية: ٣٦، ٣٧).

(٢) ما بين المعقوفين اعتاد المؤلف أن يختم به كل شعبة وأظنه سقط فأثبته بين المعقوفين.

(٣) أخرجه مسلم في الصحيح (الإيمان ٥٧)، النسائي في المجتبى (٨/ ١١٠)، البخاري في الأدب (٥٩٥)، عبد الرزاق في المصنف (٢٠١٠٥)، الألباني في الصحيحة (١٧٦٩)، الهيثمي في مجمع الزوائد (١/ ٣٧)، التبريزي في مشكاة المصابيح (٥)، الزبيدي في إتحاف السادة المتقين (٢/ ٢٦٠).

ينطلق على محجة الأقدام وعلى طريق الإسلام وطريق السلوك إلى الله جل جلاله.

فإماطة الأذى عن الطريق الظاهر كإماطة شوكة وحجر مؤذٍ ونجاسة وجيفة منتنة وكل ما فيه إذاية للمسلمين فإن إزالة ذلك عن طريق المسلمين بنية صالحة عمل صالح.

وفي الخبر: بينا رجل يمشي إذ وجد غصن شوك فأزاله عن طريق المسلمين فشكر الله له فغفر له.

وروت عائشة رضي الله عنها أن رسول الله ﷺ قال: «إن الله خلق كل إنسان من بني آدم على ستين وثلاثمائة مفصل فمن كبر الله وحمد الله وهلّل الله وسبح الله واستغفر الله وعدل حجراً من طريق أو شوكة أو عظماً أو أمر بمعروف أو نهى عن منكر عدد تلك الستين وثلاثمائة السّلامى فإنه يمشي يومئذ وقد زحزح نفسه عن النار»(١).

فكل من أصلح طريق المسلمين وسهله وأماط عنه المؤذيات بنية صالحة شكر الله له ذلك فلا يحقر العبد شيئاً من فعل الخير فإنه لا يدري بما يغفر له. ومن قطع طريق المسلمين/ وأذاهم بوضع النجاسات والمؤذيات فيه فقد عرض نفسه للهلاك. [٣٩٨/ب]

ومن إماطة الأذى عن الطريق في الظاهر أيضاً إزالة القاذورات وفضول الشعر والأظفار من جسد ابن آدم وتطهير المسلمين والجوارح من الأوساخ فإن ذلك كله أذًى وداخل في عموم الحديث، وقد ورد أيضاً في الحديث؛ روى سليمان بن عامر قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «مع الغلام عقيقته فأهريقوا عنه دماً وأميطوا عنه الأذى»(٢).

فتطهير طرق الجوارح في الجسد التي هي طرق الطاعات وتطهير جوانحه وبراجمه من إماطة الأذى، وذلك كله من الفطرة التي رغب الشرع فيها.

ومن ذلك السواك في الفم فإن الفم طريق لذكر الله وتلاوة كتابه فتنظيفه لجري ذكر الله من ذلك، وفي الخبر: «السواك مطهرة للفم مرضاة للرب».

وأما الباطن فإن الطريق هو صراط الإسلام والدين وقد أحدث أهل الأهواء والمبتدعة بآرائهم في ذلك من المؤذيات ما يضر بأهل الدين. فوجب على العبد إماطة ذلك وتغييره

(١) أخرجه مسلم في الصحيح (الزكاة: ٥٤)، البيهقي في السنن الكبرى (١٨٨/٤)، المنذري في الترغيب والترهيب (١٦٩/٣)، القرطبي في التفسير (١٦١/١٥)، الزبيدي في إتحاف السادة المتقين (١٦٩/٥)، المتقي الهندي في كنز العمال (١٦٤٢٠).

(٢) أخرجه أحمد في المسند (١٨/٤)، الترمذي في الجامع الصحيح (١٥١٥)، الطبراني في المعجم الكبير (٣٣٦/٦)، البيهقي في السنن الكبرى (٢٩٨/٩)، الطحاوي في مشكل الآثار (٤٥٩/١)، الهيثمي في مجمع الزوائد (٥٨/٤).

والتحذير منه وكشف واضحات الطريق على من خفي عليه وإزالة كل مؤذٍ للعبد وللدين ولأهل الدين في سبيل السلوك والقصد إلى الله فإن للشياطين فيه مؤذيات كثيرة بالوساوس [٣٩٩/أ] وتلبيس الطرق كما أخبر الله عن عدوه/ وعدونا إبليس فقال: ﴿لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ ٱلْمُسْتَقِيمَ﴾[١]. وهذا نص على أن الشيطان قعد وسط الصراط لإذاية الخلق السالكين عليه ولقطعهم بمؤذياته عن سلوكها.

فقد عمّ هذا المعنى جميع الظواهر والبواطن والعلو والسفل إذ أعلى ما في شعب الإيمان التوحيد.

فإذا قلت: لا إله إلا الله، فإنها مجموعة من نفي وإثبات، النفي إماطة الشرك والنجس كله. فقولك: لا إله، نفي وتطهير وإماطة الشرك[٢] والإذاية كلها ﴿إِنَّمَا ٱلْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ﴾[٣] [وقال][٤]: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ﴾[٥] فكذلك كل كلمة وكل عمل ظاهراً وباطناً إذ كل حسن مرتبط بضده من القبيح وكل طيب له ضد من الخبيث وكل سنة خلافها بدعة وعلى كل سبيل شيطان مؤذ، فوجب إماطة الأذى عن كل طريق ظاهر وباطن يؤذي المسلمين في طريق الأقدام وطرق الديانات والقصد إلى الله والنص الجلي الذي لا شك فيه في إماطة الأذى عن طريق السلوك قوله عز وجل: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَمْ يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يُطَهِّرَ قُلُوبَهُمْ﴾[٦] [وقال][٧]: ﴿خُذْ مِنْ أَمْوَٰلِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ﴾[٨].

وإنما أراد تطهيرهم من المهلكات وأوساخ الموبقات كما قال النبي عليه الصلاة والسلام: «ثلاث مهلكات وثلاث منجيات». ثم فسر المهلكات المؤذيات فقال: «شح مطاع، وهوى متبع، وإعجاب كل ذي رأي برأيه»[٩].

فكل ما نهى الله عنه ورسوله ظاهراً وباطناً فهو مهلك ومؤذ، وكل ما أمر الله ورسوله به ظاهراً وباطناً فهو منج.

---

(١) سورة الأعراف (الآية: ١٦).
(٢) جاءت بالأصل: الشركة. وهو تحريف.
(٣) سورة التوبة (الآية: ٢٨).
(٤) زيادة لفصل السياق وتوضيح المعنى.
(٥) سورة الأحزاب (الآية: ٥٧).
(٦) سورة المائدة (الآية: ٤١).
(٧) زيادة لإيضاح المعنى وللفصل بين الآيات.
(٨) سورة التوبة (الآية: ١٠٣).
(٩) أخرجه أبو نعيم في الحلية (٢/ ٣٤٣)، الألباني في الصحيحة (١٨٠٢)، الهيثمي في مجمع الزوائد (١/ ٩٠)، العجلوني في كشف الخفا (١/ ٣٨٦). الزبيدي في إتحاف السادة المتقين (٨/ ١٦٤)، التبريزي في مشكاة المصابيح (٥١٢٢).

فالمأمور به/ ضد المنهي عنه والعبد محل الأمر والنهي فوجب عليه إماطة النهي عن [٣٩٩/ب] ذاته التي هي المحل ظاهراً وباطناً وتطهيرها فإنه مأمور بالسلوك الذي هو التقرب إلى مولاه والمنهي عنه معترض له في طريقه وقاطع له فإن ارتكبه وحلّ بذاته فعلاً كان أو صفة حبسه عن السلوك والنهوض والقصد إلى مولاه ولا يصلح لمجاورة الطاهر القدوس ولا يصل إلى مولاه ولا يقدر على التقرب منه ما دام ذلك القاطع المؤذي في ذاته فلينظر العبد [في ذاته] وليمط عنها المؤذيات والمهلكات فحينئذ يسبح باطنه سبحاً ويجري جرياً ويسبق سبقاً وتهش هشاً بالسبق والتنسب[١] إلى مولاه قال الله عز وجل لنبيه محمد عليه الصلاة والسلام: ﴿وَٱذْكُرِ ٱسْمَ رَبِّكَ وَتَبَتَّلْ إِلَيْهِ تَبْتِيلاً﴾[٢].

أي انقطع إليه انقطاعاً بعد أن طهره ونظفه من جميع المؤذيات حين شق قلبه وشرح صدره وأخرج منه العلقة التي هي حظ الشيطان.

وقال جبريل: هذا حظ الشيطان منك يا حبيب الله.

وتلك العلقة في حق كل عبد هي أم العلائق المتعلقة بالإنسان قد أمر بقطعها وإخراجها بالإماطة والتطهير وحب الدنيا المذمومة رأس كل خطيئة فلا علاج أنفع من إماطتها من قطع الرأس فإن الرأس إذا قطع لم تنطق الأطراف ومتى قطعت الأطراف ويقي الرأس نشأت الأطراف التي هي الفروع/ وعادت. فافهم. [٤٠٠/]

فإن حب الدنيا الذي هو[٣] طلب الخلود الدنياوي والمال المطلوب للنفس وَلَّدَ[٤] الإباق عن الله والإقبال على غيره، ويولد[٥] طلب الكبر وطلب الرئاسة والتفاخر والتكاثر والإعجاب والطغيان والتطاول على الإخوان وغيرهم والمراءاة والتزين والشح والعجب واتباع الهوى والكفر والشرك والفجور والضلال والخسران والجهل والغفلة وعمى القلب والصمم والحيلة والخداع والغش والكذب والفساد والإفساد والسفه والاستهزاء والإباء والعناد والقطيعة والدعوى والظلم والجور والبغي والحسد والإضرار وكفر النعم والجحود ونقض العهود والإلباس والتدليس والغضب والسخط والجهل والقسوة والنسيان والنفور والعدوان والحرص والغرور والخيانة والجبن والإساءة والحرج والغضب والمكابرة والعجلة وموت القلب والنوم له والطمع وفقر القلب والكسل والزيغ والبدعة والنفاق والشقاق والتعصب والحمية والتقليد وغير ذلك مما يكثر جلبه وتعداده ويكفيك من معرفة ذلك فصل

---

(١) في الأصل: المسسب. دون نقط وزيادة الميم أوله وهو تحريف.
(٢) سورة المزمل (الآية: ٨).
(٣) في الأصل: التي هي. تحريف.
(٤) في الأصل: ولدا. تحريف.
(٥) في الأصل: وولدا. تحريف.

واحد أصف لك فيه جميع المهلكات والمنجيات والقاطعات والمقربات وذلك:

أن تعرض النفس على القرآن والسنّة وأقوال الصحابة وعلماء الآخرة من بعدهم فإذا [٤٠٠/ب] قرأت القرآن والسنّة فانظر ما ذكر فيه/ من أمور مأمور [بها][١] فإنه يقول لك انظر إن كان أنت هكذا أو على غير هذا الوصف.

وكذلك كل قصص أو خبر أو مثل ورد في أوصاف القرون الخالية من مدح أو ذم إنما هو تذكير لك على هذا الوجه الذي ذكرت لك.

وكذلك السنة فلا تمر بك كلمة واحدة من القرآن والسنّة وأقوال العلماء المرضيين إلاّ وهي لك آمرة أو زاجرة فانظر كثرة المؤذيات وعمومها قد أحاطت بالإنسان وتعلقت به وجذبته إلى البعد وقطعته عن مولاه وهو لا يشعر ومتى سعى في قطع رذيلة واحدة من تلك الرذائل بصدق حتى يزيلها بالكلية من أصلها فيرجىء له إن تزلزلت كلها فإنها متعلقة بعضها ببعض لا سيما إذا قطع المهلك وصار مكانه منج تنافر الضدان كالليل والنهار، قال الله عز وجل: ﴿إِنَّ ٱلْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ ٱلسَّيِّئَاتِ﴾[٢]. وقال عز وجل: ﴿وَٱلَّذِينَ جَاهَدُوا۟ فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا﴾[٣].

فيقتضي معنى هذه الآية أن السبيل لا يهتدى إليه إلاّ بعد المجاهدة والمجاهدة لا تكون إلاّ لقاطع مؤذٍ متعرض في الطريق وما دام القاطع والسبيل غير ظاهر وموصل إلى المعية [٤٠١/أ] الإحسانية التي ختم بها الآية في قوله: ﴿وَإِنَّ ٱللَّهَ لَمَعَ/ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾[٣].

والإحسان: أن تعبد الله كأنك تراه لأن السبيل قد ظهر والمقصود فيه سبحانه متلقّ عبده بكل نوع من أنواع البشر والإكرام فيه.

«من تقرب مني فتراً تقربت منه شبراً ومن تقرب مني شبراً تقربت منه ذراعاً ومن تقرب مني ذراعاً تقربت منه باعاً ومن أتاني يمشي أتيته هرولة».

إن هذا لهو الفضل العظيم والبر الجسيم والوصف والخلق الكريم.

فصـــل

قال النبي عليه الصلاة والسلام: «الإيمان بضع وسبعون شعبة أفضلها قول: لا إله إلاّ

(١) زيادة يقتضيها السياق.
(٢) سورة هود (الآية: ١١٤).
(٣) سورة العنكبوت (الآية: ٦٩).

الله، وأدناها إماطة الأذى عن الطريق»[١].

فقوله: «أدناها» أي أقربها إليكم لأن الإيمان ليس فيه شيء دني إنما هو من القرب من قوله عز وجل: ﴿فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَىٰ﴾[٢] أي أقرب. فنبّه النبي عليه الصلاة والسلام إلى أن الابتداء يكون بالإماطة لأن القواطع والمؤذيات من صفات الأنفس ومستهيناتها فأول الأشياء التطهر من المؤذيات لأنها مانعة من السلوك في الطريق وكذلك المؤذيات أيضاً في الطرق المحسوسات إذا منعت أول ما يجب إزالتها فينفتح الطريق ويصلح المشي فيها وتكون أيضاً أدنى في قوله: «أدناها إماطة الأذى» أي ليس شيء أقرب وأعون على الدنو والتقرب من إماطة الأذى عن طريق الله لأن الإنسان قد يكون مجتهداً[٣]/ في طاعة من طاعات الله [٤٠١/ب] وهو غير مطهر من المؤذيات القائمة فلا يجد ريح القرب ولا كشف المشاهدة ولا على الأحوال مع الله تعالى وإنما منعه من ذلك عدم إماطة الأذى القائم بذاته فإن ترك إماطة الأذى وكثرة المؤذيات والمهلكات بذاته نكسته وأذلته ووضعته حتى ربما يعبد الأشياء وذل لها فصار عبداً لها وملْكاً ومملوكاً بعد أن كان مالكاً لها ومتصرفاً فيها بالخلافة التي استخلفه الله فيها فَقَلَبَ الحكمة وعكس الأمر لأن الله خلقه في أحسن تقويم فصار في أسفل سافلين بالذل للأشياء والتعبد لها ويحكم الخليفة والمالك أن تكون الأشياء معظمة له وتحت ملكه وقدره، قال الله عز وجل ذامًا لمن قلب الحكمة في هذا المعنى: ﴿قَالُواْ يَا مُوسَى ٱجْعَل لَّنَآ إِلَـٰهاً كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ﴾[٤]. حين ابتغيتم إلهاً من العبيد الفقراء المخلوقين المضطرين وتركتم إله العالمين وسيد الخلق أجمعين الذي لا يقدر قدره ولا يداني عزه وشرفه، والذي ينبغي أن تهتز وتهش ذوات العالمين أجمعين طرباً وتطير فرحاً من أجل أن كان ربها على ما هو عليه من العظمة وشرف الرتبة وجلالة القدر والسيادة.

ثم نبههم على معنى آخر وهو خساسة القدر وقلة الهمة فقال: ﴿أَغَيْرَ ٱللَّهِ/ أَبْغِيكُمْ [٤٠٢/أ] إِلَـٰهاً وَهُوَ فَضَّلَكُمْ﴾[٤]. كيف قلبتم الحكمة [وقد][٥] جعلكم الله خلقاً على العالمين وفضلكم عليهم وملككم إياهم وخلقها من أجلكم ولكم: ﴿وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي ٱلسَّمَاوَاتِ وَٱلْأَرْضِ جَمِيعاً مِّنْهُ﴾[٦]. فرددتم الأعلى أسفل والأسفل أعلى وكذلك قيل: ليس شيء أهون

(١) سبق تخريج الحديث في أكثر من موضع وهو موضوع الكتاب.
(٢) سورة النجم (الآية: ٩).
(٣) في الأصل: مسهذا. وهو تحريف.
(٤) سورة الأعراف (الآية: ١٣٨، ١٤٠).
(٥) ساقطة والسياق يقتضيها.
(٦) سورة الجاثية (الآية: ١٣).

على الله من الدنيا وأهون منها قلب ملكته واستعبد لها. فكذلك عبداً استعبد لعبد كيف بمولى وملك استعبد لعبده وملكه.

قال الله عز وجل: ﴿وَجَعَلَكُمْ مُلُوكاً وَآتَاكُم مَّا لَمْ يُؤْتِ أَحَداً مِّنَ الْعَالَمِينَ﴾[(١)]. وقال: ﴿وَهُوَ الَّذِي جَعَلَكُمْ خَلاَئِفَ فِي الأَرْضِ﴾[(٢)].

وقال النبي عليه الصلاة والسلام: «إن الله خلق آدم على صورته»[(٣)]. وفي حديث آخر: «على صورة الرحمٰن». وكذلك بنوه. وليس معناه الصور الجسمانية فتعالى الله عن شبه الخليقة، وإنما المعنى ما قدمت لك من الخلافة فإن الله خلق الأشياء من أجل بني آدم وهم الملوك فيها في الدنيا والآخرة فمثال ذلك في عالم الدنيا أن الباري تبارك وتعالى هو رب العالمين وسيد الخلق أجمعين يتصرف في ملكه بالتدبير والصنع ووضع الأشياء مواضعها فاستخلف بني آدم في الأرض بما فيها من جميع الأشياء وسخر لهم جميع العلويات/ والسفليات لينظر أيشكر فيعبد شكراً لما أولاه أو يكفر فيقلب الحكمة فيتعبد لمن [٤٠٢/ب] ملكه إياه فكان هو الخليفة فيها وجعل عالم الحيوان كله على أربع قوائم منجبياً ليركب عليه بالخلافة وليكون مالكاً له وكذلك غيره من المخلوقات من نبات وجواهر ومعادن وأرض وبحر وغير ذلك وأمره بالاستواء عليه، كما قال: ﴿جَعَلَ لَكُمُ الأَرْضَ مَهْداً﴾[(٤)] [وقال][(٥)] ﴿ذَلُولاً﴾[(٦)]، [وقال][(٥)]: ﴿وَجَعَلَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلاً لَّعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾[(٧)]. ثم يسوق هذا المعنى إلى قوله: ﴿وَجَعَلَ لَكُمْ مِّنَ الْفُلْكِ وَالأَنْعَامِ مَا تَرْكَبُونَ * لِتَسْتَوُواْ عَلَىٰ ظُهُورِهِ ثُمَّ تَذْكُرُواْ نِعْمَةَ رَبِّكُمْ إِذَا اسْتَوَيْتُمْ عَلَيْهِ وَتَقُولُواْ سُبْحَانَ الَّذِي سَخَّرَ لَنَا هَذَا وَمَا كُنَّا لَهُ مُقْرِنِينَ﴾[(٨)]. وما كنا له سبحانه وتعالى بمقرنين إذ جعلنا على صورته ووصفنا بوصفه إذ ملكنا الأشياء كما هو المالك لها وسخرها لنا كما هي المسخرة له فإذا فهمت هذا تبين لك معنى قوله عليه الصلاة والسلام: «إن الله خلق آدم على صورته»[(٩)] ولم يبق فيه مثقال ذرة من الإشكال[وإن][(١٠)] كنت من الراسخين فإنه خلق آدم على صورته منتصب القامة لئلا يذل

---

(١) سورة المائدة (الآية: ٢٠).
(٢) سورة فاطر (الآية: ٣٩).
(٣) أخرجه مسلم في الصحيح (البر والصلة ١١٥، الجنة ٢٨)، أحمد في المسند (٢/ ٢٤٤)، الحميدي في المسند (١١٢٠)، ابن أبي عاصم في السنة (١/ ٢٨٨)، ابن حجر في فتح الباري (١١/ ٣).
(٤) سورة الزخرف (الآية: ١٠).
(٥) زيادة للفصل بين الآيات وتوضيح المعنى.
(٦) سورة الملك (الآية: ١٥).
(٧) سورة الزخرف (الآية: ١٠).
(٨) سورة الزخرف (الآية: ١٢، ١٣).
(٩) سبق تخريج الحديث قريباً.
(١٠) زيادة ليست في الأصل.

لغيره ولا يركع ويسجد [إلاّ][1] له.

وكما كان الحيوان مخلوقاً وغيره على صورة السخرة والذلة لا يستطيع أن يكون منتصباً مرتفعاً كابن آدم.

فقد استوى عليها بالخلافة بالعلو والسيادة والقهر والملك لها/ كما أن الباري تعالى [٤٠٣/أ] مستوٍ على عرشه وملكه بالعلو والرتبة والسيادة والقهر والغلبة: ﴿يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ يُفَصِّلُ ٱلْآيَاتِ﴾[2].

وكذلك ابن آدم قد استوى بالخلافة على ما استخلف فيه وخص[3] بالعقل المدبر لأمور المصالح والمماليك، وأمر بالفكر والتذكر والتدبر في العالم كله ظاهراً وباطناً وخلق روحه على صورة من البسط لا يقبل على مكان دون مكان فيدبر ويتصرف بذاته الباطنة في عمله في كل مكان من العالم ليظهر تدبره وسياسته في الملك على حسب ما أمره المستخلف له سبحانه وأمره أن يكون على صورته سبحانه في التدبير والملك لا أن يقلب الحكمة فيفسد أو يكون عبداً لها فقد استبان لك معنى قول النبي ﷺ: «إن الله خلق آدم على صورته»[4].

وأما الرواية الأخرى: «إن الله خلق آدم على صورة الرحمٰن». فإن الله عز وجل استوى على عرشه الذي هو ملكه كله بصفة الرحمة كما قال: ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ﴾[5] [وقال][6]: ﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱلرَّحْمَٰنُ﴾[7].

فلم ير الخلق الخليفة منه إلاّ اللطف والرحمة والفضل وهني العيش والإكرام لسعة رحمته التي اقتضاها اسمه الرحمٰن جل جلاله فمن عصاه واستكبر عليه وادعى ما ليس له/ [٤٠٣/ب] أن يدعي انْحَازَ إلى غيره في زعمه وتأبى عن طاعة مولاه الحق فتركه سبحانه مع ما ادعاه مرتبكاً في هواه لغناه عنه وعن العالمين فكان ذلك خروجاً منه عن العبودية وخروجاً عن ملك مالكه فانحاز عن الرحمة العامة الشاملة لملك الله والخير الصرف العامّ لجميع العالمين ونأى من الاستواء بالرحمة عليه فوجب طرده وقتله وعذابه وإهلاكه وعلى كل من اطمأن إليه من المخلوقات ونسب إليه شيئاً من الإلهية فتسلطت عليه الأشياء حين ترك مع ما ادعى من النسبة إليها حين نسب إليها ما لا يليق فغضب عليه أزلاً وأبداً حين ظلمها ظلماً أزلياً لقطعه

(١) زيادة لإيضاح المعنى.
(٢) سورة الرعد (الآية: ٢).
(٣) في الأصل: حضر. وهو تحريف.
(٤) سبق تخريج الحديث قبل قليل.
(٥) سورة طه (الآية: ٥).
(٦) زيادة للفصل بين الآيات ولإيضاح المعنى.
(٧) سورة الفرقان (الآية: ٥٩).

عليها بما لا يجب لها أو تسلطت عليه وقتاً ما بمقدار العصيان قل أو كثر فهذا سبب العذاب في الوجود والهلاك والشر كله ولو بقي على ما أريد منه كان عريقاً في الرحمة مع جميع عباد الله لكنه قَلَبَ الحكمة فصير العبد رباً، وفي الخلافة الفاضل مفضولاً.

وكذلك أمر ابن آدم أن يستوي في خلافته على ما استخلف فيه بصفة الرحمة وينظر إليها بعين الرفق ويدبرها كما أمره الشرع وحَدّ له المستخلف، ولا يكون جباراً عنيداً ولا شيطاناً مريداً فإن شذ شيء وهرب/ [٤٠٤/أ] وعصى مما استخلف فيه كسائر المؤذيات للخلفاء في هذا العالم من الشياطين والحيات والسباع والنافرات وغير ذلك من كل آبق فقد سلط الخلفاء عليه بالعقر والقتل والخزي إلى غير ذلك من أنواع الحكم. فيكون خليفة حاكماً على صورة المستخلف له فيه. فافهم معنى قوله عليه السلام: «خلق آدم على صورته»(١).

لم يُستعبد للأشياء وارتفعت همته إلى المستخلف له إلى عليين وتصرف روحه في الملأ الأعلى بلا مسافة لتروحه وارتفعت صورة جسده قائماً على الأشياء كما خلق قائماً ولم يحن ظهره راكعاً وساجداً [إلاّ](٢) لسؤال الملك الحق.

وإنه قد أعطي انحناءاً اختيارياً ولم يجعل كالأشياء التي انحناؤها ضرورياً لا تستطيع أن تنقلب عن صورتها لأنها تحت لابن آدم وابن آدم علو عليها فإذا أراد أن ينحني انحنى وخضع لمالكه وإذا أراد أن يرتفع عن الانحناء للأشياء ارتفع وإذا أراد أن ينحني عليها انحناء رحمة وحنو لعطف ساغ له ذلك كما ينزل مستخلفه إليه من صفات العظمة والجلال إلى صفات الرحمة واللطف والحنان فيميل عليها بجسده ويتنزل إليها وينحني بذاته الباطنة ويتنزل بالحكم والعدل والرحمة والفضل.

فافهم فهمك الله فليس بعد هذا البيان بيان فيما أحسب/ [٤٠٤/ب] إن شاء الله.

فأمط عنك المؤذيات القاطعات لك عن السلوك إلى مولاك فإن الطريق إليه أقرب من طرفة العين لأنه ليس بينك وبينه واسطة ولا رفع عليك أحداً من خلقه لأنك خليفة.

فأنت تحت وهو عليك وغيرك تحت لك فأي مسافة بينك وبينه وإنما قطعتك القواطع ونكستك المؤذيات فهذا أقرب طريق إليه وأقصده: ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ قَصْدُ ٱلسَّبِيلِ وَمِنْهَا جَآئِرٌ﴾(٣).

---

(١) سبق تخريج الحديث قبل ذلك بقليل.

(٢) ما بين المعقوفين زيادة لاقتضاء السياق.

(٣) سورة النحل (الآية: ٩).

وإنما جار من جار عن طريق القصد المبلغ في أيسر مدة بترك إماطة الأذى عن الطريق كما تقدم وليس ينال الوصول إليه جل جلاله بكثرة اجتهاد في الأعمال مع ترك الإماطة لأنها أوساخ وخبائث وبعيدة عن أوصاف البعيد القدوس النزيه عنها وإنما يقرب منه التطهر منها لأنه الطاهر وإذا تطهر فقد اتصف بما أمره من التخلق بأوصافه المحدثة التي أوجدها عن معاني أوصافه القديمة وليس بينها وبينه حجاب لأنها قابضة وموجودة عنها وبها، كالطهارة عن الطاهر والتقديس عن القدوس والعلم عن العليم والجود عن الكريم.

وهكذا كل صفة ظاهرة طريق مبلغ في أسرع [من][1] طرفة العين إلى من فاضت عن أوصافه.

الا ترى إلى قوله في القرآن الكريم: ﴿يس * وَالْقُرْآنِ الْحَكِيمِ */ إِنَّكَ لَمِنَ [٤٠٥/أ] الْمُرْسَلِينَ * عَلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ * تَنزِيلَ الْعَزِيزِ الرَّحِيمِ﴾[2].

فنص بأن تنزيل هو الصراط المستقيم والقرآن تنزيل من عند الله وهو الجامع لمعاني الأسماء والصفات فمن اتبعه أوصله إلى من نزل من عنده أي كلمة أخذت منه واتبعتها قادتك إليه.

فأول الخلق اقتداءً محمد عليه الصلاة والسلام عمل به كله وأوصلته كل كلمة منه إلى الغاية القصوى من القرب وفي اقتدائه بكل آية منه ترك أثراً في الوجود.

فكل أثر صراط مستقيم وهي سنته المسنونة ظاهراً وباطناً والآثار والسنن هي الصراط. فافهم.

والسنن في اللغة هو الطريق، وكذلك الشارع هو الطريق والأثر وعليه قعدت الشياطين الإنسية والجنية لتضل عن سبيل الله.

فلا يصدنك قاطع ولا مؤذ عن اتباع الرسول في الظاهر والباطن فإن باطنه هو المطهر المنزه المقدس المبعد عن كل خلق يضاد المعاني الفائضة عن أوصاف القدوس سبحانه، وفي الحديث: «كان خلقه القرآن».

وكذلك ظاهره منزه عن اتباع الهوى والآراء الفاسدة والبدع المضلة لأنه إنما اتبع ما شرع له وحدّ وفصل فكان واصلاً إلى الله في كل حركة تحرك في أسرع من طرفة حتى لقد قطع في ليلة واحدة في سيره في الإسراء ظاهراً وباطناً كل مسافة وطوى في مسراه/ البعد [٤٠٥/ب]

---

(١) زيادة ليست من الأصل.

(٢) سورة يس (الآية: ١ ـ ٥).

كله والقرب أجمعه حتى خطا رقاب الكون كله إلى حضرة الجليل في مقامات معارج المتقربين السالكين. فافهم.

وتقرب إليه بجميع أنواع ما شاهد من عبادة العابدين قولاً ونية وعقداً وعلماً وعملاً ظاهراً وباطناً فشاهد مراتب العالم، كل له مقام معلوم.

ليس له من النهضة والقوة أن يجوز ويتخطى ذلك المقام الذي هو فيه إنما يمد كل أحدٍ من مقامه فنهض هو عليه السلام في كل مقام وهابه كل من فيه ولذلك كان إماماً للكل فيه.

فاقتد به جهدك وبمن هو على منهاجه من الصحابة والصديقين والعلماء الراسخين الذين رسخوا في العلم والعمل به.

والاقتداء بسنن النبي [ﷺ] ظاهراً وباطناً وبأحواله وبمقامات قلبه وروحه وعقله باطناً.

ولا تظنن أن هذا عسير بل يسير لمن يسره الله له وإنما ذلك بالإماطة كما تقدم، قال النبي عليه الصلاة والسلام: «القصد [القصد][1] تبلغوا».

فيصر أن بالقصد تبلغ.

وإن أبيت أن تميط الأذى عن ذاتك بقيت مأسوراً في الطريق ومالت عن القصد بك الشياطين إلى تبيان الطرق حتى تموت وتقبر وتبعث وتحاسب وتجازى عليه في المحشر [بقدر][2] ما قدر لك وحتى تجوز الصراط وتدخل/ الجنة إن أسلمت وكنت من أهلها [٤/أ] وحينئذ تجد أول ما وجد من إماطة الأذى هنا وسلمك قصد السبيل.

فصــــل

فإن قلت: وكيف صفة الإماطة؟

فاعلم أن النبي ﷺ قد قال: «ثلاث مهلكات».

ثم فسرها فقال: «شح مطاع، وهوى متبع، وإعجاب كل ذي رأي برأيه»[3].

(١) ما بين المعقوفين ساقط من الأصل واستكملته من مصادر تخريج الحديث وهي: البخاري (٨/ ١٢٢)، مسند أحمد (٢/ ٥١٤)، السنن الكبرى للبيهقي (٣/ ١٨)، إتحاف السادة المتقين للزبيدي (٩/ ٩٧)، فتح الباري لابن حجر (١١/ ٢٩٤).

(٢) زيادة توضيحية.

(٣) أخرجه أبو نعيم في الحلية (٢/ ٣٤٣)، العجلوني في كشف الخفا (١/ ٣٨٦)، الألباني في الصحيحة =

فوصف له الشح، والهوى، والإعجاب.

فانظر إلى ذاتك هل قامت بها صفة الشح فاعمل في قطعها جهدك بأن تنفق على نفسك مما أعطاك الله بنية صالحة لتقوى بها على طاعة الله فإن نفقة بلا نية لا يسمى صاحبها كريماً.

ثم تنفق على أهلك إن كانوا بنية صالحة أيضاً بغير إسراف ولا تقتير فإن التقتير شح والإسراف تبذير وليس من السخاء والجود في شيء: ﴿إِنَّ ٱلْمُبَذِّرِينَ كَانُوٓاْ إِخْوَٰنَ ٱلشَّيَٰطِينِ﴾[1].

فإن لزمتك الزكاة أخرجتها بنية صالحة طيبة نفسك بذلك.

ثم جاهد نفسك بأقل شيء وأيسره فتصدق بلقمة، وبتمرة، وبأقل وأكثر قليلاً قليلاً حتى تندرج وتتعلم السخاوة.

وأَضِفِ الضيف، وَصِلِ القرابة فذلك من الأخلاق وكل ذلك بنية وإخلاص.

وأطعم الطعام إلى الإخوان ولو مرة في السنة وإياك أن تحقر ما أصف لك فتحقر طاعة الله ألا ترى إلى قول المصطفى/ محمد ﷺ: «إن الله يحب السخاء ولو على تمرات»[2]. [٤٠٦/ب]

وجمع تمرات أقل الجمع وأقل الجمع من ثلاث إلى تسع، وقال: «اتقوا النار ولو بشق تمرة»[3].

وقد تصدقت عائشة رضي الله عنها بها، فإن المراد بالصدقة التخلق بالجود والسخاء والتنزه عن القاطع المؤذي الذي قدمت لك ذكره.

وإذا فعلت بنية لله كما ذكرت لك أحبك الله كما قال: «يحب السخاء ولو على تمرات».

وإذا أحبك وجدت طعم الإيمان في قلبك وتأثر قلبك واستنار ورأيت ما لم تكن ترى قبل ذلك حين انكشف الحجاب المؤذي عن قلبك وتدرّج تدرج حتى تتصدق بخروبة وبثمن درهم وربعه ونصفه وبه وكلما فعلت ذلك وجدت أثر حُب وما أمسكت من مال لنفسك

= (١٨٠٢)، الزبيدي في الإتحاف (٨/ ١٩٢).

(١) سورة الإسراء (الآية: ٢٧).

(٢) أورده السيوطي في الدر المنثور (٥/ ٥٣٩)، ابن أبي الدنيا في كتاب قضاء الحوائج (٤٤).

(٣) أخرجه البخاري في الصحيح (٢/ ١٢٦)، مسلم في الصحيح (الزكاة ٦٨)، البخاري في التاريخ (١/ ١٠٥)، ابن خزيمة في الصحيح (٢٤٢٨)، الهيثمي في مجمع الزوائد (٣/ ١٠٥)، ابن حجر في المطالب (٨٨٩).

ولأهلك فأمسكه بنية صالحة للّه ليكون ركاباً للآخرة وأخرج منه قلبك ولا تتألّه إليه فتقلب الحكمة فإن الدنيا ركاب الآخرة والركاب هو المركوب والمركوب مملوك هو يخدمك لا أنت تخدمه. وأحسن منه إلى غيرك جهدك فلنفسك تحسن وثمرته في الحال تجدها: ﴿لَن تَنَالُواْ ٱلْبِرَّ حَتَّىٰ تُنفِقُواْ مِمَّا تُحِبُّونَ﴾[1].

فافهم قوله: مما تحبون. وتحرى الحلال جهدك فإن الله لا يحب سواه.

[٤٠٧/أ] / وإن لم يكن لك مال فارض واقنع وأمط الفقر والطمع عن ذاتك تكن عزيزاً بالله ولا تطمع وتنظر[2] إلى مخلوق مثلك فتقلب الحكمة كما تقدم فإن الذي أعطاه هو الذي منعك ولا تقدر أن تمتنع أنت ولا هو عن ذلك، واختبرك وإياه بالمنع والعطاء.

وربما كان عطاؤك الذي أعطاك أفضل من عطائه هو فإنه ابتلاك بالعطاء كما ابتلاك بالمنع وإذا رضيت به وقنعت فقد زال عنك ثقل المحاسبة على العطاء والساعات التي تلزمه دنيا وأخرى.

وأنفق بالذكر على نفسك فإن كل تسبيحة صدقة وكل تحميدة صدقة وكل تهليلة صدقة وكل تكبيرة صدقة إلى غير ذلك.

ولا تشح بنفسك على ربك في طاعته فاسمح بها في حركاتك وسكناتك واجعلها كلها به وله تجده في طريق كل حركة وسكون.

واعمل جهدك في قطع الشح المهلك وإماطته عن ذلك ولا تتعرض للهلاك، قال الله عز وجل تصديقاً لنبيه في أن الشح مهلك: ﴿وَأَنفِقُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا تُلْقُواْ بِأَيْدِيكُمْ إِلَى ٱلتَّهْلُكَةِ﴾[3].

فنزلت في ترك الجهاد والنفقة فيه، فوصف أن ترك الإنفاق تهلكة.

فصـــل

وأما قوله: «وهوى متبع».

ففي الخبر: اتباع الهوى يصد عن سبيل الله.

---

(١) سورة آل عمران (الآية: ٩٢).

(٢) في الأصل: مصر. وهو تحريف وكذا غير منقوطة.

(٣) سورة البقرة (الآية: ١٩٥).

وإذا صَدّ عن سبيل الله فقد أضل عن المطلوب؛ وأي إهلاك أشد من الضلال قال/ [٤٠٧/ب] الله تعالى تصديقاً لهذا: ﴿وَإِنَّ كَثِيراً لَّيُضِلُّونَ بِأَهْوَآئِهِمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾(١).

فالهوى قاطع واقف على سبيل الله يُضل عن الله فعليك بقطعه باتباع العلم واعرض كل شيء على العلم النافع النبوي ولا تعرض العلم عن شيء.

والهوى على ضربين: هوى عقلي وهي الآراء، وهوى نفساني وهو حب الشهوات المشتهيات.

فاجعل مكانهما العلم النافع الذي اقتدى به محمد ﷺ وعلماء الآخرة من الصحابة وغيرهم.

فاقتد في الرأي العقلي بالنبي عليه الصلاة والسلام في الظواهر والبواطن ودع قول الرأي إن لم يوافق ـ أي الكتاب والسنة ـ فإن لم تفعل ضل العقل عن السبيل فإذا ضل هلك ولم يجد ربه.

ولذلك تجد كثيراً من العلوم تولد القسوة والبعد والشك والكفر لأنها آراء فاسدة.

وكذلك الهوى النفساني لا يسع حب الشهوات المحرمة فإنها قائدة إلى النار ولا الإسراف في المباحات فإن الله لا يحب المسرفين وما لا يحب فهو يبعد من الله لأنه مبغوض، والقائم بذاته المبغوض يعد مثله.

فخذ من الشهوات ما قل(٢) بنية التقوى على طاعة الله تكون كلها لله.

ولذلك يقول الله تعالى يوم القيامة في الدنيا: «ميزوا ما كان لي منها وألقوا سائرها في النار».

وإذا ألقيت في النار تبعها أهلها الآخذون لها لغير الله.

فإن أخذتها لله/ وصلتك أيضاً في الجنة إلى الله وكانت معينة على قطع الطريق إلى [٤٠٨/أ] الله. فافهم.

فصـــل

قوله عليه الصلاة والسلام: «وإعجاب كل ذي رأي(٣) برأيه».

---

(١) سورة الأنعام (الآية: ١١٩).

(٢) في الأصل: كل. وهو تحريف.

(٣) جاءت بالأصل: برأى. وهو تحريف.

فإن العجب: الخيلاء وإذا خالط العجب القلب والعقل استحسن رأيه واستقر به فحجبه عن رؤية كل عيب فيه حتى يرى القبيح حسناً وذلك الهلاك المبين.

قال النبي ﷺ: «لو لم تذنبوا لخفت عليكم ما هو أشد منه، العجب»[1] فشيء يكون الذنب خيراً منه أي خير فيه وأقل خصاله هذا؟

ومن خصاله أنه يقطع عن الله لأن صاحبه ناظر إلى نفسه ومستحسن لها ومُزَكٍّ لها وإذا فعل ذلك حجب عن الله العظيم[2] الذي خلقه من نطفة قذرة تخرج من مبال إلى مبال وغذاه في ظلمات البطن بدم الحيض القذر ثم أخرجه إلى الدنيا على أمّ الرأس من مخرج البول ضعيفاً مسكيناً مهيناً يتمرغ في بوله وقذره وأفقره إلى من يطهره من ذلك ويسد فقره بإطعامه وكسوة عورته حتى ترعرع فنظر إلى نفسه فرأى جسمه وميزه وكيف ستر الله الجميل بستره الجلد الظاهر ما خفي تحته من الدم الجاري في كل جزء منه علواً وسفلاً وكيف ستر في بطنه شيئاً يضع يده على أنفه إذا خرج منه إلى الظاهر من ريح وقذر وبول.

وأفقره إلى أن يغسله بيده التي يأكل بها ويحك علوه وسفله بها.

[٤٠٨/ب] وجعل المخاط جارياً في وسط أشرف شيء منه وهو/ الوجه والبزاق النخمة في فمه وحلقه ويجد طعمها في حلقه وفمه، والقذاوة في عينيه الكريمتين عليه، والوسخ في أذنيه، والقلع في أسنانه، والرائحة الثقيلة في إبطه وفخذيه وتحت ركبتيه، وخلق منه القمل في جسده وفي رأسه من فضلات غذائه.

ثم سلط عليه الجوع والبرد والحر، والمرض، وخوفه[3] بجميع ما يتخوف من الأعراض المسلطة عليه آناء الليل والنهار.

ثم مع هذا كله هو مواقع الذنوب وجاهل بما يراد منه ولأي شيء خلق وفي أي دار في الآخرة سكناه.

وحجب عن عيوبه الظاهرة والباطنة وعن ما أريد منه بإعجابه الموبق[4] المبعد، وهل

---

(١) أورده الزبيدي في إتحاف السادة المتقين (٨/٤٠٨)، المنذري في الترغيب والترهيب (٣/ ٥٧١)، العجلوني في كشف الخفا (٢/ ٢٣١).

(٢) حذفت بعدها عبارة هذا نصها: الله العظيم (العجيب المفاخر الذي فخره لا يدانيه فخر) و. . . ثم تركت السياق يتساب بعد ذلك وما ذلك إلا أنه وصف الله عز وجل بما لا يليق أو بمعنى آخر بما لم يصف به نفسه سبحانه وأظنه سبق قلم فالله يغفر لنا وله برحمته آمين.

(٣) في الأصل: وحفوفه. وهو تحريف.

(٤) في الأصل: الموف. وهو تحريف.

عمله هذا كله إلاّ ليفرغ عن إعجابه ويهرب من نفسه إلى الملك النزيه المجيب[1] الرفيع الذي يحب أن يكون العبد أبداً متعجباً من عجائب قدرته التي قامت بالأشياء كلها على كثرتها واختلافها وأظهرت عجائب الأفعال ومحكمات الغرائب والصنائع المتقنة مع الآباد والآزال يستدل بها على قدر الكبير المتعال الذي أحاط بعلم واحد بجميع المعلومات وصرف بقدرة واحدةٍ جميع المعدودات فيبقى حائراً متعجباً متنزهاً في نور السبحات سبحات الوجه الجميل فلا يقطعه عجبه بنفسه الحقيرة ورأيه الفاخر عن حضرة الجليل.

ثم ينظر إلى ما/ فعله معه مولاه فيعجب من كثرة إحسان الله إليه وكيف سخر جميع الملك له وإليه على قلة قدره وما انطوى عليه من العيوب وينظر إلى نفسه بعين المقت والعيب وإلى ربه بعين الشكر والعجب فيسبحه في كل وقت نظر إلى نفسه وما فعل معها ربه فيسبح بالتعجب فيقول سبحان من أظهر الجميل وستر القبيح. [٤٠٩/أ]

فهذا دواء العجب إن شاء الله تعالى، قد اندرج فيما تقدم من الكلام فلتجعله دواك. وليكن لك نظران: نظر إلى قدر ربك وما فعل معك، ونظر إلى قدر نفسك وما صنع معها مولاك. فتعجب من مولاك كما تقدم وتعجب من نفسك وحيرتها ونومها إلى مقام العُجب الذي لا يكون إلاّ للرب فتميط العُجب عنك القاطع لك عن الوصول إلى مقام العجب العجاب.

وكذلك الكبر والرياء وأنواع المهلكات لها أدوية عجيبة وهي كثيرة جداً والكلام فيها يستدعي التطويل وغرضنا الاختصار وبالتقليل يستدل الطالب النبيل وليكن قد تقدم أن رأس المهلكات كلها حب الدنيا المذمومة فأنا أذكر لك كيف الحيلة في قطع رأس جميع المهلكات وصفة إماطته فإن في ذلك فهم الكل وقطعه إن شاء الله.

فصـــل

اعلم أن الإنسان خلقه الله في الدنيا طفلاً صغيراً وخرج إلى الدنيا فقيراً إلى قيام بنيته وإصلاح نفسه فاحتاج إلى شيئين هما قوامه وصلاحه.

أحدهما: تناول الشهيات المغذية له.

والآخر: تبجيله/ وإكرامه وحفظه الذي هو حياة نفسه. [٤٠٩/ب]

ولذلك ترى الطفل في حال تربيته يفرح ويضحك ويرتع لأن ذلك سرور ذاته الباطنة

(١) في الأصل: العجيب. وهو تحريف.

وحياتها وتغذيته وحياة جسمه وبنيته ظاهرة فلا يزال ينشأ شيئاً شيئاً وحب هذين الشيئين قد خامر ظاهره وباطنه أعني حب الجاه الذي هو التبجيل والإكرام وحب نيل الأوطار التي هي الشهوات. وهذان المعنيان هما الدنيا بأثرها[١] من أجلها طلب المال ونافس الخلق في طلب الرئاسة والجاه. وفي التنافس البغي والحسد والتطاول على الأقران والتفاخر والتكاثر والعداوة والبغضاء والتزين والمراءاة والمكر والخديعة وطلب الإهلاك وجميع الصفات النفسانية وهكذا أيضاً التنافس في طلب المال والإكثار منه والاتساع في الإنفاق في المطاعم والمشارب إلى غير ذلك مما يكثر تعداده فيتعلق بذلك الحرص والحقد والخش[٢] على الملك وغير ذلك من صفات البهائم التي غايتها ونهاية المطلب منها تسمينها وذبحها.

فلما كان أمر الدنيا هكذا أقبل الخلق على هذين المعنيين ليصلوا منهما الغاية القصوى.

فلما كانت الدنيا دار فناء، والآخرة دار بقاء وكان الجاه الحقيقي والشهوات الكاملة إنما هو في الآخرة دار الأفراح واللذات أمر الخلق بطلب هذين/ المعنيين من معادنهما. [٤١٠/أ]

وأُعلموا أنه إن هم لم[٣] يفعلوا وبقوا على طلبهما نقلوا إلى الآخرة وانقلب الجاه الدنياوي فيها خمولاً، وكبرها صغاراً، وعزها ذلاً، وشهواتها عذاباً وتنغيصاً ونكالاً.

فالمؤمن الناظر بتوفيق الله تعالى فرق بين الباقي والفاني والحقير والعظيم فجرى في طلب العظيم وترك الحقير فلم يجد لذلك دواء ولا حيلة إلاّ بشيئين كما هي أمور الدنيا سببان:

فالأمر الواحد: يميط عنه جميع المهلكات النفسية.

والأمر الثاني: يميط عنه جميع المهلكات الشهوانية.

فأما النفساني: فهو إدخال النفس في رقة العبودية للّه الجليل الذي جاه وجهه الكريم لا بد أنه جاه والذي بجاه وجهه عنت الوجوه للحي القيوم والذي في لمحة واحدة من النظر إلى جاه وجهه ذي الجلال والإكرام فناء كل جاه وهلك كل وجيه: ﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ * وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ﴾[٤] [وقال][٥]: ﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلاَّ وَجْهَهُ﴾[٦].

(١) في الأصل: باسرها. (٢) الخش: أي الدخول.

(٣) جاءت العبارة في الأصل على النحو التالي: اعلموا أنه هم إن لم. فضبطت السياق على النحو المبين.

(٤) سورة الرحمٰن (الآية: ٢٦، ٢٧).

(٥) ما بين المعقوفين زيادة يقتضيها السياق. (٦) سورة القصص (الآية: ٨٨).

فافهم باباً منها في طلب الجاه وقول ربك: ﴿وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو ٱلْجَلَـٰلِ وَٱلْإِكْرَامِ﴾[1].

فإن الوجه في اللغة هو المنزلة الرفيعة التي يجل ويكرم صاحبها من أجلها كجاه الملوك والكبراء فإن الملك [لا][2] يجل ولا أكرم ولا رفع من أجل وجهه الذي في رأسه وإنما أُجل وأكرم ورفع من أجل وجهه الذي [هو][2] منزلته.

وكذلك كل كبير، ألا تراه إذا عزل عن ملكه وزال وجه منزلته ورتبته كيف يبقى وجهه الذي في رأسه وهو جارحته.

/ فلأي شيء لا يعظم ويجل ويكرم كما كان قبل العزلة من أجل بقاء وجهه جارحته [٤١٠/ب] فلما فني وجه المنزلة فني وجه الإكرام والإجلال له.

وكذلك الوجه أيضاً في اللغة المقدم أوائل الأشياء على سائرها، قال الله عز وجل: ﴿ءَامِنُواْ بِٱلَّذِيٓ أُنزِلَ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَجْهَ ٱلنَّهَارِ﴾[3]. أي المقدم منه والأول.

وهو في المعاني راجع إلى أول الرتبة وتقدمه المنزلة فإنه إنما يقدم في الأشياء الأكابر فانظر إلى منزلة الله من ذلك وإلى منزلته في قلوب العالمين أجمعين على نهايات نهاياتها واتساع عوالمها هل أصفقت إلاّ على إجلال منزلته وإكرام وجهه وهل تجرأ أحد أن يضيف شيئاً من تلك المنزلة لسواه بل نزلت جميع المنازل العلويات والسفليات تحت منزلته وأجلت وجه منزلته وأكرمته واشتغلت بالملاحظة والنظر إلى منزله ففنيت كل منزلة في منزلته ﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ * وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ﴾[1]. ففنيت بالمعنى والحقيقة.

ففناؤها بالمعنى: أنه ليس تذكر منزلة مع منزلته وإن علت المنازل لأنها كلها تحت لها.

وفناؤها بالحقيقة: أن منزلته قديمة قبل الخلق ومع الخلق وبعد الخلق إن أفناهم.

والمنزلة الوجه جامعة لكل رتبه لأن الذي له الجاه لا يكون له حتى يكون كبير القدر وعظيم الخطر وجليلاً ورفيعاً إلى غير ذلك من ألقاب الرفعة التي حصل له/ بها الجاه في [٤١١/أ] الخلق فلذلك ينزل الخلق لصاحب المنزل لأن جاهه عزيز ويتصاغرون له لأن جاهه كبير ويرفعونه لأن جاهه الذي هو منزلته رفيع ويكرمونه لأنه كريم عليهم ويهابونه لأن جاهه مرهوب إلى غير ذلك مما يكثر تعداده وهذا في حق الله أعظم وأوجب لأنه الحقيقة، فمنزلته

---

(١) سورة الرحمٰن (الآية: ٢٦، ٢٧).
(٢) زيادة يقتضيها السياق.
(٣) سورة آل عمران (الآية: ٧٢).

تجهه الكريم وجامعة لكل رتبة عالية.

فإذا لاح للعبد وظهر لمحة من سبحات الوجه الكريم ذلت نفسه وتصاغرت وتحاقرت وفني كل عجب لها وصغر كبرها وحقر تعظيمها وفنيت جميع الصفات النفسية المهلكة الشيطانية.

فليس دواء أنجع في إماطة الصفات النفسية المهلكة من النظر إلى سبحات الوجه الكريم الذي العرش بما حوله من الملائكة(١) مترقبون وناظرون ومتطلعون إلى ملاحظته.

فاحرص جهدك على العلوات في مقام المراقبة والملاحظة وانظر كيف منزلة الله من قلبك واترك طلب الجاه لنفسك فهو سبحانه ينزل منزلتك ويرتب رتبتك عنده وفي ملكوته وعند خلقه على قدر منزلته عندك. وهذا أفضل منه لأنه كان يستحق ألا يذكر معه مذكور لكن بفضل منزلته صنع ذلك حتى أكرم عباده وأمر بإكرامهم فمن هذا الباب فاطلب الجاه عنده وحده بأن لا ترى في الوجود إلاّ وجهه واقرأ أبداً/ في حالك هذه: ﴿رَّبُّ ٱلسَّمَاوَاتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا فَٱعْبُدْهُ وَٱصْطَبِرْ لِعِبَادَتِهِ﴾(٢). [٤١١/ب]

فإن العبودية تحت الوجود كله: ﴿هَلْ تَعْلَمُ لَهُ سَمِيًّا﴾(٢).

هل في الوجود من يساميه أو يداني منزلته؟ فإنه أعلم بفضيلة منزلتك ورفع قدرك فكثر ذلك منه ومن فضله فعليه يعود الثناء والمدح والحمد والشكر لا إلى أحد سواه.

وإن ابتلاك بخمول أو سكون أو ذل في الدنيا ورأيته منه فذلك زيادة في رفعتك في الآخرة لصفات نفسك المتكبرة فاشكره فذلك كله خير ولينبهك على أنه ليس في الوجود من يجب له التقدم على شيء إلا وهو: ﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلاَّ وَجْهَهُ﴾(٣).

فافهم فهمنا الله وإياك فإن هذا يميط عنك طلب الجاه الدنياوي المذموم الجامع للصفات المؤذيات المهلكات النفسانية الصادّة لك عن الوصول إلى معرفة ربك وملاحظتك لوجهه الكريم.

فصــــل

وأما الضرب الثاني من حب الدنيا الجامع الذي هو حب الشهوات فمثله كالشجرة

---

(١) جاءت العبارة في الأصل: الذي العرش بما حوى من الخدمة فغيرت العبارة على النحو السابق ليليق الكلام بعظمة الله سبحانه.

(٢) سورة مريم (الآية: ٦٥).

(٣) سورة القصص (الآية: ٨٨).

أصلها الذي هو لحب في القلب وتفرعت أغصانها الجوارح البدنية عن خارج كلما قطعت أغصانها العقول الزاحمة بالكف عن المحظورات تشاب من أصلها الداخل فروع طلب المباحات الحلال.

فإن قلمت الأغصان بتقصيرها الذي هو الاقتصار على ما لا بد منه وإلا/ طالت عند [٤١٢/أ] فعل هذا وتشعبت في كل ناحية واتسعت إلى طلب الإسراف حتى تقبح صورتها وتجر إلى المحظورات فمن أعطي قلع الأصل فهو الذي غرسة الخلة في قلبه تفرعت على جوارحه أغصانها: ﴿ذَٰلِكَ فَضْلُ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ﴾[١].

واعلم أن الحكمة صورة محكمة متقنة في أحسن تقويم هذه صورة الحكمة في كل شيء. والحكمة علم[٢] محكم وعمل متقن. فالعلم في القلب والحكمة عمل على الجوارح.

وتفسير معنى الحكمة المتقدم هو وضع الأشياء في مواضعها اللائق بها التي إن أزيلت عن تلك المواضع صارت سفهاً وعادت عبثاً لأن الحكمة كما تقدم منضدة في غاية التنضيد والترتيب. وضدها: الهوى واللعب.

فإذا فهمت هذا من صورة الحكمة علمت أن الإنسان خلق في الدنيا ليعمل للّه وللآخرة التي ينقل إليها لا ليعمل للدنيا.

فأمر العبد أن يجعل حركاته كلها وسكناته في الدنيا للآخرة وللّه على ما أمره الحكيم سبحانه والحكيم لا يأمر إلاّ بوضع الأشياء مواضعها فإذا فعل الإنسان ذلك كانت حركاته في الدنيا ليستعين بها غي أموره للآخرة فصارت حركاته وسكناته كلها للآخرة فهو سالك على سبيل الآخرة لأنه لم يخرج عنها وإن كانت حركاته الدنياوية للدنيا وتمتع النفس فيها زل عن طريق الآخرة في حركاته وسكناته فتاه/ في سبيل الهوى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِي كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ﴾[٣]. [٤١٢/ب]

ولذلك قد تجد الإنسان الحكيم الذي يسعى في طلب دنياه للّه والآخرة يحبه الله لأنه في سبيل الله إن الله يحب المؤمن المحترف أبا العيال لأجل طلبه الحلال والكف عن طلب التكاثر والإسراف الذي لا يحب الله: ﴿وَكُلُواْ وَٱشْرَبُواْ وَلَا تُسْرِفُوٓاْ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُسْرِفِينَ﴾[٤].

---

(١) سورة الحديد (الآية: ٢١).
(٢) في الأصل: على. وهو تحريف.
(٣) سورة الشعراء (الآية: ٢٢٥).
(٤) سورة الأعراف (الآية: ٣١).

وقد يجد الإنسان أيضاً في عمل ديني طلب علم أو زيادة عبادة ونيته أن يكرم بذلك ويلي حظةً من الحظظ في الدنيا أو يثنى عليه في الدنيا أو يعطى عرضاً من أعراض الدنيا فيعود عمله الديني دنيا فأقلب الحكمة سفهاً فهذا الحب الدنياوي سم قاتل قد تصور حب الدنيا وهو ملح أجاج متلاطم الأمواج غرق فيه من الخلق أفواج بعد أفواج: ﴿وَأُشْرِبُواْ فِي قُلُوبِهِمُ ٱلْعِجْلَ﴾(1). أي حب العجل: ﴿كَلَّا بَلْ تُحِبُّونَ ٱلْعَاجِلَةَ﴾(2). والخلق قد سكروا من هذا الشراب لأنه خالط القلوب وخامر العقول: ﴿إِنَّهُمْ لَفِي سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾(3). والسكران غائب ولاه وغافل ولاعب ومتطاول ومتفاخر، وغير ذلك: ﴿ٱعْلَمُوٓاْ أَنَّمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ﴾(4) الآية. ﴿وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ﴾(5)، ﴿أَتُتْرَكُونَ فِي مَا هَٰهُنَآ ءَامِنِينَ﴾(5) إلى قوله: ﴿بُيُوتاً فَارِهِينَ﴾(5) أي حاذقين فيما صنعتم وطلبتم في أمور الدنيا.

[٤١٣/أ] والحاذق:/ هو الكيس: [و: «الكيس](6) من دان نفسه وعمل لما بعد الموت».

فانظر كيف صار(7) حذق أهل الدنيا عيباً وعبثاً وسفهاً لأنه ضد الحكمة وعلى غير سبيلها.

فصل

فإن قلت: فكيف الحيلة في هذا الداء العضال الذي أعيا الأطباء وأنا لا غناء لي عن الدنيا لأن قوامي منها؟

فاعلم أن الحيلة فيها ما ذكرت لك وذلك أنك سائر إلى الآخرة في كل نفس من أنفاسك كالمسافر وعابر سبيل فما أخذت من الدنيا فانو به واعمله للآخرة يصير معك إلى الآخرة ولا يقطعك عن طريق الآخرة وما أردت به الدنيا والهوى فأقلع وتب واستغفر واعمل عمل الحكماء كما قدمت لك.

وأعون شيء لك على ذلك أن تخرج الدنيا من قلبك وتعمره بالذكر لله والدار الآخرة

---

(1) سورة البقرة (الآية: ٩٣).

(2) سورة القيامة (الآية: ٢٠).

(3) سورة الحجر (الآية: ٧٢).

(4) سورة الحديد (الآية: ٢٠).

(5) سورة الشعراء (الآية: ١٢٩، ١٤٦، ١٤٩).

(6) ما بين المعقوفين ساقط من الأصل وأثبته من مصادر التخريج وهي: مسند أحمد (٤/ ٢٤)، السنن الكبرى للبيهقي (٣/ ٣٦٩)، المستدرك (١/ ٥٧)، الحلية لأبي نعيم (١/ ٢٦٧)، فتح الباري لابن حجر (٩/ ٣٤٢)، المعجم الكبير للطبراني (٧/ ٣٣٨)، الصغير له أيضاً (٢/ ٣٦).

(7) جاءت هذه الكلمة مكررة بالأصل.

وبالفكر في الدنيا وتقلبها بأهلها وفنائها وزوالها وتلاوة القرآن وزواجره وتحذيره عن الدنيا حتى تكون معموراً بالذكر والمخاوف والحذر من الدنيا فلا تمكن قلبك من التدبير الدنياوي والتمني لها ومن الأمل الطويل فيها والرغبة فذلك يخرج قلبك من حب الدنيا والاشتغال بها فيكون حذراً خائفاً منها.

وإن كنت متحرفاً فيها وآخذاً لها فإنك إنما دخلت فيها وأخذتها للآخرة وقلبك حذراً منها ومشمراً أطرافه عنها ولا سيما/ الفكر في زواجره وأخباره عن هلاك الأمم الخالية كلها، [٤١٣/ب] وأخبار الرسول ﷺ والنظر والفكر في العالم، ورؤية الفجائع والوقائع والمصائب في الخلق آناء الليل وأطراف النهار فإن ذلك ينفر القلب عن الدنيا والحب لها والشغل بها. وذلك هو إماطة حبها عن القلب ودخول حب غيرها فيه وعمرانه بذكر الآخرة وذكر الله.

ولا بد للقلب أن يكون معموراً فأخرج عمران الدنيا منه وأعمره بغيرها فيكون جسدك في الدنيا وقلبك في الآخرة لأنه معمور بها ولا دواء لها إلاّ هذا الذي ذكرت لك تطهر القلب من جميع المؤذيات وجلاؤه بالذكر والخوف والحذر والفكر وهذه صورة الحكمة علماً وعملاً.

وإنما أمرت أن تكون حكيماً لا سفيهاً وبذلك تنتظم لك الدنيا وتنال ما كتب لك منها وما كتب لك منها اجعله للّه والدار الآخرة فيعود آخره كله ولذلك يقول الله تعالى يوم القيامة عن الدنيا: «ميزوا ما كان لي منها وألقوا سائرها في النار».

فالأكياس الموقنون بهذا الكلام جعلوه هاهنا كذلك جعلوا دنياهم للّه وكرهوا أن يكون شيء منها للنار لأنها تجذبهم إلى النار: «حفت النار بالشهوات»[1]. والشهوات التي حفت بها النار ما لم يكن للّه.

فصـــل

اعلم أنك لا/ تتبين لك صورة ما ذكرت لك بالحقيقة إلاّ بمعرفة الحق والباطن فإذا [٤١٤/أ] عرفتهما تجلت لك الحكمة بصورتها مجلوة فرأيتها في أحسن تقويم.

وذلك أن الحق هو الموجود الثابت الذي لا بد منه ولا يزول وجوده والباطل هو الشيء المتخيل المتوهم أنه موجود وباق فإذا طلبه في آخر أمره تبين لك بطلانه.

(١) جزء من حديث أخرجه مسلم في الصحيح (الجنة المقدمة ١)، الترمذي في الجامع (٢٥٥٩)، أحمد في المسند (٢/ ٢٦٠)، الدارمي في السنن (٢/ ٣٣٩)، البغوي في شرح السنة (١٤/ ٣٠٦)، الخطيب في تاريخ بغداد (٨/ ١٨٤).

فالحق هو الله الباقي والدار الآخرة لأنها باقية أبداً والبقاء فيها حق أبداً والدنيا عرض زائل فتوهم بقائها محال لأنه يمرض ثم يزول فتوهم البقاء في الدنيا باطل والعمل للبقاء فيها باطل وخلود أهلها فيها باطل فخلودها أيضاً هي باطل لأن أرضها وسماءها إذا فني أهلها عنها وفنيت في حقهم وأبقيت تابعاً بعدهم ليسكنها غيرهم وتجري لهم كما لهم فإذا تم خلق بني آدم فنيت بفنائهم فتوهم البقاء فيها وتوهم بقائها والعمل للبقاء فيها باطل.

وأعظم الناس رتبة في هذه المشاهدة المعني بقوله: ﴿فَإِن يَشَإِ ٱللَّهُ يَخْتِمْ عَلَىٰ قَلْبِكَ وَيَمْحُ ٱللَّهُ ٱلْبَاطِلَ[1] وَيُحِقُّ ٱلْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ﴾[2].

والختم هو الطبع وآخر الشيء فمن طبع قلبه بطابع الإيمان وجبله على التصديق بكل حق وأن لا يصدق بوجود الباطل وحصل ذلك له طبعاً طبيعياً حتى لا يقبل سواه فقد ختم على قلبه ألا يقبل سواه/ لأنه انتهى إلى آخر الطبع فلا يقبل سوى الباطل وامحى عنه تصور [٤١٤/ب] الحق بالكلية ولذلك لم يقبل من الرسل أن يدخل في قلوب المطبوعين ذرة من التصديق بالحق فقال الله فيهم: ﴿سَوَآءٌ عَلَيْهِمْ ءَأَنذَرْتَهُمْ﴾[3] بوجود الحق ﴿أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾[3] به لأنهم إنما آمنوا بما أدركت حواسهم من وجود الدنيا والكون فيها فطبعوا على ذلك فانتهى طبع إيمانهم إلى آخره، وآخر الشيء ليس وراء آخره منه شيء فإذا ذكر لهم شيء من الحق الغائب قالوا: ﴿هَٰذَا شَيْءٌ عُجَابٌ﴾[4] [وقالوا][5]: ﴿إِنَّ هَٰذَا إِلَّا ٱخْتِلَاقٌ﴾[6] إلى غير ذلك من ألفاظهم وما بين هذين الصنفين الحقّ طبقات على قدر التصديق واليقين بالحق والباطل حتى يكشف غطاء الظاهر عن الكل فيحق الحق ويزهق الباطل ﴿إِنَّ ٱلْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقًا﴾[7] ﴿لَّقَدْ كُنتَ فِي غَفْلَةٍ مِّنْ هَٰذَا فَكَشَفْنَا عَنكَ غِطَآءَكَ فَبَصَرُكَ ٱلْيَوْمَ حَدِيدٌ﴾[8].

فصــــل

كان رسول الله ﷺ فيما روت عائشة رضي الله عنها كثير التفكير في تعرف الفاني من الباقي وهذا فكر في العالمين اللذين هما الدنيا والآخرة وفي الباقي الحق سبحانه والفاني سواه، وهذا دواماً يقدم ذكره لا دواء له إلاّ ذلك لأن سيد الحكماء مستقل به فاجعل الفكر جليسك وكن قائماً بين/ العالمين حارساً لقلبك أن يدخل فيه تكذيب بالحق وتصديق [٤١٥/أ]

---

(١) جاء بعدها كلمة (منه) وهي زيادة سهو من الناسخ.
(٢) سورة الشورى (الآية: ٢٤).
(٣) سورة يس (الآية: ١٠).
(٤) سورة ص (الآية: ٥).
(٥) زيادة للإيضاح والفصل بين الآيات.
(٦) سورة ص (الآية: ٧).
(٧) سورة الإسراء (الآية: ٨١).
(٨) سورة ق (الآية: ٢٢).

بالباطل المتقدم ذكرهما فهذه صورة الحذر الحارس وإذا كنت كذلك حارساً لم يلج لقلبك شيء من حب الباطل أو خاطر بشيء مؤذٍ إلاّ أمطته من قلبك فلا يكن شغلك إلا الفكر والحراسة وذلك يرجع إلى حراسة القلب والجوارح فكلما لاح في عالم الحس للجوارح الظاهرة محظور[١] محرّم كفّه عنه وغض عن النظر إليه وأماط حبه عن القلب.

وإن لم تمط حبّ ذلك عن القلب انغرس أصل الشجرة في القلب وتطلب تفريع أغصانها على الجوارح فالشأن في قلع الأصل عن غرس الحكمة المتقدم ذكرها فيه.

وإذا علم الله الصدق من مجاهدتك هداك وأعانك وسهل لك الأمر: ﴿وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا﴾[٢].

وهو على ضربين:

سبيل النظر إلى الآخرة، وسبيل النظر إلى الله.

والخلق هاهنا على ضربين:

طالب لثواب الله والدار الآخرة، وذلك سبيل مستقيم وقد أمر الله به لاقيه رضاه.

وطالب لقرة العين بلقاء مولاه والنظر إليه، وذلك الطريق أقوم[٣].

فشرح الله صدر كل واحد منهم وفتح له الطريق إلى مطلوبه بوعده الكريم بقوله: ﴿لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا﴾[٢].

وفي هذا الموضع والمقام خُذل/ من خذل وعُصم من عصم فثبت. [٤١٥/.]

وذلك أنه لما شُرحت صدورهم وفتحت بالعطاء قلوبهم فرحت النفوس بالعطاء وبخروجها من الضيق إلى فسحة التوحيد والآخرة نطقوا بالحكمة وعلم الطريق وفوائد المواهب فخالطوا الناس وأكرموا وتحلوا وأعطوا الدنيا فقبلوا الإكرام والتنحيل والعطاء فمنهم من انخدع ورأى الدنيا كرامة فرجع إلى ما عنه خرج فوثبت نفسه على الدنيا التي خرج منها بقلبه حين أتته وفتنه الجاه والقبول وأحبه ففتن وصار طالباً للدنيا بالآخرة يعطل الأركان والجوارح عن الطاعات وقد بقي معه نطق بالحكمة التي شاهدها فتنة له فزل عن مقامه المتقدم وزهقت قدمه عنه فصار ضحكة للشيطان حين خلط عمل الآخرة بعمل الدنيا وطلبها وهو أقبح من طلب الدنيا.

---

(١) في الأصل: محصور. وهو تحريف.

(٢) سورة العنكبوت (الآية: ٦٩).

(٣) جاءت بالأصل مكررة فحذفت التكرار.

وكذلك كل من طلب علماً وفقهاً من غير هؤلاء الأصناف لينال حظةً من حظظ الدنيا فهو أقبح من طلب الدنيا للدنيا.

قال سحنون[١]: لأن أطلب الدنيا بالدف والمزمار أحب إليّ - أو خير - من [أن][٢] أطلبها بالدين.

ومن طلب الدنيا بالدف والمزمار لم يطلبها للدين وإنما طلبها للهوى.

فالواجب إماطة ذلك كله لأن الله عرض ذلك عليه فتنة للاختبار/ ولابتلاء الخلق كما قال تعالى: ﴿فَأَمَّا ٱلْإِنسَٰنُ إِذَا مَا ٱبْتَلَىٰهُ رَبُّهُۥ فَأَكْرَمَهُۥ وَنَعَّمَهُۥ فَيَقُولُ رَبِّىٓ أَكْرَمَنِ﴾[٣]. [٤١٦/أ]

فعد ذلك كرامة والله قد نص على أنه ابتلاء في أول الآية بقوله: ﴿ٱبْتَلَىٰهُ﴾[٣] ورد قول العبد آخراً بقوله: ﴿كَلَّا﴾[٣] إلى قوله: ﴿حُبًّا جَمًّا﴾[٣].

فإن قلت كيف الحيلة؟ فالحيلة ترك الحيلة والخداع وانتزاع[٤] حب الدنيا من القلب بالكلية.

فإن قلت: كيف يتصور ذلك ولا غنى عنها؟ فالجواب: أن الأنبياء والصديقين كلهم أخذوا من الدنيا وكانوا فيها ولكنهم لم يحبوها بل أخرجوها من قلوبهم ولم يركنوا إليها بل أحبوا مولاهم وركنوا إليه والركون إلى شيئين لا يستقيم: ﴿مَّا جَعَلَ ٱللَّهُ لِرَجُلٍ مِّن قَلْبَيْنِ فِى جَوْفِهِۦ﴾[٥].

فأورثهم الله بكرمه مقام التمكين بأن كانوا آخذين تاركين ومصاحبين للأشياء فاقدين لها.

---

(١) هو: أبو سعيد عبد السلام بن حبيب بن حسان الحمصي الأصل، المغربي القيرواني المالكي الزاهد. الفقيه. القاضي صاحب المدونة المشهور بسحنون لذكائه. وسحنون اسم طائر بالمغرب يوصف بالفطنة، والتحرز. وقد انتهت إليه رئاسة العلم بالمغرب وتفقه به عدد كبير ومن أقواله المأثورة عنه أيضاً: أكلٌ بالمسكنة ولا أكل بالعلم. ومحب الدنيا أعمى لم ينوره العلم. ما أحد من باع آخرته بدنيا غيره إلاّ المفتي. سرعة الجواب بالصواب أشد فتنة من فتنة المال. وقد توفي رحمه الله لثلاث خلون من رجب سنة (٢٤٠) وله (٨٠) سنة وانظر ترجمته في: سير أعلام النبلاء (١٢/ ٦٣)، الوفيات (٣/ ١٨٠)، ترتيب المدارك (٢/ ٥٨٥)، الديباج المذهب (٢/ ٣٠).

(٢) ما بين المعقوفين زيادة ليست من الأصل.

(٣) سورة الفجر (الآية: ١٥، ١٦، ١٧، ٢٠).

(٤) جاءت في الأصل: واختراع. وهو تحريف.

(٥) سورة الأحزاب (الآية: ٤).

هذا في الأشياء التي هي أرفع من الدنيا فكيف بالدنيا؟ كما أخبر النبي ﷺ في قوله: «لو كنت متخذاً خليلاً لاتخذت أبا بكر خليلاً». وأبو بكر خليله وحبيبه في السفر والحضر ودنيا وآخرة وموتاً وحياة.

ثم قال عليه الصلاة والسلام: «ولكن صاحبكم خليل الله»[1].

فأخبر عن اشتغال قلبه بالله بتمكين الله له حتى لا يقطعه غيره عنه فهو مع ذلك الغير، وكذلك كان مع نسائه وأمته ومع وصائف الشرح وفي/ القتال والحروب يخالط الأشياء [٤١٦/ب] ويصاحبها ولا تشغله ولا يقطعه هذا كله عن الشيء المحبوب المكرم.

وأما الدنيا فأقل رتبة من هذا وأقل بل ينبغي للإنسان أن يجعلها مقام العدو القاطع وينفر عنها بقلبه فيأخذها ويلابسها ويتصرف فيها إذا احتاج إلى ذلك وقلبه نافر عنها فإن سطع للقلب جمال بريقها وبهجتها، والجمال محبوب، فليتذكر عاقبتها وباطنها والخروج منها فإنها بالضد في الباطن والاستعانة في هذا كله بالله بأن يتضرع إليه في كل وقت أن يمحو عن قلبه حبها ويثبت في قلبه حبه فإن الله يمحو ما يشاء.

واعلم أن الحب سبب الاسترقاق، والرق ضد الحرية وقد أمر العبد أن لا تسترقه الدنيا ولا يكون عبداً لها بل قد استخلف فيها وجعلت رقاً له وخادمة.

وقد يحب المولى رقيقه وعبيده لكن حب الملك والحكمة والرحمة المؤيدة فهم المشتغلون بخدمته والقائمون بحقوقه والخادمون له لا حب الهوى حتى ينزل عن مقام سيادته إلى مقام عبده فيعظمه ويرفعه على نفسه ويعبده. «تعس عبد الدينار والدرهم»[2]. الحديث إلى آخره.

فإماطة حب الدنيا من القلب يميط جميع المؤذيات المهلكات/ من جسد ومن غير [٤١٧/أ] ذلك مِن جميع المؤذيات لأن القلب قد تفرغ للّه واستعبد له واسترقه الملك الحق.

---

(١) أخرجه البخاري في الصحيح (١٢٦/١)، مسلم في الصحيح (فضائل الصحابة ب ١ رقم ٢: ٧)، الترمذي في الجامع الصحيح (٣٦٥٩)، ابن ماجة في السنن (٩٣)، أحمد في المسند (٣٧٧/١)، البيهقي في السنن الكبرى (٢٤٦/٦)، الطبراني في الكبير (٢٧٨/٣)، أبو نعيم في الحلية (٣٤٣/٣)، الخطيب في تاريخ بغداد (١٣٤/٣).

(٢) أخرجه البخاري في الصحيح (١١٥/٨)، ابن ماجة في السنن (٤١٣٥)، البيهقي في السنن الكبرى (١٥٩/٩)، الخطيب في تاريخ بغداد (٥٣/٨)، البغوي في شرح السنة (٢١٦/١٤)، ابن عدي في الكامل (٧١٤/٢)، الهيثمي في مجمع الزوائد (٢٤٨/١٠).

والخلق مأمورون كلهم بهذا فإذا لم تجد نفسك هكذا فعليك بالتوبة والاستغفار والإماطة والتفرغ بالقلب من الدنيا واسْعَ له بالحكمة والذكر والفكر والمجاهدة فإن تلك الإماطة الكبرى والتطهير الأكبر طهارة موضع نظر الله وهو القلب وفي ترك التطهير للقلب والإماطة للمؤذيات عنه، وفي تمكين الحب للدنيا في القلب وترك النفر عنها وتمكينها من القلب سر عظيم من أسرار الآخرة، ولا يحتمل كتبه في الأوراق وهو معنى قوله عليه الصلاة والسلام: «إنما هي أعمالكم ردّ عليكم»(١).

وقول الله عز وجل: ﴿وَوَجَدُواْ مَا عَمِلُواْ حَاضِراً﴾(٢). [و]: ﴿وَمَا عَمِلَتْ مِنْ سُوٓءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُۥٓ أَمَداً بَعِيداً﴾(٣). واقرأوا قول الله عز وجل: ﴿مَا هَـٰذِهِ ٱلتَّمَاثِيلُ ٱلَّتِيٓ أَنتُمْ لَهَا عَاكِفُونَ﴾(٤). وافهم معنى التماثيل.

فعليك بالإماطة والتطهير واستعن بالله جهدك إلى الممات يعنك وترى منه ما لم يخطر لك على بال من النصر والتمكين إن كنت صادقاً.

وقد انتهى بنا الكلام إلى هذا القدر وفي أقل الأشياء كفاية لمن وفق. وهذه أربعة وسبعون شعبة وقد تقدم في الأبواب ما يكون في الباب الواحد شعبتان وأكثر كالخمس في الزكاة والتبري من الحول...(٥)

---

(١) أورده العجلوني في كشف الخفا (١/ ٢٥١)، (٢/ ٧٠).

(٢) سورة الكهف (الآية: ٤٩).

(٣) سورة آل عمران (الآية: ٣٠).

(٤) سورة الأنبياء (الآية: ٥٢).

(٥) سقطت الصفحة الأخيرة من المخطوط والموجود بها تقريباً اسم ناسخها وسنة النسخ ونهاية كلام المؤلف.

وإلى هنا كان التمام من تحقيق هذا الكتاب ونسأل الله العفو والغفران وحسن الختام بالموت على دين الإسلام اللهم آمين.

محققه:

أبو إسلام: سيد كسروي

فهرس موضوعات
كتاب شعب الإيمان
للإمام القصري

الموضوع	رقم الصفحة
مقدمة المحقق	٧
التعريف بالكتاب	١١
ترجمة المؤلف	١٢
منهج التحقيق	١٦
وصف المخطوط	١٧
صور المخطوط	١٩
مقدمة المؤلف:	٢٧
فصل في: ما يجب على العبد معرفة صانعه وفيه عدة أبواب	٢٧
فصل في: النظر والاستدلال في مصنوعات ذي الجلال وفيه عدة أبواب	٣١
فصل في: النظر في المخلوقات على وجه الحكمة وإتقان الصنعة وفيه عدة أبواب	٣٦
فصل في: النظر في الأجساد الجزئية وفيه عدة أبواب	٤٢
فصل في: معرفة النفس والروح وفيه عدة أبواب	٤٦
فصل في: النظر في أمور الباري تعالى وفيه عدة أبواب	٦٢
فصل في: التوحيد وأنه على ثلاث مراتب:	٨٣
توحيد الأفعال	٨٣
توحيد الصفات	٨٩
توحيد الذات	٩٤
الشعبة الأولى: شهادة أن لا إله إلا الله	١٠٥
الشعبة الثانية: الإقرار بأن محمداً رسول الله	١١٠

الشعبة الثالثة : الغسل من الجنابة ١١٤
الشعبة الرابعة : الوضوء ١١٧
الشعبة الخامسة : الصلاة ١١٩
الشعبة السادسة : الزكاة ١٢٦
الشعبة السابعة : صوم رمضان ١٣٥
الشعبة الثامنة : الحج ١٤٠
الشعبة التاسعة : الجهاد ١٥٠
الشعبة العاشرة : الهجرة ١٦٢
الشعبة الحادية عشر : الاستقامة ١٦٤
الشعبة الثانية عشر : الجماعة ١٦٧
الشعبة الثالثة عشر : النصيحة ١٧١
الشعبة الرابعة عشر، والخامسة عشر : الأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر ١٧٩
الشعبة السادسة عشر : العدل ١٨٤
الشعبة السابعة عشر : الأمانة ١٨٩
الشعبة الثامنة عشر : الصدق ١٩٥
الشعبة التاسعة عشر : الوفاء بالعهود والمواعيد ١٩٩
الشعبة الموفية عشرين : كف الأذى ٢٠٤
الشعبة الإحدى والعشرون : البرور ٢٠٨
الشعبة الثانية والعشرون : صلة الرحم ٢١٣
الشعبة الثالثة والعشرون : إكرام الجار ٢١٨
الشعبة الرابعة والعشرون : إكرام الضيف ٢٢٢
الشعبة الخامسة والعشرون : الصمت والعي ٢٢٧
الشعبة السادسة والعشرون : الغيرة ٢٣٦
الشعبة السابعة والعشرون : ترك ما لا يعني ٢٤٣
الشعبة الثامنة والعشرون : التقوى ٢٤٧
الشعبة التاسعة والعشرون : الورع ٢٥٤
الشعبة الموفية ثلاثين : القناعة ٢٦٤
الشعبة الموفية إحدى وثلاثين : الإيمان بالله تبارك وتعالى بالغيب ٢٦٨
الشعبة الثانية والثلاثون : الإيمان بالأسماء والصفات ٢٧٥

الشعبة الثالثة والثلاثون: الإيمان بالأقدار والقضايا الجارية على الخلق ٢٩١
الشعبة الرابعة والثلاثون: الإيمان بالأنبياء والرسل بالقلب ٢٩٧
الشعبة الخامسة والثلاثون: الإيمان بكتب الله المنزلة من عنده على أنبيائه عليهم السلام ٣٠٢
الشعبة السادسة والثلاثون: الإيمان بالملائكة ٣٠٩
الشعبة السابعة والثلاثون: الإيمان بالجن والشياطين ٣١٤
الشعبة الثامنة والثلاثون: الكف عن من قال: لا إله إلا الله ٣١٨
الشعبة التاسعة والثلاثون، والشعبة الموفية أربعين: في النية والإخلاص ٣٢٥
الشعبة الحادية والأربعون: التوبة ٣٣٧
الشعبة الثانية والأربعون: الصبر ٣٤٥
الشعبة الثالثة والأربعون: الشكر ٣٥٢
الشعبة الرابعة والأربعون: الزهد ٣٧٣
الشعبة الخامسة والأربعون: التوكل ٣٨٩
الشعبة السادسة والأربعون: الرضى ٤٠٤
الشعبة السابعة والأربعون: الخوف ٤١٢
الشعبة الثامنة والأربعون: الرجاء ٤٢٥
الشعبة التاسعة والأربعون: المحبة لله ٤٤١
الشعبة الموفية خمسين: حب الرسول ﷺ ٤٧٤
الشعبة الحادية والخمسون: الحب في الله ٤٨٨
الشعبة الثانية والخمسون: البغض في الله ٤٩٨
الشعبة الثالثة والخمسون: الحياء ٥٠٤
الشعبة الرابعة والخمسون: حسن الخلق ٥١٣
الشعبة الخامسة والخمسون والسادسة والخمسون: الإحسان ٥٢٤
الشعبة السابعة والخمسون: الذكر ٥٣٦
الشعبة الثامنة والخمسون: العلم ٥٤٣
الشعبة التاسعة والخمسون: اليقين ٥٥٢
الشعبة الموفية ستين: كراهية الكفر بالله ٥٦١
الشعبة الحادية والستون: الإمامة ٥٦٥
الشعبة الثانية والستون: الإيمان بفناء هذا العالم الدنياوي ٥٧٠
الشعبة الثالثة والستون: الإيمان بدار البرزخ وأحواله وبقاء الأرواح فيه ٥٧٦

الشعبة الرابعة والستون: الإيمان بالبعث من القبور وبعث الأجساد مع الأرواح وخروجها من دار البرزخ إلى دار الخلود ٥٨٢
الشعبة الخامسة والستون: الإيمان باليوم الآخر ٥٨٩
الشعبة السادسة والستون: الإيمان بالحساب ووقوعه على حسب أحوال الخلائق ٥٩٣
الشعبة السابعة والستون: الإيمان بالميزان أنه حق وعدل ٥٩٩
الشعبة الثامنة والستون: الإيمان بالشفاعة ٦٠٤
الشعبة التاسعة والستون: الإيمان بالصراط ٦١١
الشعبة الموفية سبعين: الإيمان بالحوض المورود حوض محمد ﷺ ٦١٦
الشعبة الإحدى وسبعون، والثانية وسبعون: الإيمان بالجنة والإيمان بالنار ٦٢٢
الشعبة الثالثة والسبعون: الإيمان بالنظر إلى وجه الله الكريم ٦٢٨
الشعبة الرابعة والسبعون: إماطة الأذى عن الطريق ٦٤٢